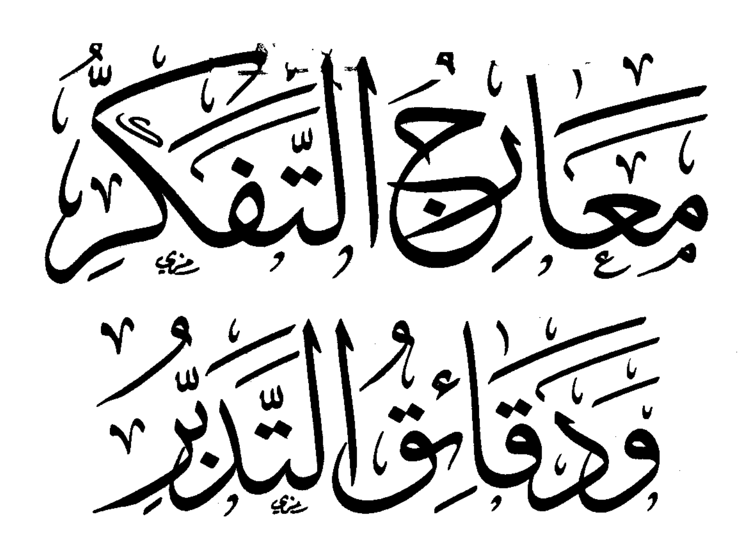


تفسير تدبري للقرآن الكريم بحسب ترتيب النزول
وفق منهج كتاب «قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل»

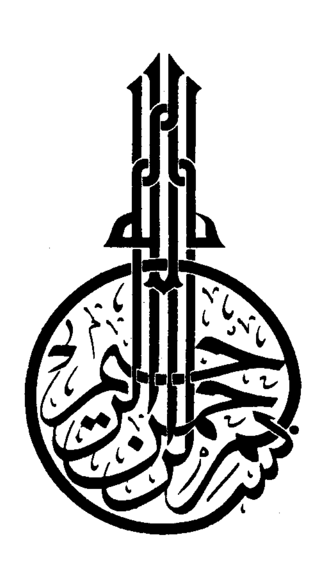
المجلد الخامس

تفسير سور

تابع تفسير سورة الأعراف (٣٩)
من الآية (١٧٢) وحتى آخر السورة وملاحقها
وتفسير سورة الجن (٤٠) وملاحقها

عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني

دار القلم
دمشق




معارج التفكر
ودقائق التدبر

الطَّبْعَةُ الأُولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

تُطلبُ جميعُ كتبُنا مِنْ :
دَارُ القَلمِ - دمَشق : ص.ب : ٤٥٢٣ - ت : ٢٢٢٩١٧٧
الدّارُ الشّاميّة - بيروت - ت : ٦٥٣٦٥٥ / ٦٥٣٦٦٦
ص.ب : ٦٥٠١ / ١١٣

توزّع جميع كتبنا في السّعوديّة عن طريق
دَارُ البَشير - جدّة : ٢١٤٦١ - ص.ب : ٢٨٩٥
ت : ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

(١١)
التدبر التحليلي للدرس السابع من دروس السورة وهو الآيات من (١٧٢ ـ ١٧٤)

قال اللَّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

القراءات:

(١٧٢) • قرأ نافع، وأبو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر، ويعقوب، [ذُرِّيَاتِهِمْ] بالجمع.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [ذُرِّيَّتَهُمْ] بالإفراد.

والقراءتان وجْهان عَربيّانِ متكافئان، لأنّ لفظ «ذُرِّيَّة» بالإفراد اسْم جنْس، وبإضافته إلى ضمير بني آدم دلَّ علَىٰ كلّ ذُرِّيَّتهم، فتساوى في الدّلالَةِ هُنَا الإفرادُ والْجَمْع.

(١٧٢ ـ ١٧٣) • قرأ أبو عمْرو: [أَنْ يَقُولُوا] ـ [أَوْ يَقُولُوا] بضمير الغائبين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَنْ تَقُولُوا] ـ [أَوْ تَقُولُوا] بضمير المخاطبين.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، ففي الخطاب يُواجِه اللَّهُ عزّ وجلّ مُنكري رُبوبيّته جلّ جلالُه، وفي الحديث بالغيبة يخاطب الله عزّ وجلّ

المؤمنين، فيُعَلِّمُهُمْ طريقةً من طرائق إقناع المنكرين، ويُنَبِّئُهُمْ بما يُقَوِّي إيمانهم، ويحُذِّرُهم من الإنكار والجحودِ مستقْبلاً.

تمهيد:

هذا دَرْسٌ يَتَعَلَّقُ بفِقْرَةٍ مُهِمَّةٍ من تاريخ ذُرِّيَّةِ بني آدم، وهُمْ في مَرْحَلَةِ التكوُّن الذَّرّيّ، إذْ كَانُوا فِي ظُهُورِ آبائِهِم، فاسْتَخْرَجَهُمْ اللَّهُ رَبّهم، وأعْطَاهُمْ مَلَكَةَ الْوَعْي، وإدْرَاكِ الخطاب بما يَفْهَمُونَ، وأشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أنفُسِهم قائِلاً لَهُمْ: ألَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قالُوا تِلْقَائِيًّا وانسِجاماً مَعَ الفِطْرَةِ الَّتِي فَطَرَهُمْ اللَّهُ عليها: بَلَىٰ شَهِدْنا أنت رَبُّنَا، أي: أنْتَ خالِقُنَا وَمُمِدُّنا بِعَطَاءَاتِ رُبُوبيّتِك، والمتصرِّف فينَا بتصَارِيفِكَ، ما أَبقيتَنَا في الوجود على اخْتِلافِ مراحله، مُنْذُ النَّشْأَةِ الأولَىٰ في عَالَم الذَّرَّاتِ، حتَّىٰ البقاء الأبديّ الّذي تقضيه لَنَا.

وأُلْحِق بهذَا الدَّرْسِ آيَةٌ فَاصِلَةٌ تُبَيِّنُ سُنَّةَ اللَّهِ في بيانه في كتابه، الْقَائِمَةِ على تَفْصِيل الآياتِ إلَىٰ أجْزَائِها، والتعريفِ بها، في أماكِنَ مختَلِفَةٍ من السُّوَر.

إنّ الفطرة التي فطر الله النّاس عليها من الاعترافِ للرَّبّ الخالِقِ الواحِدِ الأحَدِ برُبُوبيتِهِ لهم، والإذْعَان لَهُ بهذا الحقّ، قَدْ أشْهَدَ اللَّه به الناسَ على أنفُسِهم وهم في مَرْحَلَةِ عالَم الذَّرّ، وهُمْ خالُونَ مِنْ شهواتِ الحياة ونَزَعَاتها ونَزَغَاتِها، قبْلَ أَنْ يُوصِلَهُمْ بعَمَلِيَّاتِ الخلْقِ إلى مَرْحَلَةِ حَيَاةِ الابْتِلاءِ، مزَوَّدِين بالأهواء والشهوات، والنزعَاتِ والنَّزَغَاتِ، والإرادة الحرَّة، والْقُدْرَةِ علَىٰ كَسْبِ الْخَيْرِ، واكْتِسَابِ الشرّ.

وَكان ذلك الإشهادُ بصُورَةٍ أَخبَرَنَا الله عنها فِي كتابه المنَزَّل، بَعْدَ أن لم يَبْقَ لَهَا في ذاكراتِنَا صُوَرٌ تُدْرَكُ، لَكِنْ بَقِيتْ أدِلَّةُ المشْهُودِ بِهِ فِي عُقُولِنَا المفكِّرَة، وبَقِيتْ خُيُوطٌ تَشُدُّنَا إِلَيْهِ فِي مَشَاعِرِ إحْسَاسَاتِنَا الداخِلِيَّةِ العميقة، الّتي تتحَرَّكُ بِهَا قُلُوبُنَا، وتَجْذِبُنَا نَحْوَهُ عِنْدَ اضْطِرارِنا، وعِنْدَ حَاجَاتِنَا

الْمُلِحَّة، الَّتِي لاَ نَجِدُ أسباباً لتحقيقها غيْرَ اللُّجوءِ إلَىٰ الْقُوَّةِ الغَيْبيَّة الكُبرَىٰ، الْعَلِيمةِ الحكِيمَةِ الرَّحِيمَةِ القَدِيرَةِ علَىٰ كلّ شيْءٍ.

ولَيْس من الْعَقْل والرُّشْدِ أن نسْتَبْعِدَ هٰذا، فَمُعْظَمُ مَا جَرَىٰ لَنَا في طُفُولَتِنا، وكثيرٌ ممّا جرَىٰ لنا ونحن أحْدَاثٌ مُمَيِّزُونَ قَدْ نَسِيناهُ، ويُخْبِرُنَا عَنْهُ أَهْلُونَا والَّذِينَ كَانُوا مُشْرِفِينَ علىٰ تَرْبِيَتِنَا، فَنَحْنُ نُحدِّث بِهِ رِوايَةً عَنْهُمْ.

وبَعْضه نَتَذَكَّرُهُ تَذَكُّراً باهِتاً، وبعْضُهُ نَتَذَكَّرُهُ وفيه مقدارٌ غيْرُ كثيرٍ مِنَ الْجَلاءِ، وبَعْضُهُ نَتَذَكَّرُهُ جَلِيًّا.

ونُصَدِّقُ ما يُحَدِّثُنَا بِهِ أَهْلُونا عَنْ طُفُولَتِنا، وما يُحَدِّثُنَا بِهِ مَنْ كانُوا مُشْرِفين علىٰ تَرْبِيَّتِنَا، وكثِيرٌ منْهُ قد اكْتَسَبْنَا به معارِفَ وعُلُوماً، وصَارتْ هذه المعارفُ والْعُلُومُ أجزاءً من ذواتِ عُقُولِنَا وأفكارنا، وفي مَهاراتِ أعضائنا.

لقد تعلَّمْنا اللّغة الّتي نتحدَّثُ بها، وحِينَ بدأنَا تَعَلُّمَها كُنَّا شاهِدِينَ كُلَّ مَرْحَلَةٍ من مراحِلها، لكنَّنا بَعْد أن كَبِرْنَا نَسِينَا كُلَّ هٰذِهِ المراحِلِ الَّتي عِشْناها وَشَهِدْناها، وبَقِيَتْ لدَيْنَا آثارُها وثَمَرَاتُها، فالملَكَةُ البيانيَّة، ومَحْفُوظاتُنَا من الكَلِمَاتِ ثَمَرَةُ تِلْكَ المراحلِ.

أَفَنُنْكِرُها لأنّنا نَسِيناها؟!

أَفَنُكَذِّبُ من يُحدِّثُنَا عَنْها لأَنَّها مُسِحَتْ من ذاكراتنا، أَوْ طُوِيَتْ في أَعْمَاق تلافِيفِها؟!

لَوْ لم يُحَدِّثْنَا أَهْلُونَا وَمُرَبُّونا عنها، لكان عَلَيْنا أنْ نُثْبِتَها بِدَلِيلِ آثارها فينا.

كذَلِكَ نَقُولُ فيما أخبرنا الله عزّ وجلَّ خالِقُنَا وَرَبُّنَا عَنه، من أَنَّهُ أَشْهَدَنَا على أَنْفسِنا بأنه رَبُّنَا، أي: خالِقُنَا ومُمِدُّنَا بعطاءات رُبوبيته دواماً، مُنْذُ كُنَّا في مَرْحَلَةِ عالَم الذرّ، من مراحِل بدْءِ تكْوِيننا، وهي غير مراحِلِ عَوالم التحرُّكِ من الأصلاب، إلى الأرحام، إلى الحياة الدنيا.

وهذه قصّة مضت من تاريخ مراحِل تكويننا، قد أخبرنا الله عز وجل عنها في هذا النصّ.

لقَدْ قَدَّرَ اللَّهُ العلِيم الحكيم القدير، أن يَخْلُق من شاء أن يخلقهم من النّاس بمختلف صُوَرِهِم وصفاتهم، وقضىٰ لكلّ واحد منهم وقْتاً يظهر فيه في عالم الابتلاء، وعُمْراً يعيشُه، وظُرُوفَ امْتِحانٍ يتعرّض لها.

ولمَّا خَلَقَ الله عزَّ وجلَّ آدم عليه السّلام، أوْدَع في ظَهْرِهِ كلَّ ذُرِّيَّاتِه إلَىٰ أنْ تقومَ الساعة، وجَعَلَهُمْ مُتَدَاخِلِينَ بعْضَهُمْ في بعض، على وفْقِ نِظام تناسُلِهم الذي ظهر فيما بَعْدُ.

دلَّنَا علىٰ هذا ما جاء في بيان الرَّسُول ﷺ لهذا الأخْذِ الّذي ذكَرَهُ الله عزّ وجلّ في هذا النصّ، إذْ جاء في بيان الرسُولِ أنَّ اللَّهَ مسَحَ على ظَهْرِ آدم، فاستخرج مِنْهُ كلَّ ذُرِّيَّته، وأشْهَدَهُمْ على أنْفُسِهم.

روَى الإمام أحْمَدُ بسنَدِهِ عن ابْن عباس عن النبي ﷺ قال:

«إنَّ اللَّهَ أَخَذَ الْمِيثَاق مِنْ ظَهْرِ آدم عليه السّلام، بنُعْمَانَ يَوْمَ عَرَفَةَ، فَأَخْرَجَ مِنْ صُلْبِهِ كُلَّ ذُرِّيَّةٍ ذَرَأَهَا[١]، فَنَثَرَهَا بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ قُبُلاً[٢]، قَالَ: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَىٰ شَهِدْنَا».

وجاءَ هذا الحديث موقوفاً على ابْنِ عبّاس، فيما روَى النَّسائي، وابْنُ جَرِيرٍ، وابْنُ أبي حَاتِم، والحاكم في مُسْتَدْرَكِهِ، وقال: صحيح الإسناد، وكذا رواه غيرهم.

وقال الضَّحَّاكُ بْنُ مُزاحِمٍ: حدّثَنِي ابْنُ عبّاس:

«إنَّ اللَّهَ مَسَحَ صُلْبَ آدَمَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ كلَّ نَسَمَةٍ هُوَ خَالِقُهَا إلىٰ يَوْمِ

---

(١) ذَرَأها: أي خلقها.
(٢) قُبُلاً: أي: مُوَاجَهَةً وعِياناً.

الْقِيَامَة، فأَخَذَ مِنهُمْ المِيثَاقَ أَنْ يَعْبُدُوه، ولاَ يُشْرِكُوا بِهِ شيئاً، وَتَكَفَّلَ بالأَرْزَاقِ، ثُمَّ أَعَادَهُمْ في صُلْبِهِ، فَلَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ، حتّىٰ يُولَدَ مَنْ أعْطَىٰ الْمِيثَاقَ يَوْمَئِذٍ، فَمَنْ أَدْرَكَ مِنهُمُ الْمِيثَاقَ الآخَرَ فَوَفَّىٰ بِهِ، نَفَعَهُ الْمِيثَاقُ الأوَّل، ومَنْ أَدْرَكَ المِيثَاقَ الآخَرَ فلَمْ يُقِرَّ بِهِ لم يَنْفَعْهُ الْمِيثَاقُ الأَوَّل، ومَنْ ماتَ صَغِيراً قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَ الْمِيثَاقَ الآخَرَ، مَاتَ عَلَىٰ المِيثَاقِ الأَوَّل علىٰ الفِطْرَةِ».

أقول: الميثاقُ الآخر هو ميثاقُ الدُّخولِ في الإسلام، بإعلان، «لاَ إِلَهَ إلاَّ الله» في حياة الابتلاء، والْعَهْدِ على الالْتِزام بمقتضاها.

وما جاء موقوفاً على ابْنِ عباسٍ في هٰذا، لا يُقَالُ من قِبَلِ الرأي، فَلَهُ في الراجِحِ حُكْمُ الحديثِ المرفُوع إلى رسولِ الله ﷺ.

التدبّر:

قول الله عزّ وجل:

● ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ... ﴿١٧٢﴾﴾.

[إِذْ]: ظرف زمان بمعنى «الحين» وهو معمول لفعلٍ محذوف تقديره، [اذكر].

أي: وضعْ في ذاكِرَتِك أيُّها الصَّالِحُ لتلَقّي هذا النَّبأ حينَ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّاتهم.

والمعْنَىٰ أَخَذَ من ظَهْرِ كلِّ واحِدٍ منْهُمْ ذُرِّيَّته، ونَفْهَمُ كيفَ كَانَ هٰذا حين نُدْرِكُ أَنَّ مُصَغَّرَ كلِّ إنْسَانٍ قَدْ أَوْدَعَ اللّهُ في ظَهْرِهِ مُصَغَّرَاتِ كلِّ مَنْ سيَخْرُجُ من نَسْلِه، وتَتَسَلْسَلُ الظُّهُور والمصَغَّراتُ في كلٍّ مِنْها، مُتَداخِلَةً بعضها في بَعْضٍ، حتّىٰ آخِرِ نَسْلٍ من النّاس.

وليس هذا مِمَّا يُسْتَبْعَدُ على قُدْرَةِ اللّهِ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ فقد

اكْتَشَفْنَا فِي عَصْرِنا الحاضِرِ مِنَ المصَغَّراتِ الذَّرِّيَّةِ المتداخِلَة ما لو انْتَشَرَ وكَبُرَ بخصائِصِهِ لمَلأَ العالَمَ، وقُدْرَةُ الله أعْظَمُ وأجَلّ.

إنَّ خَلْقَ اللَّهِ المتقَنَ خَلْقٌ مُدْهِشٌ مُحيّر، سواءٌ فيما أتْقَنَ مِنَ المصَغَّراتِ الّتي قَدْ يجمعُ مِقْدَارُ رأس الإبرَةِ مِنْها، عشراتِ مَلايين الْوَحَدَاتِ ذواتِ الصفات الخاصة، الَّتي لو كُبّرَتْ لكانت خَلْقاً مُدْهِشاً. أم فيما أتْقَنَ ـ جَلَّ جَلاَلُهُ ـ من المكبَّرَاتِ اللاَّتِي لا يَسْتَطِيعُ الوهْمُ إدْراكَ مَدَاها.

والمراد بالأخْذِ هُنا القبضُ والاستخراجُ من مُسْتَقَرِّ أصلاب الذكور، للذّرّيّة الإنسانيّة كلّها، المقدّر إيجادُها في أزمانها المحدّدة لظهورها في حياة الابتلاء على هذه الأرض.

قول الله تعالى:

● ﴿وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ . . . ﴿١٧٢﴾﴾.

أي: جَعَلَهُمْ يَشْهَدُونَ على أنفُسِهِمْ بأنَّهُ رَبُّهُمْ، خَالِقُهُمْ ومُمِدُّهُمْ بِعَطَاءاتِ رُبُوبيَّتِهِ مَا دَامُوا في الوجود، ومُهَيْمنٌ علىٰ كلِّ شيءٍ فيهم.

وهٰذا يَدُلُّ علىٰ أنَّهُ ـ جَلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ قَدْ عَرَضَ عَلَيْهِمْ ما شَاهَدُوا به أفْعَالَ رُبُوبيَّته لَهُمْ، فلمَّا شاهَدُوها شَهِدُوا بأنَّهُ ربُّهُمْ، ويَدُلُّ أيضاً على أنه مَنَح مُصَغَّرات ذُرِّيَّةِ آدم حينئذٍ وَعْياً إدْراكيًا لفهم الخطاب، ولفهم معنى الرُّبوبيّة، ولِفَهْمِ مَعْنَىٰ الإقرار والشهادَة على أنفسهم، وبعد ذلك أشهدهم على أنفسهم.

﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ﴾: استفهام تقريريٌّ عَنْ نَفْيِ رُبُوبِيَّتِهِ لهم، وجَوابُهُ في حَالَةِ إثبَاتِ الرُّبُوبيَّةِ يكون بحرف «بَلَىٰ» إذْ هو حرْفُ جواب يختصُّ بالنَّفْي، ويُفيدُ إبطالَهُ وإثباتَ نَقِيضِه، ولا يَصْلُح في هذا الاستفهام ولا في أمثاله الجوابُ بحَرْفِ «نَعَمْ» لأنَهُ يَدُلُّ عَلَىٰ الإقرار بنَفْي رُبُوبيَّتِهِ لهم، فكأنَّهُمْ قالُوا: نعم لسْتَ بِرَبِّنا، وهٰذا نَقِيضُ مَا أشْهَدَهُمْ عليه.

﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾: أي: أجابُوا بإبطالِ نَفْيِ رُبَّيتِهِ لهم، وإثْبَاتِ نَقِيضِهِ، وهو رُبُوبِيَّتُهُ لهم، وأعْلَنُوا أَنَّهُمْ قَدْ شَهِدُوا عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ مُعْتَرِفِينَ بأنَّهُ جلَّ جلالُهُ هو رَبُّهُمْ، أي: بَلَىٰ، أنت رَبُّنَا، ونَشْهَدُ بهذا على أنفسنا.

أَمَّا تفصيلُ كيْفَ أَشْهَدَنَا علىٰ أنفسنا، فقِصَّةٌ من الْغَيْبِ عنَّا، بَعْدَ أنْ نَسِينَاها، فَهِيَ مطْوِيَّةٌ في أعْمَاقِ ذَاكِرَاتِنَا، الَّتِي لا تُدْرِكُ رُؤيَتُنَا الحاضِرَةُ مِنْها إلاَّ القليل مِنْها.

لكِنَّ خَبَرَ اللَّهِ عزّ وجلّ عَنْ حُدُوث هذا الأَمْرِ، ونَحْنُ في مرحَلَةٍ من مراحِلِ أطوار وجُودِنا خَبَرٌ حقٌّ لاَ رَيْبَ فِيه، وقَدْ بَقِيتْ لَدَيْنَا آثارُ هذا الإشْهادِ، وهي الْفِطْرَةُ الَّتِي بِهَا نُدرِكُ الخالِقَ الرَّبَّ جلّ جلالُه، وتَشُدُّنا إلَيْهِ عنْدَ الضَّرُورَةِ، فَنَدْعُوهُ، ونَلْجأُ إلَيْه، وتَشُدُّنَا إلَيْه المشاعر الدّاخليَّةُ النفسيَّةُ والْقَلْبيَّةُ، لنُمَجّدَهُ، ونَحْمَدَهُ، ونُعظّمَهُ، ونَعْبُدَه.

فدليلُ الْعَقْلِ، ودَلِيلُ الفِطْرَةِ النفسيَّةِ والقلْبيَّةِ، ودَلِيلُ الخَبَرِ عن الله الّذي ذَكَرَ الله عزّ وجلّ لنا فيه أنّه أشْهَدَنَا على أنفُسِنَا، إذْ قَالَ لنا في مَرْحَلَةِ الذَّرّ، أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ فَقُلْنَا: بَلَىٰ، شَهِدْنا. كُلُّ هٰذِهِ الْأَدِلَّةِ تُؤَكّدُ أَنّ الإيمان باللَّهِ الخالق الرّبّ، فِطْرَةٌ فَطَرَ اللَّهُ النّاسَ عَلَيْها، وسَوْفَ يَدْعُوهم اللَّهُ يَوْمَ الدّينِ إلَىٰ الشَّهَادَة على أنفُسِهم، فإذَا جَحَدُوا أقَامَ عَلَيْهِمُ الحجَّةَ الدَّامِغَة، ولِلَّهِ الحجّةُ البالغة.

الزمن الملائم لهذا الحدث من تاريخ أطوار وجود بني آدم:

دلَّتْ كلمة [إذْ] الظرفيّة، على أنّ حَدَثَ إخْرَاجِ الذّرّيّة الإنسانيَّةِ وإشْهَادِهَا عَلَىٰ أنْفُسِهَا بِرُبُوبِيَّة الله لَهَا، قَدْ تَمّ فيما مضَىٰ لِكُلّ الذُّرّيَّةِ من بني آدَمَ، حتَّىٰ آخِرِ نَسَمَةٍ تُولَدُ قبْل قِيام السّاعَة.

وبالتفكّر نُدرِكُ أنَّ الزّمَنَ الأفْضَلَ لهٰذَا الإخْرَاجِ، هو الزَّمَنُ الّذي كانَ فيه آدَمُ عليه السَّلامُ حَيًا، قَبْلَ أنْ يُولَدَ لَهُ وَلَدٌ ما، لأنّ أولاد آدم المبَاشِرِينَ

لَهُ قَدْ أُجْرِيَ عليهم حدَثُ هٰذَا الإشهاد، وهُمْ في عالَم الذرّ، قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلُوا مِنْ مُسْتَقَرِّ صُلْبِهِ، إِلَىٰ مُسْتَوْدَع رَحِمِ أُمِّهِمْ حوّاء.

فدلَّ الْبَيان عن طريق اللوازم الفكريَّة على أَنَّ الرَّبّ جلّ وعلا، قد استَخْرَجَ من ظَهْرِ آدم حافِظَةَ ذُرِّيّتِه إلى أن تقومَ السَّاعة.

ودَلَّ أيضاً على أنّ هٰذِه الحافظةَ تَشْتَمِلُ على أكْوانِ أَوْلاَدِهِ المباشِرين، وفي كلّ واحِدٍ مِنْهُمْ أكْوَانُ أَوْلاَدِه، وهكذا تَسِيرُ إِلَىٰ أَكْوَانِ أولادِهم، فأولاد أولاَدِهِمْ، بالتَّسَلْسُل إلى آخرِ ذُرِّيَّةِ آدم.

فنشَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ الذّرّيّاتِ أفراداً، بَعْدَ أَنْ كانَتْ مُتدَاخِلَةً في الظهور، أي: في الأَصْلابِ منها، ضِمْنَ نِظَام مُتْقَنٍ مُذهِشٍ مُحَيِّرٍ للعقول، كوعاءٍ فيه مصغّراتُ أَوْعِيَة، بَعَدَدِ بَنِي آدم، مُنْذُ خَلْقِ آدَمَ، حتَّىٰ آخِرِ إِنْسَانٍ يُولَدُ مِنْ ذُرِّيَتِهِ، وكُلُّ ذَلِكَ موجودٌ ضِمْنَ ظَهْرِ رَجُلٍ وَاحِدٍ هو آدَمُ عَلَيْه السَّلام.

وجاء في بيان الرّسول ﷺ، أَنَّ اللَّهَ أَخَذَ الميثاقَ أنْ لاَ يُشْرِكُوا به شيئاً، وهُمْ في ظَهْر آدم.

أخرج الإمام أَحْمَدُ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسٍ بْن مالِكٍ عن النبيِّ ﷺ قَال:

«يُقَالُ للرَّجُلِ مِنْ أهْلِ النّارِ يَوْمَ الْقِيَامَة، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ مَا عَلَىٰ الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهِ؟

قَالَ: فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ (أي: الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ): قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَن مِنْ ذَلِكَ، قَدْ أَخَذْتُ عَلَيْكَ في ظَهْرِ آدَمَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئاً، فَأَبَيْتَ إلاَّ أَنْ تُشْرِكَ بِي».

قال ابْنُ كثير: أَخْرَجَاهُ في الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيث شُعْبَةَ بِه.

قول الله تعالى:

● ﴿. . .أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (١٧٢)﴾

أي: نُخبركُمْ بهذا الحدَثِ الّذِي جَرَىٰ لَكُمْ، وأَنْتُمْ في طور الْوُجُودِ الذَّرّيّ في ظُهُورِ آبائكم، دَفْعَ أَوْ مَنْعَ أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ القيامَةِ، لَمْ يَكُنْ هذا الحدثُ حَاضِراً في ذاكِرَاتِنَا، فَقَدْ نَسِينَاهُ.

ودَفْعَ أو مَنْعَ أن تقولُوا يَوْمَ القِيامَةِ إنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِين، منْصَرفي الأذهان، إِذَا قُلْنَا لكُمْ لقَدْ أَبقَيْنا آثارَهُ فِي عُقُولِكُمْ أدلَّةً تَدُلُّكُمْ علىٰ أنَّ رَبَّكُمْ هو اللَّهُ الَّذِي لاَ شَرِيكَ له، وأَبْقَيْنَا في نُفُوسِكُمْ وقُلُوبِكُمْ فِطْرَةً تَنْزِعُ بِكُمْ إِلَىٰ هٰذِهِ الحقيقة.

فبهذا الإخبار نَدْفَع ونَمْنَعُ اعتذاركم بالنِّسيان، وندفَعُ ونَمْنَعُ اعتذاركم بالغفلة يوم الدين.

الغفلة: عن الشيء، هي انصرافُ الذّهْنِ عن مُلاَحظتِهِ، ومُراقبته، مع وُجُودِه في مجال الإِدْرَاكِ، أَوْ وُجودِ أدلّتِه، وإمكان إدْراكه بها، لولاَ وجُودُ الصّارِفِ، أو السَّهْوِ الّذِي هو بمثَابَةِ إطباق الجفنَيْنِ على الْعَيْنَيْنِ مع إمكان الرؤية.

إِذَنْ: فلِدَفْع الاعتذار يوم الدّين، بنسيان حَدَث إشهادِكُمْ السابقِ على أنْفسِكُم بأنَّنِي أَنَا رَبُّكُمْ، ولدَفْع الاعْتذارِ بالغَفْلَةِ عن آثار هذا الحدث الباقية في فِطَرِ عقولكُمْ وَنُفُوسِكُمْ وعُمْقِ قُلُوبِكُم، أَخْبِرُكُمْ بِهٰذَا الحدثِ، لِأُوَجِّهَ أنظارَكُمْ إلى آثارِه فيكم، ولأقيم الحجَّة عليكم بأنَّنِي أَخْبَرْتُكُمْ بما شَهِدْتُمْ به على أَنْفُسِكُمْ، إذْ كُنْتُمْ في مَرْحَلَةِ الذَّرِّ من أطوار وجُودِكُمْ، فَكَذَّبْتُمْ خَبَرِي، ولَمْ تَعْبَؤُوا بما أَبْقَيْتُ في فِطَرِكُمْ مِمَّا شَهِدْتُمْ به على أَنْفُسِكُمْ مِنْ آثار.

فدلّ ذِكْرُ الغفلة عن الآثار الموجودة في فِطَرِ العقول والنفوس والقلوب، علَىٰ أَنَّهم يعْتَذِرُونَ قَبْلَها بالنِّسْيَانِ، لكِنّ إِنْزَالَ هٰذا البيان في القرآنِ يدفَعُ الاعْتذار بالنِّسيان، ويَدْفَعُ الاعْتِذَارَ بالغفلَةِ معاً.

وهٰذا من إبداعاتِ الإيجاز القرآني، إذْ يُوجَدُ في المذكور ما يَدُلُّ على المحذوف، مع نظرات التلاؤُم واللوازِم الفكرية، فذِكْرُ الْغَفْلَةِ يلائم آثارَ الإشهاد في العقول والنفوس وعمْقِ القلوب، والإنباء بأصْل الحدث يسْتَدعي عن طَرِيق اللوازم الفكريّة أن يَعْتَذِرُوا بالنّسْيَانِ لو لَمْ يَنْزِلْ به هذا البيان القرآنيُّ.

قول الله تعالى:

● ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾

المبْطِلُونَ: هُم الّذِين يفْتَرُونَ الباطل ـ أو يسْتَمْسكون بِهِ، أو يَعْمَلُونَ بمقتضاه، والباطِلُ المراد هنا هو الشّرْكُ باللّٰهِ ولوازمُهُ.

والمعنى: ونُخبِرُكم بهذا الحدث الذي جرىٰ لكم وأنْتُمْ في مَرْحَلَةِ الذَّرّ من أطوار وُجودِكم، وأبْقَيْنا آثاره في فِطَرِ عقولكم ونفوسكم وقُلُوبكُمْ، دفعَ أَوْ مَنْعَ أَنْ تَقُولوا إنْ أتتْكُمْ بوادِرُ الإهْلاَكِ في الدّنيا: إنّما أشْرَكَ آبَاؤُنا مِنْ قَبْلُ، أي: لَمْ نكُنْ نَحنُ مُخْتَرِعي الإشراك، وَلاَ البادِئِينَ به، إنّما أشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلِنَا، وقَدْ وَرِثْنَا عَنهُمْ عَقَائِدَهُمْ بِتَأْثِيرِ البيئَةِ، وسُلْطَانِ مَوارِيثها الضَّاغِطَة، فَقَدْ كُنَّا ذُرِّيَّةً من بَعْدِهِم مقَلّدين لهم، والناشِئ في بيئَةٍ لا بُدَّ أنْ يَتَأَثَّرَ بالْمَوارِيثِ الفكريّة والاعْتِقَادِيَّة الّتِي يَجِدُها في بيئة آبائه وأجداده.

لكِنّ اعتذَارَهُمْ هٰذا يَدْفَعُهُ ويُسْقِطُهُ، أنْ يُقَالَ لهم: إنَّ الرَّبَّ الخالِقَ لَكُمْ ولآبائِكم، قَدْ أبانَ لَكُمْ في كتابه الّذِي أنْزَلَهُ على رسُوله، أنّهُ أشْهَدَكم وأشْهَدَ آباءَكُمْ وكُلَّ ذُرِّيَّةِ آدم وأنتم في مَرْحَلَةِ الذّرِّ من وجودكم، على أنْفُسِكُمْ بأنّهُ هو وَحْدَهُ رَبّكُمُ الّذِي لا رَبَّ لَكُمْ غَيْرُهُ، فلا إلٰه لكم غيره، وبَعْدَ هٰذا البيانِ الذي نقصُّ عليكم فيه قصّة إشْهَادِكم على أنْفُسِكُمْ يَسْقُطُ اعْتذارُكُمْ بمؤثرات البيئة، ومواريث آبائِكُمُ الشركيَّة، ولا سيما ما في فِطركم

من آثار ما أشْهَدَكُمْ اللّهُ به على أنفُسِكُمْ، فَمَسْؤولِيّتُكُمْ عن إشْراكِكُمْ مسؤولية كاملة.

واستِعْمالُ عبارة: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا﴾ دَلَّتْ على أنَّ اعْتذارَهم الوارد في هٰذِه الآية، إنّما يكون حينما يُشَاهِدُونَ بوادِرَ الإهْلاكِ في الدنيا، عقاباً لهم على شركِهِمْ، إذْ الإهلاكُ هو الإماتَةُ باستئصال شامل، بالمهْلِكات المعذِّباتِ، والهلاكُ هو الموت الذي يَسْتَهْلِكُ وُجُودَ الكائن الحيّ، أمّا عذابُ يوم الدّين فلا مَوْت فيه ولا استِهْلاكَ يعْقُبُه.

وكُلُّ ما اسْتُعْمِلَ في القرآن من مادّة الْهَلاكِ والإهْلاكِ، فَهُوَ في الموت، والعذاب الدُّنيَويّ المميت.

ولم أجِدْ من المفسّرين من تَنبَّهَ إلى هٰذِهِ الفكرة، فوجَّهَ الاعتذارَ في الآيتين (١٧٢ ـ ١٧٣) ليَوْم القيامة، يوم الحساب، وفَصْلِ القضاءِ.

لكِنَّ الفهم الّذي فَتَحَ اللّهُ بِهِ علَيَّ أولَىٰ بالاعتماد، واللّهُ أعلم.

ويُتَمِّمُ مَا جَاءَ فِي هاتَيْنِ الآيتَيْنِ نَصٌّ آخَرُ جاء في سُورَةِ (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾:

كان عَرْضُ الأمانةِ على السّماواتِ والأرض والجبالِ والإنسانِ عَرْضَ تَخييرٍ، بقبول حمل الأمَانةِ، أو عَدَمِهِ، أمّا السماوات والأرضُ والجبالُ، فاخْتَرْنَ عَدَم قبول حَمْلِ الأمانة، ما دام الْعَرْضُ عَرْضَ تخييرٍ لا إلزامَ فيه، ولا عتابَ على الاعْتِذار عن قبول حملها.

وكان إباؤُهُنَّ قبولَ حَمْلِها خوفاً من الانزلاقِ إلى مَخاطِرَ، تُفْضِي بِهِنَّ إلى عذاب الله.

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾: أي: وخِفْنَ وَحَذِرْنَ مِنْ تَحَمُّلِ الأمانَة، وممّا يترتَّبُ على حَمْلِها مِنْ مسؤولية ومُحَاسِبَةٍ وجزاء، لأنَّ حَمْلَها معَ ما فِيه من تكريم وتشريفٍ، يَسْتَلْزِمُ مَنْحَ شروط الامتحان والمسؤولية والتكليف، ويَسْتَتْبعُ المحاسبة، وفَصْلَ القضاء، والجزاء، بالنعيم أو بالعذاب. فالإشفاقُ والخوْفُ من هذا.

أمَّا الإنسانُ فقد اختار حَمْلَ الأمانَة، وأحَبَّ المغامرَةَ والمخاطرة، لكنَّه بَعْدَ حَمْلِ الأمانة، ودُخُوله مَرْحَلَةَ الامْتِحَان، كان في واقعِ رِحْلَتِهِ، الَّتي وُضِعَ فيها مَوْضِعَ الامْتحانِ، ظَلُوماً وَكَانَ جَهولاً، في النِّسْبَةِ العظمىٰ من أفراده، فالحكم على الإنسان بالظلْمِ والجهلِ حُكْمٌ لوحظ فيه أكثر الأفراد.

ظَلُوماً: أي: كَثِير الظُّلْم لنفسه، بارتكابِهِ مَا يَسُوقُهُ إلَىٰ عذاب الله.

جَهُولاً: أي: كثيرَ اختيارِ سُبُلِ الْجَهْلِ الْمَعْرفي، وسُبُلِ الجهلِ السُّلوكي، الَّتي تَدْفَعُ إلى سلوكها الحماقةُ، والأهواءُ الرَّعْنَاءُ، والشهواتُ الطائشات.

ما هي الأمانة التي عرضَهَا الرَّبُّ جلّ جلاله؟:

ونتساءَلُ عن الأمانة الَّتي عرضها الله عزّ وجلّ على السَّمَاوَاتِ والأرض والجبال والإنسان، فأبَتِ السَّمَاوَاتُ والأرضُ والجبالُ أن تَحْمِلَها، وأشْفَقَتْ مِنْ حَمْلِها، وحَمَلَها الإنسانُ؟!

لا بُدَّ للإجابَةِ على هذا السؤال من تحليلٍ للصِّفَاتِ الَّتي تتَّصِفُ بِهَا هٰذِه الكائنات، ولعناصِرِ الأمانة، لإدْرَاكِ الأمُورِ الَّتي جعلَتِ الأرضَ والجبالَ والسَّمَاوَاتِ تأبَىٰ حَمْلَهَا، والَّتِي جَعَلَتِ الإنْسَانَ يَقْبَلُ حَمْلَها، ويَسْتَعِدُّ لتَحَمُّلِ التكْلِيفِ المرافقِ لِحَمْلِها، وتَبِعَةِ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء بعْدَ ذلِك.

إنّ العرض يَسْتَلْزِمُ عقلاً إدراكَ الْمَعْروضِ عليهِ حقيقَةً معْنَىٰ مَا يُعْرَضُ عليه، أي: فَهْمَهُ، والْعِلْمَ به، إذا كان أَمْرُ الْعَرْضِ أَمْراً حَقِيقيًا، لاَ مجازيًا.

ومعلومٌ أنَّ الْفَهْمَ لشيءٍ ما يسْتَلْزِمُ وُجُودَ أداةِ الْفَهْم، أو جِهازَ الْفَهْمِ لَدَىٰ الفاهم، والاسْتِعْدَادَ لإدْراكِ وسِيلَةِ التَّفْهيم.

والإدْراكُ قَدْ يَكُونُ صِفَةً لِلْمَخْلُوقِ دونَ أن تكونَ لَهُ صِفَاتُ الشَّهْوَةِ، والإحْسَاسَاتِ باللَّذَّةِ والأْلَم ونَحْوِ ذَلِكَ، ودُونَ أنْ تَكُونَ لَهُ إرادةٌ واخْتِيَارٌ وقُدْرَةٌ عَلَىٰ تَنْفِيذِ شَيْءٍ مِمَّا يُرِيد.

وهَلْ يُشْتَرَطُ لَهُ نَوْعُ حياةٍ أو لا؟.

أقول: هذا أمْرٌ مِنْ أمُورِ الغيب عَنَّا، ومن الصَّعْبِ علَيْنَا الْبَتُّ بِهِ سلباً أَوْ إيجاباً.

وقَدْ أَخْبَرَنَا اللَّهُ عزّ وجلّ أنَّ كُلَّ شيءٍ يُسَبِّحُ بِحَمْدِه، ولكِنْ لاَ نَفْقَهُ تَسْبِيحَهُمْ، فَهَلْ هذا التَسْبيحُ بدلالَةِ الحال، أَمْ هو تَسْبيح مَعَهُ نَوْعُ إدْراكٍ خَلَقَهُ اللَّهُ للأشياء؟

احتمالان قائمان، والثاني مِنْهُما غَيْرُ مستحيل، واللَّهُ على كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ.

وقد كشفَتْ العلوم الحديثةُ لنَا من خصائِص الخلاَيَا، وأعْمَالِها، وَوَظائِفها، وما تُؤَدِّيه من أعمالٍ متْقَنَةٍ في أجْسَادِ الأحياء، ما يُذْهِشُ العقول، فكأنّ لَهَا إدْراكات، وتَحْمِلُ إنْذَارَاتٍ ورَسَائل، وَتَرْجِعُ بالمطلوب على أحْسَنِ وَجْه، فَسُبْحَانَ الخالِقِ العليم الحكيم، الذي هو على كلِّ شيءٍ قَدِيرٍ.

وبناءً على هذا نقول: حِينَ عَرْضِ الأمَانَةِ على السَّمَاوَاتِ والأرض والجبال، وعلى الإنسان الأوَّل وفِيهِ ذُرِّيَّتُه، أو على الإنسَانِ الشامِلِ لكلّ

أفراده وهم في مَرْحَلَةِ الذّرّ، لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ هؤلاَء قَدْ أَدْرَكُوا ما عُرِضَ عليهم وفَهِمُوه، حتَّىٰ يأبَىٰ حَمْلَ الأمانةِ مَنْ أباه، ويَقْبَلَ حَمْلَهَا مَن قَبِلَهُ.

ويُمْكِنُ أَنْ نُصَوِّرَ هٰذا الْعَرْضَ والحِوارَ الَّذِي جَرَىٰ حَوْلَهُ تَخَيُّلاً، واسْتِنْباطاً مِنْ وَجِيزِ البيان القرآنيّ.

العَرْض: أَتُرِيد أيُّهَا الإنسانُ؟ أَتُرِيدينَ أيَّتُها السماواتُ والأرض والجبال أن تَحْمِلِي الأمانة.

المعروض عليهم: مَا هي الأمانة الَّتي نَحْمِلُهَا؟

العرض: تُجْعَلُ لَكُمْ إرادةٌ حُرَّةٌ، وسُلْطةٌ علىٰ بعض ما يُوضَعُ في ذواتكم من قُوًى وطاقاتٍ وأشياءَ أمَانَةً عندكم، على سبيل الإعارة للانتفاع، أو على سبيل الوديعة، ويُؤْذَنُ لكم بالتَّصرُّفِ فيها بإراداتٍ حُرَّةٍ، وبالتَّصَرُّف فيما حولكم من الكونِ، ممَّا تَصِلُ قُدْراتكم إلى التصرّف فيه، أو إلىٰ مَفاتِيح التصرُّف فيه.

المعروضُ عليهم: هٰذا التَّصَرُّف من صِفَاتِ الخالِقِ المالِكِ، وكيْفَ نتصرّفُ ولَيْسَ لدَيْنَا رغَبَاتٌ، وَلاَ شهواتٌ، ولا حاجَاتٌ، ولا أهواءٌ، ولا نسْتَطِيعُ أَنْ تكُونَ لنَا صفاتُ الرَّبّ الخالِق الحكيم.

العرْض: تخْلَقُ فيكم رَغَبَاتٌ، وشهواتٌ، وحاجَاتٌ، ولذَّاتٌ، وآلاَم.

المعروض عليهم: وهَلْ يُبَاحُ لنَا أن نَتَصَرَّفَ بِإراداتنا الحرَّةِ وفْقَ رَغباتِنَا وَشَهَواتِنَا وحَاجاتنا وأهوائنا، دون مسؤوليّة، ولاَ حسَابٍ ولا عقاب.

الْعَرْض: يُعطَىٰ لَكُمُ التميكنُ من التصرُّف، لكنّ لا على سَبِيل إباحَةِ كُلِّ شَيء.

المعروض عليهم: كيْفَ نتصَرَّفُ إِذَنْ؟.

العرض: يُوجَّهُ لكم الأمر الرَّبَّاني بفِعْل أشياء، وبِتَرْكِ أشياء، على

خلاف رَغباتِكُمْ، وشهواتِكُمْ، وأهوائِكُمْ، وتُبَاحُ لكم أشياءُ لتَلْبِيَةِ مطَالِبِ حاجَاتِكُمْ وشهواتِكُم.

المعروض عليهم: فإذا عَصَيْنا أوامِرَ رَبِّنا ونواهِيَه، فَمَا هو جَزَاؤُنَا؟.

العرض: أنتُمْ إذَنْ مُلاحقُونَ بالمحاسَبَةِ، والقضاء، وتنفيذِ الجزاءِ على اختياركم المخالَفَةَ لأوَامِرِ رَبِّكُمْ ونَواهيه، وعليكم أنْ تتحمَّلُوا عذاب العصيان.

أمّا إذا أطَعْتُمْ واستقَمْتُمْ فإنَّنا نَمْنَحُكُمْ سَعَادَةً أَبَدِيَّة، نُحَقِّقُ لكم فيها من النعيم الخالِدِ ما لا عَيْنٌ رأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ، ولاَ خَطَرَ على قَلْبِ أذكَىٰ المخلُوقات.

المعروض عليهم: هذا تكريم وتَشْرِيفٌ، مقرونٌ بتكليف، ومُسْتَتْبَعٌ بحسَابٍ، وقضاءٍ، وجَزَاء، وَلكِنْ هلْ يبْقَىٰ فِي ذَاكِراتِنَا هٰذا الْعَرْضُ، وهٰذا الحوارُ؟

العرض: لاَ، فهذا العرْضُ وهٰذا الحِوارُ، سَيُطْوَىٰ مِنْ ذَاكراتِكُمْ، وتُطْوىٰ أيضاً هٰذِهِ المعرفَةُ الحاضِرَةُ بخَالِقكُمْ، ويَبْقَىٰ فيكُمْ مَا يَشُدُّكُمْ إلى مَعْرِفَتِهِ، والإيمانِ بِه إيماناً غيبيًّا، وإلىٰ مَعْرِفَةِ الغايَةِ مِن وُجُودِ الأمَانَةِ الكُبْرَىٰ تَحْتَ سُلْطَتِكُمْ، وتُرْسَلُ إليكُمُ الرُّسُلُ، وتُنَزَّلُ إليكُم الكُتُب لتَعْرِيفكُمْ، وبيانِ المطلوب منكم، وإنْذَارِكُمْ وتَحْذِيرِكم، وتَبْشِيرِ مَنْ آمَنَ وأطاعَ مِنْكُمْ.

المعْرُوضُ عليهم: مَا نوْعُ هذا الجزاء؟

العرض: عذابٌ أَبَدِيٌّ أليمٌ بالحريق على الكُفْرِ بالخالِقِ والإشْراكِ به، جحوداً لرُبُوبيّته، أو إلَـٰهيَّتِه، أو الإشراك بهما، وعذابٌ دُونَ ذٰلِك بالعدل على المعاصِي والإساءات.

ونعيم أَبَدِيٌّ على الإيمانِ بالرَّبّ إيماناً غيبيًّا، وعلى الإسلام له. وفي

هذا النعيم درجاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بعضٍ، عَلَىٰ ما يُقَدِّمُ كُلُّ واحِدٍ مِنْكُمْ مِنْ صالحِ الأعْمَال، مع احْتِمال غُفرانٍ وعَفْوٍ عن سَيِّئاتٍ دُونَ الشِّرْكِ، بحَسَبِ مَشِيئَةِ بَارِئِكُمُ الحكيمة.

السَّمَاوات والأرض والجبال: هٰذِهِ مُخَاطَرَةٌ مُخِيفةٌ نَأبَىٰ دُخُولَها وقَبُولَها، ما دام العرضُ تخييراً لا جَبْرَ فيه، ولهذا فإنَّنا نَأبَىٰ حَمْلَ هٰذِهِ الأمانَة.

الإنسان: (ذُو الْعَنَاصر النَّفْسيَّة الّتِي تُحِبُّ المخاطَرَةَ والمغامَرَةَ والسُّلطَةَ تملُّكاً وأمْراً واستعلاءً).

قبلْتُ هذا الْعَرْض، فأنا أَحْمِلُ هٰذِهِ الأمانة الكُبرىٰ، وأتَحَمَّلُ تَبِعَاتها، وتَحْلُو عنْدِي هٰذِهِ المخاطرة، ويَشُدُّني إليها الطَّمَعُ في أن أنَالَ مَقَامَ التكْرِيم، وأبْلُغَ المجْدَ العظيم.

العرض: خُذِ الأمَانَةَ أيُّهَا الإنْسَان، وادْخُلْ رِحْلَةَ الامتحان.

الأشياء الَّتي وضَعها الرَّبُّ جلّ جلاله أمانةً تحت سلطة الإنسان:

بالتفكّرِ المتَعَمّقِ بصَبْرٍ وأنَاةٍ، نُدْرِكُ أَنَّ الأشياء الّتي وضعها الله عزّ وجلّ أمَانَةً تَحْتَ سُلْطَةِ الإنسان، المزَوّدِ بالخصائص الّتي تُؤَهِّلُهُ لحمْلِ الأماناتِ، بُغْيَةَ اختباره في رحْلَةِ الحياة الدُّنيا، هِيَ كُلُّ شيءٍ مادّيٍّ أو مَعْنَوِيّ دَاخِلٍ في ذاتِ الإنْسَانِ، أو خارجٍ عنْ ذَاتِه، ممَّا هُو مُمَكَّنٌ مِنَ التصرُّفِ فيه، بالتَّمْكِينِ الْقَدَرِيِّ الرَّبّانيّ.

وهنا يَرِدُ سُؤال:

وهو، إذا كانتِ الأشياءُ الدَّاخِلَةُ في ذَاتِ الإنسان أمَانَةً عِنْدَهُ أيضاً، كالأشياء الخارجَةِ عَنْ ذَاتِه، فَمَنْ هُو المستأمَنُ؟

أقول: إنَّ للإنْسَانِ هُوِيَّةً دَاخِلِيَّةً في عُمْقِ ذاتِهِ، وهٰذِهِ الْهُوِيَّةُ مُمَكَّنَةٌ

بتَمْكِينِ اللَّهِ وإقدارِه مِنَ التصرُّفِ الإْراديّ بجوارحِهِ الظاهرة والباطنة.

ولهٰذِهِ الْهُوِيَّةِ الَّتي تَحْتَلُّ مَرْكَزَ الْعُمْقِ من ذاتِه، لَهَا الصِّفَاتُ الأَسَاسِيَّاتُ المؤَهِّلاَتُ لتَحَمُّلِ الأَمَانَاتِ، والمسؤوليّات عنها، ومِنْ هٰذِهِ الصفاتِ ما يلي:

(١) الإرادة الحرَّةُ غير المجبُورَة.

(٢) التَّمييزُ بَيْنَ وُجوهِ التَّصَرُّفِ المختَلِفَة، تمْييزاً كافِياً لِتَحْمُّلِ الأمانة، وهي من الملَكَةِ الإدْراكيَّةِ العلميَّة.

(٣) الْقُدْرَةُ على التصرُّفِ بالطاعَةِ وَبالْمَعْصِيَة.

كيف كان حال معظم أفراد الإنسان بَعْدَ دُخولهم رِحْلَةَ الامْتحان:

بعد كلّ ما سبَقَ بيانُهُ يَرِدُ سؤال، وهو، كيف كان حال الإنْسَان بَعْدَ دُخوله رِحْلَةَ الامتحان؟.

ويَأْتِي الجوابُ القرْآنيُّ في الآية: [... **إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** (٧٢)]:

أيْ: إِنَّ مُعْظَمَ أفرادِهِ كانُوا بَعْدَ التجربَةِ والاختبارِ ظَلُومِين جَهُولين.

وقد أثبتَتِ الإحصاءاتُ بَعْدَ التجربَةِ والامْتِحَانِ أَنَّ النِّسْبَةَ العظمَىٰ من الناسِ كانُوا ظَلُومين لأنفسهم، وكانُوا جَهُولين.

وقد سبق التحليل اللُّغَوِيّ لِكَلمَتَيْ «ظَلُوم» و«جَهُول».

فَصَحَّ أَنْ يُدْمَغَ الإنسانُ بوجْهٍ عامٍّ بصِفَتَي أَنَّهُ ظَلُومٌ جَهُولٌ، بَعْدَ حَملِهِ الأمانة ودُخوله رِحْلة الامتحان، لا عنْدَ حَمْلِه الأمانة.

وفِعْلُ «كَانَ» دلَّ على أنَّ وصْفَهُ الذي كشفَهُ الامْتِحانُ، هو أنّه ظَلُومٌ جَهُولٌ، إِذِ الامْتحانُ كاشِفٌ لمَا هو في عُمْقِ الأنفس.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾:

هذه الآية هي بمثابَةِ فَاصلٍ يكْشِف إحدىٰ وظائف القرآن البيانيَّة، للتوقُّفِ قليلاً عنده، قبْلَ المتابعة لاسْتِكْمَالِ عَناصِرِ السّورَةِ الموزّعَةِ على خُطُوطها.

وإذا أخْرَجْنَا هذه الآيَةَ إلى الجانب الأيْسَرِ عن حدّ صفحات السّورَةِ، لإظهار كوْنها بمثابة الفاصل الّذي يَحْسُنُ التَّوَقُّفُ عنده قليلاً، وفَعَلْنا نظير هذا في جزء الآية (٣٢) من السّورة، الّذي قال الله عزّ وجلّ فيه: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾. وفَعَلْنَا نظيره أيضاً في جزء الآية (٥٨) من السورة، الذي قال اللّهُ عزّ وجلّ فيه: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

ثم إذا نظرْنا إلى هذه الفواصل الثلاثة في السورة، ضِمْنَ نِظَام كِتابيٍّ خارجٍ عن الحدود الشمالية لصفحات السّورة، أَدْرَكْنَا سِرَّ الْعَطْفِ في قول اللّهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾

لقد جاء الفاصل الأوّل بعْدَ بيانٍ اشتملَ على آياتٍ فيها تفصيلٌ لقضايا وأحكام، اشتملَتْ على قصة خَلْقِ آدم وأمّهات أحكام الدّين المنزَّلِ عَلَيْهِ، ليَعْمَلَ بِهِ بَنُوه.

ثُمَّ جاء الفاصل الثّاني بَعْدَ عَرْضِ آياتٍ من آيات الله في كَوْنِه، تَهْدِي المتفكّرين إلى طائفة من صفات ربوبيّة اللّهِ في كونه، وأنّهُ لا شريك له، وهي تستلزمُ عقلاً توحيدَهُ في إلَهِيَّتِهِ.

ثم جاء الفاصل الثالث بَعْدَ بَيانٍ طويل اشتملَ على تفصيل لقضايَا وأحكام دينيَّة، مقترنَةٍ بعَرْضٍ لقصَّةِ الرُّسُلِ وأُمَمِهِم في التاريخ قبلَ بعْثَةِ الرسُولِ محمّد ﷺ ونزول القرآن.

إذا جَمَعْنَا هٰذه الفواصل، وتَدَبَّرْنَاها تَدَبُّراً تكامُليًّا، فهِمْنَا منها أنّ الله عزّ وجلّ:

(١) قدْ فصَّل بَعْض آياته في كتابِهِ الْمَجِيد ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢﴾:

أي: لقومٍ يُتَّابِعُونَ مصادر العلم الحق، لاكتساب ما يُهِمُّهم مما كانُوا يجهلون.

(٢) وأنَّهُ قَدْ صَرَّفَ الآيات ﴿لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ۝٥٨﴾ أيْ: يتابعون ما يُذْرِكُونَ، ممَّا يُبَيَّنُ لهم من آلاَءِ اللّٰهِ الَّتي هي من آياته في كونه، بشُكْر الله على نِعْمَه، وجزيلِ فَضْله على عباده.

(٣) وأنَّه قد فَصَّلَ بعض آياتِه في كتابِهِ للخارجين عنْ صراطه المستقيم، لعلَّهُمْ يَعْلَمُونَ، ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾: أي: راغبين في أَنْ يَعْلَمُوا، وفي أنْ يَرْجِعُوا بتأثير ما يكتَسِبُونَ من عِلْم إلى صراط الحق المستقيم، الَّذِي أوْدَعْنَا في قُدْراتهم الفكريَّة مَا يَهْدِيهِم إليه، وأوْدَعْنَا في نفوسهم وقُلُوبهم الفطرة الَّتي تَنْزِعُ في داخِلِهِم إليه، استِحْسَاناً ومَيْلاً وطَلباً، ولا تَصْرِفُهُمْ عنْهُ إلاَّ وساوس الشياطين وتَسْويلاتُهم، ونَزَغَاتُ الأهواء والشَّهواتِ واللَّذَّاتِ العاجلات من مَتاعِ الحياة الدُّنيا.

التفصيل في الأشياء: يكون بتمييز بعَضِها عَنْ بَعْضٍ، لإبْرَازِ حُدودِ كلٍّ منها، فالمعرفة الصحيحة من شُروطها تمْييزُ حُدُودِ عناصِرِها.

فمعنى قول الله عزّ وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝١٧٤﴾.

وكذَلِكَ التَّفْصِيل الَّذِي أجْرَيْنَاهُ في الآيات السابقات من السورة، نُفَصِّلُ الآياتِ في القرآن كُلّه، لِقَوْم يَعْلَمُونَ حتَّىٰ يَعْلَمُوا الحقّ، ولِقَوْم لدَيْهم الاستعداد والرَّغْبَةُ في أن يَشْكُروا، حتَّىٰ يَشْكُرُوا نِعَمَ اللّٰهِ عليهم، ولِقَوْم أخْرَجَتْهُمْ أهواؤهم عن الصراط المستقيم بجَهْلِهِم أو غَفلاَتِهِمْ، لكنَّهُمْ غَيْرُ ميْؤُوسٍ من رُجُوعهم إلى الصّراط المستقيم، فهؤُلاَء نُفَصّلُ لهم الآيات، رغبة في أن يَعْلَمُوا، وأَنْ يَرْجعوا إلى الصراط.

ولمّا كان رُكُوبُ مَرْكب الباطل والضلال خروجاً عن بواعِثِ الفِطْرَةِ في النفس البشريَّة، وموازينِ العُقول الفطرية، كَانَ تَرْكُ الباطِلِ والضَّلالِ، والتزامُ الحقّ والْهُدَىٰ، رجوعاً إلَىٰ جذور الفِطْرَةِ، فقالَ اللّٰهُ عزّ وجل: ﴿... وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

وهذا من الدِّقَّةِ في البيان، لمُلاءَمَةِ الوَاقِعِ النَّفْسِيِّ.

استعراض النصوص المشابهة حوْلَ تفصيل الآيات في القرآن:

لدىٰ استعراض النصوص المشابهة للنَّصَّيْن الواردَيْنِ في سورة (الأعراف) بشأن تفصيل الله عزّ وجلّ للآيات في القرآن، نجد النصوص القرآنية التالية:

(١) بمناسَبة بيان أنَّ الله عزّ وجلّ جعل الشمس ضياءاً والْقَمَرَ نوراً وقَدَّرَه منازلَ، ليعْلَمَ الناس عَدَدَ السنين والحساب، قال الله جلّ جلالُهُ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿... يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾: بضمير الغائب الّذي يعود على الله جلّ جلاله، والتفصيل لقوْم يَعْلَمُون مماثل لما جاء في الآية (٣٢) من سورة (الأعراف).

(٢) وجاء في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾: فجاء في هذا النّصّ اسْتِعْمَالُ عبارَة: [لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون] لأنّ تفصيل الآيات يتَعَلَّقُ بموضوعَاتٍ تحتاج تفكُّراً، لاكتشاف الغاية من خَلْق الحياة الدُّنيا.

(٣) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قولُ اللّٰهِ عزّ وجلّ:

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾:

أي: أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ بالكُلِّيَّات العَامَّاتِ المحكمات، ثُمَّ فُصِّلَتْ لِبَيانِ الجزئيات، وتطبيقاتِها، إذا كانت ممّا له تطبيقاتٌ في السُّلوك.

(٤) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٥٥﴾: أي: ومن وظائف تفصيل الآيات القرآنية، بيان صراط الله المستقيم، وتمييز سبيل المجرمين أهْل الكُفرِ.

(٥) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) أيضاً قول الله عزّ وجلّ:

﴿...قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٩٧﴾: فجاء في هذا النصّ استعمالُ الفعل الماضي: [قَدْ فَصَّلْنَا].

(٦) وجاء أيضاً في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿...قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٍ يَفۡقَهُونَ ۝٩٨﴾: فجاء في هذا النصّ استعمال عبارَةِ [لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ] الدَّالَّةِ على الْفَهْمِ العميقِ الدقيق، لأنَّ الموضُوع يحْتَاج فِقْهاً.

(٧) وجاء في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) أيضاً قول الله عزّ وجل:

﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾:

أي: لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، ويَضَعُونَ ما عَلِمُوهُ من دينِ اللَّهِ الحقِّ في ذاكِراتهم، لاستدعائه عند المناسبَاتِ الداعيَاتِ، ولِلْعَمَلِ بِهِ إذا كان فيه ما يَدْعُو إلى فِعْلٍ أَوْ تَرْك.

(٨) وجاء في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) قَوْل الله عزّ وجلّ:

﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾: فجاء التعبير في هذه الآية عن كُلّ القرآن، بأنّ آياته قَدْ فُصّلَتْ بمقتضىٰ قواعِدِ اللِّسَان الْعَربيّ.

(٩) وجاء في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٨﴾: فجاء في هٰذا النصّ استعمال عبارة [لِقَوْمٍ يَعْقِلُون]: أي: لقوم يعْقِلُون بأدواتِ الإدْراك الفكريّ لدَيْهِم عَقْلا علميًا، ويَعْقِلُون بإراداتهم الحازمات شهواتهم وأهواءَهُمْ ومَطَالِبَ نُفُوسِهِمْ، عن الانزلاَق إلى مَعْصِيَةِ اللَّهِ عزّ وجلّ.

(١٠) وجاء في سورة (الرَّعْد/١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) قول اللَّه عزّ وجل:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾:

أي: فمن أهداف تفصِيل آيَاتِ القرآنِ المتعلّقة بِرُبُوبِيّةِ اللَّهِ لكُلّ ما في الكون، والمتعلّقَة بالْيَوْمِ الآخِرِ، تهيئَةُ الشروط المساعدة على الإيقان بلِقَاءِ اللَّهِ يَوْمَ الدِّين.

(١١) وجاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشأن الّذين يَتُوبُون من المشركين عن كفرهم، قول اللَّه عزّ وجل:

﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝١١﴾:

أي: فَمِنْ سُنَّتِنَا في هذا الكتاب أَنْ نُفَصِّلَ الآياتِ لِقَوْمٍ يعلمون. وهذا آخِرُ النُّصُوصِ في مَوْضُوع تفصيل الآيات.

ويُلاحظ المتدَبّر أن أَوّلَ نَصّ نَزَلَ مِنْ هٰذِهِ النصوص بحسب تَرْتيب النزول، هو قول اللّٰهِ عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول).

﴿... كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

وأنّ آخر نصّ نزل من هذه النصوص بحسَب تَرْتيب النزول هُوَ قَوْلُ الله عزّ وجل في سورة (التوبة/٩ مصحف/١١٣ نزول):

﴿... وَنُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾:

وبهذا انْطبقَ قُفْلُ أوّل آيات الموضوع مع آخِرِها بنَصّيْنِ مُتَناظِرَين، وهذا من أسْرَار الإعجاز القرآنيّ.



(١٢)
التدبّر التحليلي للدرس الثامن من دُروس السورة
وهو الآيات من (١٧٥ ـ ١٧٧)

قال اللّٰهُ عزّ وجل:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

تمهيد:

هذا النصّ يكْشِفُ حالَ من سَبَقَ أنْ تَلَقَّىٰ آياتِ الله المنزّلاَتِ في الشرائع الربّانيّة السابقة لمَا أُنزِلَ علىٰ رسول الله محمّد ﷺ، من يهوديٍّ أو صابئيّ أو نَصْرانِيّ أَوْ غيرِهم، وبَعْدَ أَنْ تَلَقَّاهَا واحْتَوَتْ عليه، كما يَشْتَمِلُ جِلْدُ الحيوانِ علىٰ كُلِّ جِسْمِه، انْسَلَخَ مِنها، فَلَمْ يَعْمَلْ بها، فعرَّضَ نَفْسَهُ لِوَبَاء الشَّيْطانِ، فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ مُغْوِياً مُضِلاً، فتأثَّرَ به فَغَوَىٰ، فكانَ مِنَ الْغاوينَ.

التدبّر التحليلي:

● ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ﴾ ٱتۡلُ: فعلُ أَمْرٍ موجَّهٌ للرّسول محمد ﷺ أوّلاً، فلِكلِّ داعٍ إلى الله من أمَّتِه، على سبيل الخطاب الإفرادي.

فعل: «تَلاهُ يَتْلُوهُ تُلُوّاً» أي: تَبِعَهُ فهو «تَالٍ له» أي: تابعٌ له، واسْتُعْمِلَ فِعْل «تَلاَ يَتْلُو تِلاَوَةً» في تلاوة القرآنِ، بمعنىٰ النُّطْقِ به، مع تَتَبُّعِ حُروفه وكَلِمَاتِهِ كمَا أَنْزَله الله، فإذَا كانَتِ التّلاوَةُ تَتَبُّعاً لِلْمَكْتُوبِ مِنْهُ فَهِيَ قِراءة.

والضمير في ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ صالحٌ لأنْ يُرادَ به كُلُّ من يَصْلُحُ لأنْ يُتْلَىٰ عليه القرآنُ من مؤمنٍ وغَيْرِه، والظاهِرُ أَنَّ المؤمنين أولىٰ من غيرهم بأن يُتْلَىٰ عليهم نَصُّ هذا الدرس من دروس السورة، إذْ يَتَحَدَّثُ عن قِصَصِ الَّذِينَ أَتَتْهُمْ آيَاتُ اللَّهِ فآمَنُوا بِهَا، ولَبِسُوهَا كجُلُودِهِمْ، ولكِنْ لَمْ يَطُلْ بِهِمُ الْعَهْدُ حتّىٰ انْسَلَخُوا مِنها.

والغرض تحْذِيرُ المؤمنين من أن ينسَلِخُوا من آياتِ اللَّهِ كما انْسَلَخَ مِنها الَّذِين من قبلهم، وهُمُ اليهودُ والنصارى وأمثالُهما، إذْ تخَلَّوْا عن اتّباع آيات الله المنزّلات على رُسلهم، والعمل بها.

وظاهِرٌ أنَّ هذا الدَّرس من دروس السورة مُتَّصِلٌ اتّصالاً جَلِيًّا بالْخَطِّ الأعظم من خُطُوطِ السُّورَةِ الَّتي تتفرَّعُ مِنْ موضوعها، وهو الخطّ الممتدُّ من الآية (٣) الواردة في صَدْرِ السّورة، وهي قول الله عزّ وجل خِطاباً للناس جميعاً:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

- ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا... ﴿١٧٥﴾﴾:

النَّبَأُ: الخبَرُ البارزُ الظَّاهر ذُو الأهميَّةِ الذي يَلْفِتُ إلَيْهِ أنظار أُولي الألباب.

ولكِنْ مَنْ هٰذا الشخْصُ أو الصنفُ من الناس الّذي آتاه اللَّهُ آياتِهِ، فَلَبِسَها كجِلْدِهِ، ولم يَطُلْ بِه الْعَهْدُ حتَّىٰ انسَلَخَ مِنْها، ونَجِدُ في القرآنِ الكريم قِصَصاً تتحدَّثُ عَنْهُ، حَتَّىٰ يَتْلُوها المأمُورُ بِتِلاَوَةِ نَبَئِهِ.

ذكر المفسِّرُونَ آراءَ لَمْ يَثْبُتْ شَيْءٌ مِنها عنِ النبي ﷺ.

فقال بعضُهُمْ: هو رجُلٌ من الكنْعَانيّينَ، كانَ في زمَنِ مُوسَىٰ عليه السلام، يقالُ له: بِلْعَام بْنُ باعوراءَ، وفي قِصَّتِهِ تخليطٌ مَرْفوض.

وجاء في سِفْرِ الْعَدَد عند بني إسرائيل، أنّ بِلْعَام كانَ نَبِيًّا في جيلهِ، فيما بين النَّهْرَيْن، وأنّ «بَالاَق» مَلِكَ «مُوآب» اسْتَدْعَاهُ لِيَلْعَنَ شَعْبَ إسْرَائِيلَ، فسَأَلَ رَبَّهُ، فَلَمْ يَأْذَنْ له، فَرَفَضَ طَلَبَ «بَالاَق» وذَهَبَ أخيراً وبارَكَ بني إسرائيل، ونَسَبُوا إلَيْهِ أنّه دَبَّر وَسِيلةً للإيقاع بِهِمْ في شَرَكِ عبادة الأصْنام، وأَخِيراً قُتِلَ في حزبٍ بَيْنَ بَنِي إسرائيل وأَهْلِ «مَدْيَن».

وقَالَ بَعْضُ المفسّرِين، هو أبو عامرٍ الراهب، واسْمُهُ «النُّعمانُ بنُ صيفيّ» كان نصرانيًّا من الخزرج، إحْدَىٰ القبيلَتَين الكُبْرَيَيْنِ في المدينة، فلمَّا هاجر الرَّسولُ ﷺ إلى المدينةِ، نَاصَبَ الرَّسُولَ العداءَ الشديد.

ولاَ يَصحُّ هٰذا لأنَّهُ إنسَانٌ لَمْ تَرِدْ لَهُ قصَّة تتلىٰ فِي القرآن. وهذا الدَّرْس من سورة (الأعراف) مَكّيّ التنزيل، وظهورُ هذا الرَّجُلِ قد كان بَعْدَ هجرة الرَّسول ﷺ إلى المدينة، فكيْفَ يَنْزِلُ نَصٌّ مَكِّيٌّ يُحَالُ فِيه على حَدَثٍ مضَىٰ، مع أنَّه لم يَأْتِ بَعْدُ في الواقع، هٰذا من الأغاليط.

وقِيلَ: هو أُمَيَّةُ بْنُ الصَّلْت، ولَكِنَّ هذا الرَّجُلَ لا يَنْطَبِقُ علَيْهِ الوصْفُ الذي جاء في هذا الدرس.

لكنّ النّص يَنْطَبِقُ على عُلَمَاءِ أهل الكتاب، اليهود والنصارى، وأشباههم، فَهُمُ الَّذِينَ تَلَقَّوْا آياتِ اللَّهِ في التوراة والإنجيل، فَلَبِسُوها، وآمَنُوا بها، وبَعْدَ ذلِكَ انْسَلَخُوا مِنْها، فلَمْ يَعْمَلُوا بمقتضاها، بَلْ حرَّفُوا فيها، وغَيَّرُوا وبَدَّلُوا وكَتَمُوا.

ولمّا جاء رسول اللَّهِ محمّد ﷺ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لمَا جَاءَ فِي كتُبِهِمْ مِنْ ميثاقِ الإيمان بِه واتّباعه.

فكُلُّ واحِدٍ من هؤلاَءِ الذينَ انْسَلَخُوا من آياتِ اللَّهِ في التوراة والإنْجِيل، يَنْطَبِقُ عليه قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾﴾.

وبحَمْلِ هٰذا النَّصّ على كُلِّ مُنْسَلِخٍ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ من الْيَهُودِ والنَّصَارَىٰ وأمْثَالِهم، تكُونُ السُّورَةُ قَدِ اسْتَعْرَضَتْ أَهَمَّ اللّقَطَاتِ من تاريخ البشريَّةِ، تُجاهَ آياتِ اللَّهِ، مُنْذُ عَهْدِ آدم علَيْهِ السَّلاَمُ، حتَّىٰ نُزُول القرآن المجيد على خاتم المرسَلِين محمّد ﷺ وعلى سائر إخوانه النبيّين.

وهؤلاء المنسلخُون هم الَّذِينَ نَجِدُ في القرآنِ أَنْبَاءَ انْسِلاَخِهِمْ من آيَاتِ اللَّهِ المنزّلات.

● ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾: أي: فَأَخْرَجَ نَفْسَهُ من آياتِ اللَّهِ الْمُحِيطَةِ بِهِ، إحاطَةَ جِلْدِهِ بِجَسَدِه.

السَّلْخُ: هو في اللُّغَةِ كَشْطُ جِلْدِ الحيوانِ عن جَسَدِهِ الواقِع تَحْته، فالجِلْدُ مَسْلُوخٌ ومُنْسَلخٌ عن الحيوان، والحيوانُ مُنْسَلِخٌ من جِلْدِه، وكلُّ شيْءٍ يُفْصَلُ عَنْ قِشْرِهِ أوْ جِلْدِه فقد انْسَلَخَ منه.

ومن المعروف أنّ الحيَّاتِ تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدِهَا الْقَدِيم إذا كَسَاهَا الله جِلْداً جَديداً، فَتَنْسَلُّ منه انْسِلالاً.

وهذا المعنىٰ يُنَاسِبُ من كان قد لبسَ آيات اللّٰهِ حتَّىٰ كانت بمَثَابَةِ جِلْدِهِ الْمُحِيطِ بكُلِّ جَسَدِه، وبَعْدَ ذَلِكَ انْسَلَخَ منها.

وهذا ينْطَبِقُ على الْيَهُود والنصارَىٰ وأمثالِهِم، الّذين آمَنُوا برُسُلِهم، وبالآيات اللاّتي أنْزَلَهَا اللّٰهُ علَيْهم، واحْتَمَوْا بها مُدَّةً من الزّمن، وبعْدَ ذلك انْسَلَخُوا منها، تحْرِيفاً، وتَبْدِيلاً، وكتْماناً، وتَخَلِّياً عن تطبيقها.

وفي هذه العبارة استعارة بديعة قائمة على تشبيه الإيمان بآيات الله والعمل بها كالمحتمي بجلْدٍ لاصق بلحم بدَنه.

● ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: أي: فتبِعَهُ الشَّيْطَانُ لإغْوَائِهِ ودفْعِهِ إلى شقائه والْخُلُودِ في عذاب النار.

يقال لُغةً: تَبِعَهُ، واتَّبَعَهُ، وأَتْبَعَهُ، قال الفرّاءُ: «أَتْبَعَهُ» أحْسَنُ من «اتَّبَعَهُ».

● ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾: أي: فوسْوَسَ الشيطانُ له، فاسْتجابَ لوساوِسِ الشيطان، وتضليلاته، وتَزْيِيناته، وإغواءاته، فكَانَ من الغاوين، أي: من الضّالين، الفاسِدِينَ، الخائبين.

يُقال لغة: غوَىٰ يَغْوِي غَيًّا، وغوِيَ يَغْوَىٰ غَوَايَةً، أي: ضَلَّ، وخَابَ، وفَسَد، وتركَ سبيلَ الرُّشْدِ، عن قَصْدٍ وتعمُّدٍ، اتباعاً للهوى.

● ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾: أي: ولو شِئْنَا رَفْعَهُ بآيَاتِنَا لَرَفَعْنَاهُ بها،

ولكن هذا لا يكون إلاَّ إذا سَلَبْنَاه اخْتِيَارَهُ الحرّ، وجَعَلْنَاهُ مَجْبُوراً، وهذا يتنافَىٰ مع وضع الإنسان في الحياة الدنيا موضع الابتلاء والامتحان.

• ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾: أي: ولَكِنَّهُ اتَّبَعَ بإرادَتِهِ الْحُرَّةِ أهواءَهُ وشهَواتِه، فَأَخْلَدَ إلى الأرض.

أَخْلَدَ إِلَىٰ الْأَرْضِ: أي: اطْمَأَنَّ عَلَيْها، وسَكَنَ إِلَيْها، ونَزَعَ من تصَوُّرِهِ قضيَّةَ الْإِيمانِ بالْيَوْمِ الآخِرِ، وَوَجَّهَ كلَّ هَمِّهِ للحياة الدُّنْيا على الأرض.

• ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾: أي: وإِذْ أَخْلَدَ إلىٰ الأرْضِ والحيَاةِ الدُّنْيَا فيها، فَلاَ بُدّ لَهُ مِنْ أَنْ يَتَّبعَ هَوَاهُ، ليَنَالَ مَا يَصْبُو إِلَيْه من متاع الحياة الدّنيا، وذلِكَ لا يكُونُ إلاَّ بمَعْصِيَةِ اللَّهِ، والاسْتِهَانَةِ بآيَاته المنزَّلاَت.

• ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾:

أي: فَوَصْفُهُ وَهُوَ يتّبعُ هَوَاهُ في الحياة الدّنيا، كَوَصْفِ الْكَلْبِ الَّذِي يَظَلُّ لاهِثاً دَواماً، لا يَنتَهِي لَهَثُهُ في كُلِّ أحْوالِه.

إنَّ مَنْ يَتَبعُ أهْوَاءَ نَفْسِهِ، لا بُدَّ أنْ يَسْتَمِرَّ في كلِّ أحواله كادّاً لاَهِثاً، مِنْ جَرْيه وراءَ مَطَالِب نَفْسِهِ الّتي تَتَجَدَّدُ دواماً، فكُلّما حقَّقَ مطْلباً، أو خابَ في سَعْيه، تَجَدَّدَ في نفسه مَطْلَبٌ يطْمَعُ في تحقيقه، فيسْعَىٰ مجْتَهداً كادّاً لاَهِثاً في جَرْيِهِ، طامعاً في الحصول عليه، مَشُوقاً للظفر به، فهو بسبَب أهوائِه، وشهواتِه، وشَرَهِ نَفْسِه لمتاع الحياة الدنيا، لا يتَوَقَّفُ عن الكدّ والكدْحِ الذي يجْعَلُهُ لاهثاً دواماً.

• ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا... ﴿١٧٦﴾﴾.

أي: ذَلِكَ الْوَصْفُ المنحطُّ السَّافِلُ، البعيدُ عن مستوىٰ التكريم الَّذِي كرَّمَ اللَّهُ بِهِ الإنسَان، هو أيضاً وَصْفُ الَّذِينَ كذَّبُوا بآيَاتِ اللَّهِ ابْتِداءً، دونَ أن يُؤْمِنُوا بِها، فَتُحِيطَ بِهِمْ كجُلُودِهِم.

لأنَّ مَا وَصَلَ إِلَيْهِ ذَلِكَ المنسَلِخُ من آيَاتِنَا، يُماثِلُ ما ابْتَدَأ بِهِ هؤلاَءِ الّذِينَ كَذَّبُوا بآياتنا.

● ﴿... فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦)﴾:

أي: فحَدِّث بأخبار الأوّلِينَ، راجياً ممَّنْ تُحَدِّثُهُمْ أَنْ يُؤَثِّرَ فيهِمْ حَدِيثُكَ، فيَجعَلَهُمْ يَتفكَّرُونَ، فَيُدْرِكُونَ مِنْ سُنَنِ الله في عباده، وتَدْبِيرِه لشؤون تَرْبِيَتِهم، وتأدِيبهم، وعقابهم، ما يُقْنِعُهُمْ وَيَعِظُهُمْ، ويكونُ دافعا لهم للاستقامة على صراط الحق، صراطِ العزيز الحميد، الّذي له ملك السماوات والأرض.

يقال لغة: قَصَّ الشيءَ قَصّاً، وقَصَصاً، أي تتبَّعَ أَثَرَهُ، بالْفِعْل، أو بِروَايَةِ الأخبار عنه. ويُقال: قصَّ عليه خَبَرَه، إذَا أَوْرَدَهُ علَىٰ وجْهِهِ.
والقِصَّةُ: الحديثُ، والأَمْرُ، والْخَبَرُ، وجمعُها القِصَص.

● ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا... (١٧٧)﴾

أي: إنَّ قصَصَ الَّذِينَ كذَّبُوا بآيَاتِنَا تُقَدِّمُ مَثلاً مُخِيفاً سَيِّئاً، وخِيمَ العاقبة، يَتّعِظُ به، ويَتَأْثرُ بِهِ المتفكِّرُون، الَّذِينَ تَلِينُ قُلُوبُهُم للحقّ، أو تخشَىٰ نفوسُهُم العواقب السيِّئَة، الّتي تُسَبِبُها معْصِيَةُ الله، بعَدَم اتّباع آياته المنزّلاَت، للإيمَانِ بها واتّباعها.

سَاءَ: كَلِمةٌ تُقالُ في إنْشاء الذّمّ، مثل: «بِئْس» وعلى سبيل المبالغة.

● ﴿... وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧)﴾: أي: وكانُوا يَظْلِمُونَ بتَكْذِيبِهِمْ بآيَات الله، ولكِنَّهُمْ ما كانُوا يَظلمونَ إلاَّ أنفسهم، لأنّ تكذيبهم لم يَضُرَّ الله شيئاً، وإنّما عَرَّضهم لعقوبَةِ اللّهِ في عذابٍ خالِدٍ يوم الدِّين، وربّما عَرَّضَهمْ لإهلاكٍ بعذاب في الحياة الدُّنيا.

واستفيد الحصر في الجملة من تقديم المعمول: [**أَنفُسَهُمْ**] على عامله: [**يَظْلِمُونَ**].

بيانٌ عامٌ حول هذا الدرس :

إنّ أحَقَّ مَنْ يُتْلَى عليهم نَبأُ الّذِي آتاهُ اللّهُ آياتِهِ، فَانْسَلَخَ مِنْها، فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ، فَكَانَ مِنَ الْغَاوِين، هُمُ الَّذين آمَنُوا بالرَّسُول مُحَمَّدٍ ﷺ، وبما أنزل اللّهُ عَلَيْهِ من آياتِ الْقُرْآنِ الكريم، فكانَتْ شامِلَةً لَهُمْ من كلِّ جَوانِبِهِمْ، كجُلُودِهِمْ الشَّامِلَةِ لكلّ أَجْسَادِهم.

والغرضُ من هٰذه التّلاوة، تحذيرهُمْ مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضُوا لمثْلِ مَا تَعَرَضَ لَهُ المنْسَلِخُون مِن آيَاتِ اللّهِ من أهْلِ الكتاب مِنْ قبلهم.

لَقَدْ تَلَقَّوْا آيَاتِ القرآن الكريم بالْقَبول، فأخَذُوها، وغَلَّفُوا بها عقُولَهُمْ، ونفوسَهُمْ، وقُلُوبَهُمْ، عنْدَ انْدِفاعَةِ الإيمانِ الأولَىٰ، المقْتَرِنَةِ بحرَارة الاسْتِجابَةِ، والطَّمَعِ بالسَّعَادَةِ العظيمة.

ولكِنَّ المحذورَ مِنْه أَنْ تَبْرُدَ حَرَارَةُ هٰذِهِ الشِّرَّة، وتَخِفَّ حِدَّةُ الانْدِفاع، وتَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِمُ الْغَفَلات، وتتوارَدَ على نفوسهم مطالِبُ الأهواء والشهوات واللَّذَّاتِ، من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا، فينْسَلِخُوا شيئاً فشيئاً من آيات اللّهِ، كما فَعَلَ كثيرٌ من الْيَهُودِ والنَّصارَىٰ مِنْ قَبْلِهِمْ، إذْ لَبِسُوا آيات اللّهِ أوّل الأمْر كجُلُودِهِم، فلَمْ يَلْبَثُوا طَوِيلاً حتَّىٰ انْسَلَخُوا مِنْها كَمَا تَنْسَلِخُ الحيَّاتُ من جُلودِها، اتّباعاً لأهوائهم، وشهواتهم، ولذَّاتِهم من مَتَاعِ الحياة الدنيا.

فأتْبَعَهُمُ الشيطان، إذْ وَجَدَهُمْ لاَ دِزعَ لهم من آياتِ اللّهِ، ولا حاجب يَحْجُبُهُمْ من وافداتِ الأوبئة الْمُسْقِمَة أو القاتلة، فما زالَ بهم يُوَسْوِسُ لَهُمْ، ويُسَوِّلُ لَهُمْ، ويُزَيّنُ لَهُمُ الباطلَ والفِسْقَ والفجورَ والعصيان، ومَا زال يُغْرِيهم، حتَّىٰ دفَعَ بِهِمْ إلى الغَوَايَة، فكانُوا مِنَ الغاوين الضّالين الفاسِدِين الخائبين.

وقد تحدَّثَ النَّصُّ عَنْ هذا الصنف من الناس بصيغَةِ الحديث عن المفرَد، لأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يتحمَّلُ مَسْؤوليَّته عن انْسِلاَخِهِ من آياتِ اللّهِ

بِصُورَةٍ إفرادِيَّة، مع أنَّهُمْ في الواقع كثيرونَ جدًا، بَلْ هُمُ النِّسْبَةُ العظْمَىٰ من الْيَهُودِ والنَّصارَىٰ، وسائِرِ الَّذِينَ كانُوا يَتَّبِعُونَ آياتِ اللَّهِ الَّتي أنزلَهَا على رُسُلِه من أهْلِ القرون الأولىٰ.

بَلْ كُلُّ الّذِينَ لم يُؤْمِنُوا بِرَسُولِ اللَّهِ مُحَمد ﷺ، ولَمْ يُؤْمِنُوا بالقرآنِ الَّذِي أنزلَهُ اللَّهُ عليه، من أهل الكتاب، هُمْ مُنْسَلِخُونَ من آيات الله، فقد سبَقَ أنْ آتاهُمُ اللَّهُ آياتِه في التَّوْرَاةِ والزّبورِ والإنْجِيلِ، فأحاطَتْ بهم بياناتها، ودَلاَلاَتُها، ولَبِسُوها كجُلُودِهم، وأعْطَوْا عُهودَهُمْ ومَواثِيقهم على الالتزام بما جاء فيها، ومنها أنْ يُؤمِنُوا بالرَّسولِ النبيّ الأمّيّ مُحمّد ﷺ، فنقَضُوا عُهودَهُمْ ومواثيقَهُمْ، وانسَلَخُوا مِن آياتِ اللَّهِ خُروجاً عن مَطْلُوب الله منهم فيها، بالتَّحْرِيف والتبديل والكتمان، وبمعْصِية ما جاء فيها من أوامر الله ونواهيه، اتّبَاعاً لِلْهَوَىٰ، وإيثاراً للحَياةِ الدُّنيا ولذَّاتِها، وتحقيق شهواتِهم مِنها.

ومن هذه الآيات البشائِرُ بالرَّسُول الخاتم، والْعُهُودُ المذكُورَةُ عِنْدَهُمْ في التَّوْرَاةِ والإنْجِيلِ، الَّتي أُخِذَتْ عليهم أن يَتَّبِعُوا الرَّسُولَ النبيَّ الأُمِّيَّ، متىٰ بَعَثَهُ الله، فلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فانْسَلَخُوا من آياتِ اللَّهِ بكُفْرِهم، وبرفْضِهِمْ دلائل البشائر، وبنَقْضِهِمُ الْعُهُودَ والمواثيق.

هذا ما ظهر لي لَدَىٰ تدبُّر هذا النَّصّ مع سوابقِهِ ولواحِقِه في السورة، منْضَمًّا إلى دَلاَلاَتِ آياتِ دُرُوس السُّورَةِ بوجْهٍ عامٍ، في وَحْدَةِ موضوعها، مع النظر إلى ما أُنزِلَ من سُوَرٍ قبْلَ نُزُولِ سُورَةِ (الأعراف) في التنزيل المكّي، وإلى المرحَلَة الزَّمَنِيَّةِ الَّتي أُنزِلَ فيها، على خلاف ما طَرَحَهُ المفسِّرُونَ من احْتِمَالاَتٍ لَمْ يَرِدْ عن المعصُوم فيها شيْء.

إنَّ التعبير بالإفراد في قول الله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ هو الّذي جَعَلَ أَهْلَ التأويل يَبْحَثُونَ عَنْ شَخْصٍ

بِعَيْنِهِ، يَحْمِلُونَ النَّصَّ القرآنيّ عليه. غير أنّ النَّصّ جَاء التَّعْبيرُ فيه بصِيغَةِ الإفراد، إبرَازاً للمسؤوليَّةِ الفرديَّة لدَىٰ كلّ المنْسَلخِينَ، وإعْلاماً بأنَّ قضيَّة هؤلاَءِ ليْسَتْ قَضِيَّةً جَماعِيَّةً تُؤثّرُ فيها ضواغِطُ الجماعَة، بلْ هي قضيَّةٌ إيمانيَّةٌ وسُلُوكيَّةٌ فَرْدِيَّة، وتتمثَّل في القادة الّذين عَلِمُوا مضْمُونَ آياتِ الله، وأُحاطَتْ بِهِمْ دَلاَلاتُها من كُلّ جانب، إحَاطَةَ جلُودِهم بكُلّ أجْسَادِهم.

أمّا الأتباعُ المقلّدُونَ الَّذِينَ لا يَفْقَهُونَ دَلاَلاَتِ آيات الله، فانسِلاَخُهُمْ انسِلاَخ انْقِيَادِيٌّ لقادَتِهم من العلَماءِ بدلالات آيات الله.

ودلَّ التعبيرُ بالانسلاخ على أنّ هٰذه الجلُودَ قَدْ لازمَتْهُمْ حقبةً من الزّمن، بمعنَىٰ أنّهُم حافَظُوا على إحاطَةِ آيات اللّهِ بِهِمْ زَمَناً كافياً لاكتساب خُلُقِ الْعَمَلِ بما تَهْدِي إلَيه، وإشعاراً بهٰذِهِ الإحَاطَةِ اللاّصِقَةِ، جاء التعبير بالانسِلاخ اللاّحِق، مَعَ الإيماء إلَىٰ أنَّ كُلَّ فَرْدٍ من أفراد هذا الصنفِ مِنَ النّاس، قد تحوَّلَ فصَارَ كالحيَّةِ الّتي تَنْسَلِخُ مِنْ جِلْدها، ومعلومٌ أنّ الحيَّاتِ ليِّنَاتُ الأبدان، وفيهنّ السُّمُّ الزّعاف المميتُ بشدَّة، والأنيابُ النواهِشُ القواتل.

وَجاءَ في النصّ الاكْتِفَاءُ بذِكْرِ عبارة: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ اعتماداً على ذكاء المتلَقّي، الّذي يَسْتَكْمِلُ مَا أشار إلَيْهِ الانسِلاَخ، الّذي يَعْرِفُه في الثّعابين، إذْ يَرَىٰ جُلُودَهَا الّتِي انسلَخَتْ مِنهَا، وهذا من الاستعارات المكنيّات البديعات.

إنَّ المتلقِّيَ الذَّكِيَّ يُدْرِكُ أنَّ كُلَّ فَرْدٍ مِنْ هٰؤُلاَءِ النْسَلِخِينَ مِنْ آياتِ الله، ينْطَوِي علىٰ اللُّؤْمِ والخِسَّةِ الّتي تَنْطَوي عَلَيْهَا الحيَّةُ الّتِي تَنْسَلِخُ مِنْ جلْدِها.

وقد أبرز هذا النّصّ أنَّ المنسَلِخَ مِنْ آياتِ اللّهِ قَدْ عَرَّض نَفْسَه بانسِلاَخِهِ للفساد، إذْ لم تَبْقَ لَدَيْهِ وقايَةٌ تحْمِيهِ من الشيطان ووساوسه، لقد

خلَعَ الدّرْعَ الّذي كان يَقِيه من شرّ عَدُوِّه الأكبر، إبليس وجنوده ودلَّت عبارة: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ علىٰ أنّ الشيطان قَدْ عَدَا إلَيْه بسُرْعَةٍ فائقة، لمّا رآه قد انْسَلَخَ مِنْ إياتِ الله، حتّىٰ لَحِقَهُ، وأخَذَ يُوَسْوِسُ له ويَسُوّلُ وَيُزَيِّنُ لَهُ الشّرّ، وِيَسْتَدْرِجُهُ، ويُدَلِّيه بِغُرُور.

ودلَّت عبارة: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ على أنَّ هٰذا المنْسَلِخَ من آيات اللّهِ قد اسْتَجَابَ بإرادتِهِ الحرَّةِ لوساوس الشيطان وتَسْوِيلاتِه، حتَّىٰ كانَ من فِئَةِ الغَاوِين، الضّالين، الفاسِدِين الخائبين.

ومتَىٰ صارَ المخلوقُ الممتَحَنُ في ظُروفِ الحياة الدنيا مِنَ الغاوِين بإرَادَتِهِ الحرَّة، رَدَّهُ اللَّهُ بسَبَبِ غَوَايَتِهِ إلى أسْفَلِ سَافِلِينَ، فاستَقَرَّ في حضيضِ أهْلِ الكفْرِ والطُّغيان، والظُّلْمِ والعُدْوان.

وقد كان هذا بإمكانه وهو حُرُّ الإرادة أن يَرْتَفِعَ بآيَات الله، لو الْتَزَمَ بمَا لَهَا مِنْ وقايَةٍ وحِمَايَةٍ، وحَافظَ عَلَىٰ أنْ تكُونَ بمثَابَةِ جِلْدِه المحيط بكلّ جَسَدِهِ، إيماناً وعملاً، وإذَا عَلِمَ اللّهُ صِدْقَهُ وابتِغَاءَ مَرْضَاةِ رَبّه، رَفَعَهُ بِها فجَعَلَهُ مِنَ الصَّالحين، وأعْلَىٰ مَنْزِلَتَهُ في جنّاتِ النعيم بمقدار مَا يَعْلَم من التزامِهِ بآياتِه، وصِدْقه في ابتغاء مرضاته.

ودلَّت عبارة: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾: على أنّ اللّه جلّ جلالُهُ وعظُمَتْ حِكْمَتُهُ لَمْ يَشَأْ رَفْعَهُ بآياته، لأنَّهُ لم يَسْتَحِقَّ هذا الرَّفْعَ وهو مُمَكَّنٌ باختياره الحرّ أنْ يَرْتَفِع، وليس من حِكْمَة اللّهِ أن يَرْفَعَ المتَسَفِّلِينَ بإرادتِهِمْ الحرَّة، وهم موضوعون في الحياة الدنيا موضوع الابتلاء والامتحان.

ولو شاء اللّهُ رَفْعَهُ لسَلَبَ مِنْهُ الاختيار، ولجعَلَهُ مجبوراً غير مختار، وحِينَئذٍ لا يكونُ من الموضوعين في الحياة الدنْيا مَوضِع الابتلاء.

إنّ إرادات الله لا تَتَناقَضُ فيما بَيْنَها، فلا يُمْكن أَنْ يَجْعَل عبْدَهُ حُرَّ الإرَادَةِ مُمْتَحناً، في الوقْتِ الذي يَجْعَلُه مجبوراً مَسْلُوبَ الإرادة الحرَّة، هذا تناقُضٌ يَسْتَحِيلُ عقلاً أَنْ يكون.

إنّ هذا المنسَلِخَ من آيات اللَّهِ قد استَعْمَلَ حُرِّيَّة إرادَتِه بإيثار الحياة الدنيا، واتباعِ أهوائه وشَهَواتِهِ للاستمتاع بأنواع متاعِ الدنيا، ولَمْ يَعْمَلْ بما يحقِّقُ له السَّعادة الحقيقيّة في الدنيا والآخرة، مَعَ عِلْمِه بذلك، فآيَاتُ اللَّهِ بدَلالاتِها قَدْ كانت محيطَة به كإحاطَةِ جلْدِه به، وكان ملْتَصِقاً بها ومُمْتحَناً بتَطْبِيق مضمونها، وحِينَ أحَسَّ بثِقَلِ التكاليف على نفسه، انْسَلَخَ منها.

ودَلَّتْ عبارةُ: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ على أنَّهُ اطْمَأَنَّ إلَيْها، ولازَمَ انحِطَاطها، وآثَرَ شَهَواتِه ولَذَاتِهِ وأهْوَاءَهُ مِنْها، وآثَرَ أنواعَ مَتَاعِها العاجل، غَيْرَ مُتَعالٍ إلى سَمَاواتِ الكمالاَت، وغَيْرَ ساعٍ إلى مَرْضَاةِ العلِيِّ المتعالي.

وهُنَا يَطْوِي النَّصُّ تَساؤُلاً يُقَدِّمُهُ المتفَكِّرُ بشَأْنِ هذا المنسَلِخِ من آيات الله، ومضمون هذا السُّؤال:

هَلْ حقَّقَ هذا المنسَلِخُ من آيات الَّلهِ، بإيثارِهِ الحيَاةَ الدُّنيا، وإخْلاَدِه إلَىٰ الأرضِ، واتّباعِهِ هواه، مَا كان يَضْبُو إليه من مَتَاع الحياة الدُّنيا.

ويأتي الجوابُ الرَّبَّانِيّ فَيَدُلُّ بإشاراتِه الأَدَبِيَّةِ الرَّفِيعَة، على أنَهُ لَمْ يحقِّقْ ذَلِكَ لِنَفْسِهِ، بل اسْتَمَرَّ يُتَابِعُ أهواءَهُ وشهواتِه، ويُلاحِقُها دَواماً، في كَدٍّ لاَهِثٍ، يَتَنَاوَلُ فيه رذَاذَ لَذَّاتٍ عَابرات، بَيْنَما هو في مُحيطٍ من الكدِّ والكدْحِ والْمُلاَحقَة، كمُلاَحَقَةِ أَمْواجِ الْبَحْرِ لسَفْحِ الْجَبلِ، بُغْيَةَ أَنْ تَرْتَقِي إلى أعْلاَهُ، فَتَتَكَسَّرُ علَىٰ صَخَراتِهِ، ويَسْتَمِرُّ هذا اللاَّهِثُ يُعَاوِدُ مُحَاولاتِهِ دُون أنْ يُرْوِي ظمأَهُ ممَّا يَضْبُو إلَيْه.

وأَحْرِ بهٰذَا الكادِحِ الكادِّ اللاَّهث، الَّذِي يَبْتَغِي الوصُولَ إلَىٰ ما يَشْتَهِي من مَتَاع الحياة الدُّنيا وَزِينَتِها، متّبعاً هواه، أن يكُون مَثَلُ كَدِّهِ، ولَهْثِه فيه، وأنْ تكونَ صُورَةُ حياتِه النفسيَّة، وصُورَةُ حياتِه المعاشِيَّة:

﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

وجاء في هذا النّصّ الاكتِفَاءُ بهذا المثَلِ عَنْ كُلّ الجواب الّذي فَصَّلْتُهُ آنفاً.

إنَّهُ مَثَلٌ مِنْ كَلِمَاتٍ مَعْدُوداتٍ، إلاّ أنَّهُ دَلَّ باشْعَاعَاتِهِ المتفرِّعاتِ علىٰ جوابٍ طويلٍ، يُشْرَحُ بمقَالَةٍ مُسْتَفِيضَة.

هذا المثَلُ علَىٰ إيجازه البديع، هو صُورةٌ تمثيليَّةٌ رائِعَةٌ لحالَةِ اللَّهَثِ النَّفْسِيّ، والظَّمأِ لمطالِب الحياة الدُّنْيا، وتَحْصِيلِ الأهواءِ والشهواتِ منها، لدَىٰ الّذي انْسَلَخَ من آيات الله، بَعْدَ أنْ آتاه اللَّهُ إيّاها.

ويُشْبِهُ حَالَ هذا المنْسَلِخ، حَالُ الَّذِي كذَّبَ بها ابْتدِاءً، فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ حَتَّىٰ أدركَهُ وقَبَضَ علىٰ نَاصِيَتِه.

وكانَتْ عِلَّتُهُ النفسيَّةُ أنَّهُ أخْلَدَ إلى الأرض طَلَباً للطمأْنِينَةِ فيها، والاسْتِمْتَاعِ بَلَذَّاتها، وأنَّه اتَّبع هواه.

ما أبدع هذا المثل في دَلالاته، إنَّ هؤلاء اللاَّهِثِين لا يظْفَرُونَ من دُنياهم لِلَذَّاتهم الحقيقية بطائل، أكْثر من متاعٍ زائل، ولو جَمَعُوا وَمَلَكُوا كُلّ كُنُوزِهَا، ويسْتَمِرُّ الظمأُ النفسيُّ لدَيْهِم على حاله، ويسْتَمِرُّون في لَهَثٍ نَفْسِيٍّ متواصل.



(١٣)
التدبر التحليلي للدرس التاسع من دروس السورة وهو الآيتان: (١٧٨ و١٧٩)

قال الله عزّ وجل:

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾:

تمهيد:

هذا درسٌ من دُروس سورة (الأعراف) يَعْرِضُ الله عزّ وجَلَّ فيه لقْطَة خِتام من لَقَطاتِ مَوْقف الحساب وفَصْلِ القضاء يَوْم الدِّين، ويشتمل على تعْلِيقٍ بشَأْنِ أَهْل جهنّم الّذِين كذَّبُوا بآيات اللَّهِ المنَزَّلاَتِ على رُسُلِهِ للإيمان بها واتّباع ما جاء فيها، فَلَمْ يُؤْمِنُوا بِها، ولم يَتَّبِعُوا ما جاء فيها، بل اتّخَذُوا من دُونِ اللَّهِ أولياء.

وقَدْ جاء هذا الدَّرسُ بَعْدَ الْبَيَاناتِ الكثيراتِ حَوْلَ واجِب اتِّباع آيات الله المنَزَّلاَتِ على رُسُله، الْمُؤَيِّدَةِ بآيَات اللَّهِ الإعْجَازِيَّةِ الّتِي شَهِدَ اللَّهُ بها لِرُسُلِهِ بصِدْقِهِمْ في بَلاغاتِهِمْ عنه، وبآيَاتِه الكَوْنيَّة المنَبَثَّةِ في كُلِّ شيءٍ، والدّالأتِ على رُبُوبيَّة اللَّهِ وأَحَدِيّتِهِ فيها، وعلى إلَهِيّته الّتي لا يُشَارِكُه فيها شيْءٌ في الوجود كلّه، وبآيَات الله الجزائيَّة الّتي أجراها اللَّهُ بحكمته للأمم السّالفة.

• فأمّا الّذِين كذّبوا بآيات اللَّهِ المنزّلات على رُسُله، ووصَلُوا بجماعَاتِهم إلى حالَةٍ مَيْؤوسٍ منها، فلاَ تُفرِزُ مجتمعاتُهُمْ إلاَّ فاسِدِين مُفْسِدين، فَقَدْ كان مَصِيرُهم الْإهلاكَ الشَّامِل.

• وأمّا الّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا صالحاتٍ مَا، على تفاوُتِ دَرجاتهم وتفاضُلِ مراتبهم، فقد كانت عاقِبَتُهم النَّجاةَ من الهلاكِ الشامل، ومَرُّوا في رحْلَةِ امْتِحَانِهِمْ بحَسَبِ أَعْمارِهِمُ المقدَّرَةِ لكُلٍّ مِنهم، يَعْمَلُونَ وهُمْ مَحْفُوفُون بالمعُونَةِ الرَّبَّانِيَّة.

ولَقْطَةُ الْخِتَامِ هٰذِهِ تُبيّنُ: أَنْ مَنْ يَحْكُمُ اللَّهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ يَوْمَ الدِّين، بعد السؤال والمحَاسَبَةِ وَوَزْنِ الأَعْمَالِ، أَوْ دُونَ حِسَابٍ، فَيَقْضِي له بأنَّه من أهل

الجنَّة، اسْتناداً إلى ما قَدّم في الحياة الدُّنيا لآخِرَتِهِ من عَمَلٍ صالح، مع فَضْلِ اللَّهِ عليه، ويكُونَ هو المهتدِي يومئذٍ.

وأنّ من يحكُمُ الله عليه بالضَّلاَلَةِ يَوْمَ الدِّين، بَعْدَ السّؤال والمحاسبة وفَصْلِ القضاء، فيقضي عليه بأنَّه من أهْلِ جَهَنَّم بمقتَضَىٰ عدْلِهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سلطانُهُ ـ فهو الضَّالُّ الخاسِرُ لا محالة، الَّذِي خَسِرَ مَا وَهَبَهُ اللَّهُ من تكريم، وخَسِرَ مَكانَهُ في الجنَّةِ، الَّذِي كان باسْتِطَاعَتِهِ أنْ يَنالَهُ بفَضْلِ الله، لَوْ أنَّهُ آمَنَ واتَّبَعَ آياتِ اللَّهِ المنَزَّلاَتِ على رسُوله، ولَمْ يَتّخِذْ من دونِ اللَّهِ أولياء، وخَسِرَ راحَةَ نَفْسِه وعافيَتَها، إذْ عرَّضَها لعذابٍ أَلِيمٍ دائمٍ في نار جهنّم.

إنَّه لاَ يَمْلِكُ أحَدٌ الحكْمَ بالهداية، لمَنْ حَكَمَ اللَّهُ عَلَيْه بالضَّلاَلَةِ يَومَئذٍ، ولا يَمْلِكُ أحَدٌ الحكمَ بالضَّلاَلَةِ على مَنْ حَكَمَ اللَّهُ لَهُ بالْهِدَاية.

إنَّ الْمُلْكَ يَوْمئذٍ لِلَّهِ وحْدَهُ، جَلَّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانه.

وهذا الدَّرْسُ مَوْصُولٌ بما جاء في الدَّرْس الأوّل من دُرُوس السُّورَةِ، بالآيات من (٦ ـ ٩) منه، وهي قول اللَّه عزّ وجلّ:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وقد جاء هذا الدَّرْسُ التاسِعُ بَعْدَ أكثَرَ من (١٦٠) آيَةً، بِمَثَابَةِ تكميلٍ لِمَا جاءَ في الدَّرْسِ الأوّلِ مِنها، لنُدْرِكَ بإمْعَانٍ ترابُطَ آياتِ السُّورَةِ كُلِّهَا في وَحْدَةِ مَوْضُوعٍ.

التدبُّر التحليلي:

قول الله تعالى:

● ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِىۖ ... ﴿١٧٨﴾﴾:

أي: مَنْ يَحكُم اللَّهُ لَهُ بالْهِدَايَةِ فَهُو المهتَدِي، ومَعْلُومٌ أنّ حُكْمَ الله عزّ وجلّ لأفراد عباده بالهدايَةِ، أو حُكْمَهُ علَيْهم بالضَّلاَلَة، حُكْما مُبْرَماً، إنّما يكونُ يوْمَ الْقِيامَةِ في محكمة الْعَدْل الرَّبانِيّة، بعْدَ السؤالِ والْحِسَابِ ووَزْنِ الأعَمالِ، أوْ دُونَ سُؤَالٍ ولا حِسَابٍ، إِذْ يُدْخِلُ بعضَ عبادِه الصَّالِحين الجنَّة بغَيْرِ حِسَاب.

ومَنْ يحكُمُ الله له بالهدايةِ فالجنَّةُ مَصِيرُهُ حتْماً، هذا وعْدُ الله، واللَّهُ لا يُخْلِفُ الميعاد.

ومَعْلُومٌ أنَّ حُكْمَ الله لأفراد عبادِه بالهدايَةِ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مستنِداً إلىٰ ما قدَّمُوا في الحياة الدُّنيا من إيمانٍ صَحيحٍ صادقٍ، وعَمَلٍ صالح، يُضافُ إلى ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ العظيم عليهم بالْعَفْوِ والغفران، والتجاوزِ عن السّيّئاتِ، وتَبْدِيلِ السّيئات حَسَنَاتٍ لبَعْضِ أهل المراتب الرفيعَةِ من المؤمنين، وهم الّذين تنطَبِق عليهم صِفَاتُ عباد الرَّحْمٰن.

وقد وجب حمْلُ فعْلِ «يَهْدِي» في هذا النّصّ على معنىٰ الحكْم بالهداية، أحَدِ الْعلاقاتِ الّتي بمقتضاها يُسْنَدُ الْفِعْلُ إلَىٰ فاعله، لأنّ العلاقات الأخرىٰ لا تُلائم مضمونَ هذا النّصّ.

● أمَّا الهدايَةُ بمعْنَىٰ جَعْلِ الإنسانِ مجْبُوراً على الهدايَة بالْخَلْقِ الرَّبَّاني المباشر، دون أن تكون له إرادَةٌ حُرَّةٌ مُخْتَارة، فإنَّها تُلْغِي كوْن الإنسانِ مُمْتَحناً مُخْتاراً في الحياة الدُّنيا، في رحْلَةِ الابتلاء من وجوده، وتتنافَىٰ مَعَ قول اللَّهِ عزّ وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ ـ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ إذ التكليفُ ضِمْنَ حُدودِ الوسْع يَتَناقَضُ مع الجبر، ومن

المعلوم من الدّين بالضَّرُورة، أنّ الإنْسَان البالغ العاقلَ عَبْدٌ مُكَلَّفٌ مُبْتَلَىً في ظروف الحياة الدنيا.

• وأَمّا الهدايَةُ بمعْنَىٰ الدَّلاَلَةِ والدَّعْوَةِ إلى سَبيل الْهُدَىٰ والخير، فقد جَعَلَها اللَّهُ عزّ وجلّ عامَّةً شامِلَةً، لمن اسْتجابَ واهتدى، ولِمَنْ أَبَىٰ وضَلَّ، فلا تُنَاسِبُ مَا جَاءَ في هذا النّصّ.

• وأمّا سائر العلاقات الّتي بمقتضىٰ واحدٍ منها يُسْنَدُ الفعل إلى الفاعل فلا يُناسب شيءٌ منها مَا جاء في هذا النّصّ.

فانْحَصَر الملائم بالْعلاقَة الّتي تكْشِفُ أنّ الله عزّ وجلّ وجَدَ عَبْدَهُ في الحياة الدنيا مُهْتَدِياً، بما قَدَّمَ لنَفْسِه من إيمان وصالحِ عَمَلٍ، فَهَدَاهُ اللَّهُ، أي: فحكَمَ لَهُ بالهداية.

قول الله تعالى:

• ﴿وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾﴾:

أيْ: ومَنْ يَحْكُمِ اللَّهُ عليهم بالضلالَة، لأنَّهُمْ كانُوا في الحياة الدُّنيا ضَالّين باخْتِيَارِهم الحرّ، فأولئك البعداءُ الّذِين حَجَبُوا أنفُسَهُمْ عَنْ هُطُولِ رَحْمَةِ اللَّهِ الواسِعَةِ علَيْهم، هُمُ الخاسِرُونَ، الَّذِينَ خَسِرُوا كُلَّ شيءٍ حتَّىٰ أنْفُسَهم، إذْ جَعَلُوا أنفُسهم محرومينَ من نَعِيم الجنَّة، ومُعَذَّبِينَ دواماً في نارِ جهنَّم، لأنَّهم رفَضُوا الإيمانَ والطَّاعَة، ولم يَتّبِعُوا آياتِ كتاب الله، واتخذوا من دون الله أولياء.

وكلمة «مَنْ» في: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ وفي: ﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ اسْمُ شَرْطٍ جازم، يجزم فعْلَيْن، يسَمَّىٰ أولُهما فِعْلَ الشَّرْط، ويسمَّىٰ الثاني جوابَهُ وجزاءه، وكلمة «مَنْ» هذه تُطْلَقُ عَلَىٰ الواحِدِ فأكْثر، وقَدْ يُراعَىٰ لفظه المفرد فيُعَادُ الضمير عَلَيْهِ بالإفراد، كما في الجملة الأولى، وقد يُراعَىٰ مَعْناه الدَّالُّ على الجمْعِ فيُعادُ الضمير عليه بالجمع، كما في الجملة الثانية، والتنويعُ في

الجملَتَيْنِ تفنُّنٌ في البيان. وقد يُفْهَمُ من الإفراد في الجملةِ الأولىٰ تكْرِيمُ كُلّ فرْدٍ من أفرادِ المهتدين، بأنَّه يَحْمِلُ من ربّه شهادة «الْمُهْتَدِي» بعْدَ فَصْلِ القضاء يوْمَ الدين.

أمّا الضّالُون فإنَّهُمْ يُجْمَعُونَ معاً في زُمَرٍ ذواتِ راياتٍ مُهِينَاتٍ، أو علامَاتٍ يُعْرَفُونَ بها أنَّهُمُ الْخَاسِرُونَ المنْبُوذُون.

وبَعْد الحكم علَىٰ الضّالين بالضَّلالِ يَوْمَ الدّينِ، وأنَّهُمْ مِنْ أَهْلِ جهَنَّمَ، يُسَاقُونَ إليها لِيُكَبْكَبُوا فيها، ولِيَذُوقُوا جزاءَ كُفْرِهم، وتَكْذِيبِهِمْ رُسُلَ رَبّهم، وعَدَمِ اتّبَاعِهِمْ آياتِهِ، على اختلاف دركاتهم.

وأمّا المهتدون فَيُسَاقُونَ معزَّزِينَ مكرَّمِينَ إلى جنَّاتِ النعيم، ليَحْتَلُّوا مَنَازِلَهُمْ فيها بحسَبِ دَرَجاتهم ومراتبهم.

وقد طُوِيَ في النصّ هُنَا هٰذا السَّوْقُ اكتفاءً بإيراده في نُصُوصٍ أخْرىٰ، على منهج القرآن في تَوْزيع أفكارِ وعَناصر الموضوع الواحد على مختَلِفِ الآيَاتِ والسُّور، واقْتُصِرَ فيه علىٰ بيانٍ يَتَعلَّقُ بوَصْفٍ كَاشفٍ لحالِ أهْلِ جَهَنَّمَ الفِكْرِيّ تُجَاهَ آياتِ الله البيانيَّة، والإعجازيَّة، والكَوْنِيَّة، والجزائيّة، ويُفْهَمُ مِنْهُ بالمقابلِ ذِهْناً ولو لَمْ يُذْكرْ في العبارة وصْفُ حال أهل الجنَّة.

فقال اللَّهُ تَعالَىٰ:

● ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ... (١٧٥)﴾.

﴿ذَرَأْنَا﴾: أي: خَلَقْنَا. قيل: وكَأَنَّ الذَّرْءَ مختَصٌّ بخَلْقِ الذُّرِّيَّة. وقُدِّمَ الجِنُّ عَلَىٰ الإنْس لأنَّهم أسْبَقُ خَلْقاً.

ومن المطويّ هنا في النَّصِّ، ويُمْكِنُ إدراكُهُ ذهْنَا: لَقَدْ خَلَقْنَا للجنَّةِ عباداً لَنا من الجِنّ والإنس ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

أي: ولَقَدْ خَلَقْنَا كثيراً من ذَرارِي الجِنّ والإنْسِ صائِرِينَ لجَهَنَّمَ دَارِ

عَذَابِ مَنْ نَحْكُمُ عَلَيْهِمْ بالضَّلاَلِ، لأنَّهُمْ ضَلُّوا بإرادَاتِهم الحرَّة، دُونَ جَبْرٍ ولا إكْراهٍ منا، فاقتضى العَدْلُ الحكْمَ عَلَيْهم بالضَّلال.

لقَدْ هَيَّأْنَا لَهُمْ كُلَّ ظُرُوفِ الامْتِحان الأمْثَل، فاستَحبُوا الْعَمَىٰ على الْبَصَر، والضَّلالَ علىٰ الْهُدَىٰ، فَحَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ العذاب، بمقتضىٰ قَانُونِ الْعَدْل.

وإذْ سَبَقَ في عِلْمِ اللَّهِ ضِمْنَ خَصَائصِ رُبُوبيّتِهِ، أنَّ كثيراً من الجنِّ والإنْسِ سَيَخْتَارُون بإرادَاتِهم الحرَّةِ سُبُلَ الكُفْرِ والضَّلالِ، حينَ يضَعُهُمْ في الحياة الدُّنيا موضِعَ الامتحان، أعْتَدَ لَهُمْ جهَنَّمَ دَارَ العذاب.

ثُمَّ خَلَقَ اللَّهُ الخلْقَ وفْقَ نِظَام التناسُل، وسخَّرَ لَهُمْ أسْبابَ الإيمان، وأسْبَابَ الكُفْر، وأسْباب العمل الصالح، وأسباب الأعمال السّيِّئة، وأرْسَلَ إليهم الرُّسل، وأنْزَلَ إليهم الكُتَب، وحَذَّرَهُم وأنْذَرهم وبَشَّرَهم، وضَرَبَ الأمْثَال من الوقائع العمليَّةِ على جزائه، وجعلهم جَمِيعاً أمام نجْدَين، وهم يملكون من القِوَى الفكريّة والنفسيَّةِ والجسَدِيَّة، مَا يُمَكِّنُهم من سُلوكِ نَجْدِ الإيمان والحقّ والخير، الموصِلِ إلى السَّعَادَة الأبديَّة الخالدة، ويُمَكِّنُهُمْ من سُلوكِ نَجْدِ الكُفْرِ والباطلِ والشَّرّ، المُوصِلِ إلىٰ الشقاء والْعَذَاب الأبَدِيَّيْن.

فافْتَرَقُوا فِرَقاً، فَسَلَكَ أكثرهم النَّجْد الموصِلَ إلى الشقاء والعذاب الأبديَّيْن، فكفَرُوا بربّهم، وتمرَّدُوا علىٰ طاعته.

وسَلَكَ كثير منهم سبيل الإيمان، مع الإسراف على أنْفُسِهِم بالعصيان، واستحقوا من العذاب على مقادير معاصيهم.

وسَلك الأقلّ منهم صراط الله المستقيم، مع عصيان مشمول بالعفْوِ أو بالغفران.

جَهَنَّمَ: اسمٌ علمٌ من أسماء النّار التي أعَدَّها الله ليُعَذِّب فيها يوم الدّين، الكافرين، والعصاة على مقادير معاصيهم.

وهو ممنوعٌ من الصّرْفِ، للعمليَّةِ والتأنيث.

ويقال لغة للقَعْرِ البعيد: جَهَنّم. ويقال: بِئْرٌ جَهَنَّمٌ، أي: بعيدة الْقَعر.

قول الله تعالى:

﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ... ﴿١٧٩﴾﴾.

يرادُ بالقُلوب هنا الْقوىٰ الداخليَّةُ في الإنسان المخلوقَةُ للْفَهْم، وللحفظ، وللتذكّر باخْتِزَانِ صُورَ الأشياءِ، وقضايا المعرفَةِ، كُلّيَّاتِها وجُزئيَّاتها، ولتخيُّلِ صُوَرٍ ومَرَكَّباتٍ غَيْرِ مَشْهُودَةٍ للإبداع والابتكار، ولإدْراك المعاني، وللبَحث عن حقائقِ الأشياء.

وفي هٰذِه الْقُوَىٰ الدَّاخِلِيَّة المعْرِفيَّةِ، والتَّفكُّرِيَّة والإدْرَاكِيَّة مَوَازِينُ فِكْرِيَّةٌ، مؤهَّلَةٌ بالتكوين الرَّبَّانِيِّ الّذي فطرَهَا اللَّهُ علَيْه، للتمييز بيْنَ الحقّ والباطِل، وبَيْنَ الخير والشرّ، وبَيْنَ النّافِع والضَّارّ، ولقِياسِ الأشْباهِ والنَّظَائِرِ بَعْضِها على بَعْضٍ، ولِلْحُكْم على الغائِب مِنها بمِثْلِ الحكْمِ على المشهود منها، وللاعتبار بالسُّنَنِ الرَّبَّانيَّة، وللاستِدْلاَلِ بالظَّواهر على البواطن، ولِتَتَبُّعِ الأمَارات والعلامَاتِ والدَّلاَئِل، للوصُولِ إلى حقائقِ الأشياءِ والكائناتِ علىٰ مَقَاديرِ الاستطاعَاتِ البشريّة، على اختلاف درجاتها، ولِفَهْمِ دَلاَلاَتِ التعبيرات الكَلامِيَّةِ، ذواتِ الرُّمُوز والأوضاع اللُّغَوِيَّة المتعارف عليها في مصْطَلحَاتِ لسَانِ الأمَّة، ومنْها فَهْمُ دَلاَلاَتِ الأوامِرِ والنواهي، وسائر التكليفات، وفَهْمُ دَلالاتِ الْعَامّ والخاصّ، والمطْلَقِ والمقيّد، ونَحْوِ ذلك، وفَهْمُ دَلاَلاَتِ الأَخْبَارِ معَ التَّمْييز بيْنَها بِحَسَبِ درجاتِ الثِّقَةِ بصِدْقِها ترْجيحاً حتَّىٰ دَرَجَةِ اليقين، أو بحَسَبِ دَرَكَاتِهَا في عَدَمِ الثِّقَةِ بها، تنازُلاً حتّى دَرَكَةِ تَيَقُّنِ كَذِبها، وإِخْرَاجِهَا مِنْ كُلّ مُسْتَوياتِ المعرفة، ولمَعْرِفَةِ ما هو الأفْضَلُ والأَحْسَنُ والأَحَقُّ بالْعِنَايَةِ والاهْتِمام، مِنْ عاجلِ المنافع والخيراتِ وآجلِها،

ومُوازَنَةِ ما في الأشياء من منافِعَ ومضارّ، حتَّىٰ لا تَسْقُط الإرادَةُ فريسَةَ الأهْوَاءِ والشهواتِ وحُبِّ العاجِلَةِ من مَتَاعِ الحياة الدنيا، المفْضِي إلى الحرمان من النعيم المقيم الخالِدِ في الآجلة، والتعرُّضِ للعذَاب الأليم فيها، الّذي يَفْدِي العقلاء أنْفُسَهُمْ منه بكل ما في الحياة الدُّنيا من مُلْكٍ عظيم، ولَذَّاتٍ آسراتٍ، وشهواتٍ عَارِماتٍ، يَتَقَاتَلُ عَلَيْهَا طُلاَّبُ الحياة الدُّنيا.

﴿لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ المرادُ بالْفِقْهِ هُنَا لَيْسَ مُجَرَّدَ الْفَهْمِ والإدْراكِ، بلْ هُو العلم ببواطِنِ الأمور وَخَفَايَاها، والْبَحْثُ عنها للتوَصُّل إلَىٰ مَعْرِفَتِها، فَهُو أخصُّ من مُطْلَقِ العلم.

وكَوْنُ الجنِّ والإنْسِ الصَّائِرِينَ إلى جهنَّم، باختيارهم الْحُرِّ لمَا يلَذُّ لَهُمْ، مما يُوصلُهم إلى عذابها والخلُودِ فيها، لَهُمْ قلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بها، فَسَبَبُهُ أنَّهُمْ وجَّهُوا كُلَّ قُواهُمُ التفكُرِيَّة والمعرفيَّةِ والإدْراكيَّةِ، لخِدْمَةِ أهوائهم وشهواتهم ولذّاتِهِمْ من مَتَاعِ الحياة الدُّنيا الفانيَة، فَتَوَقَّفُوا عنْدَ حُدُودِ ظاهِرِ من الحياةِ الدُّنيا، فنَزَلَ بهم داءُ الْغَفْلَةِ عمّا وراءَ هٰذِهِ الحُدُود مِنْ حقائق تَهْدِي إلى السعادة الأبَدِيَّة، وهي تقَعُ وراء ظواهر الحياة الدنيا، فلم تتَّجهْ قواهُمُ الإدْراكِيَّةُ والمعرفيَّةُ للبَحْثِ عن البواطن من حقائق هذا الوجود، وللبْحثِ عن الغاية مِنه.

ثـمّ تراكَمَتْ عليهم آثارُ هٰذِهِ الغفلات، من ظُلُماتِ الأَهْوَاءِ، ودُخَانِ الشهواتِ الملْتَهِباتِ، حتَّىٰ جلَّلَتْ قُلُوبَهُمْ الغِشَاوات، وتوالَىٰ بعْضُها على بَعْض، وتراكَمَ بعْضُها فَوْقَ بعْضٍ، إلى أَنْ أمسَتْ قُلُوبُهم لاَ تُدْرِك ولا تَعِي إلاّ ما يَخْدُمُ دُنْياهُم العاجِلَة الْفَانِيَة.

وأنَّىٰ لمثْلِ هٰذِه الْقُلوبِ الّتي أصَابَها عمًى نَوْعي، هو الْعَمَىٰ عن حقِّ الله عليها، وواجبها تجاهه، والْعَمَىٰ عن مُلاحظَةِ يَوْمِ الدّين، وما اعْتَدَ الله جلَّ جلالُه فيه للمجرمين الكافرين، الذين لا يَتَّبِعُونَ مَا أُنْزِلَ إليهم

من رَبّهم من آياتِ بيانيّة، وهٰذا الذي أعْتَدَهُ ربُّهُمْ لهُمْ، هو عذابٌ أليم، في جهَنَّم خالدين فيها.

أنّىٰ لِمِثْلِ هٰذِهِ القُلُوبِ أَنْ تُوَجِهِ أعْيُنَ أجْسَادِها لمشاهَدَةِ آياتِ اللَّهِ المشْهُودَةِ في الكون، وأنّى لها أن تُدْرِكَ دَلالاَتِها الدّلاّت بإتقانها وبصفاتها على صفاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ، وهي مشغولَةٌ مفْتُونَةٌ بزينات الحياة الدنيا المختلفات، خِدْمَةً للأهواء والشهواتِ واللّذّاتِ من متاعِ الحياة الدنيا العاجِلَةِ الفانية.

أنّىٰ لمِثْلِ هٰذه القلوب أنْ تُوَجّهَ آذَانَ أَجْسَادِها لاسْتِماعِ آياتِ اللَّهِ المنزَّلاَتِ، والإنْصَاتِ لها، وتدبُّر معانيها، وهي منصرَفَةٌ عَنْها، مشْغُولَةٌ مفْتُونَةٌ بكلّ قَوْلٍ أو حَدِيثٍ يَخْدُمُ الأهواء والشّهواتِ واللّذاتِ من متاع الحياة الدنيا العاجلة الفانية.

إنّ قلوبَهُمْ تَعْمَلُ وَتُفَكِّرُ، ولكنْ في حُدودِ ظاهِرٍ من الحياة الدنيا، فهي لا تفْقَه بواطِنَ الأمُورِ ودقائقها النافعة لهم في الآجلة. ولا ما يكون سببَ سَعَادَةِ أصْحابها في الآخِرَةِ، لأنّها مُعْرِضَةٌ عنها، غارقَةٌ في غَفَلاتِها.

وإنَّ أعْيُنَهُمْ تُبصر ما في الحياة الدنيا مِنْ زيناتٍ وأنواع مَتَاعٍ عاجِلٍ، لكنّها لاَ تُوصِلُ إلى مراكز الإدْراكِ الْبَصَرِيّ في الدّماغ، ما في خَلْقِ اللَّهِ من آياتِ كَوْنِيَّةٍ دَالأَتٍ على عظيم صفاتِ الله عزّ وجلّ، ودالأَتٍ على أنَّ الله جلّ جلالُه قد خَلَقَ الناسَ في ظروف الحياة الدنيا ليَبْلُوَهُمْ أيُّهُمْ أحْسَنُ عملاً، وأنَّهُمْ يَعْبُرُونَ فيها على جِسْرٍ، وهم فيه ممتَحنُونَ في كلّ مَا يخْضَعُ لإراداتِهم الحرَّة، ثُم يُبْعَثُونَ يوم القيامة، ليُلاقُوا في محكمة الْعَدْلِ والْفَضْلِ الرَّبَّانِيّة الحسابَ وفَصْلَ القضاء، وبَعْدَ ذَلِكَ يُوَجَّهُونَ لينالُوا جزاءَهُمْ بالثواب أو بالعقاب، على ما قدَّمُوا لأنْفُسِهم في رحلة ابتلائهم في الحياة الدنيا.

لَقَدْ ألْقَتِ الغِشَاوَاتُ على مراكز إدْراكهم البصريّ حُجُباً كثيفَةً، حجَبَتْ عنهُمْ كُلَّ المشاهِدِ الَّتي تَهْدِيهِمْ إلى سَعَادَةِ أُخْرَاهُم.

والسَّبَبُ في ذٰلِكَ أنّهم مستَغْرِقُون في غَفَلاتهم.

وإنَّ آذَانَهُمْ تُوصِلُ إلى مراكزِ السَّمْعِ في أدمِغَتِهِمْ كُلَّ كَلَمَةٍ وهَمْسَةٍ تخدُم أهواءهم وشهواتهم ولذاتهم من متاع الحياة الدّنيا، ولكِنَّهَا لاَ تُوصِلُ إلَيْها أيّةَ عبَارةٍ أو كَلِمَةٍ أو صَيْحَةٍ تُذَكِّرُهم باللّٰهِ والْيَوْم الآخر، وتُحَذِّرُهم من اتّباعِ أَهْوَائهم وشهواتهم ووساوس الشياطين وتَسْويلاتهم، وتُخَوِّفُهُمْ مِنْ عذَاب الله ونقْمَته، أو تُبَيّنُ لَهُمْ واجباتهم تُجَاهَ رَبّهم، أو تَصِلُهُمْ بالدَّار الآخرة إنْذاراً أَوْ بشارَةً وإطْماعاً.

إذَنْ: فَالْبَيَانُ المطابِقُ لحالِهِمْ بالنِّسْبَةِ إلى ما يَتَعَلَّقُ بواجِبِهِمْ تُجَاهَ رَبّهم، ومَصِيرهم يوْمَ الدّين، وسائر القضايا الدّينيَّة، أنْ يَقَالَ بِشَأْنهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ... ﴿١٧٩﴾﴾:

أي: بالنِّسْبَةِ إلى قَضَايَا الدّين، ويَوْمِ الدّين.

قول الله تعالى:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ... ﴿١٧٩﴾﴾.

أي: فإذا كان واقع حالِهم النَّفْسِيّ هو ما سَبَقَ بيانُه، فَمَا هي المخْلُوقَاتُ الحيَّةُ الّتي يُشْبِهُونها، بَعْدَ أَنْ فَقَدُوا فِقْهَ الْقُلُوبِ، وحُجِبَتْ مراكزُ إبصارهم ومراكزُ سَمْعِهم عَنْ أن تَصِلَها الوارِدَاتُ الَّتِي تُوصِلُ إلَىٰ قُلُوبهم ما يَهْدِيهم إلى مَعْرِفَةِ بواطِنِ الأمُور وخَفَايَاها، ومَعْرِفَةِ ما وراء ظواهر الحياة الدنيا، ومَعْرفةِ ما يُسَدِّدُ في الحياة الدنيا مَسِيرَتَهُمْ، للظفر بالمستقبل السّعيد يوم الدين؟؟

الجواب: إنَّ المخلُوقَاتِ الحيَّة الَّتي يُشْبِهُونَها هِيَ الأنْعَامُ، بَلْ هُمْ أَضَلُّ من الأنعام، لأنّ الأنعامَ لم تُؤتَ ما أُوتُوا مِنْ تَكْريم بالصِّفَاتِ الإنسانية الّتي أوتُوها، فهي تعيش ضِمْنَ هباتِ الله لها عيشاً سَوِيًّا.

لكنَّهم عطَّلُوا بإراداتِهم الحرَّة ما آتاهم رَبُّهم من تفضيل وتكريم، لِيَصِلُوا بِهِ إلى منازل جنّاتِ النعيم خالدين فيها، واسْتَعْمَلُوهُ فيما يَقْذِفُ بهم إلى دركاتِ الجحيم خالدين فيها، مَفْتُونين بما يَنَالُونَهُ من شهوات الحياة الدنيا ولذَّاتها، وفيما يُرْضونَ بِهِ أهواءَهُم الجانِحَة عَنْ صراطِ الله المستقيم، ودوافعَ نفوسهم الجامِحَةَ الّتي تَدفَعُهم للظلم والعدوان، والبغْي والإثم والعصيان والطُّغيان.

لَقَدْ أنْزَلُوا بإرادَاتِهم الحرَّةِ أنْفُسَهُم مِنْ مَراتب التكريم الرَّبَّاني، الّذي جعلَهُمُ الله به في أحْسَنِ تَقْويم، وهيَّأ لَهُمْ إِذَا حَافَظُوا بإرادَاتِهم الحرَّةِ على ما كرَّمَهُمْ به، جنَّاتِ النَعِيمِ يَوْم الدِّين.

لكِنَّهُمْ أنْزَلُوا أنفُسَهُمْ بإراداتهم الحرَّةِ إلى أسْفَلِ سَافِلِين.

فَهُمْ كالأَنْعَامِ، يأكُلُون كما تأكُلُ الأنعام، ويَشْرَبُونَ كما تَشْرَبُ الأنعام، ويَتَسافَدُونَ كما تَتَسَافَدُ الأنْعَام، ويَسْتَمْتِعُونَ بلَذَّاتِ الحياة الدنيا كما تَسْتَمْتِعُ الأَنْعَام.

بَلْ هُمْ في الحقيقة أضَلُّ من الأنعام، لأنَّ الأنْعَامَ تضبِطُها غرائِزُها الفِطْرِيَّة، أمَّا هٰؤلاَءِ المتَسَفِّلُونَ فلَيْسَ لَهُمْ ما يضبطُهُمْ من غرائِزَ فِطْرِيَّةٍ، لأنَّ اللَّهَ ـ جَلَّتْ حكمتُه ـ أعْطاهُمُ الْبَديلَ من أجْلِ امتحانِهِمْ، وهي الْقُوَىٰ العلميَّة التَّفكيريَّة الإدْراكيَّة، مع الإرادة الحرَّة، فَعَطَّلُوها عن الخير، وسخَّرُوهَا لتحقيق رَغَبَاتِهِم من متاع الحياة الدُّنيا، مُنْطَلِقِين في الظُّلْم والعدوان، وارتكاب الشرور في كلّ واد ونفق مظلم وميدان، وعَرَّضُوا أنفسهم لِنِقْمَةِ بارئِهم العزيزِ المنْتَقِم الدَّيّان.

فكانوا بذلك أضلَّ من الأنعام.

الأنعام: هي الإبلُ والْبَقَرُ والغنم، وأشباهها.

قول الله تعالى:

﴿... أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ١٧٩﴾:

هذه الجملَةُ الختاميَّةُ تكْشِفُ عَنْ سَبَب وَصُولهم إلى ما دُونَ دَرَكَةِ الأنعامِ في السُّلَّم الحيواني، ألاَ وهو غفلَتُهُمْ عن اللَّهِ عزّ وجلّ وعَنْ كُلّ ما يَصِلُهُمْ بِه، وغَفَلْتُهُمْ عَنِ المصِير يَوْمَ الدّين بَعْد رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا رِحْلَةِ الامْتحان، ومعْلُومٌ أنّ سبَبَ غفلتهم هو انْشِغَالُهُمْ بأسْبَابِ متاعِ الحياة الدنيا.

الْغَفْلَةُ عنِ الشيء: انْصِرافُ الذِّهْنِ عَنْ مُلاَحَظَتِهِ، وعَنْ إدْرَاكه ومُرَاقَبَتِه، مع وُجُودِه أو وُجُودِ أدِلَّتِهِ في مجال الإدْراكِ المستطاع للمخْلُوق.

اسم الإشارَة [**أولَئِكَ**] الَّذِي يُشَارُ بِهِ إلى الْبَعِيد، قد استُعْمِلَ هنا للدَّلاَلَةِ علىٰ بُعْدِ دَرَكَتِهِمْ في التَّسَفُّل.



(١٤)
التدبّر التحليلي للدرس العاشر من دروس السورة وهو الآية (١٨٠)

قال الله عزّ وجل:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾:

ما في هذه الآية من القراءات:

- قرأ جمهور القرّاء العشرة: [**يُلْحِدُون**] من فعل «أَلْحَدَ».

وقرأ حمزة: [**يَلْحَدُونَ**] من فعل «لَحَدَ يَلْحَدُ».

«أَلْحَدَ يُلْحِدُ» و«لَحَدَ يَلْحَدُ» كلاهُما بمعنَىٰ عدَلَ عن طَرِيق الحقّ، وانْحَرَفَ عن الصراط المستقيم، وجارَ وظَلَم، وحرَّفَ وبَدَّل، فهما مُتَكافِئَان في اللُّغَة.

تمهيد:

هذا الدَّرس مُتّصل بخطّ السُورة الأعظم، وهو الذي دلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ في الآية (٣) من السّورة:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

ففي مُقَدّمَةِ مَا أُنزلَ إلى النَّاس من رَبِّهِمْ، أنْ يَدْعُوه مُخْلِصينَ له الدِّين، ولا يُشْرِكُوا في دُعائِهِ أحداً، سَواءٌ أكان دُعاؤهم لأمور دنياهم أمْ لأمور آخِرَتهم، ومعلومٌ أنّ الدُّعاءَ أوَّلُ العبادات وفاتِحَتُها، والعبادةُ لاَ تكُونُ إلاّ للّهِ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَه.

وتتبُّعاً لدُرُوسِ السّورة، مع هذا الخطّ الأعظم الَّذِي يُمَثّلُ أَكْبَرَ عناصر موضوعها نلاحِظُ ما يلي:

إنَّ اتّبَاعَ مَا أَنْزَلَ اللّهُ لعبادِهِ يكونُ بطاعَتِه، في فِعْلِ ما أمَرَ به واجْتِنَابِ ما نَهىٰ عَنْه، وهٰذِهِ الطَّاعَةُ من كبريات عناصر عبادَةِ العِبَادِ لرَبّهم.

(١) فجاء في مُقَدّمَاتِ تَفْصيلاتِ عبادة الله في السُورَة قصَّةُ أَمْرِ اللّهِ الملائكة وَمَنْ كان مُنْدَسًا فيهم، بالسُّجُودِ لآدم، فسَجَدُوا إلاّ إبْليسَ عَصَىٰ أمْرَ رَبِّه، ولم يكن من المطيعين العابدين الساجدين.

(٢) وبَعْدَ ذلِكَ جاءَتْ في السّورَةِ قصّةُ آدَمَ وحواء، ومَا اشتملَتْ عليه من نَهْيِهِمَا عن أنْ يأكُلاَ من الشَّجرة الّتِي عيَّنَها لهما، فأكلا منها عَاصِيَيْن، ثم تَابَا فغَفَرَ اللّهُ لهما، وأهْبَطَهُما إلىٰ الأرْض.

(٣) وبَعْدَ ذلِكَ جاءت قِصَّةُ أوامر اللّهِ ونواهِيهِ الموجَّهَةِ لِبَنِي آدم الأوَّلِين، فَعَصَىٰ فريقٌ مِنهم، واتَّخذُوا الشياطين أولياءَ من دون الله، ودخَلَ إليهم الشِّرْكُ، وافْتَرَوْا على الله الكذِب، واقْتَرَنَ بهذا البيان معالجاتٌ إقناعِيَّةٌ وتَحْذِيريَّةٌ، تُنْذِرُ المكذّبين بآياتِ الله المسْتَكْبِرِينَ عن اتّباع ما جاء فيها، وبياناتٌ تَرْغيبيَّة للمطيعين العابدين، بأنّ لَهُمْ عنْدَ رَبِّهم جنّات النعيم.

(٤) وافْرِزَت عبادة اللّهِ وحْدَه بالدُّعاء، اهْتماماً بشأن هٰذِه العبادة من صُوَرِ عبادة الله، لأنَّ الدُّعَاءَ أوَّلُ مظهَرٍ تِلْقَائِيٍّ يَلْجَأُ إِلَيْهِ أَصْحَابُ الضَّرُوراتِ والحاجَاتِ حينَما يَعْجِزُونَ عن تحقيق مطالِبِهم بالأسباب المتاحَةِ لهُمْ في الظواهِرِ الكونية، فقال الله عزّ وجل في الآية (٢٩) من السورة:

﴿... وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ... (٢٩)﴾:

أي: وادْعُوا رَبَّكُمْ لمطالب دُنياكُمْ وَأُخْرَاكُمْ مُخْلِصين له في الدُّعاء، الّذِي هو من عناصِرِ الدّين، ويكُونُ هذا الإخلاصُ بأن لا تَدْعُوا غير الله، ولا تُشْرِكُوا في دُعَائِهِ أحداً.

(٥) ثم وجَّهَ اللّهُ عزّ وجلّ في الدَّرْسِ الخامس من دُروس السُّورةِ لعبادة الدُّعاء، من صُوَرِ عباداتِ العباد له، مبيّناً آداب الدعاء، فجاء في الآيَتَيْن (٥٥) و(٥٦) من السورة قوله تبارك وتعالى:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ (٥٦)﴾:

(٦) وبَعْدَ ذلك عَرَضَ اللّهُ عَزّ وجلّ لقَطاتٍ مُهِمَّاتٍ من قصَص الأوّلين المذكورين في القرآن، مُبْرِزاً دَعْوَةَ الرُّسُلِ لأقوامهم، بأن يَعْبُدوا اللّهَ وحْدَه ولا يُشْرِكوا بعبادتِهِ شيئاً، وبأن يَتَّبِعُوا ما أنزل إليهم من ربّهم، إذْ ليس لهم في الحقيقة إلَه غَيْرُه يَجوزُ أن يَعْبدُوه ويَدْعُوه، فَهو الرَّبّ الذي لا رَبَّ غَيْرُه، وهُوَ الّذِي سَيُجَازِيهم على أعمالهم.

إن عاداً لـمَّا اتَّخَذُوا آلِهَةً من دون اللّهِ يعبُدُونها، ويَدْعُونها لتلْبِيَةِ مطالبهم في حياتهم، قال لهم رسُولُهُمْ هود عليه السَّلام كما جَاءَ في الآية (٧١) من السورة:

﴿... أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍۚ... (٧١)﴾.

ولمَّا جرّبَ آل فرعَوْنَ دُعَاءَ آلِهَتِهم لِيَرْفَعُوا عَنهم ما أنزل اللَّهُ بِهِمُ من أنواع عذابٍ، لم تنفعْهُمْ آلهتهم بشيء، عندئذٍ تَوَجَّهُوا لموسَىٰ عليه السلام طالبين منه أن يَدْعُوَ رَبَّهُ بما عَهِدَ عِنْدَه أنْ يكْشِفَ عنهم الرّجْز، ووَعَدُوهُ إذَا كَشَفَ رَبُّهُ عنهُمُ الرّجز أن يُؤْمِنُوا بِهِ مُسْلِمِينَ له، وأنْ يأذَنُوا لِبَنِي إسْرَائيل بالْخُرُوج.

دلَّ على هذا ما جاء في الآية (١٣٤) من السّورة، وهو قول الله عز وجل:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٣٤﴾:

لكنَّهُمْ نكَثُوا عَهْدَهُمْ لمَّا كَشَفَ اللَّهُ عَنْهُمُ الرِّجْزَ بدعاء موسى عليه السلام.

(٧) ثم جاءت الآية (١٨٠) الّتِي تُمَثِّلُ الدَّرْسَ العاشِرَ من دُرُوس السُّورَةِ، مَوْصُولَةَ بخَطِّ الدُّعاء في السُّورَةِ، الّذي هو فرْعٌ مِنْ فروع عبادة الله وحْدَه لا شريك له، ودَاخِلٌ تَحْت عُموم وجُوبِ اتّبَاعِ ما أُنزلَ إلى العباد من رَبّهم الذي جاء بيانه في الآية (٣) من السُّورَة.

التدبر التحليلي:

قول اللَّهِ تعالى:

- ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَاۖ ... ١٨٠﴾:

أي: وتختَصُّ بالله الأسْمَاءُ الحسْنَىٰ، والمطلوبُ من العباد إذا أرَادُوا دُعَاءَ غائبٍ لأمُورِ دُنياهم أَوْ أُخراهم، أنْ يَدْعُوا اللّهَ وحْدَه بأسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ.

وأسماءُ اللَّهِ عزّ وجلّ، منها ما هو عَلَمٌ على ذَاتِ الخالِقِ الرَّبّ الجامِعَةِ لكُلّ صِفَاتِه، وهو لفظ «الله» في اللِّسَانِ العَرَبيّ.

ومِنْهَا مَا هو دالٌّ على صِفَةٍ من صِفَاتِ الكَمالِ لذاتِ اللَّهِ عزّ وجلّ، أو صفةٍ من صِفَاتِ أفعالِه سبحانه وتعالى، أو البراءَةِ من صِفَةٍ مِنْ صفات النقصان الّتي لا تليقُ بِهِ جلّ جلالُهُ، وتنزَّهَتْ عن النقصان ذاتُهُ وصفاتُه.

وكلُّ أسْمَاء الله حُسْنَىٰ، بالِغَةَ الغايَةَ العظمىٰ في الْحُسْن.

لفظ «حُسْنَىٰ» مؤنَّثُ «أَحْسَن» وصيغةُ «أَفْعَل» و«فُعْلَىٰ» للتفضيل.

فالمعنى: ولِلَّهِ أَكْمَلُ الأَسْمَاءِ، لأنَّ لَهُ تبارَكَ وتَعَالَىٰ أكْمَلَ الذَّاتِ، وأكْمَلَ الصِّفَاتِ وأسْنَاها، فهي في الحقيقَة أحْسَنُ الأسماء.

وقد أثبتَتْ هٰذه الجملة أنَّ لِلّهِ عزّ وجلَّ أسْماءَ عَدِيدَةَ كُلُّها حُسْنَىٰ، وأنَّ من أرَادَ أن يَعْبُدَ اللَّهَ بالدُّعاء لِمَطَالِب الدُّنْيَا أَو الآخِرَة، لنَفْسِه أو لغيره، فلْيَدْعُ باسْمٍ أو بأكْثَر من أسْمَاء اللَّهِ الْحُسْنَىٰ على سبيل التفصيل، أَوْ بأسمائِه جُمْلَةً، دون تحديدٍ ولا تفصيل.

وأسماءُ الله عزّ وجلّ الوارِدَةُ في القرآنِ والسُّنَّةِ غَيْرُ مَحْصُورَة، وقد جاء في الصحيح تخصيص تِسْعٍ وتِسْعِينَ منها دون تعْيِينٍ لهَا، بأنَّ من أحْصَاها دَخَل الجنَّة.

روى البخاريُّ ومسلم وغيرهما عن أبي هُرَيرَة قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْماً، مِئَةً إلاَّ واحداً، مَنْ أَحْصَاهَا دخَلَ الجنَّة، إِنَّهُ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ».

وما وَرَدَ في بعضِ روايات هٰذا الْحَدِيث، من سَرْدِ الأَسْمَاءِ التِّسْع والتِّسْعِينَ المشهورة، فقد قال ابْنُ كثيرٍ في شأنها: والَّذِي عَوَّلَ عليه جماعَةٌ من الحفَّاظِ، أنَّ سَرْدَ الأسْمَاءِ في هٰذا الحدِيث مُدْرَجٌ فيه.

أي: ليْسَ هو من مَتْنِ الحديثِ المرفوع إلى الرسول ﷺ، وهي فيما

يَرَىٰ بَعْضُ العلماء مجموعَةٌ من القرآن الكريم، جَمَعَها بَعْضُ رُواةِ الحديث[١].

قول الله تعالى خطاباً للمؤمنين:

● ﴿...وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ... ﴿١٨٠﴾﴾:

أي: واتْرُكُوا طرائق الَّذِينَ يُلْحِدُون في أسماء الله الْحُسْنَىٰ، فلا تَتْبِعُوها، إذْ هي باطِلَة، يَعْدِلُونَ بها عن الحقّ، وعَنْ صراط اللَّهِ المستقيم، ويُجورُونَ ويَظْلِمُونَ بِها ويُبَدِّلُونَ ويُحَرِّفُونَ.

والَّذِينَ يُلْحِدُون في أسماء الله على أصناف.

(١) فالمشركون يُنْكِرُونَ بَعْضَ أسمائه الدَّالَّةِ علَىٰ بعْضِ صفاته، كاسْم الله الرحْمٰن، فيجْعَلُونَ هذا الاسْمَ من صفاتِ شركائهم، لذلِكَ فَهُمْ يَدْعُونَ شُرَكَاءَهُمْ لينَالُوا منْهُمْ آثار الرَّحْمة، فيحقِّقُوا لهم مطالبهم.

وظاهر أنّ هٰذا من العدول عن الحقّ، ومن الظلم والجوْرِ في صِفاتِ الله، فَهُو من الإلحاد في أسمائه جلَّ جلالُهُ.

(٢) ورَأىٰ بعْضُ أهل الرأي أنّ المشركين أَخَذُوا بَعْضَ أسْماءِ الله الحسنَىٰ، فاشتَقُّوا مِنْها عُدُولاً عن الحقّ وإلحاداً في أسمائه، وأَطْلَقُوهَا على بعْضِ أوثانهم.

فأَخَذُوا من الاسم العلم (الله) لفظ «اللاّت» وسَمَّوْا به وثناً من أوثانهم.

وأخذوا من اسم الله «العزيز» لفظ «الْعُزَّىٰ» وسمَّوْا به وثناً من أوثانهم.

وأخذوا من اسْمِ الله «المنَّان» لفظ «مَنَاة» وسَمَّوا به وَثَناً من أوثانهم.

وهذا العمل هو من الإلحاد في أسماء الله الحسنى.

---

(١) انظر روايات أحاديث أسماء الله الحسنى عند ابن كثير، وعند الشوكاني، في تفسير هذه الآية.

(٣) ويَدْخُل في عموم الإلحاد في أسماء الله الحسنَىٰ إنكارُ بعَضِ أسماء الله الدَّالأَتِ على بعْضِ صِفاتِ اللَّهِ العظمىٰ، أو تَحْرِيفُها عن معانيها، أو تَعطيل دَلاَلاتها، أو تشبيهها بصِفَاتِ المخلوقات لله، سبحانه وتعالى، ويدخُلُ فيه أيضاً تَسْمِيَةُ الله بما لاَ يَلِيقُ بجلاله.

فالمعنى: واتْرُكُوا سُبُل الّذِين يُلْحِدُونَ في أسماء الله، فلا تَسْلُكُوا سبيلاً منها.

قول الله تَعَالى:

● ﴿. . . سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾:

أي: سَيُجْزَىٰ الَّذِينَ كانوا في الدنيا يُلْحِدُون في أسماء اللَّهِ الحسنىٰ، عقابَ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ، عنْد انْتِهاءِ رِحْلَةِ امتحانِهم في الدُّنيا، بَعْدَ الْمَوْت، ثُمَّ يَوْمَ الدِّين بَعْدَ الْبَعْثِ في نار جهنّم.

فالإلحاد فِي صفات الله وفي أسمائه الحسنَىٰ هو من الكُفْرِ باللَّهِ، شِرْكاً، أو جُحوداً، أو وَصْفاً لِلَّهِ بما لاَ يَلِيق بجلاله مما لم يَثْبُتْ عن المعصوم.



(١٥)
التدبر التحليلي للدرس الحادي عشر من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٨١ ـ ١٩٨)

قال الله عزَّ وجلّ:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِۦِّىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ ﴾:

القراءات:

(١٨٦) ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وابْنُ عَامِرٍ، وأَبُو جعفر: [وَنَذَرُهُمْ] بنُون المتكلِّم العظيم، وبرفع الفعل.

وقرأ أبو عَمْرٍو، وعَاصِمٌ، ويَعْقُوب: [وَيَذَرُهُمْ] بضمير الغائب الذي يعود في الآية على: [اللَّهُ] وبرفْعِ الفِعلِ.

وقرأ باقي القراء العشرة: [وَيَذَرْهُمْ] بضمير الغائب الذي يعودُ في الآية على: [اللَّهُ] وبِجَزْمِ الفِعْل.

«نَذَرُهم» و«يَذَرهُمْ» قراءتان بينهما تكامل في الأداء البياني، فنُون المتكلّم العظيم تُشِيرُ إِلَىٰ حكمة الله العظيم الجليل في ترك الذين اختارُوا لأنْفُسِهِمْ الضّلال، يتحيَّرون في ضلالِهم من رحلة امتحانهم. والقراءةُ الأُخْرَىٰ تُخاطِبُ أهْلَ الإيمانِ، الموقنين بحكْمَةِ اللَّهِ السَّامِيَة في تركهم في ضلالهم يَعْمَهُونَ.

وأمّا الرَّفْعُ والجزمُ في قراءَتي: [وَيَذَرُهُمْ] و[وَيَذَرْهُمْ] فَهُمَا وجْهَانِ عَرَبِيَّانِ جائِزانِ ومُتَكافئان، فالرفع على الاستئناف، والجزم على أن الفعل معطوف على جواب الشرط الذي هو في موضِع فعل مجزوم.

(١٨٨) ● قرأ قالُون في أحَدِ الوجهَيْنِ عنه: [إِنْ أَنَآ إِلاَّ] بألف مَمْدُودَة لضمير «أنَا».

وقرأ باقي القُرّاءِ العشَرَةِ وهو الْوَجْهُ الثاني لقالون: [إِنْ أَنَا إِلاَّ] بنُونٍ مَفْتُوحَةٍ دُونَ أَلِفٍ بَعْدها لضمير «أنا».

والقراءتان وجهان عربيان لنُطْق ضمير: «أَنَا».

(١٩٠) ● قرأ نافع، وشُعْبة، وأبو جعْفر: [جَعَلاَ لَهُ شِرْكاً] بكسْر الشين، وإسكان الراء، وهو مصدر: «شَرِكَ فلانَاً في الأمر يَشْرَكُهُ شِرْكاً» وأُطْلِقَ المصْدَرُ هنا مراداً به اسْمُ الفاعل، أي: جعَلا لَهُ شريكاً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ] جمْع شرِيك.

وبين القراءتين تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، إذْ من المشركين مَنْ يجعل لله شَرِيكاً واحداً في الخلْق، ومِنْهُم من يجعل له شركاء، اثنين أو أكثر.

(١٩٣) ● قرأ نافع: [يَتْبَعُوكُمْ] من فعل «تَبِعَهُ يَتْبَعُه» المجرّد.

وقرأ باقي القرَّاءِ العشرة: **[لاَ يَتَّبِعُوكُمْ]** من فعل «**اتَّبَعَهُ**» المزيد، وهو على وزن «افْتَعَل» الذي يُفيد معنى التكلّف.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى: أي: لا يَتْبَعُوكم بِيُسْر، ولا يَتَّبِعُوكم مَهْمَا كلفتموهم أن يَتَّبِعُوكم.

(١٩٥) ● قرأ أبو جعفر: **[يَبْطُشُونَ]** بضمّ الطاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[يَبْطِشُونَ]** بِكَسْرِ الطاء.

ضمُّ الطاء في مضارع فعل «بَطَشَ» لغة عربيّة، يقال فيها: بَطَشَ يَبْطُشُ، وكَسْرُ الطَّاءِ أكثر استعمالاً في لسَان العرب «بَطَشَ يَبْطِش» أي: أخذ بعُنْفٍ وقوَّة.

(١٩٥) ● قرأ عاصم، وحمزة، ويعقوب: **[قُلِ ٱدْعُوا]** بكسر لام «قُل» في الوصل، للتخلُّصِ من التقاء السَّاكنين.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[قُلُ ٱدْعُوا]** بضم لام «قُلْ» في الوصل، للتخلّصِ من التقاء السَّاكنين.

والقراءتان وجهان عرَبيان جائزان في مثل هٰذا.

(١٩٥) ● قرأ أبو عمرو، وأبو جَعْفر: **[ثُمَّ كِيدُونِي]** بإثبات يَاء المتكلّم في الوصل. وقرأ يَعْقُوب، وهشام بإثباتها في الوصل والوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[ثُمَّ كِيدُونِ]** بحذف يَاءِ المتكلّم في الوصْلِ وفي الوقف، وكسْرُ النون دليلٌ عليها.

(١٩٥) ● قرأ يَعْقُوب: **[فَلاَ تُنْظِرُونِي]** بإِثبات ياء المتكلم في الوصل وفي الوقف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[فَلا تُنْظِرُونِ]** بحذف ياء المتكلم إيجازاً في الوصل والوقف، وكسر النون دليل عليها.

والقراءتان وجهان عربيان جائزانِ في النطق.

وإذا حُذِفَتْ ياء المتكلّم في النطق إيجازاً فهي مُقدّرةٌ ذهْناً.

تمهيد:

هذا درسٌ موجّهٌ لأمّةِ دَعْوَةِ محمّد ﷺ، حَوْلَ عناصر موضوع سورة (الأعراف) والتي جاء فيها عَرْضُ ملَخَّصِ تاريخ البشريّة تُجاهَها، مُنْذُ خلْقِ آدم عليه السلام، حتَّىٰ بِعْثَةِ محمَّدٍ ﷺ، وحتَّىٰ نُزُولِ آياتِ الله البيانيّة عليه.

وقد بدأ اللّهُ عزّ وجلّ هذا الدرس المرادَ بِه أُمَّةُ دَعْوَةِ الرسول محمّد ﷺ بِبَيان وُجُودِ أُمّةٍ منْهم يسْتَجيبون لدعوته، ويَتّبعُونه، ويقومون بوظيفةٍ من وظائِفِ رسالته المماثلة لوظيفة الأنبياء من قَبْله، وهي أنّهم يَهْدُونَ الناسَ بالحقّ، فإذَا اسْتَخلَفَهُمْ الله في الأرض فجعلَهُمْ ذوي حُكْمٍ وسُلْطانٍ، فإنَّهُمْ يَعْدِلُونَ بين الناس بمقْتَضَىٰ قواعِدِ الْعَدْلِ وأحْكامه.

وأبان الله عزّ وجلّ بعد هذا سُنَّتَه في الَّذِينَ كَذَّبُوا رَسُولَ رَبّهم، وكذَّبُوا بالآيات البيانيَّة الَّتي أَنْزَلَها عليه.

وعالَجَ جلَّ وعَلاَ هؤلاء المكذبين بالوسائل الإقناعية الفكريّة، مع الإلماح لما يمكن أنْ يُنْزِلَ بِهِمْ من عقابٍ على كفرهم، وتكْذِيبهم رسولَ رَبِّهم، وتكذِيبهم بآياته، وعَدَم اتّباعهم ما أَنْزَلَ لهم فيها.

ووجَّهَ قِسْماً كبيراً من هذا الدَّرسِ لِبَيَانِ أوائل نبوغ الشِّرْكِ في الناس، ولإقَامة الْحُجَجِ والبراهينِ الدَّامغةِ للمشركين، والكاشِفَةِ فسَادَ وبُطْلاَنَ ما هُمْ فيه من شرْكٍ تَرْفُضُهُ العقول السّوِّية، مع استخدام أسلوب الاستفهامات الإنكاريَّة التعْجيبيَّة التوبيخيَّة، وتَعْلِيمِ الداعي إلى الإيمانِ التوحيدي، بعضَ طرائقِ المناظَرَةِ الملْزِمَةِ والمفحمة، المقرونة بالتحدّي.

التدبّر التحليلي:

قول الله تعالى:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٨١)﴾:

هٰذه الآيَةُ خاصَّةٌ بِأُمَّةِ الإجابَةِ لِدَعْوَة مُحمَّدٍ ﷺ. قال قتادة في تفسير هذه الآية: بَلَغَنا أنَّ النبيّ ﷺ كان يقولُ إذا قرأ هٰذه الآية: «هٰذِهِ لَكُمْ، وقَدْ أُعْطِيَ الْقَوْمُ بين أَيْدِيكُمْ مثلَها: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ (١٥٩)﴾:

وقد سبقَ شرح هذه الآية في سورة (الأعراف) بشأن بَعْضِ قوم موسى عليه السّلام السابقين، قبل كفرهم بالأنبياء والرُّسلِ الذين جاءُوا من بَعْدِ موسى وهارون، إذْ وصَفَهم اللّهُ بأنّهم كانوا يَهْدُون بالحقّ وبِهِ يَعْدِلُونَ.

أي: وقِسْمٌ مِمَّنْ خَلَقْنَا من النّاس، أوْ قَدَّرنَا خلْقَهُمْ مُسْتَقبلاً، وهم الذين آمَنوا أو سَيُؤْمِنون بالرَّسُولِ مُحمَّد وبما أنْزَلْنا عَلَيْهِ، توجَدُ أُمَّة يَقُومُون بوظيفةِ الدَّعْوَة إلى الله، والنُّصْح والإرشاد، والأمْرِ بالمعروفِ والنّهي عن المنكر، فَيَهْدُونَ الناسَ إلى سبيل اللّهِ بِالحقّ، ولا يتَّخِذون الباطِلَ وزيُوفَ الأقوالِ وسيلَةً إلى الهداية إلى سبيل الله، وإذا جَعَلَ الله لهم حُكْماً وسلطاناً في الأرْضِ، فإنَّهُمْ بالحقّ يَعْدِلُونَ بَيْنَ النَّاس أيضاً.

[أُمَّةٌ]: تُطْلَقُ الأُمَّة في الاستعمال القرآنيّ علَىٰ كُلِّ مجموعَةٍ تَجْمَعُها صِفاتٌ أو خَصَائِصُ أو روابطُ متميّزَة.

فكُلُّ أُمَّةٍ من الناس أُرْسِلَ إلَيْها رَسُول ليبَلّغَها رِسالَةَ رَبّه أَوْ رِسَالاَتِه، هُمْ أُمَّةُ بَلاغِ هذا الرَّسُول.

ومن أجابَهُ منهم إلى دَعْوته، فَهُمْ أُمَّةُ الإجابَة. ومَنْ قام بوظيفة الدَّعْوَةِ إلى دين الله منهم أمَّةٌ فهُمْ الدَّعْوَةِ إلى الدّين الّذِي جاءهم به. ومن

قامَ بواجب الأمْرِ بالمعْرُوف والنّهْي عن المنكر فهم أُمَّةُ الأمْرِ بالمعروف والنَّهْي عن المنكر. ومن قَامَ منْهم بواجب القتال في سبيل الله فَهُمْ أمَّةُ القتال جهاداً في سبيل الله.

والفريق من الأمّة إذا اجْتَمَعُوا على رأيٍ مُتَمَيِّزٍ تُطْلَقُ عليهم كَلِمَةُ أُمّة.

حتّىٰ الفرد الواحِدُ المتميّز هو أُمَّةٌ وَحْدَهُ، وقد كان إبراهيم عليه السلام في أوّلِ دَعْوَتِه أُمَّةً وحْدَه.

● ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾: أي: يَدْعون الناسَ إلى صراط الهداية والنجاة والسَّعادة، ويأمُرون الناسَ بالمعروف ويَنْهَوْن عن المُنْكَر، بالحقِّ من قضايا الفكر، وبراهين العلم وأدلّتِه وحُجَجه، وبالحقّ المنزَّلِ من عند الله على رسوله محمّد خاتم النبيّين والمرسلين.

فَهُمْ لا يتّخذون الباطِل وسيلَةً لِنُصْرَةِ دِينِ اللّهِ، لأنَّ دين الله حقٌّ، واللّهُ لاَ يَأْذَنُ لمَنْ آمَنَ بدينِهِ المنزَّلِ بالحقّ، أَنْ يَنْصُروهُ إلاَّ بالحقّ.

بخلاف أَهْل الباطل، فإنّهم لا يجدون لنُصْرَةِ باطِلِهم إلاَّ زُخْرُفاً مِنَ الباطل، وزُيوفاً من الأقوالِ ذَوَاتِ الظَّوَاهِرِ المزوَّرَةِ الّتي توهِمُ أنّها حقٌّ.

فعل ﴿يَهْدُونَ﴾ مستعملٌ بمعنىٰ يَدْعُونَ، ويُرْشِدُونَ، ويَدُلُّون، وفي الحقّ والخير والفَضِيلَةِ يُرَغِّبُون، ومن الباطِلِ والشرّ والرّذِيلة يُحَذِّرُونَ، ومن عِقاب الله على معصيَتِه يُخَوِّفُونَ ويُرَهِّبُون، فكُلُّ هذا من الهداية.

إنّ إسناد الفعل أو ما في معناه إلى رُكْن الإسناد الآخر، تَكْفِي فيه ملاحظة إحْدَىٰ العلاقات الّتي تُصَحّح هذا الإسناد، وإنّ علاقَةَ الدَّعْوَة والدّلالَةِ والتزيين والتحسين والترغيب في فِعْلَيْ «هَدَىٰ» و«أَضَلَّ» إحدى العلاقات الّتي تُصَحِّح أنْ يقال: فلانٌ هدَىٰ فلاناً، وأن يُقالَ: فلانٌ أضَلَّ فلاناً.

• ﴿وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ﴾: أي: وبمقتضى قواعد العدل، المستندة إلى قضايا الحق يَعْدِلُون، بحَسَبِ اجتهادهم، وعلى مقدار استطاعاتهم البشريّة.

وكونُهم بالحقّ يَعْدِلُون يَدُلُّ على أنَّهم يَعْدِلُون بمقتضى كونِهِمْ حُكّاماً أو قُضاةً بين الناس، وهٰذا يقتضي باللُّزوم العقليِّ أن تكُونَ لهم سُلْطَاتُ وِلايَاتٍ على الناسِ، أو سُلْطَاتُ قضاءٍ بيْنَ النّاس، وهذا لا يكون لِلْمُسْلِمين إلاّ إذا مَنَحهُمُ الله في الأرض الاستخلاف، الْمُعَانَ مِنْهُ بمعوناتٍ غَيْبِيَّة.

وهذه الآية هي بمثابة وعْدٍ ضِمْنَيٍّ من الله عزّ وجلّ، بأنَّ أمَّة مُحَمّدٍ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، سَيَسْتَخْلِفُهُمُ اللَّهُ عزّ وجلّ في الأرض، بالحكْم والسُّلْطانِ، كما اسْتَخْلَفَ الّذِين من قَبْلِهم، ويكون ذلك بمعونةٍ منه جَلَّ وعَلاَ، إذا وجَدَهُمْ في وضْعِهِمْ الإيماني والسُّلُوكيّ، يَسْتَحقُّونَ هذا الاستخلاف، وإذا عَلِمَ ـ جَلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانَهُ ـ أنَّهُمْ إذا صاروا مستخلَفين في الأرض، حمَلُوا مُهِمَّة الهدَايَةِ إلَىٰ دِينِ الله بالحقّ، والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر داخل مجتمعهم بالحقّ والصِّدْق، وحكَمُوا بين الناس بالْعَدْلِ، المستَنِد إلَىٰ قواعدِ الحقّ وضَوَابِطه.

ويتحقَّق هذا الاستخلافُ حينما تُوجَدُ في المسلِمين نِسْبَةٌ كافِيةٌ، نَفسيًا، وعَدَدِيًا، وسُلُوكيًا، للقيام بواجباته، ولا يكُونُ تطَلُّعُهمْ للحكْم والسُّلْطانِ في الأرْضِ ابْتِغَاءَ تَحْصِيلِ متاعِ الحياة الدّنيا، والاسْتِمْتاع بزينَتِها، وإرْضاءِ شهواتِ أنفُسِهم لِلْحُكم والسُّلْطان.

وقَدْ تحقَّقَ بِفَضْلِ اللّهِ جلّ جلالُهُ هذا الوعْدُ الّذِي جَاءَ في هذه الآية ضِمْناً، وجاء صريحاً واضحاً في سورة (النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها خطاباً للذين آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ، واتَّبَعُوا ما أُنْزل إلَيْهِمْ من ربّهم:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا

ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾﴾:

وحين حقَّقَ اللَّهُ عزّ وجلّ للأمَّةِ الإسلاميّة هذا الوَعْدَ، استخلَفَهُمْ فِي الأرض، وأبان لَهُمْ بالواقع العمليّ أنّ الَّذين كَفروا، وكانَتْ لَهُمْ دُولٌ عُظْمَىٰ، لم يَكُونُوا مُعْجِزِين في الأرض، إذْ أسْقَطَ اللَّهُ عزّ وجلَّ دُوَلَهم، وشَتَّتَ شَمْلَهم، ومزّقَ الجبّارِينَ منهم شرَّ مُمَزَّق.

وحين قامَتْ دَوْلَةُ المسْلِمِينَ، واستَخْلَفَهُمْ اللَّهُ في الأَرْضِ بمعوناتٍ غَيْبِيَّةٍ مِنه، هَدَوْا بالْحَقّ، وعَدَلُوا بالْحَقّ، واسْتَمرَّ اسْتِخْلافُهُمْ قُروناً.

ولمَّا فَقَدَ المسْلِمُونَ شُروطَ الاستخلاف المؤيَّد من الله جلّ جلاله وعظُمَ سلطانه، انْتَزَعَهُ مِنهم، كما انْتَزَعَهُ من الَّذين كانُوا مُسْتَخْلَفِينَ قبْلَهم.

لكنَّهم متى عادُوا إلى الالْتزام بشُروط الاستخلاف في الأَرضِ أعادَهُ الله إليهم، تَحْقِيقاً لوعْدِهِ الكَريم.

بقاء طائفة من أُمَّة محمّد ظاهِرِينَ على الحقّ:

تمتاز الأمَّةُ الإسلاميَّة المحمّديَّةُ، بأنَّها أمَّةٌ مُصْطَفاة لحَمْلِ رسالَةِ الإسْلاَمِ دواماً، فلا تجتَمِعُ على ضَلالَةٌ، ولا يَزالُ فيها طائفةٌ ظاهِرِينَ على الحقّ لا يَضُرُّهم من خالَفَهُمْ، ولا مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّىٰ تَقُومَ السّاعة.

وتدخُلُ هذه الطائفةُ في عمومِ قول الله عزّ وجل بشأن أُمَّةِ مُحمَّدٍ ﷺ الَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه:

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ... ﴿١٨١﴾﴾:

ونَجِدُ تَفْصيلاً لهذا فيما روىٰ البخاريُّ ومُسْلِمٌ عَنْ مُعَاوِيَة بْنِ أبي سفيان، قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظاهِرِينَ عَلَىٰ الْحَقِّ لاَ يَضُرّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلاَ مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ تَقُومَ السَّاعة».

وجاء في روايةٍ لهذا الحديث:

«حَتَّىٰ يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ علَىٰ ذَلِكَ».

وجاء في رِوَايَةٍ عَنْ عُمَيْرِ بْنِ هاني قال: سَمِعْتُ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفيانَ عَلَىٰ المنْبَرِ يَقُول: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ:

«لاَ تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي قَائِمَةً بِأَمْرِ اللَّهِ، لاَ يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، أَوْ خَالَفَهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِي أَمْرُ اللَّهِ وهُمْ ظَاهِرُونَ عَلَىٰ النَّاس».

فقامَ مَالِكُ بْنُ يَخَامِرَ السَّكْسَكِيّ فقال: يا أَمير المؤمِنِينَ، سَمِعْتُ مُعاذَ بْنَ جَبَلٍ يَقُولُ: «وَهُمْ أَهْلُ الشّام».

فقال معاوية ـ ورَفَعَ صَوْتَهُ ـ: هٰذا مالِكٌ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَمِعَ معاذاً: «وَهُمْ أَهْلُ الشّام».

❀ ❀ ❀

قول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾:

أي: والَّذِينَ كذَّبُوا مِنْ أُمَّةِ دعْوَةِ مُحمَّدٍ الْعَامَّةِ لكلِّ النّاس بَعْدَ بِعْثَتِهِ، بآيَاتِنَا الْبَيَانِيَّةِ المنزَّلَةِ عَلَيْهِ قُرآناً يُتْلَىٰ، وبآيَاتِنا الإعجازِيَّة الشاهِدَةِ لَهُ بالصِّدْقِ في نُبُوّتِه ورسالَتِه وفي كلّ ما يُبَلّغ عن رَبّه، وبآياتِنا الجزائية، وبآياتنا الكونية.

والتكذيب بآيات الله عزّ وجلّ مُلازِمٌ للكُفرِ بها، ومُلاَزِمٌ لتكذيب الرَّسُولِ، ويقترنُ به بقاء المشرِكِ على عقائده ومفهوماته الشِّركيّة، وبقاءُ النصرانيّ على الباطلِ من عقائِدِه ومَفْهوماته النَّصْرَانِيّة، وبَقَاءُ اليهوديّ على

الباطِلِ من عقائِدِه ومَفْهُوماتِه اليهودية، وبقاءُ كلِّ ذي مِلَّةٍ ومَذهَبٍ ودِينٍ على ما كانَ علَيْه، أو علىٰ مَا اخْتَارَ لِنَفْسِهِ من آراءٍ ضالّةٍ، وعقائد ومفهومات باطلات، سواءٌ اتَّبَعَ فيها أو ابْتَدع.

واختار اللَّهُ عزّ وجلّ هُنَا التَّنْبِيهَ على التكذيب بآياتِه من عناصِرِ الكُفْرِ الكثيرة، لأنَّ الخطَّ الأعظم الَّذي يُمَثِّلُ أعظم عناصر موضوع السّورة، هُو وُجوبُ اتّباع آيات الله اللاتي أَنْزَلَهَا لعباده، ليَعْمَلُوا بما جاء فيها من وصايَا وأحكام، والتحذيرُ من التكذيب بها، وعَدَمِ اتباع ما جاء فيها، ويتّصل بهذا الخطّ الأعظم بيانُ أحوال الّذين كذّبُوا بآياتِ الله ولم يتَّبِعُوها، وبيانُ عُقُوبَاتِهِم العاجلاتِ في الدُّنيا، والآجِلاَت إلى يَوْمِ الدِّين.

● ﴿.. سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾﴾: هٰذِهِ العبارة وما عُطِفَ عليها خبرُ المبتدأ في: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾.

الاستدراج: مأخوذ من الدَّرَج بمعنى الطريق، لا بمعنى دَرَجَاتِ المرقاة، على وزن «اسْتَفْعَل» بمعنىٰ: طلَبَ مضمون الفعل، أو أغراهُ به، أو ساعده على فعله، أو وضع له من المرغباتِ ما يَسْتَمِيلُهُ إلى فِعْله.

يقال لغة: دَرَجَ الرَّجُلُ يَدْرُج دَرْجاً، أي: مشَىٰ في طريقه، وأكثر ما يستعملُ في مشْيِ الشيخ الذي يمشي مشياً دَبّاً، وفي مشي الصبي الذي يمشي مشياً ضعيفاً، وذَلِكَ في أوائل مشْيه.

فمن أسْمَاءِ الطريق لفظ «الدَّرَج» الّذي يَدْرُجُ فيه سالكه «الدَّرَجُ، والْمَدْرَجُ، والْمَدْرجَة» الطريق، وجمع «دَرَجٍ» أدْراج.

ويُطْلَقُ الدَّرَجُ على المراقي، ويقابلُ درجاتِ المراقي الدَّرَكات، واحِدُهَا دَرَكَة.

الدّرَجَات: منازِلُ بعضُها فوْقَ بعض، والدّركات مَنَازِلُ بَعْضُها تَحْتَ بعض.

والاستدراج الْعَادل يكونُ بوَضْعِ أشياءَ في طريق السّالك مما يُحبُّ ويَشْتهي، فكُلَّما تناوَلَ ما أَمَامَه منها وجَدَ بَعْدَهَا أشياءَ مماثِلَةً يُحِبُّها، أَوْ أَكْثَرَ مِنْها إغراءً، فَيُتَابعُ في طريقه رغْبَةً في أَنْ يَنَالها، وهكذا حتَّىٰ يَجِدَ نَفْسَه قَدْ سَقَط في الفخّ، ونزل به العقابُ وهُوَ لاَ يَعْلَمُ أنْ فَخَّ العقابِ مَنْصوبٌ لَهُ في مكانٍ مَا من طريقهِ الَّذِي اختاره لنَفْسِه بإصْرَارٍ، بَعْدَ أَنْ وُجِّهَتْ لَهُ النَّصَائِحُ والتَّحْذِيرات، بأنْ لا يَسْلُك هذا الطريق ذَا الْعَواقِبِ الوخيمة.

هذا إذا كان الاستدراج في سبُل الضلالَة، ونظيره يكون في صراط الهداية، ولكنّ الله لم يُسمِّه في القرآن استدراجاً، بل هو توفيقٌ ومَعُونَةٌ، وزيادةٌ في الْهُدَىٰ، وتيْسِيرٌ، وحلاوَةُ إيمان يَمْنَحُها الله عزّ وجلَّ للسّالكين المؤمنين على طريق مرضاة ربّهم.

وخصَّ اللَّهُ عزّ وجلّ في القرآن الاستدراج بالنَّوْع الأوّل، للتفريق بيْنَ النوعَيْن المتَشَابِهَيْنِ في الجنْسِ العامّ لوسَائِلِهِمَا.

● ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي: من مكانٍ لا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ يُسْتَدْرَجُونَ بأشياءَ وُضِعَتْ فيه، لتَرْكِهم على حرّيّاتهم يُتَابِعُونَ مَسِيرَتَهم بمقتضىٰ أهوائهم وشهواتهم، حتَّىٰ تَدْمَغَهُمُ الإدانَةُ بأوفَىٰ وأكْمَلِ صُوَرِها.

فإذَا نَزل بهم عقابُ الله العادل، لم يَجِدُوا عُذْراً يَعْتَذِرُونَ به عند رَبّهم، ولا تكون دعْواهم حينَئِذٍ إلاّ أن يَقُولوا: إنّا كُنّا ظالمين، معترفين لرَبّهم بأنَّهُمْ عَصَوْهُ، وخالَفُوا أوامِرَهُ ونواهِيَهُ ووصاياه، ولم يعْبَؤُوا بتحْذِيراتِه وإنْذَارَاتِهِ ظالِمينَ أنْفسَهُمْ بالاسْتِهانَةِ بحَقّ اللَّهِ عليهم.

قول الله تعالى:

● ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾:

يقترن بالاستدراج الذي سبَقَ بيانُهُ وتحليلُ عناصِرِه، للّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ الله، أنْ يُمْلِيَ اللَّهُ لهم، أي: أن يُرْخِي لهُمُ الحبْلَ، فتَزْدَادَ حُرِّيَّةُ حَرَكَتِهِمْ في الحياة، وأنْ يُمْهِلَهُمْ ويُؤَخِّرَهم بإطالَةِ أعمارهم.

يقال لغة: أمْلَىٰ لَهُ إمْلاءً، أي: أمْهَلَه، وطَوَّلَ لَهُ مَجَالَ حُرِّيَّتِه، وأطال عُمُرَه.

وفعل «أمْلَىٰ» يَدُورُ اشتقاقه حول أصْلَيْن:

الأصل الأول: «الْمَلاَ» وهو ما اتَّسَعَ من الأرض، يقال لغة: أمْلَىٰ للْبَعيرِ في القَيْد، أي: أرخَىٰ له، ووسَّعَ وطَوَّلَ لَهُ فيه، لتزداد حُرِّيَّةُ حَرَكَتِه في الْمَلاَ، أي: فيما اتَّسَعَ لَهُ من الأرض.

الأصْلُ الثاني: «المَلْوَة» وهي المدّة من الزَّمَن، ومن هذا المعنى عبارة: ﴿وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ أي: واهجُرْني زمَناً فانْقَطِعْ عَنّي فيه.

فمعنى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾: وأُمْهِلُهُمْ، وأُطَوِّلُ لهم، حتَّىٰ تزدادَ حُرِّيَّةُ حركتهم في الحياة، وقَدْ أُطَوّلُ أعْمَارَهم لإقامة الحجَّةِ الدَّامِغَة لَهُم.

● ﴿.. إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾:

الكَيْدُ في اللّغة: التدبير بحَقٍّ، أو بباطل. والحربُ، وإعْدادُ وسائله، ولكِنَّ الله عزّ وجلّ لا يَكِيدُ إلاَّ بالحقّ.

المتينُ في اللّغة: الصُّلْبُ الشّديد القويُّ، يقال لغة: مَتُنَ الشيْءُ يَمْتُنُ مَتَانَةً، أي: صَلُبَ واشْتَدَ وَقوِي، فَهُوَ مَتْنٌ، وَمَتِينٌ.

والمتِينُ: من أسماء اللَّهِ الحسْنَىٰ، بِمَعْنَىٰ القدِيرِ ذي الْقُوَّةِ والشِّدَّة.

أي: ولكِنْ إذَا اقتضَتِ الحكمْة إنزالَ العقوبَةِ العادِلَةِ بهم، وقَصْمَ ظُهُورِهم، وقطْعَ دابِر شُرُورِهم، فإنّي أُدَبّر لهم كَيْداً متيناً، لا يسْتَطِيعُونَ التخلُّصَ مِنه.

ومعنىٰ: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾: إنَّ تَدْبيري مُحْكَمٌ قَوِيٌّ، ووسائِلَ عِقَابي وحَرْبي للطغاةِ المجرمين، الذين يُكذّبون بآيَاتِي، شديدة قويَّةٌ صُلْبَةٌ، لاَ يَمْلِكُ أَحَدٌ مِنْ دُوني حَجْزَها ولا منْعَها، وَلاَ مُقَاوَمَتها، ولا الصُّمُودَ أَمَامَها.

وقد جاءت هٰذِهِ العبارة بمثابَةِ إنْذارٍ للمكذِّبين بآيَاتِ الله، إذْ فيها إلْماحٌ إلَىٰ أنَّهُمْ سَيُلاقُون من اللَّهِ حَرْباً لاَ يَسْتَطِيعُون دَفْعَها، ولا الْخَلاَصَ مِنْ سَطْوَتها، ولا الفِرارَ من عذابها.

والكلام على تقدير: وأُمْلي لهم أوّلاً، ثُمَّ أُنزِلُ بهم عِقابي وعذابي، بتَدْبِيرٍ مُحْكمٍ، وبوسائل شديدة قويَّةٍ صُلْبَةٍ، لأنَّ كيْدِي مَتِين.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

● ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾:

استفهامٌ فيه معنَىٰ التَّلْويم والتوبيخِ والتثْريبِ والإنْكارِ، مع الْحَثِّ على التفكُّر في شخصِيَّةِ الرَّسُولِ محمَّدٍ وكمال صِفَاتِه البشريّة، وكمال أخلاقه، وعظيم ما جاء به عن ربّه.

فهٰذِهِ الآية تتحدّث عن المكَذّبين بآياتِ اللَّهِ، الَّذِينَ كذّبوا رسول الله محمّداً ﷺ، وكذّبوا بما أنزل الله عليه من آيات بيانية، وبما أَيَّدَهُ رَبُّهُ بِهِ من آياتِ إعجازية، بأسلوب الحديثِ عن الغائبين، لا بأسلوب مواجَهَتِهم بالخطاب، إعْراضاً عنهم، وتَحْرِيضاً على تَلْويمهم وتَثْريبهم، بِبَيان فسَادِ مذهبهم بشأنِه فَسَاداً لا يقْبَلُ به أدنَىٰ الَّذِين لديْهِمُ تَفْكِيرٌ سَليم.

سبب النزول:

ورد في سبب نزول هٰذا النّصّ ما رُوِي عن الحسَنِ وعَنْ قتادَةَ، فقالَ قتادَةُ بْنُ دِعَامَة:

«ذُكِرَ لَنَا أَنَّ نبيّ اللَّهِ ﷺ كَانَ على الصّفا، فَدَعَا قُرَيشاً، فجَعَلَ يُفَخِّذُهم[1]، يَا بَني فُلان، يَا بَنِي فُلاَن، فَحَذَّرَهُمْ بَأْسَ الله، وَوَقَائِعَ الله.

---

(١) يُفَخِّذُهم: أي: يَذْكُرُهم فَخِذَا فَخِذاً.

فقال قَائِلُهُمْ: إنَّ صاحِبَكُمْ هٰذَا لمجْنُونُ، بَاتَ يُصَوِّتُ إِلَىٰ الصَّباح، أو حَتَّىٰ الصَّبَاح.

فأنزل اللَّهُ تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

عبارة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ مُصَدَّرةٌ باستفهام تعْجيبيّ، توبيخيّ، إنكاريّ، يَدُلُّ علىٰ أنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيات اللَّهِ البيانيّة، قَدْ سَلَكُوا مسلَكاً مُنَافياً لموازِينِ العقولِ السّليمةِ من عِدَّةِ وجُوه:

الْوَجْهُ الأوّل: أنَّ آيَاتِ اللَّهِ في القرآن الّذِي كذَّبُوا به، هيَ بحَدِّ ذَاتها وما فيها من إعجاز فكرِيٍّ وَبَيَانِيٍّ بَليغ، تَدُلُّ على أنّها تَنْزِيلٌ مِنْ لَدُنْ عزيزٍ حكيم عليم، ولَيْسَتْ كلاَماً من كلامِ البشر، ودَلالَتُها الذاتية هذه تُؤَدِّي باللُّزوم العقْلِيّ إلىٰ دَلاَلَةٍ أُخْرَىٰ، وهيَ أنَّ مبلِّغَ هذا القرآنِ عن رَبّه صَادِقٌ في تبليغِه، وأنّه أهْلٌ للاصطِفَاء بالنُّبُوَّة والرّسالة، بمقتضىٰ حكْمة الله، مُنَزّل القرآنِ عليه، فهو كامل العقْلِ، عظيمُ الفِطْنَةِ، لا يُمْكِنْ أَنْ يكونَ بِهِ جُنُونٌ.

فلَوْ أنَّ الّذين اتَّهَمُوهُ بالجُنونِ لأَنَّهُ دَعَا عشيرتَهُ إلى دِينِ الله في مكّةَ فَخِذاً فَخِذاً، طَوال ليلَةٍ كاملة، تفكَّرُوا في آياتِ اللَّهِ المنزَّلاَتِ عليه، الَّتي يُبَلِّغُهُمْ إيَّاها، وكانَ لدى كلّ واحدٍ منهم فكرٌ نظيف، ورأيٌ حصيفٌ، وَوِجْدَانٌ مُنْصِفٌ، لمَا اتَّهَمُوهُ بالجُنونِ، بَلْ لآمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه.

الْوجْهُ الثاني: أنّ شَخصيَّة الرَّسول محمّد ﷺ، الَّتي عَرَفُوهَا في تَعَامُلِهم معه، قبلَ بِعْثَتِه، وبَعْدَ بِعْثَتِهِ، وأنّ دعْوَتَهُ إيَّاهم إلى دين اللَّهِ الحقّ، وإلىٰ نَبْذِ أوْثَانهم وعَقَائِدِهمُ الخرافية، والإيمانِ الكامل بتوحيد الله في رُبُوبيَّتِه وإلٰهيَّتِهِ، لَيْسَ فيها أمارَةٌ واحِدَةٌ عَلَىٰ أَنَّ بِهِ جُنُوناً ما.

فكيف يتّهمُونَه بالجنُونِ علىٰ سبيل قَذْفِ الشتائم، الَّتي يَدْفَعُ إليها الغضَبُ، أو النفور، أو كراهيتُهُمْ تَرْكَ مَا هُمْ عليه من تقاليد، أو كراهيتُهُمْ

مَا وَجَّهَ لَهُمْ من إنْذاراتٍ بعذاب اللَّهِ، إِذَا أصَرُّوا علىٰ شِرْكهم، ولم يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَتِه.

لقَدْ كان عليهم أنْ يتفكَّرُوا قَبْلَ أنْ يَقْذِفُوا شَتَائِمَهُمْ دُونَ تفكير.

وقَدْ دَلَّ على هذا الوجْهِ الثاني صريحُ عبارَةِ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾.

جِنَّة: قالَ اللَّيْثُ: الجِنَّةُ الجنُون. الاسْم والمصْدَرُ على صُورَةٍ واحِدَة، يُقَالُ: فُلاَنٌ بِهِ جِنَّةٌ، وجُنُونٌ، وَمَجَنَّة، والفِعْلُ الماضي مِنْهُ: «جُنَّ» بالبناء لما لم يُسَمَّ فاعله.

والمعنى: لو تفكَّرُوا لَمَا جَازَفُوا بِإِطْلاَقِ مَقُولَتِهِم الَّتي لَيْسَ فيها من الحقيقة الفكرِيَّةِ شيءٌ، فَعَلَيْهِم أَنْ يُرَاجِعُوا أَنْفُسَهُمْ بالتفكُّر، ليَعْلَمُوا أَنَّ صاحِبَهُمْ محمّداً الَّذِي يُنْذِرُهم بعَذاب رَبّهم، أكْمَلُ مِنْهُمْ عقلاً وَتفكِيراً، وأَبْصَرُ مِنْهُمْ بما يَنْفَعُهم وبما يَضُرُّهم.

وعليهم أن لا يَنْسَوْا أنّهم قد صاحَبُوهُ زمَناً طَوِيلاً، فَلَمْ يَجِدُوا فيه ما يُشعِرُهم بأيَّةِ أَمَارَةٍ من أمَارَاتِ الجنون، بَلْ وجَدُوا فيه ما يَدُلُّ على عَقْلٍ رَاجِحٍ، وفِطْنَةٍ فَذَّةٍ، وخُلُقٍ عظيم.

وأمّا الوجْه الأوّل فمطويٌّ في اللَّفْظِ لَمْ يُصَرَّحْ به، لكن أشار إِلَيْه حَرْف العطف «الواو» الوارد بَعْدَ هَمْزَةِ الاستفهام، ولدى التصريح بهذا المطويّ نقول:

أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا بآيَاتِنَا الَّتي يُبَلِّغُهم إِيَّاهَا رَسُولنا محمّد، لِيَعْلَمُوا منها أنّه رَسُولٌ صادقٌ أمين كامِلُ العقل والفطْنَة، أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا ما بِصَاحِبِهم من جِنَّةٍ[1]، أي: أَوَ لَمْ يَتفكَّرُوا بشخصيَّة صاحبهم محمّد الذي يَعْرِفُونَه قبْلَ

(١) أأكّد أنّ العطف على محذوف مطويّ، لا يقتصر على الفاء الفصيحة الّتي ذكرها=

النبوّة وبعدها، ليَعْلَمُوا انتفاءَ أيّ صورة من صُوَر الجنون عنه.

جملة: ﴿بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾ جملةٌ خَبرِيَّةٌ تنفي على سبيل الاستغراق المؤكّدِ بِدُخولِ حَرْف الجرّ التأكِيدِيّ «مِنْ» على المبتدأ وهو لفظ ﴿جِنَّةٍ﴾ بَعْدَ نفْيٍ في صَدْرِ الجملة بِحَرْفِ النفي ﴿مَا﴾. وعبارَة ﴿بِصَاحِبِهِم﴾ خَبرٌ مُقَدَّم.

وهذه الجملة أغْنَتْ عن ذكْرِ مَعْمول فِعْل: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ لأنَّ تفكُّرَهُمْ في شَخْصِهِ سَيُوصِلُهم حتْماً إلى الإقرارِ بمَضْمُونها حتْماً، أي: ألم يتفكروا بشَخْصِ صاحبهم محمّد المرسَلِ من الله إليهم، ما به من جِنَّة.

● ﴿... إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾:

[إِنْ] هنا حرف نفي بمعنىٰ «ما» النافية، أي: ما صاحِبُهُمْ محمّد بالنّسبة إليهم وإلى سائر الّذِين كذَّبُوهُ وكذَّبوا بِمَا جاءَهُمْ به عن رَبّه إلاّ مُنْذِرٌ لَهُمْ، غيُورٌ عليهم، حريصٌ على نجاتهم، بما يُوَجّه لهم من إنْذَارٍ يُلِحُّ عَلَيْهم فيه، بدليل صِيغة «نَذِير» الّتي تحْمِلُ معنى تأكيد إنْذارِه مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ مع الشِّدّةِ في الإنذار، لأنها من صِيَغ المبالغة.

﴿مُّبِينٌ﴾: اسم فاعل من فعل «أَبَانَ» بمعنىٰ أَفْصَحَ عَمَّا يَدْعُو إليه، وأظهر وأوضح، فلم يُقدّم دعوته لقومه على طريقة الرموز والإشاراتِ والإيماءات والأحاجي والأمثال البعيدة المدْرَك.

الوجه الثالث: أنّ آيات الله الكونيّة المنبَثَّةَ في مَلَكُوتِ السماواتِ والأرض، وكلُّ ما خَلَقَ الله من شيءٍ في هذا الكَوْنِ الكبير، تَدُلُّ على صِدْقِ محمّد فيما يَدْعوهم إليه، من توحيد الرُّبُوبيّة لله عزّ وجلّ، الذي يلزم

= النحاة، بل كلُّ حروف العطفِ قد تفصح عن معطوف عليه مطويّ في اللّفظ، ويمكن استخراجُه ذهناً، وهو كثير في القرآن.

عنه عقلاً توحِيدُ إلهيَّتِهِ جلّ جلالُهُ لا محالة، فَلا شريك له في ربُوبيَّتِه، ولا شريك له في إلَهيّته.

وهذا الوجه قَدْ دلّت عَلَيْهِ الآية (١٨٥) الآتي تدبُّرها بعَوْنِ اللَّهِ وتَوفيقه وتسديده.

قول الله تعالى:

● ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى﴾: أيْ: أَوَ لَم يَنْظُرُوا نَظَرَ تفكُّرٍ وتَدَبُّرٍ وبَحْثٍ علمي، وهٰذه الجملة مَعْطُوفَة على جملة: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ في الآية السَّابقة، وقُدِّمَ حرفُ الاستفهام على حرف العطف فيهما لأنَّ له الصدارة في الجمل، والمرادُ: فلْيَنْظُرُوا وليتفكّروا.

﴿مَلَكُوتِ﴾: صيغة مشتقَّةٌ من «الْمُلْك» للتعظيم، والتفخيم، والمراد بالْمُلْك كُلُّ ما هُو خاضِعٌ لسُلْطَانِ اللَّهِ الخالقِ الرَّبِّ الْمَلِك المتصرّفِ على ما يشاءُ بحكمَتِه، في هذا الكون الكبير الفسيح الَّذِي لاَ تحيط به مدارك العقول.

فالمعْنَىٰ: إذا لم يكونُوا قَدْ نظروا، فلينْظُرُوا نظَرَ تَأَمُّلٍ وتفكُّرٍ، في هٰذا المُلْكِ العظيم المنْضَبِط بإحكامٍ وإتقانٍ ودقَّةٍ مُتَنَاهِيَةٍ، في السَّمَاوَاتِ والأرض، وفي كلِّ شيءٍ مَخْلُوقٍ في هذا الكوْنِ، ليَعْلَمُوا من آياتِهِ أنّ الرَّبَّ المتصرّف بشؤونه واحِدٌ في رُبُوبيَّتِه، لا يُشَارِكُهُ فيها شريكٌ ما، وأنّه هُوَ مالِكُ كلّ شيءٍ ومليكِهِ، فلا شريكَ له في رُبوبيّته، ويلْزَمُ عن هذا عقلاً أنّه لا شريك لَهُ فِي إلَهيّته.

فإذا تحقَّقُوا مِنْ هٰذا عَلِمُوا أَنَّ صاحِبَهُمْ محمّداً يَدْعُوهُمْ إلى الحقّ، وإلى

دين الله الحقّ، وهذا العلْم يهديهم إلَىٰ أَنْ يُصَدِّقُوا بآيَاتِ الله المنَزَّلاَتِ عليه.

الوجه الرابع: أنَّ آيات الله الجزائيّة الّتي تضمَّنَتْ مُعَاقَبَةَ المكذِّبينَ من أَهْلِ الْقُرُونِ الأولَىٰ، بالإهلاك الشامل، ونجاةَ الرُّسُلِ والَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، والّتي جاء في السورة عرْضُ أَمْثِلَةٍ كَثِيرَةٍ منها، مِن المهْلَكِينَ المكذِّبِينَ الأولين، تدلُّ على سنّةِ الله في عبادهِ، أليس في هذه الآيات الجزائيّة الّتي كشفَتْها الأمْثِلَةُ التَّارِيخيَّة الواقعية، ما يَدُلُّ أَهْلَ النَّظَر المتفكّرينَ على صِدْقِ مَا جَاءَ به محمّد عن رَبّه، فتَهْدِيهم إلى الإيمان بِه، وإلى الإيمان بالآيات البيانيَّةِ المنَزَّلَةِ عليه، مسوقين بالخوف من العقُوبةِ الرَّبَّانية أن تنزل بهم، كما نَزَلَتْ بالَّذِين من قبلهم.

وقد أَلْمَحتْ إلى هٰذا الوجْهِ العبارة التالية من الآية:

● ﴿... وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ... ﴿١٨٥﴾﴾:

أي: أو لَمْ يَتَفَكَّرُوا في آيات اللّهِ الجزائية، أَوَ لَمْ يَقَعْ في تقديرهم أنَّ شَأْنَهُمْ صار مُتَوقعاً مَعَهُ أَنَّ مُدَّةَ إمْهَالهم قد اقتربَتْ مِنَ الانتهاء، وأنَّ أَجَلَ إنْزَالِ الْعِقَاب بِهم قَدِ اقترب.

إنّ هٰذا التوقُّع كافٍ لأَنْ يَرُدَّهم إلى الحقّ.

بَعْدَ هذا الحِصَارِ البَيَانيّ الاسْتِدْلاَليّ من كلّ الجهات، صار من الحكمة أن تُخْتَمَ الآيَةُ بقَوْل الله عزّ وجل:

● ﴿... فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾:

أي: فإذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهٰذَا الحدِيثِ فلا يُوجَدُ بَعْدَهُ حَدِيثٌ أَخَرُ يجعلهم يؤْمِنُونَ، لأنّ كلَّ حديثٍ آخر سيكونُ دُون هذا الحديثِ الحصاري، الْمَتِين بالْحُجَجِ البرهانيّة الدَّوامغ.

ولا بُدَّ من التَّنْبِيهِ هُنَا على أَنَّ عُقْدَةَ الامتحانِ بالإيمانِ، هِيَ الإيمان

بالغيب، وأنَّ الوسيلَةَ الإقناعِيَّةَ للإيمان بالْغيب هي الأدِلَّةُ الفِكْرِيَّة والعلميَّة، وأنَّ أفْضَلَ وسيلَةٍ لتوصيل هٰذه الأدلَّةِ إلَىٰ عُمْقِ الأفكار، فَعُمْقِ الْقُلوبِ، هِيَ وسيلةُ الحديثِ المنطقيّ العقليّ الهادىء، الّذِي يشْتَرِكُ فيه المحدِّثُ والمتلَقِّي على تَحَاوُرٍ سواءٍ بيْنَهما.

فأسْلُوبُ الحديث المنطِقِيّ العقْلِيّ الهادِىءِ، يفُوقُ في تأثيره كلَّ بَيَانٍ آخر، كالخطابة، والدّرْسِ، والمحاضَرَة، والشّعْر، ولهذا وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ ما جاء في كتابِه بأنّه من قبيلِ الحديثِ، فقالَ تبارك وتعالى في سورة (الزُّمَر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾﴾:

ومن هذا يتبيَّنُ لَنَا أنّ الحديثَ هو وَسيلَةُ التأثير الْفُضْلَىٰ الّتي يَقُومُ بها الرُّسُلُ والأنبياء، والدّعاةُ إلى دين اللَّهِ المتأسُّونَ بهم.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ تعالى:

● ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

بعد حصار المكذّبين بآيات الله البيانيّة المنزّلَة على رسوله محمد ﷺ من أربعة وجُوه، اقتضتِ الحكمةُ البيانيَّةُ توجيه الأنظار التفكُريَّة لغاية الامتحان في ظُروف الحياة الدنيا، وهي تتمثّل بأمْرَين رئيسَيْن:

الأمْرُ الأول: الحكم على مَنْ ضلَّ في رحلة امتحانِهِ، بالضلال الّذي لاَ يحكم فيه إلاّ الله وحْدَهُ لا شريك له.

وبَعْدَ الحكم بالضلال في العاجلة، فقد تقتضي حكمة العزيز الجبار

إنزالَ عقابٍ مُعَجَّلٍ في الدنيا، قبل الحكْمِ بالضلالِ يَوْمَ الدِّين والعقابِ في جهنَّمَ دارِ الظالِمين المجْرِمين.

وقد تقتضي حكمتُه جلّ جلالُه إمْهَالَ المكذّبين، وتَرْكَهُمْ في طغيانِهم يَعْمَهُونَ، حَتَّىٰ تَأْتِي آجالُهُمُ المقدَّرَة لكلّ واحِدٍ منهم، فيمُوتُونَ فيها، ويَنَالُونَ طَرَفاً مِنْ عَذابِهِمْ بَعْدَ مَوتهم، في مُدَّة البرزخ بين الموْت والبَعْثِ، ثُمَّ يُبْعَثُونَ ويُحَاسَبُونَ، ويَحْكُمُ العزيز الجبّارُ عليهم بالضلال في محكمة العدل العظمَىٰ، ويُسَاقُونَ إلى دار عذابهم الأبَدِيّ.

والحكم على الضالين يكون بحسَب منازلهم في دركات الضَّلالِ وشدّةِ ما ارتكبوا من جرائم.

الأمر الثاني: الحكم لمَنِ اهتَدىٰ في رحلة امتحانه بالهداية، وبأنَّه مِنَ المهتَدِينَ الَّذِين يستَحِقُّون دُخول الجنَّةِ، والْخُلُودَ فيها.

والحكم للمهتدين بالهداية يكونُ بحَسَب درجاتهم في الهداية، ومنهم العصاةُ الَّذِينَ يستحقُّونَ عذاباً أقلَّ من الخلود في دار العذاب. ثُمَّ يكونُ مَصِيرُهُمْ إلى الجنة خالدين فيها بفضل الله، لأنَّهم ماتُوا على إيمان صحيح، مهما كانوا قد أسْرَفُوا على أنفسهم بالمعاصِي والمخالفاتِ، ويكون تَعْذِيبهم بمثابَةِ التطهير لهم مِمَّا حَمَلُوا مِنْ أرْجاس الآثام والخطايا.

وقد جاء في الآيَة بيانُ أَنَّ مَنْ يَحْكُم اللَّهُ علَيْهِ بالضَّلاَل، فلا يُوجَدُ أَحَدٌ يَسْتطيع أَنْ يحكُمَ لَهُ بالهداية من دُون اللَّهِ، سواء أكان ذلِكَ في الحياةِ الدنيا قبل الْموتِ، أمْ كانَ في الآخرة، لأنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُهُ، هو الذي وضَعَ عِبَادَهُ الممتَحِنينَ موضِعَ الامْتحان، فَهُو الذي يُحَاسِبُهم، ويَحْكُمُ عليهم، ويُجَازِيهم وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له.

ويُفْهَمُ بالمقَابِلِ ـ ولَوْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ في الآيَةِ ـ أَنَّ مَنْ يَحْكُمُ له بالهداية، فَلاَ يُوجَدُ أَحَدٌ يستطيعُ أن يَحْكُمَ عليه بالضلال من دُون الله.

إنِ الحكْمُ إلاَّ لِلَّهِ في قضايا امتحان الْعِبَادِ في ظروف الحياة الدُّنيا، والجزاءُ الَّذِي يَقْضِي اللَّهُ به، ويتحقَّقُ بأمْرِهِ تَنْفِيذُه، هو الجزاء الذي ينالُهُ كلُّ فردٍ من الأفرادِ الَّذِين مَرُّوا رِحْلَةَ الامْتحانِ في ظروف الحياة الدنيا.

واقتصر النصّ هنا على الحكم بالضّلالِ، لأنَّ الحديث يتعلَّقُ بالمكَذِّبين بآيَاتِ الله، بمقْتَضَىٰ السّوابقِ في النّصّ.

● ﴿... وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾﴾:

أي: ومَنْ وَصَلَ من أهل الكفر والتكذيب إلى أن يَحْكُمَ اللَّهُ عليهم بالضَّلال، وهم ما زالُوا في الحياة الدنيا، لِعِلْمِ اللَّهِ بأحوالِ نُفُوسِهِمْ وقلُوبهم، وأنّهم صاروا قوماً ميئوساً منْهُمْ، وَلَمْ تقتض حكمتُهُ إنْزَالُ العقوبة العاجلة بهم بإهلاكهم إهلاكاً شاملاً، لأنَّ فسادهم العامّ لم يَصِلْ إلى المستوىٰ الّذي يقتضي إهلاكهم إهلاكاً شاملاً، فإنَّ اللّه جلَّتْ حكْمتُهُ يَتْرُكُهُمْ في طغيانِهم يَعْمَهُونَ، مُتَحَيّرين متخبِّطين.

﴿وَيَذَرُهُمْ﴾: أي: ويَتْرُكُهم، قال عُلَمَاءُ اللّغة: قَدْ أَهْمَلَ العربُ ماضيَ هذا الفعل ومَصْدَرَه، وبقي في الاستعمالِ المضارع والأمر.

والقراءة الأخرى بالجزم: ﴿وَيَذَرْهُمْ﴾ عطفاً على جواب الشرط باعتباره في موضع فعل مجزوم، أو هو مُسَكّنٌ تخفيفاً، أمّا القراءة بالرّفع ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ فهي على أنّ الجملة مستأنفة.

﴿فِى طُغْيَٰنِهِمْ﴾: أي: في تجاوزهم عبْرَ رحْلَة امتحانهم حُدودَ اللَّهِ فيما أَوْجَبَهُ من إيمانٍ وعَمَل، وفيما حرّمَهُ من عقيدة وعَمل.

﴿يَعْمَهُونَ﴾: الْعَمَهُ: التَّحيُّر، والتردُّد، وانطماسُ البصيرة، وهُوَ في الْبَصِيرَة كالْعَمَىٰ في الْبَصَر.

فنَفْهَمُ من قول الله تعالىٰ: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أنّ من وصَلَ

إلَىٰ حالَةِ ميؤوسٍ منها، وعَلِمَ اللَّهُ منْهُ ذلِكَ، حكمَ عليه بالضّلال، وهو ما زالَ في الحياة الدُّنيا، ومَنْ وَصَلَ إلى حَالَةٍ ميؤوسٍ مِنْها لانطِمَاسِ بَصِيرَتِه، فَلاَ سَبيلَ إلى هدايتِهِ بأيِّ وسِيلَةٍ إقناعيَّةٍ أو ترغيبيَّةٍ أو تَرْهيبيَّة، ولا يُوجَدُ أَحَدٌ بَعْدَ الله يحكم له بالهداية، إن الحكْمُ إلاَّ لِلَّه.

ونفهم أيضاً أَنَّ الَّذِين وَصَلُوا إلى هٰذِهِ الحالَةِ الميؤوس منها، ولَمْ يبْلُغْ تواطُؤُهُمْ على الإفسادِ في الأرض مبْلَغاً تقتضي الحكْمةُ الرَّبَّانيَّةُ معَهُ أَنْ يُهْلكَهُمْ إهلاكاً جماعيًّا، فإنَّ الله عزّ وجلَّ يتْرُكُهُمْ حينئذٍ يتخبَّطُون مُتَحيّرين في ظلماتِ أهوائهم وشهواتهم وضلالاتهم، ويَسِيرُونَ كالْعُميان لا يَعْرِفُونَ سبيلاً يوصِلُهُمْ إلىٰ سَعَادَتِهِمْ الحقيقيَّة.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

يخاطبُ اللَّهُ عزّ وجلَّ الرسولَ محمّداً ﷺ بهاتَيْنِ الآيتَيْن، فيُعَلِّمُهُ فيهما كيْفَ يجيبُ السَّائِلين عَنْ وقت قيام الساعَةِ، وعَنْ أُمُورٍ من الغيب لم يُعْلِمْهُ اللَّهُ بها، وعن حُدُودِ قُدْرَتِهِ فيما يخُصُّ ذَاته فضْلاً عمَّا يَتَعلَّقُ بغَيْرِه.

وقد اشتمل هذا النصّ على أوّل بَيَانٍ قُرآنيٍّ بشَأْن سُؤَال المشركين عن السّاعة، أي: عن وقت حدوث السَّاعَةِ الموعود بها.

● ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾: أُطْلِقَ لفظ «السَّاعَة» في القرآنِ علىٰ وقْتِ إنْهاءِ ظُرُوفِ هٰذِهِ الحياة الدُّنيا وأحداثها. وأُطْلِقَ على وقْتِ بَعْثِ الناسِ من

أجْدَاثِهِم إلى الحياةِ الأخرى، حياة الحساب، وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء. وأُطْلقَ علىٰ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ قليلةٍ، وفْقَ مَفْهُومِ الْعَرَب للفظ السَّاعَة، إذْ يُطْلَقُ لفظ «السَّاعَة» عند العرب، ويُرادُ به جزْءٌ قليلٌ من النهار واللّيل، دُونَ تحديد بأن يكونَ جزءاً من أربع وعشرين جزءاً الّتي هي مجموع ساعاتِ اللّيل والنّهار، يقول العربيُّ: جلسْتُ ساعَةً، أو مرَّ بي فُلاَنٌ في ساعة، يُريدُ بذلكَ وقتاً قليلاً، ويُطْلَقُ لفظ الساعة أيضاً عند العرب، ويرادُ به جزْءٌ من أربع وعشرين جزءاً من زمن اللّيل والنهار.

والمراد بسؤال المشركين عن الساعة سؤالُهم عن وقْتِ إنْهاءِ ظروفِ هذه الحياة الدنيا وأحداثها، بإبادة كُلِّ مظاهر الحياة فيها، وبَعْدَ ذلك يأتي وقْتُ قيام الساعة الّتي يكونُ عندها البعْثُ إلى الحياة الأخرى بَعْدَ الموت، للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيق الجزاءِ بالْعَدْل أو بالفضل، على مراد الله العزيز الحكيم العليم القدير.

● ﴿أَيَّانَ مُرْسَنهَا﴾: أيَّانَ: اسْمُ استفهام يُسْأَلُ به عن الزَّمَانِ المستقبل، ويسْتَعْمَلُ عادةً فيما يُرَادُ تعظيم أمْرِهِ، وتفخيمُ شأنه، أو فيما يرادُ التعبير عن استغرابه واستبْعاده.

فاستعمال لفظ «أيّانَ» في السُّؤَال عن وقْتِ حدوثِ الساعة الأولَىٰ، الّتي يكونُ بعْدَها وقْتُ حدوث الساعَةِ الأخرى، ساعَةِ البعْثِ، استعمالٌ في غايَةِ الدّقة.

﴿مُرْسَنهَا﴾: مصدرٌ ميمي، من فعل «أرسَىٰ» اللاّزم، بمعْنَىٰ «رَسَا» تقول لغة: «رَسَا الشيْءُ يَرْسُو رُسُوّاً» وتقول: «أَرْسَىٰ الشَّيْءُ يُرْسِي إرْسَاءً» أي: ثبَتَ واسْتَقَرَّ.

ويجوز أن يكون «مُرْسَاها» اسم زمانِ رُسُوّها.

ويأتي فعل «أَرْسَىٰ» متعدّياً، فتقول لغة: «أرْسَاهُ يُرْسيه إرساءً» أي: ثَبّتَهُ.

وشاع استعمالُ الرُّسُوّ والإرْسَاءِ للدلالة على وصولِ السُّفُنِ إلى الميناء، وإلْقاء مَرَاسيها لتثبُتَ وَتَسْتَقِرّ.

فدَلّ استعمال لفظ: ﴿مُرْسَنٰهَا﴾ على معنيَيْن، هُمَا: أيَّانَ رُسُوَّها، وأيَّانَ إرْساء الله لها.

وفي استعمال الرُّسُوّ والإرْساء، للدّلالة على وقْتِ انتهاء مَسِيرة هٰذه الحياةِ الدُّنيا، استعارةٌ قائمة على تَشبيهها بالسفينة، وتشبيه الزمن بالبحر، وتشبيه انتهاء نظام هذه الحياة الدنيا وأحداثها بالرُّسُوّ في مَرْفأ هذا الْبَحْرِ الزَّمَنِي.

والغرض الفكريُّ من هٰذِه الاستعارة الدّلالة على معنًى فلْسَفِيٍّ دقيق، هو أنّ هذا النظام الكونيّ بتراتيبه وتصاريفهِ المتتابعةِ لحظةً فلحظةً، وبالتغيرات المستمرّات اللواتي تجري فيه، يُشْبِهُ سفينة جاريَةً في الْبَحْر، لَهَا في كلّ لحظةٍ موقعٌ وحَرَكَةٌ جَدِيدانِ دواماً، وأنَّ هذا التجدّدَ لا ينتهي إلاّ إذا قامَتِ السّاعَة، وانتهىٰ بقيامها كلُّ هذا النظام، كما تَتَوقّفُ السّفينَةُ في الميناء، وتُلْقِي مَرَاسِيَها، وتَثْبُتُ وتَسْتَقِرُّ عِنْدَه.

فلم يكن استخدام هذه الاستعارة لمجرّد الإمتاع الفنّيّ بصورةٍ بلاغيَّةٍ جماليّة، بل اقترن به غرض فكريٌّ اشتمل على بياناتٍ ذواتِ قيمةٍ، معَ الإيجاز الشديد، والاقتصاد في العبارة، وهكذا شأْنُ التشبيهاتِ والاستعاراتِ، إذْ تكفِي فيها الكلمةُ الواحدة للدّلَالَة على معاني جُمَلٍ كثيرة، فهي تُغْنِي في الدلالة على معانيها، مع ما فيها منْ جَمالٍ يسُرُّ المتفكّرين.

فالعبارة القرآنية: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ بهذا الإيجاز الذي هو غاية في الاقتصادِ في العبارة، تَحْمِلُ أبْعاداً فكريّةً واسعة، مع أنّ السؤال فيها مؤلف من لفظَتَين فقط: ﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ لكنّهما مُنتَقاتَانِ بدقّةٍ فائقة.

قول الله تعالى:

• ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً... (١٨٧)﴾.

في هذا النصّ تعليمٌ رَبَّانِيٌّ يُعَلِّم الله عزَّ وجلَّ به رسولَهُ، كيفَ يُجِيب السّائلين عن وقت قيام السَّاعة، وبالتأمُّلِ والتدبُّرِ نلاحظُ أنّ فيه إجابةً شاملةً، عنْ كلّ التساؤلات المحتَمِلاَتِ عن السَّاعة، بأربعِ جُمَلٍ ليْسَ بَيْنها حرف عطف، لأنّ بَيْنَها كمالَ اتصالٍ.

الجملة الأولى: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾:

أي: ما علْمُ وقت قيامها إلاَّ عِنْدَ رَبّي، بحَذْفِ كلمتَي: «وَقْتِ قِيامها» للْعِلْم بهما، إذِ المسؤولُ عنه هو وقْتُ قيامها، أمّا ما سوىٰ ذلك من أمْرِها فقد جاء به الخبر، فالتصريح بوقت قيامها إطْنَابٌ لاَ حاجةَ له.

ودلَّ هذا الحصْرُ على أنَّ وقْتَ قيام السَّاعة أمْرٌ من عِلْم المستقبل الذي قدّره الله وقضاه في خُطّة التكوينِ، ولم يُعْلِمْ به أحداً من خلقه، ولم يجعل في كونه أسْبَاباً توصِلُ إلى العلم به، فهو ممّا أخفاهُ اللَّهُ على جميع خلْقِه، لحكمة مِن حِكمه الجليلة، فَلاَ يَعْلَمُهُ نبيٌّ مُرْسَلٌ، ولا مَلَكٌ مُقرَّب.

إذَنْ: فَسُؤال السّائلين عنْهُ سؤالٌ لا يَمْلِكُ الرسُولُ الإجابة عليه، باعتبار أنَّهُ أمْرٌ يجْهَلُه، لا باعتبار أنّه يكتُمُه وهُو يَعْلَمه.

وهنا قد يتحرَّك في نفوس السائلين سؤال آخَرُ وهو: ألاَ تَسْتَطِيعُ يا محمّد وأنْتَ رسُولُ الله كما تقول، أن تَسْأَل رَبَّكَ عن وقْتِ قيام السَّاعة، والإلحاحَ عليه في المسأَلَةِ حتّى يُعْلِمَك به، فَتُجيبَنا علىٰ سؤالِنا كما يُبَيّن لك؟.

وجواباً على هذا السؤال المطويّ الَّذِي يسْتَدْعيه الذهْنُ عَقِبَ الجواب الأول، جاءت الجملة الثانية:

الْجُمْلَةُ الثانية: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾:

جلَّىٰ فُلانٌ الشيْءَ، أي: كشفَهُ وأظْهَرَهُ وأوضَحَهُ، فتجَلَّىٰ.

والمعنى: لا يكشف ولا يُظهِر العِلْم بوقْتِ قيام السَّاعَةِ إلاَّ اللَّهُ وحْدَه، ولا يكونُ هذا الكَشْفُ والإظهارُ إلاّ عنْدَ قيامِها، بدليل قول الله تعالى: ﴿لِوَقْتِهَآ﴾ أي: في وقْتِها، أو عنْدَ وقتها.

وهذا يَدُلُّ على أنّ الله عزَّ وجلَّ قَدْ قضَىٰ بأنْ لا يُعْلِمَ بوقْتِ قيامِ السَّاعَةِ أحداً من خَلْقِهِ، أو بأَنْ لا يَسْتَطِيعَ أحَدٌ الإعلامَ بوَقْتِها إلاَّ هو سبحانه، وهو لا يُعْلِمُ به إلاَّ عنْدَ وقْتِ قيامِها. هذا قَضاءٌ مُبْرَمٌ لا تغيير فيه ولا تَبْدِيل.

وقولُ الرَّسُول ﷺ للسَّائلين هٰذه العبارة يَتَضَمَّنُ معنىٰ: أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يُعْلِمُنِي به ولو سألْتُهُ وألْحَفْتُ عليه في المسألة.

إذن: فَلاَ مطْمَع في الوصولِ إلى العِلْم بوقت قيام السَّاعَة، ولَوْ سَأَلْتُ رَبِّي ذلكَ، فَكُفُّوا عن السُّؤَالِ.

وهُنَا قَدْ يَتحرَّكُ في نُفُوسِ السَّائِلينَ سؤال ثالث، وهو:

إذا أَخْفَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ الْعِلْمَ بوَقْتِ قيام السَّاعَةِ عَنْ أَهْلِ الأرض، فَهَلْ أَخْفَاهُ الله أيضاً عن ملائكتِه المقَرَّبين في السَّماء، أَوْ هَلْ أعلمهم به ولم يأْذَنْ لهم بإظهاره لأحد؟؟

ومع أنّ الجملة الأولىٰ الحاصرة: ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ قَدْ تضمَّنَتْ بعُمُومِها الحاصِر الجوابَ على هذا السؤال، لكن قد يَقَعُ في أذْهَانِ بعض السّائلين أنّ الحصْرَ خاصٌّ بالبشَر، أو بالمكلفينَ من الإنْسِ والجنّ، لأنّ السَّاعةَ تَقُومُ لإنْهاءِ نِظامِ الحياة الدُّنيا، الّتي رُتِّبَتْ في خُطَّةِ الوجود لابتلائهم، ومن مُنْطَلقِ هذا الاحتمال يَرِدُ السُّؤالُ الثالث، وقد جاء الجواب عَلَيْه في الجملة الثالثة:

الجملة الثالثة: ﴿ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

أي: لا يستَطِيعُ مَخْلُوقٌ في السَّماواتِ والأَرْضِ، أَنْ يَرْفع عَنْ وقْتِها الغطاءَ الثقِيلَ فيكْشفَهُ ويَعْلَم بوقتِها المخفيّ المكْنُون.

ويلاحظ الأديب الذّوّاقُ للأدب الرّفيع أنّه اسْتُعِير في هٰذِهِ الجملة «الثِّقَلُ» للدلالة على تَعَذُّرِ وصُولِ المخلوقاتِ المدركَةِ في السماوات والأرض من الملائكة والإنْسِ والجنّ، إلى العلم بوقْتِ قيام السَّاعة.

وذلِكَ لأنَّ الثِقِيلَ هو الّذِي لا يستطيعُ المخلُوقُ رفْعَهُ وحمله، وهُنَا تَنْطَلِقُ أَذْهانُنَا إلىٰ الأُمُورِ المعنويّة الثقيلة، فالمشكلة الاجتماعيَّة المعقَّدَةُ الصعْبَةُ الحلِّ ثقيلَةٌ، لا يستطيع المعالج حلّها، ولا إدْرَاكَ مفاتِيحِ حَلِّها، والمعضلة الحسابيَّة ثقيلة لا يستطيع الْحَيْسُوبُ حلّها، وإدْرَاكُ التناهي في الكَونِ دون شيءٍ وراءه، وكذلِكَ نقيضُهُ وهو عَدَم التناهي في الكون من الأمور المعْضِلَةِ الثقيلة، الّتي لا يسْتَطِيعُ الْعَقْلُ أنْ يُنْهي تساءُلَهُ عند واحِدٍ منهما، مع أنهما نقيضانِ لا بُدَّ من واحِدٍ منهما.

أمّا ما يسْتَطيعه المخلُوقُ فهو إمَّا خفيفٌ بالنّسْبَةِ إليه، أو مُساوٍ لقوّته.

وقد يكونُ الشيءُ الواحِدُ ثقيلاً بالنّسْبَةِ إلى بَعْضِ المخلُوقين، وخفيفاً أو مساوياً بالنِّسْبَةِ إلى قُدْراتِ آخَرِين.

أمّا أن يتعذّر وصُول أهْل السَّماواتِ والأرضِ إلى فعل أمْرٍ ما، أو إلى عِلْم أَمْرٍ ما، فَهُو دَلِيلٌ على أنّه أثْقَلُ من كلّ قُدْراتهم، إذْ تَظَلُّ قُدْراتُهُمْ بالنِّسْبَةِ إليه طائشة، ويَبْقَىٰ هُو في موضعه ثقيلاً، فَلاَ تَسْتَطِيعُ قُدْراتُهم رَفْعَهُ إلىٰ حَيْثُ يُسَخِّرونَه أو يَعْلَمُونه.

وحين يكون الغرض من رفعِهِ كَشْفَه والْعِلْمَ بِه، لأنَّهُ في المكان الذي هو فيه مَحْجُوبٌ مسْتُور، فإنَّ وصْفَهُ بأنَّهُ ثقيلٌ يَدُلُّ على أنَّهم لا يَسْتَطِيعُونَ الوصُولَ إلى الْعِلم به.

فجاء التعبير بأن الْعِلْمَ بوقْتِ قيام السَّاعَةِ ثقيلٌ على أَهْلِ السّماوات وأهل الأرض، مفيداً أَنَّهُمْ عاجِزُونَ عن الوصُولِ إلى العلم به، فَمِنْ لوازِمِ الشَّيْءِ الثقيل أن لا يُسْتَاطعَ رفْعُهُ حتى تَكُونَ القوَّةُ الرافِعَةُ لَهُ مساويَةً لوزْنِه، أَوْ أَكْثَرَ مِنْ وزْنِه.

ولمَّا كان وقْتُ قيام السَّاعَةِ في مكانٍ عَمِيقٍ مخْفِيٍّ عن أَهْل السَّمَاوات والأرض، كان الغرضُ من رفعه من مكانِه الْعِلْمَ به، لكنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُون رفْعه، فهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ التوصُّلَ إلى العلم به.

إنّ هذا التعبير لَمِنْ أدَقّ التَّعبيراتِ وأبْرَعها، وأجْمَعِها للأفكار الَّتي يُرادُ التعبير عنها، مع أدائه للغرضِ الجمالي البلاغيِّ الْفنّي، وقد أدَّت كَلِمَةُ [ثَقُلَتْ] الْغَرَضَيْن معاً.

(١) الغرضَ الفكريَّ.

(٢) والغرض البلاغيّ الجماليّ الفنّي.

وهنا يَقِفُ القومُ السَّائلون عن طرح تساؤُلاتهم الّتي يُكافِئُ كلُّ جوابٍ منها السؤال المطروحَ قبله.

فَحَسُنَ في الختام حَسْمُ كُلّ احتمالٍ لسؤالٍ متكلِّفٍ قد يَطْرحُونَهُ فجاءت الجملة الرابعة حاسمة:

الجملة الرابعة: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾:

أي: لا تأتيكم الساعَةُ قائمةً فِعْلاً إلاّ فُجَاءَة، دون عِلْمٍ منْكُمْ أَوْ مِنْ أَحَدِكُمْ بِوقْتِ قيامِها، ولَوْ قَبْلَ لحظات مِنه.

بهٰذِهِ الجملَةِ الرابعة تمّ حَسْمُ الأمْر حوْلَ السُّؤالِ عن وقت قيام السَّاعة.

ومن أجل هذا نُلاحظُ أنّه لمّا تكرّر من السّائلين أنفُسِهِم هذا السؤالُ

عن وقْتِ قيام السَّاعة، بَعْدَ مُدَّةٍ من الزَّمَن، أنزل الله عزَّ وجلّ قوله في سورة (النازعات/ ٧٩ مصحف/ ٨١ نزول):

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

فأعْرَضَ في هذا النصّ عن تفصيل جواب سؤالهم عن وقت قيام السَّاعة، اكتفاءً بما أنْزَلَ قبْلَه في سورة (الأعراف).

واقتصر النصّ في سورة (النازعات) على التوجيه لواجب العمل لما بَعْدَ قيام سَاعَةِ البعث، فخاطَبَ الله عزّ وجَلَّ السائلين بأسْلُوب الخطاب الإفرادي، أو علّم الرَّسُولَ أن يُخاطبَ السّائلين بهذا الأسلوب نفسه، فقال تعالى:

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾﴾:

أي: في أيِّ عَمَلٍ أنتَ أيُّها السَّائِلُ، من أَعْمَالِ تَذَكّرِكَ للسَّاعَةِ، ولما بَعْدَ السَّاعَةِ الثانية، الَّتِي يكُونُ بها البعْثُ لِلْحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفيذِ الجزاء؟؟

لَقَدْ كانَ عليْكَ أن تَعْمَل الأعْمالَ الصَّالِحَةَ الَّتِي تَجْعَلُكَ من أهْلِ جَنَّاتِ النَّعِيم، إذا حانَ حينُها، فَلاَ تُكَرِّرْ سُؤَالَكَ عن وقْتِ قيامِ السَّاعَة، فالْعِلْمُ بهذا الوقْتِ مُنْتَهَاهُ إلَىٰ الله، إذْ لاَ أحَدَ يعْلَمُ متى تقومُ السَّاعَةُ سواه.

والْتَفَتَ اللَّهُ عزّ وجلّ إلى رسوله فخاطَبَهُ بقَوْلِهِ له:

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾﴾:

أي: ما أنت يا مُحَمَّدُ بالنِّسْبَةِ إلى مَوْضُوع وقْتِ قيامِ السَّاعَةِ الأُولى، وما يَحْدُثُ بَعْدَ قيام السَّاعَةِ الثانية، سَاعةِ البعث، إلاَّ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاها،

وهو الذي يخافُ عذابَ الله، إذْ يحاسِبُ الخَلائِقَ على ما قَدَّمُوا وأَخَّرُوا في رِحْلَةِ امتحانهم في ظروف الحياة الدُّنيا وأحداثها، ويَقْضِي بشأنهم، ويأمُرُ بأن يُسَاقَ أَهْلُ النعيم إلى الجنَّة، وأَنْ يُسَاق أهل العَذاب إلى النار.

ومعنى كونه منذر مَنْ يخشاها، أنّ إنْذاره النافع المفيد المؤثّر ينحصر فيمن يؤمن بها ويخشاها، إذْ لا يخشاها إلاَّ من كان مؤمناً بها، ولو من مستوى أضعف الإيمان.

وحتَّىٰ لا يَسْتَبْعِدَ السَّائِلُون وَقْت قِيام سَاعَةِ الْبَعْثِ، للحياة الأُخرىٰ، حياةِ الحساب، وفَصْل القضاء، وتَحْقِيقِ الجزاء، فيَتَهاوَنُوا بالْعَمَل الَّذِي يُنْجِيهِم من عذاب الله، ويكونُ سبباً في نَيْلِهم السَّعادَةَ الخالدة في جنّاتِ النعيم، أبَانَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ، أنَّ سَاعَة الْبَعْثِ لِيَوْم القيامَة، سَاعَةٌ قَرِيبَةٌ جدّاً من لحظَةِ مَوْتِ الأحْيَاءِ في الحياة الدُّنيا، بالنِّسْبَةِ إلى مَشَاعِرِهِمْ، وإدْراكِهِمْ لمُرُور الزَّمَن، إذْ يُلْغَىٰ من القدرة على الإدْراكِ فيهم الإحْسَاسُ بمُرُور الزّمن، حتَّىٰ تَكُونَ اللَّحْظةُ الزَّمَنِيَّةُ ومِلْيَارَاتُ السّنين، بالنّسْبَةِ إلى مَشاعِرِهم وإحْسَاسَاتِهم سواءً، فَهُمْ عِنْدَ الْبَعْثِ يَتَصَوَّرُونَ أَنَّهُمْ نَامُوا نَوْمَة القيلولَةِ بَعْدَ الظَّهِيرَةِ، واسْتَيقظُوا، أو نَامُوا نَوْمَةً في الضُّحَىٰ واسْتيقظُوا، فقال الله عزّ وجل:

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾:

أي: تكونُ مَشَاعِرُهم وإحْسَاساتُهُمْ، حينَ يُبْعَثُونَ، ويَرَوْنَ أحداث يَوْم الدّين بَعْدَ سَاعَةِ القيامة، مُشَابِهَةً لمشاعِرِهم حينما كانوا يَنَامُونَ نَوْمَةً قليلةً في النهار في الحياة الدُّنيا، عَشِيَّةً، أي: في نِصْفِ النهار الثاني، أَوْ ضُحَاها، أي: في ضُحَىٰ هٰذه العشيّة، وهو نِصْفُ النهار الأول.

وهم في مُدَّة البرزخِ مَهْمَا طالَ الزَّمن، لاَ يُحِسُّون حينَ يُبْعَثُونَ، إلاَّ أَنَّهُمْ كانُوا راقِدِين، وأن ما ذاقُوهُ من عذابٍ أو نعيم، قد كان مُشَابهاً لآلام

الأخلامِ أو لَذَّاتِها، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجل في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول):

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾: أي: من القبور.

﴿مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾: أي: مِنْ مكان نَوْمِنَا، **الرُّقَادُ**: النوم. **والمرقد**: اسم مكان النوم.

قول الله تعالى في نص (الأعراف):

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

لفظ ﴿حَفِىٌّ﴾ يأتي في اللّغة للدّلالة على عدّة مَعَانٍ:

(١) **فالحفيُّ بالشيْءِ** هُوَ المعْتَنِي المهتَمُّ به، والعالم به عِلْمَ استقصاء.

(٢) ـ **والحفيُّ**، هُو الملْحِفُ في المسألة عن الشيء الذي يَسْأَلُ عنه بتكرار، والمستقصي في السؤال عنه.

وجاء في أقوال المفسّرين، في تفسير قول الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ﴾ ما يلي:

- كَأَنَّكَ اسْتحفَيْتَ السُّؤَالَ عَنْهَا حَتَّىٰ عَلِمْتَها.

- كأنَّكَ عَالِمٌ بها.

- كأنَّكَ معنيٌّ ومُهْتَمٌّ بالسُّؤال عنها.

ويمكن أن نفهم من المعاني اللّغويّةِ وأقوال المفسّرين معنًى جامعاً نقول فيه:

يَسْأَلُكَ قَوْمُكَ يَا مُحَمّد عن وقْتِ قيام السَّاعَةِ، كأنَّكَ مُهْتَمٌّ بأن تعْلَم وقْتَ قيامها، فتسأل رَبّكَ عنه، وكأنَّكَ عالِمٌ به، وكأنَّكَ مُهْتَمٌّ بسُؤالهم وراغِبٌ في إجابَتِهِمْ عليه، مع أنَّكَ أعْقَلُ وأكثر بصيرة من أَنْ يشْغَلَ قَلْبَكَ وَفِكْرَكَ مثْلُ هذا الأمْرِ الذي لا فائدة فيه.

وهذا من بديع استعمال اللّفظ الواحدِ في المعاني المتعدّدة، الّتي يدُلُّ عليها، وهو من باب الإيجاز والاقتصاد في العبارة، مَعَ الدَّلاَلَة على معانٍ كثيرة.

وجاء تأكيد الجواب في قول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ بجعل عبارة ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ بدَلَ عبارة: ﴿عِندَ رَبِّي﴾ لبيان أنَّ رَبَّهُ الّذي رَبَّاهُ فيما مضىٰ، ومُرَبّيهِ دواماً هو الله خالقُ كلِّ شيءٍ، ورَبُّ كلّ شيءٍ.

ولمّا كان السُّؤال عن وَقْتِ قِيام السَّاعةِ مُمَاحَكَةً باردةً، إذ السؤالُ عن وقت قيامها لا يُهِمُّ السّائلين بشيءٍ من أُمور دنياهُمْ وَلاَ من أمور أخراهم، كانَ السؤالُ عنه ـ لاتّخاذ عدَمِ الإجَابَةِ علَيْه ذريعةً لجُحُودِ يوْم الدّينِ ـ من الجنوحِ عمّا ينبغي من الْعِلْم، ومِنْ نقص الْعَقْلِ وفَسَادِ التَّصوُّرِ، ولهذا قال الله عزّ وجل في آخر الآية: ﴿...وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾:

أي: ولكنَّ أكثر النَّاس لا يعلَمُونَ مَا يَنْفَعُهُمْ وما يضُرُّهم، فيجنحونَ عَنْ سواءِ السّبيل، ويشْغَلُونَ أنفُسَهم بما لا يفيدُهُمْ من العلْم، ويتّخذون عَدَمَ إعلامِهِمْ بوَقْتِ قيام السَّاعَةِ ذَرِيعةً لجُحُودِها، مع أنّ الْعِلْمَ بهذا الوقت لا يَزيدُ في إثبَاتِها أيَّ تَرْجيح فكْرِيّ، إذْ دليلُ اليوم الآخر يعْتَمِدُ على براهين الْعَدْلِ الرَّبَّانيّ من جهة العقل، وقَواطِع الأَخْبَارِ الدينيَّةِ مِنْ جهَةِ النَّقْل.

ولمّا كان جنوح السَّائلين من كُفَّار قُريش مُمَاثِلاً لجنُوحِ سائِر الكافرين المكذّبين بيَوْم الدّين، وكان الكافِرُون هم أكْثَر الناس، كان من الحكمة في

البيان القرآني أن يُدْخِل اللَّهُ عزّ وجلّ كُفَّارَ قُرَيشٍ ضِمْن أمْثَالِهم من كُفّار كلّ عصْرٍ في قضيَّةٍ عَامَّةٍ تشْمَلُ الجميع، فقال الله تعالى: ﴿... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

الاستدراك بلفظ: [وَلَكِنَّ] دلَّ على أنَّ الإجابات السابقاتِ كافياتٌ لاقناع ذوي الفكر والرّأي والعلم، ولَكِنْ لمَّا كانَ أكْثَرُ الناس لا يَعْلَمُونَ بسبب تَعْطِيلِهِمْ أدوَاتِ الْمَعْرِفَةِ لَدَيْهم، كانَ مُشْرِكُو مكَّةَ من الَّذِينَ يُصِرُّونَ على جُحُودِ السَّاعَةِ، وإنْكَارِ يَوْم الدّين، والتكْذِيب بالبعْثِ للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَنْفِيذِ الجزاء، واتّخاذ السؤال عن وقت قيام السَّاعَةِ ذَرِيعةً للتكْذِيب بها، إذَا لَمْ يُحَدَّدْ لَهُمْ وقْتُ قيامها، مع العِلْم بأنَّهُمْ لَوْ حُدّدَ لهم وقْتُ قيامها لاسْتَمَرُّوا مُكَذِّبينَ بيوم الدّين، ومُكذِّبين للرسُول الذي يُبَلّغ عن الله آياته المنزَّلاتِ عليه، التي يجب على الممتَحَنِينَ المكلّفين أن يَتَّبعُوها، إذ قال لهم في بداية السورة:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وبهذا الختام وُضِع الختْمُ على قُفْلِ مَوْضوع السؤالِ عن السَّاعة.

وانتقل النَّصُّ إلى تعليم الرَّسُول ﷺ، أنْ يبيّن للسَّائِلِينَ عن وقْتِ قيام السَّاعة، أنَّهُ لا يَمْلِكُ لِنَفْسِه نفعاً ولاَ ضرّاً إلاَّ ما شاء الله، فيما تجري به المقاديرُ المستَقْبليَّة، لأنَّ اللَّه جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانه ـ لم يُعْطِهِ عِلْمَ الأحداثِ التفصِيليَّةِ الّتي تأتي بِهَا الأيَّامُ وسَاعاتُها ودَقائِقُها ولحظاتُها، ممَّا قضاه الله وقَدَّرَه، أو أذِنَ بِهِ وهو يَعْلَمُه، والدَّليلُ على ذلِكَ أنّه ﷺ لو كانَ يَعْلَمُ الغيب كُلَّهُ بتفاصيلِهِ، لاستكْثَرَ من الخيْرِ، باختيار الأشياء الّتي تَرْتَبِطُ بِهَا مَقَادِيرُ الْخَيْر المستقبليَّة، ولتحاشَىٰ أنْ يَمَسَّهُ السُّوءُ، بابْتِعَادِه عن كلّ أمَاكِنِ تنزُّل السُّوء، الّتي رَسَمَ اللَّهُ بقضائه وقَدَرِه إنْزَالَهَا في أمَاكِنَ مَعْلُومَةٍ مُحَدَّدة، وأنْ يُؤكّدَ لَهُمْ أنّ رسالَتَهُ لاَ تَعْدُو أن يَكونَ نذيراً للكافرين

المجرمين، وبَشِيراً لقومٍ يؤمِنُونَ، ومُبَلّغاً عن اللّهِ ما أنْزَلَ الله علَيْه ويُنْزِلُ تِباعاً، ممّا أَمَرَهُ بتبليغه للناس، وأن يجتَهِد في وسَائِلِ إقناع الناس بالحقّ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وَأنه لَيْسَ مكلّفاً أنْ يُحَوّل الناس من الكُفْرِ إلى الإيمان، أوْ مِنَ الْعِصْيَانِ إلىٰ الطَّاعَة.

فقال الله عزّ وجلّ في الآية التالية في السّورة:

● ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

● ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾:

أي: قُلْ يا أيُّها الرَّسُولَ محمَّد للمُلْحِفين عليك في السُّؤالِ عن وقتِ قيام السَّاعة، ولسَائِرِ الناسِ من آمن بك ومن لم يؤمن، لاَ أمْلِكُ لأجْلِ نَفْسِي قُدْراتٍ وَلاَ وَسَائِلَ أجْلُبُ بها لِنَفسِي في الحياة الدُّنيا نَفْعاً، أَوْ أَدْفَعُ بها عَنْ نَفْسِي ضَرّاً، إلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ أن يَمْنَحنيهِ مِنْ ذَلِكَ مِنْ فضله.

وممَّا لاَ أَمْلِكُهُ عِلْمُ غَيْب مُسْتَقْبل أيامِي في الحياةِ الدُّنْيا، إلاَّ مَا شَاءَ أو يَشاءُ اللّهُ إعْلامي بِهِ وَحَياً.

مِلْكُ الشَّيْء: القُدْرَةُ على التَّصَرُّفِ فِيهِ على وَفْقِ مَا جَزَمَتْ به الإرادة. **ومَالِكُ الشيء**: هو القادر على التَّصرُّفِ فِيه بحَسَبِ إرادته.

وبما أنّ الكَوْنَ كُلَّهُ خاضِعٌ لسُلْطَانِ اللّهِ وإرادَتِه الحكيمة، بكلّ كبيرٍ وصغير فيه، فإنَّ أحداً في الوجُودِ لا يَمْلِكُ أَنْ يتصَرَّف بشيءٍ فيه، إلاَّ إِذَا منَحَهُ اللّهُ عزَّ وجلَّ القُدْرَةَ على التصرُّفِ، في حُدُودِ ما مَنَحَهُ من ذَلِكَ، حتَّىٰ أَكْرَمُ الخلْقِ عِنْدَ اللّهِ وأقْرَبُهُمْ إليه، لاَ يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ جَلْبَ نَفْعٍ، أَوْ دفْعَ ضَرّ، إلاَّ إذا شاء الله ذلك، فضْلاً عَنْ أَنْ يَمْلِكَ شيئاً من ذلِكَ لِغَيْرِه من خَلْقِ اللّهِ إلاَّ بمَشيئة الله.

الضَّرُّ والضُّرُّ: سُوءُ الحال في الْبَدَنِ أو المالِ أو الْأَهْلِ والولَد، ونحو ذلك. وضِدُّه النَّفع.

• ﴿...وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ... ﴿١٨٨﴾﴾:

هذه العبارة بمثابَةِ الدَّلِيلِ الواقعِي على العبارة السابقة لها، أي: والدليلُ على أنّي لا أمْلِكُ عِلْمَ مُسْتَقْبَلَ أيّامِي بتفاصِيلها، أنّني لو كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ ممّا سَيَحْدُثُ مستقبلاً، لاتَّخَذْتُ التَّرتِيباتِ الملائماتِ لأحْدَاثِ المستقْبَل، الَّتي أَسْتَكْثِرُ بها من الْخَيْرِ لِنَفسِي ولمَنْ أُحِبُّ، والَّتي أدْفَعُ بِها السُّوءَ عَنْ نَفْسِي وعَمَّنْ أُحِبُّ، لَكِنَّ هذا أَمْرٌ غَيْرُ واقعٍ، لِأَنَّني لاَ أَمْلِكُه.

السُّوء: كلُّ مَا يَغُمُّ الإنسان، وكُلُّ ما يقْبُحُ، واسْمٌ جامِعٌ لمختَلِفِ الآفَاتِ المكروهَةِ للنفوس.

• ﴿...إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

﴿إِنْ﴾: حرف نفي بمعنى «ما» النافية.

﴿نَذِيرٌ﴾: أي: مُنْذِرٌ بشدَّةٍ مِنْ أقصَىٰ درجان الإنْذار، بعقاب الله الشديد يوم الدين للكافرين، مع ما قَدْ يُنْزِلُ اللَّه بِهِمْ من عقاب مُعَجّل في الدنيا. **نذير** من صيغ المبالغة.

﴿وَبَشِيرٌ﴾ أي: ومُبَشّرٌ بشِدَّةٍ بثواب الله العظيم يوم الدين للذين آمنوا وعملوا الصالحات، مع ما قد يمنحهم الله من ثواب مُعَجّل في الدنيا. **بَشِير**: من صيغ المبالغة.

والقصر في العبارة هو قَصْرٌ إضافي، والمعنىٰ: وما أنا بالنِّسْبَةِ إلى مَنْ بلَّغْتُهُمْ، واتَّخَذْتُ كلّ وَسِيلَةٍ لإقناعهم، ونصحهم وإرشادهم، ولَمْ آلُ جَهْداً فِي إصْلاَحهم عن طريق إراداتهم الحرَّة، ما أنا بالنسبة إليهم إلاَّ نَذِير. أمّا

الَّذِين خَطَوْا بَعْضَ خُطُواتٍ إيمانيّة، أو ظَهَرَت لَدَيهم بوادِرُ اسْتِعْدادٍ مَا لأنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبَلاً، أوْ آمَنُوا إيماناً صَحِيحاً وظَهَرَ عليهم الاستعداد للاستمرار على صِدْقِ الإيمان مُسْتَقْبلاً، ومُتَابعَةِ مسيرة الإيمان بكلّ ما سَيأْتيهم من بلاغاتٍ عن رَبِّهم، فأنا بالنِّسْبَةِ إليهم بَشِير.

❁ ❁ ❁

قَوْل اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾:

تمهيد:

هذا النَّصّ وتوابعه مُرْتَبِطٌ بأحَدِ خَطَّي السُّورَةِ الأعظَمَيْن اللَّذَيْنِ سَارَتْ عليهما مُعظَمُ دُرُوسِ السُّورَةِ وآياتها، وهو خَطُّ عِبادة اللَّهِ وَحْدَه، بَعْدَ الإيمان بتوحِيدِ الرُّبوبيَّة وتوحيد الإلَهِيَّة له جلّ جلاله.

أمّا الخط الأعظم الآخر، فهو الممتدُّ من الآية الثالثة في أوائل السورة، وهي قول الله عزّ وجلّ:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾:

وقد سبق أن لاحَظْنَا أنّه ارْتَبَطَ بهذا الخطّ من الدَّرْس الحادي عشر، الآيَات من (١٨١ ـ ١٨٨).

وسبق أن عرفنا أنَّ هذا الدَّرس يتعلَّقُ بأمَّةِ دَعْوَةِ محمّد ﷺ، من آمَنَ به منهم واتّبعهُ، ومَنْ لم يُؤمن به، بل كذَّبَ بآيات الله المنزَّلاَت عليه.

وهذه الآيات من (١٨٩ ـ ١٩٨) تعالج قضيَّة الشِّرك، مُنْذُ بَدْئه في

التاريخ البشريّ حتّىٰ شِرْكِ مُشْرِكي الأمم، إبَّانَ دَعْوَةِ الرَّسُول محمّد ﷺ، وفي مُقَدِّمَةِ المعالَجِين مُشْرِكو العرب، الّذِينَ واجَهُوا أوّل بيانَاتِ الدَّعْوَة المحمَّدِيَّة.

ومن الحكمة في معالجة شِرْك المشركين الّذِينَ يَعْبُدون من دون الله شُركاءَ له، الْبَدْءُ بقضيَّةِ الإيمان بتوحيد الرُّبُوبيَّة للّٰه عزّ وجل.

أي: ببيان أنّ الخالق الممدّ بعطَاءات الرّبوبيّة كلّها، هُو اللّٰهُ وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، فلا رازق غيْرُه، ولا مُحْيِيَ غيره، ولا مُمِيت غَيْرُهُ، ولا راحِمَ غَيْرُهُ، ولاَ نَافِعَ غَيْرُه، ولاَ ضَارَّ غَيْرُه، ولاَ يَرْزُقُ الأَوْلاَدَ غَيْرُه، ولاَ يَهَبُ الْبَنِينَ والْبَنَاتِ غَيْرُه، فهو الذي يَجِبُ أنْ يُعْبَد بالْعَمل بآيَاتِه المنزَّلاَتِ على رسُوله، وأنْ لاَ يُشْرَك بعِبَادَتِه أحَدٌ كَائِناً مَنْ كَانَ، وكائناً ما كان.

التدبّر التحليلي:

قوله الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا . . . ﴿١٨٩﴾﴾:

هٰذا النَّصُّ يَدُلُّ بوضوح كاملٍ على أنَّ السُّلاَلاَت الْبَشَرِيَّةَ مُشْتَقَّةٌ من نَفْسٍ واحدة، يسْتَوي في هذا ذُكُورُها، وإنَاثُها، فالنُّطَفُ المنويَّةُ الّتي يَقْذِفُها الذُّكور هي الْحَامِلَةُ للسُّلاَلاَتِ البشريّة ذُكُورِهَا، وإنَاثِها، وكُلُّها تَرْجِعُ إلى الذَّكَر الأول، وهو آدم عليه السّلام، فكلُّهم من نَفْسٍ واحدةٍ، هي النَّفْسُ المتصفَةُ بالذُّكورَة.

ومن حكمة الله الخالِقِ الرَّبّ جل جلالُهُ، أنْ جعل من نَوْعِ هٰذه النَّفْس الواحدة، زَوْجها، ليسْكُنَ الزّوج الذكر إليها، أي: ليَسْكُنَ حينَ الانْدِفاع إلى القرينِ المؤنسِ مائلاً إليها، فإذا انْضَمَّ إليها سَكَنَ جسَدُه، وسكنَتْ نَفْسُه، واسْتَسْلَم للرّاحة السّعيدة.

التعبير بفعل «جعَلَ» في: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يَدُلُّ على الحالة الدّائمة في السُّلالات البشريَّة، وهيَ أنّ الذكر من هذا النوع يَسْكُنُ للزّوج

الأُنثَىٰ من هٰذا النوع، بالْجَعْل الرَّبَّاني، في نظام الخلْق المتتابع.

أمّا بدْءُ اشتقاق خَلْقِ حوّاءَ من آدم عليه السّلام، فقد جاء التعبير عنه في قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ... (١)﴾.

فَبدءُ خَلْقِ الأُنْثَىٰ الأُولَىٰ كَانَ اشتِقَاقاً من الذّكر الأوّل، ثُمَّ سارَتِ السُّلالاَتُ علىٰ أَنّ الذُّكورَ تَحمِلُ ذُرِّيَّاتِ الإخْصَابِ ذُكُورِهَا وإناثها، واقتضى نظام التكْوين الرّبّانِيّ جعْلَ الذكور يسْكنُونَ إِلَىٰ الإناث أزواجاً لهم، لتكونَ الإناثُ محاضِنَ تَنْبُتُ فيها بُزُور الذّرّيَّة الّتي يزرَعُها الذكُورُ فيهِنّ.

ففرَّقَ اللّٰهُ عزّ وجلّ بَيْنَ أَصْلِ الخلق، وبَيْنَ الْجَعْلِ بَعْدَ الخلْق.

قول الله تعالى:

● ﴿... فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (١٨٩)﴾

● ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾: يُقال لغة: تَغشَّىٰ الشَّيْءُ الشيْءَ، أيْ: غطَّاه، وعبارة ﴿تَغَشَّىٰهَا﴾: كنايَةٌ مُهذَّبَةٌ عن الجماع.

وتَغَشّي الزّوْج الذّكر للزَّوْجِ الأنْثَىٰ هو الْعَمَلُ الطبيعيُّ الأحْسَنُ لكلٍّ منهما.

أي: فَلمَّا اتَّخذَ الأسْبَابَ التّزاوُجيَّةَ الّتِي جَعلَها اللّٰهُ جلَّ جلالُهُ في نظام التكوين، أسْباباً للتناسُل، والتكاثر البشريّ.

● ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾: في هٰذه العبارة وصْفٌ لحالَةِ عُلُوقِ الجنينِ أوّل الْحَمْل، إذْ يكون حملاً خفيفاً جدًّا، لا تُحِسُّ الأنْثَىٰ به.

● ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: أي: فَمَرَّتْ بهَذا الْحَمْلِ في أيام حَمْلِها وهو يَتَنَامَىٰ شيئاً فشيئاً.

• ﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾: أي: فلَمَّا دَخَلَتْ في ثِقَلِ الْحَمْل، بسبب كِبَرِ الجنينِ في بَطْنِهَا. يُقَال لغة: أثْقَلَتِ الحامل، أي: اسْتَبان حَمْلُها، فَهِيَ مُثْقِلٌ. وإنّما يستبينُ حَمْلُها إذا كَبِرَ الجنينُ في رَحِمِها فَصَارَ ثقيلاً.

• ﴿... دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾﴾:

أي: دعا الزَّوجان اللّهَ بِأنَّهُ رَبُّهما، مُقْسِمَيْن في دُعَائِهما لَهُ قائِلِيْن: نُقْسِمُ يا رَبَّنا لَئِنْ آتَيْنا وَلَداً صالحاً سَالِماً مِنَ الْعُيُوب والآفات، لَنَكُونَنَّ مِنَ الشّاكِرِينَ لكَ، العامِلين بما يُرْضِيكَ من الأعمال الصالحة، وبما يُرْضِيكَ في تَرْبِيَتِه وتنشئته، وفي سائر أمورنا.

الشُّكْر: مقابلة المنعم على إنعامه بما يرضيه من عمل، أو بما يرضيه من اجتناب عمل، وقد يشْمَلُ القولَ الذي فيه ما يُرْضي المنعم، إلاَّ أنَّ بعْضَ القول يختصُّ بعنوان الْحَمْد والثناء.

وصِيغة هذا الدُّعاء تدلُّ على أن ما أقْسَمُوا عليه هو من قبيلِ نَذْرِ اللَّجاج، وهو النَّذْرُ بشَرْطِ تَحْقِيقِ مطلوبٍ ما.

• ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾:

نفهم من هذه الآيَة الإشارَة إلىٰ أنَّ بَدْءَ الشِّرْك في التاريخ البشري، بَعْدَ أنْ خَلَقَ الله النَّاسَ من نَفْسٍ واحدةٍ، وجَعَلَ مِنهَا زَوْجَها لِيَسْكُنَ إلَيْها، قد كان عن طريق حِرْصِ الزَّوْجَيْن على إنجاب الذُّرِّيَّة الصالحة السليمة من العيوب والآفات، فاتَّخذا الأسْبَاب الّتي جعَلَها اللّهُ في نظام الخلْقِ للإخْصَابِ والتناسل، ودَعَوَا الله رَبَّهما بما سَبَقَ بيانه، فلمَّا رَزَقَهما اللّهُ الرَّبُّ جلّ جلالَهُ ولداً سليماً من العيوب والآفات، جعَلاَ له شُرَكاء في هذا الولَدِ الّذي آتاهُما إيَّاه.

لستُ أَرَىٰ أَنَّ هٰذِهِ الحادثَة خاصَّةٌ بِزَوْجَيْنِ مُعَيَّنَيْنِ، بلْ هي ظاهرةٌ

بدَأَتْ تتكَرَّرُ في الناسِ مُنْذُ بَدْءِ ظواهِرِ الشِّرْكِ باللَّهِ سبحانه وتعالى فيهم.

ومظاهر شِرْك الناس في موضوع أولادهم كثيرة:

(١) فَمِنْهَا شِرْكُ الأسْباب، إذْ يَقُولُون: اتَّخَذْنَا سَبَبَ كَذَا، وسبَبَ كذا، فجاء ولَدُنَا سليماً صالحاً مُعَافَىٰ، لا عُيُوبَ فيه، ولا عاهات، ولا آفات.

ويَنسَوْنَ دُعاءهم رَبّهم، ونَذْرَهم بأن يشْكُرُوه بالعمل بما يُرْضيه، إذا آتاهُمْ ولداً صالحاً، سليماً من العيوب والعاهات والآفات، ولاَ سيَما إذا كان ولَداً ذكراً.

(٢) ومنها اللُّجوءُ إلى الّذين يتوسَّمُون فيهم الصَّلاح من الناس، أو إلى الْمُشَعْوِذِين الدَّجّالين، والسَّحَرَةِ الكذّابين، لِحِمَايَة ولَدِهمَا من الأعراض والأمراض والآفات، ولتَحصِينِه من شرّ حُسَّادِ الإنْسِ، وقُرَنائهم من الجنّ.

(٣) ومنها الْتِمَاسُ مُسَاعَدَةِ أرواحِ الموتى، واللُّجوءُ إلى قُبُورِهِمْ، ودُعاؤُهم، وطَلَبُ أَفْعالٍ غيبيَّة، مِنهُمْ وهم لا يملكون منها شيئاً، إذْ هي خاضعَةٌ لسلطان الله رَبّ السماوات والأرض ورَبّ كلّ شيء.

إلى غير ذلك من شركيات الناس.

ويَبْدُو أَنَّ حادثَة هٰذَيْن الزَّوْجَيْنِ كما ذكرها اللَّهُ عزّ وجلّ. تُعَبّرُ عن حالة الْفِطْرَةِ الإنسانيَّةِ، الّتي تلْجَأُ إلى اللَّهِ ـ جلَّ جَلالُهُ وعظُمَ سلطانُه ـ حينما تكونُ الأسباب خفِيَّةً مجهولَةً، ويكونُ المطْلُوبُ أمْراً من أمُورِ الغيب.

وحينما يتحقَّقُ المطلوب، ويَصِيرُ أمراً واقعاً مشهوداً، مملوكاً بالأيْدي بفضل فَيْضِ جُود اللَّهِ وعطائه، عندئذٍ تبدأ الأنفس تتعلَّقُ بالأسباب، وتنسَىٰ اللَّهَ مُسَبِّب الأسباب، وتلْجأُ من أجْلِ حماية ما وَهَبَهُمُ اللَّه إلى شُرَكاء من دون الله، مع أنَّ المانح له من الغيب، هو الّذي يُمِدُّهُ دواماً

بعطاءاتِ رُبُوبيّتِه، وهو الذي يحفَظُه، ويَحْمِيه، ويُبْقيه في الوجود إلى أجَلِهِ المقدَّرِ له، وهو الذي يُسْعِدُ به الّذين وهَبَهُمْ إيَّاه.

فقد جاء التعبير بهاتَيْن الآيتَيْن (١٨٩ ـ ١٩٠) عن بِدايَاتِ ظاهرة الشّرك بالله ربِّ الناس في تاريخ البشَرِيَّةِ، توطئةً لمعالَجةِ الشِّرْك في النّاس إبّان نُزول القرآن، فما يَلِيه من العصور.

وقد فَهِمْنَا من هذا الْعَرْضِ الرَّبّاني، أنَّ بدَايَاتِ الشّرك في الناس، قد ظهرت في موضوع رغْبَةِ بَعْضِ الأزواجِ من النّاس في الذُّرّيّة، وبقائها سليمةً صالحةً معافاةً محفُوظةً من الْعَوارض، ويظهر أنّ هذا الفريق من الناس قد تعرَّض لامتحان الله لهم بضعف الإخْصَاب، أو بموت أولادهم وهُمْ ما زالُوا أطفالاً، أو بأولادٍ مصابين بعيوب وأمراضٍ مفسدة، أو مُشوّهَة.

وكانت البيئة ما زالَتْ بيئةً إيمانيَّةً، يُؤْمِنُ فيها الناس باللَّهِ ربّهم، خالقهم ورازقهم، ومُحْيِيهم ومُمِيتهم، وكان من شأنِهِم المعتاد أن يَدْعُوا الله ويسألُوه مَا يَرْغَبُون فيه، ولا سيما في الأمور الّتي لا يملكون التصرُّف أو التحكُّم بأسبابها، ويعتبرونها من الغَيْبِيَّاتِ بالنسبة إليهم، كانعقاد الأجِنَّةِ في بطُون الأمَّهَات.

ولكنَّ الوالِدَيْن بَعْدَ أن يسْتيجب الله دُعاءَهُما يلْجَآنِ لحماية ولَدِهما الحبيب الغالي، وللمحافظة عليه إلى اتّخاذ أعمالٍ شركيَّةٍ، فتتلاعَبُ بهما أبالِسَة الإنْسِ والجنّ، فيلجآنِ إلىٰ التمائم والتعاويذ الّتي ما أنزل الله بها من سلطان، وإلى الاستجارة بالموتىٰ، والتبرُّك بآثارهم، وإلى الاستعاذة بالجنّ، وبالتماثيل الّتي يتوَهَّمُونَ أنّ أرواح الموتى الصالحين تُصاحبُها، وتَنْفَعُ مَنْ يَدْعُوها ويَسْتَجِيرُ بها، من أجل ولَدِهما الحبيب الغالي، الذي يخشيان عليه من الموت، أو من العاهات والأمراض.

وأخَذَت تتكرَّرُ هٰذِهِ الظاهرة في تاريخ النّاس، وتتّسِعُ دوائرها، حتَّىٰ

شَمَلَتْ كلَّ مطالب المشركين في حياتهم، وظَهَرَت عبادَةُ الأَوْثان، وعبادَةُ المَوتَىٰ في قُبُورِهم، وعبادة الجنّ والملائكة، وعبادةُ المشَعْوذِين والدَّجالين من الناس.

وشرْكيَّاتُ البشر ترجِعُ إلى جعْلِ بعض ما خَلَقَ اللَّهُ شركاءَ له في رُبوبيته، فإلَهيّته، فيَدْعُونَهُم، ويتقَرَّبُونَ إليهم بالقرابين من الذَّبائح، ويَعْبُدُونهم بذلك وغيره من دون الله، وهذه المعبودات الّتي يجعلونها شرَكاء لله سبحانَهُ وتعالى، إمّا أنْ تكون من الجنّ، أوْ من الملائكة، أو من أرواح الموتىٰ الصالحين من البشر، أو ما يُمثّل شيئاً من ذلك من الأحجار والأشجار، ويَتَفَنَّنُونَ في اتّخاذ التماثيل لما يَعْبُدُون، ويتقَرَّبُونَ بالْقُرُباتِ لهذه التماثيل.

فاقتضت الحكمة البيانيّة والتربَويَّة في التنزيل العزيز معالَجَةَ شِرْكِ المشركين، الّذي ظهر في تاريخ الناس قديماً، واسْتَمَرَّتْ ظاهراتُهُ تَبْرُزُ في كُلّ أمّة، حتَّىٰ نزل القرآن على خاتم المرسَلِين محمّد ﷺ، وقد صار معظم العرب، ومعظم شُعُوب الأرض مُشْرِكين.

● ﴿... فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾:

أي: فتسَامَىٰ وتَرَفَّعَ وتَنَزَّهَ الله الرَّبُّ، الَّذِي لا شريك لَهُ في رُبوبيته ولا في إلَهِيَّتِهِ، عن كُلّ ما يَجْعَلُهُ المشركون شُرَكاء له، إذْ لا أحَدَ يُشَارِكُ الله سبحانه وتعالى في شيءٍ من رُبوبيته، ولا في شيءٍ من إلَهِيَّته.

لقد تعالى الله عن ذلك عُلُوًّا كبيراً أَكْبَرَ وأكْثَرَ من عُلُوّ الفردوس الأعلى في جنَّاتِ النعيم، عن الْقَاعِ والقرار الأسْفَل في الجحيم.

بعد هذا البيان تحدَّث اللَّهُ عزّ وجلّ عن المشركين بأسْلُوب الحديث عن الغائب، وكأنَّهُ يُخَاطِبُ أهل الإيمان والْعَقْل والرُّشد، مُسَفِّهاً أحْلامَ المشركين السَّابقين، ببيان أنّ شِرْكهم لا يستَنِدُ إلَىٰ قاعِدَةٍ فكْرِيَّةٍ صَحِيحَةٍ

تَقْبَلُ بها العقولُ السَّوِيَّةُ السليمة، وتوطِئَةً لمواجهة المشركين المعاصرين للتنزيل فَمَنْ يأتي بَعْدهُمْ بالْخِطَاب المباشر، مع ما يتضمَّن الحديثُ عن الغائبين من خطابِ المعاصرين بصورة غيْرِ مُبَاشِرَة.

فقال الله عزّ وجلّ:

● ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾﴾؟

صُدِّرَتْ هذه الآية باستفهام يتضمَّنُ اسْتثارةَ الْعَجَبِ مِنْ فِعْلِ المشركين الأولين، الذين ضرَب اللَّهُ عزّ وجلّ مثالاً من أمثلة شركهم، في الآية السابقة، فقد كان هؤلاء المشركون الأوَّلون يجْعَلُونَ لله عزّ وجلّ شُرَكَاءَ لاَ تخلُقُ شيئاً، فهِي لاَ تنفع ولا تضُرُّ.

● ﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾: جاء التعبير باسم الموصول «مَا» الّذي يُسْتَعمل غالباً فيما لا يَعْلَمُ ولا يَعْقل، للدّلالة على أنّه ليس من صِفات الشُّرَكاء الذين اتَّخذُوهم شُرَكَاءَ للّه أن تَخْلُقَ شيئاً، بمعنى أن تُبْدِعَ شيئاً، أو تُوجِدَ شيئاً بخصائصها الذّاتية.

أي: ليس لشركائهم صفاتٌ تَسْتَطيع أنْ تخلُقَ حتَّىٰ يَصِحَّ أنْ تكون شُرَكاء لله في رُبوبيّتِهِ، وحتَّىٰ يَصِحَّ أنْ تُتَّخذَ آلهةً مع الله، تُعْبَدُ وتُدْعَىٰ، ويُتقَرَّبُ لها بالقرابين.

● ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾: أي: وهؤلاء الشركاء من الإنْس والْجِنّ والملائكة يُخْلَقُونَ خلقاً من بَعْدِ خلْق، ما دامُوا في الوجود، لأنَّ إبقاء المخلُوق في الوجود، إنَّما يكونُ بإمْسَاكه فيه، وهذا الإمْسَاكُ ظاهرةٌ من ظواهر الخلْق المتتابع، فمنْ أمسك شيئاً وحملَهُ، واسْتَمَرَّ يُمْسِكه محمولاً، فإنَّه يَحْمِلُه مع اللّحظات لحظةً فلحظة، إذْ يُمِدُّه بالطّاقة الّتي يبقَىٰ بِها محمولاً.

ومن كان أصْلُه العدم، فإنّ إبقاءه في الوجود يحتاج إلى إمدادٍ مُتَتَابع، وإمْسَاكٍ مُتَتابع، وفي اللحْظَةِ الّتي ينقطع عنه فيها الإمداد والإمساكُ يرجع إلى أصْلِه، وهو العدم.

دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجل في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴿٤١﴾﴾.

فإمْسَاكُ الله عزّ وجلَّ السَّماواتِ والأرضَ في الوجود بالإمْدَاد المتتابع، هو الّذي يجعلهما لاَ تَزُولاَنِ إلى أصْلِهما الّذِي هو العَدم، ولَئِن رفعَ اللَّهُ عَنهما إمْسَاكَهُ لَهُما لزَالتا، ولَئِنْ زالَتا فلا أحَدَ بَعْدَ اللَّهِ يُعِيدُهُما إلىٰ الوجود، ويُمْسِكُمَا فيه.

فمَعْبُوداتُ المشركين مِنْ دُونِ الله إنْ بَقِيَتْ في الْوُجُود، فإنَّهَا تُخْلَقُ خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ، دلَّ على هٰذا استعمالُ الفِعْلِ المضارع في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾ فَهٰذِهِ الصيغَةُ تَدُلُّ على التجدُّدِ المتكرّر.

وإذا تَرَكْنا قضيَّة الخلْقِ الّتي يعْجِزُ عنها الشُّرَكَاءُ ونَظَرْنَا فيما هو أهْوَنُ من الخلْقِ، كالنَّصْرِ بالمساعَدَةِ والمعاونَةِ ضِدَّ الأعداء، فهل تَمْلِكُ الشركاءُ شيئاً من ذلِكَ لمن يَعْبُدُها ويَدْعُوها، ويَتَقَرَّبُ إليها بالقرابين؟

لقد جاء الجوابُ على هذا السؤال في الآية التالية من الدَّرْسِ، وهي قول الله تعالى:

● ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾.

أي: فإذَا كَانَ المشرِكُون يَعْبُدُونَ آلِهَتَهُمْ مِنْ دُون اللَّهِ لِيَنْصُرُوهم على أعدائهم في حُرُوبِهِم، وصِرَاعاتهم، فالواقِعُ الثابت بالتَّجْرِبَةِ أَنَّ النَّصْرَ لاَ يَكُونُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ الله.

وكُلُّ الْقُوىٰ الغيبيَّة من الجنّ والملائكةِ وأرْواحِ الموتىٰ، لم يُعْطِها اللَّهُ شيئاً من إمْكَانَاتِ النَّصر، إلاَّ بأمْرِ الله، أَوْ بإذْنه.

قال اللّٰهُ عزَّ وجلَّ في سورة (يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول) بشأنِ المشرِكين:

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾.

إنَّ النَّصر الحقِيقيّ إنَّما يأتي من عنْد اللّٰهِ، بعِزَّتِه وعلى مقتضىٰ حكمته، قال الله عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/٣ مصحف/٨٩ نزول):

﴿...وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾.

وهؤلاء الشركاء أنفُسهم لاَ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ إِذَا احْتَاجُوا إلى نَصْرٍ، لِأَنَّهُمْ لا يَمْلكُونَهُ.

● ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾: في هٰذِهِ العبارة قُدِّم المعمولُ وهو الضمير في: ﴿لَهُمْ﴾ على عامله: ﴿نَصْرًا﴾ فَدَخلَتْ عليه لاَمُ التقوية.

والغرض البلاغيُّ من هٰذا التقديم تَنْبيهُ المشرِكين عَلَىٰ أَنَّ عبادتهم لشركائهم لا تجلُبُ لَهُمْ معونَةَ النصر، إذْ تَقْدِيمُ الأهَمّ في البيان من وسائل التَّنبيه عليه، ولَفتِ النَّظَر إليه، كأنْ تَقولَ لمن يَتَرَقَّبُ نَفْعاً من معونته لظَالم جبارٍ: إلَيْكَ لا يَصِلُ منْ عَطاءَاته شيء، فهذه العبارة أشَدُّ تنْبيها من أنْ تقول له: لاَ يَصِلُكَ من عطاءاته شيء.

● ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾: أي: فلو أراد أحَدٌ بهم سوءاً، تكسيراً وتحطِيماً، أو شَتِيمَةً أو سَبًّا، لم يسْتَطيعُوا أن ينصروا أنفسهم، ولا أن يَدْفعوا عنها شيئاً.

❋ ❋ ❋

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ ﴿١٩٣﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ ﴾:

تمهيد:

بعْدَ الحديثِ عن مشركي القرون الأولىٰ بأسْلوب الحديث عن الغائبين، الّذي يتضمَّن بصُورَةٍ غيْرِ مباشِرَةٍ خطابَ المشركين المعاصرين لنزول القرآن فَمَنْ بَعْدَهُمْ تَعْرِيضاً، تَوَجَّهَ اللَّهُ عزّ وجلّ لخطاب المشركين المعاصِرين لتنزيل القرآن، فَمَنْ يَأْتي بعدهم بأسلوب الخطاب المباشِر، فجاء في هذا الدرس الحادي عشر هذا النّص، كَأَنَّ السّابق كان لهم، وكأنّهم كانُوا هُمُ المعنيّينَ به.

وفي هذا الخطاب للمشركين خطاباً مباشراً، بيانٌ إقناعيٌّ لهم بِدَعْوَةٍ فكريَّةٍ عَقْلِيَّةٍ هادئةٍ رَصِينَةٍ، تَسْتَنِدُ إِلَىٰ واقعٍ تجريبي، وقابِلٍ للتجربَةِ دواماً، وباستطاعة كلِّ إنسَانٍ أنْ يمارِسَ تَجْرِبَتَهُ فيه.

والموضوع للتَّجربَةِ أوثانُ المشركين وأصنامُهُم الّتي جَعَلُوها رُمُوزاً لمعبوداتهم الغَيْبِيَّة، من أرواح الموتَى الصالحين، أو الّذِين كان أجدادُهم يَعْتَقِدُون فيهم الصَّلاح، أو رُموزاً لمعبوداتهم من الجنّ، أو ما يَزْعُمونَ أنّهم ملائكة، أَوْ قُوىً غيبيَّةٌ أُخرَىٰ.

هذه الأوثان والأصنام تماثيل مَصْنُوعَةٌ من عناصر الأرض، فهي جامِدَةٌ جُمُودَ الصَّخْرِ، أو الطِّين، أو الْحَدِيدِ، لا رُوحَ فيها، ولا حواسّ لها، ولا مَشَاعِرَ لَدَيْها، ولا تَسْتَجِيبُ بشيْءٍ لدَعْوَة الدَّاعي.

أي: فأجْرُوا تجرباتكم فيها إِنْ شئتُم.

قول الله تعالىٰ:

● ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾:

أي: وإنْ تَدْعُوهم إلى القيام بِعَمَلٍ صالحٍ فيه هُدىً لاَ يَتبعُوكم، مهْمَا أَلْححْتُمْ عليهم في الدَّعْوَة، لأنَّهم جمادات، ومَنْ تَرْمُزُونَ بها إليهم غَيْر مُمَكَّنِين من التأثير فيها بشيءٍ، سواءٌ أكانوا جنًّا، أمْ تزعُمونَ أنهم من الملائكة، أم كانوا أرْواحَ موْتَىٰ، ولو أرادَ بعضُهُمُ التأثير كَكُفَّارِ الجنّ.

وذكر الله عزّ وجَلَّ دَعْوَتَهُمْ إلَىٰ الْهُدَىٰ، مع أنّ دَعْوَتَهُمْ لأيّ عَمَلٍ آخَرَ ولَوْ لم يكُنْ فيه هُدىً، هو مِثْلُ دَعْوَتِهِمْ إلَىٰ الْهُدَىٰ في أنّهم لاَ يَتَّبِعُونَ الدَّاعي، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يَذْكُرُ من احْتِمَالاَتِ الأمْثِلَةِ إلاَّ ما فيه خَيْرٌ وهُدىً وعَمَلٌ صالحٌ، وهٰذا من آداب التَّعْبيرات القرآنيَّةِ ولطَائِفها.

● ﴿... سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣)﴾:

جاءَت هذه العبارة بمثابة جواب سائلٍ يقول: ولِمَاذَا لاَ يَسْتجيبونَ لداعيهم؟

والجواب: أنّ هذه المعبودات الوثنيَّة لاَ تُحِسُّ بدعوة من يَدْعُوها، وأمَّا مَنْ يُرْمَزُ إليهم بها، فلَوْ كانوا شياطين أخباثاً، يَحْرِصُون على نَشْرِ الشِّرْكِ في الناس، فإنَّهم غَيْرُ مُمَكَّنِينَ من الاستجابة والتأثير، لئلاَّ يكون للشّرك آثارٌ مادّيَّةٌ يَحْتجُّ بِهَا المشركون لتأييد ونَشْر ما هم فيه من شرْك.

إنَّ الله جلَّ جلالُهُ يكُفُّهُمْ بسُلْطَانِهِ عن ذلك، ومعْظَمُ المعْبُودِين يَتَبَرَّؤُون مِنْ عابديهم عِنْدَ رَبّهم.

﴿سَوَاءٌ﴾: خَبَرٌ مُقَدّم ﴿عَلَيْكُمْ﴾ متعلّقٌ بـ ﴿سَوَاءٌ﴾ والمبتدأ هو المصْدَرُ المؤوَّلُ من الْفِعْلِ بَعْدَ هَمْزَةِ التسوية، والتقدير: سواءٌ عليكم دَعْوَتُكُمْ لهم بألْسِنَتِكُمْ وَصَمْتُكُمْ.

والمعنى: استوَتْ دَعْوَتُكُمْ لَهُم وَعَدَمُها، وهذا الاستواءُ من الأمور التكوينيَّة الجبْرِيَّة عليكم، فلا تَمْلِكُونَ الخلاصَ منه، لأنَّ قانون اللَّهِ في الأوثان والجوامِدِ كلّها، أنْ لا تُحِسَّ بِدَعْوَةِ مَنْ يَدْعُوها من عباد الله، وأن لا يَسْتجيبَ مَنْ يُرْمَزُ بها إليهم، إمَّا طاعَةً لِلَّهِ كالملائكة، أوْ عَجْزاً عن الاستجابة كالشياطين من الجنّ، أو لا تَمْلِكُ الإحساسَ بداعيها كالأحجار والأشجار ونحوهما.

قول الله تعالى:

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

﴿عِبَادٌ﴾: جمع «عَبْد» وهو المخلوق المملوكُ، ويجمع على «أَعْبُدٍ، وَعَبِيدٍ وعِبَاد».

وقد وصَفَ الله عزّ وجلّ الملائكة، والإنْسَ، والجنّ، على اختلاف دَرَجَاتِهم ومَرَاتِبهم، بأنّهم عِبادٌ، لأنهم مَخْلُوقُون بخلْقِهِ لهم، ومملُوكُون لَهُ جلَّ جلاله.

فالآلهة الّذين اتّخذهم المشركون معبوداتٍ لهم من دون الله، واتّخذوا لها الأوثان رُمُوزاً، على زعم أنّ أرواح آلهتهم وقواهم تصاحبها وتحيط بها، هم عبادٌ لله مثل عابديهم، فهم لا يستحقون أنْ يُعْبَدوا، وعبادتُهُمْ ظُلْمٌ لحقِّ اللَّهِ على عباده جَميعاً.

● ﴿... فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾:

في هٰذه العبارة تَحَدٍّ للمشركين من الله جلّ جلاله، بأنْ يَدْعُوا مَنِ اتَّخَذُوهم شُركاءَ لله، وبأن يُثْبِتُوا أنهم يَسْتَجِيبونَ فيما يَدْعُونَهُمْ له، إنْ كانوا صادقينَ في ادّعاء أنّهم شُرَكاءُ للَّهِ حقًّا، ولهم تَأْثيرٌ ما في نَفْعٍ أو ضَرٍّ.

- ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾: أَمْرُ تَحَدٍّ خَاطَبَ اللَّهُ عزّ وجلّ به المشركين.
- ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾: أَمْرُ تَعْجِيزٍ لَهُمْ ولِشُرَكائهم.

أي: إنّ شُرَكَاءَكم لَنْ يَسْتَجِيبُوا لدُعائكُمْ مَهْمَا دَعَوْتُمُوهم، إذْ هُمْ غير ممكَّنِينَ من ذلِكَ ولو رَغِبُوا فيه.

أمّا الأوثان والأصنامُ فأمْرُهَا ظاهرٌ، لأنّها قِطَعٌ جوامدُ من عناصِرِ الأرض.

وأما المرْمُوزُ إلَيْهِمْ بالأَوْثَان والأصنام، فإن كانوا من شياطين الجنّ، فإنّ الله مانِعُهم بالْقَهر عن أن يكون لهم سلطانٌ، إلاّ على من اتّبَعَهُمْ من الغاوين، فلا يَزيدون عابديهم إلاّ توريطاً في الشَّرّ ورَهَقاً فِي العمل، ولا يَنْفَعُونهم في نَصْرٍ ولا تأييد ضدَّ المؤمنين، ولا يُغَيِّرُون فيهم من قضاء الله شيئاً، ولا يجلُبونَ لهم نفعاً، ولا يَدْفَعُونَ عَنْهُمْ ضرّاً.

وإن كانوا ملائكة، فإنّهم يمقُتُونَ عابديهم، ولا يَعْصُونَ اللّهَ مَا أَمَرَهم، ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون من ربهم.

وإنْ كانوا مَوْتَىٰ فقد انقطَعَتْ كُلُّ أعمالهم، والصالِحُون منهم يتَبَرَّؤُون من عابديهم يوم الدّين، والكافرون منهم يتخلّوْنَ عن مسؤوليَّةِ إغوائهم، إذا كان لهم تَسَبُّبٌ ما فيه.

قول الله تعالى:

- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا... ﴿١٩٥﴾﴾:

وجّه الله عزَّ وجلَّ بهٰذِهِ الفِقَراتِ للمُشْرِكين عدَّة أسْئلةٍ تفصيليَّةٍ، بشأن الأصنام والأوثان والتماثيل، على احتمالِ أنّ المشركين يعْتَقِدُونَ أنّ معبوداتهم هذه تَمْلِكُ بذَواتها أن تجلب لهم نَفعاً، أو تدفَعَ عنهم ضَرّاً، أو تجلُبَ لأعدائهم ضرّاً، أو تمنع عن أعدائهم نفعاً.

وهذا من التنزُّلِ إلى مُستَوىٰ مَدَارك عامَّتِهم، الَّتي قَدْ تَتأثَّرُ بالأوهام الّتي يُزَخْرِفُها لهم سَدَنَةُ أصْنامهم، فيَسْتَدْرِجُونَهُمْ إلى اعْتِقَادِ الباطِلِ على أنَّهُ حقٌّ.

إنّ مَنْ يَمْلِكَ جَلْبَ أو مَنعَ نَفعٍ أو ضرٍّ، لا بُدَّ أَنْ يكُونَ متَّصِفاً بالصِّفَاتِ الَّتي تُؤَهِّلُهُ للقيام بذلِكَ، وأَوْلاَهَا بالعناية والاهتمام صفاتُ الْعِلْم والقدرة والحياة والإرادة، مع أدوات الحسّ والحركة كالبصر والسمع، والأيْدِي الَّتي تَبْطُش، والأرجل التي تَمْشي.

فالكائن الذي لا يَمْلِكُ هٰذه الصفاتِ عاجزٌ بطبيعَتِه عَنْ جَلْبِ نَفْعٍ لِنَفْسه، أو دَفْعِ ضُرٍّ عن نَفْسه، فضلاً عن أنْ يجْلُب نفعاً لغيره، أو يَدْفع عنه ضَرّاً.

وفي توجيه الأسئلة الرَّبَّانِيَّةِ الوَرِادَةِ في هذه الفقرات، إشارةٌ إلى هذه الحقيقة الْبَدَهِيَّة.

- ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ . . . ﴿١٩٥﴾﴾؟

﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي بمعنى «بل» مع الاستفهام.

أي: ألهم أرْجُلٌ يَمْشُونَ بها لنُصْرَتكُم؟ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بها للدّفاع عنكم؟.

الْبَطْش: أخْذُ الشيءِ بالْيَدِ بعُنْفٍ وقُوَّة، تقول لغة: «بَطَشَ يَبْطِشُ ويَبْطُشُ بطْشاً» أي: تناول بشِدَّةٍ عند الصَّوْلَة ـ أَخَذَ بيَدِه أخذاً عنيفاً بشدّةٍ وقُوّة ـ سطَا بسُرْعَةٍ وقوة.

- ﴿. . . أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَآ . . . ﴿١٩٥﴾﴾.

أي: أمْ لهم أعْيُنٌ يُبْصِرُون بها، حتَّىٰ يَعْرِفُوا أَحْوال عَابِدِيهم؟.

إنَّ الأعْيُنَ الموضوعةَ لهم حجارَة لا ترىٰ، وليس لهم في رؤوسهم الصَّخريّة مراكز إبصار يُدْرِكون بها المرئيّات.

أم لهم آذانٌ يَسْمَعُونَ بِها أَصْواتَ مَنْ يَدْعُوهم؟. إنّ الآذانَ المنحوتة في صخراتِ أجسادهم ليست لديها قُدْرَةٌ على السّمع، ولَيْسَ لهم في رؤوسهم الصَّخْرِيَّة مراكزُ يُدْركُونَ بها الأصوات.

أسئلةٌ لا جوابَ لها أخذاً من واقع حال الأوثانِ والأصنام والتماثيل إلاَّ النفي.

إذن: فمِنَ السَّفاهة البالغَةِ الغايةَ في نقص العقول، ومن الحرمان من الإدراكات السليمات عبادَتُها، ودُعاؤُها.

وقد ذكرها اللَّهُ عزّ وجلَّ بالتعبيرات الّتي يُذْكَرُ بها الأحياءُ العقلاء مُسَايَرَةً لِعُبَّادِها. «يَمْشُونَ ـ يَبْطِشُونَ ـ يُبْصِرُونَ ـ يَسْمَعُونَ» ولولا هذه المسايرة لكان الحديث عنها كما يلي: أَلَهَا أرْجُلٌ تَمْشي بها، أم لها أيدٍ تَبْطِشُ بها، أم لَهَا أعْيُنَ تُبْصِرُ بِهَا، أم لها آذانٌ تَسْمَعُ بها.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجل:

﴿. . .قُلِ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾:

تمهيد:

اشتملت هٰذه الآيات على تحدٍّ آخَرَ للمشركين، عَلَّمَهُ اللَّهُ رسُولَهُ فكُلَّ داعٍ إلى دينِ اللَّهِ من أُمَّتِه، أَنْ يقولَهُ للمشركين، وهذا التحدّي يعْتَمِدُ علىٰ

دَعْوَةٍ للشُّرَكاء المزعُومين أنَّهم شركاءُ لله، أَنْ يَكيدُوا الداعي بكلِّ مَا لديْهِم من وسائل كَيْدِيَّةٍ غَيْر منظورة، دُون إنظارٍ ولا إمْهال.

• ﴿. . .قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾:

أي: قُلْ يَا مُحمَّدُ وَيَا كُلَّ داعٍ إلى سبيل رَبّه للمشركين: ادْعُوا شُرَكَاءَكُم، ثُمَّ قولُوا لَهُمْ: حَارِبُوه بما لديكم من وسائلَ، دُونَ إمهالٍ، ولا إبْطاءٍ ولا إنْظَارٍ نُصْرَةً لعابديكم.

الكَيْدُ: الحرْبُ، وكُلُّ تَدْبيرٍ في إعداد وسائله.

﴿فَلَا تُنظِرُونِ﴾: أيْ: فَلا تُمْهِلُونِي إن اسْتَطَعْتُم، واستَخْدِمُوا كلَّ ما لديكم مِنْ حَرْبٍ بوَسَائِلَ غيبيَّة يَمْلِكُهَا شُرَكَاؤكُمْ الّذين زعمتم أنّهم شُرَكاء لِلَّهِ في ربوبيَّتِهِ، الّتي تَسْتَلْزِمُ مُشاركَتَهُ له في إلَهيَّتِه، إنْ صَحَّ ادِّعَاؤُكُمْ.

حُذِفَت ياء المتكلّم إيجازاً في النطق من «كيدونِ ـ تُنْظِرُونِ» وتُوجَدُ قراءة أخرى بإثبات ياء المتكلم، كما سبَقَ بيَانُه فِي القراءات.

وثمرَة هٰذا التحدّي أَنْ يَعْجِزُوا، إذْ لَنْ يَسْتجيبَ لهُمْ شُركاؤُهم، فيثبتُ بالواقع التجريبيّ أنّ شركاءَهم لاَ تَسْتَطِيعُ شيئاً، وأن شِرْكَهُمْ عَمَلٌ باطلٌ لاَ أَسَاسَ له، وأنَّه أوهَامٌ في أوهام.

قول الله تعالى:

• ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾﴾:

أي: وقُلْ لَهُمْ هذا القول أيضاً.

﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ﴾: أي: إنَّ الّذي يَنصُرُني ويَحْمِينِي اللَّهُ الَّذِي بِيَدِهِ مَقَالِيدُ كلّ شيءٍ، وهو الرَّبُّ الْخَالِقُ المالِكُ لكلّ شيءٍ سواه في الوجود.

﴿ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ﴾: أَيْ الّذِي نَزَّلَ القرآنَ المشتمل على آياتِ الله التي يَجبُ على الناس أنْ يتَّبعُوها.

واختبر هنا من صفات الله تنزيلُه الكتاب، لربط هذا النَّصّ بالْخَطّ الأعظم من خطوط موضوع السّورَةِ، المبيَّن في الآية الثالثَةِ منها، والتي أمَرَ اللَّهُ فيها الناسَ بأنْ يَتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إليهم من رَبّهم.

فالمعنى: وَقُلْ لَهُمْ بَعْدَ التَّحدِّي، إنَّ نَصِيري الَّذِي يَتَوَلَّىٰ نُصْرَتي على كلِّ من يَكيدُونني ويُرِيدُونَ بي شرّاً أَوْ سُوءاً، هو اللَّهُ الذي نزَّلَ القرآنَ، والَّذِي أمَرَ فيه الناسَ بأنْ يَتَّبِعُوا مَا أنْزِلَ إليهم من رَبّهم، والَّذِي يَشْهَدُ لي بما فيه من إعجازٍ أَنّي رسُولُ الله رَبّ العالمين، وهو جلَّ جلالُهُ يتولَّىٰ الصالِحين من عِبَاده، الَّذِينَ يلْتَزِمُونَ في أنفُسِهِمْ كُلَّ عَملٍ صالحٍ عَقِيدَةً وسلُوكاً، على مقادير استطاعاتهم، فيُمِدُّهم بتَأْيِيدِهِ ومَعُونتِه ونَصْرِهِ لأَنَّهُمْ أولياؤه.

أمّا المشركون وسائرُ الكافرين فلا ولايَةَ لهم من الله الّذِي بيَدِه مقاليدُ كُلِّ شيءٍ، وهو علىٰ كُلِّ شيءٍ قديرٌ.

قول الله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾:

أي: وقل للمشركين هذا القول أيضاً، وهو قولٌ يَتَضَمَّنُ إقناعاً للمشركين بأنّ أوثانَهم الّتي يَعْبُدُونها من دون الله عاجزة عن نَصْرِ عابِديها، وعاجزةٌ عن نَصْرِ أَنْفُسِها إذَا أَرَادها أَحَدٌ بسُوء. وبأنّها لاَ تَسْمَعُ دُعاءَ مَنْ يَدْعُوها، وَلاَ تُبْصِرُ من يَقِف مُقَابِلَها وجهاً لِوَجْهِ، لأَنَّ عُيُونَهَا حجَرِيَّةٌ لاَ تَرَىٰ شيئاً، ورُؤوسَها حَجَرِيَّةٌ ليْسَ فيها مراكز إبصار.

وتحمِلُ عباراتُ الإقناع هذه تَسْفِيهاً ضمنِيًّا لعُقُول المشركين، ولقُوَىٰ الْفَهْم لديْهم.

والمعنى: إنّ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ وتسْأَلُونَهُمْ من دون اللَّهِ مِنْ شركائكُمْ،

الَّذِينَ اتَّخَذْتُمُ الأوثانَ رُمُوزاً لهم، لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكم، إذَا دَعَوْتُمُوهم لِنَصْرِكُم، ولا يَسْتَطِيعُون نصْرَ أَنْفُسِهِم، إذا أراد أَحَدٌ تحطيم رُموزِهِمْ، وأرادوا هُمُ الدِّفاع عنها، لأنّ الله عزّ وجلَّ قد جعلهم بقانونِه الْجَبْرِيِّ عاجِزِينَ، أو بسُلْطَانِهِ العظيم مَمْنُوعين من أن يَكُونَ لهم سلطانٌ مادّيٌّ مؤثر، يستطيعون به نُصْرَة عابديهم، أو نُصْرَة رُموزهم، إذا كانت لهم رَغْبَةٌ في ذلك.

وهؤلاء الشركاء الذين تَدْعُونهم وتَسْألُونهم من دون الله، إنْ تَدْعُوهم يَا مَنْ تَعْبُدونهم، للقِيَامِ بعَملٍ فيه هُدًى وخيرٌ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُم، لأَنَّهُمْ فاقدُونَ لحاسَّة العين الناقِلة للرُّؤيَة. وفاقِدُون لمركز الإدراك الْبَصَرِيِّ في رُؤوسهم الحجريَّة.

والمعنيُّ بالشركاء هُنا الأوثان والأصنام والتماثيلُ، لأَنّها هيَ الّتي يتشبَّثُ بها السَّوادُ الأعظم من عامَّةِ المشركين، ناسِينَ أَنّها كَانَتْ في بدْءِ اتّخاذها رُمُوزَ من يَعْبُدُونَهُمْ من أرواح الموتى، أو الجنّ، أَوْ مَنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ من الملائكة.

وجاء الخطاب بأسلوب الخطاب الإفراديّ لكلّ مُشْرِكٍ، بَعْدَ أَنْ كان الخطاب لعموم المشركين، في عبارة:

﴿... وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾﴾.

لتَحْمِيل كلّ فَرْدٍ مَسْؤُوليَّة إدْراكِ الحقيقَة على وجْهِ الخُصوص، فالخطابُ العَامُّ قَدْ يتجاهلُه بعْضُ الأفراد الدّاخِلين في العموم، فيَتَعَلَّلُ بأنَّه لَمْ يَتَنَبَّهْ له.

وقد كان صانِعُو التماثيل يصْنَعُونَ لها عُيُوناً تُشْبِهُ عُيُونَ الكائنَاتِ الحيَّة، وكان الناظر إليها من قُرْبٍ يَشْعُرُ بأَنّها تنظُرُ إليه، لكنَّهُ مظْهَرٌ لا حقيقة له، ولا حياة فيه، ولا يَمْلِكُ صفاتِ إبْصارٍ تَنْقُل صُورَ المرئياتِ إلىٰ

جهازٍ مُدْرِكٍ داخلَ الأوثان، فَهُمْ لا يُبْصِرونَ بهٰذِهِ العيون الّتي تراها تَنْظُر إلَيْك.

وقد صار هذا الفنُّ في عُصُورنا أكْثَرَ دِقَّةً ومُحَاكَاةً للحقيقة الحيَّة في صناعَةِ الأوثان، ومع ذلِكَ فَلاَ يَسْتَطِيعُ صانِعُو التماثِيل والصُّور أن يَجْعَلُوا فيها أدْنَىٰ دَرَجاتِ الحياة في سلَّمِ الأحياء.

وقد نَزَّلَ اللَّهُ عزّ وجلَّ في التَّعْبير الأَوْثَانَ الّتي لا حياة لَهَا ولا عِلْمَ ولا إدْراك، مَنْزِلَةَ الأحْيَاء الْعُقَلاء، مُرَاعَاةً ومُحَاكَاةً لمفْهُومَاتِ المشركين الباطلات، ليُثْبِت لهم بالدَّليلِ البرهانيِّ أنَّها لا تَسْتَحِقُّ مَا يُطْلِقُونه عليها من تَعْبِيرات. وبَعْد إثْبَاتِ أنَّها جامِدَةٌ لاَ حَيَاةَ لها ولا عِلْمَ ولا إحْسَاسَاتِ، يَظْهَرُ تِلْقَائِيًا فَسَادُ دُعَائها كَدُعَاءِ الأحياء العقلاء العلماء ذوي الإحْسَاس.

وبهذه الإقناعاتِ يَنْهارُ شِرْكُ المشركين، إذ يظهر أنّه غير ذي أَسَاسٍ تقبلُهُ العقول السَّليمة، ويَنْكَشِف أن المشركين سفهاء لا عقُولَ لَهُم، وأنَّهم يتخبَّطُونَ في أوْحَالِ الْجَهْلِ والْعَمَىٰ.



(١٦)
التدبّر التحليلي للدرس الثاني عشر من دُروس السورة وهو الآيات من (١٩٩ ـ ٢٠٦) آخر السورة

قال اللَّهُ عزّ وجل:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا

يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾:

القراءات:

(٢٠١) ● قرأ ابْنُ كثير، وأبو عَمْرٍو، والكِسَائِي، ويَعْقُوبُ [**طَيْفٌ**].

وقرأ باقي القرّاء العشرة [**طَائِفٌ**].

[**طَيْفٌ**]: الطَّيْفُ: التَّخَيُّلاَت والرُّؤىٰ النفسيَّة.

[**طَائِفٌ**]: الطائف: هو الذي يحمِلُ الوساوس، والدسائس، والتسويلات، فيَطُوفُ ويَقْذِفُ بها على فريسَته.

فبين القراءتَيْن تكامُلٌ فكريٌّ.

(٢٠٢) ● قرأ نافع، وأبو جعفر: [**يُمِدُّونَهُمْ**] من فعل «أَمَدَّهُ يُمِدُّه».

وقر باقي القرّاء العشرة: [**يَمُدُّونَهُمْ**] من فعل «مَدَّهُ يَمُدُّهُ».

أي: أعطاه مَدَداً، وزاده فيما هو فيه، وأعانه في شأنه، ويكونُ في المادّيات وفي المعنويّات.

فالقراءتان متكافئَتَان لغة: يقال: «مَدَّهُ، وَأَمَدَّه».

(٢٠٣) ● قرأ رُوَيْس: [**لَمْ تَأْتِهُمْ**] بضَمّ هاء الضمير.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [**لَمْ تَأْتِهِمْ**] بِكَسْرِ هاء الضمير.

وهما لُغَتان عَرَبيّتان.

(٢٠٤) ● قرأ أَبُو جَعْفر: [**قُرِيَ**] بياءٍ مَفْتُوحَةٍ.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قُرِىءَ]: بهَمْزَةٍ مَفْتُوحَةٍ.

والقراءتان وجْهَانِ عَرَبِيَّانِ لنُطْقِ الكلمة.

تمهيد:

يشتمل هذا الدَّرسُ على تربيةٍ من الله عزَّ وجلّ للرَّسُول محمّد ﷺ، ولكلّ داعٍ إلى دين الله من أمَّتِه، وإلى كُلّ آمِرٍ بالمعروفِ ونَاهٍ عن المنكر، في مجالِ قيامِهم بوظائف الدَّعْوة إلى الله، والوعظ والإرشاد، والأمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر، مع توجيه لهم ولسائر المؤمنين بشأن القرآن وذكْر الله، والخضوع الكامل له.

وجاء الخطابُ التوجيهيُّ في هذا الدَّرْس بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ، لإشعار كلِّ واحدٍ من المخاطَبين به بمَسْؤوليّتِه الفرديَّة تُجَاه هذا التوجيه التّعْليمي.

والتوجيه التعليميّ في هذا الدَّرْسِ اشتمل على عدَّةٍ وصايا يَكْشِفُهَا البيانُ التحليليُّ لآيات هذا الدرس الأخير من دروس السورة.

وهذا الدرس متّصلٌ بالدَّرْس الحادي عشر السَّابق، الذي جاء فيه تعليم الرَّسُول والدعاة إلى الله من أُمّته، مناظرةً جدَلِيَّةً يُنَاظِرُونَ بها المشركين، لإقناعهم بأنّ ما هم فيه من شركٍ ظاهر البُطلان بداهة، وبأنّ توحيد الله في رُبوبيّته وإلَهيتِه هو الحقُّ الذي يجبُ على كلِّ ذي فكر ورأي سليم أن يؤمن به ويَعْمَل بمقتضاه.

وبما أنَّ مجادلاتِ ومناظراتِ المبْطِلينَ، لاَ بُدَّ أَنْ تَحْمِلَ أنْصَارَ الباطل المستمسكين به اعتقاداً وعملاً، على أن يُسيئوا لدعاة الحقّ، كان من الحكمة التربويَّة الرَّبَانيّة، أن يُتْبع الله عزّ وجلَّ التعليم الجدليَّ بوصايا للمناظرين المؤمنين، تجعَلُهُمْ دواماً في المقام الأسْمَىٰ خُلُقاً وحِكْمَةً وصَبْراً،

وبُعْداً عن مقابلة السّيّئَةِ بمثلِها، لأنَّ هَدَفَهُمْ إنقَاذُ الْمُبْطِلين ممّا هُمْ فِيه من أَوْحالٍ ذاتِ عَواقِب وخيمَةٍ، كشأن الأطباء الناصحين، الحريصين على شفاءِ المرضَىٰ، وإنْ نَالَهُمْ منهم أذًى أو ضرّ، ولأنَّ هَدَفهم الأسْمَىٰ مرضاةُ رَبّ العالمين، لا الانتصار الشخصيُّ على الْخَصْم في الحوار الجدليّ الإقناعي.

والدرسان (١١) و(١٢) متصلان بالآيَتَيْنِ (٢) و(٣) في صدر السورة.

التدبّر:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾:

اشتملت هذه الآيَة على ثلاث وَصَايَا للداعي إلى الله، والناصح المرشد، والآمر بالمعروف، والناهي عن المنكر، وهي على إيجازها البديع تحكي قصة معاناة الداعي إلى الله، المناظِر بالمنطق العقليّ، والحجج البرهانية العلميّة، ما يَلقاهُ من تصلّبٍ على الباطل، وسَفاهة وجهلٍ وعِنادٍ واستكبارٍ، وسِبَابٍ وشتائم، واتهاماتٍ بالباطل، وسخرية واستهزاء، وغير ذلك من ألوان غَمْزٍ وهمزٍ ولمزٍ وإيذاء:

الوصية الأولى: أخْذُ الْعَفو.

الوصية الثانية: الأمر بالْعُرْف.

الوصية الثالثة: الإعراض عن الجاهلين.

وفيما يلي شرح هذه الوصايا الثلاث:

(١) شرح الوصية الأولى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾:

تقول هذه الوصيَّة بمضَامينهَا الفكريَّة للدّاعي إلى سبيل رَبّه، أيّها الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالّتي هي أحْسَنُ، أيُّها

الناصح المرشد، أيُّها الآمِرُ بالمعروف الناهي عن المنكر. إنك سَتُواجِهُ مِمَّنْ تُوجِّهُ لهم بيانَك وتوجيهكَ أذىً وعداءً وكَيْداً وضُرّاً، وستواجه سباباً وشتائم، وألْوانَ هَمْزٍ ولَمْزٍ وهُزْءٍ وسُخْرِية.

وإنّك أمَامَ هذه المواقف الصعبة بين خيارين:

● فإمَّا أَنْ تُواجِهَ من تُعَالِجُهُمْ بِمِثْلِ أعمالهم، فَتَخْرُجَ عَنْ منهج دَعْوَتِك، وَتُقِيمَ بيْنَك وبَيْنَهم عَقبات الْخُصُوماتِ، فالعداواتِ، وهي عقَبَاتٌ كأَدَاءُ تُقِيمها في طريق دعوتِك، فتمنَعُكَ مِنْ مُتَابعَةِ الْمَسِير.

● وإمّا أن تَعْفُو عمَّنْ يُسِيءُ إليكَ، وتتغاضَىٰ عنه، وتُبْقِي جُسُورَ الصِّلَةِ بَيْنَك وبيْنَ من تَسْعَىٰ لهدايتهم ونصحهم وإرشادِهم وموعِظَتِهم قائمة. وبسَبَب إبقاء هذه الْجُسُورِ تَستطيع مُتابعَةَ مَسِيرَتِك، لتَغْنَمَ الثوابَ عنْدَ الله، وعسَىٰ أن تظْفَر بمَنْ يستجيبُ لَكَ ويَهْتَدِي.

وقد جاء التوجيه الرَّبّاني لوُجُوبِ سُلُوك سَبِيلِ الْعَفْو والإغضاءِ عن إسَاءات المسيئين.

والبدِيعُ في عبارة التوجيه القرآنيّة، أنها جاءت بأسْلُوب المطالَبة بأَخْذِ الْعَفْو: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ دون عبارة: فاعْفُ، أو فالْزَم العفو، أو فالْزَم سبيل العفو، أو نحو ذلك من عبارات.

إنّ جملَةَ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تُشعِرُ بأنّ الْعَفْوَ شيءٌ ثَمِينٌ يُؤْخَذُ، ويُغْتَنَمُ، ويُظْفَرُ به، ومَرْتَبَةٌ نفيسة يَحْرِصُ على الارتقاء إليها أهل البصيرة الإيمانيَّة.

ولدىٰ التحليل يُلاحظُ المتدبّر أنَّ الْعَفْوَ لَهُ حلاوةٌ في الْقُلُوب والنُّفُوسِ، فَمَنْ عَفَا ذَاقَ حلاوةَ الْعَفْو، والأشياءُ ذوات الحَلاَوَات في المادّيَّات تُؤْخَذُ، وتُسْتَعْمَلُ في الوجوه الّتي تُعْطِي حَلاواتها.

ولمَّا كانَ مُجرَّدُ أخْذِ الْعَفْو يُسَبِّبُ في نَفْسِ المؤمنِ وقَلْبه مشَاعِرَ

الحلاَوة الإيمانيَّة، قال الله عزّ وجلّ لحامل الرّسالَةِ الدّينيَّة: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ويُلاحظُ المتدبّر أيْضاً أنَّ الْعَفْوَ يُثِيبُ اللَّهُ علَيْهِ ثواباً عظيماً جَلِيلاً، ويَعْلَمُ أنّ المؤمِنَ شَدِيدُ الحرْصِ على الظفر بهذا الأجْرِ العظيم. ولمَّا كانَ الحصُولُ على هذا الأجْرِ العظيم الَّذِي يأخُذُهُ المؤمِنُ عنْدَ رَبّه، إنَّما يأخُذُهُ بسَبَب الْعفْو، كانَ مِنْ فَنّيَّةِ الأداء البيانيّ الْبَدِيع، والأَدَب الرَّفيع، إسْنَادُ الأَخْذِ إلىٰ السَّبَب الَّذي يُؤخَذُ بِهِ الأجْرُ العظيم عند الله.

وجُملَةُ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾ تَدُلُّ بلازِمِها الذّهْنِيّ على النَّهْي عن أَخْذِ التَّشفّي، أي: ولا تأْخُذِ التَّشفّيَ لِنَفسِكَ بالانْتِقَام، وبمقابلة السَّيّئَةِ بمِثْلها، ومُعَاقَبَةِ المسِيىء من الذين تُعَالِجُهُمْ بما يسْتَحقُّ من عقاب. فحلاوةُ العفْو ولذَّتُهُ، مع ثواب الله العظيم. خَيْرٌ لَكَ مِنْ لَذَّةِ التَّشفِّي العابرة، الّتي قد لا تظفَرُ بها، وقَدْ تَجلُبُ لكَ شرًّا كبيراً، مع ما تُقِيمُ من عقباتٍ وجُدُرٍ في سَبيلِ قيامِكَ بأداء رسالَتِكَ الّتِي تَحمِلُها للإصلاح، ومَعَ ما تُدَمِّرُ من جُسُورِ بَيْنَكَ وبَيْنَ من تُعالِجُهُمْ بالدَّعوة، أو بالنُّصْح والإرْشاد، أو بالأَمْرِ بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنّ الْعَفْوَ عن إسَاءَاتِ المعَالَجِينَ وإيذَاءاتهم يُعَبّدُ للمعالِج حامل الرسالة السُّبُلَ الوَعْرَة، الّتي ينبغي أن يسلُكها لدىٰ تأديَةِ رسالته، ابتغاءَ مَرْضاة ربّه، فهذا أمْرٌ يُرْضي اللّه عزّ وجلّ، لأنَّهُ أكْثَرُ تأثيراً في هدايةِ الناس، واسْتجابَتِهِمْ لما يُحْييهم، بما يَمْلِكُ من قلوبِهم ونُفُوسِهم وعواطِفهم، وبما يُمَهِّدُ الطريق إلى استجابتهم، فَيُثِيبُ اللَّهُ علَيْه ثَوَاباً عظيماً.

(٢) شَرْح الوصيَّةِ الثانية: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾:

أي: ولْيَكُنْ هَمُّكَ أَنْ تَأْمُرَ النَّاسَ بالْعُرْف. والعُرْفُ في هذه المرحلة المكيَّة الّتي نزلَتْ فيها سورة (الأعراف) هو مَا يُسمّيهِ الْعَرَبُ عُرْفاً، وهُوَ الْبَذْلُ والْعطَاء والمساعَدَة لذَوي الحاجات والضرورات.

إنّ هذا التوجيه للأَمْرِ بالْعُرْف، يَدُلُّ علىٰ أنَّ الدَّاعي إلَىٰ دين الله، إذا اهْتَمَّ في دَعْوَتِه إلى سَبِيل رَبّه بقضايا ذَوِي الحاجاتِ من الفقراء والمسَاكين والضعفاء، فدافَعَ عنهم، وأَمَرَ باصطناع المعروف معهم، وحثّ على العطْفِ عليهم ومُسَاعَدَتهم، اسْتَمَالَ إلى دَعْوَتِه قُلُوبَ ونُفُوسَ الكَثْرَةِ الكاثِرَةِ مِنْ جماهير الشَّعْب، إذ الكَثْرَةُ الكاثرَةُ من الناسِ في كُلّ عصْرِ وفي كلّ أُمّةٍ هُمْ ذَوُو الحاجاتِ والضُّعفاء.

والدَّعْوَة إلى صُنْعِ الْعُرْف معهم تستَعطفُهُمْ إلى الدّاعي، وتَجْعلُهم يلْتَفُّونَ حوله، وبذلك تتوجَّهُ أفكارُهم بقُوَّةٍ لقاعِدَةِ الإيمان الّتي يَدْعُوهُمْ إليها، فيَسْتَقْبلُونها ويتَقَبَّلُونها، ويَسْتَجيبُونَ لَهَا.

ويَدُلُّ هذا التوجيهُ الوارد عَقِبَ الْوَصِيَّة بأخْذِ الْعَفْو، علَىٰ التوجيه الإلماحيّ لقطْعِ لسانِ من يُسيء لحامل الرّسَالة، بأنْ يأمُرَ أصحابه وإخوانه وأنْصَاره، وسائر من يمكن أن يسْتجيبَ له بأنْ يصْنَعُوا العُرْفَ مع المسِيء، ومع ذوي الحاجات من جماعَتِه وعصبَتِه وعَشِيرَته.

فإذا رأىٰ الْمُسِيء أنّ حَامِلِ الرّسالَة الّذِي أسَاءَ هُو إلَيْهِ قَدْ أَمَرَ أصْحَابَهُ بأنْ يُقَدِّمُوا له ولِعَشِيرَتِهِ الْعُرْفَ، بَعْدَ أَنْ ثَارَت فيهم الحميَّة، وهمُّوا بأن يُنَكِّلُوا به، ويَنْتَصِرُوا لِقَائِدِهم ورائدهم والدَّاعِي إلى سبيل رَبّه بالحكمة والموعظةِ الحسنة، والجدال بالّتي هي أَحْسَنُ، فلاَ بُدَّ أنْ يَتَصَاغَرَ في نَفْسِه، ويتَرَاجَعَ عن مَوْقِفه، ويُحَاوِل التكفير عن إساءاته.

وتروي لنا قِصَص شمائل الرَّسُولِ ﷺ شيئاً كثيراً، ممَّا يتضَمَّنُ تَطْبِيقَ هٰذا التوجيه الرَّبانيّ.

إنّ هذه الجملة: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ على اقتضابِهَا تحكِي قصَّةَ الأسْلُوب الأنجع لحامل الرسالة لدَىٰ تأديَتِه رسالةَ ربّه، إذْ يَجْذِبُ به الجمهورَ الأوسَع للإيمان بما يَدْعُو الناس إليه، والعمل بمَا ينصحهم به، أو يُرْشدهم إليه.

يُدْرِكُ هٰذا أَهْلُ التّدَبُّر من أهل المعْرِفة بطبائع الناس، وواقع أحوال الشعوب، وبأساليب استعطاف واستمالَةِ الجمهور الأعظم منهم.

(٣) شرح الوصيّة الثالثة: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾:

أي: وقابل الّذين يتمادَوْنَ في الجهالة عليكَ بعْدَ الْعَفْو عن إساءاتهم وأذاهم، وبَعْد أمْركَ بصُنْع الْعُرف لهم، بالإعراضِ فقط، وهو إعطاءُ عارِضِكَ لهم.

العارض: جانبُ الْوَجْهِ والجسم.

ونفهم من هذا أنّه من غَيْرِ المستَحْسَنِ إدَارَةُ الظهر لهم، والتولّي عنهم، بل المطلوبُ الاكتفاءُ بمجرّد الإعراض عنهم إذَا تطاولُوا وتمادَوا في السفاهة، وتصرّفَاتِ الحمقىٰ الجاهلين.

الإعْراض: منزلة وسَطَىٰ بين المواجَهَةِ والإدْبَار.

والمراد بالجاهلين هنا، هُم الّذين يتسافَهُونَ على الفضلاء، فيخاطبونَهُمْ بالأقوال النابية القبيحة، أو بالشتائم والسِّباب، ويؤذونهم بالتحقير والسُّخْرِية، والهمز واللّمز، وهذا ما عنَاهُ الشاعر العربيُّ بقوله:

أَلاَ لاَ يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

❁ ❁ ❁

أفلا تلخّص هذه الآية الموجزة بفقراتها الثلاث فُصُولاً ثلاثة، من كتاب «فقه الدّعوة إلى الله والنصح والإرشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» وتحدّد سياسةَ حاملِ الرسالة فيمن يُؤدّي رسالته إليهم.

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾:

إنّ ظاهر هذا النصّ قد يوهم أنّه اشتمل على جُمَلٍ اقتصَرَتْ على التوجيه المباشر لثلاث وصَايا، وأنّها لا تحتَوي صُوَراً أدبيّة.

لكِنَّ المتدبّر الحصيفَ يَعْلَمُ أَنَّ هٰذِهِ الْجُمَلَ المقتضبة الحاملة لهٰذِه الوصايا، إنما هي جُمَلٌ ملْتَقطَةٌ من ثلاثة فُصولٍ من كتاب كبير، وهي تَدُلُّ بلوازمها الفكريّة على كلّ عناصِرِ فُصُولها.

وهذا لونٌ من ألوان الأدب الرّفيع الّذي يُدْركه كِبَارُ البلغاء ويعتمدون عَلَيْه في بياناتهم.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

تمهيد:

بَعْدَ الوصايا الثلاث التي وجَّهها الله لحامل الرّسالة في الآية السابقة، جاءت هٰذِه الآيَةُ لمعالجة نَفْسِه، إذَا تَحَرَّكَتْ فيها الدَّوافِعُ للتَّشَفِّي مِمَّنْ أَسَاءَ إليه.

فأبانَ اللَّهُ له أنَّ ذلِكَ مِنْ نَزْغِ الشيطان، أي: من تَحْريكِهِ وتَحْريضِهِ وإثَارَتِهِ للغضب، ودفعه إلى فِعْلٍ لا يَلِيقُ بِمِثْلِهِ انتقاماً لِنَفْسِه.

وعَلَّمَهُ الله جل جلالُهُ الدَّواءَ الذي يَصْرِف اللَّهُ به عَنْهُ هذا النَّزْغ الشيطانيّ.

هذا الدواء هو أن يسْتَعيذَ بالله منْهُ، فإذا فَعَلَ ذَلِكَ سَمِعَ الله استعاذَتَهُ الصَّادِقَة، الصادرة من عُمْق فؤاده، وهُوَ تبارَكَ وتَعَالى يَعْلَمُ ما حَدَثَ في نَفْسِه مِنْ انْفِعَالٍ يكادُ يَسْتَخِفُّهُ للانتقام، فيستجيب له، فيَصْرِفُ عنْهُ نَزْغَ الشَّيْطان، فيَعُودُ إلى حالة الْهُدُوء والسكينَةِ والطُّمأْنينة.

التدبر:

● ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾:

هٰذه العبَارَة معطوفة على جُمَل الوصايا في آية: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾.

ولفظ **[إِمَّا]** مُرَكَّبٌ مِنْ «إِنْ» الشَّرْطيّة، و«ما» الَّتي قَدْ تُضَافُ لتأكيد معنى الشَّرْطِ وَتَعْضِيدِه، مع ما فيها من تزيين للفظ، إذا كانَ ما بَعْدَ «إِنْ» الشرطيَّةِ يَلِينُ النُّطْقُ بِهِ لَدَىٰ إضافَة حَرْفِ «ما».

النَّزْغُ: في الحسِّيَّاتِ هو النَّخْسُ، والْغَرْزُ بإِبْرَةٍ أو نحوها، للإثارةِ والدفْعِ لأمْرِ ما، ويُسْتَعْملُ في المعنويات للدَّلالة على ما يشبه ذَٰلِك، من وساوس مثيرةٍ للْغَضَب، ومهيِّجَةٍ للانتقام.

ونزغ الشيطان، وساوِسُهُ وتَسْوِيلاتُه وتزييناته التي يَحْمِلُ بها الإنسانَ على المعاصي.

ويقال: نزغ فُلانٌ بين القوم، أي: أَفْسَدَ بَيْنهم وحَمَلَ بعْضَهم ضِدَّ بعض، ويُطْلَقُ النَّزْغُ على الكلام الَّذي يُقْصَدُ بِه الإغراء والإفْسَادُ بيْنَ الناس.

وجاء في الآية فِعْلُ: ﴿يَنزَغَنَّكَ﴾ مؤكّداً بنُونِ التوكيد الثقيلة، للدَّلالَةِ على أنّ النَّزْغ قَدْ بَلَغَ مبْلَغَ حُدُوثِ بداياتِ الغضب وتَحرُّكِ ثَوْرَتِه.

● ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾: أي: فادْعُ الله أنْ يُعِيذَكَ من نَزْغ الشيطان، ويصْرِفَهُ عنك، ويَحْمِيَك ويحفظَكَ من وساوسه وتسويلاته.

الاستعاذة بالله: هي اللُّجوءُ إِلَيْهِ بالدُّعَاء في طلَب الحماية والحفظ، وصَرْفِ الشرّ والضُّرّ والأذَىٰ.

الْعَوْذُ في اللّغة: اللُّجوءُ والاعْتِصَام، يُقالُ لغةً: عاذَ به يعُوذُ عَوْذا وعِياذاً، أي: الْتَجأَ إليه، واعْتَصَمَ به، ليَحفَظَهُ ويَحْمِيه.

والاستعاذَةُ: هي طلب العوذ.

ولما كان الله ـ جلَّ جلالُه وعزَّ سُلْطانه ـ هو الذي بيَدِه مقالِيدُ كُلِّ شيءٍ في الوجود، وهو على ما يَشَاءُ قدير، كانَ مَنْ قَام بواجباته كما أمَرَهُ الله، واستعاذَ به صادِقَ النيَّة، متضرّعاً له، داخلاً في ملْجَإِ اللَّه، وفي دائرةِ عِصْمَته وحمايته.

● ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾: أي: إنّه ذو سَمْع عظيم يسْمَعُ به كل صَوْت، وذو عِلْمٍ شاملٍ واسِعٍ يَعْلَم به كلَّ ما يُمْكِنُ أن يُعْلَم، من الواجبات والجائزات والمستحيلات العقليّة.

وفي ذكر هٰذيْنِ الاسمَيْن هُنا من أسماء الله الحسنىٰ، إشارةٌ إلَىٰ مَطْلُوبين:

المطْلُوبُ الأوَّل: أنْ تكون الاستعاذة بكلامٍ مصحُوبٍ بصَوْتٍ مهما كان خافتاً، ليُسْمَع.

المطلوبُ الثاني: أن تكون الاستعاذة مقْرُونَةً بِنيَّةٍ صادِقَةٍ من عُمْقِ الفؤَاد، جَدِيرَةٍ بأنْ تُعْلَم بأنَّها عبادةٌ لِلَّهِ في سُلوكٍ قَلْبيّ.

وبتحقُّق هٰذين المطلوبَيْن يَسْتَجيبُ اللَّهُ جلَّ جلالُه دعاء مَنِ استعاذ به، فيَصْرِفُ عنه نزَغَاتِ الشيطان.

فما يَدْخل في دائرة الأصوات مشمولٌ بصفة السَّمْع، وما تنويه القلوبُ مشْمُولٌ بصفَةِ العلم، مع علم الله سبحانه بكلّ شيء.

وفي ذكر هٰذين الاسمين أيضاً من أسماء الله الحسنىٰ، دلالَةٌ علىٰ أنّ الله ـ جلّ جلالُه ـ يجيبُ المستعيذ به من نزغ الشيطان، إذا دعاه محقِّقاً المطلوبيْن السَّابقين، فيُعِيذُه، ويَصْرِفُ عَنْه مَا يَجِدُ في نَفْسِه من ذلِكَ، وما يَجِدُ في نفسِه من أثَرِه.

ثم جاء تأكيدٌ لمضمُونِ هٰذِه الآيَةِ، في الثُّلُث الثالث من المرحلة المكيّة، مُوَجَّهٌ للدُّعاةِ، فأنزل اللّٰهُ عزَّ وجلّ في سورة (فُصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) قولَه بأسلوب الخطاب الإفرادي:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

صُدِّرَ هٰذا التعليمُ الرَّبَّاني الموجَّهُ للدُّعَاةِ إلى اللّٰهِ باستفهام تَرْغِيبيٍّ، يتضمَّن الحثَّ علىٰ القيام بوظيفة الدَّعْوَةِ إِلَىٰ اللّٰهِ بالحكمة والموعظَةِ الحسنة، والمقترنة بشرطَيْن:

الشرط الأول: أن يكونَ الداعي إلى اللّٰهِ قُدْوةً للنَّاسِ بعمله الصالح، وقد دَلّ عليه قول الله تعالى في النصّ: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ أمّا من كان عمله مخالفاً لأقواله فلا تأثير له.

الشرط الثاني: أنْ يُعْلِنَ الدَّاعي إلى الله أنَّهُ فَرْدٌ من أفراد المسلمين، فهو مسْؤولٌ تُجاهَ رَبِّه كسائر المسلمين، ومُطالَبٌ بأنْ يَعْمَلَ بكلّ ما أَمَرَ الله به المسلمين أن يَعْمَلُوا به، وبأن يجتنبَ كلَّ ما أمر الله المسلِمينَ بأن يجتَنبُوه، وبأنْ يَنْتَهِيَ عَنْ كلِّ ما نَهَىٰ اللّٰهُ المسلِمين عن أَنْ يفعَلُوه، وبأنَّهُ تُطَبَّقُ علَيْه جَمِيع الشرائع والأحكام الّتي شرَعَ الله أن تُطَبَّقَ على سائر المسلمين، فلا استثناء له بشيء، ولاَ إعفاءَ لَهُ عَنْ شيءٍ، وقد دَلَّ على هذا الشرط، قول اللّٰهِ تعالى في النصّ: ﴿وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾.

أمّا قادة المذاهب البشرية فهم في الغالب كذابون لا يلتزمون بما يدعون الناس إليه.

ودَلَّ قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟؟! على أنه لاَ يُوجَدُ قائل من الناس يقولُ قولاً في غَيْرِ الدَّعْوَةِ إلى اللَّهِ هُوَ أَحْسَنُ مِنْ قَوْلِ من دعَا إلى الله، وهذا لا يَمْنَعُ من تفاضُل أقوالِ الدُّعاة إلىٰ الله في الحسْنِ، فبعضُ أقوالهم أحْسَنُ من بَعْض.

ومن هذا نفهم أنّ الدَّعْوَة إلى الله الّتي تكون بوسيلَة البيان الكلامي هي أحْسَنُ القول، لأنَّ مضمونَهُ أحْسَنُ المعاني الّتي يُعَبرُ عنها بالبيان الكلامي.

• ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾:

أي: ولا تَسْتَوِي مفردات جنْسِ الحسنة، لأنّ هذه المفردات ذَواتُ نِسَبِ مختَلِفَاتٍ في الحسْن، ودرجاتٍ مُتَفاضلات، فمنها ما هو ذو دَرَجَةٍ دُنيا في الْحُسْن، ومنْها ما هو ذو درجَةٍ عُلْيَا في الْحُسْن، وبينهما درجات كثيرات لاَ تكاد تُحصَىٰ، وكلّ ذي حُسْنٍ يحْتَلُّ دَرَجَةً من هذه الدّرجات.

ولاَ تَسْتَوي أيضاً مفردات جنْسِ السَّيِّئَة، لأنَّ هذه المفردات ذواتُ نِسَبِ مختلفاتٍ في السّوء، وذوات دَرَكَاتٍ متفاوتات متنازِلات، فمنها ما هو ذو دَرَكَةٍ أُولَىٰ، ومنها ما هو ذو دَرَكة سُفْلَىٰ، وبينهما دَرَكات كثيرات لا تكاد تُحْصَىٰ، وكلّ ذِي سُوءٍ يحْتَلُّ دَركة مِنْ هذه الدّركات.

ويُشْعِرُ الاقترانُ في البيان بين الآية الأولى والآية الثانية من هذا النّصّ، بأنّ الّذين يرْفضون دعوة الداعي إلى الله، سيقابلون دعوتَهُ بالرَّفض، ثُمَّ بما يَكْرَهُ في أحيانٍ كثيرة، على تفاوتٍ في دركاتٍ ما يَسُوؤُه منهم.

والمطلوب من الداعي إلى الله في كلّ الأحوال، أنْ يدفَعَ بالْخَصْلَة الّتي هي أحْسَنُ ممّا سَاءَهُ من رافض دعْوَته.

فإذَا جادَلَهُ المدْعُوُّ بالْبَاطل والْعُنْف، دفَعَ الدّاعي إلى اللّهِ بالمجادلة بالحقّ وبالرّفق، ما اسْتَطَاع إلى ذلك سبيلاً.

وإذا قابله المدعُوُّ بالسِّبَاب والشتائم والاتّهمات الباطلات، دفع الداعي إلى الله بالّتي هي أَحْسَنُ، وهي الإعراض عن شتائمه، والاكتفاء بنَفْي الاتّهامات الباطلات، أُسْوَةً بما فَعَلَ الرُّسُل عليهم السَّلام.

● ﴿. . . فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: إنّ دفع المواقف السّيّئة من ذي العداوة، بالمعاملة الّتي هي أَحْسَنُ خُلُقاً وسلوكاً، تجعلُه يتراجَعُ عن مواقفه السيّئة شيئاً فشيئاً، إذْ تَبْرُدُ حرارة هجومه، ولا يَزَالُ يَتراجع باتّخاذ مواقف لَيِّنةٍ رفيقَةٍ حسنة، ليغطّي موقفه السابق، الذي جعَلَهُ مُداناً في نظر الناس بقُبْح التصرُّف، وبالعُدْوانيّة الّتي لا مُسوّغ لها، ولا داعِيَ لاتّخاذها.

ولا يزال يتراجَعُ حتَّىٰ يتظاهَرَ بالتَّوَدُّدِ، فَيَبْدُو كأنَّهُ وليٌّ حَمِيمٌ، أي: كأنَّهُ مُناصر ذُو وَلاءٍ، وصَدِيقٌ ذو وُدٍّ حقيقيّ.

ودَلّ التشبيهُ بعبارة ﴿كَأَنَّهُۥ﴾ على أنّه قد يتصَنَّعُ هذه الظواهر الودِّيَّةَ مُداهَنَةً ورِيَاءً، ليَغطّي مَا سَبَقَ مِنه من مواقف سيّئَةٍ لاَ مُسَوِّغ لها.

غيرَ أَنَّهُ رُبّما تحوَّلَ بعد ذلِك إلى ذي وَلاءٍ ووُدٍّ صادقَين، كما حصَل لكثيرين من الّذين كانُوا أعداءَ للرسول ﷺ ولدعْوَته، إذْ تَحَوَّلُوا إلى الملاينَةِ والمداهَنَةِ أوّلاً، ثمّ تحوَّلُوا بَعْدَ ذلِكَ إلى أَتْباع ذوي ولاَءٍ صادقٍ، وحُبٍّ شديدٍ له ولِدَعْوَته، ثُمَّ قَدَّمُوا حَيَواتهم وأموالَهُمْ فداءً له، وللدِّين الذي جاءهم به، والسِّيرَةُ النبويَّةُ فيها أمثلةٌ مُتَعَدِّدَةٌ من هذا.

● ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾:

دلَّت هذه الآيَة على أنّ مُقابلَةَ السَّيِّئَةِ بالّتي هي أَحْسَنُ خُلُقاً وسلُوكاً، من الأمور الصعْبَةِ على النفوس، الّتي تتطَلَّبُ من حَامِلِ الرِّسَالَة في دعوته ونُصْحِه واتّخاذِه وسائِلَ الإصْلاَحِ والتقويم، صَبْراً عظيماً، وحظًّا وافراً من فضائل الأخلاق.

واقترنت هذه الدّلالة بثناء عظيم من الله جلّ جلالُه على من يتحلّىٰ بهذه الصفة الرفيعة.

أي: وما يُلَقَّىٰ هذه الخصْلَة الْحَمِيدَةَ والسُّلُوك السَّامي، إلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا، أي: إلاّ الّذين صَبَرُوا على الأذَىٰ، ولا يَصْبرُ عَلَىٰ الأذَىٰ إلاّ مَنْ تَدَرَّبَ عليه، حتَّىٰ صارَتْ لَدَيْهِ قُدْرَةٌ علَىٰ الصَّبْرِ، وصار الصَّبْرُ على الأذَىٰ في سبيل قيامِهِ بوظائف رِسالَتِهِ خُلُقاً مُكْتَسباً له، إنْ لَمْ يَكُنْ من أصْلِ فِطْرَته وجِبِلَّته.

إنّ الَّذِين لديْهم خلُقُ الصَّبْرِ على الأذَىٰ يَتَحَمَّلُونَ صَدَمَاتِ الأذيات، ويمتَصُّونها، من الّذين يَحْرِصُونَ بِدَعْوَتِهِم لهم علىٰ نجاتِهم من عذاب الله، ويَحْرِصُونَ على أنْ يَفُوزُوا معهم بجنَّاتِ النَّعِيم فَوْزاً عظيماً، ويَزِيدُونَ على فضيلة الصَّبْرِ فَيَدْفَعُونَ بالْخَصْلَة الَّتي هي أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ الَّتِي آلمَتَهُمْ.

ومَا يُلَقَّىٰ هٰذه الخصْلَةَ الحميدةَ الجليلَة إلاَّ ذُو حظٍّ عظيم من فضائل الأخْلاَقِ، ومَحَاسِنِ الشِّيم، ومن البصيرة الرَّبانيَّة الهادية، وذو حظٍّ عظيم من الأجر عنْد رَبّه.

يُقالُ لغة: لَقَّىٰ فُلاَنٌ فُلاناً الشَّيْءَ، أي: جعَلَهُ يَلْقَاهُ ويأْخُذُهُ مِنهُ، فالآخِذُ للشيْءِ يُلَقَّاهُ مِمَّنْ لَقَّاهُ إيّاه.

ولمّا كانت هٰذِهِ الْخَصْلَةُ العظيمةُ إنَّما يَمْنَحُها اللَّهُ لِمَنْ آمَنَ وصَبَر ودَرَّبَ نَفْسَهُ على فضائل الأخلاق، كانَتْ فضيلَةً يُلَقَّاهَا من عطاءات اللّهِ له، فَهُوَ يَتَلَقَّاها، ويتخلَّقُ بها، ويتصَرَّفُ في دَعْوَتِه إلى سبيل رَبّه بمقْتَضاها.

وهذا سِرُّ التعبير بقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ، أي: وَمَا يُعْطَاهَا عطاءً رَبَّانِيّاً فَهُوَ يَتَلَقَّاها من عطاءات رَبّه إلاّ الَّذِي صَبَرَ، ومَا يُعطاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم من الفضائِلِ الْخُلُقِيَّة، ومن الأجْرِ العظيم عند رَبّه.

• ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾﴾.

هذا الدواء هو الدَّواء نَفْسُهُ الَّذِي أوصَىٰ به اللَّهُ في سورة (الأعراف) إلاَّ أنَّ هذا النَّصَّ من سورة (فُصِّلَتْ) قَدْ زاد التأكيد، وإفادة الحصر، بقول الله فيه: ﴿.. إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

أمّا آية (الأعراف) فقد جاء فيها: ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وبهذه الزيادة في آية (فُصِّلَت) بعد نزول (٢١) سورة من نزول سورة (الأعراف) تَنْبِيهٌ مُشَدَّدٌ على حاملِ الرِّسالة، بالوصيَّة له بأن يستعيذ بالله عند كلّ نزْغٍ شيطاني، لأنّ اللَّهَ هو وحْدَهُ في الوجود السَّمِيعُ العليم، فلا سميع في الوجود لكلّ شيءٍ، ولا عليم بكلّ شيءٍ إلاَّ الله تبارك وتعالى.

دلّ على الْحصْر تَعْرِيفُ طَرَفَي الإسْناد، والتأكيد بضمير الفصل [هُو]. وأداة التعريف (ال) في [السَّمِيعُ] و[الْعَلِيمُ] هي للكمال الدَّالَّة على اسْتِغْرَاقِ كلّ أفراد جنْسِ السَّمْع، وكلّ أفراد جنس العلم، وكلِّ مُسْتَوَيَاتهما.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾:

وَجاءَ في القراءة الأخْرَىٰ: [طَيْفٌ مِنَ الشَّيطَانِ]:

الطَّائف: هو الّذي يَحْمِلُ الوساوس والدَّسَائسَ والتَّسْويلاتِ التزْيِنيّة، فَيَطُوفُ بها علىٰ النُّفُوس، ويَقْذِف بها في نَفْسِ فَرِيسَتِه، وهذا الحامل لا بُدَّ أن يكون شيطاناً.

والطَّيفُ: التخيُّلاتُ والرُّؤىٰ النَّفْسِيَّة الّتي قد يُهَيِّجُها الشَّيْطانُ ويَسْتثيرُها.

فَبَيْنَ القراءتين تكامل في الدَّلاَلَةِ على المعنَىٰ المراد.

بعد توجيه حامل الرسالة في الآية السابقة (٢٠٠) بشأن قضايا نَزْغ الشَّيْطانِ، انتقل النصّ في الآية (٢٠١) إلى توجيه كلّ المؤمنين بشأن هٰذِهِ القضايا نَفْسِها، فأَبَانَ اللَّهُ عزَّ وجَلَّ الوصْفَ الّذي يتحلَّىٰ به المتَّقون بأسْلُوب الْبَيانِ الخبريّ، لاَ بأسْلُوب التكليف، وهذا من روائع أَدَب التوجيه التكليفيّ.

أي: فالمؤمِنُونَ المتَّقُونَ لِلَّه، الحريصُونَ على حِفْظِ أنفسهم من نزغات الشياطين، إذا مَسَّهُمْ بالوسَاوِسِ والدَّسَائِسِ والتسويلات التزينيَّةِ طَائِف من الشيطان، أو طَيْفٌ يُهَيِّجُهُ ويَسْتَثِيرُهُ الشيطان تَذَكَّرُوا، أيْ: تذكَّرُوا رَبَّهم وسُلْطَانَهُ على جَمِيع خَلْقِه، فاسْتَعَاذُوا به، فأَعَاذَهُمْ فَصَرَفَ عَنهُمْ نَزَغَاتِ الشَّيْطان الّتِي رُبّما أَلْقَتْ غِشَاوَةً مَا على بَصَائِرهم، فإذا هُمْ مُبْصِرُونَ، قَدْ مُسِحَتْ عنهُمُ الْغِشَاوَةُ، الَّتِي غَطَّتْ بَصَائِرَهُمْ، ببُخَارِ الغضب أو الشهوة أو الهوى، أَوْ بِدُخَانِها.

وأمَّا إخوانُ الشَّيَاطين المصاحِبُون لهم في المسالِك، والمتابِعُونَ خُطُواتهم إلى المهالك، الَّذِين لا يَتَّقُونَ اللَّهَ في حَرَكاتِهِم وسَكَنَاتِهِم، ولا يَخْشَوْنَهُ في أعْمالهم ونيَّاتِهم، فهم لاَ بُدَّ أن يقَعَ كلُّ واحِدٍ مِنْهم فَرِيسَةً في أنياب نزغاتِ الشياطين، فيسْتَدْرِجُونَهُ في سُبُلِ الغي، ويَجُرُّونَهُ إلى أوديَةِ الضَّلاَلِ وكبرياتِ الجرائم، حتَّىٰ يَقْذِفُوا بِهِ إلى شقائه، ويَطْرَحُوهُ يُعَانِي أنواعاً كثيرةً مِن المصائب والنَّكَبَاتِ، وتتوالَىٰ عليه الآلاَمُ النفسيَّة، والآلاَمُ الْجَسَدِيَّةُ حَتَّىٰ يكون في العاجلة من الهالكين، وفي الآخِرَة من الخاسِرِين.



قولُ اللَّهِ تعالى:

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾﴾:

وفي القراءة الأُخْرَىٰ ﴿يُمِدُّونَهُمْ﴾ والقراءتان متكافئتان لُغَةً كما سَبَقَ بيانه في القراءات.

﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ﴾: أي: وإِخْوَانُ الشَّيَاطين، والمرادُ بالأُخُوَّةِ هنا أُخُوَّةُ المصاحبَةِ والمتابعةِ في مسالِكِ الضلال والْغَيِّ.

وجاء الضمير العائد على الشيطان بصيغة ضمير الجمع، للتنبيه على أنّ لفظ «الشيطان» اسْمُ جنْسٍ يعُمُّ كُلَّ شياطين الإنْسِ والجنّ.

فإخوان الشياطين هم الَّذِين يتَّبِعُونَهُمْ، ويُصَاحِبُونَهُمْ، ويَسْتَجِيبون لوَسَاوِسِهم وتَسْوِيلاتهم وإغواءاتهم.

﴿يَمُدُّونَهُمْ﴾ و[يُمِدُّونَهُمْ]: أي: يُعْطُونَهُمْ مَدداً، ويَزِيدُونَهُمْ فيما هم فيه من ضلال بَعِيدِينَ عن صراط الحقّ والْهُدَىٰ، سالكين ماسلِكَ الْغَيّ.

﴿فِى ٱلْغَىِّ﴾: أي: في الضَّلالِ، والابتعادِ عن طريق الرَّشاد، والخيبَةِ والْفَسَاد.

الْغَيّ: مصْدَرُ «غَوَىٰ يَغْوِي غَيًّا» ويُقالُ: «غَوِيَ يَغْوَىٰ غَوَايَةً» أي: ضلَّ، وخاب، وفَسَدَ، وتَرَكَ سَبِيلَ الرُّشْدِ عن قَصْدٍ وتَعَمُّدٍ اتباعاً للهوى، ويُقابِله: «الرّشد» وهو الالتزام بالحقّ والْهُدَىٰ والخير عن بَصِيرَة وقصْد.

﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾: أي: ثُمَّ لاَ يَكُفُّ الشياطينُ، ولاَ يُمْسِكُونَ عن مُتَابَعَةِ إغْوَائِهِم وإضْلالهم، حتّىٰ إبلاغِهِم قَعْرَ شقائهم إن استطاعُوا، وقَعْرُ شقائهم هو الدَّرْكُ الأسْفَلُ من النّار يومَ الدّين.

يُقال لغةً: أقْصَرَ عن الشيء، أو الأمْرِ، أو العمل، أيْ: كَفَّ عَنْهُ، مع قُدْرَتِهِ عليه.

فالشياطين لاَ يَكُفُّونَ عن الإغراء والإغواء والإطماع بالباطل، والاستدراج والاستنزال إلى أسْفلِ سافلين.

والمراد: أنّ الشياطين مهما غَوَىٰ تابِعُهُمْ وأوْغَلَ في ضلاله، فإنّهم لا يَتْرُكُونَهُ وشأنَه يتخبَّطُ بنَفْسِه في الضلال، مهما طالَ الزّمن، بل هم لا يمْسِكُونَ ولا يكُفُّون عن إمداده في الْغَيّ، لأنَّ دَرَكَاتِ الْغَيّ ذاتُ سَحِيقٍ بَعِيدٍ، وهم يَحْرِصُونَ على أن يُوصِلُوهُ إلى أسْفَل سَافلين، ولا يكْتَفُونَ بما دُونَ ذلك من دركات.

ولهذا جاء التعبير بحَرْفِ العطف «ثُمَّ» الدَّال على تراخي المدّة، وتطاول الزّمن: **[ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ]**.

❁ ❁ ❁

قول الله تعالى:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣)﴾:

هٰذه الآيَةُ من هذا الدَّرْسِ خاصَّةٌ بالرَّسُول محمّد ﷺ، وهي موصُولَةٌ بما جاء في صَدْرِ السُّورَة، وبالْخَطِّ الّذي يَنْطَلِقُ من قول الله تعالى لرسُوله:

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢)﴾.

لمّا كان القرآن المجيد يَنْزِلُ علىٰ رسُول الله ﷺ مُنَجماً، على وَفْقِ مقتضَيَاتِ الحكمة الرَّبَّانِيّة، الّتي يَدْخُلُ فيها مُراعاةُ أحْوَالِ القَوْم المدْعُوِّين، وأحْوَالِ من آمَنَ واتَّبَعَ، ويَدخلُ فيها مُراعَاةُ التَّدَرُّج في التعليم، والتَّربِيَةِ، والمعالجة، والتشريع، كان من شأن مُرَعاة مقتضيات هٰذِهِ الحكمة الرَّبَّانِيَّة، أَنْ يَنْقَطِعَ أحْيَاناً نُزُولُ آيَاتٍ جَدِيدَةٍ منَ القرآن مُدَّةً ما من الزّمَن، انتظاراً للمناسبة الداعية إلى تنزيلِ نَجْمٍ جَدِيدٍ مِنْ نُجومِ القرآن، أَقَلُّهُ آيَةٌ واحِدَة.

فكانَ بعْضُ الكَفَرَةِ المشركين يتّخِذُونَ مِن تأخُّرِ نزول نَجْمٍ جَدِيدٍ

ذَرِيعةً لِيُوَجِّهُوا للرَّسُول كلاماً فيه تَشْكيكٌ في أنَّ مَا يَتْلُو عَلَيْهِم من آيات القرآن، إنَّما يَصْطَنِعُهُ ويتَكلَّفُ تأْلِيفَهُ، أو يَجْتَبِيه جَلْباً مِنْ كتُبِ الأَوَّلين، ويَنْتَقِيهِ من مَسْطُورات السَّابقين من الأُمَم، نظير ما يَفْعَلُ الْخُطَبَاءُ حِينَ يُعِدُّونَ خُطَبَهُمْ، وما يَفْعَلُ الكتَّابُ حين يُؤَلِّفُون أو يكتبون مقالاتهم، وما يفعَلُ الشّعَراء حينَ ينْظِمُونَ قصائدهم في خَلَواتهم ثُمَّ يُنْشِدُونها على قومهم، ورُبّما انْتَحَلَ هؤلاء لأَنْفُسِهم أقوالَ غَيْرِهم، واجْتَلَبُوها من مسْطُوراتِ غَيْرِهم من الأُمم السابقة، وزعمُوا أنَّهُمْ أصْحَابُهَا.

فإذا تَأَخَّرَ بِحِكْمَةِ اللَّهِ إنْزَالُ نَجْم جَدِيد، ولو آيةً واحدة، قال الكَفَرَةُ الْمُشْرِكُونَ للرسُول، على سَبيلِ التشكيكِ في أَنَّهُ يُبَلِّغُ آيَاتِ القرآن عن رَبّه ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾ كما أَخْبَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بقوله:

﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُواْ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَاۚ... ﴿٢٠٣﴾﴾:

﴿لَوْلَا﴾: هٰذه الكلمة هُنَا بمعنَىٰ «هَلاَّ» حرف تحضيض، أي: هَلاَّ اجْتَبَيْتَها.

﴿ٱجْتَبَيْتَهَاۚ﴾: فعل «اجتبىٰ الشَّيْءَ» يأتي لعدَّة معانٍ:

● اجتَبىٰ الشيء، جاءَ به من عِنْدِ نَفْسِه.

● اجتبىٰ الشيءَ، اختلَقَهُ، وافتعلَهُ، واصطَنَعَهُ تكلُّفاً، وارتَجَلَهُ ولم يكن ناقلاً له، ولا راوياً.

● اجتبىٰ الشيء، جباهُ بتكلُّف، كمَا تُجْبَىٰ البضائع والسِّلَعُ من بُلدان منشئها.

● اجتَبَىٰ الشيءَ، اصطفاه واختارهُ.

الاجتباء في اللّغة: افْتِعَالٌ من الجبايَة، وهو تكلُّفُ اسْتِخْرَاجِ الأموال من مظانِّها.

قال ثعْلَبُ في تفسير: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾: لولا جئت بها من عند نَفْسِك.

وقال الفرّاء: هلاّ اختلَقْتَها وافْتَعَلْتَها من قِبَلِ نَفْسِك، وهو في كلام العرب.

أقول: فالكفَرَة المشركُونَ بَدَؤُوا يقولُون على سبيل التشكيك في صِدْقِ تَبْليغ الرسول عن رَبه، مُسْتَغِلِّين حالَةَ تأخُرِ نزول نَجْم جَديدٍ عليه، ولو آيَةً واحدة: هَلاّ اصْطَنَعْتَ آيةً من عنْدِ نَفْسِك، أو انْتَحَلْتَ آيَةً نَاقِلاً لها من مسطورات الأوّلين، أو هلاّ انْتَقَيْتَها واصْطَفَيْتَها مِنْ كُتُبِهِمْ، كما هي عادَتُكَ.

كان هذا القول التعريضيّ مُوجّهاً من المشركين للرسُول ﷺ إيّانَ نزول سورة (الأعراف).

ثم وجّهوا لَهُ أقوالاً صريحةَ الاتّهام بما تضمنه كلامهم التعريضيّ هذا، وكان تَوَجيهُهَا إبّان نُزُول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) وفي بيان هذا قال الله عزّ وجل فيها:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾.

إنّ قولهم للرسول: ﴿لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا﴾ وفق المعاني الّتي سبَقَ بيانُها، يُشْبِه قول المَشَكِّكينَ في تصَرُّفَاتِ مُدِير مكْتَب الوزير، حين يتصَوَّرُون أنّه يصْنَع القرارات بغير علم سيّده، ويُوَقّعُها عنه تزويراً، هلاّ صنَعْتَ لنا قراراً بموضوع كذا ووقَّعْتَه، وصَدَّرتَهُ باسم الوزير، يعْنُونَ بهذا القول أنّه يفْعَلُ مثْلَ هذا كثيراً فيما يَنْسُبُ إلى الوزير من قرارات.

وكان هذا الكلام التعريضيُّ إرْهاصاً وتوطئةً لما صَرَّحُوا به بعْدَ ذلك، إبّان نزول سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

ومن هنا نُدْرِكُ لِمَ قَالَ اللهُ لِرسوله في صَدْر سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بشأن القرآن:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

إذْ من الْحَرَجِ الّذِي ضَاق به صَدْر الرَّسُولِ، اتّهامُهُ بأنَّه يجتبى اختلاقاً وافتعالاً آياتِ القرآن الّتي تَنْزِلُ عَلَيْهِ نُجُوماً، دُونَ أن يَنْزِلَ عليه القرآنُ جُمْلَةً واحدة.

قول الله تعالى:

● ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ... ﴿٢٠٣﴾﴾:

في هٰذِهِ الجملة تعليم من الله لِرَسُولِهِ الجوابَ الَّذِي يجيب بِهِ الكفرة المشركين، مُجَاراةً لظاهِرِ قَوْلِهِمْ له.

أي: مَا أَتَّبِعُ فيما أُبَلِّغُ من الْقُرْآنِ إلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي، فأنا لاَ أَتَصَرَّفُ بشيءٍ من عندي.

وهٰذِهِ الإجابَةُ تَتَضَمَّنُ بلوازِمِهَا الْفِكْرِيَّة، أَنَّهُ لاَ يَصْطَنِعُ منْ عنْدِهِ شيئاً، ولاَ يَفْتَرِي على رَبّه فيما يُبَلِّغُ عَنْهُ كلمةً واحِدَةً ولا حَرْفاً واحداً، وأَنَّهُ لاَ يَنْقُلُ على سبيل الاجْتِلاَب والاصطِفاء من مكْتُوباتِ الأَوَّلِين شيئاً.

وجاء استعمال الفعل المضارع في فعْلَي: ﴿أَتَّبِعُ﴾ و﴿يُوحَىٰٓ﴾ للدّلالَةِ على أنّ كُلَّ ما يُبَلِّغُهُ عن الله تِباعاً بتجدُّدٍ، إنّما يتّبعُ فيه بتَجَدُّدِ ما يُوحَىٰ إليه به من رَبِّهِ بِتَجدُّدٍ.

هذا هو عَمَلُهُ بالنِّسبَةِ إِلَىٰ مَا يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ من القرآن.

قول الله تعالى:

﴿...هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾.

هٰذَا تعليم آخر علّم الله رسُولَهُ أن يَقُولَهُ لذوي التعريض باتهامه بافتراء القرآن من الكفرة المشركين.

المشار إليه باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ هو كتاب الله الّذي يُنْزِلُهُ علَيْهِ تباعاً نَجْماً فنجماً.

﴿بَصَآئِرُ﴾: جمع «بصِيرَة» وهي تُطْلَقُ على الْحُجَّةِ والْبُرْهان. وتُطْلَقُ على الشَّاهِد. وتُطْلَقُ على الْعِلْم والخبرة، وعلى الْعِبْرَة. وعلى كلّ ما به اتّضاح الطريق. وتُطْلَقُ على الرَّقيب.

والقرآن فيه من كلّ هذه البصائر على اختلاف أنواعها.

(١) ففي بياناته حجج وبراهين تُلْزِمُ العقول السَّلِيمَةَ بالاقتناع بالحقّ الذي جاء فيه.

(٢) وهو بإعجازه شاهِدٌ على أنّ محمداً رسُولُ الله، وصادقٌ فيما يُبَلّغ عن رَبّه.

(٣) وفي آياته عِلْمٌ حَقِيقيٌّ يُقَدِّمُهُ الله عزّ وجلّ لعبادهِ.

(٤) وفي آياته بيان لخِبْرَاتٍ كثيراتٍ مُكْتَسَبَاتٍ من واقع حال ذوي الإراداتِ الحرَّة من الإنْسِ والجنّ.

(٥) وفي بياناته لِقِصَصِ الأولين عِبَرٌ يَعْتَبِرُ بها أُولوا الألباب.

(٦) وفي بياناته إيضاح جَلِيٌّ لصِراط الله المستقيم، الذي ينتهي بسالكيه إلى النجاة والفوز بالنعيم الخالد، والسعادة الأبَدِيَّة.

(٧) وهو بمثابَةِ الرَّقيب على المكتُوباتِ عن الكتُب السابقةِ، إذْ يُثْبِتُ ما جاء فيها من حقٍّ منقولٍ بِصِدْق، ويُبْطِلُ ما دخل فيها من تحريفات المُحَرِّفينَ وأكاذِيبهم على الله.

فمن أدْرَكَ هذه البصائر أو بعضها في القرآن، لم يَشُكَّ في صِدْقِ

الرَّسُولِ محمّد ﷺ، فيما يُبَلِّغُ عن ربّه من نجوم القرآن، بَلْ أَيْقَنَ أَنّ الرّسول لا يَتّبعُ إلاّ ما يُوحَىٰ إليه مِنْ رَبّه.

● ﴿... وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾﴾:

أي: وبالإضافة إلى كون القرآنِ بَصَائِرَ مُنَزَّلَةً مِنْ رَبّ الناس، فهو أيضاً هُدىً ورَحْمَة.

لَكِنَّ المستفيد المنتفع بهُدَاهُ، وبما فيه من رَحْمَةٍ للناس، هُمُ الْقَوْمُ الَّذِين يُتابِعُونَ بالإيمان ضِمْنَ حَرَكَةٍ مُتَجَدِّدَةٍ، كُلَّ مَا يَنْزِلُ تباعاً من نُجُوم القرآن، لاَ الْكَافِرُونَ به الّذين يُكذّبون الرّسُولَ، ويَعْتَرِضُونَ علىٰ تَنْزِيلِ القرآنِ مُنَجّماً.

وقد وصَفَ اللَّهُ عزّ وجلّ القرآنَ هُنَا في أواخر سورة (الأعراف) بمِثْلِ ما وَصَفَ بِهِ عُمُومَ كُتُبِه الْمُنَزَّلَةِ على جميع رُسُلِهِ في الآية (٥٢) منها، وهي قول الله عزَّ وجلّ فيها.

﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿وَهُدًى﴾: الْهُدَىٰ يأتي في اللُّغة بمعْنَىٰ الرَّشاد، وبمعنى الدَّلاَلَةِ علَىٰ مَا يُوصِلُ إلىٰ المطلُوب، وبمَعْنَى الطَّرِيقِ الواضح، والصّراط الَّذِي هو طَرِيقُ الحق.

ومعلومٌ أنَّ كلَّ هٰذه المعاني هي من صفات القرآن المجيد، فالْهُدَى على هذا مصدر هَدَىٰ يَهْدِي هُدًى، بمعنىٰ أَرْشَدَ، وبمعنى دَلَّ على ما يُوصِلُ إلى النجاة والسَّعَادَةِ الخالدة، والنعيم الأبديّ، والبيانُ الذي جاء فيه طريقٌ واضح، وصِرَاطٌ مستقيم.

﴿وَهُدًى﴾ لفظُ «هُدىً» مَعْطُوفٌ بالرَّفْعِ على ﴿بَصَآئِرُ﴾.

﴿وَرَحْمَةٌ﴾: أي: والقرآن أيْضاً هو رَحْمَة، أي: هو أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ اللَّهِ بعباده، ومظْهَرٌ من مظاهر عطاءاتِها الجليلاَتِ.

رَحْمَةُ اللَّه: صِفَةٌ من صفات اللَّهِ عزّ وجلّ النَّفْسِيَّة، على مَا يَلِيقُ بجَلالِ ذَاتِه الْعَلِيَّة، الَّتي ليس كمِثْلِهَا شيء.

ومن آثارها ومَظاهِرِهَا الْإِنْعَامُ والْإِكْرَامُ والإِحْسَان.

والمراد بكون القرآن رَحْمَةً، أنَّ ما تتضَمَّنُهُ آياتُه من بيانِ صِرَاط سعادة الناس في الدنيا، وصِرَاطِ نجاتهم من عذاب الله يَوْمَ الدّين، وظَفَرِهم بالنَّعِيم الخالد في جنّاتِ النعيم، هو أثَرٌ من آثار رَحْمَةِ اللَّهِ بعباده في رِحْلَةِ امْتِحانِهم، ومظْهَرٌ من مظاهر عطاءاتها الجليلات.

﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾: أي: إنَّ المستفيدين المنْتَفِعين بكَوْن القرآن هدىً ورَحْمَة، هم الْقَوْمُ الّذين يُتابِعُونَ بالإيمان ضِمْن حَرَكَةٍ مُتجدِّدَة، كُلَّ ما يَنْزِلُ تِبَاعاً من نجوم القرآن.

ومعلومٌ أنَّ الْإِيمَانَ الصَّحِيحَ الصَّادِق، يَدْفَعُ إِلَىٰ الْعَمَلِ بمَضْمُونِ النَّصِّ الّذِي انْعَقَدَ عليه الْإِيمان، وإلى اتّباع ما أُنْزِلَ إِلَىٰ الناس من رَبّهم في كتابِه المجيد.

وهٰذا المعنى يَقَعُ على خطِّ مَوْضوع السّورَة الأعْظَم، المبيّنِ في الآية (٣) من آوائِلِها.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ لِعُمُومِ المؤمنين:

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾﴾

هذه الآية موصولَةٌ في موضوعها بخطّ الآية (٢) في صدر السورة وهي قولُ الله فيها خطاباً لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾.

وإذْ كان من المطلوب أن يكون القرآن تَذْكِرَة للمؤمنين، فَمِنْ وسائل هذه التذكرة، أنْ يَسْتَمِعُوا لَهُ وَيُنْصِتُوا إذا قُرِىء وهم حُضُورٌ شُهُودٌ حِينَ قراءَتِه، وفي مكان قراءَته.

﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ﴾: أصْلُ القِراءَةِ النُّطْقُ بما هو مكْتُوبٌ في كتابٍ أو صَحِيفَةٍ بِتَتَبُّعِ المكتوب حَرْفاً بِحَرْفٍ، وكلمةً بِكَلِمَةٍ عن طريق النَّظْرِ، أو عن طَرِيقِ حَاسَّةٍ أُخرَىٰ تُدْرِكُ رُمُوزَ المكتوب.

وقد يراد بالقراءة النُّطْقُ بما هو محفُوظٌ في الذَّاكِرة.

وأصْلُ التلاوة الاتّباع في النطق لما هو مَسْمُوعٌ يُلْقَىٰ على التالي، أو لما هو مكتوب. تَلاَ النَّصَّ، أيْ: نطَقَ به مُتَابعاً.

والمرادُ بالْقُرْآنِ ما يُقْرأ منه ويَصِلُ إلى سَمْعِ حاضِرِ القراءة.

﴿فَٱسْتَمِعُوا لَهُۥ﴾: **الاسْتِماع**: توجيه أداة السَّمع لإِبْلاَغِ الكلام المسْمُوع إلى مرْكزِ السَّمْعِ في الدّماغ، حيث الإدْرَاك، فالآذانُ والأعْصَابُ الموصِلَةُ إلى مراكز السّمع في الدِّماغ، ما هي إلّا منافِذُ وأدواتٌ لتوصيل الأصواتِ إلى مراكزها، ثم إنّ الدّماغ بعد ذلك هو الذي يُحَلّل الدّلالات بحَسَب كلّ صَوْتٍ، ومعلومٌ أنَّ الكلام رُمُوزٌ اصطلاحيّة للمعاني.

﴿وَأَنصِتُوا﴾: الإنْصَاتُ هو السُّكُوتُ وعدَمُ الكلام، وعَدَمُ إحْدَاثِ أيّ صَوْتٍ بمَعْنىً أوْ بِغَيْرِ معنى، والسبب في طلب الإنْصَاتِ تهيئَةُ الجوّ للاستماع الْجَيّد.

من الحقائق أنّ القرآن المجيدَ لَهُ تَأْثِيرٌ عَظِيمٌ على من يَسْتَمِعُ له ويُنْصِتُ، إذْ يُسَيْطِرُ على أفكارهم، ويَنْفُذُ إلى قُلُوبهم، وقد أَدْرَكَ هَٰذِهِ الحقيقة الذين كفروا من مشركي مكة، فوجَّهُوا جماهيرهم وأتْباعَهُمْ لعَدم الاسْتماع للقرآن، ولعَدَم الإنْصَاتِ، لدَىٰ تِلاَوَتِهِ وهُمْ شاهِدُون، وذلِكَ بأنْ يَلْغَوْا فيهِ.

وبياناً لهذه الخطَّةِ الشيْطَانِيَّةِ الخبيثَةِ، التي يرادُ بها الصَّرْفُ عن الحقّ، والصَّدُّ عن سبيل الله، قالَ الله عزّ وجلّ في سورة (فصّلت/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾:

أي: لاَ تُعَرِّضُوا أنفُسَكُمْ لاسْتِمَاع القرآن من مُحَمَّدٍ، أو من أَحَدِ الْمُسْلِمين، وإذَا تُلِيَ عَلَيْكُمْ وأنتُمْ شُهُودٌ فالْغَوْا فِيهِ، ولا تُنْصِتُوا، تَشْوِيشاً على التالي، حتّىٰ لاَ يتأثَّرَ به المستَمِعُونَ له، فتَجْلُبُوا إلى صُفوفكم من يُمْكن أن يسْتَمِيلَهُ القرآن، فتَكْثُرَ أعْدَادُكم، فتَغْلِبُوا أتباعَ مُحَمَّدٍ بِكَثْرَتِكُمْ.

فمن الحكمة الرَّبَّانِيَّةِ أَنْ يأمُرَ اللَّهُ عزّ وجلَّ عُمُومَ المؤمِنِينَ بأنْ يَسْتَمِعُوا للقرآن، وبأَنْ يُنْصِتُوا لدَىٰ تِلاَوَتِهِ، كُلَّمَا تُلِيَ في آيَةِ حالَةٍ من الأحْوالِ، داخِلَ الصَّلاَةِ وَخارِجَها ليكُونَ ذلِكَ وَسِيلَةً لتَدَبُّرِ مَعانيه، وَتَذَكُّرِها عِنْدَ المناسَبَاتِ الداعياتِ إلى تَذَكّرِها، وقَصْرُ النّصّ على حالة الصَّلاَةِ لاَ دَلِيلَ عليه، ورَبطُ هذه الآيَةِ بِقَوْلِ الله عزّ وجلّ في صَدْرِ السّورة بشأن الْقُرآن: ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وليكون القرآن تذكِرَةً للمؤمنين يَدُلُّ على أَنّ الأمْرَ التّرْغيبيَّ بالاستماع للقرآن والإنْصَاتِ عنْدَ تِلاوَتِهِ عامٌّ في كلّ الأحْوال.

الذّكْرَىٰ: اسْمُ للتذكير، واسْمٌ يُطْلَقُ علىٰ ما يُوضع للتذكُّر، كالبطاقة المذكِّرَةِ، والرَّتيمة التي توضَعُ في الإصْبَعِ لتُذَكِّر.

• ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾: أي: اسْمَعُوا وأَنْصِتُوا إذا قرىء القرآنُ رَاجين أنْ تُرْحَمُوا، أَوْ لأجْلِ أن تُرْحَمُوا.

إنّ الاستماع والإنْصاتَ لقراءة القرآن، وسِيلةٌ من الوسائل الداعية إلى تَدَبُّر آياته، وتذكُّرِها عندَ مُناسباتها، والْعَمَلِ بها، فإذا تحقَّقَ منكُمْ ذَلِكَ رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فأدْخَلَكُمْ في رَحْمَتِهِ الواسِعَةِ في الدنيا، وأدخلكُمْ في جنَّتِهِ يَوْمَ الدِّين، الّتي هي إحْدَىٰ مظاهر وآثار رَحْمَتِهِ العظمىٰ الخالدة.

ودلَّت عبارة: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ على أن الأمْرَ بالاستماعِ والإنْصَاتِ أمْرُ نَدْب مَقْرُونٌ بتَرغيبٍ عظيم، إذْ لَوْ كان الأمْرُ للإيجاب، والتكليفِ الإلْزَاميّ، لكان المناسِبُ أَنْ يقال: لعلكم تتَّقون، أي: لِتَتَّقُوا عقوبة المخالفة. أمّا عبارة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ فمَعْنَاها: لتثابُوا ثَوابَ الطاعَة.

وهذا شأن كلِّ المندوبات.



قول الله تعالىٰ:

﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾:

جاء في هاتَيْن الآيتَيْن أمْرٌ من الله لرسُوله ولسائر المؤمنين المسْلِمِين، على اختلاف مراتبهم ودرجاتهم ووظائفِهِمُ الدِّينيَّةِ والدُّنْيَويَّةِ، للمواظبة على ذِكْرِ الله عزّ وجلّ، مع بَيان آداب هٰذا الذكر.

وجاء هذا التكليف بأسلوب الخطاب الإفراديّ الموجَّهِ لكلّ فَرْدٍ ففَرْدٍ حتَّىٰ آخرِ الأفراد في كلّ العصور إلى أن تقوم السَّاعَة، ومعلوم أنّ ذكر الله من أجَلّ أنواع عبادته.

والغرض من هذا الأمر بالمواظَبَةِ على ذِكرِ الله، أنْ يتخلَّصَ المؤمِنُونَ المسلمون، مِنَ الصِّفَةِ الذَّمِيمَةِ الّتي قالَ الله فيها للناسِ في أوائل سورة (الأعراف): ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾.

إذ المواظبَةُ على ذِكْرِ اللّهِ تجْعَلُ الذَّاكِرِينَ يَتَذَكَّرُونَ مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَعْمَلُوهُ، وما حَرَّمَ عَلَيْهِم أن يَقْتَرِفُوه، وهذا التذكُّر يجعلُهم أكثرَ الْتِزَاماً باتّباع ما أُنْزِلَ إليهم من ربهم.

وقد سبَقَ لدى تَدَبُّر الآيَةِ الثالثةِ من السُّورَةِ، بَيَانُ وظيفَةِ ذِكْرِ الله، وتَذَكُّرِ آيَاتِه المنزَّلاَتِ إلى الناسِ ليَتَّبِعُوها بإسْهَاب.

فهاتان الآيتانِ موصولَتَان بموضُوع السُّورَةِ ذي الخطُوطِ الممتَدَّةِ من الآيَتَيْنِ (٢) و(٣) من أوَائلها.

● ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ. . . (٢٠٥)﴾.

إنَّ ذِكْرَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ يَشْمَلُ كُلَّ حُضُورٍ فِكْرِيٍّ وقَلْبِيٍّ ونفسِيٍّ مع اللَّهِ عَزَّ وجلَّ، في اسْمٍ من أسْمَائِه، أو صِفَةٍ من صِفَاتِه، أَوْ آيَةٍ من آياتِهِ، أَوْ أَمْرٍ مِنْ أَوَامِرِهِ، أَوْ نَهْيٍ من نواهِيه، أَوْ وَصِيَّةٍ من وَصَايَاهُ، أَوْ بيانٍ مِنْ بيانَاتِه، أَوْ وَعْدٍ مِنْ مَواعِيدِهِ وبُشْرَيَاته، أَوْ وَعِيدٍ من تَهْدِيداته وإِنْذَارَاتِهِ، إلى غير ذلك من صُوَر ومجالاَت ذِكْرِ الله عزّ وجلّ الكثيرة الَّتي يصعب استقصاؤها ممّا يتصل بكمالاته وقُدْسِيَّاته.

إنّ عبارة: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾ تتضمَّنُ تَوْجيهاً للذِّكْرِ الإفراديّ بصِيغَةِ الأمْر، وأنْ يكونَ بَدْؤهُ صادراً مِنْ عُمْقِ النَّفْس، إذْ يكُونُ ذِكْراً للرَّبِّ جلَّ جلالُهُ في داخِلِ النَّفْسِ، ولاَ يَكُونُ ذِكْراً في النَّفْسِ إلاَّ إذَا كانَ الْوَضْعُ الدَّاخِلِيُّ في الْإنسانِ ذَا حُضُورٍ مع الله عزّ وجلَّ، في واحِدٍ أو أكثر ممّا يُذْكر اللَّهُ به، ولو في آية من آياته الكونية بشَرْط مُلاَحظة كونها آيَةً مِنْ آياته، ولَوْ في حالة الاسْتِمْتاعِ ببَعْضِ نِعَمِهِ علَىٰ عبادِه، بِشَرْطِ مُلاَحَظَةِ أنَّها نِعْمَةٌ من نِعَمِهِ.

ويَبْدأُ هٰذا الذكْرُ الحقيقيُّ بشَغْلِ التَّصَوُّرِ الحاضِرِ اسْتِدْعاءً من الذَّاكِرَة، وتكْرِيرِ ذلك فيه، حتَّىٰ يَكُونَ لَهُ أَثَرٌ فِي مراكِزِ العاطِفَةِ والْوِجْدَان، ومواطِنِ الْخَوْفِ والطَّمَع، والحذَرِ والرَّجاء، والْقَلَق والْخُشُوعِ والطُّمَأْنِينَة.

ويَنْتَقِلُ هذا الأثر مِنْ حَوَاشي النَّفْسِ مُتَغَلْغِلاً حتَّىٰ يَصِلَ إلى الْقَلْب، ثمَّ مَعَ تكرِيرِ هذا الحضُور الدَّاخِلِيّ واعْتيادِهِ يَتَغَلْغَلُ إلى عُمْقِ الْفُؤَادِ،

وعِنْدَئذٍ يتمكَّنُ منْ ذَاتِيَّاتِ الإنسَانِ كُلّه، ويكونُ مُوَجِّهاً لأنواع سُلُوكه، مَا كانَ منْهُ دَاخِلِيًّا نَفْسِيًّا، وَمَا كان مِنْهُ خارِجيّاً مَرْئيًّا، وبهِ يكون الْخَوْفُ من الله، والخَشيَةُ مِنه، ثمّ الطُّمَأْنِينَةُ لِجَلاَلِ سُلْطَانِه، وبِهِ يَكونُ الحبُّ، وصِدْقُ التَّوَجُّهِ والرَّجاء والدُّعاء، والتوبَة والإنابة، والمراقبة الدائمة. وبه يكُونُ الإخْلاَصُ لِلّهِ في الْعَملِ، والْبُعْدُ عن الرّياء ومطالب الحياة الدُّنيا الفانية. وبِهِ يكون اسْتِدعَاءُ تَصَوُّراتِ الجنَّةِ وما فيها من نَعِيم، وتَصَوُّراتِ النار ومَا فيها من عذاب أَلِيم، وتَصَوُّرَاتِ الحشْر ومَوْقِف الحساب بين يَدَي العزِيز الجبَّار.

هٰذا هو الذِّكْرُ الحقيقيُّ الأَسْمَىٰ.

● ﴿... تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ... ﴿٢٠٥﴾﴾:

في هٰذه العبارَةِ بيانُ آداب ذِكْرِ اللّهِ الثلاثة:

الأدب الأول: دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي: من أَدَب ذكْر الله الممتدّ من عمقِ النفس إلى نطْق اللّسان، أن يكون مصحوباً بالتضرُّع لله.

التضَرُّع: هو التذَلُّلُ والخضوع، مأخُوذٌ مِنْ خضُوعِ ولَدِ البهيمَةِ ليمْتَصَّ حَلِيبَ أُمِّه مِنْ ضَرْعِها، وهو ثَدْيُها.

الأدبُ الثاني: دلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَخِيفَةً﴾: أي: ومِنْ أَدَب ذِكْرِ الله الممتدِّ من عُمْقِ النَّفْسِ إلى نُطْقِ اللّسان، أَنْ يكون مصحوباً بالْخَوْف من عذاب الله وعقابِه ونِقْمَتِه.

الخيفة: كالخوف، مصدر «خاف». يقال لغة: «خافَ يَخَافُ خَوْفاً ومَخَافَةً وَخِيفة».

والخوفُ يكونُ من توقُّع حُلولِ مَكْرُوهٍ، أَوْ فَوْتِ محبُوبٍ أو مَرْغُوب فيه.

يُقَال: خافَ من كذا، وَخافَ علىٰ كذا.

الأدَبُ الثالث: دَلَّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾.

الجهر بالقول: هو رفع الصَّوْتِ بالكلام حتى يَسْمعَه الآخَرُون الحاضرون من حَوْلِ رافع الصوت سماعاً جليًّا واضحاً.

يقال لغة: جَهَرَ الرَّجُلُ بكلامه أو دعائه أو صوته أو قراءته «يَجْهَرُ، جَهْراً، وجِهاراً» أي: رفع بذلك صوته، فهو «جَهِير».

ويقال: أَجْهَرَ بكلاَمِهِ فَهُو «مُجْهِر» ويُعَدَّىٰ من غير حرف فيقال: أَجْهَر الرَّجُلُ كلامَه.

فمن آداب ذِكر اللّهِ باللّسَان أن يكون دون الْجَهْر، ويَدْخُلُ فيما دون الجهْرِ الهمْسُ، والذِّكرُ الخفي مع تحريك اللّسان به.

وفائدة الذِّكر اللّساني أَنْ يكون مُسَاعداً لمراكز الذِّكرِ في النَّفس، حتَّىٰ تَعْمَل هٰذه المراكز بالذكْرِ الحقيقيّ المطلوب مُصَاحَبَتُهُ لتَحْرِيكِ اللّسَان بالأقوال، ذات المعاني المتّصِلَة بعَنَاصِرِ ذِكْرِ اللّهِ النَّفْسِيّ الّتي سبَقَ بيانها.

وكلّما كان الذّكرُ اللّسانيُّ أكْثَرَ بُعْداً عن الجهْرِ بالْقَوْلِ كان أكْثر مُساعدةً على اشتغال النفْسِ والقلْبِ من أعْمَاقِهِما بالذّكْر الحقيقيّ لله عزّ وجلّ، فعِبَارَةُ: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ تُحَدّدُ السَّقْفَ الأعلىٰ لأدَبِ الذّكرِ اللّسَانيّ المساعِدِ للذكْرِ النّفْسِيّ والقلْبِي، وهي في الوقْتِ نَفْسِه تُوَجّهُ للعنايَةِ بالأخْذِ بِالأخْفَتِ فالأَخْفَتِ من الذّكْرِ اللّسانيّ والتَّعوُّدِ عليه، حتَّىٰ يَصِلَ إلى قريبٍ من الذّكْرِ النّفْسِيّ الّذي يَعْمَلُ داخِلَ عُمْقِ النفس.

● ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾: هٰذه العبارة تُحَدّدُ وقْتَيْنِ مُهِمَّيْنِ مُفضَّلَيْن، لِذِكْر الرَّبّ الذي سبَقَ بيانُه، وبيانُ آدابه، هُمَا وقْتُ «الْغُدوّ» ووَقْت «الآصَالِ» أي: بكُلّ غُدْوَةٍ وبِكُلّ أصِيلٍ من كلّ يَوْمٍ من أيَّام الأرض، مُدَّة حياة الإنْسَانِ الممتَحَنِ المكلّف.

الْغُدُوُّ: جَمْعٌ مُفْرَدُه «الْغُدْوَة» وهي ما بَيْنَ صَلاَةِ الغَدَاة (وهي صلاة الفجر) وطُلُوع الشمس، وتُجْمَعُ الْغُدْوَةُ أيضاً على «الْغَدَوَاتِ» و«الْغُدَا».

الآصَالُ: جَمْعٌ مُفْرَدُهُ «الأَصِيل» وهو الوقْتُ من حِينِ تَصْفَرُّ الشَّمْسُ حتَّىٰ تَغْرُب.

وهٰذان الوقتان كان الأنبياء عليهم السَّلام يحرصُونَ على ذِكْرِ الله فيهما، ويتأسَّىٰ الصالحُون من المؤمنين بهم فيَذْكُرُون ربَّهُمْ فيهما.

فَمَنْ كانَ حَرِيصاً على أَنْ يَدْخُلَ في مَوَاكب الأنبياء والصَّالحين، فعَلَيْهِ أنْ يُواظب على ذِكْرِ رَبِّه دواماً، بالْغُدوّ والآصَالِ، مع الالْتزام بآدابه.

● ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾: بَعْدَ الأمرِ بالذِّكْرِ نَهَىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ عن الغفلة الّتي يَقْتَرِنُ بها عَدَمُ الذِّكر، فَجَمَعَ الله عزّ وجلّ في هٰذِهِ الآيَةِ بين الأمْرِ بالذِّكْر والنَّهْي عَنِ الغفلة المضادّةِ للذكر.

فإذا لاَحظنا أنّ الأمْرَ بالشَّيْءِ يتضَمَّنُ النَّهْيَ عن ضِدّه، وأنّ النَّهْي عنِ الشّيء يتضمَّنُ أمراً بِضِدِّه، تَحَصَّلَ لَدَينا في هذا النَّصِّ توجيه لذِكْرِ الله بأساليب بيانيةٍ أَرْبعة.

وقد يُفْهَمُ مِنْ عبارة: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ النَّهْيَ عن الْغَفْلَةِ عن ذِكْرِ الله، في كلّ الأوقاتِ الّتي تَسْتَدْعي المناسَبَةُ فيها ذِكْرَه، لفِعْلِ شيءٍ، أو تَرْكِ شيْء، أو التأمُّل والتفكُّرِ في شَيْءٍ من خَلْقِ الله، أو شيءٍ مِنْ تَصارِيفه في كونه، لرَبط ذلك ببعض صفاته، وعظيم حكمَتِه، وجليل إنْعَامِهِ على عباده، وكمال عَدْلِهِ وفضْلِه.

قولُ الله تعالى:

● ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾:

ختم الله عزّ وجلّ الدَّرْسَ الأخير من السُّورَةِ بهٰذِهِ الآيَة، الّتي أبان

فيها ما عليه الملائكة الّذِينَ هُمْ عِنْدِهُ، وفي مُقَدِّمَتِهِمُ الملأ الأعلى كجبريل وإِسْرَافيل وميكائيل.

وفي هذا البيان حثٌ للمؤمنين بأُسْلُوبٍ غَيْرِ مباشرٍ على أَنْ يَتَأَسَّوْا بالْمَلائِكَةِ في عباداتهم لِرَبِّهِم بالطاعَةِ والْخُضُوعِ التامّ، وبالتَّسْبيح الَّذِي هو من ذكْرِ الله، وبالسُّجُودِ الّذي هُوَ غايَةُ الخضُوعِ الماديّ لله جلّ جَلالُهُ، والّذي هو تَعْبِيرٌ جَسَدِيٌّ عن غايَةِ الْخُضُوعِ النفْسِيّ والْقَلْبِيّ له، حينما يكون سجوداً حقيقيًّا كاملاً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾: هم الملائكَةُ المقَرَّبُونَ، وأَكْثَرُهُمْ قُرْباً المَلأُ الأعلىٰ، أصحابُ الوظائفِ الجليلَةِ في الكَوْن.

﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾: أي: لاَ يُوجَدُ واحِدٌ فيهم يَسْتَكْبِرَ عن عبادَةِ رَبِّه، بالطاعَةِ التَّامَّةِ لأوامره ونواهيه، إِذْ مِنْ صفاتهم أَنَّهُمْ لاَ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ دَواماً فِي كَلِّ شيءٍ يَفْعَلُونَهُ مَا يَأْمُرُهم اللّهُ رَبُّهُمْ بفِعْلِه، بالتّقائيَّة التامَّة، وبمقتضىٰ تكوينهم الّذي فطَرهُمُ اللّهُ عليه، مع غاية الخضُوع وغايَةِ الذُّل له.

فالطاعَةُ رَأْسُ الْعِبادات، ولهم عباداتٌ أُخْرَىٰ يُؤَدُونها، ومِنْ أَجَلّها التسبيح والسُّجود.

﴿وَيُسَبِّحُونَهُۥ﴾: أي: ويُرَدِّدُونَ عبارات التَّسْبِيح دواماً، مثل: «سُبْحانَ الله ـ سُبُوحٌ قُدُوس» مع المواظبة على هذا التسبيح، ومعنى التسبيح تَنْزِيه الله عمّا لا يَليقُ بِجَلالِهِ.

﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾: أي: وَيُتَابِعُونَ السُّجودَ آناً فآناً، أو يواصِلُونَهُ زمَناً فزمَناً، والسماوات ملأىٰ بالسَّاجدين مِنَ الملائكة المكرَّمين.

روى ابن مَرْدَويه عن أنس أنّ النبيّ ﷺ قال:

«أَطَّتِ السَّمَاءُ ويحقُّ لَهَا أَنْ تئِطَّ، والّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، ما فِيها مَوْضِعُ شِبْرٍ إلاَّ وَفِيهِ جَبْهَةُ مَلَكٍ سَاجِدٍ يُسَبحُ اللَّهَ بِحَمْدِهِ»[1].

نظرة عامّةٌ حول هذا الدرس الأخير:

بعد التَّدَبُّرِ التحليليِّ التفصيليِّ لهذا الدَّرْس الأخير من دُروس سورة (الأعراف) تبيَّنَ أَنَّهُ اشْتَمَلَ على وصَايا تربويَّة للرَّسُول محمّد ﷺ تُسَدِّدُهُ في طرِيق دعْوَتِهِ إلى سبيل ربّه.

وهذه الوصَايا مُوجَّهَةٌ أيضاً لكل داع إلى سبيل ربّه من أمّتِه، ولكلّ حامل رسالة النُّصْحِ والإرْشاد، والأمْرِ بالمَعْرُوفِ والنَّهْي عن المنكر.

وبَعْدَ التأمُّلِ والتَّفكّرِ في عناصر هذا الدَّرْسِ، وفي مَوضوع السُّورَة المنطَلِق من الآيتَيْنِ الأولى والثانية من صَدْرها، ظَهَرَ لي ارتباطُ هذا الدَّرْسِ ارتباطاً تامًّا بعُنْصُرِ القرآن من موضوعها، ووجوب تَبْليغه كما يُنَزِّلُهُ اللَّهُ، دُونَ شعورٍ بأيّ حَرَجٍ ممَّا يثيرُهُ الكفَرَة المشركُونَ حول ما جاء فيه، أو حَوْلَ طَرِيقةِ تنزيلِهِ مُنَجمًّاً، وما يتطلّبُهُ هذا التبليغ من صَبْرٍ وعَفْوٍ عن المسِيئينَ من خُصُوم الرّسَالَةِ، واتّخاذِ لوسائلَ ذاتِ تأثيرٍ أنْفَعَ وَأَجْدَىٰ لاسْتِمالَةِ الناسِ واستعطافِهم إلى دين الله.

وهذا العنصر من عناصر موضوع السورة قد جاء في الآية (٢) وهي قول الله عزّ وجل خطابا لرسوله:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

وتفرَّعَ من هذا العُنصر الخطُّ الأعظَمُ الذي سارت عليه معظم آيات السُّورَة، وهو خَطُّ:

---

(١) عن صحيح الجامع الصغير وزيادته، رقم (١٠٢٠) ومعنى «أطّتْ» صَوّتت، يقال لغة: «أَطّ، يَئِطُّ، أطيطاً» أي: صَوَّتَ.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

وجاء في السُّورَةِ استعراضُ التاريخ الْبَشَري، تُجاه مطلوب الله من الناس باتّباعِ ما أُنزِلَ إليهم من ربّهم.

وبهذا تَمّ تَدَبُّر سُورة (الأعْرَافِ) على مقدار المنحة الرَّبّانية والحمد لله على فتحه وتوفيقه وعَظِيم مِنَّتِه.



ملاحق لتدبّر سورة الأعراف

الملحق الأول: مستَخْرَجات بلاغية من سورة الأعراف.

الملحق الثاني: السؤال في محكمة العدل الربانيّة يوم الدين.

الملحق الثالث: الوزن في محكمة العدل الربّانيّة يوم الدين.

الملحق الرابع: حول اتّخاذ الدّين لهواً ولعبا وهزُواً والاغترار بالحياة الدنيا.

الملحق الخامس: دراسة تكامليّة للنصوص بِشَأْنِ لوطٍ وقومه في القرآن المجيد.

الملحق السادس: دراسة تكامليّة للنصوص بشأن شعيب وقومه في القرآن المجيد.

الملحق السابع: حول ما جاء في القرآن بشأن سُنَنِ الله في الأمم حتّى استِحْقَاقِها الإهلاكَ الشامل.

الملحق الثامن: حول رغبة الكافر في أن يُسْمَحَ لَهُ باستئناف رِحْلة الابتلاء منذ لحظة موته وحتى خلوده في جهنم.

(١٧)

الملحق الأول
مستخرجات بلاغيّة من سورة الأعراف

تشتمل سورة (الأعراف) على صُوَرٍ وأمثلة بلاغية كثيرة، وفي هذا الملحق مستخرجات بلاغيّة منها، غيرُ مستوفية لكلّ ما في السورة من بلاغيّات، إلاّ أنّها تُسَاعدُ المتدبّر على استخراج صُوَرٍ وأمثلَةٍ أُخْرَىٰ، لم يجْرِ التنبيهُ عليها في هذا الملْحق.

أولاً:

إسناد الفعل إلى غير ما هو له لداعٍ بلاغي، وممّا جاء منه في السورة قَوْلُ الله عزّ وجلّ:

﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾.

في عبارة: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ توجيهُ النَّهْي للحَرَج، وهو ضيقُ الصَّدْرِ، لا للرَّسُول ﷺ، إذْ لم يَقُل الله له: لاَ تكُن حَرِجَ الصَّدْر.

وفي توجيه النَّهْي للْحَرج تلَطُّفٌ بالرَّسُول، إذْ لم يُوَاجِهْهُ اللَّهُ بالنهي، بل وَجَّه النَّهْي للْحَرَج.

وجاء فيها لفْتُ النظر إلىٰ الأثر وهو الحرج، لا لمسبّبَاته، مع أنّ المقصود مُسَبِّبَاته، فالحَرجُ أثَرٌ يَحْدُثُ من تصوُّر الرسُولِ أنّ مسؤوليّته تحويلُ النّاس من الكفر إلى الإيمان، وهذا أمْرٌ غَيْرُ مطْلُوب منه صلوات الله وسلاماتُه عليه، إذْ تقْتَصر مسؤوليّته على التبليغ.

ويحدُثُ أيضاً من كراهيته اعتراضَ أئمة الكفر على تنزيلِ القرآن

منجماً، لا جُمْلةً واحدة، والداعي إلىٰ الله ينبغي له أن لا يَهْتَم لاعتراضات الكافرين على اختياراتِ رَبّ العالَمِين الحكيمة.

ثانياً:

الإيجاز بالحذف، ومن أمثلة هذا الإيجاز في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل:

﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾.

في هذه الآية حَذْفٌ من أوائلها دلَّ عليه ما في أواخرها، وحَذْفٌ من أواخِرِها دَلَّ عليه ما في أوائلها، وهذا ما يُطْلقُ عليه عند البلاغيين «الاحتباك».

وأصل العبارة: اجعلوا ربّكُم وليًا لكم، فاتّبِعُوا ما أُنزل إليكم منه، ولا تتخذُوا من دونِه أولياءَ تَتَّبِعُونَ ما يأمُرونكُمْ به وما يَنْهَوْنكُمْ عنه.

الاحتباك: هو الحذف من الأوائل لدلالة الأواخر، مع الحذف من الأواخر لدلالَة الأوائل.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾.

في هذه العبارة اكتفاءٌ بذكر العلّة عمًّا تقتضيه هٰذه العلّة.

أصل العبارة: ولا تَعْتَدوا لأنَّ الله لا يحبُّ المعتدين.

فذكر العلّة أَغْنَى عن ذكر النهْي عن الاعتداء، وهو مقَدَّرٌ ذهْناً، وقد حُذِف إيجازاً، ويَسْهُل على المتدبّر أن يُدْركه.

(٣) قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا... ٥٦﴾.

في هذه العبارة الاكتفاءُ بالنّهي عن الشيء عن الأمْر بضدّه.

فالنَّهْيُ عن الإفساد في الأرض بعْدَ إصلاحها يَدُلُّ بمفهومه من وراء منطُوقِ اللّفظ، على الأمْر بإصْلاح الأرض بكلّ عمل يؤدّي إلى إقامة مُنْشآتٍ مادّيّة ومعنويَّةٍ، ذواتِ وظائف إصلاحيّة نافعة للعباد، في أمور دنياهم وأمُور آخِرَتهم.

فأغْنَىٰ النهي عن الإفساد في الأرض عن الأمر بإصلاحها.

(٤) قول الله عز وجل:

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ... ﴿٥٨﴾﴾.

في هٰذهِ العبارة «الاحْتِباك» وهو الحذفُ من الأوائل لدلالة الأواخِر مع الحذف من الأواخر لدلالة الأوائل.

أصل العبارة: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ﴾ هَيِّناً سَهْلاً جَيِّدَ الْعَطَاء [بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ] الْبَلَدُ الَّذي ﴿خَبُثَ لَا يَخْرُجُ﴾ نَبَاتُهُ ﴿إِلَّا نَكِدًا﴾ أي: عَسِراً شحِيحاً قليل العطاء والنفع.

(٥) قول الله عزّ وجلّ حِكايَةً لمقالة نوح لقومه:

﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ... ﴿٦٣﴾﴾؟

في هذه العبارة حذفان:

الحذف الأول: دلَّ عليه وُجود حرف العطف، دون وجود معطوفٍ عليه في اللفظ، والتقدير:

أكَرِهْتُم تَرْكَ ما أنْتُمْ عليه من شركٍ وفسْقٍ واتّباعَ ما جئتكم بِهِ من حقٍّ وخير، وعَجِبْتُم أنْ جاءكم ذكْرٌ مِنْ رَبكُمْ.

الحذف الثاني: دلَّ على الاقتضاء الفكري، في عبارة: ﴿ذِكْرٌ مِّن

﴿رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ والتقدير: ذكرٌ من ربكم مُنَزَّلٌ على رجُلٍ منكم.

(٦) قول الله عزّ وجلّ في حكاية قول شعيب عليه السلام لقومه:

﴿... فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ... ﴿٨٥﴾﴾.

في هذه العبارة حذف دلّ على المحذوف فيها التقابل والتناظر، والتقدير: فأوفُوا الكيلَ والمِكْيَالَ والْوَزْنَ والميزان.

ويدخل هذا فيما يَسَمَّى عند البلاغيين «الاحتباك» وقد سبق آنفاً بيانه.

(٧) قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾.

دلَّ على المحذوف في هذه الآية العطفُ بالفاء الفصيحة بعد هَمْزَة الاستفهام في أوّلها، والتقدير:

أَلَدَىٰ أهل الْقُرىٰ الكافرين علْمٌ بأنَّ الله عزّ وجلّ لنْ يُنْزِل بِهِمْ عذابَهُ على ما يكْسِبُون من آثام، فأمِنُوا واطْمأَنُوا ولم يَخافوا أن يأتيهم بأسُ رَبّهم في اللّيل وهم نائمون.

(٨) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

في هذا النصّ حذفٌ مطويٌّ بين المثاني يستخرجُهُ المتدبّر بالتأمّل، والتقدير:

﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ فعرَض عليهم المهمّة الّتي حشَرَهُمْ من أجلها، وهي إجراء مباراة بينهم وبين ساحِرٍ كبيرٍ من بني إسرائيلَ اسمُه موسى ومعه أخُوهُ هارون (هكَذَا أَوْهَمَهُم) فقبلُوا أن يَدْخُلُوا هذه المباراة،

على شَرْطِ أن يَجْعَلَ لهم فرعون أجراً كبيراً إنْ كانوا هم الغالبين ﴿قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا﴾ إلى آخر النص.

(٩) قول الله عزّ وجلّ حكاية لما جرى بين السّحرَة وموسى عليه السلام عند المباراة:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ١١٥﴾.

في هذا النصّ حذف يكشفه التدبّر، والتقدير:

إمّا أنْ تُلْقِيَ أوّلاً، وإمَّا أَنْ نكُونَ نَحْنُ الملْقِين أوّلاً.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ حكاية لدُعَاءِ مُوسَى رَبَّه:

﴿وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ... ١٥٦﴾.

أي: وفي الآخِرَة حَسَنَةً أو حَسَنَات، وهذا من المحاذيف الواضحة التقدير.

(١١) قول الله عزّ وجل:

﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ... ١٨٧﴾.

أي: إنّما عِلْمُ وقْتِ قِيَامِ السَّاعَةِ عنْدَ رَبّي.

وظاهرٌ أنّ من السّهل اكتشاف المحذوف هُنَا، فهو مما يقتضيه النَّصُّ لاستكمال دلالته.

❁ ❁ ❁

ثالثاً: المجاز المرسل، ومن أمثلته الواردة في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ٤﴾.

● جاء في هٰذه العبارة إطلاق لفظ القرية، والمرادُ أهلها، وهو من إطلاق المحلّ وإرادة الحالّ فيه، وهذا من المجاز المرسل ذي الأمثلة الكثيرة.

● وجاء فيها التعبير بـ ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ والمرادُ أرادنا إهلاكها فَقَدَّرْناهُ وقضيناه، وهو من إطلاق المسبَّبِ وإرادة السَّبَب، والغرض الإشعار بأنّ ما قضاه الله وقَدَّرَه نَافِذٌ حتماً، فهو بحكم الأمْر الذي تَمَّ تنجيزه فعلاً.

والداعي البلاغي الإيجاز وإمتاع الأذهان بالاستنباط.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَا بَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ . . (٢٧)﴾.

في عبارة ﴿كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ مجاز مُرسل، وهو من إطْلاقِ المسبَّب، وهو الإخراج من الجنّة وإرَادَةِ السَّبب، وهو ما كان يتخذه الشيطان من وسائل إغوائية لفتنتهما، واستجابتهما له.

أي: لا يفتننَّكم الشيطان كما فَتَنَ أبويْكم إِذِ اسْتَجابا له، فتَسَبَّبَ في معاقبة الله لهما بالإخراج من الجنّة.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)﴾.

جاء في هذه الآية نَفْيُ وجُودِ العهد لدى أكثر أهل القرى الّذين تحدَّث عنهم النصّ، والمرادُ نفْيُ الْوَفاء به.

وهذا من نفي السّبب وإرادة نفْي المسبَّب، فهو من قبيل المجاز المرسل.

والغرض الفكريّ الدّلالة على أنّ من لا وفاءَ له فلا عَهْدَ له.

(٤) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾.

المرادُ بالتّذَكُّر في عبارة: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لازِمُهُ الفكريّ، وهو الاستجابة لمضمونِ ما تذكَّرُوه، والْعَملُ بمقتَضاهُ من إيمان وطاعة لله ولرسوله.

وهذا مجاز مرسَل من إطلاق الملزوم وإرادة لازمه، أوْ من إطلاق السّبب وإرادة المسبَّب، لأنّ التّذكّر من البواعث الّتي تَسْتَحِثّ المتَذكِّر على العمل بالمطالب، التي دلّت عليها المذكُوراتُ المحْضَرَاتُ في سَاحةِ التذكّر.

(٥) قول الله تعالى خطابا لبني إسرائيل:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ... ﴿١٤١﴾﴾.

أي: ويَسْتَبْقُونَ مواليدكم من البنات اللّوَاتي سيكُونُ مصِيرُهُنَّ نساء أحياء، فلا يقتلونَهُنَّ.

ففي إطلاق كلمة «نساء» على المواليد من البنات مجاز من قبيل المجاز المرسل، وهو من إطلاق اللّفظ على الشيء باعتبار ما سيؤول إليه، مثل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ أي: سيؤول أمْرُهُ إلى الفناء.

والغرض فنيّة الابتعاد عن الأسلوب المباشر في البيان.

(٦) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ... ﴿١٦٣﴾﴾.

في هذا النصّ أُطْلِقَ لفظ القرية وأُرِيدَ أَهْلُها، وهو من نوع المجاز المرسل، أُطْلِقَ فيه المحلُّ وأريد به الحالُّ فيه، أو هو من قبيل حذْفِ المضاف وإقامة المضاف إليه محلّه، والغرض الإيجاز.

❁ ❁ ❁

رَابعاً:

الاستعارة، ومن أمثلتها الواردة في السورة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ بشأن وسائل إبليس لإغواء آدم وزوجه:

﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا . . . (٢٢)﴾.

في عبارة ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ استعارة فِعْلِ التَّدْلِية للدلالة على أساليب الاستنزال إلى ارتكاب كُبْرَيَات المعاصي والآثام.

فتَدْلية الدّلْوِ في البئر تكونُ شيئاً فشيئاً، ولا تكون قَذْفاً بمرَّةٍ واحدة، وكذلك الاستدراج والاستنزالُ إلى ارتكاب المعاصي والآثام.

وفي استعارة التدلية لهذا المعنى إبداعٌ بالغُ الغاية، لِمَا فيه من المطابقة الَّتِي هي في غاية الإيجاز، بين اللّفظ المستَعَار وبين الفكرة المرادة ذات المرامي والأبْعاد الواسعة.

إنّ تشبيه عمليّة الإغواء، ذاتِ الخطواتِ المتتابعات في الانحدار بالتدلية في بئر، أو في مَهْواة، من أبْدعِ التَّشبيهات وأبْرَعِها وأدقّها، وأكثرها إمتاعاً للأذهان الذّوَاقة للجمال الأدبيّ.

(٢) قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٌۚ . . . (٢٦)﴾.

في هذه العبارة استعارة لفظ «لِبَاس» مضافاً إلى التقوىٰ للدَّلالة على العمل الدّينيّ الّذي يُرْضِي اللَّهَ عزّ وجلّ، فيَقِي من عقابه على المعاصي والمخالفات، تَشْبيهاً له بالدِّرع، أو باللّباسِ المادّيّ الّذي يقي الجِسْمَ من عوارض الحرّ والْبَرْدِ، بجامع الوقاية من الضرّ في كلٍّ منهما.

وذكر التقوىٰ في العبارة من قبيلِ التجريد في الاستعارة، لأنها من خصائص المشبَّه.

(٣) قول الله عزّ وجل بشأن قوم لوط:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

جاء في هذه الآية استعارة الفِعْل في «أَمْطَرْنا» والاسم «مَطَراً» للدّلالة على إنزال حجارةٍ من السّماء عليهم، إنزالاً يُشْبِهُ إنزالَ المطر من السماء، وَوَجْهُ الشَّبَهِ أَنَّ الحجارَةَ مثلُ حبّاتِ المطر الكبرى، وأنّ النُّزُولَ متواتر متتابع كمَاءِ المطر، وعامٌّ شاملٌ لكل أرض قوم لوط، لكنَّ هٰذَا المطَرَ قَدْ كَانَ للتّعذيب والإهلاك.

(٤) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ... ﴿٩٦﴾﴾.

في عبارة: ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ اسْتِعارَةٌ، وإيجاز بالحذف.

فالاستعارة قائمة على تشبيه عطاء الله الكثير لعباده، بفتح أبواب السُّدود، التي تتدفَّق منها المياه بغزارة وقُوّة.

وحُذِف من اللفظ كلمةُ «أبواب».

والتقدير: لفتحنا عليهم أبْوابَ بركاتٍ كثيراتٍ من السّماء والأرض.

(٥) قول الله عزّ وجلّ حكاية لدعاء سحَرَة فرعون، بعد إيمانهم ووعيدِ فِرْعَوْن لهم بتقطيع أيديهم وأرْجلهم من خِلاف، وتَصْلِيبهم في جذوع النخل:

﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾.

في عبارة: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ اسْتِعارَةٌ تخييليَّةٌ، قائمة على تشبيه الصَّبْرِ بمادّةٍ توضَعُ في إنَاء، وتشبيه إمْدَاد النَّفْس بالصَّبْر بإفْرَاغ ما في الإناء من صَبْرٍ عليها.

ومعْلُوم أنّ الإفراغ من لوازم ما يُوضَعُ في الأواني.

والغرضُ الدّلاَلَةُ على أنْ يُمِدَّهم الله بصَبْرٍ كثير يُشْبِه إفراغ جميع ما في الإناء دفعةً واحدة.

ويَدُلُّ التنكير في ﴿صَبْرًا﴾ على التكثير.

(٦) قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ. . (١٥٤)﴾.

في هذه العبارة استعارةٌ بديعة قائمة على تشبيه حركة الغضب في النفس، بثائرٍ ذي مطالبَ يُطالِبُ بها، ويصيح مُلحًّا في طلبها.

ومن آثار هٰذه المطالب الغضبيَّة توجيهُ التلويم والتثريب وعبارات التذمّر، وتحرُّكُ الجملة العصبية للانتقام.

وتشبيه هدوء الثورة الغضبيَّة في النفس بالسُّكوتِ عن المطالب، ولو مؤقّتاً.

فكان هدوء الغضب بمثابة سُكُوته، وهذه من الاستعارات البديعة الّتي تُصَوِّرُ فيها الحركات النفسيَّة الداخليَّةُ بأمْثِلَةٍ تُدْرَكُ بالحسّ الظاهر.

(٧) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ (١٧٥)﴾.

اسْتُعِير في هذا النصّ فعل «انْسَلَخَ» للدّلالة على معنى التَّخلّي عن الإيمان، أو الْعَمَلِ بآيات الله المنزَّلاَتِ.

وهٰذه الاستعارة قائمة على تشبيه الذين أُوتوا آياتِ الله، فآمَنُوا، واحْتَمَوْا بالْعَمل بها، حتَّىٰ صارت مثْلَ جُلُودِهم المحيطة بأجْسادهم، ثمّ لمَّا

طال عليهم الْعَهْدُ تخلَّوْا عَنْها، فكان حالُهُمْ مثْلَ حَالِ المنْسَلِخ من جِلْدِه الذي يتعَرَّضُ جَسَدُهُ للفساد فالهلاك.

وهؤلاء المتخلُّونَ عن آيات الله أَتْبَعَهُم الشيطان، فكانوا باستجابتهم لوساوس الشيطان وتَسْويلاته من الغاوين.

هذه الاستعارة من أبْدَع الاستعارات، وأكْثَرِها دِقَّةً ومُطابقَةً للواقع بكلّ عناصِرِها بين المشبَّهِ والمشبَّه به.

(٨) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا... (١٨٧)﴾.

في عبارة: **[أَيَّانَ مُرْسَاهَا]** اسْتِعارةٌ قائمةٌ علىٰ تَشْبيه الحياة الدّنيا بالسفينة، وتشبيه الزّمَنِ بالْبَحر، وتَشْبيه انْتِهَاءِ نظام هٰذِهِ الحياة الدنيا وأحداثها بالرُّسُوّ في مرفأ هذا البَحْرِ الزَّمَنِيّ.

والغرض من هٰذهِ الاستعارة، الدلالَة على أنّ هذا النظام الكونيّ بتراتيبه وتَصارِيفه المتابعة لحظةً فلحظَةً، وتغيُّراته، يُشْبِه سفينة جاريةً في الْبَحْر، لها في كلّ لحظةٍ موقعٌ وحركَةٌ جَدِيدَانِ دواماً، وأنّ هذا التجدُّدَ لا يَنْتَهي إلاّ إذا قامَتِ السّاعَةُ، وانْتَهَىٰ بقيامها كُلُّ هذا النظام، كَمَا تَتَوَقَّف السّفينَةُ في الميناء، وتُلْقِي مرَاسِيَها، وتَثْبُتُ وَتَسْتَقِرُّ عِنْدَه.

(٩) قول الله عزّ وجلّ بشأن وقْتِ قيام السَّاعَة:

﴿... ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً... (١٨٧)﴾.

في عبارة ﴿ثَقُلَتْ﴾ استعارةٌ قائمةٌ على تشبيه ما يتعَذّرُ مَعْرِفَتُه من المعاني، بالشيء الثقيل الذي لا يُسْتَطاع رفعُهُ من المكان الذي أُخْفِيَ فِيه ليُرَىٰ ويُعْلَم.

ووقْتُ قيام السَّاعَة قَدْ أَخْفَاه الله عنْ كُلّ أهل السماوات والأرض، هو

كشيءٍ ثَقِيلٍ في عالم الغيب، فلا يستطيعُ أَحَدٌ غَيْرُ الله أن يُخْرِجَهُ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة لِيَعْلَمه.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ للرسُول ولكل داعٍ إلى الله من أمّته:

﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ... (١٩٩)﴾.

اسْتُعِير في هذه العبارة فعل: ﴿خُذِ﴾ للدّلالة على معْنَىٰ فعل: «اعْفُ» للإشعار بأنّ العفْوَ شيءٌ ثمينٌ يؤخَذُ ويُغْتَنَمُ ويُظْفَرُ به، وأَنَّهُ مَرْتَبَةٌ نفيسةٌ يَحْرِصُ على الارتقاءِ إلَيْها أهْلُ البصيرة الإيمانيَّة.

وهذه الاستعارة قائِمة على تَشْبيه الْعَفْو الذي هو شيءٌ معنويٌّ بشيءٍ ماديٍّ ثَمِينٍ يُمْكِنُ أن يُؤْخَذ.

والغرض الإشعار بأخذ ثواب العفو عند الله في العاجلَةِ والآجلة، فهو بهذا مجازٌ مُرْسَلٌ أيضاً من إطلاق السَّبَبِ وإرادَةِ المسَبَّب.



خامساً:

تأكيد الخبر بالمؤكّدات لوجود الداعي إليه من أحوال المخاطبين به، أو المقصودين بالخطاب به.

وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة منه، أذكر منها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ (٥)﴾.

عبارة: ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ اشتملت على مؤكدَيْن: «إنَّ ـ والجملة الاسمية» والغرض إعلان تأكيدهم اعترافهم بأنَّهم كانوا ظالمين، لعلّ الله يرفع عنهم الإهلاك.

(٢) قول الله عزّ وجل بشأن إغواء إبليس لآدم وزوجه:

﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾:

أكد إبليس أنّه ناصِحٌ لهما بأربعة مؤكدات: «القسم - إنّ - الجملة الاسميّة - اللاّم المزحلقة للخبر» ليستجيبا لنُصْحِه الكاذب فيه، فيأكلا من الشجرة المحرمة.

(٣) قول الله عزّ وجل:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ... ﴿١٠﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ... ﴿١١﴾﴾.

جاء في هَاتين العبارتين التأكيد بـ «لَقَدْ» لأنّ الناس منصَرِفون عن ملاحظة نعم الله عليهم، ولحاجة الشاكّين في رُبوبيَّة الله إلَىٰ تأكيد ما يدُلُّ على رُبوبيته.

(٤) قول الله عزّ وجل:

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

في هذه الآية التأكيد بالقسم مرّتَيْن، فاللاّم في: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ وفي: ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ واقعة في جواب قسم منويٍّ، ويتّصل بالقسم التوكيد بنون التوكيد الثقيلة.

وجاء هذا التأكيد لأنّ حالَ المكذّبين بيوم الدّين يقتَضِيه.

(٥) قول الله عزّ وجلّ:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ... ﴿٢٧﴾﴾.

جاء في هذه العبارة التأكيد بنون التوكيد الثقيلة، لأنّ حال بني آدم أمام وسائل الشيطان الإغوائيّة تقتضيه.

(٦) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ... ﴿٤٠﴾﴾.

جاء في هذه الآية التوكيد بـ «إنّ ـ والجملة الاسمية» لأن مقتضى حال المكذّبين يستدعي التوكيد.

(٧) قول الله عزّ وجل:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ... ﴿٥٩﴾﴾ ونظائره.

جاء التوكيد بعبارة [لَقَدْ] اللاّم واقعة في جواب قسم منويّ، و«قَدْ» حرف تحقيق يؤكّد مضمون الجملة.

والداعي إلى هذا التأكيد أن المقصودين الأولين بهذا البيَان هم المكذبون للرسول ﷺ، والمكذّبون بما جاء به عن ربّه.

(٨) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمقالة قوم نوحٍ عليه السلام له:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾﴾.

كان الملأ من قوم نوحٍ يَعْلَمُون أنّ نوحاً عليه السلام على هُدىً، فأرادوا سَتْرَ مُعْتَقَدِهم فيه بتَأْكِيد ادّعاءِ أنّه في ضَلاَلٍ مبين.

وجاء توكيدهم لمقالتهم بالمؤكّداتِ: «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ اللاّم المزحلقة للخبر ـ ومضون الرُّؤْية الجماعية».

ونظيرها مقالة قوم هود له التي جاء بيانها في الآية (٦٦).

(٩) قول الله عزّ وجل حكايةً لمقالة لوط عليه السّلام لقومه:

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

«من» في عبارة «من أَحَدٍ» حرف جرّ زيد داخلاً على الفاعل لتأكيد عموم النفي.

ونظيره في عبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ داخلاً على المبتدأ في عدّة آيات.

(١٠) قول الله عزّ وجل في حكاية قَوْلِ ملأ قوم شعيب له:

﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾.

في عبارَتَي: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ﴾ و﴿لَتَعُودُنَّ﴾ التأكيد بالقسم المنويّ الذي دلّت عليه اللاّم كما قال الخليل، وبنون التوكيد الثقيلة الملازمة له.

(١١) قول الله عزّ وجل في حكاية قولِ شعيب عليه السلام لقومه:

﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ . . . ﴿٨٩﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ﴾ تأكيدٌ للنّفي بأبلَغِ تعبير، إذْ جَاءَ فيها كَوْنٌ مَنفِيٌّ وبَعْدَهُ لاَمُ الْجُحُود.

ونظيره ما جاء في قول الله عزّ وجل:

﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ . . . ﴿١٠١﴾﴾.

(١٢) قول الله عزّ وجل حكايةً لقول قوم شعيب عليه السلام لمن آمَنَ به.

﴿. . . لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

في هذه العبارة قسم منوي جاءت اللام في ﴿لَئِنِ﴾ في جوابه، وجاء جواب الشرط مؤكداً بـ «إنَّ ـ الجملة الاسميّة ـ اللاّم المزحلقة ـ إذاً أيضاً لأنها زائدة للتأكيد باعتبار أنَّ ما قبْلَها مفتقرٌ لما بَعْدَها».

(١٣) قول الله عزّ وجل حكاية لمقالة ملأ فرعون بشأن موسى عليه السلام:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾﴾.

أكَّدُوا مقالتهم عن موسى عليه السلام بـ «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللام المزحلقة للخبر».

(١٤) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسُوله محمّد ﷺ:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا... ﴿١٥٨﴾﴾.

جاء في هذا النّص التأكيد بـ «إنّ ـ الجملة الاسمية ـ كلمة جميعاً».



سادساً:

تنزيل القريب منزلة البعيد، باستخدام اسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد، للدّلالة على بُعْدِ مزلَتِهِ ارتقاءً في جِهَةِ المنازل الرّفيعة، أو هبوطاً في الدّركات المنحطّات.

وفي سورة (الأعراف) من هذا أمثلة كثيرة، أذكر منها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجل بشأن من ثقلت موازينهم يوم الدين:

﴿... فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾﴾.

فجاء في هذه العبارة استعمال اسم الإشارة «أولَئِكَ» الموضوع للمشار إليهم البعيدين، للدّلالة على ارتفاع منزلتهم عند ربّهم.

(٢) قول الله عزّ وجل بشأن من خفّت موازينهم يوم الدين:

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

فجاء لفظ ﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ للدّلالة على بُعْدِ مَنْزِلَتِهم هبوطاً في اتّجاه الدَّرْكِ الأسفل، بحَسَبِ دَرَكَةِ كلِّ واحدٍ منهم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿. . . وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴿٢٦﴾﴾.

«ذَلِكَ» اسم إشارة موضوع للمشار إليه البعيد، وجاء استعماله هُنا للدلالة على ارتفاع منزلة لباس التقوى.

(٤) قول الله عزّ وجلّ بشأن أصحاب النار:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: أولَئِكَ البعداء عن رحْمَةِ الله الهابطون في اتّجاه الدرك الأسْفَلِ من النار.

(٥) قول الله عزّ وجل بشأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

أي: أولئك ذَوُو المنازل الرفيعة جدًّا بفضل رَبّهم عليهم، وذَوُو الدّرجات الرفيعات في جنات النعيم، بحَسَب مقادير إيمانهم، ومقادير أعمالهم الصالحة.

(٦) قول الله عزّ وجلّ بشأن أصحاب الجنة وهم في الجنة:

﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

جاءت الإشارة إلى الجنة في هذه العبارة باسم الإشارة الموضوع للمشار إليه البعيد [تِلْكُمْ] مع أنّهم يكونون فيها مُنَعَّمِينَ، للدلالة على ارتفاع مَنْزِلَتِها ارتفاعاً عظيماً.

❁ ❁ ❁

سابعاً:

استقطاع النّصّ من الحدَثِ الماضي أو المستقبل، وتقديمُهُ كأنَّ الحدَثَ يجري في وقت التكلّم، أو حكاية ما سوف يحدث بصيغة الماضي كأنّه سَبَقَ حدوثُهُ، للدلالة على تحقق حدوثه في المسْتقبل.

وهذا الفنّ من أبْدَعِ أساليب الفنون البيانيّة، وهو من المبتكرات التي جاءت في القرآن، والّتي علّمنَا اللّه بها روائع من فنون البيان.

وفي سورة (الأعراف) أمْثلَةٌ كثيرة من هذا الاستقطاع:

(١) قولُ الله عزّ وجلَّ اقتطاعاً ممّا جرَىٰ من حَدَثٍ ماضٍ ضمن ذكْرِ قصة خلْق آدم:

﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾.

(٢) ما جاء في الآيتين (٣٨ ـ ٣٩) اقتطاعاً ممّا سوف يجري من أحداث يوم الدّين للكافرين، بصيغة فِعْلِ حدَثٍ مضىٰ، للدلالة على أنّ حُدوثه سوف يتحقّقُ حتماً.

﴿قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ... ﴿٣٨﴾ ... ﴿٣٩﴾﴾.

ونظيره ما جاء في الآيات من (٤٣ ـ ٥٠).

(٣) قول الله عزّ وجل ضِمْنَ ذكْر أحْدَاث لقاء موسى عليه السلام ربّه عند جبل الطور، وفيه استقطاع بعض ما جرَىٰ فيما مضىٰ وتقديمه كأنه يجري في وقت التكلّم:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾.

فعبارة: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ حتَّى آخر الآية مستقْطَعَةٌ مِنَ الحدث الماضي.

(٤) قول الله عزّ وجل في الحديث عَنْ بني إسرائيل:

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

عبارة: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ﴾ مستقطعة من الحدث إبَّان حُدوثه في الماضي، وتقديمها كأنَّ الحدث يجري عند التكلّم.

(٥) قول الله عزّ وجلّ بشأن ما سوف يَحْدُثُ يوْمَ الدّين بَعْدَ الحساب وفَصْلِ القضاء:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ ... ﴿٣٠﴾﴾.

أي: فريقاً حَكَمَ الله لَهُ بالهداية، وفريقاً حَكَمَ عَلَيْهِ بالضَّلالَة فحقَّتْ عليه وثبتت.

جاء هذا بأسلوب حكاية أمْرٍ مضى وانقضى، للدلالة على أنّه لاَ بُدَّ أن يتحقّق حتماً في المستقبل.



ثامناً:

التضمين، وهو تضمين فِعْلٍ أو ما في معناه معنى فعل آخر وتَعْدِيته مثل تَعْدِية الفِعْلِ الذي ضُمِّنَ معناه، فَتُغْنِي العبارة عن عبارتين، والجملة عن جملتين.

وفي سورة الأعراف أمثلة متعدّدة من هذا التضمين الذي هو من أساليب البلاغة القرآنية، إيثاراً للإيجاز والاقتصاد في العبارات.

(١) قول الله عزّ وجل في حكاية مُسَاءلَتِه لإبليس بعد أن امتنع من السجود لآدم:

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ... (١٢)﴾؟!

أي: ما مَنَعَكَ من السّجود حَاملاً لَكَ على أن لا تَسْجُدَ. ضُمِّنَ فعل «مَنَعَ» معنى فعل «حَمَل» فَعُدِّي تَعْدِيته، فأغْنَتِ الجمْلَةُ عن جملتين، إيجازاً وإبداعاً.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في بَيان وَسْوَسَةِ الشيطان، يَبْتَغي بها إغواء آدم وزوجه:

﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا... (٢٠)﴾.

فعل «وَسْوَسَ» فعْلٌ لازم، ضُمِّنَ معنىٰ فِعْلِ «سَوَّلَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغنت العبارة المختصرة عن جُمْلَتَين.

أي: فوسْوَسَ الشيطان، مُسَوِّلاً بوسْوَسَتِه لهما.

الوَسْوَسَة: الصوت الخفي، كَصَوْتِ الحلي.

التسويل: التحسينُ والتزيينُ والتحبيبُ بالأمْر والإغراءُ به.

(٣) قول الله عزّ وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا... (٤٠)﴾.

ضُمِّن فعْلُ «اسْتكبر» معنى فعل امتنع فعُدّي تَعْدِيته، فأغنت الجملة عن جملتين.

أي: واستكبروا ممتَنِعين عن اتّباع آيات اللّهِ المنزّلاَتِ إليهم منه.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في حكاية قول قوم شعيب عليه السلام لَهُ ولمن آمن به واتَّبَعَهُ:

﴿. . .أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ. . . ﴿٨٨﴾﴾.

ضمّن الفعلُ في [لَتَعُودُنَّ] مَعْنَىٰ الفعل في «لَتَدْخُلُنَّ» فأغنت الجملة عن جملتين.

أي: أو لَتَعُدُنَّ عَنْ دِينِكُمُ الجديد ولَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتنا.

(٥) قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْۚ. . . ﴿١٠٠﴾﴾.

ضُمِّن فعل «يَهْدِي» معنى فعل «يُبَيِّن» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فحملَتِ العبارة دلالَتي الفعلين معاً.

أي: أو ما هَدَىٰ حالُ الأُمَم السّالِفَة مبيّناً للأُمَم الوارثة لها، سُنَّةَ الله الثابتةَ الّتي تقتضي إصابة المذنبين بذنوبهم.

(٦) قول الله عزّ وجلّ:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَاۖ. . . ﴿١٠٣﴾﴾.

ضُمِّنَ فعْلُ «ظَلَمُوا» معنى فعل «كَفَرُوا» فَعُدِّيَ تَعْدِيته.

أي: فظلموا كافرين بها، فأغنت الجملة عن جملتين بإيجاز بديع.

(٧) قول الله عزّ وجل حكاية لقول آلِ فرعون لموسىٰ عليه السلام:

﴿قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ. . . ﴿١٣٤﴾﴾.

ضُمِّنَ فِعْلُ «نُؤْمِنَ» معنى فعل «نُسْلِم» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغنت الجملة عن جملتين إيجازاً وإبداعاً.

أي: لَنُؤْمِنَنَّ بك مسلمين لك.

(٨) قول الله عزّ وجل في الحديث عن بني إسرائيل:

﴿... وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ... ﴿١٦٠﴾﴾.

ضُمّن فعل «ظَلَّلَ» معنى فعل «جَعَلَ» فعُدّي تَعْديته، فأغنت الجملة عن جملتين، إيجازاً وإبداعاً.

أي: وظلَّلْنَاهم جَاعلين عليهم الغَمامَ مظلّلاً لهم.

(٩) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين كانوا يَعْدُونَ في السبت من بني إسرائيل:

﴿فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾﴾.

فعلُ «عَتَىٰ» لازمٌ لا يتعدّىٰ، فاقتضىٰ المعنى تضمينه معنى فعلٍ آخر، والملائم أن نقدّر هُنَا معنى فعل «استنكف».

أي: فلَمَّا عَتَوْا مُسْتنكفين عن طاعة الله بترك ما نَهاهم عنه من العدوان على حُرْمة يوم السبت، واستمرّوا متمادين في معصية بارئهم، أصْدَرْنا أَمْرَ التكوين بمسخهم قِرَدَة.

❁ ❁ ❁

تاسعاً:

خروج الاستفهام عن أصل دلالته وهي طلَبُ الإفهام، إلَىٰ معانٍ أخرى، كالإنكار، والتلويم والتوبيخ، والنفي.

وفي سورة الأعراف أمثلة كثيرة من هذا، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ يعلّم رسُولَه كيف يجيب المفترين على ربهم:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

الاستفهام في هذه الآية يرادُ به التلويم والتثريبُ والتوبيخ، لأنّهم يقولون على الله ما لا يعلمون.

(٢) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين يُحَرِّمُون ما لم يحرّمه الله من الزينة التي أخرج الله لعباده، والطيّبات من الرزق، يعلّم رسوله وكلّ داعٍ إلى الله وإلى سَبيلِهِ من أمته كيف يعالج المفترين على ربّهم:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ... (٣٢)﴾.

في هذا التعليم استفهام إنكاريٌّ تَلويمِيٌّ، إذْ لا يُوجَدُ مُبَلِّغٌ عن الله صادِقٌ حَرَّمَ هٰذه الأشياء، بل هو مفترٍ كذَّابٌ في دينِ الله، والغرض من هذا الاستفهام النفْي.

(٣) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ... (٣٧)﴾:

الاستفهام في هذا النصّ يُراد به بيانُ شناعَةِ وفظاعة جُرْم مَنْ يفتري على الله الكذب، ومثله من يُكذّب بآيات الله المنزّلاَتِ على رسُوله، مع بيان أنّه لا يوجَدُ أظلم منه.

(٤) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لما يقولُه أصحاب الأعراف يوم الدين لبَعْضِ من كانُوا يَعْرِفُون في الحياة الدنيا، من أهل الغنى والكبر الذين عُوقِبُوا على كفرهم بالخلُود في عذاب النار:

﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍۚ﴾؟!.

الاستفهامان في هذا النّصّ يراد بهما التوبيخُ والتحسير.

(٥) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لرَدّ نوح عليه السلام على ملأ قومه:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ... (٦٣)﴾.

ونظيره قول الله عزّ وجلّ حكايةً لِرَدِّ هود عليه السلام على الملأ الذين كفروا من قومه:

﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ... (٦٩)﴾.

الاستفهامان الواردان في هذين النّصّيْن هما من قبيل الاستفهام التعجبيّ الإنكاري.

أي: إنّ تعجُّبَكُمْ هو الأمر الذي يسْتَدْعي أنْ يُتَعَجَّبَ مِنه وَيُسْتَنْكَر.

(٦) قولُ الله عزّ وجلّ حكايةً لِقَوْلِ الملأ الذين كفروا من قوم هود عليه السلام:

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا... (٧٠)﴾.

في هذه المقالة استفهامٌ إنكاريٌّ فيه معنى الاستهزاء والسخرية.

(٧) قول الله عزّ وجلّ:

﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ (٩٧) أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (٩٩) أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾.

الاستفهاماتُ الوارداتُ في هذا النّصّ يُرَادُ بها التعجيب والتلويم والتأنيب.

(٨) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقَوْلِ موسى عليه السّلام للذين قالوا له من بني إسْرَائيلَ: اجْعَلْ لَنا إلَٰهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ:

﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (١٤٠)﴾.

الاستفهام في هٰذِه الآية استفهامٌ تعجُّبِيٌّ إنكاريٌّ فيه معنىٰ التشنيع على

الّذين طَلَبُوا من بني إسرائيل أنْ يجعَلَ لهم إلَهاً وثناً.

(٩) قول الله عزّ وجلّ حكاية لقولِ موسى لبني إسرائيل الذين اتَّخذُوا العِجْلَ إلَهاً يَعْكُفُونَ عليه عابدين:

﴿قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ... ﴿١٥٠﴾﴾.

أي: أسَبَقْتمُ أمْرَ رَبّكُمْ متجاوزين حدود ما أمَرَكم به من أن لا تتخِذُوا آلِهَةً من دونه. وهو من قبيل الاستفهام التوبيخيّ الإنكاري.

(١٠) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين اتَّهَمُوا الرسول محمّداً ﷺ بالجنون:

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾﴾.

الاستفهام في هذه الآية فيه معنى التعجيب من أمرهم، مع تلويمهم وتوبيخهم والإنكار عليهم، بأسْلُوب الحديث عنهم دُون مواجَهَتِم بالخطاب، وفيه حثٌّ على التفكّر في شخصيَّةِ الرَّسُول وكَمال صفاته البشرية وكمال أخلاقه، وعظيم ما جاء به عن ربّه، التي تجعل من يتّهمه معها بالجنون من أسفه السُّفَهاءِ، ومن أكْثرِ الناسِ جُحوداً وظُلْماً.

❊ ❊ ❊

عاشراً:

استخدام الكناية أسلوباً لبيان المراد، وهو لازِمُها، وفي سورة (الأعراف) عدّة أمثلة من هذا الأسلوب البلاغي:

(١) قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ... ﴿٢٩﴾﴾.

مع الأمْرِ بإقامَةِ الوجوه عنْدَ كُلِّ صَلاَةٍ كَما سَبَقَ في التدبّر، ففي هذه

العبارة كِنَايَةٌ تُوجّهُ للاهتمام والعنايةِ التَّامَةِ بعبادة الله عزّ وجلّ، استقبالاً للقبلَةِ الّتي أمَرَ الله باستقبالها، وتركيزاً للحواسّ الموجودة في الوجْهِ مُعَدَّلَةً غَيْرَ مُعْوَجَّةٍ وَلاَ مَائِلَةٍ، وَلاَ شارِدَةٍ وَلاَ مُدْبِرَةٍ أَوْ مُعْرِضَة، ويكونُ هذا بتوجيه السّمْع والبصر واللّسان مُعَدَّلاَتٍ في استقامَةٍ على عبادة الله جلّ جلالُهُ وعظم سُلْطانه، ومن وراء الحواسّ الظاهرة الفكر والنفسُ حتَّىٰ عُمْقِ القلْب.

(٢) قول الله عزّ وجلّ بشأن الذين عَبَدُوا الْعِجْلَ من بني إسرائيل حينما شاهدوا موسَىٰ عليه السّلام عائداً إليهم يَحْمِلُ الألواح.

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩)﴾.

في عبارة: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ﴾ كِنايَةٌ بَدِيعَةٌ عَنْ نَدَمِهِمْ، وشِدَّةِ خَوْفهم من سَطْوَة مُوسىٰ عليه السّلام.

وأصْلُ هذه العبارة أنَّ الّذي يُسْقَطُ في أَيْدِي المجرمين بسُرْعَةٍ وعُنْفٍ هي الأغلالُ والأصفادُ والقيود التي يُسَاقون بها لمعاقبتهم.

وحين تكونُ هذه من الحديد الثقيل فإنَّها قَدْ تُسْقِطُهُمْ إلى الأرض، فيكونون بذلك نادمين ساكنين، لا يملكون إلاّ الاعتراف بجرائمهم.

(٣) قول الله عزّ وجلّ حكاية لِدُعَاءِ مُوسَىٰ عليه السلام وهو في الميعاد الثاني لمناجاة رَبّه عند جبل الطور:

﴿وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ... (١٥٦)﴾.

جاء التعبير بـ ﴿وَاكْتُبْ﴾ كنايَةً عَنِ القضاء والْقَدر المستَتْبَعَيْنِ بالكتابة والتنفيذ، لأنّ الكتابة من لوَازم قَدَرِ اللّهِ وقضائه، إذْ كُلُّ ما يُقَدِّرُه اللّهُ عزّ وجلَّ وَيَقْضِيه يكتُبُه، وحِين يأتي وقت التنفيذ يُنَفِّذُه.

(٤) قول الله عزّ وجلّ بشأن الظالِمِينَ مِنْ بني إسرائيل:

﴿... وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾.

في هذه العبارة كنايةٌ عمَّا فَعَل الإسْرائيليُّون في تاريخهم الطويل من فسادٍ عَرِيضٍ.

أي: فأفْسَدُوا وَطَغَوْا وَبَغَوْا وَعَصَوْا بارِئهم، وظَلَمُوا ظُلْماً شَنيعاً فاحشاً، وَمَا ظَلَمُونا بذلك ولكن كانوا يظْلِمُونَ أنفُسَهم، بتَعْرِيضها للعقابِ والعذاب الشديد.

❁ ❁ ❁

حادي عشر:

القصر والحصر، وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة من هذا الأسلوب البلاغي لأداء المعنى المراد، ومنها ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لقول شعيب عليه السلام للذين هدّدوه والذين آمنوا به بالإخراج من بلادهم:

﴿... عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ ... ﴿٨٩﴾﴾.

في هذه العبارة قَصْر دلّ عليه تقديم المعمول ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ علىٰ عامله في: ﴿تَوَكَّلْنَاۚ﴾ وهو قصر حقيقي من قصر الصفة على الموصوف.

أي: على الله وحده لا شريك لَهُ تَوَكَّلْنَا.

(٢) قول اللّه عزّ وجلّ بعد بيان إهلاك كفّار قوم شعيب عليه السّلام:

﴿... ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

في عبارة: ﴿كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ قَصْرٌ دَلَّ عليه تعريفُ طَرَفَي الإسناد، مع زيادة التأكيد بضمير الفصل.

والقصر هنا هو من قبيل القصر الإضافي، أي: كانوا هم الخاسرين

لا الذين آمنوا بشعيب عليه السلام، وهو من قصر الصفة على الموصوف، أي: قصر صفة الخسارة على الذين كذّبُوهُ من قومه، بالإضافة إلى كلّ قومه.

(٣) قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن آل فرعون الّذين اطَّيّروا بموسى ومَنْ معه:

﴿... أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ١٣١﴾.

أي: ما قضاء ما يَنْزِلُ بهم ممّا يكرهون إلاّ عند الله، وهذا القضاء الرّبّاني يُسَبّبه طائرهم، وهو عمَلُهُمُ الّذي إذَا عَمِلُوه طار عنهم وَصار مُسَجَّلاً عند الله، فهم مسؤولون عنه، وهم يُعَامَلُون من الله عزّ وجلّ بمقتضاه.

وإطلاق الطائر على العمل استعارة، وإرادة لازمه الذي هو قضاءُ الله النافذ فيهم كناية.

والقصر هنا قصر حقيقيّ من قصر الصفة على الموصوف، أي: قَضَاء مقاديرهم ممّا يكرهون وممّا يحبُّون لا يُوجَدُ إلاّ عند الله.

(٤) قول الله عزّ وجلّ في معرض الحديث عن الرَّسُول النبي الأمّي:

﴿... فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾.

في عبارة: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ قصر الفلاح على الّذِين آمنوا به وعزّرُوه ونَصَرُوه، وهو من قبيل قصر الصفة على الموصوف.

التعزير: التوقير والتعظيم والتقوية.

والقصر هنا قصر إضافِي، أي: بالإضافة إلى الّذين لم يُؤْمِنُوا به بَعْدَ بِعثَتِه، وقد بلغتهم رسالته فجَحَدُوها.

(٥) قول الله عزّ وجل:

﴿سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ قَصْرٌ استفيد من تقديم المعمول على العامل. أي: وما كانوا يظلمون إلاّ أنفسهم، فوصْفُ ظُلْمِهم مقْصُورٌ أثَرُه عليهم، لأنّهم هم المعاقبون عليه عند ربّهم، وتكذيبُهُم بآيات الله لم يَضُرَّ الله شيئا.

(٦) قول الله عزّ وجلّ بشأن وقت قيام السّاعَة:

﴿...لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً... ﴿١٨٧﴾﴾.

في هذه العبارة قَصْرٌ استُفِيد من النفي والاسْتثناء، وهو من قصر الموصوف وهو حالُهم عند إتيان الساعة، على البغتة أي: على المفاجأة. وهو قصرٌ إضافيٌّ، أي: بالإضافة إلى أحوال العلم والجهل، إذْ لهم صفاتٌ أخرى كَثِيرَةٌ غير كونهم مُباغَتِين.

(٧) قول الله عزّ وجلّ خِطَاباً لِرَسُوله محمّد ﷺ:

﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾.

في عبارة: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قصر اسْتُفِيدَ من النفي والاسْتِثناء، فلفظ «إِنْ» حرف نفْي.

وهو من قَصْرِ الموصُوف وهو الرَّسُول على صِفَةِ الإنْذَارِ والبشارة، وظاهر أنّه من قبيل القصر الإضافي، أي: بالإضافة إلى آخر أحواله بَعْد تأديته كلَّ وظائف رسالته قبْل وظيفة الإنذار والتبشير.

(٨) قول الله عزّ وجلّ في وصْفِ الذين عنده من الملائكة:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾﴾.

في عبارة: ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ قَصْرٌ حقيقيّ، أيْ: وله وحْدَهُ

يَسْجُدونَ، فلا يَسْجُدون لغير الله عزّ وجلّ، وهذا من قَصْرِ صِفَةِ سُجُودِهم على مَسْجُودٍ له واحد، هو الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانه.

واستفيد هذا القصر من تقديم المعمول على عامله.



ثاني عشر:

التشبيه، ومن التشبيهات البديعة في سورة (الأعراف): قول الله عزّ وجل فيها في وصف المنْسَلِخِ من آياتِ ربّه المنزّلاَت:

﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث... (١٧٦)﴾.

في هذا المثل تشبيه بَدِيع من نوع تشبيه التمثيل، شبَّه الله عزّ وجلّ فيهِ المنسلخَ من آيات الله بَعْدَ انسلاَخِهِ منها واتّباعِه الشَّيطانَ وغَوَايَتِه، بالكَلْب اللاَّهِثِ دَواماً، لأنّ الغاوِيَ باتّباعِهِ أهواءَه وشهواتِه يسْتمرُّ في حالة ظمأٍ لتَنَاول ما يشْتَهي، فهو يُتَابع ذلك بغاية ما يَسْتَطيع من قُوّة وهمَّةٍ ومجاهدةٍ، تُخوِجُه أنْ يكون لاهثاً وراءَها دواماً، من جَرْيه وراءَ مطالب نفسه التي تتجدّدُ دواماً، كحالة الكلْب اللاَّهث دواماً، إنْ تَحْمِل عليه يلْهَث أَوْ تَتْرُكهُ يَلْهَثْ.



ثالث عشر:

استعمال ضمير المتكلّم العظيم وهو ضمير جَمْعِ المتكلمين، لأنّ الموضوع يسْتَدْعِي تَرْبية المهابة، أو التنبيه على عظمة رُبوبيَّةِ الرّبّ جلّ جلالُهُ في آيات خلْقه، أو آيات بيانه، أو آيات عقابه، ونحو ذلك.

وفي سورة (الأعراف) أمثلة كثيرة من هذا، ومنها ما يلي:

﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ - فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ - فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ - وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ - وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ - يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ - وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا - وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ - وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ - وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ - سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ - كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ - لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا - فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ - وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا - لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ﴾ -

إلى سائر النظائر في السُّورة.



رابع عشر:

التنكير للتهويل والتعظيم، أو التكبير والتكثير، أو لغير ذلك من أغراض التنكير البلاغية، ومنه:

(١) قول الله عزّ وجلّ بشأن أهل جهنّم في جهنم:

﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ . . . ﴿٤١﴾﴾.

أي: لهم في جهنّم مِهَادٌ شديدُ الإيلام، ولهم من فوقِهم غَواشٍ، وهي ظلماتٌ دخانيةٌ حارَّةٌ تَعُمُّ سماء جهنّم، وتجلّلُهم بالعَذاب والكرب.

فهم بين مِهَادٍ جهنّمِيّ أليم، وَغواشٍ عظيمة مَهُولَةٍ شَدِيدَةِ التعذيب لمَنْ تجلّلُهم في دار العذاب يوم الدين.

وفي استعمال لفظَتَي «مهاد» و«غواش» ما لا يخفىٰ من التنكيل والاستهزاء بهم، مقابلَ استِهْزَائِهِم في الدنيا بما أُنْذِرُوا به من عذاب الله يوم الدين.

(٢) قول الله عزّ وجلّ حكاية لمقال السَّحَرَةِ لفِرْعَونَ:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾؟

أي: أَإِنَّ لنَا لأَجْراً كبيراً كثيراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الغالبين؟.



خامس عشر:

إيراد الجملة الاعتراضيّة لغرض بلاغي، ومنه في سورة (الأعراف):

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

عبارة: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ جملَةٌ اعْتراضِيَّةٌ، والغرضُ البلاغِيُّ المبادَرَة إلى طَمْأَنَة المتقين بأنّ الله لا يكلّف نفساً إلاّ وُسْعَها، قبْلَ أن يُبَشِّرهم بأنّهم أصحابُ الجنّة، حتَّىٰ لاَ تَعْظُمَ في نفوسهم مَصَاعِبُ الالتزام بمطْلُوب التقوىٰ منهم، في أحوالٍ كثيرة كأحوال الأعذار والخطأ والنسيان وضعف الإرادة ضعفاً شديداً أمام بعض مطالب النفس، وتسلُّط الأهواء والشهوات عليها.



سادس عشر:

وضع الاسم الظاهر موضع الضمير لداعٍ بلاغي، ومنه في السورة:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ . . . ﴿١٤٣﴾﴾.

كان الظاهر أن يقال: ولمّا جاء موسىٰ لميقاتنا وكلَّمْنَاهُ، باستعمال الضمير، لكن النّصّ جاء: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ فوُضع الاسم الظاهر موضع الضمير للدّلالة على أنَّ هذا التكليم يتعلَّقُ بخصائص صفات رُبُوبية الله لعباده، الّتي تَسْتَدْعي أن يعبُدوه وحْدَهُ إلّهاً لاَ شريك له، في حدود شرائعه وأحكامه وبياناته لهم.



سابع عشر:

اختيار التنويع في البدائل بين المترادفات إيثاراً لما هو الأعذب في السّمع، والألْيَن في النطق، ومنه في السورة، قول الله عزّ وجل حكايةً لقول بني إسرائيل لموسى عليه السلام قبل الخروج من مصر:

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ . . . ﴿١٢٩﴾﴾.

جاء في هذا النَّصّ من بديع الاختيار في بدائل الكلمات المترادفات، عبارة: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَاۚ﴾ بَدَلَ «ومن بَعْدِ ما أتَيْتَنَا» المناظرة لما سبقها.

فمع أنّ الإتيان والمجيء مترادفان، لكنّ التنويع هنا في البدائل أعذبُ في السّمع، وألين في النُّطق، وفيه ابتعاد عن تكرار مادّة الكلمة الواحدة.



ثامن عشر:

تنزيل غير العاقل منزلة العاقل والحديث عنه كالحديث عن العقلاء، لداعٍ بلاغي، ومنه في السورة حديثاً عن أوثان المشركين:

قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا... ﴿١٩٥﴾﴾.

في هذا النّصّ ذكر الله عزّ وجلّ أوثان المشركين بالتعبيرات التي يُذْكَرُ بها الأَحْيَاءُ العقلاء مُسَايَرَةً لعُبَّادِهَا، ولولا هذه المسايرة لكان الحديث عنها كما يلي: أَلَها أرجلٌ تمْشي بها، أم لها أيْدٍ تبطش بها، أم لها أعين تبصر بها، أم لها آذانٌ تسمع بها.



تاسع عشر:

بيان استحالة حدوث الشيء بتعليق حدوثه على حدوث أَمْرٍ آخر معلوم الاستحالة بداهةً بالعقل، أو بحسب نظام الكون، ومنه قولُ الله عزّ وجلّ بشأن الّذِينَ كذّبوا بآيات الله المنزّلات، فلم يتّبعُوا مَا جاء فيها:

﴿... وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ... ﴿١٤٠﴾﴾.

وبما أنّ الجَمل الّذِي هو الحيوان المعروف لا يُمْكن أنْ يَدْخُلَ مَعَ بقائه على صفاته المعروفة، في ثَقْب الإبْرَةِ المعروفة مع بقائها علَىٰ وصْفِها وَمِقْدَار ثَقْبِها، فلا يُمْكِنُ أن يَدْخُلَ هٰؤُلاء الجنّة.

وهذا من الكنايات البديعة، المنتزعة من صُورَةٍ متخيَّلةٍ مُسْتَحِيلَةِ الوقوع بيْنَ أَمْرَيْنِ حِسّيّيْن.

وهذا الأسلوب البيانيُ من قبيل قول القائل لِقَطْع آمال طامعٍ في أَمْرٍ ما: نجومُ السّماء أقربُ لك، أي: لَنْ يتحقّقَ ما تطمع فيه.

❁ ❁ ❁

عشرون:

استخدام «ال» الدّالّة على الكمال على تقدير أنّها تستغرق كل عناصر النوع، ومنه في السورة قولُ الله عزّ وجلّ:



﴿... تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ... ﴿٤٣﴾﴾.

(ال) في الأَنهار للكمال، أي: تجري من تحتهم الأنهار الكاملة، المتسجمعة لكلّ الصفات الّتي تجعلُها أكمل الأنهار وأحسنها وأفضلها.

❋ ❋ ❋

(١٨)
الملحق الثاني
السُّؤال في محكمة العدل الرّبّانيّة يوم الدين

إنَّ محكمة الفضل والعدل الرّبانية يوم الدين، من عناصرها سؤالُ المقدَّم للمحاكمة عمّا أسْلَفَ في الحياة الدنيا في رحلة امتحانه، وسؤالُ الشهود عليه إذا حاول الجحودَ والمراوغَة، وكانَ في الحياة الدنيا من الذين بلَغَتْهُمْ دعْوَةُ الرُّسُلِ إلى الإيمان والإسلام فكفَرُوا بها ولم يَتَّبِعُوا ما أُنْزِل إليهم من ربّهم.

وأوّل سُؤَالٍ يُطْرَحُ عليه في محكمة العدل الرَّبَانِيَّةِ يتعلَّقُ بتَبَلُّغِهِ ما أَنْزَلَ اللَّهُ لعبادِهِ من دين ليَتَّبعُوهُ، فإذا أَقَرَّ واعْتَرَفَ، أو أُدِينَ بِشَهَادَةِ الشهود عليه، طُرِحَ عليه السُّؤَالُ الَّذِي يتَعَلَّقُ بإيمانه بالحقّ أَوْ كُفْرِه وجحوده له.

ثُمَّ تُطْرَحُ عليه الأسئلة حَوْلَ أعماله الإراديَّة الظّاهرةِ والباطنةِ الجسديَّة والنفسية الّتي كان قد عَمِلَها في الحياة الدنيا مخالفاً فيها أوامِرَ ربّه ونواهيَه، وعن الأعمال الّتي كان يجب عليه أن يعملها فلم يَعْمَلْها، وعصَىٰ بتركها رَبّه.

وفي هذا الملحق استعرض بشيء من التَّدَبُّرِ النصوصَ القرآنية الواردة في السُّوَر حَوْلَ هذا الموضوع:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكوير/ ٨١ مصحف/ ٧ نزول):

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنَّهُ يجمع في محكمة العدل الرَّبّانية يوم الدين بين الوائِدِ ومَوْؤُدته الصغيرة، فَيُوَجَّهُ السُّؤال للمَوْؤودة، فيقالُ لها: بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلْتِ؟.

ومن البدهيّ أن تقول المَوْؤُودَة: لا ذَنْبَ لي، فأنَا ما زِلْتُ صغيرةً لم أقْتَرِفْ ذنْباً حتَّىٰ أُقْتَلَ به، وقد قُتِلْتُ لِمُجرَّدِ أنَّ ربّي خلَقَنِي أُنْثَىٰ.

وقولُها هذا حُجَّةٌ دامِغَةٌ ضِدَّ قَاتِلها، فَمِنَ المعلوم بداهَةً أنَّ قَاتِلَها ظَالِمٌ آثِمٌ، وأنَّ قاتِلَها لا يَسْتَطيعُ أَنْ يَدَّعِيَ أنّ لَهَا ذَنْباً ما.

وتوجيه السُّؤال يكون لاسْتكمال المحاكمة شُرُوطَها وعناصِرَها.

أمّا مَعَاذيرُهُ الأخرى الّتي كانت الدَّافع له إلى الوأْدِ الظالم، فَهِي لاَ تتعلَّقُ بالمؤْؤودة المظلومة، وإنّما تُعَبِّرُ عن الاعتراض على حكْمَةِ الله عزّ وجلّ في الخلْق، أو على سُنَّة الله في المجتمع البشريّ وسائر الكائنات الحيّة، وكلُّ اعتراض من هذا النوع يتضمَّن إدانَةً له بالكُفر بحكْمَةِ رَبّه العليم الحكِيم.

ومن الملاحظ أنّه قد جاءَ الْبَدْءُ في نجوم التنزيل القرآني حوْلَ هذا الموضوع، ببَيَانِ سُؤَالِ المؤْوودة عن الذَّنْب الّذي بسَببه قَتَلَها وائِدها، نظراً إلى أنّ أَوَّل مَا يُحَاكَمُ عَلَيْه يَوْمَ الدّين ما يتعلَّقُ بالمظالم، ومنْها الظُّلْم الّذي يكون بين البهائم الْعَجْماوات، حتَّىٰ يُقَادَ للشَّاةِ الْجَلْحَاءِ من الشَّاة الْقَرْناء الّتي نَطَحَتْها في الدّنْيا ظُلْماً.

إنَّ الظُّلْمَ يُدْرَكُ بالفِطْرَةِ، فَلاَ يَرْتَبط الجزاءُ عَلَيْه بإرسالِ رُسُلٍ، وإنْزالِ شرائِعَ وَأحْكَامٍ رَبَّانِيَّةٍ.



النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التكاثر/ ١٠٢ مصحف/ ١٦ نزول):

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ① حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ② كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ③ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ④ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ⑤ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ⑥ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ⑦ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ⑧﴾.

في هٰذه السُّورة بيانٌ لسُؤال الكافرين عن النعيم في الدار الآخرة، لكِنَّ تَرتيب هذا السؤال بعَطْفِهِ بحرف العطف «ثُمَّ» الذي يَدُلُّ على الترتيب مع التراخي، يَدُلُّ على أنَّه لا يكُونُ في موقف الحسابِ وفَصْل الْقَضاء، بل يكونُ بَعْد دخولهم الجحيمَ دارَ عذابهم.

فأرَىٰ أنّه ليْسَ من عناصِر السُّؤال في محكْمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّة، بل هو سؤالٌ لهم عن نعيم الجنَّة، وهُمْ يُعَذَّبُونَ في الجحيم، وهو في الحقيقة سُؤَالُ تَحْسِيرٍ وَتَنْدِيمٍ حول نعيم الجنَّةِ الَّذِي حُرِمُوهُ بِكُفْرِهِمْ به، وبِإنكارِهم له، إِنَّه النَّعِيمُ الَّذي يتقلَّبُ فيه المؤمنون.

لقَدْ ذَاقَ الكافِرُون العذابَ الّذِي كَانُوا يُنْكِرُونَهُ، فَلْيَذُوقوا عذابَ الْحَسْرَةِ والنَّدَم، بسُؤالِهِم عن النعيم الذي كانوا في الدنيا يُنْكِرُونَه، ويَرَوْنَهُ خُرَافَةً من الْخُرَافَاتِ، وأُكْذُوبَةً افتراها المرْسَلُونَ.

ويؤكِّدُ هذا الْفَهْمَ أنَّ النّعيم لم يُذْكَرْ في القرآن إلاّ مُراداً به نعيم أهل الجنّةِ في الجنَّة، أمَّا لذَّاتُ الحياة الدنيا وطيّباتُها، فقد جاء في القرآن ذِكْرُها تَحْتَ عنوان «متاع» والمتاع هو الذي يُنْتَفَعُ به انْتِفَاعاً مؤقَّتاً، والفناءُ يأتي عليه وَلاَ بَقَاءَ له.

❋ ❋ ❋

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول):

﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾﴾.

فجاء هذا النصّ لبيان السُّؤال في محكمة العدل الرَّبَّانية يوم الدين. عمَّا أنْزَلَ الله عزّ وجلّ للنَّاس من أمور دينهم عقيدةً وشريعةً ومنْهاجاً.

ولمّا كان ما أنزلَهُ اللَّهُ للنّاسِ قد أنزلَهُ على رُسُلِهِ ليَعْمَلُوا به، ولِيُبَلِّغُوهُ للنَّاس اقتضىٰ الأمْرُ أن يُوَجَّهَ سُؤالاَنِ، أحَدُهُما للمُرْسَلِ إليهم، والآخَرُ للرُّسُل ويُلْحَقُ بالرُّسُلِ حَمَلَةُ رسالاتهم من أُمَّتِهِمْ.

● أمّا السؤال الذي يُوَجَّهُ للمُرْسَلِ إليهم من الناس، فهو سُؤَالٌ عنْ تَبَلُّغِهِمْ مَا جاء به الرُّسُل وَبلَّغُوهُ للنّاس، ثم يكون سُؤَالُهُمْ عن الإيمان، والعمل، والإخلاص للَّهِ عزّ وجلّ فيه.

● وأمَّا السُّؤال الّذي يُوجَّهُ للرُّسُل، فهو سؤالٌ عن تَبْلِيغِهِم ما كلَّفَهُمْ اللَّهُ أن يُبَلِّغُوهُ للناس. ممّا أنزل إليهم.

وقد جاء في هذا النّصّ تأكيد الخبر حول هٰذين السؤالين، بالقسم الذي دَلَّتْ عليه لاَم القسم، وهي الّتي تَقَعُ في جوابه، وبنُونِ التوكيد الثقيلة المشدَّدة: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾ - ﴿وَلَنَسْـَٔلَنَّ﴾.

وهٰذان السؤالان يتْبَعُهما سؤال الناس عن إجابتهم دَعْوَة رُسُلِ رَبِّهم، وسُؤالِ الرُّسُلِ عن استجابة أُمَمِهم لهم.

وقد جاء بيَانُ سؤال الناس عن إجابتهم دَعْوَةَ رُسُلِ رَبِّهم، في سورة (القصص/٢٨ مصحف/٤٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: ما الّذي أجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ به؟ هَلْ آمَنْتُم بِهِمْ واتَّبَعْتُمُوهُم، أَمْ كَفَرْتُمْ بِهِمْ، وَكَذَّبتُموهم، ولم تَسْتَجِيبُوا لدَعْوَتهم، ولم تَتَّبِعوهم؟

وجاء بيانُ سؤالِ الرُّسُل عن اسْتِجابَةِ أُمَمِهِمْ لهم في قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.

أي: مَا الَّذِي أُجِبْتُمْ بِهِ من قِبَلِ أُمَمِكُمْ؟ هل أُجِبْتُمْ بالإيمان والاتِّباعِ، أَمْ أُجِبْتُم بالتَّكْذِيب ورَفْضِ الاتّباع؟.

ولمَّا كانَتْ أُمَمُ الرُّسُلِ أَكْثَرَ مِنَ الَّذِينَ كانوا في عصورهم مستَجِيبِينَ أَوْ مُكذِّبين، وكانَ في بعضِ المستجيبين ظاهراً منافقون باطناً، كان من الحقّ أن يَقُولَ الرُّسُلُ لربّهم:

﴿... لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١٠٩﴾﴾.



النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾: أي: كان مُعْطِي العَهْدِ مَسْؤُولاً عن الوفاء به، عند ربّه يوم الدين.

أُسْنِدَ السؤال إلى العهد على طريقة ما يُسمّيه عُلماءُ البيان «المجازَ العَقْلِيّ» وهو إسناد المتكلّم الفِعْلَ أو ما في معناه إلى غير ما هو له في اعتقاده، لملابَسَةٍ بينهما مع قرينةٍ صارفة.

والملابسة هنا بين العهد وبَين مُعْطِيه ظاهرة، إذْ هو صاحِبُ العهد.

﴿كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾: أي: كلٌّ من السَّمْع والبَصَرِ والفُؤَاد كَانَ مسؤولاً عن اقتفاء ما ليس له به عِلْم، من دليل عقليّ، أو مشاهدة حسّيّة، أو خبر صادق يقومُ الدليل العقليُّ على صدقه.

والمراد صاحب السَّمْع والبَصَر والفؤادُ، والإسناد في هذه العبارة هو من قبيل المجاز العقلي أيضاً، نظير الإسناد في العبارة السابقة.

وفي مقدمة ما يسأل عنه اقتفاءُ دِينٍ لا يؤيّده دليلٌ علميٌّ صحيح.

وقد جاء في هذا النّصّ التصريح بالسؤال عن العهد، والتصريح بالسؤال عن اقتفاءِ الإنسانِ ما لَيْسَ لَهُ به عِلْم، اهتماماً بأمْرِهِمَا، نظراً إلَىٰ احْتمال تهاوُنِ الناس بهما.

أمّا السؤالُ عن أكْلِ مال اليتيم بغير حقّ، والسؤالُ عن إيفاء الكيل والوزن بالقسط، فهو من باب أَوْلَى، ويقاسُ على كُلٍّ ممّا جاء التصريح به، وممّا يُفْهَمُ باللُّزُوم العقلي، أشباههما وَنظائرهما في سائر النصوص القرآنية الّتي لم يأت فيها التصريح بالسؤال عنها.

ويُفْهَمُ من هٰذا أنّ من أجابَ الرَّسُولَ إلى ما قدَّمَ إلَيْهِ من عِلْمٍ صَحِيح مستَنِدٍ إلىٰ خَبَرٍ صادق، أو مشاهدةٍ حسّيَّة، أو دَلِيلٍ عقلِيٍّ آمن به، وأَعْطَاهُ عهداً بالإسلام والمتابعة كان هذا الْعَهْدُ الإيمانيُّ الإسلاميُّ، من العناصر المهِمَّةِ الّتي يُسْأَلُ عنها وهو واقف بين يَدَي الله في موقف الحساب وفَصْل القضاء يوم الدّين.

❁ ❁ ❁

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

فأقْسَمَ الله عزّ وجلّ بِرُبُوبيّته، على أنّه لا بُدَّ أَنْ يَسْأَل يوْمَ الدِّينِ في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء، جميع الّذين كانوا موضوعين موضع الامتحان في الحياة الدنيا عَمَّا كانوا يَعْمَلُونَ فيها.

ومعلومٌ أن السؤال عن الأعمال مقدّمة للمحاسبة عليها، وقَدْ يدخل الله بعض عباده الصالحين الجنّة بغير حساب.

❁ ❁ ❁

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجل في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

يَعْرِضُ مشهداً من مَشَاهد يوْمِ الدِّين الخاصّ بالكفَرَةِ المكذّبين:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

فأبان هذا النَّصُّ أنَّ المكذبين بيوم الدِّين، يُحْشَرُونَ ويُوجَّهون لسلوك صراطٍ ممتدّ إلى جهة الجحيم دار عذابهم، ويُوقَفُون في مكان قريب منها، وفي هذا المكان تُعْقَدُ مُحاكَماتُهُمْ، وفيه يُسْأَلُون.

ويقال لهم على سبَيلِ التوبيخ: مَا لَكُمْ لاَ تَتَنَاصَرُونَ؟ أي: ما هو الشيءُ الّذي ظهَرَ لَكُمْ فغيَّرَ مَا كُنْتُمْ عليه في الدنيا من ادّعاء التناصر فيما بَيْنَكُم، إنَّكُمُ اليَوْمَ عاجِزُون مُسْتَسْلِمون لا يَنْصُر بَعْضُكُمْ بعضاً.

❁ ❁ ❁

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرفِ/ ٤٣ مصحف/ ٦٢ نزول) بشأن الذين زَعَمُوا أَنّ الملائكة إنَاثٌ وأَنَّهُمْ بناتُ الله:

﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾﴾.

فأبان هذا النّصّ أَنَّ الّذين يَزْعُمونَ أنَّ الملائكة الذين هم عِبادُ الرَّحمن إناث، مطلوبٌ منهم أن يُقَدِّموا شَهَادَتَهُمْ بذلك، وهٰذِهِ الشَّهَادَةُ يجب أن تكُونَ مستندة إلى مُشَاهدة. لكن هذه المشاهدة متَعَذِّرةٌ بالنسبة إليهم، لأنَّ الملائكة من عالم الغيب الّذي لا يَشْهَدُون منه شيئاً.

فإن قالوا نشهَدُ شهادةً مستندةً إلى علم شهوديٍّ بأنّ الملائكة إناثٌ، وهم كاذِبُون، فَسَتُكْتَبُ شهادَتُهُمْ، في صُحُفِ أعمالهم، وسَوْفَ يُسْأَلُونَ عنها يَوْم الدِّين لمحاسَبَتِهِمْ على الكَذِبِ فيها.

ويقاسُ على هذه القضيَّةِ كُلُّ القضايا الغيبيَّةِ، الَّتي يَدَّعي الكذَّابُون فيها أُمُوراً لاَ عِلْمَ لهم بها، فإنَّها تُكْتَبُ عليهم، وسوف يُسْأَلُونَ عَنْها يوم الدين، وسَوْفَ يحاسَبُونَ عليها في محكمة العدل الرَّبّانية.

فلا يجوز لإنسان أن يَفْتَئِتَ على عالَمِ الغيب من عنده، بتَصَوراتٍ يَدَّعيها دُونَ عِلْمٍ مِنْ خَبَرٍ عن الوحْي صادقٍ، أو مُشَاهَدَةٍ حِسِّيَّةٍ، أو دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ.

❋ ❋ ❋

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) أيضاً، خطاباً لرسوله محمّد ﷺ فلِقَوْمِهِ من العرب:

﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

أي: فاسْتَمْسِكْ بالْقُرآن، عَامِلاً بما جَاءَ فِيه فِعْلاً أو تَرْكاً، سَالِكاً

صِرَاطَه، إنَّكَ على صراطٍ مستقيم بالعمل بما جاء فيه، في اعْتقادِكَ، وعَمَلِكَ، ودَعْوَتِكَ.

وإنَّ هذا القرآن بما فِيهِ من كمالٍ في معانيه وفي مبانيه، كِتابٌ مُعْجِز، وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ ولِقَوْمِك، أيْ: لشَرَفٌ عظيمٌ لك ولقومِكَ الْعَرَب، إذْ أُنْزِلَ بلُغَتِهِمْ وَلِسانهم، فينْبَغِي أنْ يكُونَ محْفُوظاً، مذكوراً للتدبُّر وللعمل، وهذا الذكْرُ لَهُ يكون في الألْسِنَةِ، والأذهان، والقلوب.

وسَوْفَ تُسْألُونَ يَوْمَ الدين عنه، ولا بُدَّ أنْ يتعلَّقَ هذا السؤال بالاستجابة لدعوتِهِ، والْعَمَل بما جاء فيه، وحفْظِهِ من الضَّيَاع، وتَدَبُّرِه وَفَهْمِ مَعَانِيه.



النّصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) بشأن المشركين، الذين يَفْتَرُون على الله، في أحكام الحلال والحرام الّتي هي من خصائص ربُوبيّة الرَّبّ جلّ جلاله، فيَجْعَلُونَ لشركائِهِم من الأصنام نَصِيباً من الحَرْثِ والأنْعَام، فيقولون: هذا للّهِ، وهذا لشركائنا.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

فأقسم الله تباركَ وتعالى باسمه الجليل: ﴿تَاللَّهِ﴾ على أنَّهم لاَ بُدَّ أن يُسْأَلُوا يوم الدّين عمّا كانوا في الحياة الدنيا يَفْتَرُونَ علَىٰ الله من شرك، وما يفترون عليه من أحكام الحلال والحرام، الّتِي هي من خَصَائص الرَّبّ جلّ وعلا.

ويقاسُ على هذه القضيَّةِ كُلُّ افتراءٍ في دين الله، بأحكامٍ وتَشْرِيعَاتٍ دِينِيَّةٍ لم يأذَنِ الله بها.

❀ ❀ ❀

النص العاشر:

قول الله عزّ وجل في سورة (النحل/١٦ مصحف/٧٠ نزول) أيضاً خطاباً للناس:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾.

أي: ولو شاء الله أن يجعلكُمْ أُمَّةً واحدةً، لسَلَبَكُمُ اختياراتكُمْ الحرَّة، فَكُنْتُمْ مؤمنين جَمِيعاً، ومُطِيعين له بالجَبْرِ، ولكن تَنْعَدِمُ بذلك حكْمَةُ تَكْرِيمِ الإنْسَانِ بالإرادة الحرَّة، وبِجِهَازِ المعرفةِ وبوسَائله للوصول إليها، وتَنْعَدِمُ حِكْمَةُ وَضْعِ الإنسانِ في الحياة الدُّنيا موضع الامتحان.

لذلك لم يَشأ الله ذَلِكَ، بلْ شَاءَ أَنْ يجعلَكُمْ مُخَيَّرِينَ مُمْتَحَنِين، ومع التخيير والامتحان المستوفي شروطَه، لا بُدَّ أَنْ يَضِلَّ منكُمْ ضالُّون باختيارهم الحرّ، ويَهْتَدِيَ مِنْكُمْ مُهْتَدُونَ باختيارهم الحرّ.

وسوف تُعْرَضُونَ على محكمة الفضْل والعدل الرَّبّانيّة يوم الدين، واللَّهُ رَبُّكُمْ هو الذي يَقْضِي لكُمْ أَوْ عَلَيْكُمْ، ويُصْدِرُ أحكامَهُ المستندة إلى فضله، أو المستندة إلى عَدْله، فَمَنْ كان ضالاً في الدنيا حكَمَ اللَّهُ عليه بالضلالة، فأضَلَّه، ومن كان مُهْتَدِياً حكَمَ له بالهدَايَةِ، فَهَدَاهُ، وكلُّ ذَلِكَ يكونُ بِمَشِيئَتِهِ المطلقةِ الَّتِي لا تُفَارِقُ حِكْمَتَهُ سبحانه وتعالى، لأنّ صِفَاتِه جَلَّ جَلالُه متكاملَةٌ فيما بينها، لا تَنَافُرَ فِيها وَلاَ تَشَاكُس، فلا تطْغَىٰ مشيئته المطلَقَةُ على حِكْمَته.

وعند المحاكمة تُعطَوْنَ فُرْصَةَ الدِّفَاع عَنْ أنْفُسِكُمْ، في محكَمَةٍ عادلة مستوفيةٍ شُروطَ العدل الكامل، ومنها أنْ تُسْأَلُوا عن أعمالكم لإدانَتِكُمْ بها، أو الحكْمِ لكم بالهداية.

وسؤالكم يكونُ مقترناً بكُلّ مقتضَيات الإثبات والدفاع:

﴿... وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: وأُقسِمُ مؤكّداً لكم خبري بأنَّكُمْ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَ الدّين، عمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ في رِحْلَةِ امْتِحَانِكم في الحياة الدنيا.



النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

أي: بل اتّخذ المشركون من دون الله آلِهَةً من الأرض، وهؤلاء الآلِهَةُ يُحْيُونَ الموتَىٰ، فينشُرُونَها من أجداثها؟

إنّ الإلَهَ لا يَصْلُحُ لأَنْ يكون إلَهاً يُعْبَدُ مَا لَمْ يَكُنْ رَبًّا، ولا يكونُ رَبًّا من لم يَكُنْ من قُدْرَاتِه إحياءُ الموتى.

هذا دليلٌ على نفي الأرباب الآلِهَةِ مِنْ دُونِ الله.

والدليل الآخر: لو كان يُوجَدُ في السَّمَاوات والأرض آلِهَةٌ هِيَ أربابٌ حقًّا، يَخْلُقُونَ ويُحْيُونَ الموتَىٰ، ويَتَصَرَّفُونَ في أحداثِ الكَوْنِ لفَسَدَتا، بمقتضى تعارُضِ إراداتِ الآلِهَةِ الأَرْبَابِ، حول تصاريف السَّمَاواتِ والأرض.

فسُبْحانَ رَبّ الْعَرْشِ الجامِعِ للسماواتِ والأرض عَمّا يَصِفُ المشركون، مِنْ جَعْلِ آلِهَةٍ أَرْبَابٍ شُرَكَاءَ لِلَّهِ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سلطانُه، وهي ليست في الحقيقة أرْبَاباً فلا إلَهِيَّةَ لَهَا لزوماً عَقْلِيًّا، ولَيْسَ لها مشاركةٌ لِلَّهِ الرَّبِّ الإلَه في شيء.

إنَّ الرَّبّ الإلَه من صفاته أنَّه لاَ شيءَ فَوْقَه وَلاَ شيءَ في منزلَتِه، حتَّىٰ يَسْأَلَهُ عَنْ أفعَالِهِ وَيُحَاسِبَهُ عَلَيْها.

بخِلاف مَنْ هُمْ دُونَ الله، فكُلُّهم مخلوقون له، وهو رَبُّهُمْ، وهُمْ عبادُهُ، وهُمْ مَسْؤولونَ تُجَاهَهُ عن أفعالِهِمْ، إذا كانت لهم إرادات حُرَّةٌ يختارون بها ما يَشاءُون من خَيْرٍ أو شرّ.

فلا يصْلُح وَاحِدٌ مِنهُمْ أَنْ يَكُونَ إلَهاً يُعْبَدُ من دُون الله، فالآلِهَةُ الّتي يَتَّخِذُها المشركون، من الأنبياء والملائكة، والصُّلَحَاء، وَمَنْ تَرْمُزُ إليهم الأوثان، كُلُّهُمْ يُسْأَلُونَ بَيْنَ يَدَي اللَّهِ عن أفْعَالهم.

فعمَّمَ هذا النَّصّ ببيان أنَّ كُلَّ مَنْ لَهُ فِعْلٌ اختياريٌّ، هُو مُعَرَّضٌ للسؤال في محكَمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانية، حتَّىٰ الأنبياء والمرسلون، ولهذا تَعرَّضَ عيسَىٰ عليه السَّلام للسؤال الّذي أبانه الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾.

❁ ❁ ❁

النصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

في هذا النَّصّ حكايَةُ طَرِيقَةٍ من الإقناع اتَّخذَها الّذِينَ كفَرُوا لإضلال

الّذين آمنُوا، ولِجَعْلِهم يَتّبعُون سبيلَهم في الشرْكِ والْوَثَنِيّة والجاهلية والضلالة العمياء، فزعموا لهم أنّهم يلْتَزِمُونَ بتحمُّلِ خطاياهُمْ عَنهُمْ مُلْزِمينَ أنفسهم بذلك، إذا كانَ اتّباعُهم سبيلَهُمْ مِنْ شَأنه أن يُحَمّلَهم خَطايا عنْدَ رَبّهم، والحقيقةُ أنّهم كاذِبُونَ بادّعائهم هذا الإلْزامَ لأنفسهم.

إنَّهُمْ يَوْمَ الحساب، وفَصْل القضاء، وتنفيذ الجزاء، يتبَرَّؤُونَ منهم، ويتَهَرَّبُونَ من تحمُّلِ شيءٍ من خطاياهم، وخطايا كُلِّ الذين يتّبعونهم على ضلالهم، وهذا حالُ كلّ المتْبُوعِين والقادَةِ المضلّين.

وقاعدة الجزاء عند الله أنْ لا تَزِرَ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ. ولكِنَّ الْمُضِلَّ يَحْمِلُ أَثقالَ أوزارِهِ الخاصَّةِ به، وأثقالَ أَوْزار إضلالِهِ للآخَرين، وهٰذا من كسْبِه، لكنَّهُ لاَ يَحْمِلُ شيئاً من أوْزار ضَلاَلِ الآخرين الّذين استجابوا له، لأنّ استجابَتَهُمْ له قد كانت من كَسْبِهم لاَ مِنْ كسْبِه، فهي من أوزارهم لا من وزْره.

وقد أقْسَم الله على هذا بقوله:

﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾.

ولمَّا كانت عقائدُهُم الكُفْرِيَّة، وأحكامُهُمْ في العبادات وفي شُؤونِ الحلال والحرام، هي من قبيل الافتراءِ على الله، فإنَّهُمْ سَوْفَ يُسْأَلُون عنها، وسوف يحاسَبُونَ علَيْها ويجازَوْن، فقال الله عزّ وجلّ مؤكّداً بالقسم وبنون التوكيد الثقيلة.

﴿... وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾.



النّصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً لرسُوله محمدّ ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾.

فأبان الله عزّ وجلّ لرسوله أنّه ليسَ مكلّفاً تحويلَ النّاس من الكفر إلى الإيمان والإسلام، وأنّ وظيفتَهُ قاصرةٌ على التبليغ والنُّصح، وبيان ما أنزل الله إليهم، والتذكير به، ولهذا فهو لا يُسْأَلُ عن أصحاب الجحيم، ولا يُقالُ له: لِمَ لَمْ تَعْمَلْ على تحويلِهِمْ بالإكْراهِ، ليكونوا من أصحاب الجنَّة.

❁ ❁ ❁

النص الرابع عشر:

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) أيضاً، خطاباً للْيَهُودِ بِشَأْنِ إبراهيم وإسماعيل وإسْحاق ويعقوب والأسْباط، في موضعين منها:

﴿تِلۡكَ أُمَّةٞ قَدۡ خَلَتۡۖ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَلَكُم مَّا كَسَبۡتُمۡۖ وَلَا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٣٤﴾.

والموضع الآخر هو الآية (١٤١).

أي: إنَّ مسؤوليَّةَ كُلّ إنْسَانٍ هي مَسْؤُوليةٌ شَخْصِيَّةٌ بَيْنَهُ وبَيْنَ رَبّه، فهو يُسْأَلُ عن إيمانه وإسلامه، وعَمَلِه، وَلا يُسْأَلُ عن غَيْرِهِ وَلَو كان أقرب الأقربين إليه.



النصّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول):

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧ لِّيَسۡـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدۡقِهِمۡۚ وَأَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمٗا ٨﴾.

أبان هذا النّصّ أنّ الله عزَّ وجلّ أَخَذَ من النبيين الميثاقَ، على أنْ يُبَلِّغُوا أُمَمَهُمْ مَا أَمَرَهُمْ بتَبْلِيغِه للنّاس، ممّا أنزل إليهم وشدَّد الميثاق الغليظ علىٰ أولي العزم منهم: محمّد ونوح وإبراهيم وموسَىٰ وعيسَىٰ ابن مريم، علَيْهم الصلاة والسلام.

ومع أخذ الميثاق على النبيّين، ومع كونهم صادقين، فإنّ الله عزّ وجلّ سوف يسْأَلُهُمْ يوم الدّين، عن تبلِيغهم مَا أمَرهم بتبليغِه للناس، وعن صِدْقهم في كلّ صغيرة وكبيرة بلَّغُوها، مُقَدِّمة لمحاكمة الّذين تَبَلَّغُوا ما أَنْزَلَ الله للناس، فَكَفَرُوا بِه وَكَذَّبوا رُسُلَ رَبّهم.

ومن أجل هذا جاء في هذا النصّ قولُ الله عزّ وجلَّ مبيّناً سؤالَ الرسُل الصَّادقين عَنْ قيامهم بمهمّاتِهم، وعَاقِبَةَ الَّذِينَ كفرُوا بما جاءُوهم به بلاغاً عن ربّهم، وهذه العاقبة هي العذاب الأليم:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾.



النص السادس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) أيضاً، بشأن المنافقين وَنَقْضِهِمْ مَا عَاهَدُوا الله وَرَسُولَهُ عَلَيْهِ أن لاَ يُوَلُّوا الأَدْبارَ عند القتال:

﴿وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾﴾.

أَسْنِدَتِ المسؤولية للعهد وهي لمن أَعْطَىٰ العهد، على طريقة المجاز العقلي، وقد سبَقَ تحليل نظير هذه العبارة في النصّ الرابع من هذا الملحق.

وقد أبان هذا النصّ أنّ من عاهد الله، ولو عن طريق معاهدة الرسول

أو قائد المؤمنين، على أَمْرٍ من أمور الْخَيْرِ، يَصِيرُ وَاجباً عليه، ولَوْ لم يكن واجباً عليه قبل المعاهدة، ولذلك فهو يُسْأَلُ عَنه يَوْمَ الدّين في محكمة العدل الرَّبَّانية إِذَا لم يَفِ به.

إشكالٌ وَحلُّه:

أمّا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾:

فهو بيانٌ بشَأنِ إِهْلاكِ النّاس عنْدَ انْتَهاءِ نِظَام الحياة الدُّنيا، وقَدْ ثَبَتَ أَنَّ القيامة تَقُومُ وليْسَ في الأرض من يَقُولُ الله، وعند إهلاكهم بأحْدَاثِ يَوْمِ القيامَةِ لاَ يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ.

فَنَفْيُ السُّؤَال هنا لا يتعلّقُ بالسؤال الّذي يكونُ مُقَدِّمةً للحساب، وفَصْل القَضَاءِ، تمهيداً لتحقيق الجزاء.

سؤال الشهود يوم الدين

إنّ سؤال الرُّسل يوم الدّين يكون لتقديم شهادَاتِهم، بأنّهم بلّغُوا رَسَالاَت ربهم، وأَدَّوْا أمانَاتِهم، ونَصَحُوا لأمَمِهِمْ، وَبَيَّنُوا لهم، وتَابَعُوا تَذْكِيرَهُمْ، على مقدار اسْتطاعاتهم.

وكذلك سؤال الشّهُودِ من حملة رسالاتِ الرُّسُل وَتَبْلِيغها للنّاس في عُصُورِهِمْ.

هذه القضية قد جاء بيانها من أطرافها في عدّة نصوص قرآنية، أعرضها بشيء من التدبر فيما يلي:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المزّمل/ ٧٣ مصحف/ ٣ نزول) خطاباً للناس:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

فوصف الله جلّ جلالُه رسولَه محمّداً ﷺ في هذه الآية بأنَّهُ شَاهِدٌ، أيْ: هو مُبلِّغُ دِينَ رَبّه لمَنْ لَقِيَهُ مِنَ الأمَّةِ الّتي بَعَثَهُ الله لِتَبْلِيغِها دينَ رَبّها، وهم كُلُّ الناس بعد بعْثته، إذْ هُمْ أُمَّةُ بلاغه، فقد أرسله الله للناس كافَّة، وإذْ قد بلَّغ مَا أنزل الله إليه من رسالة، وأدَّىٰ الأمانة، ونصح الأمَّة، فإنَّ الله عزّ وجلَّ يأتي به يوْمَ القيامَةِ شاهداً على الناس بما أوصله إليهم من بَلاغِ أَمَرَهُ الله بِهِ.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذه الآيَة، أَنَّ موسَىٰ عليه السلام يأتي به اللّهُ شاهداً على فِرْعَوْنَ وعلَىٰ آلِهِ وعلى كلِّ من بلَغَتْهُ دَعْوته في زمانه، واقتصر النصّ على فِرْعَوْنَ، لأنَّه كانَ كلَّ قَوْمِهِ في مِصْر، لاَ رأيَ لهم إلاّ رَأْيُه، ولاَ دِينَ لَهُمْ إلاَّ مَا يَخْتَارُهُ لهم، ويَفْرِضُهُ عليهم.



النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلَّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾.

فدلَّ هذا النّصّ على أنَّ كلّ أمَّةٍ قد بَعَثَ الله فيها رسولاً من أَنْفُسِها، فهو يَشْهَدُ عليها يوْمَ القيامة، بأنَّه قد بلّغها رسالةَ رَبّه، وأدّىٰ الأمانَةَ، ونصَحَ أمّته، وبيّنَ لها ما أَنْزَلَ الله إليها.

وخاطب الله عزّ وجلّ في هذا النّصّ رسولَه محمّداً ﷺ بقوله له:

﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾.

أي: وجئنا بك شَهيداً على أمّتِك، وهم جَميع النّاسِ بَعد بِعْثَتِكَ، باعتبارهم أُمّةَ بَلاغِكَ، وشَهادَتُهُ تكونُ على من بلّغَهُمْ مباشرةً في حَيَاتِه، والدُّعاةُ إلى الله من أمّتِهِ يَشْهَدُون على من بلّغُوهُمْ، فشهاداتهم تابعات لشهادته.

أمّا أمّةُ الإجابَةِ فهم من آمَنَ بالرَّسول ﷺ، وأسْلَم، وأَعْلَنَ قَبُولَهُ واتّباعَهُ لِمَا أَنْزَل اللّهُ إليه ليُبلّغَهُ للناس.



النّص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للذين آمَنُوا بمحمّد ﷺ واتّبَعُوه:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ... ﴿١٤٣﴾﴾.

لمّا كان أتباع الرَّسُول المؤمِنُونَ به مُكَلَّفِينَ أَنْ يُبَلِّغُوا ما تَلَقَّوْهُ عن الرسول من بلاغاتٍ عَنْ رَبّه، ليَعُمَّ بَلاغُ ما أَنْزَلَ اللّهُ للنّاس جميعَ النّاسِ، خاطَبَ الله عزّ وجلّ أمّةَ مُحمَّدٍ الّذين أَجابُوا دَعْوَتَه بقولِهِ:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ...﴾.

أي: جعلْنَاكُمْ أُمّةً عُدولاً بالنظر إلى مجموعكم، لا إلىٰ جميعكم ولا إلى كُلّ فَرْدٍ منكم، لتبليغ الدِّين للناس، محفوظاً كما بلّغَكُمْ الرَّسُولُ إيّاه، ثُمّ لِتُدْعَوْا يَوْمَ القيامة حتّىٰ تُؤَدُّوا الشّهادة علىٰ الناس، بأَنّكُمْ بلّغْتُموهم مَا أَنزَلَ الله إليهم.

وقَدْ دَلَّت على هذا المعنى عبارَةُ: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾:

أي: فَلَما أَنَّ الرَّسُولَ يَشْهَدُ على مَنْ تَبَلَّغ رسالَتَهُ مِنْ أمَّتِهِ، بأنّه بلّغَهُمْ رسالة ربّه، فأمَّةُ الإجابة مكلّفَةٌ أَنْ تُبَلِّغ، وسوف يُدْعَىٰ المبلِّغُونَ من هذه الأمَّة إلى الشهادَةِ يَوْمَ الدِّينِ علَىٰ مَنْ بلَّغُوهم من الناس.



النّص الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾؟.

روى البخاريّ عن عبد الله بن مَسْعُودٍ قال: قالَ لي رسوُلُ اللّهِ ﷺ: «اقْرأ عَلَيَّ».

فقلتُ: يَا رَسُولَ الله، أقرأُ علَيْكَ، وَعَلَيْكَ أُنْزِل؟!

قال: «نَعَمْ، إنِّي أُحِبُّ أَنْ أسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي».

فقرأتُ سورة (النساء) حتَّىٰ أَتَيْتُ إلى هٰذِهِ الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾؟

فقال: «حَسْبُكَ الآن» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذْرِفَان.



النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ

لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ ۖ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾.

فأبان هذا النصّ أنّ الله عزّ وجلّ قَدْ اجتبَىٰ الأمّة الإسلاميّة، من دُون سائر الأُمَم الّتي سبقَتْها، ليُبَلِّغوا النَّاسَ مَا أَنْزَل الله إِلَيْهِم، وليكونُوا شُهَداءَ على النّاس بهذا التّبليغ يَوْمَ القيامة، ولا سِيَّما من كان منهم من سلالة إبراهيمَ عليه السّلام، إذْ قال الله عزّ وجل فيه:

[مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ].

ومعلوم أنّ العَرَبَ المسْتَعْربة هم من سُلالة إسماعيل بْن إبراهيم عليهما السّلام، وكذلِكَ بنو إسْرَائيل، وشعوبٌ أخْرَىٰ هم من سلالة إبراهيم عليه السلام في بلاد الشّام وغيرها، فمن آمَنَ بمحمَّد ﷺ منهم واتّبَعَهُ، كانَ مُرَشَّحاً لأنْ يكونَ من الّذين اجتباهُمْ الله لحمْلِ رسالة الرَّسُول وَتَبْلِيغها للناس.

❀ ❀ ❀

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول) خطاباً لِنَبيِّهِ محمَّد ﷺ:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾.

﴿وَسِرَاجًا﴾: أي: كالشَّمْسِ الْمُمِدَّةِ بالحرارَةِ والضِّياء، الذي يَنُوِّرُ الكواكب.

﴿مُّنِيرًا﴾: مِنْ فعل: «أَنَارَ» المتعدّي، والمعنى أنه يُمِدُّ من لَقِيَهُ مؤمِناً بِهِ مُتَّبِعاً لما جاءَ به عن ربّه بِنُورٍ مِنْ ضيائه، كَمَا تُمِدُّ الشَّمْسُ القَمَرَ بالضياء.

❁ ❁ ❁

النصّ السابع:

قولُ الله عزّ وجل في سورة (الفتح/٤٨ مصحف/١١١ نزول) خطاباً لرسوله وللنّاس بعْدَ بِعْثَتِه:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾﴾.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾: أي: وَتعِينُوهُ وَتَقوُّوه وَتَنْصُرُوه.

﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾: أي: وَتُعَظِّمُوهُ وَتُبَجِّلُوهُ، وَتُثْنُوا عليه.

﴿بُكْرَةً﴾: البُكْرَة، أوّل النهار إلى طلوعِ الشمس.

﴿وَأَصِيلًا﴾: الأَصِيلُ، هو الوقت الذي يكون من حين اصفرار الشمس إلى غُرُوبِها.

وتَسْبِيح الله تنزيهه عن كلّ ما لا يليق بكماله، والعبارةُ المخْتَارة للتَّسْبيح: «سُبْحَانَ الله».

❁ ❁ ❁

ممّا جاء في السُّنة حول السُّؤال يوم الدين

(١) روى مُسْلِمٌ وغَيْرُه، عن أبي بَرْزَةَ الأسْلَمِيِّ قَال: قال رَسُول الله ﷺ:

«لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ

أَفْنَاه؟ وعَنْ جَسَدِه فِيم أَبْلاَهُ؟ وعَنْ عِلْمِهِ مَا عَمِلَ فِيه؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وفِيمَ أَنْفَقَهُ؟».

«**لاَ تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ**»: أي: لا تَنْتَقِل قَدَماهُ عن مَوْقِفِ السؤال والمحاسبة.

(٢) وجاء في خُطْبَةٍ خطَبَها الرَّسُول ﷺ في حجَّة الوداعِ يوْمَ النحر، فيما روىٰ البخاري عن أبي بَكْرَةَ، أنَّ الرسُولَ ﷺ قال فيها:

«وَسَتَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُم».

(٣) ورویٰ البخاري عن صَفْوانَ بْنِ مُحْرِزٍ، أَنَّ رجُلاً سَأَلَ ابْنَ عمر، كيف سمِعْتَ رسُول الله ﷺ يقول في النَّجْوَىٰ؟

قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول:

«يُدْنَىٰ الْمُؤْمِنُ مِنْ رَبِّهِ حَتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ[1]، فَيُقَرِّرُه بِذُنوبه: تَعْرِفُ ذَنْبَ كذا؟ يَقُولُ: أَعْرِف، يَقُولُ: رَبِّ أَعْرِفُ (مَرَّتَيْنِ). فيقول: «سَتَرْتُهَا في الدُّنيا، وأَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ» ثُمَّ تُطْوَىٰ صَحِيفة حسناته.

وأمَّا الآخَرُونَ ـ أَوِ الكُفَّارُ ـ فَيُنَادَىٰ علىٰ رُؤُوسِ الأَشْهَادِ: هٰؤُلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ».

ورواه مُسْلِمٌ عن صَفْوَانَ بْنِ مُحْرِزٍ أيضاً: قال: قال رجُلٌ لابْنِ عُمَر: كَيْفَ سَمِعْتَ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَىٰ؟. قال: سَمِعْتُهُ يقول:

«يُدْنَىٰ الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ، حتَّىٰ يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنوبه، فيقولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فيقولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ. ـ قال: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ في الدُّنيا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْم، فَيُعْطَىٰ صَحِيفَةَ حَسَنَاتِه،

---

(١) كنَفَه: أي: سِتْرَهُ.

وأَمّا الْكَافِرُونَ والْمُنَافِقُونَ فيُنَادَىٰ بِهِمْ عَلَىٰ رُؤُوسِ الْخَلاَئِقِ: هٰؤلاَءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ الله».

(٤) وروىٰ مسلم عن أبي ذَرّ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ:

«يُؤْتَىٰ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اَعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وتُخَبَّأُ كِبَارُهَا، فَيُقَالُ لَهُ: عَمِلْتَ يَوْم كَذَاَ وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا، ثَلاَثَ مَرَّات.

قَالَ: وهُوَ يُقِرُّ لَيس يُنْكِرُ.

قالَ: وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكَبَائِرِ أَنْ تَجِيءَ.

قال: فَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْراً قَالَ: أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً.

فيقول حِينَ طَمِعَ: يَا رَبِّ إِنَّ لِي ذُنُوباً مَا رَأَيْتُهَا هَا هُنَا.

قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ[١]، ثُمَّ تَلاَ: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ﴾ [٢].

(٥) وذَكَر القرطبي[٣] في التذكرة، قال: وخَرَّجَ أبو الْقَاسِمِ إسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْخَتْلِيّ، فِي كِتَابِ الدِّيبَاجِ له: حَدَّثَنَا هَارُونُ بْنُ عبد الله، قال: حَدَّثَنَا سَيَّارٌ، قال: حدَّثَنا جَعْفَرُ، قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجُونِي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَة، قَال:

«يُدْنِي اللَّهُ الْعَبْدَ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ، فَيَسْتُرُهُ مِنَ الْخَلاَئِقِ كُلِّهَا، وَيَدْفَعُ إِلَيْهِ كِتَابَهُ فِي ذَلِكَ السِّتْرِ، فَيَقُولُ له: اقْرَأْ يَا ابْنَ آدَمَ كِتَابَكَ.

قال: فَيَمُرُّ بِالْحَسَنَةِ فَيَبْيَضُّ لها وَجْهُهُ، وَيَمُرُّ بالسَّيِّئَةِ فَيَسْوَدُّ لَهَا وَجْهُهُ.

---

(١) **النواجذ:** الأضراس، مفردها «ناجذ».

(٢) من الآية (٧٠) من سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول).

(٣) هو شمس الدّين أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري.

قال: فيقولُ الله تَعَالَىٰ له: أَتَعْرِفُ يَا عَبْدِي؟

قال: فَيَقُولُ: نَعَمْ يَا رَبِّ أَعْرِفُ.

قال: فَيَقُولُ: إِنِّي أَعْرَفُ بِهَا مِنْكَ، قَدْ غَفَرْتُهَا لك.

قال: فَلاَ تَزَالُ حَسَنَةٌ تُقْبَلُ فَيَسْجُدُ، وَسَيِّئَةٌ تُغْفَرُ فَيَسْجُدُ، فَلاَ يَرَىٰ الْخَلاَئِقُ مِنْهُ إلاَّ ذَلِكَ، حِينَ يُنَادِي الْخَلاَئِقُ بَعْضُهَا بَعْضاً: طُوبَىٰ لِهَذَا الْعَبْدِ الَّذِي لَمْ يَعْصِ قَطُّ، وَلاَ يَدْرُونَ مَا قَدْ لَقِيَ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَىٰ مِمَّا قَدْ وَقَفَهُ عَلَيْهِ».

(٦) وَيَدْخُلُ فِيما يُسْأَلُ عَنْهُ الإِنْسَانُ في مَوْقف الحساب وفَصْلِ القضاء يَوْمَ الدِّين، رَعِيَّته الَّتي كان يَرْعَاهَا في الدنيا، وَكَان يُطالَبُ نحوَهَا بواجِبَاتِ حِفْظٍ ورِعَايَةٍ، أَوْ تَرْبِيَةٍ وَتَوْجِيهٍ، أَوْ نُصْحٍ وَمَعُونَةٍ، أَوْ نَفَقَةٍ وَخِدْمَة.

رَوَىٰ البخاريّ ومسلمٌ وغَيْرُهُما عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَر، أَنَّ رسُول الله ﷺ قال:

«كُلُّكُم رَاعٍ، وكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالإِمَامُ رَاعٍ، وهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ، وهُوَ مَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، وهي مَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ، وهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

أي: فإنْ قَصَّرَ، أو خَانَ الأَمانة، أو هَضَمَ الحقوقَ الَّتِي تَجِبُ عَلَيْهِ نَحوَ رَعِيَّته، حُوسِبَ علَىٰ ذَلِكَ، وَكَانَ عُرْضَةً لِلْجَزاءِ بِالْعَدْلِ عَلَىٰ مِقْدَارِ ما اكْتَسَبَ مِنْ إِثْمٍ، وَكُلُّ ذَلِكَ يكُونُ في محكمَةِ الْعَدْلِ الرَّبَّانِيَّةِ يَوْمَ الدِّينِ، يَوْمَ الجزاء الأكبر.

(٧) وثبت في الصَّحيح، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُكَلِّمُ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ يَوْمَ

الْقِيامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمان، وظاهِرٌ أَنَّ هذا يكون عِنْدَ سُؤَالِهِ في مَوْقِفِ الْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ.

فقد رَوى البخاري ومسلم والإمامُ أحمد والتّرمذيُّ والْبَيْهَقِيُّ، عن عَدِيّ بْنِ حَاتِمٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قال:

«مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلاَّ سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ القيامَةِ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ فَلاَ يَرَىٰ إلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلاَ يَرَىٰ إلاَّ مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَلاَ يَرَىٰ إلاَّ النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، وَلَوْ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ».

وأَكْتَفِي بهذا القدر حول السؤال في محكمةِ العدل الرَّبَّانِيّة يوم الدِّين، والحمد لله على فَتْحِهِ وتَوفِيقِه ومَعُونَتِه.



(١٩)
الملحق الثالث
الوزن في محكمة العدل الرّبّانية يَوم الدين

من عناصر محكمة الفضْل والعدل الرَّبَّانيَّة، الّتي تُعْقَدُ للحساب وفصْل القضاء يوم الدِّين، الوزْنُ بالموازين الكاشِفَةِ الضَّابِطة للمقادير على ما سبَقَ شرْحُهُ وتفصيله لدىٰ تدبّر الآيَتَيْن (٨ ـ ٩) من سورة الأعراف.

واستِكْمَالاً للبحث في هذا الموضوع، أَسْتَعْرِض بشيءٍ من التدبر في هذا الملحق، النُّصوصَ القرآنية الواردة في سُوَر القرآن كُلّه بشأن هذا الوَزْنِ.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القارعة/ ١٠١ مصحف/ ٣٠ نزول):

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾.

سبق تدبُّر هٰذَا النَّص لدَىٰ تَدبُّرِ سورة (القارعة) فلا حاجة إلى التَّوسُّع.

﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾﴾: أي: فأمَّا ثَقُلَتْ أَعْمَالُهُ الموزونَة بموازين الرَّحْمٰنِ يَوْمَ الدِّينِ، إذْ كانت إيجابيَّة الضغط، بِسَبَب مَا فِيها من قيمةٍ ذَاتِ ثِقَلٍ عند الله عزّ وجلّ، في موقف الحساب وفَصْل القضاء يوم الدِّين.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾: أي: فهو في حياة رَاضِيَةٍ بما تَتَقلّبُ فيه من نعيم مقيم، في جنَّاتِ النعيم.

وُصِفت في هذه العبارة العيشة بأنها رَاضية، مع أنَّ الراضي هو صاحب هذه العيشة، على طريقة ما يُسَمّيه البيانيُّون المجاز العقلي.

أو في عيشة ذَاتِ رضاً، بمعنَىٰ أنَّ صاحِبَها يَرْضَاهَا رِضاً تامًّا، فلا يَطْلُبُ زَائداً على ما هو مُنَعَّمٌ بِهِ فيها.

أو في عيشَةِ نَفْسٍ رَاضِية بِمَا تَتَقَلَّبُ فيه من نعيم مقيم، على تقدير مُضَافٍ محذوف هو لفظ «نَفْس».

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾﴾: أي: وأمَّا من خَفَّتْ أعمالُه الموزونة بموازين الرَّحْمٰنِ يوم الدِّين، إذْ كانَتْ سالبة الضغط، لكُفْرِه وسُوءِ أعماله في الدنيا، فلَمْ تُسَجِّلْ إشارات الموازين لَهُ ثِقلاً ما، لعَمَلٍ إرداِيٍّ صالِحٍ، مقبولٍ عند الله.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾:

﴿فَأُمُّهُۥ﴾: أي: مُسْتَقَرُّهُ الّذِي سوْفَ يصير إليه يوم الدين، وسَوْفَ يَسْتَقِرُّ فيه. والمكانُ الّذِي يضُمُّه ويَجْمَعُهُ مَعَ أمْثاله.

أُمُّ الشَّيْءِ في اللُّغَة: أصْلُه. وأُمّ رأسِ الإِنْسَانِ دِمَاغُهُ. وأُمُّ الدِّمَاغِ، الْجِلْدَةُ الّتي تَجْمَعُ دِمَاغَه.

قَال ابْنُ شُمَيْل: الأمُّ لكلّ شيءٍ المجْمَعُ والْمَضَمّ.

﴿هَاوِيَةٌ﴾: اسْمٌ من أسماء جهنَّمَ دَارِ العذاب يوم الدّين، سميت بهذا الاسم، لأنَّها ذَاتُ عُمْقٍ سَحِيقٍ يَهْوِي السَّاقِط فيه.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴿١١﴾﴾ في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بيانٌ شارح للمراد من كلمة ﴿هَاوِيَةٌ﴾: أي: هي ذَاتُ نارٍ حَامية. وسبق في مواضع متعدّدة شرح أمثال عبارة ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾﴾.

ويكفي لاستحقاق الإنسان أنْ يكون مصيرُهُ ومستقرُّهُ النّار الحامية يومَ الدّين، أنْ تَخِفَّ موازينُه، فلا يُوجَدَ فيها ما يُشِيرُ إلَىٰ مقدارٍ ما مِنْ عَمَلٍ صالحٍ مقبولٍ عند الله، في قَلْبه أو نفسه، أو آثَارِ عَمَلِهِما فِي جَسَدِه، بلْ طاشَتْ كلُّ مَوازينِهِ بما فيها من قُوَى سالبَةٍ شائِلَةٍ، فَسَجَّلَتْ عَلَيْه كُفْراً وأَعْمَالاً سيِّئَةً، هي من آثار الكفر وثمراتِه الخبيثات.

❁ ❁ ❁

النّص الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وقد سبقَ تَدَبُّر هذا النصّ باستفاضة في موضعه من السّورة، ونُلاحظُ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ أَضافَ في هذا النّصّ، بَيَانَ أَنَّ الْوَزْنَ عنْدَ الله يوْمَ الدِّينِ

وزنٌ حقٌّ، لا ظُلْم فيه وَلاَ جَوْر، لاَ طُغْيَانَ فيه ولا نقص، بل هو وزْنٌ مطابقٌ للموزون انْطِبَاقاً تامًّا، لا يَزِيدُ عليه وَلاَ يَنْقُصُ عنه مثقال ذَرَّةٍ، وهذا معنى كونه حَقًّا.

الحقُّ من القول هو القول المطابق للواقع، والحقُّ من الوزْنِ هو المطابق لقيمة الموزون تماماً، والحكْمُ الحقُّ هو المطابقُ لواقع حالِ المحكُوم لَهُ أو عليه، وهكذا.

ونفهَمُ من تَعْرِيف طرَفَي الإسْنَادِ في قول الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ معنَىٰ الحصْرِ، أي: لا يوجَدُ وَزْنٌ هو حقٌّ تماماً لأعمال العباد، إلاَّ وزْنُ محكمة العدل الرّبانيّة يوم الدين.

وفي هذا دلالَةٌ على أنَّ وزْنَ الْحُكّامِ والقضاةِ لأعمال النَّاس في الدنيا، مُقَدِّمةً لإصدار أحكام العدْلِ عليهم، إنَّما هو وزْنٌ تقريبيٌّ مَهْمَا تحَرَّوْا الحقيقة، وابْتَغَوْا كمالَ العَدلِ، وذلِكَ لأنّ المخلُوقِينَ لا يَمْلِكُونَ الموازينَ الّتي تُقَدِّر قِيَمَ أعْمَالِ النّاسِ الظاهرةِ والباطنة، فَيَحْكمُونَ بحَسَبِ ما يظْهَرُ لهم ويَتَرَجَّحُ لَدَيْهم.

أمّا الجزاء بعْدَ عمليّاتِ الإحصاء والوزْنِ والمحاسبة، فيكُونُ طِبْقاً لمِبْدَأي الفضل والعدل.

فالثوابُ على الأعمال الصالحة أدْناهُ يَصِلُ إلى عشرة أضعاف قِيمَةِ الحسناتِ الوزنيّة، ويزيد بفضل الله عزّ وجل إلى سبعين ضِعْفاً، ثُمَّ إلَىٰ سبعمائة ضِعْفٍ، فأضْعَافٍ كثيرة لا يَعْلَمُها إلاَّ اللَّهُ جلَّ جَلاَلُه، وعَظُمَ جُودُهُ وإحْسَانُه، وفَضْلُهُ وامْتنانُه.

والعِقَابُ على الأعمال السّيئة لا يزيد أعلاهُ على المجازاة بالمثل دون زيادة شيءٍ على ما يُعَادِلُ السّيئَة ويُساوِيها، وقد يغفُو اللَّهُ عزّ وجلّ، فَلاَ يُظْلَمُ عند الله عزّ وجل أحَدٌ، بصَغِيرٍ وَلاَ كَبير.

وَأَضافَ هذا النَّصُّ أيضاً بيانَ أَنَّ مَنْ ثَقُلَتْ موازِينُهُ أفْلَحَ، أي: ظَفِرَ بما يُرْضِيهِ من خَيْرِ الآخرة، وفاز بنَعِيم الجنَّة.

لفظ [مَنْ] في قوْلِ الله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ وقوله: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ اسْمُ موصولٍ يَصْلُحُ لأنْ يُسْتَعْمَلَ في الواحد فأكثر من العقلاء، وفي حالة استعماله مراداً به الجماعة، يجوز إعَادَةُ الضمير عليه بالمفرد، مراعاة لِلَفْظِه، ويجوز إعادة الضمير عليه بضمير الجمع، أو بإشارة الجماعة، مراعَاةً لمَعْنَاه.

وقد جَاءَت هنا مراعاة المفرد في الصّلَة، ومراعاة الجمع في الخبر، والحكمةُ من هذا الإجراء أنّ الوزْنَ والحِسَاب يكون لكلّ فَرْدٍ فَرْدٍ مستقِلاً عن غيره، أمّا الجزاء فيكون للجميع، فكان من الإيجاز البديع صياغَةُ المبتدأ بالمفرد، وصياغة الخبر بالجمع، وجاءت الفاء في جملة الخبر لما في المبتدأ من رائحة الشرط.

وجاءت الإشارة إلى المفلِحِينَ بإشارة البعيد، للدَّلالة على ارتفاع منزلتهم، وجاءت الإشارة إلى الخاسرين بإشارة البعيد أيضاً، ولكن للدّلالة على بُعْدِ تَسَفُّلِهِم المنحطّ في الدركات.

وأضاف هذا النصّ أيضاً أنَّ مَنْ خفَّتْ موازِينُهُ خَسِرَ نَفْسَه، إذْ صَارَ أَمْرُهُ إلَىٰ العذاب الدائم الأبديّ في جهنَّم، ومعلومٌ أنَّ من خَسِرَ نَفْسه فقد خَسِرَ كُلَّ شيءٍ، ولم يكُنْ له حظٌّ في شيءٍ.

وأضاف هذا النَّصُّ أيضاً أن الَّذِين خَسِرُوا أنفسهم يوْمَ الدّين، إنَّما خَسِرُوها بسبب ظلمهم بعَدَمِ اتِّبَاعهم آيات الله المنزّلاَتِ للناس، ليتَّبِعُوها، ويَعْمَلُوا بمقتضاها.

فليس بين النَّصَّيْن تكرارٌ تطابُقِيٌّ، وإنَّما هُما مُتَكاملان.

❁ ❁ ❁

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول): ضِمْن حكاية وصايا لُقْمانَ الْمُؤْمِنِ الحكيم الرَّبَّانِي لابْنه، ناهِياً له عن الشرك، وآمراً له بإقامَةِ الصلاة، وبالأمْر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى غير ذلك من وصَايَا الدّين الحقّ.

﴿يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٖ مِّنْ خَرْدَلٖ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِي ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦﴾.

إنّ ذكْرَ الله عَزَّ وجلّ لِوصَايا لُقْمان لابْنِهِ في كتابه، مع دَمْجِ بَعْضِ وَصَايَاهُ سُبْحَانَه أثْنَاءَها، يَتَضَمَّنُ دلالةً علَىٰ أنّها هِي في الأصْلِ وصايا رَبَّانِيّة، ممّا أنزلَه الله في الكُتُب الأولى، أو أوحَىٰ به إلى بعض رُسُلِه.

وقد دلّت هذه الآية على أنّ لقمانَ الحكيم قال في وصاياه لابْنِه: يا بُنَيّ متلطّفاً به ناصحاً، إنّها، أيْ: الكائنةَ في الوجود الكونيّ كلِّهِ وإنْ كانت كائِنةً صغيرة جدًّا، ومَهْمَا كانت صغيرة، ولو مِثْقَالَ حبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ، أي: مقدار وزن حبَّةٍ من خَرْدَلٍ، أصْغَرِ حبّاتِ الْبُزُور الّتي يَسْتَنْبتها الناس، فتَكُنْ في جَوْفِ صخرة مّا ولو في باطِنِ جبلٍ عظيم، أو تَكُنْ في السَّمَاوات وأبْعَادِها، أو في الأرض وأعْماقِها، وأرَادَ اللّهُ عزّ وجلّ أنْ يأتِي بها ويُحْضِرَها فإنَّهُ جلَّ جَلالُهُ، وعظُمَتْ قُدْرَته، وشَمَلَ عِلْمُه كُلَّ شيءٍ، يَأْتِ بها ويُحْضِرُها، لأنَّ الله عزَّ وجَلَّ لَطِيفٌ بقدرته وعِلْمه، المحيطين بكُلّ شيء في الوجود، خبيرٌ بإحضار ما يشاء متى شاء من أيِّ مكانٍ في الوجود كُلّه.

هذا البيان بمثابة كناية تحذيريّة، يُحَذِّرُ بها لقمانُ ابْنَهَ من الوقوع في المعاصِي صغارِها وكِبَارِها، ويُبَيِّن له فيها أنّ الله مُحِيطٌ بكلّ شيءٍ عِلْماً، وقدير على الإتيان بكلّ صغير وكبير من أيّ مكانٍ في السَّمَاواتِ والأرض.

وآثَر لقمانُ التَّفصِيل في ذكر الأمثلة، لأنَّ هذا التفصيل أكثر تأثيراً في النَّفسِ من ذِكْرِ الكلّيّاتِ العامَّة.

فالله سبحانه وتعالى خبير بعباده يَعْلَمُ مَا يَعْمَلُونَ عن خِبْرَة بِمَا يَقْصِدُونَ من أعمالهم الّتي يُكَرِّرُونها، إذْ هو سبحانه حاضرٌ غَيْرُ غَائبٍ، وعَلِيمٌ بصِفَاتِ عِبَادِه، وخَبِيرٌ بذوات نفوسهم.

❁ ❁ ❁

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول): خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، فلكُلِّ دَاعٍ إلَىٰ الله من حَمَلَةِ رسالته من أمّته:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ﴾: أي: ضَاع سَعْيُهُمُ الّذي سَعَوْهُ في الحياة الدُّنيا، فَلاَ يَجِدُونَ لَهُ أثراً يَوْم الدِّين، أو ضَلَّ سَعْيُهُمُ الطَّرِيقَ الموصل إلى ثواب الله يوْمَ الدِّين.

أي: قُلْ لَهُمْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ أَنَا وَرَبِّي بالعاملين أعمالاً حسنة في الدنيا، إلاَّ أنّهم أَخْسَرُ العاملين في محكمة العدْلِ الرَّبَّانِيّة؟

ويَأْتي الجوابُ لِمَنْ يَطْلُبُه أو يَسْمَعُه، وهو:

هم الذين ضاع سَعْيهم الذي سَعَوْهُ في الحياة الدُّنيا من أعمال حسنة، فلا يجدون له أثراً عند الله يوم الدين، لأنّهم لم يَعْمَلُوا أعمالهم الحسنة، إيماناً بالله وابتغاء مرضاته.

لقد كانوا يَحسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً لأنفسهم، لكنَّهُمْ في الحقيقة لَمْ يُوجِّهُوها الْوِجْهَةَ الموصلة إلى ثواب الله، بالإيمان به وابتغاء مرضاته وثوابه، بل قَذَفُوا بها ضَالَّةً ضائعةً، يَرْجُونَ منها منافع دُنْيَوِيَّةً، أو شهرةً وَذِكْراً حسناً، وهذا أَمْرٌ قد حصَلُوا عليه في الدنيا، فلا ثوابَ لهم علَيْها عند الله يوْم الدِّين.

والسَّبَبُ الذي جعلَهم يقصدون بأعْمالِهِمْ الْحَسَنَةِ مَطالِبَهُمْ من الحياة الدنيا، أَنَّهُمْ كَفَرُوا بآياتِ الله المنزّلاَتِ على رسوله. وكَفَرُا بلقاء ربّهم يوم الدّين، إذْ لَمْ يُؤْمِنوا بالبعث.

لذلك حَبِطَتْ أعمالُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ، أي: بطَلَ تأثيرها في استحقاقِ ثواب الله، فلا ثِقَلَ لها في موازينه مُطْلَقاً، ولَيْسَ لَهَا قُوَى سَالبة تجذب كفَّة ميزانه إلى الأعْلَىٰ طَائشةً بها، باعتبارِها أَعْمالاً حَسَنَة، من أجل هذا تُطْرَحُ جانباً، فَلاَ يقيم اللَّهُ لها وزْناً ما.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ﴾: أي: فبَطَلَتْ أَعْمالُهم، وكلُّ عَمَلٍ لا يحقِّقُ الغاية منه فقد حَبِطَ، أي: بطل.

إنّ الأعمال الحسَنَةَ الّتي يعْملُها الكافرون بالله وبرسوله وبيَوْمِ الدِّين، أعْمَالٌ لاَ تَمْلِكُ قوَّةً إيجابيَّةً ذاتَ ثقلٍ بسَبَبِ الكُفْرِ الذي نزَعَ منْها قُوَّتها، وَلاَ تَمْلِكُ قُوَّة سالبةً، بسَبَب كَونِها أعْمالاً حَسَنَةً، فالأعمالُ ذَاتُ القوى السَّالبة هي الأعمال السَّيِّئة، والأعمال ذات القوىٰ الإيجابيّة هي الأعمال الحَسَنَةُ المستَنِدَةُ إلى الإيمان بالله والْيَوْم الآخر، وبما أَنْزَل الله للناس، والْمُبْتَغَىٰ بها رضوانُ الله وثوابُه.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾: إشارةٌ إلى جزاءٍ مُبْهَم بَعِيدٍ في الدركات السُّفْلَىٰ، لكن جاء بعد هذه العبارة بيانه بقوله تعالىٰ: ﴿جَهَنَّمُ﴾.

والسَّبَبُ في اسْتِحْقَاقهم هذا الجزاء الأليم، أَنَّهم كَفَرُوا بالحقائق الّتي

جاءَتْهُمْ من عنْدِ رَبّهم، واتَّخذُوا آياتِ اللَّهِ المنَزَّلاَتِ واتَّخذُوا رُسُلَهُ هُزُواً.

﴿بِمَا كَفَرُوا﴾: أي: بسَبَب ما كَفَرُوا.

﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾: أي: اتَّخَذُوا آيَاتِي شيئاً يقابَلُ بالْهُزْءِ به، واتَّخذُوا رُسُلي كَرِجَالٍ كذَّابين أوْ مجانين يُواجَهُونَ بالْهُزْءِ والسُّخْرِية.

﴿هُزُوًا﴾: أي: مَهْزوءاً بالآياتِ، ومَهْزُوءاً بالرُّسُل، وهذا من استعمال المصْدَرِ بمعنى اسْم المفْعُول. ﴿هُزُوًا﴾ قراءة حفص بالواو.

وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [هُزُؤاً] بالهمزة بعد الزّاي.

❁ ❁ ❁

النّصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)﴾.

في هذه الآية يُبيّن اللّهُ عزّ وجَلّ مُسْتَخْدِماً نُونَ المتكلّم العظيم، أنَّهُ يَضَعُ الموازين الْقِسْطَ، أي: المَوَازِينَ العادلة، أو ذواتَ الْعَدْل، لوَزْنِ أعْمَالِ العباد يَوْمَ القيامة.

الْقِسْط في اللُّغة: الْعَدْل، وجاء وصْفُ موازين يوم القيامة بلفظ «**الْقِسْط**» وهو مصدر، تنزيلاً له منزلة اسْم الفاعل. أو على تقدير مضاف محذوف، والمعنى: ونضع الموازين ذَواتَ القسط.

﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾: أي: لأجْلِ وزن أعمال العباد يوم القيامة.

وأبان الله عزّ وجلّ في هذا النصّ أنَّ عَمَلِيّاتِ وزْنِ أَعْمَالِ العباد تَجْرِي بالْعَدْلِ التامّ، فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شيئاً.

الظُّلْمُ في الوزن يكون بأَنْ تَنْقُصَ هٰذِهِ الْمَوازِينُ من الأعمال الحسنة، أو بأن تزيد في الأعمال السيّئة شيئاً.

والظلم بعْدَ الوزن يكون بالحِرْمَانِ من حقٍّ ثبت بوَعْدِ الله الَّذِي تفضّل به على عباده، أو بالمؤاخذة على أعمال سيئة لم يكتسِبْها العَبْد.

فمِنْ قواعد المحاسبة والجزاء عنْد الله عزَّ وجلَّ، أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لاَ تُؤاخَذُ إلاَّ على كَسْبِها أَوْ آثار كَسْبها، وأنَّ المؤاخَذَةَ على السَّيِّئَةِ لا يَزِيدُ على حُدُودِ مِثْلِها.

وأبَان هذا النَّصُّ أنَّ كُلَّ مكتَسَبَةٍ إرادِيَّة سَوْفَ يأتي الله عزّ وجلّ بها، ويَزِنُها في موازين أَعْمَالِ العباد، من الحسنات والسَّيئات، ولو كانت صغيرات، وكان الواحدُ منها بمثقال حبَّةٍ من خَرْدَلٍ، باستثناء ما لاَ يقيم اللَّهُ له وزناً، ممَّا يَحْبَطُ من عَمَلٍ صالحٍ، لا إيمان يَدْعَمُهُ، أولاً إخلاص لله فيه.

وَمَا جَاءَ في هذا النصّ يدُلُّ على أنّ ما أوصَىٰ لُقْمَانُ به ابْنَهُ هو من الوصايا الرَّبّانيّة المنزَّلَة قبل نزول القرآن.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾: أي: وكفىٰ بنا عادِّين لكلّ الحسنات والسَّيئَات، وكفىٰ بنا مُحْصِين لها، ومقدّرِينَ قِيمَتَها للجزاء عليها بالفضل أو بالعدل.

❁ ❁ ❁

النص السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾: أي: النفخة الثانية للبَعْثِ الَّتِي يَخْرُجُ بها النَّاسُ مِنْ أَجْدَاثهم، لِيُلاَقُوا حِسَابَهُمْ وفَصْلَ القضاء فيما بينهم، في محكمة الفَضْلِ والْعَدْلِ الرّبّانيّة، وذلك هو يوم الدّين، فإذا قضَىٰ اللَّهُ بين العباد تَمَّ بمقتضىٰ قضائه تحقيق الجزاء.

﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾: أي: فلا يَجِدُون أَنْسَابَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَافِعَةً لَهُمْ بِشَيْءٍ، بل يَفِرُّ المرْءُ يومَئِذٍ من أخيه، وأمّه وأبيه، وصَاحِبَتِه وَبنيه، إذْ لكُلِّ امْرِىءٍ مِنهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ عَظيمٌ يُغْنِيه، أي: يَصْرِفُه، ويَكُفُّهُ عَنْ أن يَلْتَفِتَ إلى غيره، كما جاء في الآيات من (٣٤ ـ ٣٧) من سورة (عبس/ ٨٠ مصحف/ ٢٤ نزول).

﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: ولا يتَسَاءَلُونَ عَنْ أَنْسَابِهم ولاَ بأَنْسَابهم، لطَلَب النُّصْرَة منهم، إذْ هم جَميعاً يَعْلَمُونَ أَنَّهُ لاَ أَحَدَ يَوْمَئِذٍ يَمْلِكُ النُّصْرَةَ لأَحَدٍ، ولاَ أَحَدَ يَمْلِكُ الدّفاع عن أحد.

والتساؤُل الْمَنْفِيُّ هُنَا هو التساؤلُ لطلب النُّصْرَةِ والمعونة.

● ولكن ثبت أنّهم يتَسَاءَلُون تَسَاؤُل تَلْويم وخصَام، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

● وثبت أنَّ بعض أهل الجنّة في الجنَّة يَتَسَاءَلُونَ عن الّذينَ كانوا قُرنَاءَهم في الدُّنيا، إلاَّ أَنَّهُمْ كانوا كَافِرينَ، فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) أيضاً في مَعْرِضِ بيان بعض أحوال أهل الجنّة في الجنّة:

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

● وَثبت أيضاً أنّ بعضَ أهل الجنَّةِ في الجنَّةِ يَتَساءَلُونَ عَنْ بَعْضِ أحوالهم التي كانوا عليها في الدنيا، فقال الله عزّ وجلّ في سورةِ (الطّور/ ٥٢ مصحف/ ٧٦ نزول) في معرض بيان بعض أحوال أَهْلِ الجنَّة في الجنَّة:

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

يظهر أنّ أصحاب هذا التّساؤل كانوا في الدنيا من المؤمنين العصاة، وكانوا يخافون أن يُعَذَّبُوا بعذاب السَّمُوم في دار العذاب، لكنَّهُمْ كَانوا يَدْعُونَ اللَّهَ أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ، فغفر لهم وَعَفَا عَنهُمْ، إنَّهُ هو الْبَرُّ الرحيم.

● وَثبت أن أهلَ الجنة في الجنَّة يَتَساءَلُون عن المجْرِمِينَ، وهو ما جاء بيانه في الآيات من (٣٩ ـ ٤٧) من سورة (المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٢ نزول):

أمَّا تَدَبُّر بقيّة الآيات من النصّ السادس الذي من سورة (المؤمنون) فقد سبَق في النّص الثاني من هذا الملحق الذي هو من سورة (الأعراف) فهما متماثلان.

لكِنْ أضاف النصّ الذي من سورة (المؤمنون) بيانَ أَنَّهُمْ في جهنَّمَ خَالِدُون، وأَضَافَ أيضاً ما يلي:

● ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾: أي: تَمَسُّ وُجُوهَهُمُ النار بإِحْرَاقٍ غَيْر مُنْضِجٍ لها.

● ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾: أي: فهم فيها عَابِسُونَ قد غيَّر لَفْحُ النار أَلْوانَ وُجوههم. الوجه الكالح، هو الشاحب العابس والّذي قصرت شفته عن أسْنَانِه.

ويظهر أنّ هؤلاء صِنفٌ من المعذّبين في النّار لاَ يصلُ عذابهم فيها إلى الدركة التي وصفها اللَّهُ عزّ وجلّ بقَوْلِه في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾﴾.

﴿نُصْلِيهِمْ نَارًا﴾: أي: نُدْخِلُهُمْ ناراً لإحراقهم بِلَهَبِهَا.

نظرة تكامليّة في نصوص سابقة:

(١) من الملاحظ أنّ عبارة ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قد جاءت مكَرَّرَة في سُوَرِ (القارعة) و(الأعراف) و(المؤمنون) لكنّ الخبر لَمْ يكُنْ فيها مكرّراً، إلاّ في (الأعراف) و(المؤمِنونَ).

ففي (القارعة) جاء الخبر: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾﴾.

وفي (الأعراف) و(المؤمنون) جاء الخبر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾.

(٢) ومن الملاحظ أنّ عبارة: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ قَدْ جاءَت مُكَرَّرَة في هذهِ السُّوَر الثلاث، لكنّ الخبر لَمْ يَكُنْ فيها مُكَرّراً.

ففي (القارعة) جاء الخبر: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾﴾.

وفي (الأعراف) جاء الخبر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾﴾.

وفي (المؤمِنُونَ) جاء الخبر: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾.

وبهذا التأمُّل نُلاحِظُ أَنَّ عَمَلِيَّةَ بناءِ المعارف في القرآن، يجري وفق البناء التكامُلِيّ المتَدَرّج مع مَرَاحل التنزيل.

ونُلاحظ أنَّ الموضوع الواحد قد تمَّتْ تَجْزِئَةُ أفكاره إلَىٰ وَحَدات، وَوُزِّعَتْ بِحِكْمَةٍ في السُّوَر القرآنيّة، وأُنْزِلَتْ في السُّور والآيات منجَّمةً مع مراحل تنزيل القرآن، مراعًى فيها التكامُلُ والترابط التّامُّ فيما بَيْنَها.

وهذا مِنْ عناصِرِ إعجاز القرآن، ولو كان من عنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لوَجَدَ الناقِدُون فيه اختلافاً كثيراً.



النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾.

مثقال الشيء: هو ما كان مِثْلَهُ في وزنِه.

فدلَّ هذا النصّ على الوزن باللُّزُوم العقليّ، ودلَّ علَىٰ أنّ الله عزّ وجلَّ لاَ يظْلِمُ عبْداً مِنْ عبادِه مثقالَ ذَرَّة من عمله، فلا يَنْقُصُ من حسناته مثقال ذَرَّةٍ، ولا يَزِيد في سيّئاته مثقال ذرَّة.

يقال لغة: ظلَمَ فلانٌ فَلاَناً حقَّهُ، إذَا غصَبَهُ إِيَّاه، أو نَقَصَهُ إيّاه، أو حَرَمَهُ منه.

وَدَلَّ هذا النصّ على أنّ الحسَنَةَ يُضَاعِفُها الله، وهذا فَضْلٌ من الله، كَفَضْلِهِ في تبديلِ السَّيِّئَاتِ حسناتٍ لبعض عباده، ومنهم عباد الرَّحْمٰن، المرشَّحُون لأنْ يكونُوا أَئِمَّةً للمتقين، أبراراً أو مُحْسِنِين.

وبمضاعفة الحسنات يُضَاعَفُ الأجْرُ الموعُودُ به عليها، وعندئذٍ تُضْرَبُ الحسنة بأضعافها، ثمَّ يكون الثوابُ على كلّ واحدة عشرة أضعاف، إلى سبعمائة ضِعْفٍ، إلى أضعافٍ كثيرةٍ لا يَعْلَمُها إلاّ الله.

وفوق كلّ ذَلِكَ يُؤْتِي اللَّهُ مِنْ لَدُنْهُ أجراً عظيماً.

فأضاف هذا النّصّ على سوابقه القضايا التالية:

القضيّة الأولى: أنّ الله لاَ يَظْلِمُ مثقالَ ذَرَّة، وَأَبَانَ أيضاً أنّ للذّرَةِ مثقالاً مِنْ أدوات الْوَزْنِ تُوزَنُ به.

القضيّة الثانية: أنّ الله عزّ وجلّ يُضَاعِفُ الحسنات، وهٰذا شيءٌ غَيْرُ مُضاعَفَةِ الأجْرِ على الحسنة الواحدة.

القضيّة الثالثة: أنّ الله عزّ وجلّ يُعْطِي من لَدُنْهُ أجراً عظِيماً، فوْقَ حِسَابِ المضاعفات الّتي يُضَاعِفُ بها الأُجُور.



النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزلْزَلة/ ٩٩ مصحف/ ٩٣ نزول):

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾.

﴿يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾: أي: يخرجون من قبورهم وينصرِفُون في اتجاهات مختلفات حالة كونهم أشتاتاً.

﴿أَشْتَاتًا﴾: أي: متفرّقين. لفظ «أَشْتَات» جمع «شَتّ» بمعنى «متفرّق». يقال: أمْرٌ شَتٌّ، أي: متفرّق. وقومٌ أشْتَاتٌ، أي: متفرّقون. ويقال: شتَّتَ الأشياءَ، أي: فَرَّقها، وتَشَتَّتَ القَومُ، إذا تفَرَّقوا. ويقال: أمْرٌ

مًا أشَتَّ القومَ، أي: فرَّقَهم. والشَّتَاتُ: التفرُّق. ويقال: انطَلَقَ الْقَوْمُ شَتَاتَ شَتَاتَ، أي: مُتَفَرِّقين.

أبان هذا النّصّ أنَّ النّاس حين يَصْدُرونَ مَبْعُوثين من أجداثهم، فإنَّهُمْ يصْدُرونَ متفرّقين، وبعْدَ ذلِكَ يُوجَّهُونَ لمواقع مُحَاكماتهم، في محكمة الفضل والعدْلِ الرَّبَّانية، الّتي تُعْرَضُ عليهم فيها أعْمالُهُم الّتي كانوا قَدْ عَمِلُوها في الدنيا، فَيَرَوْنها، بالصُّورة والصَّوْتِ والنِّيَّاتِ، وأحَاديثِ النفوس وخواطرها، وأعمال القلوب.

فما من عَمَلٍ صَغِير أو كبير كانوا قد عَمِلُوهُ في الدّنيا، إلاَّ يُعْرَضُ عليهم، فيشاهِدُونَهُ عند مُحَاكَماتِهم طِبْقَ مَا عَمِلُوه ظاهراً وباطناً، فيَدْخُلُ ضِمْنَ مَا يُشاهِدُونَهُ الإيمانُ والكُفْر والنِّفاقُ، والإخلاص والرّياء، والحبُّ والبغضُ، والرّضا والسّخط، والحقد والحسد وإرادة الشرّ والضرّ، والعواطفُ والإراداتُ والانفعالات.

لكنَّ المحاسبة إنَّما تكون على الأعمال الإراديَّة الظاهرة والباطنة.

وهذه الرُّؤية الّتي يَرَوْنَ بها ما أسْلَفُوا من أعمال في الحياة الدنيا، تكونُ مقدِّمَةً للمُحَاسَبَة، وفصل القضاء، ثم يكون تحقيق الجزاء. بعد إصدار الأحكام الرّبانيّة المتعلقة بمحكمة الفضل والعدل.

وقد أضاف هذا النصُّ قضيَّة رؤيَةِ الأعمال، وقد كانَ بيان هذا الأمر مستغرباً قبل المكتشفاتِ الّتي توصَّل إليها الإنسان، لكن هذه المكتشفات الحديثة قد سهَّلَتْ علَيْنا إدراك كَيْفَ تكونُ رُؤية الأعمال الظاهرة والباطنة يوم الدين.

فمن يَعْمَلْ في الدنيا مقْدَارَ وَزْنِ ذرَّة من عملٍ إراديٍّ من أعْمَالِ الخير، فما فوق الذّرة يَرَهُ يوم الدّين، في موقف الحساب، وفصْل القضاء، فيكونُ حُجَّةً له.

ومن يَعْمَلْ في الدُّنيا مقدارَ وَزْنِ ذرَّةٍ من عَمَلٍ إراديّ من أعمال الشرّ، فما فَوْقَ الذّرّة يَرَهُ يوم الدّين، في موقف الحساب، وفَصْل القضاء، فيكونُ حُجَّةً عليه عنْدَ رَبّه.

وبالاستناد إلى أعْمالِه المحْصَاة عليه، تُقَامُ لَهُ مَوازِينُهُ، ثُمَّ يكون حسابُه، ثمّ يكون فَصْلُ القضاء بشأنه ثواباً أو عقاباً.

❁ ❁ ❁

ممّا جاء في السُّنَّة بشأن الوزْن في محكمة يوم الدّين

(١) روى البخاريّ عن أنس رضي الله عنه، في حديث طلب المؤمنين الشفاعة من الرُّسُل عليهم السلام يوم القيامة، حتّى ينْتَهُوا إلى رسول الله محمد ﷺ فيشفع لهم، وقد جاء فيه، فقال النبي ﷺ:

«يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ، وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنْ الخير مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِن النَّارِ مَنْ قَال لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَكَانَ في قَلْبِهِ مِنِ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ بُرَّةً، ثُمَّ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إلاَّ اللَّهُ وَكَانَ في قَلْبِهِ مَا يَزِنُ مِنَ الْخَيْرِ ذَرَّةً».

(٢) وروىٰ البخاريُّ عن أبي هُرَيرة عن النبي ﷺ قال: «إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَاقْرَؤُوا إِنْ شِئْتُمْ: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾».

أقول: إنَّ قيمة الإنسَانِ في مِيزانِ الرَّحْمٰنِ إنَّما تَكُونُ بفضائله المكتَسَبَة، الّتي هي من كسْبِهِ الإراديّ، أمّا جَسَدُهُ العظيم السّمين فَهُو ليس من الفضائل المكتسبة بإرادة الإنسان، ولهذا لاَ يكون له وزْنٌ في الميزان الخاصّ بوزن الفضائل الإرادية التي يكْتَسِبُها الْعَبْدُ الممتَحَنُ بإرادتِه وعَمَله.

(٣) وروى الإمام أحمد، والترمذيُّ، والحاكم، والبيهقيّ في شُعَب الإيمان، عن عبد الله بن عَمْرِو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ يَسْتَخْلِصُ رَجُلاً مِنْ أُمَّتِي عَلَىٰ رُؤوسِ الْخَلاَئِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ سِجلاً، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هٰذا شَيْئاً؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟

فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟

فَيَقُولُ: لاَ يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: بَلَىٰ، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً، وَإِنَّهُ لاَ ظُلْمَ عَلَيْكَ اليَوْمَ، فَتُخْرَجُ بِطَاقَةٌ فيها: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَه إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمّداً عَبْدُهُ وَرَسُوله.

فَيَقُولُ: اُحْضُرْ وَزْنَكَ.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ مَا هَٰذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَٰذِهِ السِّجلاَّت؟!

فَيُقَالُ: فَإِنَّكَ لاَ تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلاَّتُ فِي كِفَّةٍ، والْبِطَاقَة فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجلاَّتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ، وَلاَ يَثْقُلُ مَع اسْمِ اللَّهِ تَعَالَىٰ شَيْءٌ».

حديث صحيح

البطاقة: رُقْعَةٌ صَغِيرَةٌ مِنْ وَرَقٍ أَوْ جِلْدٍ، أو غير ذلك، يُكْتَبُ عَلَيْها مكتوبٌ مَّا.

أقول: إذَا جَمَعْنَا هذا الحديث مع سائر النُّصوص من القرآن والسُّنَّة حول موضوعه، وتَدَبَّرْنَاهَا تَدَبُّراً تكامُلِيًا، يظهر لنا أنّ المراد هو أن شَهَادَة أن لا إلَه إلاَّ الله وأنَّ محمّداً عَبْدُهُ ورسوله، الّتي شَهِدَها في الحياة الدنيا، ومات عليها، كافِيَةٌ لِأَنْ تُنجيَهُ مِن الْخلودِ في عذاب النار، لأنّ هٰذِهِ الشهادة قَدْ رَجَّحَتْ كِفَّةَ عَدَمِ الْخُلُودِ في عذاب النار.

وقد كانت سِجلاَّتُ السَّيِئَاتِ الكثيرات تُشْعِرُ بِأَنَّهُ من أهل النار المخلَّدِينَ فيها، فجاءَتْ بطاقة الشهادتَيْن دالَّةً على أنّه قد كان مؤمناً، إلاّ أنّه لم يَعْمَل بشيءٍ من مقتضىٰ إيمانه، فهو يُعاقَبُ على جرائمه وسيّئاته، ثُمَّ يكون مَصِيرُه بعد ذلك النجاةَ من الخلود في النار، فَيُخْرَجُ منها ويُدخَلُ الجنَّة.

(٣) وروى البخاريُّ عن ابْن عبّاسٍ، وروى مسلم عن أبي هريرة وعِمْرَانَ بْن الحُصَيْنِ، ورَوىٰ الإمام أحمد عن عِمْرَانَ بن الْحُصَيْن، أنَّ رسول الله ﷺ قال:

«يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفاً بِغَيْرِ حِسَابٍ، هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون».

أقول: إنَّ دُخول هؤلاء الجنَّةَ بِغَيْرِ حساب يَدُلُّ على أنّ أعمالهم لاَ تُوزَنُ حتَّىٰ يُحَاسَبُوا عليها، ويظهر أنّهم مُسْتَثْنَوْنَ من عُمومِ الَّذِين توزَنُ أعمالهم، وأنَّهُمْ يَحْمِلُونَ براءةً من اللَّهِ يَدْخُلُونَ بها الْجَنَّة، والسَّبَبُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ من إيمانٍ عظيم، وخَيْرٍ جسيم.

ولا يَدُلُّ هذا الحديث على أنَّ الَّذِينَ يَدْخُلُون الجنَّة بغَيْرِ حسَابٍ مُنْحَصِرون في سَبْعِين ألفاً، فقد يَدْخُلُ الجنة بغير حسابٍ آخرون كثيرون لَيْسُوا من الّذين لاَ يَسْتَرقُون ولا يَكْتَوُون، فالعبارة لاَ تَدُلُّ على الحصر، بل تَدُلُّ على أنّ من الذين يدخلون الجنة بغير حساب هؤلاء.

وبهذا أختم هذا الملحق والحمد لله على توفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

(٢٠)

الملحق الرابع
حول اتخاذ الدّين لهواً ولَعِباً وهزُواً والاغترار بالحياة الدُّنيا

أولاً
مقدمة

جاء في القرآن المجيد التَّشْنِيعُ على الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً ولَعِباً، مع أن بيان أحكام الدّين وشرائِعِه ووصاياه من خصائص رُبوبيَّة الرَّبّ جلَّ جَلالُه، وقد اصطفى الله عزّ وجلّ بعِلْمِهِ المحيط بكلِّ شيءٍ وبحكْمتِهِ العظيمة البالِغَةِ الدِّينَ للناس، وكلّفهم أن يَتَّبِعُوهُ ويَعْمَلُوا به في رِحْلة امتحانِهِمْ في الحياة الدّنيا، فهو مَادّة الامتحانِ الذي خَلَقَهُمْ الله له، مُزَوَّدِين بخصائصهم النفسّية والجسدِيَّة التي تُؤَهِّلُهُمْ لاجْتِيَازِه على أَحْسَنِ وَجْهٍ حكيم.

ومن طبيعة امتحان ذوي الإرادات الحرَّةِ، أَنْ تتفاوت دَرَجَاتُ مجتازي مسافته ودَرَكاتُهم، من قِمَّةِ الْفِرْدَوْسِ الأعلى في جنَّاتِ النعيم، إلى الدَّرْكِ الأسْفَلِ من دَرَكات الجحيم.

ومن الظاهراتِ السُّلُوكِيَّةِ الإنْسَانِيَّة، أنْ يَتَّخِذَ الكافرون بالدِّين، دينَ الله لعباده لَهْواً وَلَعِباً.

ولدَىٰ تَتَبُّع النصوص القرآنيَّةِ في مختلف السُّوَرِ، ظَهَرَتْ لي خمسُ صُورٍ لاتّخاذ الدّين لَهْواً ولَعِباً، وهي الصور التالية:

الصورة الأولى:

الافتراء على الله جلَّ جلالُهُ في مسائل الدين، كأَنَّ دين الله لعباده بمثابة لعبة يلْعَبُ بِهَا أصحابُ الأهواء والشهوات والمصالح الخاصّة بهم، أو

بمثابة مَلْهَاة يلْهُونَ بها، غَيْرَ عَابِئِين بأنَّ الدِّين هو مادَّة امتحان الناس في الحياة الدُّنيا، وغَيْرَ مكترثين لأنّ الامتحان ولوازمه وتوابِعَهُ، هو الغاية من خلْقِ الناس بخصائصهم الّتي فطرَهم الله عليها، وأنَّهُ ليس لأحَدٍ أَنْ يتَدَخَّلَ في موادّ هذا الامتحان، دون إذْنٍ من صاحب الحقّ فيه، وهو الرَّبُّ جلّ جَلاَلُه.

الصورة الثانية:

الاستهزاء بالدّين كُلّهِ أو بَعْضِ الأعمال الدينيّة، واعتبارُها أعْمَالاً غَيْرَ ذَاتِ جَدْوىٰ، فهي مِنْ أَعْمَالِ اللَّهْو واللّعب، ومنها الاستهزَاءُ بآيات الله وإنْذَارَاتِهِ وَوَعْده وَوَعِيدِه، والاستهزاءُ ببعْض الأحكام الدينيَّة، واعتبارها غير موافقة للحق، أو لما هو الأحسن والأفضلُ في التنظيم والتشريع الملائم لمصالح الناس.

الصورة الثالثة:

الدخول في الدّين على سبيل النفاق، بالتظاهر بالإيمان والإسلام، مع الكُفْر، وجعل ذلك لتحقيق مصالح دُنيويَّة، أو لِطَعْنِ الدِّين وطَعْنِ المؤمنين الصادقين من داخل صفوفهم.

الصورة الرابعة:

الاستهانة بقضيَّةِ الدِّين، وعَدَمُ الاكتراثِ له، والانْصِراف عَنْه وعن الداعي إليه، لأمور متاع الحياة الدنيا ولَهْوِها ولَعِبِها.

الصُورَة الخامسة:

الاسْتِهزَاء بالرَّسول والاسْتِهَانَةُ به، ويُلْحَقُ بالرَّسُول المؤمنون به، الّذِين اتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إليهم من رَبهم.

وفي هذا الملْحَقِ أُحَاوِلُ اسْتِقَراءَ النُّصُوصِ القرآنيَّة المتعلقة بهذا الموضوع، مع مُعالجتَها بشيءٍ من التدبر، ولا حول ولا قُوَّةَ إلاّ بالله، إنّه المعلّم الْفَتَّاحُ الوهَّاب.



ثانياً
نصوصٌ عَامّة بشأن الذين اتّخذوا الدِّين لَهواً ولَعباً وهزواً

جاء في القرآن المجيد ثلاثة نُصوصٍ قرآنية تتضمَّن الحديث عن الذين اتَّخذُوا الدِّين لَهواً ولعباً، وهي في السُّور التالية: (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) و(الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نُزُول) و(المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

النّص الأول:

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ في وصف الكافرين أصحاب النار وهم يُعَذَّبُون فيها:

﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾:

هؤلاء كافرون استحَقُّوا عذابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها، وَكَانَ مِنْ صِفَاتِهِمْ في الحياة الدنيا أنَّهُمُ اتَّخذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً، وغَرَّتْهُمُ الحياةُ الدُّنيا.

﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا﴾: أي: جَعَلُوا دِينَهُمْ الّذِي هو مادّة امتحانهم في رحلة الابتلاء في الحياة الدنيا شيئاً يَلْهُونَ به ويَلْعَبون، إذ اعْتَبَرُوهُ شيئاً غير ذي أهمّيةٍ تُقْصَدُ في الحياة، فتَعَامَلُوا مَعَهُ كتعاملهم مع الأشياء الّتي ليْسَ فيها جِدٌّ، ممَّا يَلْهُونَ بِهِ ويَلْعَبُون من أمُور دُنياهم.

اللَّهْوُ: هو الاشتغال بشيءٍ غير ذي أَهَمّيّةٍ، عمَّا يَجب توجيه الْجَهْدِ والْعَمَلِ له.

والكافرون يَعْتَقِدون أنّ الاشتغالَ ببَعْضِ العبادات الدينيَّة الرَّبَّانيّة هو من اللَّهو، لأنّهم لاَ يَجِدُونَ لكَثِيرٍ مِنْهَا ثَمَرَة عَاجِلَةً، وهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِيَوْم الدّين وَمَا فيه من جزاء، فيتصَوَّرُونَ أنّ صَرْفَ شيءٍ مِنْ طاقاتِهِمْ فيها هُوَ ضَرْبٌ من اللَّهْوِ الَّذِي يَصْرِفُهُمْ ويَشْغَلُهم عمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُوَجِّهُوا طاقاتِهم وأنواعَ جَهْدِهِمْ له.

اللَّعِبُ: هو ضِدُّ الجدّ، ويقال لكلّ مَنْ يَعْمَلُ عَمَلاً لا يَجْلُبُ لَهُ نفعاً: إنَّما أنت تلعب.

ومن اللَّعِب مَا يُفِيدُ في رياضَةِ الجِسْم، أو الترويح عن النَّفْس، أو اكتِسَاب بعْضِ المعارف والمهارات، وعندئذٍ يَكُونُ لَعِباً ذَا أَغْرَاضٍ جادّة.

﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾: في هٰذا الجملة بَيَانُ السَّبَبِ في كَوْنِ الكافرين اتَّخذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً، وهو أَنَّهُمْ غَرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا، فَحَسِبُوا أَنَّهَا كُلُّ شَيْءٍ فِي وُجُودِهم، وحَسِبُوا أَنَّهُ لَيْسَ بَعْدَ هٰذِهِ الحياة حَيَاةٌ أُخْرَىٰ، يَكُونُ فِيها الحِسَابُ، وفَصْلُ الْقَضَاءِ، وتنفيذُ الجزاء.

غَرَّتْهُمْ: أي: خَدَعَتْهُمْ وَأَطْمَعَتْهُمْ بالْبَاطل.

﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝٥١﴾.

أصْلُ النِّسْيَان في اللُّغَةِ التَّرْك، أي: ففي هذا اليوم الّذِي هو يَوْمُ الدِّين نَتْرُكُهم ونُهْمِلُهم، ولا نُجيبُ طلباتهم، كما تَرَكُوا الاستجابة لدعوة الحقّ في رحلة امتحانهم، وهي الدّعوة الّتي وُجّهَتْ لهم من رُسُلِ رَبّهم بلاغاً عنه جلّ جلاله، وكما تَرَكوا العمل ليوم الدّين.

﴿وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾: أي: وكَمَا كَانُوا بآياتنا يَجحدونَ، كافرين بها مع علمهم بأنّها حَقٌّ وصِدْقٌ مِنْ عِنْدِ رَبّهم.

❁ ❁ ❁

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجَلَّ في سورة (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) خطاباً لكلِّ حَرِيصٍ علىٰ سَعَادَتِه بأسْلُوب الخِطَاب الإفرادي:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ﴾:

أي: وَدَعْ هؤلاء، ولاَ تكْترِثْ لَهُم، ولاَ تَعْبَأْ بهم، ولاَ تَشْغَلْ نَفْسَك بمُجَاهَدَتِهم، لتحويلهم من الكُفر إلىٰ الإيمان، فَهُمْ سَادِرُونَ في غَيِّهِمْ، مُسْتَغْرِقُون في متاعِ الحياة الدُّنيا التي غَرَّتْهُمْ بزِينَتِها، فَمَلَكَتْ حَواسَّهُم الظَّاهِرَة، ومَلَكَتْ نُفُوسَهُمْ وقُلُوبَهُمْ.

﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ﴾: أي: وَذَكِّرْ بالْقُرْآنِ مَنْ لَمْ يَصِلْ إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ منها.

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: محذِّراً بتذكِيرِكَ أنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بما كَسَبتْ من مَساخطِ الله في رحلة امتحانها في الحياة الدّنيا. ضُمِّن فعل [ذَكِّر] معنى فعل «حَذِّرْ» أو «أَنْذِرْ».

﴿أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: أنْ تُسْلَمْ نَفسٌ لِلْعَذَابِ يَوْمَ الدِّين، بِسَبَبِ مَا كَسَبَتْ في الحياة الدنيا من آثامٍ وجرائم، يُعَاقِبُ علَيْها رَبُّ العالمين.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾: أي: حَالة كَوْنِ النفس الكاسبة للآثام والجرائم، ليْسَ لها من دُونِ الله يَوْمَئذٍ وَلِيٌّ يَنْصُرُها ويَحْمِيهَا

مِنْ عَذَابِ الله، وليْسَ لَهَا شَفِيعٌ يَشفَعُ لها عِنْدَهُ، إذْ لاَ يَشْفَعُ يَوْمَئذٍ أَحَدٌ عِنْدَهُ إلاَّ بإذنه، وهو لا يقْبَلُ شفاعَةَ أَحَدٍ لِمَنْ كانَ كافراً بِه في رحلَةِ امْتِحانه.

﴿وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ﴾: وَإِنْ تُقَدِّمِ النَّفْسُ المحكومُ عليها بالعذاب يَوْمَ الدّين، أيَّةَ فِدْيَةٍ تَراها مُعَادلَةً مكافِئَةً لآثامِهَا، لا تُقبَلْ مِنْهَا وَلاَ تُؤخَذْ مِنْها.

على أنّ هذا الاحتِمَالَ لاَ يُمْكِنُ تحقيقُهُ، إذْ لاَ تَمْلِكُ نَفسٌ يَوْمَ الدِّين إلاَّ مَا قَدَّمَتْ مِنْ عَمَلٍ في الحياة الدُّنيا، وقد جيء بهذا البيان لَقَطْعِ تَوَهُّمَاتِ بَعْضِ أَهْلِ الجرائِمِ، بأنَّهُمْ سوفَ يَفتَدُونَ أنفُسَهُمْ يَوْمَ الدِّينَ بِبَعْضِ مَا كَانُوا يملكونَ في الحياة الدنيا، إنْ صَحَّتْ أَنْبَاءُ الْبَعْثِ والحياةِ الأخرى، وما يجري فيها بحَسَبِ زعمهم، على أنَّهم لاَ يُؤْمِنُون بِيَوْم الدِّين وَلاَ بالجزاء الرَّبَّاني.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبۡسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ﴾: أي: أولئك الَّذِينَ ارْتُهِنُوا في دَار العذاب يومَ الدّين بما كَسَبُوا من جرائم في الحياة الدُّنيا.

الإبْسَالُ في اللُّغَة: جَعْلُ الشَّيْءِ مَرْهُوناً مَحْبُوساً. يُقَالُ: أَبْسَلَ فُلاَناً، أي: رهَنَهُ. وأبْسَلَهُ للهَلَكَةِ، أي: أسْلَمَهُ لها.

﴿لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾: هذا يكُونُ لهم وهم في جهنَّم دَارِ العذاب يوم الدِّين، الّتي يخلُدُ فيها الكافرون.

❋ ❋ ❋

النّصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) خطاباً للذين آمَنُوا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

في هذا النصّ ينهىٰ الله عزّ وجل الَّذِينَ آمَنُوا بِمُحَمَّدٍ وَبِما جاء بِهِ عَن رَبّه، عن أن يتّخِذُوا الّذينَ اتّخذُوا دِينَ الإسلام هُزُواً ولَعِباً، من الذين أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِم، وهُم اليهودُ والنصارىٰ، ونهاهم عن أنْ يَتَّخِذُوا الكُفَّارَ جميعاً أَوْلياءَ، ومِنْهُمُ المشركون عُبّادُ الأوثان.

فالذين يتَّخِذُونَ دِينَ الله لعباده هُزُواً وَلَعِباً قَدْ أَوْغَلُوا في الكُفْرِ إيغَالاً شنيعاً، وأسْرَفُوا في مُعَادَاةِ المؤمنين.

أولياء: أي: أنصاراً وأصْدِقاءَ ومَحْبُوبين، **الوَلِيُّ**: يأتي في اللّغة بمعانٍ كثيرة، تَدُور حول من يستَحِقُّ النُّصْرَة والمتابعة والْوُدَّ والحبَّ والمخالطة والمداخلة.

وسيأتي مَزِيدُ شرح تفصيليّ لهذَا النّص لدَىٰ معالجة نصوص الصورة الثانية من صُوَر اتِّخَاذ الدّين لَهواً أو لَعِباً.



ثالثاً
تدبُّر نصوص الصورة الأولى

وهي الافتراء على الله جلّ جلالُه في مسائل الدين، كأنَّ دين اللَّهِ لعباده بمثابة لُعْبةٍ يلْعَبُ بها أصحاب الأهواء والشهوات والمصالح الخاصَّةِ بهم، أو بمثابة ملْهَاةٍ يلْهُونَ بها ـ غَيْرَ عَابئين بأنّ الدّين هو مادَّةُ امتحان الناس في رحلة الحياة الدنيا، وغَيْرَ مكترثين لأنّ الامتحان ولوازمه وتوابعه، هو الغاية من خلْقِ النّاس بخصائصهم التي فطرهم الله عَلَيْهَا، وأنّه ليس

لأحد أن يتدخّلَ في موادّ هذا الامتحان، دون إذْنٍ من صاحب الحقّ فيه، وهو الخالق الرَّبُّ العليم الحكيم جلّ جلاله.

وهذه الصورة متّصلةٌ ببعض ما جاء في مَضْمُونِ الآية الثالثة من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وهو قول الله عزّ وجل فيها:

﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾.

وقد عَرَفنا أنَّ مضمون هذه الآية يُمَثِّلُ الْخَطَّ الْأَعظم الّذي سارَتْ عليه آيات السُّورة، من خُطُوط مَوْضوعها.

إنَّ الافتِراءَ على الله عزّ وجَلّ في مسائل الدّين، وقَبُولَ الْعَمَلِ بالمفتريات يَدْخُل في عموم المنهيّ عنه بقَوْلِ الله تعالى في هذه الآية:

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ﴾.

وهذه الصُّورَةُ متّصِلَةٌ أيضاً بما جاء في الآية (٢٨) من سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) أيضاً، وهو قول الله عزّ وجلّ فيها بشأن الّذين افْتَرَوْا عَلَىٰ الله في دينه:

﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

ومتَّصِلَةٌ أيضاً بما جاء بعد هذه الآية من تفصيلٍ لِبَعْضِ مُفْتَرَياتِ أهل الكُفْر في دين الله لعباده، حتَّىٰ قول الله عزّ وجلّ في الآية (٣٧) من السورة:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا... ﴿٣٧﴾﴾.

وقد جاء في عدَّةِ سُوَرٍ مِنَ القرآن المجيد تفصيلٌ لبَعْضِ مُفْتَرَيات أهل الكُفْرِ والتحريف في دين الله لعباده.

ومن هذه المفتريات الّتي تَحْمِلُ حَقِيقَةَ معانِيَ اللَّهْوِ واللّعب، البدَعُ

في العبادات الّتي فِيها أعمالٌ هي من اللّهْوِ واللّعِب، كالتصفير، والتَّصْفِيق، والْغِناءِ، والرَّقْصِ، واسْتِخْدَامِ آلاَت اللّهْوِ والموسيقى.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنفال/٨ مصحف/٨٨ نزول) في وصْفِ بَعْضِ الأعْمال الّتي ابْتَدَعها المشركون في الدين:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٥﴾.

﴿مُكَآءً﴾: أي: صَفِيراً.

﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي: وتَصْفِيقاً.

وظاهِرٌ أنَّ هذه الأعمال هي من اللّهْوِ واللّعِب، وابتداعُها في الدين هو من اللّعِب، والْعَبَثِ بدين الله لعباده.

وهذه المبتدعاتُ حلّتْ لدى المشركين محَلَّ الصَّلاَةِ المشروعة، ذاتِ القيام والرُّكُوعِ والسُّجُود والتّلاَوات والأذكار، والخشوع لله فيها، وكانُوا يَعْتَبِرُونَ ذَلِكَ من العبادة لِلَّهِ والصَّلاةِ له.

قال ابْنُ عطيَّةِ ونقله صاحِبُ البحر المحيط عنه: والّذِي مرَّ بي مِنْ أمْرِ الْعَرَبِ في غَيْرِ ما دِيوَانٍ، أنَّ الْمُكَاءَ والتَّصْدِيَةَ كانَا مِنْ فَعْلِ الْعَرَب قَدِيماً قَبْلَ الإسلام، على جِهَةِ التَّقَرُّبِ والتَّشَرُّع اهـ.

وعن ابن عَبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ الْعَرَبَ كَانُوا يَطُوفونَ بالبيتِ عُرَاةً يَصْفِرُونَ وَيُصَفِّقُونَ.

ومن هذه البدع في الدّين، اتخاذُ الناس أَعْيَادَهُمْ الدينيَّةَ مناسَبةً للّهْوِ واللّعِب وَنَشْرِ المعاصي، مع أنّها في الأصل مناسبة لشُكْرِ الله بالعبادة الّتي تُرضيه جل جلالُه.

حكىٰ المفسّرُونَ نَقْلاً عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: جَعَلَ اللَّهُ

لكلّ قَوْمٍ عِيداً يعظِّمُونَهُ، ويُصَلُّونَ فيه، ويَعْمُرُونَهُ بِذِكْرِ الله تعالى، ثم إنّ أكْثَرَهُمْ مِنَ المشرِكِينَ وَأَهْلِ الكِتَابِ اتَّخَذُوا عِيدَهُمْ لَهْواً ولَعِباً، غَيْرَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّهُمْ اتَّخَذُوا عِيدَهُمْ كَمَا شَرَعَهُ الله تعالى.

أمّا اشتراع أهل الجاهلية الطواف بالبيت عُراة لغير سُكّان الحرم، فقد كانوا يقولون بشأنه: لاَ نَعْبُدُ اللَّهَ في ثياب أَذْنَبْنَا فيها.

وكان اللَّوَاتي يَسْتَحْيِينَ مِنْ نساء الْعَرَب يطُفْنَ عَارِيَاتٍ في اللّيل.

لكن إذا وَجَدَ العربيُّ من يُعِيرُهُ ثَوْباً مِنَ الْقُرَشِيِّينَ استعارَهُ وطاف فيه، وكذلك النساء.

وقد جاء ذكر هٰذِهِ البِدْعَة الجاهليّة الشَّنِيعة في عِدَّة رِوايات، منها ما يلي:

(١) روى مسلم والنَّسَائيُّ وابْنُ أبي شيبة وغيرهم عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما، أنَّ النساء كُنَّ يَطُفْنَ عُرَاةً، إلاَّ أَنْ تَجْعَلَ المرأة عَلَىٰ فَرْجِها خِرْقَةً وَتَقُول:

الْـيَـوْمَ يَـبْـدُو بَـعْـضُـهُ أَوْ كُـلُّـه وَمَـا بَـدَا مِـنْـهُ فَـلا أُحِـلُّـهُ

فنَزَلَتْ: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ...﴿٣١﴾﴾ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول).

(٢) وأخرج ابْنُ جرير، وابن أبي حاتم، وابن مَرْدَويه، عن ابن عباس أيضاً في هذه الآية:

«كان الرجال يطوفُون بالبيت عُراةً، فأمَرَهُمُ اللَّهُ بالزِّينَة، والزينَةُ اللّباسُ، وهو ما يُوارِي السَّوْأَةَ، وَما سِوَىٰ ذَلِكَ مِنْ جَيِّدِ البزِّ والمتاعِ».

(٣) وروى ابن جرير عن ابن عباس أيضاً قال:

«كانُوا يطوفُونَ بالبيْتِ عُراةً، الرِّجالُ والنساءُ، الرِّجَالُ بالنَّهَارِ والنِّسَاءُ باللَّيل».

(٤) وأخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ عُرْوَة بن الزبير قال:

«كانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بالْبَيْتِ عُرَاةً إلاّ الْحُمْسَ، والْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، فَكَانَ غَيْرُهُمْ يَطُوفُونَ عُرَاةً، إلاَّ أَنْ يُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَاباً، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ، والنِّسَاءُ النِّسَاءَ».

الْحُمْسُ: المتَشَدِّدُونَ في الدِّين، وقد أَطْلَقَ الْقُرَشِيُّونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم أنّهم حُمْسٌ، تفاخُراً بأنّهم مُتَشَدِّدُونَ في التَّمَسُّكِ بالدّين في جاهليّتِهم، على الرغم من كلِّ ما ابتَدَعُوهُ من تحريفات جاهلية في دين الله الموروث عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، وأقبَحُها الوثنيّة.

ورُوي عن عروة أنَّهُمْ كانُوا إِذَا وَصَلُوا إلى مِنَىٰ، طَرَحُوا ثيابَهُمْ، وأَتَوْا الْمَسْجِدَ عُراةً.

(٥) وَرُوِيَ أَنَّ الْحُمْسَ كَانُوا يَقُولُونَ: نَحْنُ أَهْلُ الْحَرَم، فلا يَنْبَغي لأحَدٍ مِنَ الْعَرَب أَنْ يَطُوفَ إلاَّ في ثيابِنا، وَلاَ يَأْكُل إذَا دَخَلَ أَرْضَنا إلاَّ مِنْ طَعَامِنا، فَمَن لَمْ يَكُنْ لَهُ مِنَ الْعَرَبِ صَدِيقٌ بمكَّةَ يُعِيرُهُ ثَوْباً، ولاَ يَجِدُ مَا يَسْتَأْجِرُ بِهِ ثَوْباً مِنْ قُرَشِيٍّ، كان بَيْنَ أَحَدِ أَمْرَيْنِ.

- إِمَّا أَنْ يَطُوفَ بالْبَيْتِ عُرْيَاناً.
- وَإِمَّا أَن يَطُوفَ في ثيابه، فإذاَ فَرَغَ مِنْ طَوافِه أَلْقَىٰ ثَوْبَهُ عنْهُ، فَلَمْ يَمَسَّهُ أَحَدٌ، وكانَ ذَلِكَ الثوب يُسَمَّىٰ «اللَّقَىٰ» قالَ شاعِرُهم:

كَفَىٰ حَزناً كَرِّي عَلَيْهِ كَأَنَّهُ   لَقَى بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرَامُ

وأَمَّا اشتراع أهل الجاهليّة في دين الله مفتريَاتٍ في المطاعِمِ، فنُطَالِعُ فيه عدَّةَ قضايا، وعِدَّة رِوايات.

(١) روى الطبريُّ عن جابِرِ بْنِ زَيْدٍ، أنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا حَجُّوا حَرَّمُوا الشَّاة، ولَبَنَهَا، وسَمْنَهَا.

(٢) ورُوِيَ عن السُّدِّيّ وابْنِ عَبَّاسٍ، أنَّ أهْلَ الجاهليّة كَانُوا يُحَرِّمُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ الْوَدَكَ. مَا أقاموا في مَوْسِمِ الحجّ.

فكانوا لاَ يأكُلُونَ في موسِمِ الحجّ إلاَّ قُوتاً، ويَجْتَنِبُونَ الدَّسَم.

الْوَدَكُ: هو الدَّسَمُ والدُّهْنُ.

فعلّم الله عزّ وجلّ رَسُولَهُ محمّداً ﷺ، فكُلَّ داعٍ إلى دِينِ اللّهِ مِن الّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوهُ، مُنَاظَرَةَ مُلْتَزِمِي هٰذِهِ التحريفاتِ والمبتدعات في الدّين، فقال اللّهُ عَزَّ وجلَّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾.

في هٰذه الآيَةِ يُعَلِّمُ اللّهُ عزّ وجلّ رسُولَهُ وكلَّ دَاعٍ إلى دينِ اللّهِ الحقّ من أمَّتِه، أسْلُوبَ مُنَاظَرةٍ جَدَلِيَّةٍ، حوْلَ التحريفات في الدين، الّتي افْتَرَتْهَا الجاهليّاتُ قبل الإسلام بِشَأْنِ زِيناتِ الملابِسِ الّتي أخْرَجَهَا اللّهُ لعباده، وبشأْنِ الطيّباتِ من الرّزْق.

أي: قُلْ لهم: إنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَمَرَ بأَخْذِ الزّينَةِ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ، وأَمَرَ بِسَتْرِ السَّوْءاتِ مُنْذُ عَهْدِ بني آدم الأوّلين.

وقل لهم: إنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أَمَرَ بَني آدمَ بِأَنْ يَأْكُلُوا وَيَشْرَبُوا مِمَّا يَشَاءُونَ من الطيّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ، إلاّ الذي حَرَّمَهُ عليهم بالتَّعْيين أَوْ بالْوَصْف.

فَمَنْ هذا الذي افترى على الله فوضع قواعد التحريم في اللّباس، ووضع أحكام التحريم في الأنعام والحرث، فقال: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، مع أنّها من الطيّباتِ ولَيْسَتْ من الخبائث؟!!

أي: هل هذا المحرِّمُ رسُولٌ صادقٌ يُبَلِّغُ عن الله؟!! أَمْ هُوَ كذَّابٌ مُفْتَرٍ يَفْتَرِي على دِين الله؟!!

والمعنى من توجيه هذا السؤال الإنكاريّ الجدَليّ، أنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ لم يُحَرِّمْ شيئاً من هذه المفتريات في الجاهليات، بَلْ أوجَبَ بعضها، وَنَدَبَ إلى بَعْضِها، وأَبَاحَ بَعْضَها، وكلُّ حُكْمٍ مُخَالِفٍ لِحُكْمِ اللَّهِ هو من الْعُدْوان على رُبُوبيَّةِ اللَّهِ عزّ وجلّ وعَلَىٰ إلَهيَتِهِ.

وفي طرح هذا السؤال الجدليّ مطالبةٌ لَهُمْ بدليل التحريم، وهُوَ لا يكونُ دليلاً عقليًا، لأنَّ موضوعه من موضوعات العبادات الدينيّة، فلا بُدَّ أَنْ يكون دليلاً نقليًا عن نصٍّ دينيٍّ صحيح، في كتَابٍ مِنْ كُتُب الله، أَوْ خَبَرٍ صحيحٍ ثابتٍ عن رسُولٍ من رُسُلِ اللَّهِ، ولَنْ يَجِدُوا شيئاً من ذلك في نصٍّ صحيح ثابت.

أمّا إذا كان المحرِّمُ لهذِهِ الأمور زعيماً أو كاهِناً أو نَحْوَهُما، فَهُمْ طَواغيتُ يفْتَرُونَ الكَذِبَ في الدِّين على اللَّهِ عزَّ وجلّ، أو يَجْعَلُونَ أنْفُسَهُمْ أَرْباباً من دُونِ الله، فَهُمْ يُحَلِّلُون ويُحَرِّمُونَ علَىٰ مَا يَشَاءَونَ بأهوائهم، فأقوالهم سَاقِطَة، والْعَمَلُ بها اتّباعاً لهم هو من الشِّرْكِ، ووضْعُ هذه الأحكام والْعَمَلُ بها هو من التلاعُبِ والعبث بدين الله لعباده.

وحينَ لا يَجدُ المسؤولون الدّليل المثبت لمَا يُحَرِّمُونَ مِنْ زينَةِ اللّباسِ والطيّبَاتِ من الرّزْق، فإنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَنبِذُوا تقاليدهم الباطلة، ويَتّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إليهم من ربّهم، على لِسَانِ رسُوله محمّد بن عبد الله ﷺ، ولا يَتّبِعُوا من دونه أَوْلياء.

وإذا استجابُوا لِمَا أُلزِمُوا به في نِهَايَةِ المناظَرَةِ، فعَلَيْهِمْ أَنْ يُصْغُوا إلى التعليم الّذِي يُبلِّغُهُمْ إيّاهُ رسولُ الله ﷺ.

وَمِنَ النّصوص المشتملة على بيان الافتراء على اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في الدِّين، ممّا افتراه أهل الجاهلية، قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورةِ (يُونُس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول) خطاباً لرسُولِهِ فلِكُلِّ دَاعٍ إلى دِينِ الله من أُمّتِه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾﴾:

وفي هذا النصّ تعليم جدليٌّ آخر، حول الموضوع نفسه، وفيه طَرْحُ سُؤالٍ على المفتَرين الَّذينَ يَفْتَرُونَ على دين اللَّهِ الكذبَ:

﴿...ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

أي: أنتم بَيْنَ احتمالَيْنِ لاَ ثَالِثَ لَهُمَا، بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لعبادِهِ من رِزْقٍ، فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً بابْتِدَاعٍ مِنْكُمْ.

الاحتمال الأول: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ أَذِنَ لَكُمْ.

الاحتمال الثاني: أَنْ تَكُونُوا تَفْتَرُونَ على الله.

لكنَّ الله عزّ وجلّ لَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَهٰذِهِ بَدَهِيَّةٌ من بدهيّاتِ الدِّين، إِذْ لاَ دليلَ لَكُمْ مِنْ نصٍّ صحيح عَنِ الله يأذَنُ لَكُمْ بوَضْعِ أحكام الحرَامِ والْحَلالِ في قضايا الدّين، فبقي الاحْتِمالُ الآخَرُ، وهُوَ أنكُمْ تَفْتَرونَ على الله جلّ جلاله.

﴿...وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ...﴾؟

أي: وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يفْتَرُونَ على اللَّهِ الكَذِبَ أَنْ تَكونَ حَالَتُهُمْ يَوْمَ القيامة؟!. أَيَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَيُعْفِيهِمْ مِنَ المسؤوليَّة، وَلاَ يُعَاقِبُهُمْ عقَاباً شَدِيداً على افتراءاتهم في التحريم والتحليل دُونَ إِذْنٍ مِنْهُ تبارَكَ وَتَعَالىٰ، ومِنْ غَيْرِ دليلٍ صحيحٍ مقبولٍ يَسْتَنِدُونَ إِلَيْه، وهُمْ يُشَارِكُونَ اللَّه عزّ وجلّ في خَصَائِصِ رُبُوبيّتِهِ؟!!

إِنْ كانُوا يُظُنُّونَ مِثْلَ هٰذَا الظَّنّ فَهُوَ ظَنٌّ سَاقِطٌ لاَ يُغْنِيهم مِنَ الحقّ شيئاً.

إذا كان المشركون الذين يَعْبُدونَ مع اللّهِ إلَهاً آخرَ لاَ يَغْفِرُ اللّهُ لَهُمْ، فَكَيْفَ يكونُ حَالُ الّذِينَ يُشارِكُونَ الله في بَعْضِ خَصَائِصِ رُبُوبيَّتِهِ؟!.

إنَّ اللّهَ عَزَّ وجَلَّ سَيُنْزِلُهُمْ في دَرَكَاتِ الجحيم على مَقَادِيرِ افتراءَاتِهِمْ على خصائص رُبُوبيّتِهِ جَلَّ جلالُه.

إنَّ تَدَخُّلَ النَّاسِ في التحريم والتحليل في قضايَا الدّين، قد أَوْصَلَ مِلَلَ أَهْلِ الشِّرْك والكُفْرِ، ومُتَلاعِبي أَهْلِ الكتاب في دين الله، إلى ابْتِدَاع تَحْرِيماتٍ غَلَوْ فيها، وهي في شرع الله لعباده حلال، وكَانَ ذلِكَ مِنْهُمْ افتراءً على الله، لأنَّ الله عزّ وجلَّ هُو وَحْدَهُ الّذِي لَهُ التحريمُ والتَّحْلِيلُ في الدّين، إن الْحُكْمُ إلاَّ لِلّهِ، فَلَيْسَ لأحَدٍ أَنْ يُحَرِّمَ أو يُحَلِّلَ في دِينِ اللّهِ شيئاً دون إذْنٍ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ.

وَفي بيان بعْضِ الأحكام الجاهلية التي حَرَّم فيها المشركون وحَلّلوا ما لَمْ يأذن به الله، قَالَ اللّهُ عَزَّ وجَلَّ في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

في هذا النصّ بيان طائفة من استهانةِ أهل الجاهلية بدِينِ الله الموروُثِ عن إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام، بالتلاعُبِ بالدِّين افتراءً علَىٰ الله، بتحريم ما لَمْ يُحَرِّمْه الله، واستباحَةِ ما حرَّمَهُ الله.

فحَرَّمَ المشركون أنْعَاماً، وحرَّمُوا حَرْثاً، وجعلوها لآلهتهم من الأوثان. وحرَّمُوا رُكُوبَ بعْض الأنعام. وكانوا يذبحون باسم أوثانهم أنْعاماً، ولا يَذْكُرونَ اسْم الله عليها. وجَعَلُوا بعض ما في بُطونِ الأنْعَام مِنْ أجِنَّةٍ قَبْلَ أَنْ تُولَدَ حَلالاً للذُّكُورِ وحراماً على الإناث، إلاَّ أن تكون مَيْتَةً فهي حلالٌ للذكور والإناث. وحرَّمُوا بعْضَ ما رزقهم اللَّهُ من أنعام افتراءً على الله، واسْتَحَلُّوا قَتْلَ أوْلاَدِهم بالْوَأْدِ افتراءً على الله في دينه.

وكلُّ ذلك من التلاعب بالدين والاستهانة به.

الفرية الأولى في الدين: دَلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾:

﴿مِمَّا ذَرَأَ﴾: أي: ممَّا خَلَق، ومن البدَهِيّ أنَّ ما خَلَقَهُ اللَّهُ فَهُوَ مِلْكُه.

﴿مِنَ ٱلْحَرْثِ﴾: أي: من نتاج الحرثِ، **الحَرْث**: الْعَمَلُ في الأرض لاستنبات زَرْعِها، أو غرس شجرها، ويُطْلَقُ **الحرْثُ** علىٰ الزَّرْعِ النَّابتِ كما ذكر الزّجاج.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمِ﴾: أي: ومِنْ نِتَاج الأنعام، وهي الإبلُ والبقر والغنم.

﴿نَصِيبًا﴾: أي: حظًا وَحِصَّةً.

﴿فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾: أي: فَرَزُوا النَّصِيبَ الّذِي جعَلُوه لِلَّهِ

بِزَعْمِهِم، أي: بالافتراء الّذِي افْتَرَوْهُ في الدّين، وقالُوا: هَٰذَا لِلَّهِ. ولَعَلَّهُمْ يَقْصِدُونَ بأنَّهُ يُصْرَفُ في المصارف التي تُرْضِي الله، كمُسَاعَدَةِ الفقراء والمساكين والصَّدَقَاتِ وصِلَةِ الأرْحَامِ، وقِرَىٰ الضيف.

﴿وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا﴾: أي: وفَرَزُوا النّصيب الآخَرَ الَّذِي جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ الَّتي تَرْمُزُ إِلَيْهَا الأَوْثَانُ، وقالوا: هَٰذَا لآلِهَتِنَا.

وما جَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ يسْتَوْلي عليه سَدَنَةُ الأَوْثَانِ، والقائِمُونَ بِخِدْمَتِها، وَتَضْلِيلِ عَابِدِيها، ومَعَهُمْ مَنْ يُعِينُهم ويُنَاصِرُهم، وقَدْ يَكُونُ لِلْكَهَنَةِ النّصِيبُ الأَوْفَىٰ.

﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾: أي: فَلاَ يُوَزَّعُ مِنْهُ شَيْءٌ في المصارف الّتي تُرْضي الله، بَلْ يَسْتَوْلِي عليه المنتفعون بِالْمُفْتَرَيَاتِ في الدّين، من الكَهَنة والسَّدَنَةِ وأعوانهم الضَّالِّين المضلِّين.

﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ﴾: أي: وما فَرَزُوهُ لِلَّهِ بِحَسَبِ افتراءاتِهِمْ في الدِّين، فإنَّ المنْتَفِعِينَ ممَّنْ لَهُمُ الزَّعَامَةُ والوظَائِفُ الدِّينيَّةُ الْوَثنِيَّةُ يَسْتَولُونَ عَلَيْهِ أيْضاً، فَلاَ يَصِلُ مِنْهُ إلى الفقراء والمساكين وصِلَةِ الأرْحَام وقِرىٰ الضَّيْفِ إلاَّ النَّزْرُ اليسير، أو لا يَصِلُ إلى هؤلاء مِنْهُ شيْءٌ.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾: عِبَارَةُ ذَمّ لِكُلِّ أَحْكَامِ المشْرِكِينَ الجاهِلِيَّة، مُصَدَّرَةٌ بأدَاة الاسْتِفتاح «ألاَ» الّتي فيها تَنْبيهٌ بِشِدَّة، وتَشْهِيرٌ إعلامي.

الْفِريَةُ الثّانِيَةُ في الدّين: دلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾﴾.

أي: وكذَلِكَ الَّذِي كان مِنهُمْ من وضْع أحكام افترائيّة على الله في الدين، ممَّا يتعلَّقُ بالحرث والأنعام، زيَّنَتْ آلِهَتُهُمْ لكثير مِنهُمْ إباحَةَ أن يَقْتُلوا أولادَهم الصِّغار عقب الولادة، أو بَعْدَ ذَلِكَ في سِنِّ التمييز، وهٰذَا مَا عُرِفَ بالْوَأد، وأسبابُهُ تَرْجع إلى واحد أو أكثر مما يلي.

(١) التخلُّص من النَّفَقَة، لوجود الفقر الذي يُعَانون مِنه.

(٢) الخوف من حدوث الفقر مستقبلاً.

(٣) مخافة السَّبْي، الّذي يكون من نتائجه عارٌ على أولياء المسبيَّات من الإناث، إذْ يَسْتَمْتعُ بِهِنَّ الَّذِينَ سَبَوْهُنَّ مِنَ الْغُزَاةِ.

(٤) بِدْعَةُ النَّذْرِ لِلَّهِ، نظير نَذْرِ عَبْدِ المطّلب أَنْ يَذْبَحَ أَحَدَ أولاده، إِذَا رَزَقَهُ اللَّهُ بأولادٍ عَشَرَةٍ ذُكُور.

ويظهر أنَّ هذا التَّزيين الَّذِي وُضِعَتْ له أحكامُ الإباحة هو من فِعْلِ الكَهَنَةِ أو سَدَنَةِ الأوثان، زاعِمِينَ أَنَّهُ ممَّا أَوْحَتْ به الآلِهَةُ الّتي تَرْمُزُ إليها الأوثان.

﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾: أي: ليُسْقِطُوهم في أَوْدِيَةِ الآثام والجرائم، فينالُوا سَخَطَ اللَّهِ وعقَابَه الأليم.

﴿وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾: أي: ولِيَخْلِطُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ، فيَجْعَلُوا الباطل الجديد المفترى، ضِمْنَ عناصر الحقّ الرّبّاني الموروث المنّزل، وَبِطُولِ الْعَهْدِ وكَثْرَةِ العناصر الدخيلة المفتراةِ تكونُ الغلبَةُ للباطل، وتضْمُر عناصر الحقّ حتَّىٰ تتلاشَىٰ، فلا يَبْقَىٰ من الحقّ الرَّبَّانِيّ إلاَّ بعضُ شكليَّاتٍ ومَورُوثاتٍ، هِيَ مِنَ الدِّين بمثابَة مَقْعَدٍ خشبيٍّ في ساحةِ قَصْرٍ عظيم، أو بمثابَةِ علامَةٍ فَارِقَةٍ على باب سُوره الخارجيّ.

الْفِرْيَةُ الثالثة في الدِّين: دَلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾.

﴿حِجۡرٞ﴾: أي: مَحْجُورٌ مَمْنُوع، ويَزْعُمونَ أَنَّ المحجُورَ من الأنْعَامِ مَمْنُوعٌ لآلِهَتِهِم.

لكِنَّ المستفيدين من هٰذه المحجورات في الواقع هم الكَهَنَةُ وَخُدَّامُ الأوثانِ وسَدَنَتُها، فَهُمْ يُعْلِنُونَ حَجْرَها باسْمِ آلهتهم الوثنيَّة، لتكونَ لمنافعهم ومصالحهم الخاصَّة.

﴿لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ﴾: أي: يَـزْعَـمُـونَ أَنَّ هَـٰذِهِ المحجُورات لا يَجُوزُ أَنْ يَأكُلَ مِنهَا أو يَذُوقَ طَعْمَها إلاَّ مَنْ يَأْذَنُونَ له بأنْ يَطْعمَها.

وهذا يَتَضَمَّنُ أُكْذُوبَةً افْتَرَوْها لمصلَحَةِ أنفسهم، ادَّعَوْا فيها أنَّ آلهتهم جعَلَتْ لهُمُ الولايَة عليها، فَمَنْ يَشَاءُ هؤلاء من الكَهَنَةِ والسَّدَنَة وَخُدَّامِ الأَوْثان أن يُطْعِموهُ أطعموه، ومَنْ يشاءُون حرمانَهُ حَرَمُوه.

الْفِرْيَة الرابعة في الدِّين: دَلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا﴾: أي: وقالوا: هٰذِهِ أنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُها، بمعنى أنَّه يَحْرُمُ رُكوبها، وهي البحيرة، والسَّائِبَةُ، والوصيلةُ، والحامي، وسيأتي بيانها إنْ شاء الله لدى تَدَبُّر النَّصّ الْمُسْتَشْهَدِ بِهِ مِنْ سُورَة (المائدة).

الفرية الخامِسَةُ في الدين: دلّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ﴾: وهي مَا يذبحونَهُ من الأنْعَام باسم آلهتهم، فيذكُرُونَ عند الذبح اسم الوثن الذي يذبَحُونَها له، ويسْتَبْعِدُونَ ذكر اسم الله عزّ وجلّ، والذَّبيحة من هذا القبيل حرامٌ أكْلُ لحمها في الإسلام، لما فيها من الافتراء على اللّهِ في الدين.

﴿سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾: أي: سيجزيهم اللَّهُ عزّ وجلَّ عقاباً وعذاباً أليماً، بسبب مَا كانوا يَفْتَرُونَ في دين الله على الله.

ومعلومٌ أنَّ الذّبح لغير اللَّهِ شِرْكٌ في اللَّهِ، واللَّهُ لاَ يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به.

الفرية السادسة في الدين: دلَّ عليها قول الله تعالى:

﴿وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾

وَهٰذِهِ من أحكام أهل الجاهلية المفتراة على دين اللَّهِ لعباده، إِذْ جَعَلُوا مَا في بُطُونِ البَحَائِرِ والسَّوائِب من الأَجِنَّةِ للذُّكُور خاصَّةً، وهو مُحَرَّمٌ على الإناث، إلاَّ أن يكون ميتةً، إذْ تَلِدُهُ أُمُّهُ ميْتاً، فيجوزُ أَنْ يأكُلَ مِنْهُ الذُّكُورُ والإناث.

وسيأتي إنْ شاء الله بيان البحائر والسّوَائب.

﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾: أي: سيجزيهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلّ فيعاقبُهُمْ بالْعَدْل على مقدار وصْفِهِمْ من الإثم والافتراء على اللَّهِ في دينِه، وهو الوصف الذي كانوا عليه في الدنيا ولم يتوبُوا إلى الله منه.

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾:

هَٰذَا تعقيبٌ رَبَّانِيٌ يكْشِفُ اللَّهُ به المصِيرَ الّذِي سَوْفَ يَصِيرُ إِلَيْهِ الّذِين خَالَفُوا شَرِيعَةَ اللَّه، وافْتَرَوْا على اللَّهِ الكذِبَ في قَضايا دينِه لعباده، إذْ قضايا الدّين من خصائص رُبوبيَّتِه جلّ جلاله.

إنَّهُ الحكْمُ عليهم بالْخُسْرَان.

فالذين خالَفُوا شريعة اللَّهِ باستحلال العدوان على أولادهم بالوأد، سَفهاً بغَيْرِ عِلْم، قَدْ خَسِرُوا بمقتضىٰ حكم الله عليهم بالعقاب الّذي يكُونونَ فيه خاسِرِين خُسْراناً عظيماً يتعلّقُ بذواتهم.

والّذين افْتَرَوْا على اللّهِ في قضايا دينه لعباده، وشَاركُوا اللّه في بعْضِ خَصَائِصِ رُبوبيّتِهِ، قَدْ خَسِرُوا أيْضاً بمقتضىٰ حُكْمِ الله عليهم بالعقاب الذي يكونُونَ فيه خاسِرينَ خُسْرَاناً عظيماً من ذواتهم.

﴿قَدْ ضَلُّواْ﴾ هٰذا حُكْمٌ من اللّهِ علَيْهِم بأَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا في رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ في الحياة الدُّنيا.

﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾: أي: ومَا كَانُوا ليهتَدُوا إلى صراطِ اللّهِ المستقيم، مَهْمَا أُمْهِلُوا انتظاراً لصَلاَحِهِمْ وَهِدَايتهم، لأنَّ أهواءهم وشهواتهم، ورغباتهم من الدنْيَا كانت هي السَّائِدَةِ عليهم، وكانَتْ إراداتهم ضعيفةً مُسْتَخْذِية تجاه مطالب نفوسهم من الدنيا الّتي غَرَّتْهُمْ بزِيناتها.

■ وفي بَيانٍ تفصِيليّ للأنْعَامِ الّتي حَرَّمَها أهْلُ الجاهلية افتراءً علىٰ الله وتلاعُباً في الدّين، قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

البَحيرَة:

الْبَحْرُ عِنْدَ الْعَرَب هو شقُّ الأذن، فالبحيرَة هي مشقُوقة الأُذُنِ من الأنْعَام «فَعِيلَة» بمَعْنَىٰ «مَفْعُولة». وفي البحيرة المحرّمَةِ عند أهل الجاهلية من العرب ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: قال الإمام الشافعِيُّ: «كَانَ الْعَرَبُ إذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أبْطُنٍ إناثاً، بَحَرَتْ أُذُنها (أي: شَقَّتْها) فَحُرِّمَتْ».

القول الثاني: كَانُوا إذَا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُن، فَإنْ كَانَ الخامِسُ ذَكَراً بَحَرُوا أُذُنَهُ، فأكَلَهُ الرِّجالُ والنساء، وَإنْ كَانَ الخامِسُ أنْثىٰ بَحَرُوا أُذُنها، وكانَتْ حَراماً علىٰ النساء لَحْمُها ولَبَنُهَا.

القول الثالث: كَانُوا إذا نُتِجَتِ النَّاقَةُ عِنْدَهُمْ خَمْسَةَ أَبْطُنٍ شَقُّوا أُذُنَها، وحَرَّمُوا رُكُوبَها ولَبَنَها.

ولعَلَّ هذه الصُّور كُلَّها كانَتْ مَوْجُودَةً عِنْدَ أَهْل الجاهليّةِ من الْعَرَبِ، وهي من افتراءاتهم على الله، ومن التلاعب بأحكام دينِه لعباده.

السائِبَة:

هي الناقة أو البعير يُسَيَّبُ بِنَذْرٍ يَنْذُرُهُ مَالِكُه، فَلاَ يُحْبَسُ عَنْ رَعْيٍ وَلاَ مَاءٍ، وَلاَ يَرْكَبُهُ أحَدٌ.

وقيل: هي الّتي تُسَيَّبُ لِلَّهِ فَلاَ قَيْدَ عليها، ولا راعِيَ لها.

وقيل: هيَ التي تابَعَتْ بَيْنَ عَشْرِ إِنَاثٍ لَيْسَ بَيْنَهُنَّ ذَكَرٌ، فَعِنْدَئِذٍ تُسَيَّبُ فَلاَ يُرْكَبُ ظَهْرُهَا، ولاَ يُجَزُّ وَبَرُها، ولاَ يَشْرَبُ لَبَنَهَا إلاَّ ضَيْفٌ.

الوصِيلَة:

هي الناقة إذا وَلَدَت أُنثَىٰ بَعْدَ أُنثَىٰ. وقيلَ: هِيَ الشَّاةُ كانَتْ إذَا وَلَدَتْ أُنثَىٰ فَهِيَ لهم، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكراً فَهُوَ لآلِهَتِهِمْ، وَإِنْ وَلَدَتْ ذَكراً وَأُنثَىٰ قالُوا: وَصَلَتْ أَخَاها، فَلَمْ يَذْبَحُوا الذَّكَرَ وَجَعَلُوهُ لآلِهَتِهِمْ.

إلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ من أقوالٍ تَتَضَمَّنُ أحْكاماً جَاهِلِيَّةً سَاقِطَةً حَوْل المراد بعنوان «الوصيلة».

الحامي:

هو الْفَحْلُ إِذَا رَكِبَ وَلَدَ وَلَدِه. وَيُقَالُ: هو الّذي يُنْتَجُ من صُلْبِه عَشَرَة أبْطُن، فيقولون: قَدْ حَمَىٰ ظَهْرَهُ، فَلاَ يُرْكبُ ولاَ يُمْنَعُ مِنْ كَلأ.

وَمِنْ أَمْثِلَةِ الافتراء على الله في مسائل الدين وقضاياه، تَحْرِيمُ الْهُنُودِ الْبَرَهْمَةِ الْبَقَرَ، وتَعْظِيمُها، والتبرُّكُ بأبوالِهَا، وتَرْكها سَائبة، تَرعَىٰ مَا تَشَاءُ، وتأكُلُ مَا تَشَاءُ، وتَدْخُلُ حَيْثُ تَشَاء، تَقْدِيساً لها وَتَعْظِيماً، إلى حَدٍّ شبيهٍ بعبادتها.

وهذا من التلاعب بدين الله لعباده.

وَمِنْ أمْثِلَةِ اتّخاذ الدّين لهْواً وَلَعباً، مزاعِمُ اليهود إذْ قالوا: ما أنْزَلَ اللّٰهُ علَىٰ بَشَرٍ مِنْ شيءٍ، مع أنّهُمْ يُؤْمِنُونَ بموسَىٰ عليه السلام، وبأنَّ اللّٰهَ أنْزَلَ عليه التوراة.

وكذلك تَلاعُبُهم بإخفاء النُّصُوصِ الّتي تُخالِفُ أهْوَاءهم من كُتُبِهِم، وتحريفُهم في كلام الله.

وقَدْ أنْزَلَ اللّٰهُ عزَّ وجل بشأنهم آيَةً مَدَنِيَّةً، مَضْمُومَةً إلى سورة مكيَّة في معظمها، للمناسبة الفكرية، وهي سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) فقال اللّٰهُ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾.

﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ أن تقيم عَلَيْهِمُ الحجَّة الدامِغَةَ دَعْهُمْ وَلاَ تَعْبَأْ بِهِمْ، واتْرُكْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُون بِدِينِ الله على ما يحلو لهم.

أصلُ الخوض: الْمَشْيُ في الماء وتحريكه، فيختلط تراب الأرض به ويُفْسِدُ صفاءه.

واستعمل الخوض بمعنى اللَّبْسِ في الأمر، والخَوْضُ من الكلام ما فيه الكذِبُ والباطل.

❁ ❁ ❁

رابعاً
تدبُّر نُصُوص الصورة الثانية

وهي الاستهزاء بالدّين كُلّه، أو ببَعْضِ الأعمال الدِّينيَّة، واعتبارُها أعْمالاً غَيْرَ ذَاتِ جَدْوَىٰ، واعتبارُها مِنْ أعمالِ اللَّهْو واللَّعبِ، ومِنْ الأمور الّتي يُسْتَهْزَأ بها، لعَدَمِ لِيَاقَتِهَا بالْعُقَلاءِ وَأَهْلِ الكمال، وكذلك الاستهزاءُ ببَعْضِ الأحكام الدّينيَّةِ، واعتبارُها غَيْرَ مُوافِقَةٍ لِلْحَقّ، أَوْ لِمَا هُوَ الأفْضَلُ والأَحْسَنُ في التنظيم والتشريع الملائِمِ لمصالحِ الناس، وكذلِكَ الاستهزاءُ بآياتِ اللّهِ، وإنْذَاراتِه بالعقابِ المعَجَّلِ، والاستهزاء بِوَعْدِه وَوَعِيدِه بالجزاء المؤجّل.

وقَدْ جاء في القرآن المجيد حول هذه الصورة نُصُوصٌ مُتَعَدِّدَة، أستَعْرِضُها مع شيءٍ من التَّدبُّر الّذي يفتح الله به.

النّصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾.

[إِلَىٰ أُمَّةٍ مَعْدُودَة]: أي: إلى أوقاتٍ مَعْدُودَة، أو إلى مُدَّةٍ مَعْدُودَةٍ وَحَدَاتُها الزَّمنيَّة، وهي ليسَتْ بالطويلة في حساب تاريخ الشُّعُوب.

يَأْتي لفظ «أُمَّةٍ» في اللُّغَةِ بمعْنَىٰ الحِينِ، والْوَقْتِ، والمدَّة.

﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي: نَزَلَ بِهم، وأحاطَ بهم، ويُقالُ لغة: حَاقَ به الأمْرُ يَحيقُ حَيْقاً، وحُيُوقاً، وَحَيَقَاناً، أي: لَزِمَهُ، وَوَجَب عليه، وأصابَهُ وَأَحَاطَ به.

والمُرَادُ أَنَّهُ نَزَل بهم على وجْهِ الإحاطة والشمول، دون أن يَجِدُوا منه خلاصاً وَلاَ مَحِيصاً وَلاَ مَفرّاً.

أَبَانَ هذا النَّصُّ أنَّ المشركين من العرَبِ في عَصْرِ الرَّسُول ﷺ، كانُوا يَسْتَهْزِئُون بِنُذُرِ الإهْلاكِ الْمُعَجَّلِ، الّتِي اشْتَمَلَتْ عَلَيْها بَعْضُ آياتِ اللّهِ المنزَّلاَتِ على رسُوله، ويَقُولُون على سبيل الاستهزاء بها: مَا يَحْبِسُ هذا العذاب الّذِي يُنْذِرُنَا بِه مُحَمَّدٌ، فيما يقُولُ: إنَّهُ مِنْ كتَاب اللّه الّذي يُنَزِّلُهُ عليه؟.

﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: ﴿أَلَا﴾ أَدَاةُ استفتاح فيها تنبيه شَدِيدٌ قَارِعٌ للأسْمَاعِ والْقُلوب الواعية.

أي: ألاَ يَوْمَ تقتضي حِكْمَةُ اللّهِ إنْزَالَ الْعَذَابِ فيهم، وإهلاكَهُمْ، فَلاَ صَارِفَ يَصْرِفُ عَنهُمْ ذَلِكَ، بَلْ يَنْزِلُ بِهِمْ مَا كَانُوا قَدْ أُنْذِرُوا بِه، وعندئِذٍ يتحقَّقُ في الْوَاقِعِ التطبيقي أنّه حَاقَ بهم مَا كانوا بِه يَسْتَهْزِئونَ يَوْمَ كَانَ وَعِيداً وإنْذَاراً.

❀ ❀ ❀

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في أوّل سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) خِطَاباً لِرَسُولِهِ مُحَمَّد ﷺ، ويتحدّث عن المعاندين المعرضين مِنْ كُفَّار قُرَيش:

﴿طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾﴾:

﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾:

﴿بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾: أي: مُهْلِكٌ نفْسَكَ وَقاتِلٌ لها، مِنَ الحزْن والْهَمِّ والْغَمِّ.

﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾: أي: لأجْلِ عَدَمِ إيمانِهِمْ وَدُخول جماهِيرِهِمْ تِباعاً في الإسلام. أو خَشْية أنْ لاَ يكُونوا مسْتقبلاً مُؤْمِنينَ، مُسْتَجِيبين لدعوة الحق.

أمّا ﴿لَعَلَّكَ﴾ فالأقْرَبُ حمل «لَعَلَّ» هُنَا على أنَّها للاستفهام، على رأي الكوفيين فقد أثبتوا أنَّها تأتي استفهامية، إذْ إنَّ مَعْنَىٰ التوقُّع بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ يحتاج تأويلاً، أمّا الاستفهام فلا يحتاج أيّ تأويل.

فالمعنى: هل أنت يا محمَّدُ مُهْلِكٌ نَفْسَكَ حُزْنا وَهَمًّا وَغَمًّا، خشْيَةَ أَنْ لاَ يَكُونَ قَوْمُكَ، وأهْلُكَ وَعَشِيرَتُكَ، مُسْتَقْبَلاً مِنَ الْمُؤْمِنين، فيكُونُوا من الخالدين في عذاب النار يوْمَ الدين.

﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ ﴿٤﴾﴾:

استعمل حرف الشرط «إنْ» للإشعار بأنَّ فِعْلَ شَرْطها غيْرُ مُتوَقَّع الحصول، إذِ الحكمةُ لا تقْتَضِيه، فهٰذِهِ المشيئة لا تَحْصُل، ولو حَصَلَتْ لأَنْزَلْنا.

﴿نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً﴾: أي: نُنْزِلْ عَلَيْهِمْ آيَةً مِنَ السَّمَاءِ من آيَاتِنَا المخيفَة المرهبَة لَهُمْ، لإلْجَائِهِمْ حتَّىٰ يكُونُوا مُؤْمِنينَ، لكِنَّ هذا الإلْجاءَ يَتَنَافَىٰ مع غاية الابتلاء.

﴿فَظَلَّتْ أَعْنَـٰقُهُمْ لَهَا خَـٰضِعِينَ﴾: أي: فَصَارَتْ أعْنَاقُهُمْ فِي وضَحِ النَّهَارِ مُطَأْطِئَةً مُنْكسِرَةً مُنْخَفِضَةً لها، حَالة كَوْنِهِمْ خَاضِعين مِنْ داخِلِ نفوسِهِمْ وَقُلوبهم.

خَبَرُ «ظَلَّ» محذوف، دلَّ على معناه كلمة ﴿خَـٰضِعِينَ﴾ التي هي حالٌ من الضَّمِير في [أعْنَاقُهُمْ] وصَحَّ مَجِيء الحالِ من المضاف إليه لأنَّ المضاف هنا بعْضُ المضافِ إليه.

﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ ۝٥﴾ :

﴿مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ﴾: أي من نجم قرآني. جيء بحرف (من) الزائد في ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ لتأكيد العموم والتنصيص عليه. وجاء ذكر اسْم الله الرَّحْمٰن دون غيره من الأسماء، للإشارة إلى رحْمَةِ اللّهِ الَّتِي رَحِمَ اللّهُ عزّ وجلّ بها عباده، فأنْزَلَ لَهُمُ القرآنَ معلماً ومُرْشداً وهادياً إلى سعادَة الدّنيا والآخرة. وَوُصِفَ النّجم القرآني الذي يَنزِلُ بأنّهُ مُحْدَثٌ لأنَّ نُزُولَهُ على الرَّسُولِ ﷺ قد حَدَثَ في زَمَنٍ مَعْلُوم، وكُلُّ نجم قرآنِيٍّ لَهُ زَمَنٌ يَحْدثُ نُزُولُهُ فيه، فهذا الوصْفُ لا يتَعَلَّقُ بذاتِ النّصّ، بل يتعَلَّقُ بتَنْزِيله في زَمَنٍ.

﴿إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ أي: إلاّ كَانَ هٰؤلاءِ المعنِيُّون المعانِدون المصِرُّون على شِرْكهِم وباطِلِهمْ عن الذكْرِ الذي يأتيهم من الرحْمٰنِ مُعْرِضين.

﴿مُعْرِضِينَ﴾: أي: يُعْطُونه عارِضَهُمْ، فَلا يسْتَقْبِلُونَهُ بالتَّلَقِّي المطلوب.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟﴾: في هٰذِهِ العبارة بَيَانُ عِلَّةِ إعْرَاضِهِم، وهي أَنَّهُمْ كذّبوا الرَّسُولَ في نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَته، وكَذَّبُوا بِكُلِّ مَا جَاءَهُمْ به عَنْ رَبِّه.

﴿فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَـٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: لَمْ يقتصروا على التكذيب، بل أتبَعُوهُ بالاسْتِهْزَاء، ولا سِيمَا مواعِيدُ نَصْرِ اللّهِ رَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ، والدافِعُ لهم أنْ يسْتَهزِئُوا أَنَّهم كانُوا يَجِدُون محمّداً والّذِين اتّبَعُوه ضُعَفَاءَ أذِلاَّءَ لاَ قُوّةَ لهم، فكَيْفَ ينْتَصِرُونَ علَىٰ أصْحَاب الْقُوَّةِ والبأْسِ والمال والزَّعَامَةِ في مكّة؟!!

فأبانَ اللّهُ عزَّ وجلّ بهٰذِهِ العبارَة أنّهُ سَيَأْتِيهِمْ قَرِيباً أَنْبَاءِ نَصْرِ الرَّسُول والَّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، إذْ يكُونُ النّبأُ الموعُودُ به واقِعاً مَشْهُوداً، وأنَّ جماهير الناس ستدخُل في دين الله أفواجاً.

وقَدْ تحقَّق هٰذا بَعْدَ بضع سنينَ، في غَزْوَةِ بَدْرٍ الكبرى وما تَبِعَها من انتصارات للمسلمين، وهزائم للمشْرِكين.

❊ ❊ ❊

النّصّ الثالث:

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول): يتحدَّثُ عن المعاندين المعرضين من كُفَّارِ قُرَيش أيضاً:

﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾﴾:

جاءَ في هٰذا النَّصّ بَيَانُ المعنِيّين في: وَمَا تَأْتِيهم من آيَةٍ من آيات ربّهم، وهم كبراء مشركي مكة يومئذ والآيةُ تَعُمُّ آيَةَ البيان القرآنيّ، الذي هو ذِكْرٌ، كما جاء في النّصّ الثاني، وتَعُمُّ الآيَةَ التكوينيَّة الإعجازيَّة كآيَةِ انْشِقَاقِ القمر، إلاَّ كَانُوا عَنْها مُعْرِضِين.

فأضاف هٰذا النّصُّ ذِكْرَ الآية التكوينيَّة الإِعْجَازِية، مبيّناً أَنَّ موقفهم مَعَها هُو مَوْقِفُ الإعْرَاض أيْضاً.

وأضاف هذا النَّصُّ الإِشَارَةَ إلىٰ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسْتَهْزِئون أيضاً بالنُّذُرِ الّتي سَوْفَ تتحقَّقُ يَوْمَ الدِّين، إذْ يَنَالُونَ عِقَابَهُمْ في نَارِ جَهَنَّمَ، وَأَبان اللَّهُ عزّ وجلَّ أن سبب استهزائهم أنَّهُمْ كَذَّبُوا بالْحَقّ فَوْرَ مجيء الحقّ الرَّبَّانِيّ لَهُمْ دُونَ تأنٍّ وَلاَ تَرَيُّث، وأبَانَ أنَّه سَوْفَ يأْتِيهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون، ويكون ذلك يَوْم الدِّين.

في النَّصّ الثاني جاء استعمال «السين» من حَرْفَي التَّسْويف، فَدَلَّ هذا على استهزائهم الموجّه لأنباءِ انتصار الرّسُول والمؤمنين، ودخولِ الناس في دين الله أفواجاً.

وفي النصّ الثالث جاء استعمال «سَوْف» من حَرْفَي التسويف، فدَلَّ هذا على استهزائهم الموجّه لأنباء الوعيد بالعذاب الأليم الذي سَوْف يكون يوم الدّين.

دلّني الاستقراء القرآني على أَنَّ حَرْفَ «سَوْفَ» يسْتَعْمَلُ غالباً في

المستقبل البعيد، ومنه يوم الدين، وأنّ حرف «السّين» يُسْتَعْمَلُ غالباً في المستقبل القريب، ومعلوم أنّ ما يَتَحَقَّقُ للإنسان في دُنْيَاهُ مُسْتَقْبَلٌ قَرِيب.

النّصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرَسوله محمّد ﷺ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾:

أي: وَلَقَدِ اسْتُهْزِىء برُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ فِيمَا أَنْذَرُوا أقْوامَهُمْ به مِنْ هَلاَكٍ مُعَجَّلٍ، فَحَاقَ بالَّذِينَ سَخِرُوا مِنهُمْ مِنْ أقوامِهِمْ، الهلاكُ والعذابُ الذي كانوا به يَسْتَهْزِئون.

حَاق بِهِمْ: أي: نَزَلَ بهم، وأحَاطَ بهم، فأهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِه.



النّصّ الخامس:

قَوْلُ اللَّهِ عَزّ وجَلّ في سُورَة (لُقْمَان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾﴾:

- قَرَأَ جُمْهُورُ القرّاء العشرة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ مِنْ فعل «أَضَلَّ» المتعَدِّي.

وقرأ ابنُ كثير، وأبو عَمرو: [لِيَضِلَّ] مِنْ فعل «ضَلَّ» اللاّزم.

وبَيْن القراءتين تكامُلٌ في أدَاء المعنى المراد، إذْ من الناس مَنْ يتَّخِذُ

لَهْوَ الحديث لِيُضِلَّ غَيْرَهُ عن سبيل الله، ومنهم من يَفْعَلُ ذَلِكَ، لِيَصْرِف نَفْسَه عن داعي الهدى إلى سبيل اللَّهِ، فَيَضِلَّ عنه.

في هذا النّصّ بيانٌ لخُطَّةِ كَيْدٍ اتَّخَذَهَا بعضُ مُشرِكي مكَّة، لِيُضِلَّ عَنْ سبيل اللَّهِ مَنْ يستجيبُ له، ولِيَضِلَّ هو عن سبيل الله، إذْ يشْغَلُ نَفْسَهُ بِلَهْوِ الحديث، فيَصْرِفَها عن الاستماع لآيَاتِ اللَّهِ الّتي يُبَلِّغُهَا رسُولُهُ تِباعاً، كَما يُنْزِلُ الله عليه نُجُومَها.

وهذا النصّ يُبَيّن أصْلاً من الأصُولِ الصّوارِفِ عن الحقّ، وعن سماعِ بيانات الحقّ والخير والهدى، وهو شَغْلُ الأسْمَاع والأفْكار بمَا يُلْهِي من الحديث عن سماعها، وهذا الملْهِي يتناوَلُ أُموراً كثيرة تَدْخُلُ فيها الأباطيلُ والتلفيقاتُ والأكاذيب من الأساطير والخُرَافات، فهيَ لَهْوٌ مِنَ الحديث. وتَدْخُلُ فيها الفلْسَفَاتُ المتناقِضَات المُتَعَارِضَاتُ الّتي تَصْنَعُها الأوهام، وَلاَ أَسَاسَ لَهَا مِنَ الحق، وتدْخُلُ فيها الحكاياتُ والرّواياتُ الّتي يصْنَعُها القَصّاصُونَ لِتَسْلِيَةِ النّاس، ومَلْءِ أوقاتِهم بها. وتَدْخُلُ فيها المساخِرُ والمضْحِكاتُ والْهَزْلِيّاتُ الّتي يُتْقِنُهَا فَرِيقٌ من الهَزْلِيّين، لإضْحاكِ الجماهيرِ وتَسْلِيَتِهم وَإلْهَائِهِمْ. وتَدْخُلُ فيها أغانِي المغَنِّين والمغَنّيات الّتي تَسْتَهْلِكُ أوْقات منْ يسْتَمع إليها بالطَّرَب، وبالاسْتِماع إلى الأصوات الحسَنَةِ والألْحَانِ المُطْرِبَة، فتُلْهِيهِمْ عمّا هُو خَيْرٌ مِنْ عِلْم يَقْتبسُونَهُ منْ كلامِ اللَّهِ، وبيانات رسُولِهِ ﷺ. وكُلُّ هذه قد تتضَمَّنُ الاستهزاء بسبيلِ الله.

ومن المعلوم أنّ كُلَّ هٰذِهِ الملْهِيَاتِ لاَ تأْتِي في الغالب مجّاناً، وإنّما تُبْذَلُ فيها الأموالُ الكثيرة، فالْمُضِلُّونَ يَشْتَرُونَ لَهْوَ الحديث بالأمْوَال الطائِلَة، لِيُضِلُّوا مَنْ يستجيبُ لاسْتِمَاعِ لَهْوِهِمْ عَنْ سبيل الله.

وأصحابُ الأهواء والشّهواتِ يشْتَرُونَ بِأمْوَالهم الّتي يَبْذُلونها لَهْوَ الحديث، لتكونَ عاقبةُ ذلِكَ أنْ يضِلُّوا عن سبيل الله، إذْ يَنْصَرفونَ بِلَهْوِ

الحديث عن استماع بيانات الحقّ والخيْر والهدَىٰ، الّتي تَشْتَمِلُ علَيْها آيَاتُ الله المنزَّلَات، وأقوال الرسُولِ الشارحات الهاديات.

وفي هذا النصّ بيان أن من يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ أَوْ يَضِلَّ عن سبيل الله، وليتَّخِذَ سبيل الله هزُواً، فلَهُ عذاب مُهِينٌ مُذِلٌّ. وفيه بيان أنّ هذا الصنف من النّاس إذا تُتْلَىٰ علَيْهِ آياتُ اللّهِ ولَّىٰ مُسْتَكْبراً عن اتّباعها، ومُدبراً مُبْتَعِداً عَنْها، كأنه لَمْ يَسْمَعْها، كأنّ في أُذُنَيْهِ ثِقلاً في السَّمْعِ قريباً من الصَّمَم.

﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾: الْوَقْرُ: صَمَمٌ، أو ثِقَلٌ شَدِيدٌ في السَّمْع قَرِيب من الصَّمَم.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: فَبَشِّرْهُ أيُّها الداعي إلى الله بِبِشَارَةٍ تَهَكُّمِيَّةٍ تُماثِل اسْتهزَاءَهُ بآيات الله عزّ وجل. هذه البشارة، هي بِشَارَةٌ له بعذابٍ أليمٍ يوم الدين.



النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾﴾:

في هذا النصّ بيان لقَطَةٍ مِنْ لَقَطَاتِ نَدَمِ المسْتَهْزِئين بما جاء في آيات اللّهِ من أَنْبَاءِ يَوْم الدِّين، حِينَ يَنْزِلُ بهم على سبيل الإحاطة من كُلّ جانبٍ تحقيقُ ما كانُوا به في الدُّنيا يَسْتَهْزِئُونَ، وهُو عقابُ اللّهِ الشَّدِيد لهم، فلَوْ أنَّهُمْ يمْلِكُونَ يَوْمئذٍ كُلَّ مَا في الأرض، ومِثْلَهُ مَعَه، لَعَرَضُوا بذَلَهُ

لِيفْتَدُوا به أنْفُسَهُمْ من عذاب اللَّهِ، ولكنْ هيهات هيات، إنَّهم لا يمْلِكُون يوْمئِذٍ شيئاً. ولَوْ كانوا يملكون ذلِك وقَدَّمُوهُ لِيَفْتَدُوا به أنْفُسَهُمْ من العذاب لم يُقْبَلْ مِنهم.

لقد انتهت مَرْحَلَةُ الامتحان، وجاءت مَرْحَلَةُ الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتحقيقِ الجزاء.



النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) مُوَجِّهاً أنظار الكافرين برسالة محمّد والمستهزئين بما جاء فيها، للاعْتبار بأحوال الكافرين السابقين الّذين كذّبوا رُسُلَ رَبّهم، واستْهزَؤوا بنُذُرِ العذاب المعَجَّل الذي أنذروهم به، فأنْزَل الله عقابَهُ الشامِل فَأَهْلَكَهُمْ، مَعَ أَنَّهُمْ كانوا أشدّ قوةً من مشركي قريش:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

إِنَّ آثار الكُفَّار المهْلكين السَّابقين موجُودَةٌ في أماكن مُتَعَدِّدَةٍ من الأرض، وهي دالَّةٌ على سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، لمن شاء أنْ يَعْتَبِر، ومَا عَلَىٰ الشَّاكِّين إلاَّ أن يَسِيرُوا في الأرضِ في جهاتٍ مختلفات، ليَصِلوا إلى مواطِن آثارِ السّابقين، حتّىٰ يُشاهِدُوا كيْفَ كان عِقَابُ اللَّهِ الْمُعَجَّل لأهْلِ الكُفْر، وقد كانوا في مواطِنِهم أَهْلَ قُوةٍ وبأسٍ ومنَعَةٍ ودُوَلٍ عظيمة.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بَلاغاً عن رَبّهم تُبيِّنُ لَهُمْ قضايا الدّين، وتُحَذِّرُهم مِنَ الشّرك، وتُنْذِرُهُمْ بعذاب اللّهِ المعجل والمؤجّل إلى يوم الدين.

﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ في أُمورِ الدنيا الّذي يُحَقِّقُونَ بِه مطالِبَهُمْ مِنْها، ولم يستَقْبلوا مَا جَاءَهم به رُسُلُ رَبّهِمْ بالإيمان والاتّباع، بل وَاجَهُوهُ بالتكذيب والجحود والْهُزْءِ والسُّخْرِيَة، ولا سِيّما نُذُرُ العذاب المعجَّلِ المهْلِكِ لهم.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾: أي: وَنزل بهم على سبيل الإحاطَةِ الشّاملة العذابُ والهَلاكُ الذي كانوا يَخُصُّونَهُ بالاسْتِهْزَاءِ، اعتداداً بما لَدَيْهم من قُوّةٍ وبأس.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾: أي: فَلَمّا رَأَوْا وَسَائِلَ عَذابِ اللّهِ قَدْ بَدَأَتْ تَنْزِلُ في أَرْضِهِمْ وَعَلَىٰ مَساكِنِهم.

﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾:

لقد أعْلَنُوا إيمَانَهُمْ حِينَ لاَ يَنْفَعُ الإيمان، إذْ هُو إيمانٌ بَعْدَ الشُّهُودِ الحسِّيّ، وانتهاء مُدَّةِ الامْتِحان، والمطلوبُ في الابتلاء أَنْ يَكُونَ الإيمان إيماناً بالغيب، لا إيماناً بالشيء المشهود بالحواسّ الظاهرة.

فلم ينفعهم إيمانُهُمْ حينئذٍ، وهذه هي سُنَّةُ اللّهِ في عباده جَميعاً، سابقيهِمْ ولاحقيهم.



النّص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول):

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ

يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾:

﴿أَفَّاكٍ﴾: أي: كَثِير الإفك، وهو الكذب، وكثيرِ التَّأفِيكِ، وهو التكذيب بالحق، وكثِيرِ الضلال، من قولهم: أفِكَ عَنْهُ، أي: ضلّ. أمّا كَثِيرُ الإضلال بالصَّرْفِ عن الحقّ، فمِنْ قولهم: أفَكَ فَلاناً عَنِ الشيءِ أَفْكاً، أي: صَرَفَهُ عَنْهُ، فهو أفَّاك، مبالغةُ آفِك.

﴿أَثِيمٍ﴾: أي كثير الإثم، وهو الذنب، ويُطْلَقُ الإثم على كبائر الذنوب وصَغائرِها في القرآن، وعلى الظاهر منها والْبَاطن. **والأثيم**: هو المسْرِفُ الغالي في ارتكاب الذنوب، ويختصُّ بالْكافِرِ الفاجر.

﴿يُصِرُّ﴾: أي: يَثْبُتُ على ملازمة ارتكاب الإثم بمكابَرَةٍ وعِناد.

أصَرَّ يُصِرُّ على الأَمْرِ، أي: ثبت عليه ولازمه، وأكثرُ ما يُسْتعمل في الإصرار على الباطل، والإثمِ، وفعلِ الشر، واجتنابِ فعل الخير.

● ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾﴾: أي: عذابٌ شَدِيد في وادي وَيْلٍ من جَهَنَّمَ لكُلِّ كذَّابٍ كثير التكذيب بالحق الرّباني، ضَالٌّ مُضِلّ، مُسْرِفٍ غَالٍ في ارْتكابِ الذُّنوب والآثام.

● ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾:

أي: يَسْمَعُ آيات اللَّهِ المنزَلَة في كتابه العزيز تُتْلَىٰ عَلَيْه، ويَفْهَمُ معانِيهَا، وبعد ذلك يُصِرُّ على كُفْرِه معانداً مُسْتَكْبِراً عن الإيمان بالرسول، وعن اتباع آيات الله والْعَمل بها، كَأَنَّهُ لم يَسْمَعْها ولم يَفْهَمْ معانِيهَا.

● ﴿... فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾﴾ أي: فَبَشِّرْهُ أَيُّها المؤمِنُ الداعي إلى اللَّهِ بالحكمة والموعظة الحسنة، بعذابٍ أَلِيم مُعَدّلَهُ عِنْدَ رَبِّه يَنالُه يوم

الدِّين، وقَدْ يَنْزِلُ به أيضاً عذابٌ مُعَجَّلٌ في الدُّنيا إذا اقْتَضَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ ذَلِكَ.

لِمَ اخْتِيرَ فِعْل «بَشِّرْ» الذي يُسْتَعْمَلُ في اللُّغَةِ غالباً في الإخبار بما يَسُرُّ، في الإنْذَارِ بالعذاب؟

قال البلاغيون: مثل هذا الاستعمال يأتي علىٰ سبيلِ التهكُّمِ بالمصرّ على باطله، الرافض لدعوة الحق.

أقول: يمكن أن يكون توجيهاً لحامل الرِّسالَةِ، أَنْ يَتَلطَّفَ بمَنْ يَدْعوه ولو وَجَدَ مِنْه إصراراً على باطِلِه وَعِنَاداً، بِأَنْ يُعْلِمَهُ بأنَّ اللَّهُ أعَدَّ عذاباً أليماً للكافِرين، بمثْلِ الأسلوب النّاعِم اللّيّن الّذِي يَسْتَعْمِلُهُ عادَةً فيما يُخْبِرُ به مِنْ بُشْرَيَات.

● ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا﴾: أي: ومن شأن هذا المصِرّ على كُفْرِه، أنّه إذا عَلِمَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ الكونيَّةِ الإعجازيَّة شيئاً، كآيَةِ انشقاقِ الْقَمَر، جعَلَهَا محَلاً لهُزْئِهِ وسُخْرِيته، لِيَصُدَّ مَنْ يتأثَّرُ بِهِ من قومه عن الإيمان بالرَّسُول واتّباعه، بأُسْلُوبِ الهزْءِ والسُّخرية من آيَةِ اللَّهِ المعجزة.

● ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩﴾: أي: أولَـئِـكَ الْـبُـعَـدَاءُ إلـى جِـهَـةِ الحضيض حتى الدَّرْك الأسْفل من النار لَهُم عذابٌ مُهِينٌ لهم، وواضِعٌ لهم في أوحال الصَّغَار والمذلَّة، عقاباً لهم على استكبارهم الّذي جعلهم في الدّنيا يُصِرُّون على باطلهم، ويجْحَدُونَ دعوةَ الحقّ الرَّبَّانيَّة.

● ﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾: أي: من وراءِ المنْظُورِ بالنسْبَةِ إليهم، جَهَنَّمُ تَنْتَظِرُهُمْ ليكونُوا أصْحابَها الخالِدِينَ فيها.

● ﴿وَلَا يُغْنِي عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا﴾: أي: ولا يَصْرِفُ عَنْهم مَا كَسَبُوا في الحياة الدنيا من مالٍ وقُوَّةٍ، شيئاً من الجزاء الذي سوف يحُلُّ بهم يوم الدّين.

● ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾: ولا يَصْرِفُ عَنهم شيئاً من الجزاء أيضاً ما اتَّخذُوا في الحياة الدنيا من دون الله أَوْلياء من الإِنْسِ أو الجنّ أو الملائكة، أو الأوثان الّتي عَبَدُوها من دون الله، وجَعَلُوها شركاء لله افتراءً عليه.

● ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾: أي: ولهم في جهنَّم يوم الدّين عذابٌ عظيم، جزاء كُفْرِهم وعنادهم وإضرارهم على باطِلهم، محافظَةً على مكانتهم الاجتماعِيَّة التي هم فيها مُسْتكبِرون.

❁ ❁ ❁

النّص التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الجاثية/ ٤٥ مصحف/ ٦٥ نزول) أيضاً:

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

● ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾﴾:

أي: يَقُول اللّهُ لَهُمْ يوم القيامَة، أَلَمْ تَأْتِكُمْ رُسُلِي في الحياة الدُّنيا، فبلَّغَتْكُم عَنّي، وتَلَتْ عليكُمْ آيَاتِي الّتي أنزلْتُها لإِعْلامِكُمْ بما يجب عليكم في رحلة امتحانِكُم، ولهدايتكم إلى صراطي المستقيم الذي يُوصِلُ من سلكه إلى جنَّات النعيم، فاستَكْبَرْتُمْ عن الإيمان بِرُسُلِي، وعن اتّباع آياتي المنزَّلاَت، وكُنتُمْ قَوْماً مُجْرِمين؟!

استفهام من الرَّبّ لهم يوم الدّين، لانتِزاع اعْترافهم على أَنْفُسِهِم بأَنَّهُمْ تَبلَّغوا، فَكَفَرُوا، واسْتَكْبَرُوا وكانوا قَوْماً مُجْرِمِين.

المجْرِمُ: هو المذنب ذنباً كبيراً، وجاء في القرآن لفظ «المجرمين» عنواناً مُقابلاً للمسلمين، ووصفاً للكافرين المهلكينَ في الدُّنيا بعذابٍ شامل، ووصفاً للمعذبين يوم القيامة في النار الخالدين فيها.

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: ويقولُ الله عزّ وجلّ لهم يوْمَ القيامَةِ في مَوْقف الحسَاب: وكنتُمْ في الحياة الدنيا حياة الامْتِحان، إذَا قِيلَ لَكُمْ: إنَّ وَعْدَ اللَّهِ بالبعث وبما بَعْدَ البعث من حَشْرٍ، وحسابٍ، وفَصْلِ قَضَاءٍ، وَتَنْفِيذِ جزاء للمتقين في جنَّاتِ النعيم، وللمجرمين بعذاب أليم في الجحيم، وإذا قيل لَكُمْ: السَّاعَةُ لاَ رَيبَ فِيها، كذَّبتُمْ وَجَادَلْتُم بالْبَاطل، وقُلْتُمْ: مَا نَدْرِي مَا السَّاعَة؟ أي: لَيْس لَدَيْنَا عِلْمٌ بحَقيقَتِها (والمرادُ سَاعَةُ البَعْثِ إلى الحياة الأخرى) وقُلْتُمْ: إنْ نَظُنُّ إلاَّ ظَنًّا، أي: إنَّ الأَنْبَاء الّتي جاءتنا عَنْهَا لَمْ تَتْرُكْ في أَذْهَانِنَا عَنْهَا إلاَّ ظَنًّا ضَعِيفاً، لاَ يَصِحُّ أَنْ نَتْرُكَ من أجْلِهِ ما نحن فيه من زينات الحياة ومَتَاعها ولذّاتها، ولا يصحُّ أن نَتْرُكَ من أجْلِه ما نحن فيه من عقائدَ وعِباداتٍ موروثَةٍ عن آبائنا وأَجْدَادِنا. وقُلْتُمْ أيضاً: وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقنين.

أي: وَمَا نَحْنُ بعالِمِينَ بِصِدْقِ الوعْدِ عِلْماً يقينيًا لاَ شَكَّ فيه، فنَحْنُ لاَ نَعْبَأُ به، وقد كانُوا يَسْتهزئون بأنباء الوعيد الّتي توجَّهُ لهم من الرُّسُلِ ومن حملة رسالاتهم.

لَكِنَّ حُجَّةَ الله عَلَيْهِمْ دَامِغَةٌ، إذْ كانُوا في الدّنيا يجادِلُون بالباطل، لِيُدْحِضُوا به الحقَ، وَكَانَتْ أهْوَاؤهم وَشَهَواتُهُمْ وَرَغباتُهُمْ من الحياة الدنيا هي الحاكِمَةَ عَلَىٰ إرَادَاتِهم، والطَّامِسَة لبَصَائِرِهِمْ، وكانوا قوماً مُجْرمينَ حقًّا.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾﴾:

أي: وتُكْشَفُ لهم صحَائِفُهم في موقف الحساب الرَّبَّانيّ، لفصْل القضاءِ بشأنهم، فيُشَاهِدُون فيها سَيِّئَاتِ مَا عَمِلُوا في الحياة الدنيا، بالتصوير المطابق لما كَانُوا عليه في الدنيا، مع الصوت، والنِّيَّاتِ، وحَركاتِ النفوس، وَخَوَاطِرِ الأفكار.

وبَعْدَ الإدانَةِ الرَّبَّانيَّةِ لهم بالْعَدْلِ، يُصْدِرُ اللَّهُ جلّ جلالُهُ أَحْكَامَهُ فيهم بالعذابِ الذي كانوا به يَسْتَهْزِئون.

عِنْدَئذٍ يَجِدُونَ أَنَّهُ قَدْ نَزَلَ بهم على سبيل الإحاطة التَّامَّةِ، مَا كانوا بِهِ يسْتَهزئون من وعيد الله لهم بالعذاب.

﴿وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: ويُقَالُ لَهُمْ بَعْدَ إلقائهم في عذاب النار تنفيذاً لقضاء الله فيهم: اليَوْمَ نَنسَاكُم، أي: نَتركُكُم مُهْمَلِينَ في عذابكم، لا يُعْبأُ بِكُمْ، ولاَ تُسْتَجابُ مطالِبكُمْ، كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هٰذا، أي: كما تَرَكْتُمْ في الحياة الدنيا، الإيمانَ بلقاء يومِكُمْ هٰذا، وتَرَكْتُمُ الْعَمَلَ بما يُنْجيكُمْ من العذاب فيه، وتَرْكْتُمُ الْعَمَلَ بما يَجْعَلُكُمْ فيه من أصحاب الجنّة بفَضْلِ رَبّكُمْ.

والْيَوْمَ مَأْواكُمْ النّار، أي: منْزِلكُمْ ومَكَانكُمُ الَّذي تَسْكُنُونَ فيه دواماً وتَسْتَقِرُّونَ فِيه دارُ العذاب النّار.

والْيَوْمَ مَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ يَنْصُرُونَكُمْ، فَيُخْرِجُونكم من النّار، أو يُخَفِّفُونَ عنكم من عذابها شيئاً.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾

أي: ذلك العذابُ الّذِي حاقَ بِكُمْ، وذَلِكَ الإهْمَالُ المهين الّذي نزَلَ

بِكُمْ وأنْتُمْ في العذاب تتقلّبُون، قد كان بسبب أنّكُمْ اتَّخذْتُم في الحياة الدّنيا آياتِ اللّهِ البيانيَّة، وآياتِه الكونيَّة الإعجازيَّة، هَدَفاً لِتَوْجيه هُزْئِكُمْ وسُخْرِيَتِكُمْ.

والَّذِي طَمَسَ بصائركُمْ، وَصَرَفَكُمْ عَنِ الحقّ، وعمَّا هو سبيلُ سعادتكم الأَبَدِيَّةِ، هو أنَّكُمْ غَرَّتْكُمُ الحياة الدُّنيا بِزِينَاتِها وأنواعِ مَتَاعِها.

﴿... فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الجملَتَيْنِ التفاتٌ عَنْ مُخاطَبَتِهِمْ، وفيهما إعلامٌ بقَضِيَّتَيْن.

القضيَّة الأولى: أنّ هٰؤُلاء الكفَرَةَ المجرمين لاَ يُخْرَجُونَ من دار العذاب النّار، بَعْدَ إلقائهم وإدخالهم فيها ليُلاقوا عذابهم الأبدي المستمرّ.

القضيَّة الثانية: أنَّهُمْ لا يُرْفَعُ عَنهُم العتب، وهو اللَّوْم على جرائمهم مهْمَا دَعَوْا وَتَضرَّعُوا، وَصاحوا وأَضَجُّوا.



النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول) خطاباً للمشركين إبّان التنزيل، في معرض الحديث عن عاد قوم النبيّ الرسول هُودٍ عليه السلام:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

أي: ولَقَدْ مَكَّنَّا عَاداً في شَيْءٍ كثيرٍ من الْمَالِ والقوَّة والبأسِ، مَا مَكَّنَّاكُمْ فيه، وجَعَلْنا لهم سَمْعاً وَأبْصاراً وَأَفْئِدَةً يُدْرِكُون بها حقائقَ قَضَايا الدين، فلَمْ تكْفِهِمْ هٰذِه الأدوات الَّتي تُكْسِبُ من اسْتَعْمَلَهَا فيما خُلِقَتْ له

علماً صَحِيحاً بِقَضَايا الدين، لأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بآياتِ الله مع عِلْمِهِمْ بأنَّها حَقٌّ، ومَعْلُومٌ أَنّ دوافِع جُحُودِهم تَرْجِعُ إلى أهْوائهم وشهواتهم ورَغباتِهِمْ من الحياة الدنيا.

وَكَانُوا يَسْتَهْزِئون بِنُذُر الهلاك المعجّل، التي كان هودٌ عليه السلام يُنْذِرُهم بها، وكانت عاقبَتُهُمْ أنّه نَزَلَ بِهِمْ على سبيل الإحاطة الشاملة الهلاكُ الشاملُ الذي كانوا بِه يَسْتَهْزِئُونَ.

● ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾: «ما» اسْمُ موصول و«إِنْ» حرف نَفْي بمَعْنَىٰ «ما» النافية. وقيل «إِنْ» زائدة، والمعنى على هذا القول: فيما قَدْ مكَّنّاكم فيه.

لكن المعْنى الأول هو المعنى الذي يَشْهَدُ لصحَّته قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٤ نزول) خطاباً للمشركين أنفسهم:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ونظيره عدّة نصوصٍ أُخرىٰ في عدّة سُورٍ. منها (فاطر ـ وغافر ـ ومحمد ـ والتوبة).

● ﴿مِّن شَىْءٍ﴾: «مِنْ» حَرْفُ جَرٍّ زِيدَ لتأكيد عموم النفي والتنصِيصِ عليه.

● ﴿يَجْحَدُونَ﴾: الْجُحُودُ هو إنكار الشيء مع العلم بأنَّهُ حقٌّ ـ يقال لغة: جَحَدَ الأمْرَ، وجَحَدَ به.

❁ ❁ ❁

النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾﴾:

أي: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ الْمُبَلِّغين عَنَّا الدِّينَ الّذي اصطفيناه لعبادنا، والكتَابَ الذي أنزلْنَاهُ للناس بالحقّ هُدًى وَرَحْمَةً، ليُكْرِهُوا الناسَ حتَّىٰ يكُونُوا مُؤْمِنينَ، بلْ ليُبَشِّرُوا مِن آمَنَ واتَّبَعَ سبيلَ الهدى بالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّة، وليُنْذِرُوا مَنْ كَفَرَ وكَذَّبَ وَعَانَدَ وأَصرَّ على بَاطله بأنَّ لَهُ عَذاباً أليماً يَوْمَ الدِّين، بحُكْم رَبّ العالمين، في نارِ جَهَنَّم الَّتِي أَعَدَّهَا اللَّه للمجْرمين، والعصاةِ الآثِمِينَ الظّالمينَ.

ويُجَادِلُ الَّذِينَ كَفرُوا رُسُلَ اللَّهِ وَحَمَلَةَ رِسَالاَتِهِمْ من أتباعهم، بالباطِلِ من الأدلَّةِ، ومن الأَقوال المزخرفة بزيناتٍ وهميَّةٍ، ومِنَ الأفكار المزيَّفَةِ، لِيُدْحِضُوا بِجَدلهم الحقَّ، فَيُزْلِقُوه في مَزَالِقِ الشُّبُهَاتِ والتَّلْبِيسات، حتَّىٰ يُزيلوه عَنْ مَوَاقِعِ ثباته في أذهانِ وقُلُوب المؤمنين. ولإشعار جماهيرهم بِصِحَّةِ جدليَّاتهم، يَسْتَخْدِمُونَ وسَائِلَ الهزء والسُّخْرِيَةِ بآياتِ اللَّهِ المبيّنات للحق، والهزء والسخريَة بما أُنذِروا به مِنْ قِبَلِ رُسُلِ رَبّهم، أو أُنْذِرُوا بِهِ في كتَابِه المنزَّلِ لهدايتهم، وإقناعهم بالحقّ، وَتَرْغيبهم بثوابه، وترهيبهم من عقابه العاجل من كلّ ذلك، والآجلِ إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

النصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول) أيضاً، خطاباً لرسُوله، فَلِكُلِّ دَاعٍ إلى الله من أُمَّته:

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾:

في هذا النصّ تَعْليمُ أسلوبٍ من أساليب الدعوة إلى اللَّهِ وإلَىٰ التزام صراطه المستقيم، الذي اشتمل عليه الدِّين الذي اصطفاه الله لعباده، وجعله الطريق الوحيد للرّبح الأبديّ والسّعادة الخالدة في جنّات النعيم يوم الدِّين.

ويبدأُ هذا الأسْلُوب بِطَرْحِ سؤالٍ على المدعوّين، يُشَارِكُ في طَرْحِهِ كلُّ من آمَنَ بالله ورسوله وبما أنزل اللَّهُ على رسُوله، والداعي إلى الله يتحدَّثُ عَنْهُمْ جَمِيعاً، باعتبارهم مؤمنين بما يدعو إليه، فيقول:

● ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾؟؟.

أي: هل تُرِيدُونَ أَنْ نَعْرِضَ عَلَيْكُمْ هٰذا النَّبأ الْعَظيم الَّذِي يُهِمُّ كلَّ ذِي عَقْلٍ ورُشْدٍ، حَرِيصٍ على سَعادَتِهِ في الدُّنيا والآخرة، وهذا النَّبأ يتضَمَّنُ بيَانَ أَخْسَرِ الخاسِرِينَ أَعْمالاً، الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحياةِ الدُّنيا، إذْ لَمْ يَسْلُكُوا طَرِيقَ نجاتِهِمْ وَنجاحِهِمْ والرِّبْحِ الّذي يكُون سبب سعادتهم الأبديّة، أو انْحرَفُوا عنه بَعْدَ السَّير فيه، وهُمْ بجهلِهِمْ وغفْلَتِهِمْ وغُرُورِهم واتّباعِهِمْ أَهْوَاءَهُمْ وشَهَوَاتِهِمْ، يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً، لِحَاضِرِهِمْ ومُسْتَقْبَلِ وُجودهم؟؟.

فِعْلُ «حَسِبَ يحسب» لم يستعْمَلْ في القرآن إلاَّ في الظَّنّ التوهُّمِيّ الضعيف، الذي لا يَصِحُّ أنْ يعتمد عليه عاقِلٌ رَشِيد.

فإذا قَال المدْعُوُّون: نَعَمْ، نُريدُ أَنْ نَعْرِفَ هذا النَّبَأَ العظيم.

قال الداعي: أولَئِكَ الْبُعَدَاء إلى جهة الحضِيضِ، هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا

بآياتِ رَبِّهِمْ ولِقَائِه، مَعَ أَنَّ آياتِ رَبِّهِمُ المنزَّلاَتِ تَدعُو إلىٰ الحقّ، والخير والهدى، والصِّرَاطِ المستقيم الذي يُحَقِّقُ السَّعادَة الأبَدِيَّة الخالدة، لِمَن الْتَزَمَهُ في مَسِيرَةِ حَيَاته، ومَعَ أَنَّ لِقَاءَ اللَّه مِنَ القضايا الّتِي تُثْبِتُّها بَرَاهِينُ الْعَقْلِ، وجاءَتْ بِهَا أنْبَاءُ جميع رُسُلِ اللَّهِ الصادقين، فالبعثُ حَقٌّ والحياةُ الأُخْرَىٰ حَقٌّ، واللَّهُ الّذِي خَلَقَنَا في هذه الحياة الدنيا لِيَبْلُوَنا، هُوَ الّذِي سَيَبْعَثُنَا إِلَىٰ الحياة الأُخْرَىٰ لِيُحاسِبَنا على أعمالنا الباطِنَةِ والظاهرة.

وهؤلاء البعداء عن رحمة الله الكافِرُونَ بِالحقّ، يَكِدُّونَ في الحياة الدُّنيا كدّاً مُضنياً، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهم سَيُحقِّقُون لأنفسهم مستقبلاً سعيداً، بما يجمعون من أموال وقُوَّةٍ وَأَنْصَارٍ، لكنهم يَجِدُون في آخِرِ رِحْلَتِهِم أنَّ أعمالَهُمُ الّتي كانوا قَدْ عَمِلُوها، لَمْ تحقِّقْ لَهُمْ مَا يَضْمَنُ لهم سعادةً حقِيقيَّةً، بل يجدونها قَدْ حَبِطَتْ، أَيْ: بَطَلَتْ، فلا قيمَةَ لها، ولا وَزْنَ لها عند رَبّهم، فلا يقيمُ اللَّهُ لَهُمْ يومَ القيامة وزناً، لأنهمْ لم يَعْمَلُوا عملاً لآخِرَتهم لَهُ وَزْنٌ عِنْدَه يوْمَ الدّين.

وإذْ لَيْسَ لهم عَمَلٌ ذُو وزنٍ عند رَبّهم فَقَدْ خَسِرُوا ذَواتهم، فكانُوا بذلِكَ أَخْسَرَ الخاسِرِين.

فَمَا هُو جَزاؤُهُمْ يَوْم الدّين عند رَبِّ العالمين؟!

الجواب: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾﴾.

المشارُ إليه البعيد هو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ وجملة: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ﴾ مبتدأ وخبر. ولفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾ عطْفُ بيان.

● ﴿بِمَا كَفَرُواْ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾: أي: كان لهم هذا الجزاء الأليم والْعَاقِبَةُ التَّعِيسَةُ، بسبب كُفْرِهم واتّخاذهم آيات اللَّهِ ورُسُلَهُ هَدَفاً لِهُزْئِهِمْ وسُخْرِيتهم في الحياة الدُّنيا.

❁ ❁ ❁

النصّ الثالث عشر:

جاء في أوّل سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً للمشركين الذين كانوا يستعجِلُونَ نُذُرَ الْعَذَاب، مستهزئين بها.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١﴾:

أي: قَرُبَ تحقيقُ إنذارِ اللَّهِ لَكُمْ بنَصْرِ رَسُولِهِ والذين آمنوا به واتبعُوه، فلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ، لِأَنَّهُ قادِمٌ قَرِيبٌ لاَ محالة.

ثمّ جاء في أَثْنَاء السّورة، قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ مُبَيّناً للمستكْبِرين المستهزئين، اقتراب وقْتِ تحقيق الوعيد بمَنْ يستحقُّ ذَلِكَ مِنْهُمْ:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٣٣ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٤﴾:

أي: هل ينتظرون إلاَّ أن تأتِيهُمُ الملائكةُ لقبض أرواحِهِمْ، وإنزال العذاب بهم، مع بَدْءِ مُفَارَقَتِهِمْ لظُروف الحياة الدُّنيا، أَوْ أنْ يَأْتِي أَمْرُ رَبّك بإهْلاَكهم، كما أَهْلَكَ أشباهَهُمْ من أهل القُرون الأولى، إذْ نزلَ بهم عقابُ سَيِّئَاتِ ما عَمِلُوا، وأَحَاطَ بهم العذابُ الذي كانوا بأَنْبَائِهِ يَسْتَهزِئُون.

❊ ❊ ❊

النصّ الرابع عشر:

أَلْمَحَ اللَّهُ عزّ وجلّ في أوائل سورة (الروم/ ٣٠ مصحف/ ٨٥ نزول) إلى اقتراب موْعِدِ نَصْرِ اللَّهِ رَسُوله والذين آمَنُوا معه على عدوّهم أئمة الكُفْرِ والشّرك والكبْرِ والعنادِ في مكّة فقال تعالىٰ:

﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾.

وبَعْدَ آيَةٍ دَعَا اللَّهُ عزّ وجلّ فيها الَّذِين كفَرُوا إلى التفكر في أَنْفُسِهم، وفي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ والأرض وما بينهما، فقَالَ تَعالَىٰ:

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ﴾:

السُّوأىٰ: مؤنثُ الأسوأ، والمرادُ العاقبة الأكثر سُوءاً، إذْ أنزل الله عزّ وجلّ بهم العذاب والهلاك في العاجلة، وسوف يُعَذَّبُونَ بنار جهنَّمَ يوم الدِّين، جزاء تكذيبهم بآيات الله، وجزاء أنَّهم كانوا بها يَسْتَهْزِئون.

❋ ❋ ❋

النص الخامس عشر:

وأخيراً حذّر الله عزّ وجلّ الذين آمَنُوا مِنْ أَنْ يَتَّخِذُوا الّذِينَ اتَّخَذُوا دينهم هُزُواً ولَعباً أولياء، فقال تعالى في سورة (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول):

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾:

رُوي في سبب نزول هذا النصّ عن ابن عباس، قال:

«كَانَ مُنَادِي رسُولِ اللَّهِ ﷺ إذَا نَادَىٰ بالصَّلاَةِ فَقَامَ الْمُسْلِمُونَ إلىٰ الصَّلاة، قالَتِ الْيَهُودُ والنَّصَارَىٰ: قَدْ قَامُوا، لاَ قامُوا. فإذا رَأَوْهُمْ رَكَعُوا وسَجَدُوا اسْتَهْزَؤُوا بِهِمْ، وضَحِكُوا مِنْهُمْ».

ورُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما أيضاً قَال:

«وَكَانَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ تَاجِراً إِذَا سَمِعَ الْمُنَادِيَ يُنَادِي بالأَذَانِ قَالَ: أَحْرَقَ اللَّهُ الْكَاذِبَ.

قالَ: فبيْنَمَا هو كذَلِكَ، إِذْ دَخَلَتْ جَارِيَتُهُ بِشُعْلَةٍ مِنْ نَارٍ، فطَارَتْ شَرَارَةٌ مِنْهَا فِي البيْتِ فَأَحْرَقَتْهُ».



خامساً
تدبر نصوص الصورة الثالثة

وهي الدُّخول في الدين على سبيل النفاق، مع الكُفْرِ به باطناً، واتّخاذُ ذلك وسيلة لتحقيق مآربَ ومصالح دُنيوية خاصّة، أو لطَعْنِ الدّين وإفساد أحوال المسلمين من داخل صفوفهم، كأنَّ دِينَ اللَّهِ للنَّاس لُعْبَةٌ أَوْ مَلْهَاةٌ يَلْهو بها المنافقون وَيَلْعَبُون، مستهزئين بالمؤمنين، الّذِينَ ينْخدِعُونَ بهم، ويَقْبَلُونَ مِنهُمْ ظاهر إسلامهم، جَاهِلِين بحَقِيقَةِ كُفْرِهِمْ، وهُمْ بذلك يَرَوْنَ أنّ المسلمين المؤمنين الصادقين سُفَهاء ناقِصُو الذكاء، تَنْطَلِي عليهم حِيَلُ المنافِقِينَ وألاَعيبُهم، فيستهزئون بِقِلَّةِ ذكاء المؤمنين، وبأَنَّهُمْ محْرُومُون من الفطْنَةِ والقدرة الفكريَّة على اكتشافِ حِيَلِ مَنْ يُنَافِقُهُمْ.

وقد جاء في القرآن المجيد حول هذه الصورة عدَّة نصوص:

النصّ الأول:

أنزل الله عزّ وجلّ في العهد المكّيّ تحذيراً للمؤمن من مجالسة الذين يَطْعَنُون في آيات الله من الكافرين، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأنعام/٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بأسْلُوب الخطاب الإفراديّ:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ

وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

• ﴿يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾: أي: يطْعنونَ في آياتنا البيانية أَو الإعجازيَّة، ويُثِيرُون عليها مَا يُعكِّرُ صفاءها، كَمَنْ يخوضُ في النَّهْرِ فيُعَكِّرُ صَفْوَ الماء، ويَتَّخِذُونها لَعِباً ولهواً، ثُمَّ يَسْخَرُونَ مِنْهَا، ويَسْتَهْزِئون بها، وغَرَضُهم الصَّدُّ عَنْ دِينِ اللَّهِ كُفراً به.

• ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: بِوَسَاوِسِه فيشغَلُكَ بِسَلاَسِلِ الأفكارِ الَّتي يَسْتَمِيلُكَ لمتابَعَتِها، عَنِ الإعراضِ عنهم.

• ﴿فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: أي: فلا تَقْعُدْ بَعْدَ أن تتذكَر مع الخائضِينَ في آياتِ اللَّهِ الظَّالِمِينَ، لأنَّ مجالَسَتَهُمْ دُون مُجَاهَدَتهم من المشاركة لهم في كُفرِهِمْ وَلَوْ بالسَّمَاعِ.

• ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾: أي: وَذَكِّرْ بالقرآنِ مستفيداً ممَّا جاءَ فيه، محذِّراً مُنْذِراً مِنْ أن تُرْتَهنَ نَفسٌ بِمَا كَسَبَتْ من جرائم، حَبيسةً فِي عذاب النار، أو لتصير إلى عذاب النّار.

• ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾: أي: وإنْ تُقَدِّمْ كُلَّ فِدَاءٍ لِدَفْعِ عَذَابِ اللَّهِ عنها لاَ يُقْبَلْ مِنها وَلاَ يُؤْخَذْ مِنها، هذا إنْ كانت تَمْلِكُ شيئاً تَفْتَدِي به، لكنَّها لاَ تَمْلِكُ ما تُقَدِّمُه فِداءً يومَئِذٍ.

• ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟﴾: أي: أولَئِكَ الَّذِينَ حُبِسُوا في جَهَنَّم بما كَسَبُوا، وَكانَتْ ذواتُهُم هي الرَّهائن المحبوسة، إذْ يُعَذَّبُونَ بِنَار جَهَنَّم.

● ﴿لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ۝٧٠﴾:

أي: لهم في جهنَّم شراب من ماءٍ حارٍّ شَدِيدِ الحرارة، وعَذَابٌ أَلِيمٌ آخر، يَنْزِلُ بهم في دار عذابهم، بسبب مَا كانُوا يكْفُرُونَ بآيات اللَّهِ مستهزئين بها.

ثُمَّ أَنْزَلَ الله عزّ وجلّ في الْعَهْدِ المدنيّ إحالَةً على هذا النّصّ المكّي، فَأَبَانَ تَبارَكَ وَتعَالَىٰ أَنَّ مِنْ عَلامَاتِ النّفَاقِ مُشَارَكةَ الْكَافِرِينَ فِي مجالِسِهِمْ الّتي يَخُوضُونَ خِلاَلَها في آيات الله طَعْناً بها واسْتِهْزاءً، فقال تبارَكَ وَتَعَالَىٰ في سُورَةِ (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝١٣٨ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۝١٣٩ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ۝١٤٠﴾:

فَدَلَّ هذا النَّصُّ على أَنَّ المرادَ بالْخَوْضِ في آيَاتِ اللَّهِ الذي سَبَقَ بيانَه في سورة (الأنْعَام) المكيَّة، هو الكُفْرُ بها، والاستهزاءُ بها.

ودَلَّ أيضاً على أنَّ مشاركة الخائِضِينَ في آيَاتِ الله ولَوْ بالْمُجَالَسَةِ والسَّمَاعِ هو مِنَ العلاماتِ الّتِي تَدْمَغُ بالنفاق، أَوْ مِنَ السُّلُوكِ الّذِي يَدُلُّ على النِّفَاق.

﴿أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾: أي: أَيَبْتَغي الَّذِينَ يتَّخِذُونَ الكافرين أولياءَ مِنْ دُون المؤمنينَ الاحْتِمَاءَ بالْقُوَّةِ الغالبَةِ الّتِي عِنْدَهم، مُفَاخِرِينَ بها، فإنَّ الْقُوَّة الْغَالِبَةَ لِلَّهِ جَمِيعاً، وهو يُصَرِّفُهَا بحكْمَتِهِ على ما يشاء.

❁ ❁ ❁

النّصّ الثاني:

أبان الله عزّ وجلّ في أوائل سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) طائفة من صفاتِ المنافقِين، وهي صفاتٌ تدُورُ حوْلَ تَلاعُبِهِمْ بِدِينِ اللّهِ، واتِّخَاذِهِمْ إيَّاهُ لَهْواً ولَعِباً، فهم بنفاقِهم يخادِعُونَ اللّه والّذِينَ آمَنُوا، وإذَا خَلَوْا إلَىٰ شياطِينِهم قالُوا لهم: إنّنا بدُخُولِنا في الإسلام ظاهراً والكُفرِ به باطِناً نَسْتَهْزِىء بالمسلمين المؤمنين المحرُومين منَ الذَّكَاءِ والفِطْنَةِ، ونَسْتَطِيعُ أَنْ نحتَالَ عَلَيْهِم بِذَكَائِنا وَمُخَادَعَتِنَا لهم، وهذه الطائفة من الصفات جاءت في الآيات من (٨ ـ ١٥).

ومنها قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.



النّصّ الثالث:

قولُ الله عزّ وجلّ بشأنِ المنافقين في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول):

﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

فأبان هذا النّص أَنَّ مِنْ صِفَاتِ المنافقين أَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ دِينِ الله لَعِباً، إذْ يَدْخُلُونَ فيه نفاقاً، ويَسْتَتِرُونَ بالكذِب، ويَحْلِفُونَ بالله بُغْيَة تَوْثيقِ أكاذِيبهم، لإرضاء المؤمنين الصادقين، وهُمْ على حَذَرٍ دائم مِنْ أنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ على رسُولِهِ سُورَةً فاضِحَةً يَكْشِفُ بِهَا نفاقهم، ويُعَيِّنُ فيها أسْماءَهُمْ.

وأبان هذا النصّ أنَّ أعْمَالَهُمْ في النفاقِ هي من صُورِ الاستهزاءِ ببعض المؤمنين، إذْ يَرَوْنَهُمْ غير قادِرِينَ على اكتشاف ألاعيبهم وحيلهم.

وأبان أيضاً أنَّ جوابَهم لِمَنْ يكْشِفُ حقيقة نفاقهم، أَنْ يَقُولوا: إنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَب، أي: كُنَّا نَلْهُو ونتسَلَّىٰ بالْمُزَاح، للترفيه عن أنفسِنا، ولتحقيق بعض مصالح لنا، وكنَّا نَسْتَصْغِرُ بَعْضَ عُقولِ الناس، فنضحك عليهم، ونَسْتَهزِىء بهم.

فقال الله عزّ وجل:

• ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

وقال اللَّهُ لهم:

• ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾: أي: إنْ كُنْتُمْ قَبْلَ أَنْ يَصْدُرَ مِنكُمْ ما صَدَرَ مُؤْمِنِينَ، فهذا مُخْرِجٌ لَكُمْ مِنَ الإيمان ومُسْقِطٌ لَكُمْ في الكُفْر ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ إذَا تَابُوا وصَحَّحُوا إيمَانهم واسْتَقَامُوا ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أُخرَىٰ مِنكُمْ يُصِرُّون علىٰ كُفْرِهم ونفاقهم، وَتَعْذِيبُنَا لَهُمْ ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾﴾.



سادساً
تدبُّر نصوص الصورة الرابعة

وهي الاستهانةُ بالدّين، وعَدَمُ الاكْتراثِ له، والانصرافُ عنه وعن الداعي إليه، لأمور متاع الحياة الدُّنيا ولهوها ولَعِبها.

ويُلْحَقُ بِهذه الصورة إهمال المؤمنين المسلمين تطبيقَ أحكام الدين الَّتي أَنزَلَها اللَّهُ لهم، لضمانِ حقُوقهم ومصالحهم في دُنياهم.

● وقد دلَّ على صورة الاستهانة بالدّين، والاشتغال عنه باللّعب واللّهو، قول الله عزّ وجلّ في وسورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) يَصِفُ حالَ الكافرين:

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣﴾.

● ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾: أي: وهم مُسْتَغْرِقون في غَفْلَةٍ عن قضايا مَصِيرِهم الأبدِيّ، الَّتي يشْتَمِلُ عَلَيها دِينُ اللَّهِ لهم.

● ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ...﴾:

أي: ما يأتيهم من نَجْمٍ قرآنيّ مُحْدَثِ التّنْزيل إلاَّ اسْتَمَعُوهُ بآذانهم فقط، وهم يَلْعَبُون بأعضائهم، حالة كَوْن قلوبهم لاهيةً عن التفكُّر بما اسْتَمَعُوه بآذانهم، لأنّهم غير مؤمنين برسول اللَّه الذي يتْلُوهُ عليهم، زاعمين أنَّ الآيات الإعجازيَّة التي يأتي بها نوعٌ من السِّحْر، ليُبْعِدُوا عن تصوُّرِهم صِدْقه، ووجوبَ الإيمان به واتِّباعه.

إنّ حالَهم لَيس فيه من العقل والرُّشْد مثقالُ ذرَّة، كأنَّ قضيَّة الدّين لاَ تَغْنِيهِمْ بشيءٍ، ولا يُهِمُّهُمْ مِنْ أَمْرِها شيء.

وَكأنَّ مُسْتَقبَلَهُمُ الأبَدِيَّ لَيْسَ جزءاً من وُجُودِهم، فلا يكترِثُون لسعادتهم فيه ولاَ لشقائهم وعذابهم.

ولو أزاحوا عن بَصَائِرهم غِشاواتِ زينَةِ الحياة الدنيا، لَعَلِمُوا أنَّ الدِّين فيه أخَصُّ الأشياء بهم، وأعْظَم الأشياء الّتي يجب أنْ تُهِمَّهُمْ قَبْلَ كُلِّ شيء.

إنَّ سَعادتهم في الدنيا، وسعادتهم الأبديَّة يومَ الدِّين بَعْدَ البعث للحياة الأخرى، مُرْتَبِطَةٌ بِمَا جَاءَ فِي دينِ اللَّهِ لَهُمْ، وَإِنَّ شقاءَهُمُ الأبَدِيّ يَوْمَ القيامة مُرْتَبِطٌ بِعَدَمِ اتِّبَاعِهم لِمَا جاء به دين الله لهم.

وهلْ يُعْرِضُ الإنسانُ الّذي له أقلُّ مقدارٍ من العقل، عن شيْءٍ يَرْتَبِطُ بِه مَصِيرُهُ الأَبَدِيُّ، فَيَنْصَرِفُ عنْهُ إلى اللَّعِبِ بما لا قيمة له، والتَّلَهِّي بما لا ينفَعُهُ في مَصِيرِه بشيء؟!

إِنَّ مَنْ يُهْمِلُ قَضيَّة الدِّين وَلاَ يَكتَرِثُ لها وَلاَ يَعْبَأُ بها، كَمَنْ يُهْمِلُ إِنْذَارَ المنْذِر بمداهَمَةِ الجيْشِ الغازي الّذي لا قبل له بمقاومَتهِ أو دَفْعِهِ، ولا يَمْلِكُ في لحظتِه إلاَّ النُّزُوحَ والْفِرار.

● ودَلّ على صُورَةِ إهمال المؤمنين المسلمين تَطْبِيقَ أحكام الدِّين الّتي أنْزَلَهَا اللَّهُ لهم، لضمان حقوقهم ومصالحهم، قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول) خطاباً للمؤمنين أثناء بيانه جلَّ وعَلاَ أحكاماً كثيرةً تتعلَّقُ بالعِبَادات والمعاملات ونظام الأسْرَة:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾﴾.

إنَّ من يُؤْمِنُ بآياتِ اللَّهِ البيانيَّة، ثُمَّ يَتْرُكَ العمل بها كُلِّيًا تُشْبِهُ حَالُه حَالَ مَنْ يسْتَهْزِىء بها، ولهذا قال الله عزّ وجلّ في هذه الآية:

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ...﴾.

ولَكِنْ لاَ يَدخُلُ في هٰذا الوَصْفِ مَنْ يُخَالِفُ مَا جاء في آيَاتِ اللَّهِ في بَعْضِ أحواله، بدافع الهوى، أو الشهوة، أو الغريزة، مع شُعُورِه بأنَّهُ

يَعْصِي، وبأنَّهُ واقعٌ تَحتَ مُؤَثِّراتٍ غير سَوِيَّة. فهذا عاصٍ لا رائحةَ في نَفْسِه للاسْتِهْزَاءِ بآيات اللّهِ وشرائعه وأحكامه، ودواؤه يكون بالتَّوْبَةِ والنَّدَمِ على ما فاتَ، والاستِغفارِ، ومحاولَةِ الالتزام بشرائع الله وأحكامه، والسَّيْرِ في صراطِه المستقيم على قدْرِ الاستطاعة، وكلَّما انحَرَفَ عَنْه ولَوْ بمقدارٍ يَسِيرٍ عادَ إليه مُسْتَغْفِراً تائباً، إذْ كُلُّ بني آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيْرُ الْخَطَّائِين التَّوَّابُون، الَّذِين لا يُصِرُّون مكابِرين على كبائِرِهم.



سابعاً
تدبُّر نصوص الصورة الخامسة

وهي الاستهانة بالرَّسُولِ والاستهزاءُ به، ويُلْحَقُ بالرَّسُولِ المؤمِنُونَ به، الّذِين اتَّبَعُوا مَا أُنْزِلَ إليهم مِنْ رَبِّهِمْ.

وقد جاء بشأن هذه الصورة عدّة نُصُوصٍ في القرآن المجيد، أَسْتَعْرِضُها بشيءٍ من التدبّر.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) بشأنِ الكَفَرَةِ مِنْ كُلِّ الأُمَمِ مَعَ رُسُلِهِمْ:

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٣٠﴾:

أي: يَا عَذَاباً وَعِقَاباً شَدِيداً نَازِلاً عَلَىٰ العباد، يَجْعَلُهُمْ يَتَحَسَّرُونَ على ما فرَّطُوا في جنب الله، إذْ رَفَضُوا دَعْوَة رُسُلِ رَبِّهم، وكانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بهم.

❋ ❋ ❋

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول) خطاباً لرسوله بشأن اسْتِهْزَاء كُبَراء مُشْرِكي مكَّةَ به:

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾﴾؟!!

● ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾!! استفهامٌ على وجه الازدراء والاسْتِهْزَاءِ، إذْ لم يكُنْ من أغنيائهم وعظمائهم قَبْلَ نُبُوَّته، ولأن الله عزّ وجلّ لم يَنْصُرْه بَعْدُ على مضطهديه، ومُضطهدي الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، إبّان نزول سورة (الفرقان).

❋ ❋ ❋

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) خِطَاباً لِرَسُوله وتَسْلِيَةً له:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾:

أي: هذه طريقة الكافرين الَّتي يُفرِزُها كُفْرُهم مِنْ كُلّ الأمم، مع كُلّ رسُولٍ يُرْسِلُهُ اللَّهُ إليهم، مهْمَا كان شأْنُه.

والمعنى: فلا تحزَنْ لاستهزاء بَعْضِ قَوْمِكَ بكَ، فقد ذاقَ مثل هذا الاستهزاء الرُّسُل من قبْلِك.

وجاء في أواخر هٰذه السّورَة قَوْلُ الله.

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

أي: إنَّا كَفَيْنَاكَ شَرَّ أئِمَّةِ المستَهْزِئين. وجاء في السِّيرَةِ كَما روى ابْنُ

إسحاق، أنَّ اللَّهَ عزَّ وجَلَّ أهلَكَ مِنْ أجْلِ رَسُولِهِ محمد ﷺ أئمَّةَ المستهزِئين، وهُمْ: الأَسْوَدُ بْنُ عَبْدِ يَغُوث، والْوَلِيدُ بْنُ المغيرة وهو أشدُّهم، والعاصُ بن وائل، والحارث بْنُ الطَّلاطِلَة، أَبُوهُ قَيْسٌ وأُمُّه غَيْطَلَةُ، كما ذَكَرَ الزُّهْرِيُّ جمعاً بين الروايات.

ولإهلاك كُلِّ واحدٍ من هؤلاء قِصَّةٌ ذَكرها كتَّابُ السِّيرة.



النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزُّخرف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي ٱلْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٧﴾:

وفي هذا النصّ أيضاً تَسْلِيَةٌ للرَّسول محمد ﷺ، وبيان لأحوال الأمم مع رُسُلِ رَبّهم.



النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ خطاباً لِرَسُولِهِ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَـٰنِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ۝٣٦﴾:

● ﴿أَهَـٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾؟! أي: يَذْكُرُ مَعْبُوداتكم الْوَثنيَّة بأنّها لاَ تَنفَعُ وَلاَ تَضُرُّ، وأنَّ عِبَادتها من السفاهة ونقصان العقل.

والاستفهام في هذه العبارة يُرادُ به الازدِراء والاستهزاءُ، وبعد آيات قال الله عزّ وجلّ في هذه السّورة:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾:

أي: فأحاط بهم العذابُ الَّذِي كَانُو بأَنْبائه يَسْتَهْزِئُون.



النَّصُّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّعْدِ/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول):

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾:

وَيَظْهَرُ أَنَّ هٰذا النَّصَّ قَدْ أُنزِلَ بمُنَاسَبَةِ اسْتِهْزَاءِ الْيَهُودِ والمنافقِينَ، وإيذَاناً بِقُرْبِ الانْتِصَارِ الحاسِمِ على كُلِّ المستهزِئين، وقَطْعِ دَابِرِهِم، وكَذٰلِكَ كانَ.



(٢١)
الملحق الخامس
دراسة تكاملية للنُّصوص بشأن لوط وقومه في القرآن المجيد

جاء ذكر «لُوطٍ» عليه السلام وقومه في خمسة عشر نَصّاً في القرآن المجيد من خَمْسَ عشرة سورة، وجاء في معظمها ذكر لقَطَاتٍ من قصّتِه مع قومه، متكاملاتٍ فيما بينها.

ومن شأنِ التدبّر المتأنّي، دِرَاسَةَ هٰذِهِ النصوصِ دِراسَةً واعيَة بِنَظْرَةٍ شُمُوليَّة تَكْشِفُ التَّكَامُلَ فيما بَيْنَها.

وأنقُل هذه النصوص من المصحف أوّلاً، مرتّبَةً وفق ترتيب نُزُول

سُورِهَا، ثم أشْرَعُ إنْ شاء الله بتدَبُّرِ ما جَاء فيها تَدَبُّراً تَكامُلِيًا على ما يفْتَح الله به.

النص الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: كذَّبَتْ قبل كُفَّارِ قُرَيْشٍ هؤلاءِ الأقوامُ، ومِنْهُمْ قومُ لوط، وسمَّاهم الله بأنَّهُمْ إخوانه، أي: في المواطَنَة في أرض سَدُوم.

وأبَانَ الله عزّ وجلّ أنَّهُمْ حَقَ عليهم وعيدُ الله لهم بالإهلاك الشامل، أي: تحقَّقَ بالتَّنفيذ وثبت.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾.

فذكرهم الله عزّ وجل في هذا النصّ بعنوان «قوم لوط».

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَـٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

أي: كذَّبَتْ قَبْلَ كُفَّار مكّة هؤلاء الأقوام ومنهم قوْمُ لوط، وأبان اللَّهُ عزَّ وجلَّ أنَّهُمْ حَقَّ عَلَيْهِم عِقَابُهُ، فالمرادُ بالوعيد الذي جاء ذكره في سورة (قٓ/ ٥٠ مصحف/ ٣٤نزول) هو العقابُ والْعَذَابُ الذي جَاء ذِكْرُهُ هُنَا في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول)، فهو وعيد بعقابٍ على ما كان منهم ممّا يقتضي ذلك.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

النص الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشُّعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّى لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾.

النّصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

النّصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ

أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ ﴾.

وقول اللّهِ عزّ وجل فيها أيضاً حكايةً لِمَا قَالَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ لِقَوْمِه:

﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٦﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

النص التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾.

النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ

ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ ﴾.

النص الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

النصّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول): في مَعْرِضِ الحديث عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلام:

﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ

رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهْلِكُوٓاْ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

النصّ الرابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله مُحمَّدٍ ﷺ بشأن الَّذين كذَّبوهُ مِنْ قومه:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾: أي: فَأَمْهَلتهم إمْهالاً كافياً لقطعِ أَعْذَارِهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: أي: فَكَيْفَ كان إنكاري، بمعنى عِقَابي الّذي تَمَّ به إهلاكُهم إهلاكاً عامًّا.

النصُّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التحريم/ ٦٦ مصحف/ ١٠٧ نزول):

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

وفي الْفُصُول والفقرات التاليات تَدبُّر ما يتعلَّقُ بلُوطٍ عليه السلام وقَوْمِهِ من هٰذِهِ النُّصُوص تدبُّراً تكامُلِيًا، مع ما لإبراهيم عليه السلام من مشاركة له في بعض قصَّتِه.

الفصل الأوّل
هُويّة لوط عليه السلام في القرآن

هو من ذُرّية نوح عليهما السّلام:

دلَّ على أنّه من ذُرِّية نوح عليهما السَّلام قول الله عزّ وجلّ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

فدَلّ هذا النصّ على أنَّ لوطاً من ذُرِّيَّةِ نوح عليهما السلام.

نشأته في العراق (بين النَّهرَيْن) وهجرته إلى أرض كنعان (فلسطين):

نشأ «لوطٌ» عليه السّلام حيث نشأ عمُّهُ إبراهيم عليه السّلام في «أور» (ما بَيْنَ النهرَيْنِ ـ العراق» وآمَنَ بعَمِّه «إبراهيم» نبيًّا ورسُولاً، وأَسْلَمَ له، وهاجر معه إلى الأرض الّتي بارَكَ اللّهُ فيها للعالَمِين، وهي فلسطين من بلاد الشّام.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (العنبكوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السّلام:

﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ . . . ﴿٢٦﴾﴾:

أي: فآمَنَ لُوطٌ بِعَمِّهِ إبراهيم نبيًّا ورَسُولاً، وأسْلَم لَهُ متّبِعاً مُطِيعاً.

يقال لُغةً: آمَنَ به، وأسْلَمَ له، فجاء في العبارة تَضْمِينُ فعل «آمَنَ» معنى فعل «أسْلَمَ» فَعُدِّيَ تَعْدِيَتَهُ، فَأَغْنَتِ الجملَةُ عن جُمْلَتين، وهذا من الإيجاز الْبَدِيع في الْقرآن.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرض الحديث عن إبراهيم عليه السلام:

﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾.

فدلَّتْ هذه الآيَةُ على أنّ لُوطاً هاجَرَ مع عَمِّهِ عليهما السّلام نَاجِيَيْن من طُغَاة حكام العراقِ (ما بين النهرين) وكانت فِلَسْطين مُهَاجَرَهُما.

والمعنى: ونجيْنَاهُمَا بالهِجْرَةِ من أَرْض نَشأتهما، وأَوْصَلْنَاهُمَا إلى الأرض الّتي بَارَكْنَا فِيها للعالمين.

فجاء في الآية تضمِينُ فعل «نَجَّىٰ» معنى فعل «أوصل» أو فعل «أبلغ» فَعُدِّيَ تَعْدِيته، فأغنت الجملة عن جُملَتَيْن، هما: ونجيناهما، وأَوْصَلْنَاهما.

نبوة لوط عليه السلام ورسالته وما آتاه الله من حُكْمٍ وعِلْم:

لقد اجتبىٰ الله عزّ وجلّ لُوطاً فجعَلَهُ نبيًا، ثم بَعَثَهُ رَسُولاً إلى قَوْمِهِ أهل «سَدُوم» فهو نبيٌّ من أنبياء الله ورسُولٌ من رُسُله، ومِنْ إثبات أَنَّهُ من الْمُرْسَلِين، نَفْهَمُ لُزوماً أَنَّهُ مِنَ النَّبِيِّين، لأنّ كُلَّ رَسُولٍ بَشَرٍ من رُسُلِ اللَّهِ للناس، هو نبيٌّ قبل بَعثِهِ رَسُولاً.

● ذَكر اللَّهُ عزَّ وجلَّ لوطاً عليه السلام ضِمْنَ الَّذِين اجتَبَاهم، وهداهُمْ إلَىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيم، وَآتاهُمُ الكِتَابَ والحكْمَ والنُّبُوَّة، فقال تبارك وتعالى في سورة (الأنْعَام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بعد ذكر طائفة من المرسلين ومِنْهُمْ لوطٌ عليه السلام:

﴿. . . وَٱجْتَبَيْنَـٰهُمْ وَهَدَيْنَـٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ

مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ . . . ﴿٨٩﴾﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾﴾:

أي: هو من النبيّين والمرسَلِينَ لأنَّ كلَّ رَسُول نبيٌّ.

وقد جاء تأكيد كونه رسُولاً في هذه العبارة بالمؤكّدات التاليات: (إنَّ - الجملة الاسميّة - اللاّم المزحلقة للخبر) لدفع توهم أنَّهُ مبعوث من قبل عمّه إبراهيم إلى أهل سَدُوم، فهو ينطق باسمه.

● يُضاف إلى هٰذين النَّصَّيْنِ أنّ كلَّ النُّصوص الَّتي جاء فيها بيان لقطَاتٍ من قِصَّتِهِ مَعَ قَوْمِهِ، تَدُلُّ على أنّه كانَ رَسُولاً من رُسُلِ الله لِقَوْمه.

● وجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) بيانُ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ آتىٰ لُوطاً حُكْماً وعِلْماً، فقال تباركَ وتعالى فيها:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا . . . ﴿٧٤﴾﴾.



الفصل الثاني
دعوة لوط عليه السلام لقومه أهل سَدُوم

لقد كانت دَعْوَة لوطٍ عليه السلام لقومه مثل دعوة سائر المرسلين لأقوامهم، إلاّ أنَّهُ شدَّدَ عليه السّلام، في تأنيبهم بالنِّسْبَةِ إلى القبائح الشنيعة المنتشرة في مُجْتَمعاتهم، والّتي يمارسُونها بوقاحة ومجاهرة وعدَمِ مبالاَة.

● قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي

لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

● وقال اللَّهُ عزَّ وجَلَّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ... ﴿٢٩﴾﴾.

● وقال الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

التدبّر التكاملي:

ففي المرحلة الأولى قال لوط لقومه ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

● من سورة (الشعراء): ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾: ظاهر هذه الآية يَدُلُّ على أنّ اللّهَ عزّ وجلَّ قَدْ أَرْسَلَ إلى هؤلاء الْقَوم قبل إرسال لوطٍ عليه السلام إليهم، رَسُولاً أو أكثر، لينْطَبِقَ عليهم لفظ «المرسلين» فأقل الجمع اثنان، والأَصْلُ حملُ اللّفظ على ظاهره مَا لَمْ يأتِ دليلٌ صحيح يدُلُّ على خلاف الظاهر.

وقوم لوطٍ قد كذّبوا من جاءهم من الرُّسل قبْلَ لوط، دون أَنْ يَنْتَهِي الْأَمْرُ بإهلاكهم، ورُبَّما كان من الذين مَرَّ بهم وبلّغهُمْ رِسالَةَ رَبّه إِبْراهيمُ عليه السّلام، قبْلَ أن يَبْعَثَ الله إليهم لوطاً رسُولاً خاصًا بهم.

وأصَرُّوا على تكذيبِ لُوطٍ مُدَّةَ إقَامَتِهِ بينهم، حتَّىٰ أَهْلَكَهُمُ الله إهلاكاً شاملاً مقترناً بِتَعْذِيبٍ أَلِيمٍ لهم، ومَسْبُوقاً بعذابٍ شَديد.

● من سورة (الشعراء): ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾﴾؟؟

أي: قال لهم بأسْلُوب العرض عن طريق الاستفهام: ألاَ تَتَّقُون عذابَ رَبّكمْ، وهذا يسْتَلْزمُ أنْ يكون لوطٌ عليه السلام قد أبان لهم قَبْلَ هذا العرض الرفيق الحكيم، أرْكانَ الْإيمانِ، فأعلمهم أنّه لا إلّهَ يُعْبَدُ بحَقٍّ إلاَّ الله جلَّ جلاله، وأمَرَهم بعبادته وحْدَه لا شريك له، بدليل قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرَسُولِهِ محمّد ﷺ:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾:

﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ﴾: أي: إلاَّ كُنَّا نُكَرّرُ الوحْيَ إليه أَنَّهُ لا إلَه يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ إِلاَّ أَنَا مع كُلِّ أَمْرٍ أو نَهْيٍ أو إرشادٍ نُوجِّهُهُ لعبادنا.

﴿فَٱعۡبُدُونِ﴾: أي: فاعْبُدُوني بالإيمان، والدعاء، والعمل بما آمُرُ به وتَرْكِ ما أنْهَىٰ عنه، والتَّقَرّبِ إليَّ بفعلِ مَا أُحِبُّ فِعْلَه، وتَرْكِ مَا أُحِبُّ تَرْكه.

فَكُلُّ رَسُولٍ أَرْسَلَهُ الله عزّ وجلّ إلى قَوْمٍ لاَ بُدَّ أَنْ يكونَ قَدْ بَلَّغَ قَوْمَهُ وَحْيَ اللَّهِ هذا، ومنهم لوطٌ عليه السلام، وفي خاتمة دعوته إيَّاهم إلى عبادة الله وحْدَهُ، كان يُنْذِرُهم بعذاب اللَّهِ، ويَعْرِضُ عليهم أَنْ يتَّقُوه، فإذَا لم يَسْتَجيبوا أنكر عليهم، وتعجَّبَ من حماقتهم وإصرارهم على العناد بالباطل، بأسْلُوب الاستفهام الإنكاريّ التوبيخيّ قائلاً لهم، ألاَ تَتَّقُون عذابَ الله وعقابَهُ، وهو رَبُّكُمْ وربُّ كلِّ شيءٍ، والمنذِرُ لَكُمْ بالهلاكِ والعذابِ الأليم إذا أَصْرَرْتُمْ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عليه من كُفْرٍ وفُجُور.

﴿أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وصف الله عزّ وجلّ لوطاً عليه السلام بأنّه أَخُو قَوْمِهِ أهل «سَدُوم» مع أنّه لم يكن من سلالة جَدِّهم أَوْ أجدادهم، نظراً إلىٰ أنّه اكْتَسَبَ حَقَّ المواطَنَةِ في أرضهم، مُنْذُ قَدِمَ إليهم وعاش بَيْنَهُمْ ومعه مواشيه الكثيرة، وقَبِلُوا أن يَكُونَ مِنهم.

● من سورة (الشعراء): ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾:

في هَاتَيْنِ الآيَتَيْنِ تلخيصٌ لثلاث مقالاَتٍ مفصّلاتٍ قَالها لوطٌ عليه السَّلام لقومه، وقالها من قبله نوحٌ وهُودٌ وصالح عليهم السَّلام لأقوامهم.

ففي المقالة الأولى: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ أبان لهم أنّه نَبِيٌّ من أنبياء الله، ورَسُولٌ من رُسُله، بَعَثَهُ الله لهم خاصّة، دلَّ على هذه الخصوصِيَّة تَقديم ﴿لَكُمْ﴾ وهو معمول، على عامله ﴿رَسُولٌ﴾.

وأبانَ لهم فيها أنَّهُ أمين، أي: في تبليغ رسالات ربّه، فلا ينْقُصُ شيئاً ممّا أَمَرَهُ الله بتَبْلِيغِه لقومه، ولا يزيد عليه شيئاً.

وفي المقالة الثانية: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾﴾ أَمَرَهُمْ بأمْرَين:

الأمر الأول: أنْ يَتَّقُوا الله، وجعله مُرَتَّباً بدلالة حرف (الفاء) على أنّه رسُولٌ أمين، أي: بأن يتَّقُوا عقاب الله وعذابه بالإيمان بالحق الذي جاءهم من عند ربهم، وبالإسلام له قولاً وعملاً، يَعْبُدُونَهُ لا يُشْرِكون بعبادته أحداً، وبطاعته بفعل ما يأمُرهم به، وتَرْكِ ما يَنْهاهُمْ عنه.

الأمْرُ الثاني: أن يُطِيعُوهُ باعتبارِهِ رَسُولَ رَبّهم، يُبَلِّغُهُمْ عنهُ ما يأمُرُهُ رَبُّهُ بتبليغه لهم، ونظراً إلى أنّهم مكلَّفُون من ربّهم أن يطيعوا رَسولَهُ إليهم، فطَاعةُ رَسُولِ الله من طاعة الله.

وقد جاء هذا الأمرُ الثاني مُرَتَّباً بـ (الفاء) أيضاً على أنّه رَسُولٌ أمين.

وفي المقالة الثالثة: ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾﴾.

فأبان لقومه بهذه المقالة أنَّهُ غَيْرُ ذي مَصْلَحَةٍ شخصيَّةٍ عنْدَهم من دعوته ومجاهدته لهم، وهذه المصلحة تكون بمثابة الأَجْرِ الذي يأخُذُهُ أو يستحقُّهُ من يقومُ بخدمَةٍ لغيره، إنَّما يَرْجُو أجْرَه عند الله الَّذِي أرْسَلَهُ وكلَّفَهُ أن يقوم بوظائف رِسالَتِهِ في قَوْمه.

● من سورة (الشعراء): ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُمۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾.

اشتملت هاتان الآيتان على بيان المقالة الرابعة التي قالها لوطٌ لقَوْمِه في أوائل دعَوته لقومه.

كلمة «الذكران» أخفُّ من كلمة «الرجال» لأنَّها قَدْ تُحْمَلُ على الْغِلْمَان، وفيها دلالَةٌ على أنَّ هذا التأنيب الذي جاء في هاتين الآيَتَيْنِ، قَدْ كان في المرحلة الأولى من تلويمه لهم على هذه الشنيعة، من أفعالهم الشائعة في مجتمعهم.

والاستفهام في: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ استفهامٌ خرج عن أصل دلالَتِه الّتي هي طلب الفهم، إلى معنى الإنكار عليهم وتلويمهم وتأنيبهم على ممارسَة هٰذِهِ الفاحِشَةِ بِوَقاحَة.

والمعنى: أتأتُونَ الذّكران من النَّاسِ في أَدْبارهم حيْثُ الْقَذَارَات، وتَذَرُون مكان الطهارة والنقاء الّذي خَلَقَهُ لكُمْ رَبُكُمْ في فُرُوج أزواجكم من النساء.

وتدُلُّ عبارة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ علىٰ أَنَّهُمْ رَدُّوا عليه قائلين:

لَسْنَا الوحيدين بين الناس في مُمَارسَةِ هٰذِهِ الْعَادَةِ لتحقيق لذّاتِ الفروج، ففي كلّ الأُمَم أُنَاسٌ يمارسُونها، فقال لَهُمْ: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ أي: بَلْ أَنْتُم انفرذْتم في ممارسة هذه القبيحة الشّاذَّةِ بِجُرْأَةٍ ووقاحَةٍ، في تَجَاوُزِ كلِّ الحدود النِّسْبِيَّةِ الّتِي تُوجَدُ عند غيركم من أهل الفجور من الأمم كمًّا وكَيْفاً.

يقال لغة: عَدَا، يَعْدُو، عَدْواً، فهو عَادٍ، والجمع: «عَادُون» أي: تجاوز الحدّ المحتمل، والمعنى تجاوزتم في انْحرافكم وشذُوذِكُمْ ما عليه غيركُم بنِسْبَةِ عدد الأفراد المنحرفين الشّاذّين في كلِّ أمَّةٍ، وفي كيفية مُمَارَسَةِ هذا الشذوذ مُجاهرة ووقاحةً وعُدْواناً علىٰ غَيْرِ المنحرفين الذين يَسُوؤُهم أنْ تُمَارَسَ معهم هذه الفَاحِشَة.

والمعنى: بل أنتم قومٌ ظَالِمُونَ مُتجاوزونَ حدود الفواحِش الّتِي يعصي بها عُصَاةُ النَّاسِ رَبَّهم.

❁ ❁ ❁

■ وفي مرحلة لاحقة قال لوطٌ لقومِهِ مَا جاء بَيَانُهُ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَـٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿وَلُوطًا﴾: أي: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا لوطاً إلى قومه، عطفاً على ما جاء في السورة بالنسبة إلى نوح عليه السلام، ومن عطف عليه قبل «لوط» عليهم السلام.

﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾: أي: اذكُرْ، بمعنى (ضَعْ في ذاكِرَتِكَ) أيُّها المتلقّي الصَّالِحُ للخطاب أيًا كنتَ، وفي أيِّ عصْرٍ وُجِدْتَ ومن أيّ أمّة.

﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾: أي: فاحِشَةَ إتْيَانِ الرّجال شهْوَةً مِنْ دُون النساء. والفاحشَةُ لغة: كلُّ ما جاوز الحدَّ المحتملَ في الانحراف والقبح.

﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾. أي: ما تَفَوَّقَ عليكم فيها أَحَدٌ من الناس.

السَّبْقُ: يستعمل بمعنى السَّبْقِ الزماني، وبمعنى السَّبْق بمقدار كميَّة العمل، أوْ كيفيَّته، وما أظنّ أَنَّ ممارسة فاحشة إتيان الذُّكُورِ لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفةً في تَاريخ البشريَّةِ قَبْلَ قَوْمِ لوطٍ، لكن لم تَصِلْ أُمَّةٌ غابرَةٌ، أو مُعَاصِرَة لقوم لوط، من الأمم الفاجِرَةِ إلى مِثْلِ ما وَصَلَ إليه قوم لوط.

والمراد بنفي سَبْقِ غيرهم لهم إثباتُ أنَّهم هم الأكثر سبقاً في هذا الانحراف والشذوذ من سائر الناس الغابرين والمعاصرين لهم.

وتبادر لأذهان المفسّرين معنى السَّبْق الزّماني، ولَسْتُ أراه المعنَىٰ المراد والله أعلم، إذ الإنسان هو الإنسان، والبشر منذ نشأتهم فيهم المستقيمون، وفيهم المنحرفُون الشاذّون.

﴿مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: من الناس، فالمراد بالعالمين هنا الناس، أخذا من طبيعة الحدث، ودَلاَلَة القرائن.

«من» في ﴿مِنْ أَحَدٍ﴾ أضيفت للتنصيص على العموم وتأكيده، ويسميها النحاة حرْفَ جرٍّ زَائِدٍ، وقد دخل هنا على فاعل «سَبَقَ» وهو «أَحَد» فَهُوَ مجْرورٌ لفظاً مَرْفوعٌ مَحلاً.

﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ... ﴿٨١﴾﴾.

أبان لهم لوطٌ عليه السلام بهذه العبارة أنّهُ يَعْلَمُ من أمْرِ فَوَاحِشِهم الّتي سَبَقُوا بها غيرهم من العالمين، أنَّهُمْ يَأْتُونَ الرِّجَال، وكان في المرحلة السابقة أبان لهم أنَّهم يأتونَ الذُّكْران، إذْ لفظ «الذكران» قد يُحْمَلُ على

الْغِلْمَان دون الرّجال، فارْتقىٰ في التشنيع عليهم ببيان أَنَّهُمْ يأتُون الرجال، لقضاء شهواتِ مذاكيرهم.

ويُشْعِر هذا الانتقال من الذُّكْرَان إلى الرجال أنّ الرّجال الكبار لا يرْغَبون في أن يُفْحَشَ فيهم، ما لم تتركّز لدَيْهم العادة منذ كانوا غِلْمَاناً يعبَثُ بهم الفاحِشُون.

﴿شَهْوَةً﴾ منصوبٌ على أنه نائب مفعول مطلق لبيان نوع الإتيان، أَوْ على أنّهُ مفْعُولٌ لأجله. **الشهوة**: الرَّغبة في الشيء لما فيه للنفس من لذّةٍ جَسَدِيَّةٍ أو نفسِيَّة.

﴿مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾: أي: حالة كون إتيان الرّجال لقضاء شهوة الفرج، هو دُون إتيان النساء لتحقيق هٰذه الرَّغبة، إذْ فروج النساء أَطْهَرُ، وهي المخلوقة للحرث والْبَذْر، أمّا الأدْبَارُ فبُؤْرَةٌ جُرْثوميَّةٌ قَذِرة، جالبةٌ للأمراض والأوجاع.

وجاء في القراءة الأخرى: [أَإِنَّكُمْ] بأسلوب الاستفهام الإنكاريّ التوبيخي. فدلَّ هذا على أنّ لوطاً عليه السلام خاطبهم أوّلاً مبيناً قبيحتهم، ثم خاطبهم مستنكراً وَمُوبّخاً.

.. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾: تفصح هذه الْعبارة عن مطويٍّ لم يُصَرَّحْ به في اللفظ، ولكن يمكن استخراجه بالتدبّر.

إنّ لوطاً لمّا شدَّد الإنكار عليهم بشأن قبيحة إتيانهم الرّجال، لا بُدَّ أن يكونوا قد قالوا له: لَسْنَا الوحيدين الذين يمارسُون إتيان الرّجال دون سائر الناس.

فقال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾: أي: متجاوزون الحدّ المحتمل في ارتكاب الفواحش الشاذّة، **فالإسْرَاف في اللّغة**: هو تجاوز الحدّ المحتمل.

في المرحلة السابقة قال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ كما جاء في النصّ الذي في سورة (الشعراء).

وفي هذه المرحلة التي دَلَّ عليها النصّ الذي في سورة (الأعراف) قال لهم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾.

ويظهر أنّ المسْرِفَ أشدُّ توغُّلاً في الإثم من العادي، إذِ العادي هو المتجاوزُ لأوّل حُدُودِ الحدّ، أمّا المسْرِفُ فهو المتوغّلُ بعْدَ حُدُود الحدّ المحتمل في ارتكاب القبائح والآثام، الضالُّ ضلالاً بعيداً.

❁ ❁ ❁

وفي مرحلة ثالثة قال لوط عليه السّلام لقومه ما جاء بيانُه في سورة (العنبكوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهو قول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ... ﴿٢٩﴾﴾.

فأعاد لوط عليه السّلام تأنِيبَهُمْ وتَوْبيخَهُمْ على إتيانِهِمُ الفاحشة الّتي ما سَبَقَهُمْ بها من أحَدٍ من العالَمين، على ما سَبَقَ شَرْحُه، لأنّهم اسْتَمَرُّوا علىٰ تمادِيهِمْ في غَيِّهِم.

وأضاف إليها تأنِيبَهُمْ على رَذِيلَتَيْنِ أُخْرَيَيْنِ من رذائِلِهم، هُمَا: قَطْعُ السَّبِيلِ، وإتْيَانُهُمُ المُنكَرَ في نَادِيهم.

● أمّا قطْعُهُمُ السَّبِيلَ فهو أنّهُمْ كَانُوا يَتَرَصَّدُونَ الْمُسَافِرِين المجتازين الطُّرُقَاتِ الّتي تَمُرُّ بمرَاكِزِ قُواهم، فيقْطَعُونَ عَلَيْهِمْ سَبِيلهم، للْعُدْوان عليهم في أمْوالِهِم وَأَعْرَاضِهِم.

● وَأَمّا إتْيَانُهُمُ المنكرَ في نَادِيهم، فمِنْهُ أَنَّهُمْ كانُوا إِذَا مَرَّ بِهِمْ أَحَدٌ مِنَ

النَّاسِ حَذَفُوهُ بالْحَصَىٰ، وسَخِرُوا مِنهُ ظُلْماً وَعُدْواناً، كما جاء في حديثِ عن أمّ هانىءِ بنت أبي طالب، عَنِ النبيّ ﷺ، رواه أحْمَدُ والترمذيُّ وابْنُ جَرِير وابْنُ أبي حَاتم[1]، وحسّنَه الترمذي وصَحَّحَهُ الحاكم.

وعبارة: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ صالِحَةٌ لأنْ تُحْمَلَ علىٰ مُنْكِراتِ أخْرَىٰ كانوا يأْتُونَها في نَاديهم.

❁ ❁ ❁

وفي مرحلة رابعة قال لوط عليه السَّلام لقَوْمِهِ ما جاء بيانُه في سورة (النَّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) وهو قول اللّهِ عزَّ وجلَّ فيها:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَآءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾.

فدلَّ هذا النصّ على أنّ لوطاً عليه السَّلام، تابَعَ توبيخَهم وشدَّدَ في تلويمهم وتأنيبهم بشأنِ قبيحة إتْيانِهم الرِّجال، وأضاف تأنيبَهُ لهم على مَجانَتِهم وقِحَتِهم، إذْ كانُوا يجتمعون على ممارَسَتِها، وهُمْ يُبْصِرُونَ بأعْيُنِهِمْ الْفَاعِلَ والمفعُولَ فيه، غَيْرَ مُبَالِينَ بأنّه من المنكراتِ الكُبْرَىٰ، ولا مُكْتَرِثِينَ لذلِكَ، وقَدْ يَجِدُون في شُهُودِهم هذه الممارسَاتِ من غيرهم، لَذَّةً أوْ إثَارَةً لشهواتِهم، وهذا من أقبح الإسْراف والضلال البعيد.

الاستفهام في: ﴿أَتَأْتُونَ﴾ وَفي ﴿أَئِنَّكُمْ﴾ استفهامٌ إنكاريّ تنديديٌّ تَغْنِيفيّ، وهو مُسْتَعْمَلٌ في غَيْرِ مَا وُضِعَ له من طلب الفهم، وقد اتّخَذَهُ لُوطٌ عليه السَّلامُ أسْلُوباً للتنديد بهم، وتَغْنِيفِهِمْ، كأنَّ المستَفْهَمَ عَنْهُ من الأُمُور المستغربة الّتي لاَ يَتَصَوَّر العقلاء الأسْوِيّاء أنْ تكون ظاهرة من ظواهر مجتمع بشَرِيّ.

---

(١) انظر الشوكاني في «فتح القدير» في أواخر تفسيره للنصّ.

﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ تَدُلُّ هذه العبارة على مطْوِيٍّ يَكْشِفُهُ حُسْنُ التَدَبّر.

إنّ لُوطاً عليه السلام لمَّا شدّدَ النكير على قومه، ولا سيّما إنكارُهُ قَبيحَة حُضُورِهِم ومُشاهَدَتِهِم بأبصارهم ممارساتِ بَعْضِهِم إتيانَ الرِّجالِ منهم، رَدُّوا عليه بقولهم مثلاً: لسْنَا شَاذِّينَ في أعمالنا هذه عن سائر الأَقْوام، فكُلُّ الأَقْوام يفْعَلُونَ مثل ما نفعل، فقال لهم لوطٌ عَلَيْهِ السَّلاَم: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾:

أصْلُ الجَهْلِ مَأْخُوذٌ من قولهم: جَهِلَتِ الْقِدْرُ تَجْهَلُ جهلاً، أي: اشتَدَّ غَلَيَانُها، وهو ضِدُّ تحَلَّمَتْ.

ويُقَالُ لغة: جَهِلَ فُلاَنٌ على غَيْرِهِ، أي: جَفَا وَتَسَافَه.

ويُطْلَقُ الجهْلُ بمعنَىٰ عَدَمِ الْعِلْم بالشيء.

فدلَّ الفعل المضارع ﴿تَجْهَلُونَ﴾ الّذي يُفِيدُ معنَىٰ التكرار والتَّجدّد، على أنّهم يضيفون إلى ممارساتهم قبيحَتَهُمُ الشّاذّةَ غليَاناً غَضَبيًّا ضِدَّ من يُنْكِرُ عليهم، ويضيفون أيضاً جفاءً وتسافُهاً وشتائم يوجّهُونَهَا له، أو يُوجّهونها لمن يُحِبُّونَ أنْ يمارسُوا فَاحِشَتَهُمْ معه، وهو يأبىٰ لأنَّهُ لم يَعْتَدْهَا ولَيْسَ من أَهْلِها، فيغتصبونه بالْقُوَّة اغتصاباً جماعِيًّا، فَهُمْ بهذا يَجْهَلُونَ بتكرارٍ آناً فآناً، وتتفاقم الجَهَالاَت الصادرات عنهم شِدَّةً وعُنُفاً.

وعلى هذا المعنى قال الشاعر العربيّ:

أَلاَ لاَ يَـجْـهَـلَـنْ أَحَـدٌ عَـلَـيْـنَـا   فَنَجْهَلَ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

وبهذا ظهر لنا أنَّ لوطاً عليه السلام قال لقومه في المرحلة الأولى: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ وهو ما جاء في سورة (الشعراء).

وقال لهم في المرحلة الثانية: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ كما جاء في سورة (الأعراف).

وقال لهم في المرحلة الأخيرة: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ كما جاء في سورة (النمل).

عَادُون: متجاوِزُون الحدّ المحتمل، وقَدْ يكون دون إسراف وتوغل في الضلال.

مُسْرِفون: متجاوزونَ الحدَّ المحتمل مع توغُّلٍ في الضلال البعيد.

تَجْهَلُونَ: تضيفون إلى إسْرافِكُمْ في التَّوغُّل في الضلال البعيد جَهَالاَتٍ غَضَبِيَّة فيها جفاءٌ وتسافُهٌ وشتائم، ومحاولاتُ اغْتِصَاب جماعيّ للّذِينَ لا يستجيبون لَكُمْ استجابَةً طَوْعيَّة.

وبهذا التدبُّرِ تكامَلتْ لدَيْنا دلالاَتُ النصوص الموزَّعَةِ في سُور القرآنِ المجيد.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

اقتراحات قوم لوط بإخراجه وإخراج أهله من أرضهم ثمّ إنذار لوط لهم بالإهلاك الشامل وتحدّيهم نُذُرَه

تصاعد اسْتِياءُ قوم لوط من شدّة تأنيباتِه لهم، ضِمْن أربعة مراحل، فكانت كلُّ مَرْحَلَةٍ أشدّ من سابِقَتِها.

المرحلة الأولى: لمَّا سَاءَهم تأنيبُهُ لهم بخُصُوص فاحِشَةِ إتيانِ الذُّكُور، وهي من القبائح الّتي صارت متأصّلَةً في مُمَارسَاتِهِم قبائِحهم، في ممارستِهِمْ، وليس لدَيْهِمُ اسْتِعْدادٌ للتَّخَلُّصِ مِنها، وجَّهَ كُبَرَاؤُهُمْ اقتراحاً بإخراج آلِ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِهم، لأنَّهُمْ أُنَاسُ لاَ يَتْرُكُونَ طَرِيقَتَهم في التَّمَسُّكِ بالتَّطَهُّرِ مِنَ الفواحِشِ آناً فآناً، فوجودهم بَيْنَهُمْ يُنَغِّصُ عليهم في مُمَارسة قبائِحِهم، وإخراجُ آل لُوط يَتَضَمَّنُ إخراجَهُ أوّلاً، لأنَّهُ هو حامل رِسَالة التلْوِيم والتأنيب.

دلَّ على هٰذه المرحلة قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (النَّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾﴾.

ودَلَّ علىٰ أنَّ هٰذا كَانَ في أوّلِ مراحل التفكير بتقديم اقتراحِ بإخراج لُوطٍ وآلِهِ من أَرْضِهم دلالتان في هٰذِهِ الآية:

الدلالَةُ الأولى: استعمال «الفاء» الّتي تدلُّ على الترتيب مع التعقيب، في أوّل الآيَةِ: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾ أي: فَلَمْ يكن عنْدَ قَوْمِهِ رَدٌّ على نصائِحِهِ وتأنِيباتِه ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ...﴾.

الدلالة الثانية: استعمالهم عبارة ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ الدّالّة على التكريم، وعَلَىٰ اعترافِ قومه بأنّ لوطاً وأَهْلَهُ من عِلْيَةِ الناس في أرضهم، ومن ذوي المكانة بَيْنَهم الذين يُقَالُ لهم بحَسَب الْعُرْفِ السائد بينهم: آلُ فلان.

﴿أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾: أي: قالَ بَعْضُ كبرائهم في ناديهم هذا القول على سبيل إبداء الرَّأي، وسكت الباقون، ولكِن لم يتخذوا قراراً بإخراجه، إذْ لَيْسَ في النصوص أنهم أخْرَجوه فعلاً، ولا اتّخذوا وسائل لإخراجه بالقوّة.

﴿مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾: أيْ: مِنْ مُجمَّعِكُمُ السَّكَنِيّ، وهو يَشْمَلُ المركز الرئيس وتوابعه.

الْقَرْيَة: تُطْلَقُ في اللّغة علىٰ كُلّ أرضٍ فيها بيوتٌ ومساكن مجتمعة، قلَّتْ أم كَثُرَتْ، ولو بلغت مَدِينَةً عظيمة جدًّا، وقال أهل اللّغة: الْقَرْيَةُ، المصْرُ الجامع.

﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾: أي: إنَّـهُـم أُنَاسٌ يَـتَـنَـزَّهُـونَ دَواماً عـن

الفواحِشِ، ويَنْتَقِدُونها، ويُشَدِّدُونَ في التَّلْوِيم عليها، فطريقَتُهم مُخَالِفَةٌ لطَرِيقَتِكُمْ، وَوُجودُهُمْ بيْنَكُمْ يُنَغِّصُ عليكُمْ أمْرَكُمْ في مُمَارَسَةِ ما تَرْغَبُونَ فيه، ومَا تشتهون.

وقَصْدُهم من آل لُوطٍ، لُوطٌ عَلَيْهِ السّلامُ وابْنَتَاهُ، أو بناتُهُ الثلاث، وزَوْجَتُهُ إذَا كانَتْ حَرِيصَةً على مُلاَزَمة زَوْجها وَبَنَاتِها، فقد كانت كافِرَةً وعلى هوى قومها، وخائنةً لزوجها بتبليغِ قَوْمِها الأخبار الّتي تُهِمُّهُمْ مِمَّا يَجْرِي مع لوط زوجها.

❁ ❁ ❁

المرحلة الثانية: ولمَّا تابَعَ لوطٌ عليه السّلامُ تأنيبَهُ لقومه بخصوص فاحشة إتيان الرّجال في أدْبارهم، أعادوا اقتراح إخراجِه وإخراجِ أَهْلِهِ من قَرْيتهم.

دلَّ على هذه المرحلة قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

ودَلَّ عَلَىٰ أَنَّ هذا كان في مَرْحَلَةٍ ثانية دَلاَلَتَانِ في هٰذِهِ الآية:

الدّلاَلَة الأولى: استعمال «الواو» العاطفة التي تدلُّ على مطْلق الجمع، فلا تفيد تَرْتيباً وَلاَ تَعْقيباً، ففي أَوّلَ الآية: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ﴾: أي: ولم يكن عند قومه رَدٌّ على نصائحه وتأنيبَاته ﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ...﴾.

الدّلالة الثانية: عدَمُ ذِكْرِهِمْ لُوطاً وأَهْلَه بعبارة صريحة، بل كَنَّوْا عنهم بالضّمير الدّالّ عليهم، ففي قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ فهذا التعبير يَدُلُّ على أَنَّهُمْ وصَلُوا إلى حالة غَضَبٍ وكراهيَةٍ وخُصُومَةٍ للوطٍ وبنْتَيْه.

❁ ❁ ❁

المرحلة الثالثة: لم ينتَهِ لوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ عن مُتَابعة قَوْمِهِ بالنُّصْحِ والتأنيب وتقبيح كبائرهم ومنكراتهم.

فواجَهَهُ قَوْمُهُ بالتَّهْدِيدِ بِالإخراج والنَّفْي من أرْضِهم، باسْتِعْمَالِ الْقُوَّةِ الإكْرَاهِيَّة.

دلَّ على هذا قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَـٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾:

أي: نُقْسِمُ: لَئِنْ لَمْ تنتَهِ يَا لُوطُ عَنْ تَأْنِيبِنَا والتَّشْنِيعِ عَلَيْنا لَنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا أَنْتَ وَمَنْ هُوَ عَلَىٰ دِينِكَ وطَرِيقَتِكَ.

وأدْرَكَ لوطٌ عليه السَّلامُ أَنَّهُ إِذَا تَابَعَ رِسَالَتَهُ في قَوْمِهِ فَإِنَّهُمْ مُخْرِجُوهُ بالْقُوَّةِ لاَ مَحَالة.

وفي هٰذِهِ الْمَرْحَلَةِ أَصْدَرَ قَوْمُهُ قرار عَزْلِهِ عَزْلاً اجتماعيًّا، إذْ نَهَوْهُ عَنْ أن يَلْتَقِيَ أَحَداً من الناس، سواءٌ أكان من قَوْمِهِ، أَمْ مِنْ خَارِجِ قَوْمه.

دلَّ على هذا قول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) في حكاية قولهم له، حين علموا أنَّ عنْدَهُ شباباً مُرْداً حِسَاناً، فأقْبَلُوا إلى دَارِهِ يُرِيدُون ممارسة الفاحِشَة معهم، وكانوا في الحقيقة رسُلاً من الملائكة، أَرْسَلَهُمُ اللّهُ عزّ وجلّ لِتَعْذِيبهم وإهلاكهم.

﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾؟؟: حين لم يسْمَحْ لهم بأنْ يَصِلُوا إلى ضيوفه، حتَّىٰ لا تلْصَقَ به فضيحةٌ مُنْكَرَة.

أي: ألم نَنْهَكَ عن أن تلْتَقِي أحداً من النَّاسِ ولَوْ كانُوا من غَيْرِ قَوْمِنَا؟؟

❁ ❁ ❁

المرحلة الرابعة: لمّا وصل قوم لوط إلى تهديده تهديداً صَرِيحاً بالإخراج، وعزله عَزلاً اجتماعيًا عَنْ أَنْ يلْتَقي أحداً من الناس، أَنْذَرَهم بعذاب الله، وبإهْلاَكٍ شاملٍ وكرَّرَ إنْذَارَهُ لهم.

فكَذَّبُوه بالنُّذُر، وأَغْرَاهُمْ إمْهَالُ الله لهم فتحدَّوْهُ بأنْ يَأْتِيَهُمْ بعذاب اللَّهِ إنْ كانَ من الصَّادِقين، مُتَوَهِّمِينَ أَنَّهُ غَيْرُ صادق، وأَنَّ الله لَنْ يُنْزِلَ بِهِمُ الْعَذَاب والْهَلاَكَ.

دلَّ على هذا قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾﴾ - ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾﴾.

أي: فشكُّوا فيها وكذّبوه بها.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

تَدَلُّ «الفاء» في عبارة: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ...﴾ على أنّ هذا كانَ عَقِب توجيه «لوطٍ» عليه السلام إنذاراته لهم، وهي أيضاً تُفْصِحُ عن مَطْوِيٍّ في النَّصّ تقديرُه: فكان آخِرُ أمْرِ لوط مع قومه أنْ أنْذَرَهُمْ بعذَابِ اللَّهِ عدّة مَرَّاتٍ، وأنْذَرَهم بإهلاك اللَّهِ لهم إذا اسْتَمَرُّوا علىٰ كُفْرِهِمْ وقَبَائِحِهم ومُنْكَرَاتِهِم الشنيعات، فقالُوا بانفِعَالٍ وَغضَبٍ: ﴿... ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

وجاء اسْتِعْمَالُ حرْفِ الشرط «إِنْ» بعبارَتهم، لأَنَّهم لم يكُونوا يَعْتَقِدُونَ صِدْقه، ولو كانوا يَعْتَقِدُون صِدْقَهُ ولو بِظَنٍّ رَاجِحٍ لَمَّا تَحدَّوْهُ هذا التَّحدِّي.

والسَّبَبُ فِي عَدَمِ اعتاقدهم صِدْقَهُ، طُولُ إمْهَالِ اللَّهِ لهم، واستغراقُهم

في مُمَارَسَاتِهِم شهواتِهم الجانحات الشَّاذَّاتِ، وهو الأمْرُ الَّذِي مَدَّ الْغِشَاوَةَ الكثيفة على بصائرهم، فأعْمَاها عن رُؤيَةِ أدِلَّةِ الْحَقّ، وعن رُؤيَةِ صراط الله المسْتَقِيم.

عندئذٍ لَمْ يَجِدْ «لُوطٌ» عليه السلام، وهو مُهَدَّدٌ بالإخراج الْقَسْرِي، من أرض قَوْمه، ومَعْزُولٌ عَزْلاً اجتماعيًا عن أنْ يَلْتَقِي أحداً من الْعَالَمين، وهذا يقتضي أَنَّهُ مَمْنُوعٌ مِنْ أَدَاء رسالَتِهِ في قومه مَنْعاً جَبْرِيًا، إلاّ أنْ يقول لِقَوْمِهِ إنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ، مُعْلِناً سَخَطَهُ وعَدَمَ رِضَاهُ عن أعمالهم المنكَرَةِ القبيحة الشَّنِيعَة.

دلَّ على هذا قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلۡقَالِينَ ١٦٨﴾:

أي: إنّي لِعَمَلِكُمْ الّذِي أنكَرْتُهُ عليكُمْ مُبَلّغاً رِسَالاَتِ رَبّي من الكارِهِينَ، الْمبغِضين، المستنكِرِينَ الْهَاجِرِينَ.

وَإِذْ أوقَفَهُ قَوْمُهُ عن مُتَابَعَةِ رِسالَتِه فيهم بالْجَبْر، وَرَأَىٰ أَنَّهُمْ قَدْ وصَلُوا إلى حالَةٍ مَيْؤُوسٍ مِنْ صَلاحِهِمْ مَعَها عَنْ طَرِيقِ إراداتِهِمُ الحرَّة، ورأى أيْضاً أَنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ من الغيظ من شَأْنِها أنْ يُدَبّروا ضِدَّهُ وضِدَّ أَهْلِهِ شرّاً، بَعْدَ أنْ تَحَدَّوْهُ بأن يأتِيَهُم بعَذَاب اللَّهِ إنْ كانَ من الصّادقين، دَعَا رَبَّهُ أنْ يَنْصُرَهُ عَلَيْهِم باعْتبارهم قَوْماً مُفْسِدِين.

دلّ على هذا قَوْل الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠﴾.

وحين أَدْرَكَ أنّ نُذُرَ الله الّتي بلّغَهُمْ إيّاهَا قَدْ صَارَ وُقُوعُها وَشيكاً لاَ

محالة، توجَّهَ لرَبّه داعياً أنْ يُنجِيَهُ وأَهْلَهُ مِن العذاب الذي سَيُنْزِلُهُ بقَوْمِهِ جزاء منكراتهم وقبائحهم.

دلّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) يَحْكي دُعاءه.

﴿رَبِّ نَجِّنِى وَأَهْلِى مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾:

أي: نَجّني وَأهْلِي من العقاب والعذاب الّذي سَيَنْزِلُ بقومي جزاء ما يَعْمَلُونَ مِنْ قبائح ومنكرات.

ويظهر أنَّهُ أدْخل زَوْجَتَهُ في عُموم دُعائِهِ، لأنّها لَمْ تكُنْ تَعْمَلُ الخبائِثَ والمنكرات، على الرغم من كُفْرها، وكوْنِ هواها مع قومها، إلاّ أنّ قضاء الله عزّ وجلّ شَمَلَها بأن تكون مع الهالكين مِنْ أجل كفرها، وخيانتِهَا لزَوْجها بإبْلاغ قومها ببعض ما يَجْرِي في داره، وببعض تصَرُّفاته.



الفصل الرابع

مرور الرسُل من الملائكة المأمورين بتعذيب قوم لوط وإهلاكهم بإبراهيم عليه السلام للبشرى والإعلام

مقدمة:

وصل قوم «لوط» إلى حالة ميؤوسٍ معها من استجابتهم استجابةً طوعيَّةً لدَعْوَةِ رسولهم عليه السلام.

فقضىٰ الله عزّ وجلّ أن يُعَذّبهم ويُهْلِكَهُمْ إهلاكاً عامًّا شاملاً، وأنْ يتّخِذ مع تَعْذِيبهم وإهْلاكهم طَرِيقة يَقْلِب بها بلادهم، فيَجْعَلَ عَالِيَها سَافِلَها، مُعَامَلَةً لَهُمْ بالمثْلِ، إذْ قَلَبُوا الأوضاع الطبيعيَّة لدىٰ ممارساتهم قضاء شهواتِ فُروجهم.

وقد بلَغُوا مَبْلَغاً من الوقَاحَةِ والْمَجَانَة والإصرار على الْفُحْشِ العلني الشَّاذ، والْعُدْوَانِ على الناس في أعراضهم وأموالهم، كَانُوا فيه هُمُ السّابقين لكلّ نظرائِهِمْ، مِنْ فُسَّاقِ مُعَاصِريهم، وفُسَّاقِ الغابرين.

إرْسَالُ الرُّسُل من الملائكة لإهلاكهم وتعذيبهم:

لمَّا كانت رسالَةُ لوط عليه السلام لقَوْمِهِ أَهْلِ سَدُوم، بمثابة فرع لرسالة إبراهيم عليه السلام، إذْ كان مُؤْمِناً به، ومُسْلِماً له، وتَابعاً من أتْباعه، وقد ارتَحَلَ إلى أرْض سَدُوم بإذْنِه ومَشُورَتِه، وكانت هذه البلاد مع سائر البلاد الّتي كان إبراهيم عَلَيْهِ السّلامُ يَطُوفُ بها في أسْفَاره وَتَنَقّلاَتِهِ مجالاَتِ دَعْوته، كَانَ من الحكمة إبْلاغُ إبراهيم عليه السّلاَمُ بما سَيَحُلُّ بِقَوْمِ لُوطِ مِنْ عَذَابِ وإهْلاَكِ شَامِلَيْن.

وَرَافَقَ هذا أَنّ اللّهَ عزّ وجلَّ قَدْ قَضَىٰ بِحكمَتِهِ أنْ يَهَبَ إبْراهِيمَ عَلَيْهِ السَّلاَمَ مِنْ زَوْجَتِهِ «سَارَة» العجوز العقيم بَعْدَ أَنْ يُصْلِحَها لتكونَ ذاتَ وَلَد، وَلداً يُسَمُّونَهُ «إسْحَاق» وَأَن يكون نبيًا وَرَسُولاً، وقَضَىٰ أن يَهَبَ إسحاق إذا كبِرَ وَتَزَوَّجَ وَلَداً يُسَمَّىٰ «يَعْقُوب» وأن يكون نَبيًا وَرَسُولاً أيضاً.

وقضت حكمة الله جلّ جلالُهُ أن يُبَشِّرَ إبراهيم عليه السلام وزوجته «سارة» بإسْحَاقَ وَلَداً لهما، وبيعقوبَ حفيداً لهما، قبل أَنْ يُعْلِمَ إبراهيم عليه السلام بنبأ ما قَضَاهُ بشأنِ قوم لوطٍ من تَعْذِيبِ وإهلاك.

فأرسل الله عزّ وجلّ رُسُلاً مِنَ الْمَلاَئِكَةِ عَلى صُوَرِ شَبَابِ مُرْدٍ حِسَانٍ إلى إبْرَاهِيم علَيْهِ السّلام أوّلاً، قَبْلَ أَنْ يَذْهَبُوا إلى لُوطِ عَلَيْه السلام.

وقد جاء بيان مجيء هؤلاء الرُّسُلِ إلى إبراهيم عليه السَّلام في عدّة نصوص من عِدَّةِ سُور، وهي متكامِلَةُ الدَّلاَلاَتِ فيما بينها.

(١) ففي سُورَةِ (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قال الله عزَّ وجَلَّ:

● ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾:

﴿ضَيْفِ﴾: يُطْلَقُ على الواحد والاثنين فأكثر، والمراد عَدَدٌ من الملائكة أَرْسَلَهُمُ الله، ووصفهم بأَنَّهُمْ مُكْرَمُونَ إشارةً إلى أنّهم ليْسوا بَشراً بَلْ هُمْ مَلاَئكة، فقد وَصَفَ اللّهُ عزّ وجلّ الملائكة بأَنَّهُمْ عِبادٌ مُكْرَمُون، فقال تعالى في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

يُضَافُ إلى هذا أنّ إبراهيم عليه السّلام قد أكرمهم كعَادَتِهِ مع كُلّ ضَيْفٍ يَأْتيه، وأنَّهُمْ تَبْدُو عليهم دلائلُ أَهْلِ النِّعْمَةِ والمجْدِ والشَّرَف.

● ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

[إِذْ] بمعنى «حين» أي: حينَ دَخلُوا عليه.

وقد بَدَؤُوه بالتحيَّة قائلين له «سَلاماً» أي: نُسَلِّمُ عَلَيْكَ سَلاماً، فلفظ «سلاماً» مفعولٌ مُطْلَقٌ لفِعْلٍ محذوف.

﴿قَالَ سَلَامٌ﴾: أي: تَحِيَّتِي لَكُمْ: سَلاَمٌ.

قال البلاغيون: «سَلاَمٌ» جملة اسميّة مع المبتدأ المحذوف، و«سَلاَماً» جملة فعليّةٌ مع العامل المحذوف، والجملة الأسميّة أقوىٰ وآكَدُ من الجملة الفعلية،

وَعلى هذا فقد رَدّ إبراهيم عليه السّلامُ التحيَّةَ بأَحْسَنَ مِنها.

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾: أي: أنتم قَوْمٌ لاَ أَعْرِفُ أشخاصَكُمْ، ولا أَعْرِفُ مِنْ أَيْنَ أنتم، وَلكن لكم عليَّ حقُّ ضيافتكم.

● ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَرَاغَ﴾: أي: فذَهَبَ بِخِفَّةٍ وَسُرْعَةٍ لضيافتهم وإكرامهم، دُونَ أن يُظْهِرَ عَلامَاتِ إرادَةِ إكرَامِهِمْ، من شدّةِ مَا لَدَيْهِ من جُودٍ وسَخَاءِ نفس.

دلت «الفاء» في: ﴿فَرَاغَ﴾ على سُرْعَة ذَهَابِهِ إلى أَهْلِهِ عقب قُدُوم الضيف إليه وهو يجهل مَنْ هم.

﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾: كانت قُطْعَانُ الأبقار هي المفضَّلَةَ في مواشيهم، وكانت ثروة إبراهيم ولوط عليهما السَّلام من المواشي، وهي تَرْعَىٰ من الكلأ المباح.

ومعلومٌ أَنَّ لَحْمَ الْعِجْلِ السَّمِينِ أَطْيَبُ وَأَلَذُّ من لحوم الأبقار الكبيرة.

ودلت «الفاء» في: [فَجَاءَ] علىٰ سُرعَةِ عَوْدَتِهِ بالْعِجْلِ السّمِين لضُيُوفه.

ويظهر أَنَّ مطْبَخَ إبراهيم عليه السلام عند أهله قَدْ كانَ مستَعِدًا دَوَاماً لتقديم الطعام المطْهُوّ الناضِجِ للضُّيُوف الذين يأتونَهُ نَهَاراً أو ليلاً.

(٢) وَجَاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قولُ اللَّهِ عزّ وجَلَّ:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾﴾.

وَقَرأ أبو عَمرو: [رُسْلَنَا] بإسْكَانِ السِّينِ. «رُسُلٌ» و «رُسْلٌ» بضم السّين وإسكانها لغتان عَرَبِيَّتَان.

﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ﴾: أيْ: فَمَا أَبْطأَ عن مجيئِهِ بعِجلٍ. «أَنْ» هُنَا مصْدَرِيَّةٌ. دَاخِلَةٌ علىٰ الفعل الماضي، ويُقَدَّرُ قَبْلَها حرْفُ جرٍ محذوف، هو هنا «عَنْ» والمرادُ بنفي اللُّبْث عَدَمُ الإبْطاءِ، حتَّىٰ كأنَّهُ لَمْ يلْبَثْ مُطْلَقاً، من شدّةِ سُرْعَةِ إحضارِهِ ضيافته.

﴿حَنِيذٍ﴾: أي: مَشْوِيٌّ بالدَّسِّ في النار، أو في حجارَةٍ مُحَمَّاةٍ بالنّار.

فأضاف هذا النصّ على النصّ الذي جاء في سورة (الذاريات) ما يلي.

أولاً: أنّ الشباب الذين ظنَّهُمْ إبراهيم عليه السَّلامُ ضُيوفاً بحَسَب ظاهر حَالِهِمْ، هم في الحقيقة رُسُلٌ مُرْسَلُونَ مِنْ عِنْدِ الله، فهم ملائكة.

ثانياً: أنهم جاءُوهُ بالْبُشْرَىٰ، «**الْبُشْرَى**» اسْمٌ من التبشير، وهُوَ الإخبار بما يَسُرُّ المبشَّرَ، وجاء بيان هذه البشرى الّتي جاءُوا بها بَعْدَ هذا في هذا النّصّ وفي غيره.

ثالثاً: أنّ العجل السَّمِينَ الذي جاء به إبراهيم عليه السّلام، قد كان حَنِيذاً، أي: مَشْوِيًا مطْهُوّاً.

رابعاً: أنَّ السُّرْعَة الّتي أَحْضَرَ بها إبراهيم عليه السلام الضيافَةَ لضُيُوفِهِ، قد كانت فائقة جدًّا، حتَّىٰ كأنَّهُ لَمْ يَلْبَثْ في داخل بَيْتِهِ عند أهْلِهِ زمَناً ما، وهذا يُشْعِرُ بأنّ الضّيافة عِنْدَهُ من اللُّحُومِ المشوِيَّةِ جاهِزَةٌ في مطْبَخِهِ دَوَاماً.

(٣) وَجاء في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ... ﴿٢٧﴾﴾. دَلّ هذا على أنّ من فضائل الْمُضِيف وكَرَمِهِ في الضيافة، أَنْ يُقَرِّبَ إلى ضُيُوفِهِ مَا يأكُلُونَهُ وَمَا يَشْرَبُونَهُ، وقَدْ كان هذا مِنْ عَاداتِ الكُرمَاءِ، قَبْلَ أنْ يَتَّخِذَ الناسُ الخِوَانَ الكَبِير الَّذِي توضَعُ حولَهُ الكراسي، ويَصْعُبُ تَقْرِيبُهُ للضيُوف.

(٤) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ... ﴿٧٠﴾﴾.

أي: فلَمَّا رآهُمْ لاَ يَأْكُلُونَ مِنَ العجْلِ السَّمين الحنِيذ الّذِي قَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ، إذْ رَأىٰ أيدِيَهُمْ لا تَمتَدُّ إلى الطعام، استنكَرَ تَصَرُّفَهُمْ الّذِي هو على غَيْرِ

عَادَةِ الضُّيوف، بل هو عادة الّذين يأْتُونَ بِشَرٍّ، ولَمْ يَخْطَرْ في باله أَنَّهُمْ ملائكَةٌ لاَ يأكُلونَ الطَّعام، إذْ كانَ مَظْهَرُ هم لاَ يُشْعِرُ بذلك.

[نَكِرَهُمْ]: أي: اسْتَنْكَرَ تَصَرُّفَهُمْ.

(٥) عندئذٍ قال لهم ما جاء بيانُهُ في سورة (الذَّارِيَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿. . .قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ بِأَسْلُوب الْعَرْضِ المهذَّب الرَّفيق.

فلمَّا وَجَمُوا عن الأكْلِ أَوْجَسَ في نَفْسِهِ مِنْهُمْ خِيفَةً، دلَّ على هذا قول الله عزّ وجلّ في هذه السُّورَةَ:

﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً . . . ﴿٢٨﴾﴾:

أي: فأَحَسَّ في نَفْسِهِ خَوْفاً من غَرَضِهِمُ الّذِي جاءُوا به، لأَنَّهُمْ بَشَرٌ بحسب الظاهر، ولم يأكلوا مِنْ طعامِهِ، مع أنَّهُ قال لهم: [أَلاَ تأْكُلُونَ]؟ بأسلوب العرض التكريميّ الرفيع.

وربما حرّكوا أَيْدِيَهم حَرَكَاتٍ تُوهِمُ أَنَّهُمْ في حالَةِ شُرُوعٍ في الأَكْلِ، إلاَّ أَنَّهُ رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إلى لَحْمِ الْعِجْلِ وَلاَ يَأْكُلُونَ، عِنْدَئِذٍ قال لهم: «إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ» يَقْصِدُ نفسَه وأَهْلَهُ.

(٦) دلَّ عَلَىٰ هذا قولُ اللَّهِ عزَّ وجَلَّ في سورة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾:

﴿وَجِلُونَ﴾: أي: خَائِفُونَ. يُقالُ لُغَة: «وَجِلَ يَوْجَلُ وَجَلاً وَمَوْجَلاً»، أي: خافَ وَفَزِع.

ولاَ شَكَّ أَنَّ بَيْنَ: [سَلاَماً] في هذا النَّصّ وبين: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ﴾ فَرَاغاً تَمْلَؤُهُ عِبَاراتٌ جَاءَتْ في النُّصُوص الأُخْرىٰ، كما سبَقَ بيانه.

﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾﴾: أيْ: قالُوا: لاَ تَخَفْ، إنّا رُسُلٌ من الْمَلاَئِكَةِ. إنّا نَبَشِّرك بغُلاَمٍ عَلِيم.

(٧) وجاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾: أي: لا تخف إنّا رُسُلٌ من الملائكَةِ، وبَعْدَ أَنْ طَمْأَنُوهُ بَشَّرُوهُ بِغُلاَمٍ عَلِيمٍ.

وعلى ما جاء في هذا النَّصّ، يُحْمَلُ مَا جاءَ في سورة (الحجر) الّذي جَاءَ بَيَانُه آنِفاً، أي: لاَ تَوْجَلْ إِنّا رُسُلٌ مِنَ الملائكة، وبَعْدَ أن طَمْأَنُوهُ قالُوا له: إِنّا نُبَشِّرُكَ بِغُلاَمٍ عَلِيم.

(٨) وَجاءَ في سورة (الحجرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾.

● قرأ حمْزَة: [إِنّا نَبْشُرُكَ] مِنْ فِعْل: «بَشَرَهُ يَبْشُرُهُ» أي: أخبره بما يَسُرُّه.

وقرأ باقي القراء العشرة: [إِنّا نُبَشِّرُكَ] من فعل: «بَشَّرَهُ يُبَشِّرُه» المضعف.

● وقرأ نافع: [فَبِمَ تُبَشِّرُونِ؟] بكَسْرِ النُّونِ للدلالة على ياء المتكلّم المحذوفة.

وقرأ ابن كثير: [فَبِمَ تُبَشِّرُونِّ؟] بِتَشْدِيد النون المكسورة، أصْلُها تُبَشِّرُونني، فحذفت ياء المتكلم، وأُدْغِمَتِ النون بالنون، فصارت نُوناً مُشَدَّدَة مكسورة.

وقرأ باقي القراء العشرة: [فَبِمَ تُبَشِّرُونَ؟] بفتح النُّون، دون ملاحظة يَاءٍ للمتكلّم محذوفة.

وهذه وُجُوهٌ مُتَشَابهة، وفيها تفَنُّنٌ في البيان.

• وقرأ أبو عَمْرٍو، والكِسَائي، ويَعْقُوب، وخَلَف: **[يَقْنِطُ]** بكَسْرِ النُّون.

وقرأ باقي القرّاء العشرة **[يَقْنَطُ]** بفَتْح النون.

«يَقْنَطُ» و«يَقْنِطُ» لغتان عَرَبيَّتانِ.

• ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾:

﴿عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾: أي: صَارَ بيني وبَيْنَ الكِبَرِ الْمُوهِنِ المضعِفِ تَماسٌّ، ولَمْ يَقُلْ: أصَابَني الكِبَرُ، أَوْ نَزَلَ بِيَ الْكِبَرُ، ليكُونَ صادقاً في عبارته، إذْ مَا زَالَتْ لَدَيْهِ قُوَّةٌ وَقُدْرَةٌ علَىٰ الإِنجَاب.

﴿فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾: أي: فبِأيِّ سَبَبٍ لدَيَّ أَمْلِكُهُ يَكُونُ مِنْ آثَارِهِ أَنْ يَأتِيَنِي وَلَدٌ تُبَشِّرُونني به؟.

• ﴿قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾﴾:

أي: بَشَّرْنَاك بخَبَرٍ عن الله حَقٍّ، فلا تكن من القانطين.

﴿مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾: أي: من اليائسِين. **القُنُوطُ في اللُّغة**: اليَأْس.

لم يُجيبُوهُ عن السَّبَبِ، وإنَّما أَجَابُوهُ علَىٰ ظاهِرِ عبارَتِه، لا عَلَىٰ مُرَادِه بها.

• ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾﴾؟:

أي: لاَ أَحَدَ يقنطُ من رحمة الله إلاَّ الضَّالُّون الْجَاهِلُونَ بقُدْرَةِ اللَّهِ علىٰ ما يشاء.

فالْقُنُوطُ لَمْ أشعُرْ به، ولَمْ يَخْطُرْ علىٰ بالي حتَّىٰ تَنهَوْني عَنْهُ، وأَشْعَرَهُمْ بهذا أَنَّهُ يَسْأَلُهُمْ عن السَّبب فقط.

إنَّ إبراهيم عليه السّلام لم يُرِدْ أَنْ يَجْرَحَ مشاعِرَ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقِفَة من وراء حجابٍ تَتَسَمَّعُ الحوار، بأنَّ السَّبب في عدم الإنجاب هو مِنْها لاَ مِنْهُ، فَهُو مَا زَالَ قادراً على الإنجاب ضِمْن نظام الأسباب الرَّبَّانيّة المعروفة.

فقال: ﴿أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾ وسكَتَ عَن الْعِلَّةِ الموجودَةِ لدَىٰ زَوْجَتِهِ الْعَجُوزِ الْعَقيم، إنَّها قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ عَجُوزاً كانت طَوال مَا قَبْلَ سِنِّ الْيَأْسِ عَقِيماً، فَكَيْفَ وَقَدْ دَخَلَتْ سِنَّ الْيَأْسِ وصَارَتْ عَجُوزاً.

وَرُبَّما وَقع في ظَنِّ إبراهيم عليه السّلام أنَّ اللّٰهَ عَزَّ وجلَّ سَيَأْمُرُهُ بأنْ يَتَزَوَّج امْرَأَةً ذَاتَ اسْتِعدادٍ لْلإنجاب.

ومثل هذا الظنّ وَقَعَ في نفْسِ زَوْجَتِهِ «سَارَة» الواقفة من وراء حجاب تتسمَّعُ الحوار.

لقَدْ كانَ إبراهيم عليه السَّلاَمُ ملْتَزِماً بأنْظِمَةِ اللّٰهِ السببيَّةِ في كُلِّ مَا يَخُصُّه، ومتأدِّباً مع رَبِّه بِشَأْنها، غَيْرَ حَرِيصٍ على أن يَسْأَلَ اللّٰهَ عزّ وجلّ خَرْقَهَا من أجْلِ وَلَدٍ يأْتِيه من «سارَة» زَوْجَتِه.

فأبانَ للرُّسُل من الملائكةِ بإشَارَةٍ خفِيَّةٍ، أنَّ النظامَ السَّبَبيَّ المعتادَ، يُسْتَبْعَدُ مَعَهُ أَنْ يأتيَهُ وَلَدٌ من زَوْجَتِهِ «سَارَة» العجوز العقيم، وَلكِنَّهُ أَرادَ أَنْ لاَ يَجْرَحها بِذِكْرِ هٰذِهِ الحقيقة، فذكَر شيخُوخَتَهُ فقط، وسَكَتَ عن السبب الحقيقيّ.

(٩) وَجَاءَ في سُوَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿...قَالُواْ لَا تَخَفۡ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ إِلَىٰ قَوۡمِ لُوطٖ ۝ وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ (٧١)﴾:

أَكَّدُوا له الخبر ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ ليُذْهِبُوا عنْهُ الخوْف.

أي: وامرأتُهُ قائمةٌ مِنْ وراء حجاب تتسمَّعُ الحوار فَضَحَكَتْ لمَّا عَلِمَتِ انْتِهاء الحديث عن البشرى:

لقد كان ضَحِكُهَا ذَا عَوَامِلَ مختلفة، منها التعجُّبُ من النبأ، ومِنْهَا سُرورُها بأنَّ إبراهيم عليه السّلام ذكَرَ شيْخُوخَتَهُ، ولَمْ يذكُرْ أنَّ السَّبَبَ من زَوْجتِه الْعَجُوز العقيم، ومنها تَصوُّرُها أنّ إبراهيم زَوْجَها سيتَزَوَّجُ امْرأَةً أُخرَىٰ مُسْتَعِدَّةً لِلإنجاب، وأنَّ الله سَيَرْزُقُهُ مِنْها بالولدِ المبشَّرِ به، لكنّ هَوَّنَ من غَيْرَتِها أنّ زَوْجَها وَصَفَ نَفْسه بأنَّهُ كبير السِّنّ، فَمِن المستَبْعَدِ أنْ يَتَزَوَّجَ بامْرَأةٍ وَلُودٍ.

وبحوارها مع نفسها الَّذِي أثارَ ضَحِكَهَا، رجَعَ ذهْنُهَا مِنْ شُرُودِهِ فأدْرَكَتْ أنَّ المبشِّرينَ مَلائِكَة، وَأَنَّهُمْ يُبَشِّرُونَ بُشْرَىٰ بنَبأٍ حقٍّ.

عندئذٍ لَمْ تَصْبِرْ عَلَىٰ تَلَقّي هذا النبأ، فأقْبَلَتْ دَاخِلَةً عَلَيْهِمْ تَضِجُّ وَتَصِيحُ، إذْ أثَارَتْهَا دَوافِعُ مختلفة مُتَعَارِضَةٌ، وصَكَّتْ وَجْهَهَا بِكَفّيْها، وقطَعَتْ عليهم الحديث عن قوم لُوط.

(١٠) فجاء في سورة (الذّارياتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا... (٢٩)﴾:

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾: أي: فَأَقْبَلَتْ مِنْ وَرَاءِ الْحِجاب وَدَخَلَتْ عليهم.

﴿فِى صَرَّةٍ﴾: أي: في ضَجَّةٍ وَصَيْحَةٍ وَأَصْوَاتٍ وكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَات، كَعَادَةِ النِّساءِ اللّواتي في طِباعِهِنَّ حِدَّةٌ، إذَا أثَارَهُنَّ أمْرٌ جَلَل يمَسُّهُنّ.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾: أي: فضَرَبَتْ وَجْهَهَا بِكَفَّيْها، على عادَة النساء، ولَوْ كان الضَّرْبُ بِكفٍّ وَاحِدَةٍ لكانَ التعبيرُ فَضَرَبَتْ خَدَّها، أَوْ عَارِضَهَا، أَوْ نَحْوَ هٰذا.

حَركاتٌ دلَّتْ على غَلَيَانٍ في نَفْسِها، وهَيَجَانٍ في دَاخِلِها، بدافع من غَيْرَتِها أنْ يَتَزَوَّجَ زَوْجُها إبراهيمُ علَيْهِ السَّلامُ، زَوْجَةً ضَرَّةً لَهَا، صَالِحَةً لأنْ تَحْمِلَ وَتَلِدَ، ومعلومٌ في النساء الذّكيّاتِ الْغَيُورَاتِ سَيْطَرَةُ الاحْتِمَالِ المكروه

على نفوسِهِنَّ، وابتعادُ الاحتمالِ المحبُوب ولو كان هو الأرجَىٰ في الموقف.

(١١) وَجَاءَ في سُورَة (هُود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿... فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾.

● قرأ حفص، وحمزة، وابنُ عامر: [يَعْقُوبَ] بفتح الباء نصْباً.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [يَعْقُوبُ] بضمّ الباء رَفعاً.

أمّا الرَّفع فهو على أنّ [يَعْقُوبُ] مبتدأ، و[مِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ] خبر متقدم.

وأمّا النَّصْبُ فهو على أنّ [يَعْقُوبَ] مفعُولٌ لفِعلٍ ضُمِّنَ في فِعْل: [فَبَشَّرْنَاهَا] والتَّقْدِير: فَبَشَّرْناها بإِسْحَاقَ مضيفينَ لِبشارَتِهَا يَعْقُوبَ من وراء إِسْحَاقَ.

لقد كانت البشارة لإبراهيم عليه السَّلام بِغُلاَم عليم، في النص الذي جاء في سورة (الحجْر) وفي النص الذي جاء في سورة (الذاريّات).

فلمّا ثارَتِ امرأته، وأقبَلَتْ في صَرَّةٍ وصَكَّتْ وَجْهَهَا بَشَّرَهَا الرُّسُلُ من الملائكة ببشارَتَيْن:

الأولى: أنَّ الْغَلاَمَ العليم الذي بُشِّرَ بِهِ إبراهيم عليه السلام هو ولدٌ لَهُما، (واسمه «إِسْحَاق».

الثانية: أنّ هذا الغلام العليم سيبلغ مبلغ الرّجال وسيَهَبُه اللَّهُ وَلَداً اسْمُهُ «يَعْقُوبُ».

[فَبَشَّرْنَاهَا]: هذا كلامٌ صَادِرٌ عَنِ الله، استُعْمِلَ فيه ضميرُ المتكلّم العظيم، الّذي يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ، ويَخْلُقُ مَا يُرِيدُ، للإشعار بأنّ بِشَارَة الملائكة لها إنّما كانت بأمْرِ الله عزّ وجلّ، فهي بشارةٌ مِنْهُ تباركَ وتَعَالَىٰ، إذ القضاء قضاؤه والأمْرُ أَمْرُه.

(١٢) وَجاءَ في سورة (الذّاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿. . .وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾:

أي: فهَدَأَتْ ثَوْرَتُها وَقَالَتْ: «عَجُوزٌ عَقِيمٌ» في هذه الْعِبارَةِ معنَىٰ الاسْتِفْهَامِ التعجُّبي، ولعلّ هذا كان حَدِيثاً في نَفْسِها.

(١٣) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾:

(١٤) وَجاءَ في سورة (الذّاريَاتِ/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

قولان قالهما الرُّسُلُ من الملائكة لزوجة إبراهيم عليه السلام «سَارة» بعد أنْ قالت مقالتها.

﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾: أصْلُهَا: يا وَيْلَتِي، قُلِبَتْ كَسْرَةُ التَّاءِ فتحةً، وقُلِبتِ الياء ألفاً، وهذا أحَدُ وجوه عَرَبيَّةٍ في المنادىٰ المضاف لياء المتكلم.

الويل: كلمة عذاب، وتُسْتَعْمَلُ في التفجُّع، والنُّدْبَةِ، والتحذير، والتهديد، والإخبار بالعقاب المقرّر.

وقد تَصْدُرُ عبارة: [**يَا وَيلَتِي**] أَوْ ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ﴾ عن أفواه النساء إذَا طرأ عليهِنَّ مَا يَعْجَبْنَ مَنْه أشدّ العجب، ولا يَقْصِدْنَ وقوع العذاب، ولا الخوف منه، ولا شيئاً مما تستعمل له العبارة، وعلى هذا قالت «سارة» في تعجُّبِها: [**يَا وَيلَتَا**]: أي: يَا عجباً عظيماً.

﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ﴾؟!! الاستفهام في هذه العبارة استفهام تَعَجُّبِيّ.

﴿عَجُوزٌ﴾: أي كبيرةُ السّنّ هَرِمة، يُقالُ: رَجُلٌ عَجُوزٌ، وامرأةٌ عَجوزٌ. فَهُمْ عُجُزٌ، وهُنّ عُجُز وَعَجَائِز.

وجملة: [وَأَنَا عَجُوزٌ] حَاليَةٍ في محل نصْبٍ على الحال.

﴿بَعْلِي﴾: أي: زوجي. وكلمة «بَعْل» تُقالُ: للزَّوْجِ وللزَّوجَة.

﴿شَيْخًا﴾: منصُوبٌ على الحال، والعامل فيه ما في لفظ اسم الإشارة [هَذَا] من معنى الفعل، على ما يقول النحويّون.

الشَّيْخُ لغةً: من بلغ سِنَّ الشيخُوخَة، وهو فوق الكَهْلِ ودُونَ الْهَرِم، والْهَرِمُ هو الشيخ الّذي يَبْلُغُ أقصَىٰ الكِبَر.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾: إنَّ حُدُوثَ مثْلِ هٰذا الأَمْرِ الّذي لَمْ يُشَاهَدْ لَهُ نَظِيرٌ في الناس لشَيْءٌ عجيب.

إنّ إبراهيم عليه السَّلام لم يَذْكُرْ عَنْ زَوْجَتِهِ أَنَّها عَجُوزٌ عَقِيم، إنّما ذَكَرَ عن نفسه أنّهُ مَسَّهُ الكِبَرُ مَسًّا، دُونَ أَنْ يَتَوَغَّل فِيهِ، ومثْلُ هذا يَصْدُر عن فضلاء الرجال.

أمّا زَوْجَتُهُ «سَارَة» فذكرت في نَفْسِها أنَّها عَجُوزٌ عَقِيمٌ، ثُمَّ قَالَتْ: أَأَلِدُ وَأَنَا عجوز، وذكَرَتْ شَيْخُوخَةَ زَوْجِها، مع أنَّ الشَّيْخُوخَة لَيْسَتْ بحَدِّ ذَاتِهَا مَانِعَةً من الإنجاب، ومِثْلُ هذا معروف في طبائِع النّساء، ولو كانت إحداهُنَّ ذَات فَضْلٍ وَدِين.

﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ كَمَا جاء في سورة (هود).

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾ كما جاء في سورة (الذاريات):

هذان قولان قالَهُما الرُّسُلُ من الملائكة لزوجَةِ إبراهيم عليه السلام «سَارَة».

القول الأول: اشتمل على ثلاث قضايا:

القضيّة الأولى: دلَّ عَلَيْهَا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ استفهامٌ فيه معنَىٰ الْعِتَاب، أي: أَنْتِ امرأةٌ فاضلة، وزوجَةُ نبيٍّ ورسُول، وعِشْتِ في بَيْتِ نُبُوّةٍ زَمَناً مَدِيداً، وتلَقَّيْتِ مَفَاهِيمَ الإيمان طَوَال هذه المدّة، فكَيْفَ تَعْجِبين مِنْ حُدُوثِ شيْءٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ وقَضَاهُ وأَصْدَرَ بِه أَمْرَهُ، علَىٰ أَنْ يُنَفَّذَ في حِينِه، وأنتِ تُؤْمِنينَ بأنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ إِذَا أَرَادَ شيئاً فإنَّمَا يَقُولُ له: كُنْ، فَهُو يكُونُ على وَفْقِ أَمْرِ الله التكوينيّ.

إنّ مَنْ كَانَ مِثْلَكِ لا يَلِيقُ بِهِ أَنْ يعْجَبَ من أمْرِ اللَّهِ، بَعْدَ أَنْ عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّتْ حِكْمَتُه، وَعَظُمَتْ قُدْرَتُه، يُبَشِّرُك بولَدٍ لَكِ من زَوْجِكِ إبراهيم، اسْمُهُ إسْحَاق.

القضيَّة الثّانية: دلَّ عليها: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾:

في هذه العبارة بيانٌ للحكمة مِنْ خَرْقِ اللَّهِ سُنَّتَهُ لسَارَة الْعَجُوز الْعَقِيم زَوْجَةِ شَيْخِ الأَنْبِيَاءِ والْمُرْسَلِينَ من بَعْدِهِ إبراهيمَ عليه السَّلاَم.

وَهِيَ أَنَّكُمْ يَا أَهْلَ بَيْتِ إِبراهيم قَدْ خَصَّكُمُ اللَّهُ فَأَفَاضَ علَيْكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَبَرَكَاتِهِ إِكْرَاماً له، ولجهادِهِ وصَبْرِه، ومكارِمِ أخلاقه.

﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ﴾: صفَةٌ من صفات الله الجليلة، من آثارِها العطاء، والمعونة، والتوفيق، وإزالَةُ البؤسِ، والإمْدَادُ بما يَسُرُّ، ويُسَكِّنُ النفس، ويُطمئِنُ القلْب، ويُمْتِعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ لَدَيْه، ويَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حَاجَتَه، ويكُفُّ عَنْهُ الشرّ والضُّرَّ والأذىٰ، ويَهْدِيه إلى ما فيه خَيْرُهُ وسَعادَتُه في عاجل أَمْرِهِ وآجله، ويُبَيِّنُ لَهُ ما فيه شَرٌّ له وضُرٌّ وأذىٰ، ونحو كلِّ ذَلِك.

﴿وَبَرَكَٰتُهُۥ﴾: **الْبَرَكَةُ:** هي الكَثْرَةُ في كُلِّ خَيْر، وجُمِعَتِ البركة علَىٰ بَرَكاتٍ، للدّلاَلَة على اختلاف الأنواع والأصْنَاف.

﴿عَلَيْكُمْ﴾: أي: هَاطِلَةٌ عَلَيْكُمْ، وَمُظَلِّلَةٌ لَكُمْ من فَوْقِكُمْ، فَأَنْتُمْ مَغْمُورُونَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَبَرَكاته.

﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِۚ﴾: أي: يَا أَهْلَ بَيْتِ إبراهيم، بحذف أداة النّداء «يا».

القضيّةُ الثالثة: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾:

جاء في هذه القضيّة وَصْفُ اللَّهِ عَزّ وجل بِصِفَتَيْنِ ملائمتَيْن لفيوض عطاءات رَحْمَتِهِ، وَمَا يمْنَحُه لبَعْضِ عباده من زيادات الخير.

﴿حَمِيدٌ﴾: صيغَةُ مبالغة لاسم «الفاعل» أي: كثِيرُ الْحَمْدِ لأَهْلِ طاعَتِهِ والتَّقرُّبِ إليه بمحابّه، أو لاسْم «المفعول» أي: هو المحمود بصفاتِ ذَاته وبصفاتِ أفعالِه في السَّماوَاتِ والأرضِ حَمْداً كثيراً، إذ الحمْدُ كُلُّهُ له جلّ جلاله.

وقد كان إبراهيم عليه السلام كثير الْحَمْدِ لله، فالله يُكافِئُه بالْحَمْدِ الكثير، ويزيدُهُ وأهْلَ بَيْتِه مِنْ فُيُوض رَحْمَته.

﴿مَّجِيدٌ﴾: صيغة مبالغة لاسم الفاعل «ماجد» **المجيد في اللّغة**: الرّفيع العالي الشريف العظيم الكريم ذو الخير الكثير. **والْمَجْدُ**: الكرَمُ والشرف والعلوّ والرفعة المعنويّة السامية.

القول الثاني: اشتملَ على قضيّتَيْن:

القضيّةُ الأولى: دَلَّ عَلَيْهَا: ﴿كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾:

أي: كَذَلك الَّذِي بشَّرْنَاكِ به قَالَ رَبُّكِ، فالْبِشَارَةُ ليْسَتْ مِنْ عِنْدِنا، ولَيْسَتْ مِن أَمْرِنَا، وإنَّما هي مِنْ عند الله رَبِّكِ ومن أَمْرِه، فلا تَعْجبي مِنْ أَمْرِ الله.

القضيَّة الثانية: دَلَّ عليها: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾﴾:

أي: إنَّ رَبَّك الَّذِي هو رَبُّ كُلِّ شيء هو وَحْدَه الذي له الحكمة

الكاملة، فَهُو الحكيم، وله الْعِلْمُ الشَّامِلُ الكامل المحيط بكُلّ شيء، فهو العليم.

اسْتفيد الحصر والقصر من تعريف طَرَفَي الإسناد مع التأكيد بـ «إنّ ـ وضمير الفصْل ـ واستعمال الجملة الاسمية ـ واستخدام (ال) الّتي للكمال في صفتي الحكيم والعليم».

﴿ٱلْحَكِيمُ ﴾: الكامل الحكمة، وهو الّذي يضَعُ الأشياء في مواضعها، ويخْتَار أفضل الأشياء وأتقنها وأحْسَنهَا في الأمور المختلفة لِمَا يُعْطِي أَحْسَنَ النتائج.

﴿ٱلْعَلِيمُ ﴾: الكامل العلم، المحيطُ بكلّ شيءٍ علماً، وبِسَبَب كمال عِلْمِهِ وشُمُولِهِ، فَهُو يختار أحْكَمَ الأَشياء.

وفي هذا الثناء على الله من الملائكة الّذينَ بشَّرُوا امرأةَ إبراهيم عليه السلام العجوزَ العقيم، تَذْكيرٌ لَهَا بِعُنْصُرَيْنِ من عناصر القاعدة الإيمانيّة، إذْ حضورُهُمَا في ساحَةِ تصَوُّرِهَا يجعلُها لاَ تقول مقالَتَها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾.

بل تقول: مَا شاء الله كان، وما لم يَشَأْ لم يَكُنْ.

(١٥) وَجاء في سورة (الحجْرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) حكاية لمقالة إبراهيم عليه السَّلاَمُ للملائكة، بَعْدَ أن انْتَهتْ مُقَاطَعَةُ زَوْجَتِهِ لحوارهم:

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾.

ونظيرُه تَماماً جاء في الآيَتَيْنِ (٣١) و(٣٢) من سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نُزُول).

وكلٌّ من هٰذيْن النَّصّين قَدْ جَاءَ تَوْطِئَةً لَمَا جَاء بَعْدَه، على أسلوب القرآن في توزيع أجزاء الموضوع في النُّصُوص.

﴿فَمَا خَطْبُكُمْ﴾: أي: فَمَا أَمْرُكُم وَمَا شَأْنُكُم. **الخَطْبُ في اللُّغَة**: الأَمْرُ والشَّأْنُ الَّذِي تَقَعُ فيه المخاطَبَة.

يُشِيرُ إبراهيم عليه السَّلامُ إلى قَوْلِ المَلائِكَةِ له: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ﴾ كما جَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) وهو الّذِي توقَّفَ عندَه الحوار بمقاطَعَةِ زَوْجَتِه، ودُخُولِها في ضَجَّةٍ وَصَيْحَةٍ، إلى آخر ما سَبَقَ بيانه.

• ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: فَهُمْ بسبب كونِهِمْ مُجْرِمِينَ يَسْتَحِقُّونَ الإِهْلاَك، ولم يحتج هذا النص إلى زيادة تأكيد إذْ سبق العلم به.

وصَرَّحُوا له بأنَّهُمْ مُرْسَلُون لإهْلاَكِهم، دلَّ على هذا:

(١٦) مَا جَاءَ في سُورَةِ (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) وهو قول اللّهِ عزّ وجلّ فيها:

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

• وقرأ حمزَةُ، والكِسائي، ويَعْقُوب: [لَنُنْجِيَنَّهُ] من فعل «أَنْجَىٰ». وقراءة الجمهور [لَنُنَجِّيَنَّهُ] من فعل «نَجَّىٰ».

الهمز أخو التضعيف فالقراءتان متكافئتان في اللّسان العربي.

وسَكَّنَ «السِّين» من [رُسْلُنَا] أبو عَمْرٍو. التسكينُ والضّمُّ لغتان.

• ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: كانت بقَدَرِ اللّهِ وَقَضَائِهِ من الماضين الهالكين، ومن الباقين في أرض العذاب والهلاك.

الغابر في اللّغة: الماكث الذي لا يتحوّل، والذاهب الماضي الذي لم يَبْقَ لَهُ وُجود، فَهُوَ من الأضداد. والمعنيان ينطبقان على امرأة لوط.

(١٧) وَجَاءَ في سُورَةِ (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾:

هذا بيانٌ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ وَلَيْسَ تَابعاً لِلْقَوْلِ الَّذِي قَالَهُ الرُّسُلُ، وهو: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ فليس هو تكريراً لما جَاءَ في سُورَة (العنكبوت) الذي هُو من قول الملائكة.

وقد دلّ على أنَّ هَاتين الآيَتَيْن من سورة (الحجر) بيانٌ مباشِرٌ من الله عزّ وجل، عبارَة: ﴿قَدَّرْنَآ﴾ إِذِ التَّقْدير لا يكونُ من الرُّسُل من الملائكة، بل هم أدواتُ تَنْفِيذٍ لِقَدَرِ اللَّهِ وَقَضَائه.

● قرأ جمهور القراء العشرة: [لَمُنَجُّوهُمْ] من فعل «نجّىٰ» المضعَّف.

وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلَفٌ: [لَمُنْجُوهُمْ] من فعل «أنْجَىٰ» المهموز.

● وقرأ جمهور القرّاء العشرة: [قَدَّرْنا] من فعل «قَدَّرَ» المضعف.

وقرأ شُعْبَة: [قَدَرْنَا] من فِعْلِ «قَدَرَ» المجرّد.

تقدير مقادير الأشياء سابق لقضاء الله بها، ثمّ يكون التنفيذ على وفق القضاء والقدر.

(١٨) وَجَاء في سورة (الذاريات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) قول الله عزّ وجل تتمةً لحكاية قول الملائكة لإبراهيم بشأن إهلاك قوم لوط:

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

فجاء في هاتَيْنِ الآيتَيْنِ بَعْضُ تفصيلٍ، يتعلّقُ بِبَيانِ بعْضِ الأدوات المعدَّةِ لتعذيب قَوْمِ لُوطٍ وإهلاكهم.

فالرُّسُل من الملائكة مكلَّفونَ أَنْ يُرْسِلُوا على قوم لُوطٍ من فوق رؤوسهم حِجَارَةً مِنْ طِينٍ.

﴿حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾: أي: حجارَةً كانَ أَصْلُها طيناً فتجحَّر، ولعلَّ تَحَجُّرَهَا كان بسَبب إحْمَائِها بالنَّار، فهي متحجِّرةٌ حارَّةٌ مُحْمَاة.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: معلَّمةً بعَلامَاتٍ تَخُصُّ المهْلَكِينَ بها.

وَجَاء في هذا النص وصْفُ قوم لوط بأَنَّهُمْ «مُسْرِفُون» أي: غُلاةٌ متوغِّلُون في الضَّلال وفعل الجرائم والآثام وكبائر الفواحش والمنْكرات.

فهم بحسب ما جاء وصفهم في النصوص: ظالِمُونَ، ومُجْرِمُونَ، ومُسْرِفُون في كبائر الإثم.

(١٩) وجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾﴾.

سمّى الله عزّ وجلّ حوار إبراهيم عليه السلام مع الرُّسُل من الملائكة المرسَلِينَ لإهلاك قوم لوطٍ مجادلَةً له سبحانه، لأنَّهُ هو جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانه الّذي أَرْسَلَهُمْ وكلَّفَهُمُ الْقِيَامَ بإهْلاَكِ قَوْمِ لُوطٍ، وهم ملائكةٌ كِرَامٌ لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ، ويَفْعَلُونَ، مَا يُؤْمَرُون، ولا نَعْلَمُ عن المعصوم كيف كانت مجادَلَةُ إبراهيم عليه السلام للرُّسُل من الملائكة، ورُوي عن قتادة تفصيلٌ لمُجْمَلِ هذه المجادلة، ولكنها غير مرفوعة إلى الرسول ﷺ.

لقد رجا إبراهيم عليه السّلام بحِوارِهِ الذي سمّاه اللَّهُ مُجادَلَةً له، أنْ يَصْرِفَ اللَّهُ عَنْهُمُ العذابَ الشَّامِلَ الْمُهْلِكَ لَهُمْ جميعاً، أو يُؤَخِّرَهُ إلى أجلٍ

آخر، لعلَّ فَرِيقاً منهم يَتُوبُون ويَسْتَغْفِرُون، ويُقْلِعُونَ عن فواحِشِهِمْ، وكبائِرِ مُنْكَرَاتِهم.

فأثنىٰ اللَّهُ عَزّ وجلّ عَلَىٰ حِلْمِه، ورقَّة قلْبه، وإنابَتِهِ إلى ربّه، إذْ كانت هذه الصفات فيه هيَ الّتي جَعَلَتْهُ يَدْعُو رَبَّه بشأن قَوْم لوط، ويطْرَحُ احتمالاَتِ استجابتهم، أو اسْتِجابة فَرِيق منهم في المستقبل، وأكَّدَ اللَّهُ عزّ وجلّ هذا الثَّنَاء بثلاث أدوات توكيد: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاَّمَ المزحْلَقة للخبر».

وأمَرَ الرُسُلُ من الملائكة إبراهيمَ بأَنْ يُعْرِض عن طلَبِهِ بشأن قوم لُوط، فقد صَدَرَ بتعذيبهم وإهلاكِهم أمْرُ الرَّبّ جلّ جلاله، فسيأتيهم العذابُ والهلاكَ في الوقت المقدَّر المقضيّ، ولا رَادَّ لقضاء الله وقَدَرِهِ.

● ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾:

﴿ٱلرَّوْعُ﴾: الفَزَعُ، وهو الخوف الذي تظهَرُ له آثارُ نفور في حركات الجسم، واستعدادٌ لدفع المفزوع منه.

أي: فلمّا ذهَبَ عن إبراهيم الفزع الذي أثاره أنّ ضيوفه لم يأكُلُوا من طعامه، وجاءَتْهُ الْبُشْرَى هو وزَوْجتُهُ بإسْحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، وتلقَىٰ نبأ إهلاك قوم لوط وتعذيبهم شَرع يجادلُ رُسُلَنا في قَوْمِ لُوطٍ، لرَفْعِ العذاب والإهلاك عنهم ولو إلى حين، والذي دعا إلى تقدير فعل «شَرَعَ» أو نحوه أنّ جواب لمَّا يكون فعلاً ماضياً لا مضارعاً، والمتدبر لكتاب اللَّهِ عز وجل يلاحظ كثْرَةَ حَذْفِ ما يُعْلَم ويسْهُل تقديرُه، ومنه في هذا النصّ أيضاً، وتلَقَّىٰ نَبَأ إهلاك قومِ لُوطٍ وتَعْذِيبهم.

وقبل أن يُعْلِمنَا اللَّهُ عزّ وجلّ بأنَّه أوحىٰ إلى إبرَاهيم أمْرَهُ له بأنْ يُعْرِضَ عن هذا الذي شَرَعَ يُجَادِلُ فيه، أثْنَىٰ عليه بثلاث صفاتٍ جَليلات، فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾:

﴿لَحَلِيمٌ﴾: **الحَلِيم**: ذو الأَنَاةِ، القادِرُ على ضَبْطِ نَفْسِه عنْدَ الغضب، أو عنْدَ حُلُولِ مَكْرُوه، والَّذي يَعْقِلُ بإرَادَةٍ قَوِيَّةٍ نَوازِعَ نَفْسِه، والَّذي يَعْفُو ويصْفَحُ.

﴿أَوَّٰهٌ﴾: **الأوَّاهُ**: الرَّحِيمُ الرَّقِيق القَلْب، الكَثِيرُ الحُزْنِ، الذي يَتَأَوَّهُ كثيراً من الشَّفَقَةِ، أو عند الفَرَقِ، ويلازم هٰذه الصّفاتِ كَثْرَةُ التَّضَرُّع لله، والمحافظة على طاعَته.

﴿مُّنِيبٌ﴾: أي: ذُو رُجوع إلى الله دَواماً بقَلْبه ونَفْسِهِ وَفِكْرِه، وهو اسم فاعل من فِعْل «أناب».

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾.

يظهر أنَّ هٰذا قَوْلُ الرُّسُل من الملائكة لإبراهيم عليه السلام، وهو مستقْطَعٌ من الحدثِ الماضي، ومُقَدَّمٌ بِنصِّهِ دُون حِكَايَةٍ، وهذا من الإبْدَاعَاتِ الجميلة في القرآن المجيد.

﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾: أي: أعْطِ لِهَذا الأمْرِ الَّذِي توجَّهَتْ نَفْسُكَ لَهُ شفقَةً على قَوْمِ لُوطِ عارِضَكَ «جَانِبَ وَجْهِك» فشَفَاعَتُكَ فيهم غَيْرُ مُسْتَجابَة.

﴿إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾: أي: قَدْ جاء أَمْرُ رَبِّكَ لَنا بِتَنْفِيذ التَّعْذِيب والإهْلاَكِ، فَنَحْنُ لاَ نَمْلِكُ إلاّ تَنْفِيذَ أمْرِ رَبّك، فَدَعْ مُجَادَلَتَك لنا، وأعْرِضْ عن الأمْرِ إعراضاً كاملاً.

﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ﴿٧٦﴾﴾: أي: وَإنَّهُمْ سَيأْتِيهِمْ في الأَجَلِ الْمُعَيَّنِ المبيَّنِ لَنا بالأَمْرِ الرَّبّانيّ، عذابٌ قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَضَاهُ، وهذا الْعَذَابُ نَازِلٌ بهم حَتْماً، وَهُوَ غَيْرُ مَرْدُودٍ، إذْ لاَ رَادَّ لقضاء الله.

﴿آتٍ﴾ اسم فاعل كالفعل المضارع يصلح للحال والاستقبال، وهو هنا محمول على الاستقبال.

﴿غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾: أي: غَيْرُ مَمْنُوعٍ وَلاَ مَصْرُوفٍ وَلاَ مُرْجَعٍ، أَصْلُ معنَىٰ الرَّدِ الإِرْجَاعُ والْإِعادَة، ولا يكون صَرْفُ الْعَذَاب إلاَّ إذا رُدَّ الأَمْرُ به إلى الآمِرِ، وهَذَا لَنْ يكون.

إنّ أَمْرَ اللَّهِ عزّ وجَلَّ بتعذيب قَوْمِ لُوطٍ وإهلاكِهِم قَدْ كَانَ أَمْراً مُبْرَماً وَحكيماً، وقضاءً مستَنِداً إِلَىٰ عِلْمِهِ تبارَكَ وَتَعَالَىٰ بحقيقة أحوالهم، وما في قُلوبِهم ونفوسهم، وإلى عِلْمِهِ بأَنَّ صَلاَحَهُمْ عَنْ طريق إراداتهم الحرَّةِ قَدْ صَارَ مَيْؤُوساً مِنه، فَمُتَابَعَةُ الاشتغال بدَعْوَتِهم إلى سبيل رَبّهم من الْعَبَثِ الّذي لا جَدْوى مِنه، وبَقَاؤُهم في الأرض هُوَ بمثابَةِ بَقَاءِ بُؤْرَةٍ وَبَائِيَّةٍ تنْشُرُ الْفَسَادَ في النَّاسِ، فَمِنَ الحكْمَةِ إِبَادَتُهُمْ كَمَا أباد اللَّهُ قَوْمَ نُوحٍ، وقَوْمَ هُودٍ، وقَوْمَ صالح.



الفصل الخامس
مُجْرَيَات أحداث تَغذِيب قوم لوطٍ وإهلاكهم

لمّا انتهت مُهِمَّةُ الرُسُل من الملائكة المأمورِينَ بتعذيب قوم لوط وإهلاكهم، عِنْدَ إبراهِيمَ عليه السلام، انْصَرَفُوا متوجِّهين لأَرْضِ سَدُوم حَيْثُ يُقِيمُ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ في مَرْكَزِ مَدِينَتِهِمُ الأُمّ.

(١) ففي سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قال اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ:

﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ (٦١) قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٦٢)﴾:

دَلَّت الآية (٦١) على أنّ الرُسُل من الملائكة الّذِين جاءُوا على صُوَرِ شَبَابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، مَرُّوا بآل لوطٍ قَبْلَ أَنْ يَصِلُوا إِلَيْه، وعَنْ طَرِيقهم طَلَبُوا

مُوَاجَهَتَهُ، فأَذِنَ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلامُ بأَنْ يَدْخُلوا إلَيْه، وعصَىٰ بذلِكَ أوامر كُبَرَاءِ قومه، إذْ سبَقَ أَنْ عَزَلُوهُ عزلاً اجتماعيًا، ونهَوْهُ عَنْ أن يلْقَىٰ أحداً من الْعَالَمِين.

لقَدْ عزَّ عَلَيْه أنْ يَرْفُضَ استقبالَ ضُيُوفٍ من غَيْرِ قَوْمِهِ نَزَلُوا بسَاحَتِه، وطَلَبُوا الاجْتِمَاع به.

فلما دَخَلُوا إلَيْه وتفَحَّصَ وُجُوههم وأَلْبسَتَهُمْ لم يَعْرِفْ من أيِّ قَوْمٍ هُمْ، فقال لهم كما جاء في الآية (٦٢): ﴿... إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾﴾: أي: إنَّكم مَجْهُولُونَ بالنسبة إليّ، لا أعْرِفُ أَشْخَاصَكُمْ وَلاَ أَعْرِف من أيّ قَوْمٍ أنْتُم.

ورَأَىٰ أَنَّهُمْ شَبَابٌ مُرْدٌ حِسَانٌ، وأدْرَكَ أنّ قَوْمَهُ لا بُد أَنْ يكُونُوا قَدْ عَلِمُوا بمَقْدَمِهِمْ إليه، فتعاظم لدَيْهِ تَصَوُّر ما سيَحْدُثُ له من مُصِيبة من قِبَلِ قَوْمِهِ الّذين سيأتُونَ إلَيْهِ طالبين مِنْه أَنْ يُمَكِّنَهُمْ من ممارسة الفاحِشَةِ في هؤلاء الشباب، كعادتهم مَعَ كُلّ غريب شابٌ ذي وسامة فَسَاءَهُ مَقْدَمُهُمْ إليه، ونُزولُهُم ضُيوفاً عِنْدَه.

وسكتوا عن التعريف بأنفسهم وبأنهم ملائكة مرسلون من الله في بداية الأمر.

(٢) وَجَاءَ في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ... ﴿٧٨﴾﴾

﴿سِيٓءَ بِهِمْ﴾: أي: سَاءَهُ مَجِيئُهُمْ إليه، يقال لغة: ساءَهُ الأَمْرُ يَسُوؤُه، أي: أنزلَ به مَا يَكْرَه، وأحْدَثَ لَدَيْهِ مَساءَةً.

«سِيءَ» فِعْلٌ ماضٍ مبنيٌّ لما لَمْ يُسَمَّ فَاعله، أصْلُه «سُوِيءَ» قُلبتِ

الواو ياءً وَكُسِرَتِ السّين لتنسجم مع الياء. ﴿بِهِمْ﴾ نائب فاعل «سِيءَ».

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾: أي: اشتَدَّ عليه الأمر وثَقُل بسببهم، وهو على سبيل الكناية، والأصل في هذه العبارة أنّ البعير إذَا حُمِّلَ أكْثَرَ مِنْ طاقَتِهِ ضَاقَ ذَرْعُهُ، أي: ضَاقَتْ مَسَافَةُ مَدِّهِ لِذِرَاعِهِ، لأنّ أرجله الثلاثة لا تستطيع الثبات طويلاً إذا رَفَعَ الرابعة في الْخَطْو.

ويُقَالُ أيضاً: ضاق بالأَمْرِ ذَرْعاً، أي: لم يُطقْهُ ولم يَقْوَ على تَحَمُّلِه، وأَصْلُ الذّرْع بَسْطُ اليد، فَمَنْ لم يَنَلِ الشَّيْءَ مع بَسْطِ يَدِه إليه يكُونُ قد ضَاقَ ذَرْعُهُ عَنْهُ، أي عجزَ عن تَناوُله وتحَمُّلِه.

ومهما يكن أصل العبارة فقد صارت عبارةً يُكَنَّىٰ بها عن الْعَجْزِ عن تَحَمُّلِ الأَمْر الثَّقِيلِ، أو الشَّدِيد الصَّعْب.

واتنشر الْخَبَرُ في المدينة بأنّ لوطاً استضافَ في مَنْزِله شباباً مُرْداً حساناً غُرَباء.

وجاء كُبَرَاءُ قوْمِهِ الفاسِقون يُهْرَعُون إِلَيْه، رغْبَةً في فِعْلِ الفاحشةِ الشّاذّة فيهم، ومَعَهُمْ جُمْهُورٌ من أتباعهم وأنصارهم.

﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ... ﴿٧٨﴾﴾.

لا بُدَّ أنْ يكونَ المرادُ كُبَراءَ قومِه فَهُمْ أَصْحَابُ الكلمة المطاعة فيهم، أمَّا كُلُّ رِجالِ قومه في المدينة فهذا غَيْرُ مُرادٍ حَتْماً، لكنْ قد يكون معهم أتباعهم وأنصارهم.

﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾: أي: يَمْشُونَ أَوْ يَعْدُونَ في سُرْعَةٍ واضطراب، يقال لغة: هُرِعَ الرَّجُلُ: أي: مشَىٰ أو عَدَا في اضطرابٍ وسُرْعَة، وربّما كانت هذه الحركة بين المشي والْعَدْو.

لقد أَسْرَعُوا باضطراب تتحلّب أَشْدَاقُهم يبتغُونَ الفجور بالْمُرْدِ الْحِسَان.

● ﴿وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ... ﴿٧٨﴾﴾: أي: ومن قبلِ مجيئهم هذا إلى دَارِ لُوطٍ، كانُوا في نَادِيهم يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ، فلمَّا بَلغَهُمْ نَبأُ ضُيوفِ لُوطٍ الحسانِ، تَرَكُوا ما هُمْ فيه من سَيِّئاتٍ كانُوا يَعْمَلُونَها علىٰ عاداتهم، سَعْياً للحصُولِ على لذَّةِ ممارسَةِ الفاحِشَةِ في شبابٍ مُرْدٍ حِسَانٍ، هي أحَبُّ لَهُمْ من السَّيِّئَاتِ الَّتي كانوا يَعْمَلُونَها.

أمَّا حَمْلُ هٰذه العبارَة على أنَّهم كانُوا من قَبْلُ يأتون الرجالَ شهوةً من دون النساء، فهو مستَبْعَدٌ جدًّا، إذْ سَبَقَ في نجوم التنزيل بيان هذه الشَّنِيعَةِ من قبائحهم، ولفظ «السَّيِّئَاتِ» يُطْلَقُ غَالباً على مادون الكبائر.

(٣) وَجَاء في سورة (الحجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَجَآءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾:

المرادُ بأهْل المدينة كُبراؤهَا وأصْحَابُ الأَمْر المطاع فيها، ومعهم أتباعهم وأنصارهم.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾: أي: يَتَجَدَّدُ لَدَيْهِمُ الْفَرَحُ والسُّرور والابتهاج بوُجود شباب مُرْدٍ حِسَانٍ غُربَاءَ في دار لوط، ويُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بعضاً بِهَذِهِ الْغَنِيمَةِ السَّهْلَةِ، سَعْياً لِلَّذَّةِ الشَّاذَةِ الفاجِرَة، ولعلَّ الحادثَة تكُونُ سَبباً للتخلُّصِ مِنْ لُوطٍ وأهله، إذْ كانوا قَدْ نَهَوْهُ عن أنْ يلْتَقِي أحداً مِنَ الْعَالَمِين.

يُقَالُ لُغَةً: «اسْتَبْشَرَ» أي: فَرِحَ وَسُرَّ. ويقال: استَبْشَرَ فُلاَناً، أي: بَشَّرَهُ بما يُفرِحُهُ ويَسُرُّه.

● ﴿قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾﴾.

أي: ولمّا وصلُوا إلى دَاره واجْتَمعُوا حَوْلَها، وَأَلحُّوا عليه أن يمكّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ، وأخَذُوا يُرَاوِدُونَهُ عَنْ ضُيُوفِهِ، دلَّ على هذا بعبارةٍ صَرِيحَةٍ قول الله عزّ وجلَّ في سورة (القَمَرِ/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ... ﴿٣٧﴾﴾:

لفظ «ضَيْف» يُطْلَقُ على المفرد والجمْعِ والمذكر والمؤنث، ويجْمَعُ أيْضاً على أضْيَافٍ، وضيُوفٍ، وضِيفان، ويقالُ للأنثىٰ أيضاً ضَيْفَة.

﴿رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾: أي: طَلَبُوا مِنْهُ فعل الفاحِشَةِ في ضُيُوفه.

يُقَالُ لُغَةً: رَاوَدَ الْمَرْأَةَ عَنْ نَفْسِها، أي: طلَبَ مِنها أَنْ يَفْجُرَ بها.

ورَاوَدَهُ عَنِ الأَمْرِ، وعلى الأَمْرِ، أي: طَلَبَ مِنْهُ فِعْلَه.

فاستَعصم عليه السَّلام، وأبَىٰ أَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنْ ضُيُوفِهِ.

فقال لَهُم إنَّ هَؤُلاَءِ ضُيُوفِي فَلاَ تَفْضَحُوني بَيْنَ النَّاس، إذْ يُشَاعُ بين النَاسِ في الحواضِرِ والبوادي أنَّ «لُوطاً» مكَّنَ كُبَرَاءَ فُسَّاقِ سدُوم من فِعْلِ الْفَاحِشَةِ في ضُيُوفِهِ المُرْدِ الحسَان.

وقال لهم: اتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخزُونِي، أي: اتَّقُوا عِقَابَ اللَّهِ عَلَىٰ كبَائِرِكُمْ وفواحِشِكُمْ، وَلاَ تُخْزُوني بَيْنَ النَّاس، أي: ولا تُوقِعُوني في الذُّلِّ والْهَوَانِ، وأَنْتُمْ تَعْلَمُون شَرَفِي وطَهارَتِي ومكانَتِي في نفوس كلّ الأَقوام من حَوْلِكُمْ.

● ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾﴾: أي: أَلَمْ نَنْهَكَ عَنْ أن تَلْتَقِي أَحداً مِنَ الناس، من قومِنَا أمْ من الغرباء؟ فَكَيْفَ تَسْتَقْبِل في دَارِكَ ضُيُوفاً غُرَبَاءَ؟.

اتَّخذُوا هذا ذَرِيعَةً لإخرَاجه، أو تَوْطِئَةً لإخراجه من أرضهم، بسبَبِ مَعْصِيَتِهِ لأوامِرِهم ونواهيهم، بَعْدَ أَنْ عَزَلُوهُ عزْلاً اجتماعيًا.

● ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾﴾:

لـمَّا وَجدَ نَفْسَهُ مُحْرَجاً، وعاجزاً عن مُقَاوَمَتِهِمْ، وغَيْرَ مُسْتَعِدٌ لِأَنَّ يُمَكِّنَهُمُ من ضيوفه، وكان يَعْلَم من عاداتهم وَتقالِيدهم، أَنَّهُمْ لاَ يَعْتَدُونَ على نِسَاءٍ لاَ حقّ لَهُمْ بمعَاشَرَتِهِنّ إلاَّ عَنْ طريق الزواج حِفَاظاً على أنسَابِهم، أرَادَ أَنْ يُخرجَهُمْ بعَرْضِ بَنَاتِهِ عليهم، وهو يَعْلَمُ أَنَّهُم لَنْ يَقْبَلُوا بذلك، ولَوْ فَعَلُوا لافتَضَحُوا وسَقَطُوا مِنْ أَعْيُنِ قَوْمِهِمْ وَنِسَائِهم، ولَفَجرَتْ نِسَاؤُهم نِكَايَةً بهم.

لكِنَّ عَادَةَ إتْيَان الذُّكُور لَمْ تكن تُثِيرُ غَيْرَةَ نِسَائِهِم إثَارَةً كَبِيرة، وكانَتْ في نَظَرِهم جَمِيعاً بمثابَةِ الأُمُورِ العاديَّةِ، كالطَّعام والشراب واللَّهْوِ واللَّعِب، ونحو ذلك.

وَدَلَّتْ عبارة: ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ باسْتِخْدَام حَرْفِ الشَّرْطِ «إِنْ» على أنَّ لُوطاً عليه السلام كان على عِلْم بِأَنَّهُمْ لَنْ يَقْبَلُوا عَرْضَهُ، لِأَنَّ حَرْف الشَّرْطِ «إِنْ» يُقْصَدُ اسْتِعْمَالُهُ في الأَمْر المشْكُوكِ فيه، أَوْ فيما لاَ يُنْتَظَرُ وُقُوعُه، باستثناء حالاَت الشرط العامّ.

فأَعْرَضُوا عَنْ عَرْضِهِ، وتابَعُوا مطالَبَتَهُ بتميكنهم مِنْ ضُيُوفه، فَكَرَّرَ عَرْضَهُ بعِبَارَةٍ فيها تَوْجِيه، وتَحْذِيرٌ، واسْتِعْطَافٌ، وتأْنيب.

دَلَّ على هذا:

(٤) مَا جَاءَ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَاتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾﴾:

● ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ﴾ أي: يا قَوْمي، وفي هذه العبارة استعطاف لهم بأَنَّهم

قَوْمه، ومن حَقِّ الإنسَانِ على قَوْمِهِ أن لا يفضَحُوهُ ولاَ يُخزُوه بين الناس.

• ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ﴾: أضاف في هذه العبارة على ما جاء في النّص السابق الذي من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بيان أنّ النساء أطْهر، فَفُروجُهُنَّ خُلِقَتْ لِمَا يَطْلُبُون.

وسبَقَ بيان أنّه على عِلْمٍ بأنّهم لا يَقْبَلُونَ عَرضَه، لأنَّ قبولهم لعرضه يُسْقِطُهم في قَوْمِهم بحسَب عاداتهم وتقاليدهم، ويُوقِعُهُمْ هم في الفضيحة والْخِزْي والعار، إذ ليس لهم حقٌّ في بناته بزواج متعارف عليه بينهم، وهذا كَمَنْ يَقُولُ لِمَنْ يُرِيدُ قتل مَن هو في حمايتِهِ وجواره: اقتُلْني أو اقْتُلْ وَلَدِي بدَلَهُ ولا تقتلْه، وهو يَعْلمُ أنه لَنْ يقتله ولَنْ يقتل وَلَده.

• ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي: فاتَّقُوا أَنْ يُنْزِلَ الله بكم عِقَابه، إذا أصْرَرْتُمْ على دخول داري عَنْوَةً، وفِعْل ما تَطْلُبُونَ في ضُيُوفي.

• ﴿وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾: كَرَّرَ لَهُمْ الاسْتِعْطاف بأنْ لا يُخْزُوه، فقد سبَقَ أَنْ اسْتَعْطَفَهُمْ فقال لهم: ﴿وَلَا تُخۡزُونِ﴾ كما جاء في النصّ السابق الذي من سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) إلاّ أنّه أضاف هنا عبارة ﴿فِي ضَيۡفِيٓۖ﴾ إشعاراً بأنَّ الضَّيْفَ له حُرْمَةٌ عظيمةٌ، وقد كانت أقوام عَصْرِهم يَرَون للضَّيْفِ هَٰذِهِ الْحُرْمة، فَمَنْ تَعَرَّضَ ضَيْفَهُ لِسُوءٍ وهو عِنْدَه، نالَهُ من الناس خزِيٌ عَظِيمٌ، ونَزَل به ذُلٌّ وهوان.

• ﴿أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ﴾: أي: أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ واحِدٌ فيه رُشْدٌ وعَقْلٌ، يمْنَعُكُمْ عمَّا تجَمَّعْتُمْ علَيَّ مِنْ أَجْلِه.

استفهام يتضَمَّنُ وصْفَهُمْ بالسَّفَاهَةِ وخِفَّةِ العقل وانْعِدَام الرُّشْدِ، بأسْلُوبِ غيْرِ مُباشِر.

• ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾:

أي: قالوا له: إنَّكَ تَعْرِضُ عَلَيْنا أَمْراً تَعْلَمُ أَنَّنا لا نقبَلُهُ في أعرافِنا وتَقَالِيدنا، لأَنَّنا لا نأتِي نِسَاءَنَا إلاَّ بِحَقِّ الزّواج، لكنَّنا نأْتِي الذكور على سَبِيلِ الشُّيُوعِ دُونَ عُقُودٍ وَلاَ ضَوَابِطَ.

(٥) وَجَاءَ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾:

يُقْسِمُ اللَّهُ عزّ وجلّ بحياة الرّسولِ محمّد ﷺ، على أَنَّ سَبَبَ إصْرَارِهم على مَوْقِفِهم الْخَسِيسِ الشَّنِيع، أَنَّهُمْ في سَكْرَةِ شَهَواتِهِم مُنْطَمِسُوا البصائر، فهم لا يَرَوْنَ وَلاَ يَسْمَعُونَ فَلاَ يَعْقِلُون.

﴿يَعْمَهُونَ﴾ أي: يَتَتَابَعُ على بَصِيرَتِهِمُ الْعَمَهُ آنا فآناً، وهذا يُوَلِّد تراكُماً يَحْجُبُ عن الْبَصِيرةِ كُلَّ مَعْرِفَةٍ.

الْعَمَهُ: هُو في البَصِيرة القلْبِيَّةِ والنَّفْسِيَّة كالْعَمَىٰ في البصر، ومن آثاره أَنْ يكون صاحبه أعْمَىٰ عَنْ رُؤيَة الحقّ، أَصَمَّ عن سَمَاعِ كَلِمَة الحق، أَبْكَمَ عَنْ نُطْقِ كَلِمَةِ الحقّ، فَهُو لاَ يَعْقِلُ شيئاً.

هذا هو البيانُ الرَّبَّانيُّ عنهُمْ وعَنْ كُلِّ مَنْ كَانَ مِثْلَهُمْ، في سَكْرَةٍ مِنَ الشَّهوَاتِ الجانهاتِ الجامِحَاتِ، والمفهومَاتِ الباطلاتِ، والْعَادَاتِ القبيحاتِ الشَّنِيعات.

(٦) وجاء في سُورَةِ (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾.

ويظْهَر أَنَّ لوطاً عليه السَّلامُ أَرَادَ أَنْ يَسْتَوْثِقَ مِنْ هَٰذَا الْقَوْلِ الَّذِي قالَهُ

ضُيُوفُهُ، فقال لهم مُتلَهِّفاً: أَتَسْخَرُونَ مِنِّي، أَمْ أَنْتُمْ صَادِقُونَ في أَنَّكُمْ رُسُلُ رَبِّي، وَفي أَنَّكُمْ جِئْتُمْ لإهْلاكِ قَوْمي وَتَعْذِيبهم؟

فقالُوا لَهُ:

(٧) ما جاء بيانه في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَـٰكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ الَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَـٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَـٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

هٰذَان النّصّان (٦ و٧) متكاملان في التعبير عن أحداثٍ مُتَتالية، مع أنّهما من سُورَتين.

لَقَدْ تَأزَّمَ الموقف بين لُوطٍ عليه السَّلام وَكُبَرَاءِ قومه، فَلَمْ يُؤَثِّرْ فيهم الاستعطاف، ولا إشعارُهُمْ بأنَّه يُضَحّي ببَنَاتِهِ ليَحْمِيَ نَفْسَهُ من الفضيحةِ والْخِزْي والْعَارِ بَيْنَ النَّاس، ولا التحذيرُ من عقاب اللّهِ وَنِقْمَتِهِ، وَلاَ وَخْزُهُمْ بالسَّفَاهَةِ وخِفَّةِ الْعَقْلِ وَبأنَّهُمْ لاَ يُوجَدُ مِنهُمْ رَجُلٌ واحِدٌ رَشيد، فَلَمْ يَكُنْ مِنْهُ بَعْدَ كُلِّ هٰذَا إلاَّ أَنْ يُبَيِّنَ لَهُمْ، أَنَّهُ لَوْ كَانَ يَمْلِكُ قُوَّةً لَقَاتَلَهُمْ، ولَصَدَّهُمْ بالْقُوَّةِ عَمَّا يُرِيدون، وهذا مِنْهُ على سبيل التَّمَنّي، أَوْ لو كَانَ لَهُ في أرْضِهِم رُكْنٌ شَدِيدٌ من عَشِيرَةٍ وأنْصَارٍ، لآوَىٰ إليهم، ومنَعَ ضُيُوفَهُ مِنهم. إنّه بِبَيَانِهِ أُمْنِيَتَيْهِ يُشْعِرُهُمْ بأنَّهُ سَيَتّخِذُ كُلَّ مَا لَدَيْهِ من استطاعَةٍ لِصَدِّهِمْ عَنْ ضُيُوفِه، ولَنْ يُمَكِّنَهُمْ مِنهُمْ طَوْعاً.

- ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾﴾:

﴿لَوْ﴾: فيها مَعْنَىٰ الشرط والتَّمَنِّي، أي: أتمنَّىٰ لَوْ أَنَّ لي بِصَدِّكُمْ وَدَفْعِكُمْ عَنْ ضَيْفي قُوَّةً لَصَدَدْتُكُمْ وَدَفَعْتُكُمْ وَلَقَاتَلْتُكُمْ حِمَايَةً لضَيْفِي وَشَرَفِي، أو لَوْ كان لدَيَّ رُكْنٌ شَدِيدٌ مِنْ عَشِيرَتِي وَأَنْصَارِي يَحْمِينِي وَيَحْمِي

ضَيْفِي وَأَهْلِي لآوَيْتُ إِلَيْه، واعْتَصَمْتُ به، إنه بهذا يُعْلِنُ لَهُمْ عَزْمَهُ الشديد عَلَىٰ حِمَايةِ ضيوفه منهم.

وحتَّىٰ هَٰذَا الْمَوْقِف لم يَعْلَمْ لُوطٌ عَلَيْهِ السَّلاَمُ أَنَّ ضُيُوفَهُ رُسُلٌ من الْمَلاَئِكَة، وَيَظْهَرُ أَنَّهُ عِنْدَئذٍ دَخَلَ إِلَىٰ ضُيُوفِهِ، فقالَ لهم: لَقَدْ جِئْتُمونِي بِمُصِيبَةٍ وبَلاَءٍ عَظِيم.

﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ﴿٨١﴾﴾:

أي: إِنَّا مَلائكةٌ، وَإِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ، وَإِنَّا سَنَحْمِيكَ من عُدْوانهم، وَيَظْهَرُ أَنَّ لوطاً عليه السلام قد أَغْلَقَ بَاب دَارِه وأوصدَهْ وأحكم تَثْبِيتَهُ، وصَارَ التَّخَاطُبُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ كبراءِ قَوْمِه من ورائه، دَلَّ عَلَىٰ هَٰذَا عبارة ﴿لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ﴾ أي: فَبَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ في ذَلِكَ الْوَقْتِ حِجَابٌ، وهو سُور الدار، والْبَابُ المؤصُود.

هنا لاَ بُدَّ أَنْ يغْضَبَ قَوْمُهُ ويَعْمَلُوا عَلَىٰ اتِّخَاذِ وَسِيلَةٍ لكَسْرِ بَابِ داره، واقْتِحامِها عَنْوَة.

وفي هَٰذِهِ الأَثْنَاء تابَعَ الرُّسُلُ من الملائكة بيانَ مُهِمَّتِهِمُ الَّتِي جَاءُوا لِتَنْفِيذِها بِأَمْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وبَيَانَ خُطَّةِ إِنْقَاذِ لُوطٍ وأَهْلِهِ إلاَّ امْرأته، من أَرْضِ سَدُوم الَّتِي سَيَنْزِلُ عَلَيْها العذاب الشامل المدمِّر، وَقالوا له:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

● وقَرأ نافع، وابنُ كثير، وأبو جَعْفر: [فَاسْرِ] بهمزة وصل من فعل فعل «سرى».

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾: أي: سِرْ بِهِمْ لَيْلاً مُبْتَعِداً بِهِمْ عَنْ أَرْضِ سَدُوم.

يقالُ لغة: سَرَىٰ اللَّيْلَ، وسَرَىٰ بِهِ، أي: قَطَعَهُ بالسَّيْر. **ويُقال:** سَرَىٰ

بِفُلاَنٍ لَيْلاً، وأسْرَىٰ به: أي: جَعَلَهُ يسير فيه.

﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: أي: بطائفةٍ من اللَّيْلِ تَكْفِي لاجتيازكم الأرْضَ الَّتي سَيَنْزِلُ عليها العذاب. **القِطْعُ من اللّيل**: الطَّائِفَةُ مِنْه.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: أي: وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ لِيَنْظُرَ مَا سَيَحُلُّ بأرْضِ سَدُوم.

[**إِلاَّ امْرَأَتَكَ**]: قرأ ابن كثير، وأبُو عَمْرو: [**إِلاَّ امْرَأَتُكَ**] بالرَّفْعِ. وقرأ باقي القرّاء العشرة [**إِلاَّ امْرَأَتَكَ**] بالنَّصْب.

فقراءة: [**إِلاَّ امْرَأَتَكَ**] بالنَّصْب دَلَّتْ على اسْتثنائها من أمْرِ السَّرَيَانِ بأهْلِهِ، أي: دَعْهَا في أَرْض قَوْمِها، وَلاَ تَسْرِبها.

وَقِراءة: [**إِلاَّ امْرَأَتُكَ**] بالرَّفع دَلَّتْ عَلَىٰ أَنَّ امرأتَكَ إذا لَحِقَتْكُمْ دون أَنْ تَدْعُوَها لِتَسْرِيَ بها، فسَتَلْتَفِتُ وَسَيُصِيبُها مَا أصَابَ قَوْمَها من قَبْلِها في أَرْضِهِمْ.

وجاء عند الإسْرائيليين في سِفر التكوين ـ الإصحاح التاسع عشر، أَنَّ امرأة لوط خَرَجَتْ مع مَنْ خرَج، وأنَّهَا الْتَفَتَتْ وَنظرَتْ مَا وراءَها، فَنَزَلَ عليها مَا جَعَلَهَا عَمُودَ مِلْحٍ.

﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾: أي: إِنَّ الشَّأْنَ مُصِيبُها (أي: سَيُصيبها) إِذَا الْتَفَتَتْ مَا أَصَابَ قَوْمَهَا قَبْلَ ذَلِكَ مِن رِجْزٍ وَعَذَابٍ وهَلاَك.

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾: أي: إِنَّ مَوْعِدَ إِنْزَالِ وَسَائِلِ التَّعْذِيبِ عَلَيْهم هو وقْتُ الصُّبْح.

﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾: في هذه الْعِبارَةِ حَثٌّ لَهُ علَىٰ أَنْ يُهَيِّىء نَفْسَه وأهله إلاّ امرأتَهُ للرَّحيلِ، بِقِطْعٍ من اللّيل، قَبْلَ: الصُّبْحَ.

ومَا زَال المحيطون بدار لوطٍ مِنْ قَوْمِهِ يُعَالِجُون كَسْرَ بَابِ دَارِهِ

لِدُخولِهَا عَنْوَةً وَبالْقُوَّةِ.

وَيَبْدُو أَنَّ لُوطاً عليه السَّلاَمُ كانَ في حالةِ اضطراب نَفْسِيٍّ شَدِيد، فقال لضُيُوفِهِ كلاماً أَجَابُوهُ عليه بِقَوْلهم:

﴿بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾﴾: أي: يَشُكُّونَ وَلاَ يُصَدِّقُون، وهُوَ إِنْذَارَاتُكَ لِقَوْمِكَ بِعَذَابِ اللَّهِ، وإهلاك شامل.

وبقولهم:

﴿وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾﴾: أي: وأتَيْنَاك بالنَّبأ الحقّ، وإِنَّا لَصَادِقُونَ في كلّ ما نَقُولُ لك، وقد جاءت هذه العبارة مُؤَكَّدَةً، لحاجة نَفْسه إلى التأكيد.

عندئذٍ هَدَأَتْ نفْسُه عليه السَّلامُ واطْمَأَنَّ، وأدْرَكَ الرُّسُلُ من الملائكة أنَّهُ في حالَةِ اضطرابه لَمْ يَسْتَوعِبْ مَا بيَّنُوهُ لَهُ مِنْ خُطَّةِ الرَّحِيلِ مِنْ أَرْضِ سَدُوم، فَأَعَادُوا عليه مقالتهم السابقة مع إضَافَاتٍ تفصيليّة عليها، قائِلِينَ له:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾: سَبَقَ شرح نظيرها.

﴿وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ﴾: أي: وامْشِ أنْتَ وَرَاءَ أَهْلِكَ لِتَسُوقَهُمْ، وَلاَ تَمْشِ أَمَامَهُمْ.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾: سبَقَ شرح نظيرها.

ولم يأت في هذا النّصّ استِثْنَاءُ امرأته اكْتِفَاء بمَا جَاءَ في النّصّ السابق.

﴿وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ تَدُلُّ هٰذِهِ العبارة على أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ خَصَّصَ لهم دَلِيلاً يَدُلُّهم فيَأْمُرُهم بأن يَسِيرُوا في الطرُقاتِ وإلى الجهاتِ الّتي يُعَينُها لَهُمْ. فِعْلُ «تُؤْمَرُونَ» يَدُلُّ علىٰ أَنَّ آمِراً سَيُوَجّهُ لهم الأَمْرَ بالسَّيْر في الطرقات وإلى الجهات آناً فآناً.

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾:

﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ﴾: أي: وأمْضَيْنَا وَأنْهَيْنَا إلَىٰ لُوطٍ عن طريق الْوحْي إليه، وهذا بيانٌ من اللّهِ عزّ وجلّ.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾: أي: ذلِكَ الْأَمْرَ الجليلَ العظيم الْمَهُولَ الْخَطِيرَ، ﴿ذَٰلِكَ﴾ مفعول به لفعل [قضينا]. ﴿ٱلْأَمْرَ﴾ بدَلٌ من ذلِكَ أَوْ عَطْفُ بَيَانٍ.

جاء في هذه العبارة استعمال اسم الإشارة الموضوع للبعيد، للإشارة إلىٰ أن الأمر العظيمَ الْفَظِيعَ الذي كان مستبعداً جدًّا، قَدْ تَمَّ بِه القضاء، وصارَ حقيقةً وَشِيكَةَ الْوُقُوع.

﴿أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾: هـذه الـعـبـارة بـدلٌ مـن: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾ لتفسيره، وبيانِ إبهامه الذي جاء بأسْلُوبٍ فيه تَهْوِيلٌ وَتعظيم. وهو بدلُ كُلٍّ من كُلّ.

دَابِرُ الشيء: أي: تابِعُهُ وآخره.

والمراد بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ قَوْمُ لُوطٍ وكُلُّ مَا يَتْبَعُهُم مِنْ أحياء وأشياء.

﴿مَقْطُوعٌ﴾: أي: مَقْطُوعٌ بإهْلاَكه وتَتْبِيرِه وتَفْتِيتِه، عَنِ البقاء في الوجود بأوصافه وأشكاله وهَيْئَاتِه. جاء الاكتفاء بالتعبير بالْقَطْع، والمراد الْقَطْعُ عن الوجود. وأصْلُ الْقَطْعِ الْبَتْرُ لفَصْلِ الشَّيْء عمَّا هُوَ مَوْصُولٌ به، فَقَطْعُ الْحَيِّ عن الحياة يكُونُ بإهلاكِه وإماتَتِه، وقَطْعُ الأَبْنِيَةِ والْقُرَىٰ يكون بِتَدْمِيرِها وإِزَالَةِ كُلّ أَثَرٍ لها، وقَطْعُ الشَّيْءِ عن الوجود يكون بإعدامه، وَهَكَذا.

﴿مُّصْبِحِينَ﴾: أي: حَالَةَ كَوْنِهِمْ دَاخِلِينَ في الصَّبَاح. يقال لغة: أَصْبحَ، أي: دَخل في وقْتِ الصّباح، وهُوَ أول النهار عند الصُّبْح.

والمعنى: وأَنْهَيْنَا إلى لُوطٍ وَحْياً، أَنَّ قَوْمَكَ هؤلاء الَّذِينَ لم يستجيبوا لدَعْوَتِكَ وَنُصْحِكَ، وتفاقَمَتْ قَباحاتهم ومُنكَرَاتُهم وجَهالاَتهم، ووصَلُوا إلى حالة مَيْؤُوسٍ منها، معذَّبُونَ، ثم مُهْلَكُون، ومُبَادُون بِدْءاً مِنْ دُخُولهم في الصَّبَاحِ عَقِبَ هٰذِهِ اللَّيْلَة.

(٨) وجاء في سُورَةِ (العنكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

جاء في هذا النَّصّ إضافات على ما سبق أن قال الرُّسُلُ من الملائكة لِلُوطٍ مُعَرِّفين بأنفسهم، ومبيِّنِينَ مُهِمَّتَهُمْ، ومُطَمْئِنِينَ لوطاً وأهله.

﴿وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾: في هذا القول إضافة لم تُذكَرْ في النُّصوصِ الأُخرَىٰ.

﴿لَا تَخَفْ﴾: أي لاَ تَخَفْ مِنْ أَجْلِ نَفْسِكَ وأَهْلِكَ الْمُؤْمِنِينَ.

﴿وَلَا تَحْزَنْ﴾: أي: وَلاَ تَحْزَنْ على مُمْتَلَكَاتِكَ ومَوَاشِيكَ في أَرْضِ سَدُوم، فاللَّهُ جلَّ جلالُهُ يُعَوِّضُكَ عَنْها.

﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾:

أضافت هذه العبارة على ما سَبَقَ، بَيَانَ أَنَّ الرُّسُلَ سَيُنَجُّونَه هو وَأَهْلُه، واقتضى البيان اسْتِثناء امرأته من هذا الوعد، مع أنه قد جاء في النصوص السابقة بيان اسْتِثْنائِها، دفعاً لتوهم إعفائها من الهلاك.

﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: كانت بقَدَرِ اللَّهِ وَقضائه من الهالكين الماضِينَ إلى الفناء.

﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

هذا البيان كُلُّهُ منَ الإضافاتِ في هذا النصّ الذي جاء في سُورَة (العنكبوت).

أي: فَسَيُنزِلُون عليهم وسائلَ تَعْذِيب خاصَّةً من جهة السَّماء، غَيْرَ وسائِلِ الإهلاك العامّ، بسَبَبِ مَا كَانُوا يَفْسُقُون مُكَرِّرينَ جَرائِم فِسْقِهِم آناً فآناً.

الرِّجْزُ: العذَابُ، وَالْمُرَادُ وَسَائله.

أخرج مُسْلِمٌ وغَيْرُه عن أسامة بن زيد، وسَعْدِ بْنِ مالك، وخُزَيمةَ بْنِ ثابت، قالوا: قال رسُول الله ﷺ:

«إِنَّ هَٰذَا الطَّاعُون رِجزٌ، وبَقِيَّةُ عذَابٍ عُذِّبَ بِهِ أُنَاسٌ مِنْ قَبْلِكم».

﴿يَفْسُقُونَ﴾: أي: يُكَرِّرُون في أعمالهم الخروج عن الحق والواجب وأوامر الله نواهيه.

(٩) وَجاء في سُورَةِ (الْقَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قولُ اللَّه عزّ وجلّ بشأن لوط عليْه السَّلام وشأن قَوْمه:

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾﴾.

يدلُّ هذا النَّصّ على أنَّ لوطاً عليه السَّلام أنذرهم عدّة مَرَّاتٍ، بأنّ الله عظُمَتْ قدرته وجلّت حكمتُهُ، سيَبْطِشُ بِهِمْ بَطْشَة تَعْذِيبٍ شَدِيدٍ، إذا تَمادَوْا في إصرارهم على أَنْ يقْتَحِمُوا دارَهُ اقتحاماً، ليَصِلُوا عَنْوَةً إلَىٰ مَا يُرِيدُون، فَتَمَارَوْا بالنُّذُر.

﴿أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾: أي: أعْلَمَهُمْ بأنَّ اللَّهَ سَيَبْطِشُ بهم، وخَوَّفَهُمْ من ذلك. **يقالُ لغة**: أَنْذَرَهُ الْعَذَابَ، أي: أعلمه به، وخَوَّفَه منه.

الْبَطْشَة: واحِدَةُ الْبَطْش، وهو التناوُلُ بشِدَّةٍ عِنْدَ الصَّوْلَة، والأَخْذُ الْقَوِيُّ الشَّدِيدِ، والسَّطْوُ في سُرْعَة.

﴿فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ﴾: أي: فجادلُوا بإنْذارَاته وشكّكلُوا فيها.

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾: أي: أَعْمَيْنَاهُمْ، وذُكِرَ أَنَّ الرُّسُل من الملائكة رَمَوْا علَىٰ وُجوه الْمُحِيطِينَ بِداره مِنْ قَوْمه مادَة مُحْرِقَةً، فأعْمَتْ عُيونَهُمْ، وجَعلَتْها مُنْطَمِسَةً فلاَ أَثَرَ لِعُيُونِ في وُجُوههم.

الطَّمْسُ: يأتي في اللُّغَة بمعاني: التَّشويه، والإزالة، والمحو. **يُقَالُ لغة**: طَمَسَتِ الرِّيحُ الأَثَر، أي: أزالَتْهُ وَمَحَتْهُ. **ويقال**: طَمَسَ على عَيْنِهِ، أي: أعماها.

فانْصَرَفَ المحيطون بداره يَصْرُخُون من آلاَمِ الطَّمْسِ الحارِقِ، لا يَعْرِفُون طُرُقَهُمْ.

(١٠) وَجاء في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول اللَّهِ عزَّ وجلّ بشَأنِ لوط وَأهله:

﴿فَأَنجَيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾﴾: أي: مــــن الهالكين.

(١١) وَجَاء في سُورَةِ (القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) بَعْدَ بيَانِ إرْسَالِ الحاصِبِ على قَوْمِ لُوط:

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۢ ۖ نَّجَّيْنَـٰهُم بِسَحَرٍ ۝ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾﴾.

لَمْ يَأتِ في هذا النّصّ استثناء امرأة لُوط، إشارةً إلى أنَّ الله عزَّ وجلَّ لَمْ يَعْتَبِرْهَا من آله، فآل الرَّجُلِ مَنْ كَانوا من أَهْلِهِ أنصاراً له وأوْفِيَاءَ، أَمَّا امرأةُ لُوط فقد خانته، لأنها كانت كافرة وَعلَىٰ هوى قَوْمِها، وليس المرادُ خيانَتَها في شَرَفِها وَعِرْضِها، بلَ كانت تقوم بإعلامِ قومها بما يَجْرِي مع زَوْجها لوط.

وأبان هذا النّص أن نَجاةَ لوط وآله بخروجهم من أرض سَدُوم قد كان في وقت السَّحَر.

السَّحَرُ: آخِرُ اللَّيْلِ قُبَيْلَ الْفَجْر.

﴿نِّعۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾: **النِّعْمَةُ**: اسْمٌ للإنْعَام، وهو ما يَتَفضَّل به صاحب الفضل ممَّا هو مَحْبُوبٌ لدَىٰ المنعَم عَلَيْهِ، ومن الإنعَامِ الْعَظِيم تخليصُ المنعَم عليه من شُرُور قَوْمِهِ، أَوْ مِنَ العَذَابِ المقَدَّرِ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِم، ومِنَ الهلاك المقضيّ أن يَعُمَّهُمْ.

﴿مِّنۡ عِندِنَاۚ﴾: أي: ممَّا هو عِنْدَنَا وَمَوْجُودُ في مِلْكِنَا من أشياءَ ووسائل.

﴿كَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَن شَكَرَ﴾: أي: كذلِكَ الجزاء الذي جازينا بِهِ لُوطاً وآلَهُ نَجْزِي كُلَّ مَنْ شَكر مِنْ عبادنا، وفي هٰذه العبارة بيانٌ عَنْ فِقْرَةٍ مِنْ فِقَرَاتِ سُنَنِ اللَّهِ فِي عبادِه.

(١١) وجاء في سورة (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَقِبَ بيان دُعاء لُوطٍ رَبَّهُ بِقوله: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهۡلِي مِمَّا يَعۡمَلُونَ ۝١٦٩﴾: أي: نَجِّنَا من عِقَابِ وَعَذَابِ مَا يَعْمَلُ قَوْمي، قول الله عزّ وجل:

﴿فَنَجَّيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ۝١٧٠ إِلَّا عَجُوزٗا فِي ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝١٧١﴾:

أي: فاسْتَجبْنَا لَهُ دُعاءَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إلاَّ عَجُوزاً هِيَ امرأتُهُ مَضَتْ مع الْهَالِكِينَ، لأنَّهَا كانت كافرةً وَمَعَ هَوىٰ قَوْمِهَا، فَهِيَ لا تَسْتَحِقُّ أَنْ يَسْتَجيبَ اللَّهُ دُعَاءَهُ فيها، إذْ كانت على غير دِينِهِ وعَلَىٰ غير طَرِيقَتِهِ.

(١٢) وَجَاء في سُورَةِ (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل في معرض الحديث عن لوطٍ وَقومه:

﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَٰهَا مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ۝٥٧﴾:

﴿قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾: أي: جعَلْنَاهَا لَدَىٰ تَحْدِيد المقادير المتعلِّقَةِ بلُوطٍ وأَهْلِهِ وَقَوْمِهِ مِنَ الماضِين من قَوْمِهِ بالتَّعْذِيب والإهْلاك.

فأضافَ هٰذا النَّصُّ بَيَانَ أَنَّ الأَحْدَاثَ الَّتِي جرَت في قِصَّةِ لُوطٍ وقومه قَدْ كانَتْ مَسْبُوقَةً بِقَدَرٍ رَبَّانِيٍّ، يَشملُ صِغارَهَا وكِبارَها.

(١٣) وَجاء في سُورَة (الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾﴾.

فأضاف هذا النصّ على النّصّ الذي في سورة (الشعراء) التوجِيهَ لِوَضْعِ هذا الحدَثِ مِنْ أحْدَاث سُنَنِ اللَّهِ في عباده الممتَحَنِين، في الذَّاكِرَة دَواماً، لِيَكُونَ دَافِعاً للاستقامة خوفاً من عَذَاب اللَّهِ وَنِقمَتِهِ.

﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ﴾: أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أيُّها المتلَقِّي هذا الحدَث من أحداث سُنَنِ اللَّهِ في عباده.

(١٤) وَجاء في سُورَةِ (الذَّارِيات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن قِصَّةِ لُوطٍ وَقَوْمِه، قولُ الله عزّ وجل:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

فأبان هذا النَّصُّ أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ أَصْدَرَ أَمْرَهُ للرُّسُلِ من الملائكَةِ المكلَّفِينَ أَنْ يُعَذِّبُوا قَوْمَ لُوطٍ وَيُهْلِكُوهم، بأَنْ يُخْرِجوا مِنْ مَوَاطِنِ تَنَزُّلِ العذابِ والإهلاك كُلَّ مُؤْمِنٍ صَادِقِ الإيمان.

ولَكِنْ بالْبَحْثِ وَالتَّنقِيبِ مِنَ الملائكة، وبالاستناد إلى عِلْمِ اللَّهِ الشامل، لَمْ يُوجَدْ فِيهِمْ غَيْرُ بَيْتٍ وَاحِدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أي: مِنَ المؤمنين المسلمين، هو بَيْتُ لُوطٍ عليه السَّلاَم، قالُوا: هُوَ وابْنَتَاه، أو بَنَاتُهُ الثلاث.

(١٥) وَجاء في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) في معرضِ الحديث عَنْ لُوطٍ عليه السّلاَم، قول اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَـٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾:

فأضاف هذا النّصُّ بَياناتٍ لم يأتِ ذِكْرُهَا في النُّصُوص الأُخرى.

نصوص أحْداثِ وُقُوعِ التعذيب والإهلاك بقوم لوط

(١) جاء في سُورَةِ (القَمَر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا... ﴿٣٤﴾﴾.

وقولُهُ تَعَالى:

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾:

﴿حَاصِبًا﴾: الحاصِبُ، الريح الّتي تَحْمِلُ الترابَ وَالْحَصْباءَ، فَتَضْرِبُ بِهَا الأَشْيَاءَ، فَيُصِيبُ اللّهُ بها مَنْ يَشَاءُ.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾: أيْ: ولَقَدْ جاءَهُمْ في وَقْتِ الصَّباحِ، وهو أوّلُ النهار عِنْدَ الصُّبح بَدْءُ نُزُول العذاب، واستمر طوال الْبُكرَة، وهي أول النهار إلى طلُوع الشمس.

﴿عَذَابٌ﴾: العذابُ: اسْمٌ للعِقَاب والنَّكالِ، فَهُوَ اسم لِمَصْدَر «عَذَّبَ، يُعَذِّبُ، تَعْذِيباً»: أي: عاقب ونَكّلَ، وأصْلُ العذاب كلُّ مَا يَشُقُّ على النّفس ويُؤْلِمُها.

﴿مُّسْتَقِرٌّ﴾: أي: ثَابتٌ مُتمكّنٌ في مكانِ حُلُوله، حتى انْتِهَاءِ الْبُكْرَة.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾﴾: عبارةٌ صَدَرَ بها أَمْرُ التكوين الرَّبَّانيّ بأنْ يَذُوقوا عذاب رَبّهم الّذي لم يكونوا يُصَدِّقُونَ رَسُولَ رَبِّهِمْ به، وبأَنْ يَذُوقوا تَطْبيقَ نُذُرِي الّتي كانَ يُبَلِّغُهم إيَّاها.

(٢) وَجاء في سورة (الأَعْرَاف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾:

فأضَافَ هٰذا النَّصُ أَنَّهُ قد جاءهُمْ مِنْ جِهَةِ السَّماءِ أَشْيَاءَ نَزَلَتْ عَلَيْهِمْ مُعَذِّبَةً وَمُهْلِكَةً كَمَا يَنْزِلُ الْمَطَرُ الْغَزِير.

وجاء فيه وصْف قوم لوطٍ بأَنَّهُمْ مُجْرِمُونَ، أي: مُرْتَكِبُونَ مِنَ الجرائم ما يجعلهم خالدين في النار يوم الدّين.

(٣) وَجاء في سورة (الشُّعَرَاء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) بعد بيان نجاة لُوط وأهله باستثناء امرأته العجوز:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾:

فَأَضَاف هذا النّصّ أنَّ اللّهَ عزّ وجلّ دَمَّرَ كُلَّ مَنْ لم يَكُونوا ناجين مع لوطٍ من قومه، وأضافَ أنَّ المطر الّذي أَمْطَرَهُ الله عليهم مَذْمُومٌ بعبارة: ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ﴾:

أي: الّذِينَ سبق أن أُنْذِرُوا بالعذاب والهلاك.

التدمير: هو الإهلاك باستئصال، ومَحْو المباني وآثارِها حتّىٰ لا يُرَىٰ مِنها شيء، وأصل التدمير تحطيم الشيء الْمُدَمَّر على وجْهٍ لا يُرجَىٰ بَعْدَهُ إصْلاَحُه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾ أي: إنَّ في ذَلِكَ الّذي أَجْراه اللّهُ لِقَوْم لوطٍ

وبلادهم وَأشيائهم، لَعَلاَمَةَ تَدُلُّ ذَوي الأَلْبَاب على سُنَّةٍ من سُنَنِ اللَّهِ الجزائية الَّتي يُعَاقِبُ بها المجرمين.

﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: وما كان أكْثَرَهُمْ مُسْتَعِدِّينَ لِأَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقْبلاً مَهْمَا أُمْهِلُوا، فاقتضت الحكمة إهلاكَهُمْ أجْمَعِين. ثُمَّ يُجازي اللَّهُ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ يَوْمَ الدِّين بِحَسَبِ مَا فِي نَفْسِهِ، أَشَارَ إلىٰ هذا قول الله تعالى في آخِرِ النَّصّ: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾﴾ أي: فالّذي يَسْتَحقُّ الْعِقَاب يُعاقِبُهُ اللَّهُ بِعِزّتِه، أي: بقُوَّتِهِ الْغَالِبَة.

والّذي يُلائم ما في داخل نفْسه أَنْ يَرْحَمُهُ فإنَّهُ يَرْحَمُهُ بِحِكْمَتِهِ.

(٤) وَجاء في سُورَة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

هذه العبارة تَكْرِير لما جاء في سورة (الشُّعراء) ومقتضي التكرير كونها بمثابَةِ العلاج الدَّوائي الّذي تَحْتَاجُ طَبَائِعُ النفوس إلى تكريره.

(٥) وَجَاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾.

فأضافَ هذا النصّ أنَّ تَدْمِيرَ قُرَىٰ قوم لوط كَانَ بِرَفْعِها في الْجَوِّ وَقَلْبِهَا حتَّىٰ صَارَ أعلاها أسْفَلَها، وأسْفَلَهَا أعْلاَهَا.

وأضاف أَنَّ المطَرَ الذي نَزَلَ على قَوْمِ لُوطٍ قَدْ كانَ حِجارةً مِنْ سَجِّيلٍ مَنْضُودٍ.

﴿حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾: أي: حجارة أصلها طِينٌ تَحجَّرَ، ورُبَّما كان للنار أَثَرٌ في جَعْلِه مُتحجِّراً.

﴿مَّنضُودٍ﴾: أي: قَد انضَمَّ بعضُهُ إلَىٰ بَعْضٍ باتِّسَاقٍ وَتَرَاصُفٍ مُنْتَظِم، ونزل عليهم كطلقات رَصَاصِ المدْفَعِ الرَّشَّاش.

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾: أي: مُعلَّمَةً عِنْده بعلاَمَاتٍ تَخُصُّ مُجْرِمي قَوْمِ لُوط، وتَدُلُّ على أنَّها مُرْسَلَةٌ بقَصْدٍ لإهلاك قوم لوط.

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾: أي: وَمَا هي مِنْ ظَالِمِي قوم لُوطٍ بمَكانٍ بَعِيدٍ عنهم. ومَا هٰذِهِ الحجارةُ المسَوَّمَةُ من كُلِّ الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ الإهلاك بها بمكان بَعِيدٍ عَنْهُمْ في كُلِّ أُمَّةٍ وفي كُلِّ عَصْر.

(٦) وَجاء في سُورَة (الْحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾:

فَأَضَافَ هٰذَا النَّصّ أَنَّ صَيْحَة إهْلاكِ قَوْمِ لُوطٍ قَدْ كَانَتْ بَعْدَ إشْرَاقِ الشَّمْس، فَدَلَّ هَذَا عَلَىٰ أَنَّ الرِّجْزَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِمْ عِنْدَ الصُّبْحِ، قَدْ كانَ رِجْزَ تَعْذِيبٍ لهم قَبْلَ إمَاتَتِهِمْ، وأنَّهُ اسْتَقَرَّ فيهم حتَّىٰ جاءَتْهُمُ الصَّيْحَةُ المهْلِكَةُ الْمُمِيتَةُ بَعْدَ شُرُوقِ الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾: ما جاء في هذ العبارة مُكَرَّرٌ لأنَّهُ عِلاَجٌ تَرْهِيبيٌّ للنفوسِ، تقتضي طبائِعُ النفوس تكريره.

لَكِنْ جَاء في هذا النَّصّ إضَافَةُ مَا يلي:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾: أي: إنَّ في مَواطِنِ إهلاك قوم لوطٍ وَتَدْمِير قُراهم لآيَاتٍ مُتَعَدِّدَاتٍ للمتفكّرين بتَعمُّق اسْتدلالاً بِسِمَاتِ الأشياء.

التَّوَسُّمُ: النَّظَرُ الفِكْرِيُّ بِتَعَمُّقٍ في سِمَاتِ الأشياء وصِفَاتها، لِمَعْرِفَةِ دَلاَلاتها، قال أبو عُبَيْدَة: ﴿لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾: أي: للمتبصِّرين. وقال ثعلَبُ: الواسِمُ: الناظِرُ إليكَ مِنْ قَرْنِكَ إلَىٰ قَدَمِكَ.

﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾: أي: وإنَّ قُرَىٰ قَوْم لُوطٍ الَّتِي غَمَرَهَا الْبَحْرُ الميّت لَبِطَرِيق وَاضِحٍ مُقِيم ثَابتٍ غَيْرِ مُتَغَيّر، يُشَاهِدُ مَوَاقعها مَنْ يَزُور أَرْضَ سَدُوم أَوْ مَا حَوْلها.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾﴾: أي: إنَّ في ذَلِكَ الْحَدَثِ العظيم الذي جَرَىٰ لِقَوْمِ لُوطٍ وَقُرَاهم لآيَةً مِنْ آياتِ اللَّهِ على سُنَّةٍ مِنْ سُنَنِ اللَّهِ فِي عباده المجرمين، وهذه الآيَةُ يَنْتَفِعُ بها الَّذِينَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدَادُ لِأَنْ يُؤْمِنُوا.

اسم الفاعل «المؤمنون» بِقُوَّةِ الفِعْلِ المضارع يَصْلُحُ لأنْ يَقَعَ على الحال وعلى الاستقبال[1] بحَسَب الْوَضْعِ اللُّغَوِيّ.

(٧) وَجَاءَ في سُورَةِ (الصَّافَّاتِ/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) عَقِب بيان نجاة لوط وأهله باسْتثناء امرأته العجوز:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾﴾: هٰذِهِ العبارة مُكَرَّرَةٌ اقْتَضَاهَا التَّمْهِيدُ لِمَا بَعْدَها.

﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾:

الخطابُ مُوَجَّهُ لكبراء مُشْرِكي قريش وَمنْ كان مثلهم، من الّذِين كانت لهم رِحلات تجاريَّةٌ إلى الشَّام، إذْ كانَتْ قَوَافِلُهُمْ تَمُرُّ بجوار أَرْض سَدُوم، ويُشاهِدُون آثار إهْلاَكِ اللَّهِ عزّ وجَلَّ لِقَوْم لُوط، ومَا أَنْزَلَ بهم من عَذَاب.

---

(١) هذا ما تأكّدَ لديَّ خلال تَدَبُّري للنصوص القرآنية.

وَكان من عادَةِ قَوافلهم أَنْ تَمُرَّ بهٰذِهِ المواطن في أَسْفَارِها وَقَدْ دَخَلُوا في الصّباح، أَوْ في اللَّيْلِ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحُوا.

﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾؟: اسْتِفْهَامٌ عن عَدَمِ تَعَقُّلِهم، والمرادُ حَثُّهم على التعقل، والإنكارُ عليهم إذْ لم يَعْقِلُوا. والعقل هُنَا يَتَنَاوَلُ الْعَقْل العلميّ الفكري، والعقل الإراديّ الَّذِي يَعْقِلُون به أهواءهم وشهواتهم عن الشُّرُودِ إلى مواطن هلاكهم.

فأضاف هذا النصّ أنَّ المخاطبين يَمُرُّونَ في أَسْفَارِهم بمواطِنِ إهلاك قوم لوط، ويشاهِدُونَ آثار تَدْمِيرِ بلادِهم وإهْلاكِهِم، وأنّه كان عليهم أنْ يَعْقِلُوا وَيَتَعَظُوا.

(٨) وَجاء في سورة (الذَّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول) بشأن أَرْضِ قَوْمِ لُوطٍ بَعْدَ الإهلاك والتدمير:

﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٣٧﴾:

أي: وتَركنا في أَرْضِهم الَّتي كانوا يَعِيشونَ عليها عَلامَةً بَاقِيَةً دالَّةً على ما أَنْزَلْنَا بهم من عَذَابٍ وَتَدْمِير وإهلاك، وهذه الآية يَنْتفِعُ بها الَّذِينَ يَخَافُونَ عَذَابَ اللّهِ الأَلِيم.

(٩) وَجاء في سورة (العنكَبُوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةً لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٣٥﴾:

بَيْنَ هذا النَّصّ والنّص الذي قبلَهُ تَكامُلٌ وَاضحٌ.

- فالنَّصُّ الّذِي في (الذّاريات): ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً ﴾.
- والنصّ الّذي في (العنكبوت): ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ ﴾.

عبارَة: ﴿فِيهَا ﴾ تَدُلُّ على أَنَّ الله عزّ وجلّ تَرَكَ في أَرْض قوم لُوطٍ آيَةً لَيْسَتْ مِنْها، وَلَكِنْ أُنزِلَتْ عليها وبَقِيتْ فيها.

وعبارة: ﴿مِنْهَآ﴾ تَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ اللَّه عزّ وجلَّ تَرَكَ في أرض قوم لوط آيَةً هِيَ مِنْها، والمنَقِّبُونَ الآثاريُّون يَكْتَشِفُونَ في كُلِّ حِينٍ قِسْماً مِنها.

والتكامل بين: ﴿ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وبين: ﴿ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ تَكامُلٌ وَاضح.

والحمد لله على فتحه ومعونته وتوفيقه



(٢٢)

الملحق السادس
دراسة تكاملية للنصوص بشأن شعيب عليه السلام وقومه في القرآن المجيد

جاء في القرآن المجيد ذِكْرُ شعيب عليه السَّلام وذِكْرُ قومه في تسعة نصوص من تسع سور، ففي أربعة منها جاء التصريح باسم شعيب عليه السلام، وفي ثلاثة منها جاء ذكر قومه بعنوان: «مَدْيَن» وفي اثْنَيْن منها جاء ذكرهم بعنوان: «أصحاب مَدْينَ» وفي أربعة منها جاء ذكرهم بعنوان: «أصحاب الأيكة» واشتمل كلُّ نصّ منها على لقطات موجزات من مجمل قصة شعيب عليه السلام وقومِه.

«مَدْيَن» هم «أَصْحَابُ مَدْين» وهُمْ أنفسهم «أصحابُ الأيكة».

أُطْلِقَ عليهم عنوان: «مَدْين» باعتبار أَنَّ اسم جَدِّهِمْ «مَدْين» قَدْ أطلق عليهم، فصار علماً لهم. وأُطْلِقَ عليهم عنوان: «أَصْحَاب مَدْين» باعتبار أنهم أَصْحَابُ الأرض الّتي يُطْلَقُ عليها عنوان: «مَدْين». وأُطْلِقَ عليهم عنوان: «أصحاب الأيكة» إذْ كانت لهم أيكة (أي: غيضة) نفيسَةٌ تُقْصَدُ فيها نَاعم الشجر. هذا ما تَرَجَّحَ لديّ من أنَّ أصحاب الأيكة هُمْ من «مَدْين» وليسوا أُمَّةً أخرى، والله أعلم.

الأَيْكة: ويخفف اللَّفظُ فيقال فيه: «لَيْكة» الشجر الكثيف الكثير المُلْتَفُّ الناعم. وكانَ لأصْحَابِ مدين غيضة نفيسة تقصد، فيها شجر كثيف كثير ناعم.

وهل «الأيكة» اسم «غيضَتِهم» أو اسم «قَرْيتهم الكُبْرى» احتمالان مذكوران، وقد يبدو رجحانُ أنّه اسم غيضتهم، واللَّهُ أعلم.

وأذكُرُ هذه النصوص التسعة أوّلاً مُرَتَّبةً على وَفْقِ تَرْتيب نُزُول سورها، وبعد ذكرها أشرع في دراستها دراسةً تدبّريّة تكامليَّةً على ما يفتح اللَّهُ به وَفق مشيئته.

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) في معرض الحديث عن مكذّبي الرَّسُول محمد ﷺ من قومه إبّان التنزيل:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾: أي: فثَبَتَ وَعِيدِي في الواقع التطبيقي، بعد كان إنذاراً خبريًا.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (صٓ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) في مَعْرِضِ الحديث عن مُشَاقّي الرسول محمد ﷺ من كفّار قريش، تلويحاً بإنذارهم بإهلاكٍ عامّ، كما حصل لمكذّبي أهل القرون السَّابقة:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾: أي: فثبتَ عِقَابي في الواقع التطبيقي، بعد أن كان إنذاراً خبريًّا، بلّغهُمْ إيّاهُ رُسُلِي.

أَصْحَابُ الأَيكة: همْ «مَدْين» و«أَصْحاب مَدْين، قوم النبيّ الرسول شُعَيْب عليه السلام، هذا ما ترجّح لديّ من أنّهم أُمَّةٌ واحدة.

﴿أُوْلَـٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾: أي: أولئِكَ أحْزابُ الكُفْرِ الكِبَار في التاريخ الذين استحقُّوا الإهلاك العامّ الشامل.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) وقد سبق تدبُّره في موضعه من السورة:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَـٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟

هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾.

النصّ الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾ ﴾.

النّصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿ ۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ

وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ ﴾.

النصّ السادس:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ ﴾.

﴿وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾: أي: وإِنَّ الأَيْكَةَ الَّتي كانَ أصْحابُها قَوْمَ شُعَيب عليه السلام، وإنَّ أصْحَابَهَا الْمُهْلَكِينَ، لتُوجَدُ آثارهم في طَريق واضح.

لفظ «إِمَام» يُطْلَقُ على الطَّرِيق لأَنَّهُ يُؤْتَمُّ بِهِ لِلْوُصُولِ إِلَىٰ الغاية المقصودة.

النَّصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ

وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحجّ/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول):

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾؟!: أي: فكَيْفَ كَان إنكاري عَلَيْهِمْ، بمعنىٰ عِقَابِي الْمُهْلِكُ لَهُمْ إهْلاكَ اسْتِئصَال؟!

النصّ التاسع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) بشَأْن المنافقين وعموم الكافرين:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

أوّلاً:

مقدمة

من الملاحظ أنَّ إيراد كلِّ نصٍّ من هذه النصوص التسعة في موضعه من السورة الّتي هو منها، قد استدعته مناسبة داعية لإيراده في السورة، وعسَىٰ أَنْ نكْتَشِف بَعْدَ تَدبُّرِها أنَّها مُتَكامِلَةٌ فيما بَيْنَها، ولم يُكَرَّرْ فيها إلاَّ مَا يَقْتَضِيهِ إيراد القصة، وحلقَاتُ الرَّبط، وفِقَرَاتُ الإنْذارِ وَتَوْجِيهِ الْعِظَة، وَمَا

كَانَ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ يُكَرِّرُهُ علَىٰ قَوْمِه، كنَهْيِهِمْ عَنْ رَذَائِلِهم الَّتي كَانُوا مُصِرِّينَ على ممارَسَتِها، مِنْها أكْل أموال الناس بالباطل، والإفْسَادُ في الأرض، وقَطْعُ السُّبُلِ على الناس للعدوان عليهم.

المناسبة التي اسْتَدْعَتْ كلّ نصّ في السورة التي هو منها:

(١) فالنص الذي جاء في سورة (ق/ ٥٠ مصحف/ ٣٤ نزول) استَدْعتْهُ حكمة إنذار المكذّبين بنَبأ يوم الدّين، المنكرين للْيوم الآخر، لإعلامهم بأنّهم إذا أصَرُّوا على موقفهم هذا فإنّهم يُعَرِّضون أنفسهم للإهلاك، كما حصل للمكذّبين بيوْم الدّين من أهل القرون الأولى.

(٢) والنص الذي جاء في سورة (ص/٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) استدعَتْهُ حكمة إنذار مُقاومي الرسول محمد ﷺ ومقاومي دَعْوته، الَّذين وصَلُوا إلى مَرْحلَةِ المشاقَّةِ والعِدَاء، والتفكير بإعداد الْقُوَّة المسلّحَةِ لِلْقَمْعِ وإيقاف حركة الدَّعْوَة، وقَطْع دابِرِ أنْصَارِها.

ويتضمَّن هذا الإنذارُ إعلامهم بأنّهم إذا أصَرُّوا على مَوْقِفِهم هَٰذَا فإنَّهم يُعَرِّضون أنفسهم للإهلاك الشّامل، كما حصَلَ للّذينَ وقفوا مِنْ رُسُلِ رَبّهم ومن الذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهُمْ مِثْلَ مَوْقِفِهِمْ هَٰذا من أهْلِ الْقُرون الأولى.

(٣) والنص الذي جاء في سورة (الأعراف/٧ مصحف/ ٣٩ نزول) استدعَتْهُ حِكمَةُ إنذار المكذّبين بآيات اللّهِ المنزّلاتِ على رسوله محمد ﷺ، واستكبروا عن اتِّباع ما جاء فيها من شرائع وأحْكامٍ ووصايا.

ويتضمن هذا الإنذار إعلامَهُمْ بأنّهم إذا أصَرُّوا على موقفهم من التكذيب بآيات اللّهِ المنزّلات في كتابه، والاستكبار مُعْرِضين عن اتّباعها، فإنّهم يُعَرِّضُون أنفسهم للإهلاك الشامل، كما حَصَلَ للّذِينَ كذَّبوا بآيَاتِ اللّهِ المنزّلاَتِ على رُسُلِه السّابقين، واستكْبَرُوا مُعْرِضين عن اتّباعها من أهل القرون الأولى.

(٤) والنّصّ الذي جاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) استدعَتْهُ حكْمَةُ إنْذَارِ الَّذِينَ كذّبوا رَسُول ربّهم محمّد بْنَ عبد الله ﷺ، خاتم أنبياء الله ورُسله.

ويتضمَّن هذا الإنْذَارُ إعلامَهُمْ بأنَّهم إذا أصَرُّوا على موقفهم هَٰذَا، فإنَّ اللَّهَ سَيَنْصُرُ رَسُولَهُ على مكَذِّبيه، كَمَا نَصَرَ رُسُلَهُ السَّابقين على الَّذِينَ كَذَّبُوهم مِنْ أُمَمِهم، واستكبروا عليهم، وأعْرَضُوا عن اتّباعهم، وتَمَرَّدُوا على طَاعتهم، من أهل القرون الأولىٰ.

(٥) والنّص الذي جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) مع ما ذُكر في هذه السّورة من أمثلة إهلاك بعض أهل القرون الأولى، استدعتها حكمة تثبيت فؤاد الرّسُول محمّد ﷺ، تُجاهَ ما تَعرَّضَ له من هزَّاتٍ نفسيَّةٍ بمقتضىٰ بشريّتِهِ، بسبب شتائم الَّذِينَ كفرُوا به من قومه، وعَدَمِ استجابَةِ اللَّهِ لمقترحاتهم التعنتيَّةِ الَّتي اقترحوها، وبسبب ضيقِ صَدْرِهِ ببَعْضِ ما يُوحَىٰ إليه، ممَّا يُثير له مشكلاتٍ جدليَّةً مع كُفَّار قَوْمه، أو مشكلاتٍ عدائيَّة.

دلّ على هذه الحكمة قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أوائل هذه السورة خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾﴾.

وقولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في أواخِرِها:

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾﴾.

(٦) والنص الذي جاء في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) استدعَتْهُ حكْمَةُ مُعَالجةِ أثَرِ اسْتِهْزَاءِ الْمُسْتَهزئين في نفس الرسول ﷺ، بأنّ اللَّهَ عزّ وجلّ سيَنْتَقِمُ منهم، كما انتقم من المستهزئين بالرُّسُلِ السّابقين، وحكمةُ معالجة شتيمَتِهم لَهُ بأنَّهُ لمَجْنُون.

دلَّ على هاتين الحكمتين قولُ الله عزّ وجلّ في أوائل هٰذه السّورة بشأن كفَّار قريش:

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٧﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ فيها أيضاً:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾﴾.

وقولُ الله عزّ وجلّ في آخر هذه السورة:

﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾.

(٧) والنص الذي جاء في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) مع ما ذكر في السورة من أمْثِلَةِ إهلاك كفَّار القرون السالفة، قد استدعَتْهُ حِكْمَةُ تَثبيت قُلُوب المؤمنين، بمناسبَة ما تَعرَّضوا لَهُ من فتنةٍ من أجل دِينهم واتّباعهم رَسُولَ رَبّهم، ومَا نَزَلَ بهِمْ من بلاءٍ وتَعْذِيبٍ، من قِبَلِ الكافرين المكَذّبينَ، الّذين اسْتَشْرَىٰ فيهم اضطهاد المؤمنين.

دلَّ على هذه الحكمة قول الله عزّ وجل في صدْرِ هذه السورة:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠﴾.

(٨) والنصّ الذي جاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣نزول) استدعَتْهُ حكْمَةُ مُعالجة مَا تَعَرَّضَتْ لَهُ نُفوسُ الْمُؤمِنِينَ مِنْ مَشَاعِرِ استبطاء إنزال العذاب بالَّذِينَ كَذَّبُوا الرَّسُولَ، وكَذَّبُوا بِمَا جَاءَ به، وحِكْمَةُ مُعالَجَةِ حالَةِ الْكَافِرِينَ الَّذِينَ رَأَوْا فِي تَأْخِيرِ إنْزَالِ الهَلاَكِ الشَّامِلِ بِهِمْ ذَرِيعَةً لإصرارهم على مواقفِهِم.

وأبان الله عزّ وجلّ فيه أنَّ سُنَّتَهُ في الأُمَم كلِّها أن يُمْلِيَ لَهَا، ولاَ يُعَجِّلَ لَها العقاب، حتَّىٰ يَنْتَهِيَ كُلُّ رَجَاءٍ مَطْمُوعٍ فِيهِ من قِبَلِ الناسِ باستجابةِ فَرِيق مِنْهُمْ تقضي الحكمة بإضافَةِ إمْهَالٍ أخيرٍ من أجلهم.

(٩) والنصّ الذي جاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣ نزول) استَدْعَتْهُ حكْمَةُ إِنْذَارِ المنافقين والمنافقات بأَنَّهُمْ عُرْضَةٌ أيضاً لأنْ يُنْزِلَ اللَّهُ بهم عقوباتِه المعجَّلاَتِ في الدُّنيا، كَمَا أَنْزَلَ عُقُوبَاتِهِ المعجَّلاتِ بكُفَّارِ أَهْلِ القرونِ الأُولى، لأنَّ المنافقين يَدْخُلُونَ في الحقيقة ضِمْنَ عُمُومِ الكافرين.

فهذا النَّصُّ قَدْ جاء في مَعْرِضِ الحديث عن المنافقين والمنافقات.

وهكذا ظهر لنا أن كلّ نُصّ من هذه النصوص التسعة، الّتي اشتملَتْ على لقطاتٍ من قِصَّةِ شُعَيْبِ عليه السَّلام وقَوْمِه، قَدْ كانَ لمُنَاسَبَةٍ خاصَّة استَدعتْ إيراده، مع أنَّنا حينما ندرسُ هذه النصوص دراسةً تدبُّرِيَّة تكاملية، فإننا نَجِدُها متكاملةً فيما بَيْنَها، لا مُكَرَّرَة.

❋ ❋ ❋

ثانياً:

التدبر التكاملي

وفيه عشرة فصول:

الفصل الأول: مجريات دَعْوَة شعيب عليه السلام لقومه.

الفصل الثاني: مرحلة الجدليات بين قوم شعيب عليه السلام وبينه.

الفصل الثالث: مرحلة اضطهادٍ وتهديدٍ من قوم شعيب له وللذين آمنوا به وجدالٍ منطقي من شعيب دفاعاً عنهم.

الفصل الرابع: مرحلة تهديد قوم شعيب له باستحقاقه الرَّجم لولا رهطُهُ فيهم.

الفصل الخامس: مرحلة تحدّي قوم شعيب له بأن يأتيهم بما يَتَوَعَّدُهُمْ به من عذاب الله.

الفصل السادس: مرحلة توجيه كبراء كفار قوم شعيب إنذارَهم الأخير للذين آمنوا به واتّبعوه.

الفصل السابع: مرحلة إنزال العذاب الشامل المهلك الّذي اسْتأصَل الله به كُفَّار قوم شعيب عليه السلام.

الفصل الثامن: التعقيبُ الرَّبَّاني على إهلاك قوم شعيب عليه السلام.

الفصل التاسع: ماذا فعل شعيبٌ عليه السلام بعد أن أهلك الله قومه ونَجَّاهُ والَّذِينَ آمنوا معه.

الفصل العاشر: العظة بنَبأ إهلاك قوم شعيب عليه السلام.

❁ ❁ ❁

الفصل الأول
مجريات دعوة شعيب عليه السلام لقومه

أولاً:

أوّل دعوة شعيب عليه السلام لقومه كانت مقتصرة على ثلاث قَضَايا، دلّ عليها قول الله عزّ وجلّ في سورة (العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول):

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

دلَّ على هٰذه الأوّلية وُجودُ الفاء في: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ الدالّة على الترتيب مع التعقيب، عَقِبَ بيان إرْسَالِهِ إلى مَدْينَ مُبَاشَرَةً.

● ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: أي: ولَقَدْ أرْسَلْنَا إلَى الْقَوْمِ المعروفين بِاسْم «مَدْين» إذْ أُطْلِقَ عليهم اسْمُ جَدِّهم. أرْسَلْنَا النَّبِيَّ الرَّسُولَ أخَاهُمْ نَسباً ولُغَةً وَمَوْطِناً «شُعَيباً». ووصفه الله عزّ وجلّ بأنَّهُ أخُوهُمْ مُرَاعَاةً لأخُوَّتِه لهم فِي النسب واللُّغَةِ والموطن.

● ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: أي: فقال لَهُمْ عَقِبَ إرْسَالِهِ إلَيْهِمْ مُبَاشَرَةً: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾: بحَذْفِ يَاء المتكلِّم من كلمة «قَوْمِ» وإبقاء الكَسْرَةِ دَليلاً علَيْها.

لَقَدْ بَدَأَهُمْ بالأَمْرِ بعبادةِ اللَّهِ، لأنَّ هذه العبادة هِيَ الواجب الأوّل بَعْدَ الإيمان به، وإعلان الإسلام له، وإعْلانِ الحْرصِ على طاعَتِه.

وأوّل العبادة لله تكونُ بطاعَتِه في فِعْلِ مَا أَمَرَ بفعله، وتَرْكِ ما نَهَىٰ عَنْه، وتكون بِدُعائه لتحقيق المطالب، ثُمَّ بالتقرُّب إليه بمحَابّه فعلاً أوْ تركاً.

● ﴿وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾: أي: وآمِنُوا باليوم الآخِرِ الموضوع في

خُطَّة التكوين للحساب، وفَصْلِ القضاء، وتَحْقِيق الجزاء، وتَوَقَّعُوا قُدُوم هَٰذا الْيَوْم دواماً، وحُصُولَ مَا جعَلَ اللَّهُ فيه بقَدَرِه وقضائه من ثوابٍ للمؤمنين الَّذِين يَعْمَلُونَ الصَّالحات، وعِقَابٍ للكافِرينَ وللعصاة الّذِين يَعْمَلُون السّيئات.

الرَّجاء: يأتي في اللُّغة بمعنَىٰ تَوَقُّعِ المرغُوب فيه، وتَوَقُّعِ المخوف مِنه.

فعبارة: ﴿وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾ تَنْحَلُّ إلى جملَتَيْن:

الأولى: وتَوقَّعُوا مَجِيء الْيَوْم الآخِرِ طامِعِين بثواب الله فيه.

الثانية: وتوقَّعُوا مجيءَ اليوم الآخر خائفين من عقاب الله فيه.

ويُؤَكّد أنَّ هٰذِهِ المقولة الّتي وجَّهَها شعيبٌ عليه السّلام لقومه هي المقولة الثانية، أنَّ النُّصُوص القرآنية قَدْ كَثُرَ فيها اقْتران الإيمان بالله بالإيمان بالْيَوْم الآخر، باعتبار أنَّ اليوم الآخِر هو اليوم الْمُعَدُّ في خُطّة التكوين للجزاء الذي هو أثَرُ صِفتَي الْعَدْلِ والْفَضْل من صفات الله عزّ وجلّ، بَعْد رحلة الابتلاءِ في يَوْم الحياة الدُّنيا.

إنَّ رُكْنَ الإيمان بالْيَوْم الآخر هو الرُّكْنُ الأَعْظَمُ، بَعْد رُكْنِ الإيمان باللَّهِ الرَّبّ عزَّ وجلّ، وبحكْمتِهِ في خَلْق الإنسان، فَهُوَ المقولَةُ الثانية بحسب الترتيب المنْطِقيّ، بَعْدَ مَقُولَةِ الإيمان بالله وفُروع هذا الإيمان.

● ﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ﴾: **الْعُثُوّ**: أشَدُّ الفساد، يُقَالُ لُغَةً: عَثِي يَعْثَىٰ عُثوّاً، أي: أفْسَدَ إفْساداً شَدِيداً جدًا.

لقَدْ كان قَوْمُ شعيب عليه السلام من الَّذِين يُفْسِدُون في الأرض أَشَدَّ الفساد بأعْمَالِهم الإجراميّة الظالمَةِ الجائرَة، ولهذا رأى شعيب عليه السلام

من الحكمة أن يجعل مقولَتَه الثالثة لقومه، نَهْيَهُمْ عن العُثُوّ في الأرض مُفْسِدين، من مقولاته الدَّعويَّة لهم.

﴿مُفْسِدِينَ﴾: حالٌ مُؤَكِّدَةٌ لِعَامِلِها.

الفساد في اللّغة: التَّلَفُ والْعَطَبُ، وتحوُّلُ الشيء من كونه صالحاً نافعاً إلى كونه غير صَالح وَلاَ نافع، بل رُبما يصير ضارّاً كَريهاً مُفسِداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: الإتلافُ وتَحْويلُ الشيء عن صلاحه، وقد يَصِلُ إلى جَعْلِ الشيء ضارًّا كَرِيهاً مُفْسِداً للأشيَاء الصالحة.

ويشمل النهيُ عن الإفساد في الأرض بعمومه، النَّهْيَ عن كلّ الممارسَات الظَّالِمات الجائرات، ذوات العدوان على عباد الله، الَّتي كان قوم شُعَيْب يمارسونها بانتشار عامٍّ فيهم، ومنْها أَنَّهم كانُوا من المطفِّفِينَ، إذا كالُوا للنّاس أو وزنُوا لهم يُخْسِرُون، فينقُصُون المكيال والميزَان، ويَنْقصون في الكَيْلِ والوزن، وكانوا يَبْخَسُونَ النَّاسَ أشياءَهم، أيْ: يَنْقُصُونَ قيمَتَها، فلا يُعْطُونهم حقوقهم بالعدْل.

لَقَدْ جعل شعيب عليه السَّلام هٰذه المقولة هي المقولة الثالِثَة من مقولاته لهم، وصار يُكَرِّرُها في بياناته وخُطَبِه لهم، بعباراتٍ مُتَمَاثِلاَتٍ، وبعباراتٍ مختلفات، رجاء أن يُقْلِعُوا عنها، إذ هي من كُبْرَيات الْقَبائِح والمنكرات والرّذائل الاجتماعيَّة الّتي كانوا يمارسونها ممارساتٍ عَادِيَّة، دون أن يَشْعُروا بحَرَجٍ أَوْ وَخزِ ضمير.

❁ ❁ ❁

ثانياً:

ثمّ إنّ شعيباً عليه السَّلام زاد في مقولاته الدَّعَويَّة لقَوْمِهِ، مع تكرير نَهْيِهم عن القبائح والمنكراتِ والرَّذائل الاجتماعية المنتشرة فيهم، محتفظاً

بأسلوب البيان الإقناعيّ القائم على الرّفق واللّين في الخطاب، فقال لقومه ما جاء بيانه في سورة (الشعراء/٢٦ مصحف/٤٧ نزول) بقول الله عزّ وجلّ:

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾:

• قرأ نافع، وابنُ كثير، وابنُ عَامِرٍ وأَبُو جَعْفَر: **[أَصْحَابُ لَيكَةَ]**.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[أَصْحَابُ الأَيْكَةِ]**. **لَيكَة**: تخفيف للأيكة.

• قرأ حفصٌ، وحَمْزَةُ، والكسَائي، وخَلَف: **[بِالْقِسْطَاس]** بِكَسْرِ القاف.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: **[بالْقُسْطَاس]** بضم القاف.

وهما وجهان عربيّان لنطق الكلمة.

﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾﴾:

﴿أَصْحَابُ لْئَيْكَةِ﴾: هُمْ أصحابُ أرض مَدْين. **الأيكَة**: غيضَةُ كثيفة الأشجار، كانت لهم، ومن صفاتها أنها كانت مُلْتَفَّةً تُنْبتُ ناعِمَ الشجر، ولتميُّزِها كان يُقَال لهم: أصحابُ الأَيْكَة.

ويَدُلُّ لفظ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ على أَنَّهُمْ قد جاءهم قبل شعيب عليه السلام رسولٌ أو أكثر، فلَمْ يستَجِيبُوا لهم، فأرسلَ الله لهم شُعَيْباً عليه السَّلام، خَطِيباً فَصِيحاً يُعَالِجُ الموضُوع الواحد بأساليب مختلفة إقناعاً وجدالاً وَتَرْغيباً وَتَرْهِيباً.

وجيء بهذه الجملة توطِئَةً للحديث عن قوم شعيب، وربطاً بما جاء قبل هذا النصّ في سورة (الشعراء).

● ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾؟؟.

أي: ضَعْ في ذَاكِرَتِكَ أَيُّهَا المتلَقِّي لِتَتَذَكَّرَ آناً ثُمَّ آناً قصَّةَ شُعَيْبٍ وقَوْمِهِ للاتّعاظ بهذا التذكّر، إذْ قال شُعَيْبٌ لهم: أَلاَ تَتَّقونَ عِقَابَ اللَّهِ وعَذَابَهُ على شِرْكيّاتكُمْ وَعلى ظُلْمِكُمْ لِعبَادِ اللَّهِ، ورَذَائِلكُم الاجتماعيَّةِ الشنيعة.

﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟؟ استفهامٌ يُرَادُ به هُنَا الْعَرْضُ برفْقٍ، ليْسَ فيه أمْرٌ وَلاَ نَهْيٌ ولا تَلْويم.

وقد دَعَاني أن أفهم هذا الْفَهم أنَّ هَٰذَا القول من أقوال شُعَيْبٍ لقَوْمه، قد كان في بداياتِ دعْوَتِه لهم، ولَيْسَ من الحكمة في أوائل الدّعْوَةِ الإنكارُ أو التّلْويم أو التوبيخ، حتَّىٰ أَعْتَبِرَ الاستفهام في عبارة ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾؟ استفهاماً تَوْبيخيًا أو تَلْويميًا، أَوْ إنْكارِيًا.

● ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

هذه الجملة موجز كَلاَمٍ وَجَّهَهُ شعيبٌ عليه السَّلام لقومه، أَبَانَ لهم فيه أنّ الله عزّ وجلّ اصطفاهُ بالنُّبُوّة، فأوحَىٰ إلَيْهِ كما أوحىٰ إلى النَّبِيِّينَ من قبله، واختاره الله أن يكُونَ رسولاً لقَوْمِه الّذين هو منهم نسباً ولساناً وموطناً.

وقد اشتملت هذه الجملة على التأكيد بمؤكِّدَيْن: «إنّ ـ والجملة الاسمية» مراعاة لمقتضى حال قومه الّذين ظهرت عليهم أمارات عدم التصديق.

وجاء فيها تقديم المعمول ﴿لَكُمْ﴾ علَىٰ عامله ﴿رَسُولٌ﴾ لإفادة التخصيص فهو رسُولٌ لهم خاصّة، على معنى أنّ مهمّة رسالته ووظيفته أنْ يبلّغ قومه خاصّة.

أمّا مضمُون رِسالته فهو مِثْلُ المضمون الذي جاء به سائر رُسُلِ الله لأقوامهم، وعلى كلّ من بَلَغَتْهُ دعْوَتُه أنْ يُؤمِنَ به.

كلمة «رسُول» مصطلَحٌ دينيٌّ يُطْلَقُ على كُلّ نبيٍّ بعَثَه اللَّهُ رسولاً لِقَوْمِه خَاصَّةً، أو للناس جميعاً.

وبَدَهِيٌّ أن لا يختار الله عزّ وجلّ للنُّبُوّة والرّسالة إلاَّ مَنْ كان أهلاً لَهُما، وأهلاً للقيام بوظائف رسالته، وتأدية ما يجب عليه فيها، وأَمِيناً في تبليغ كُلِّ كَلِمَةٍ، وَكلّ حَرْفٍ، وكُلّ فِكْرَة، وكُلّ معنًى ممّا أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بتبليغه، ولهذا وصَفَ شعيبٌ نَفْسَهُ لقَوْمه بأَنَّهُ أَمِين، أي: فَهُو لا يَزِيدُ على ما أَمَرَهُ اللَّهُ بتبليغه عن رَبّه، ولا يَنْقُصُ مِنْهُ شيئاً.

● ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾﴾:

رَتَّبَ شعيبٌ عليه السّلام على أنّه رَسُولٌ أمين مبعوث لقومِهِ خاصة، كلاماً جاء إيجازُه بهٰذه العبارة.

أي: فاتَّقُوا عذَابَ اللَّهِ الّذي جَعَلَه جزاءَ من كفَر بالله وبرسالَته وبرسوله، واتَّقُوا عذابه الذي جعَلَهُ جزاءً لمن عصَىٰ أوامِرَهُ ونواهِيَه.

ولمَّا كان اتّقاءُ عذاب الله إنّما يَتِمُّ بمَعْرِفَةِ مطْلُوب اللَّهِ عزّ وجلّ من عباده، وهذا المطلوب إنّما يُعْرَفُ عن طريقِ رُسُله، كانت طاعَةُ الرَّسُولِ جُزْءاً من عُموم طاعة الله، يضافُ إلى هذا أنَّ الله عزّ وجلّ قد أَمَرَ بطاعة رُسُلِه، بنُصوصٍ صريحة، ولهذا طالب شعيبٌ قومَهُ بأن يُطِيعُون.

● ﴿وَمَا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾:

هذه العبارة أو نظيرُها جاءتْ في بيانات كلّ الرّسُل الذين عرض اللَّهُ عزّ وجلّ لقطات من قصصهم مع أقوامهم.

أي: ليست لي مصلحةٌ شخصيَّةٌ لديْكُم من دعوتي لكم، ومن صَبْرِي

على القيام بوظائف رسالَتِي فيكم، وتحمُّلِي أعباءها ومشقّاتها، لكنّي أطلُبُ أجري من ربِّي الّذي أرسَلَنِي إليكم، وكلّفَنِي القيامَ بمهمّات رِسالَتي وَوَظائفها، وتحمُّلِ مشقّاتِ آدائها لكم.

• ﴿۞ أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾﴾:

﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ﴾: أي: اجْعَلُوا الكَيْلَ تامًّا كامِلاً وافياً غَيْرَ منقُوص.

الكَيْل: مصْدَرُ «كَالَ» يقال لغة: كالَ الحبَّ أو نحوه من جامدٍ أو سائل كَيْلاً وَمَكالاً، أي: قَدَّر كميَّتَهُ بالمكيال، وهو كلُّ وِعاءٍ تعارَفَ الناسُ على مقدار ما يسْتَوعب، فتُكَالُ به الأشياء لمعرفة مقدار حَجْمها.

وقد كان أهل مدين يَتَلاعبون بالكَيْل وبالمكاييل، فينقصون الناس حقّهم إذا كالوا لهم، أمّا إذا كالُوا لأنفسهم من الناس، فإنّهم يوفون أو يَزِيدُونَ على الوفاء بالاحتيال، فيأكُلُونَ أموال النّاس بالباطل.

﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ﴾: أي: ولا تكونوا من الذين يَنْقُصُونَ النّاس حقوقهم.

يُقَال: أَخْسَرَ فلانٌ، الشيءَ، أي: نَقَصَه.

أَمَرَهُمْ شعيبٌ عليه السلام بالوفاء، ونهاهم عن ضِدِّه الذي هو الإخسار، وهو النَّقْص، مع العلم به من الأمر بالوفاء، لأنّ الأمْرَ بالشيء نهيٌ عن ضدّه بداهةً، إلاّ أنّ النصّ تضمّن الدّلالة على أن شعيباً عليه السلام قد كان خطيباً بارعاً، ومن براعته في خطابته أنَّهُ كان يأمُرُ بالشيء، وينْهَىٰ عن ضِدِّه، لإيضاح مقُولاَتِه إيضاحاً لا يحتمل التأويل.

• ﴿وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾: أي: وزنوا بأضبط الموازين، وأقْوَمِها، وأعْدَلِها.

القِسْطاس: بضم القاف وكَسْرِها، أَضْبَطُ الموازين وأقْوَمُها وأعْدَلُها.

المستقيم: المعتدل المستوي، الذي تُوزَنُ به الأشياء فلا يزيد على مقاديرها الحقيقيَّة، ولا ينقُص منها.

والمراد بإضافة هذا الوصف التنبِيهُ على وجوب عدم التلاعب بما يُسَمَّى في أعرافهم قسطاساً.

وقد كان أهل مدين يتلاعبُونَ بالوزن وبالموازين، ليأكلوا بتلاعُبِهم أموال الناس بالباطل، فأمَرَهم رسُولُهم شعيبٌ عليه السلام بأنْ يَزِنُوا بالقسطاس المستقيم، وفي هذا نهيٌ لهم عن التحايل بالْوَزْن وبالموازين، ليأكُلُوا أموال الناس بالباطل.

- ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾: أي: وَلاَ تَنقُصوا النَّاسَ أشْيَاءهم، سواءٌ أكان ذَلِكَ عن طريق الكَيْل أم المكيال، أم عن طَرِيق الوزن أم الميزان، أم عن طريق آخر، ففي هٰذِهِ العبارة تعميمٌ بَعْدَ تخصيص.

هذه العبارة مع الأمر بالوفاء في الكيل والوزن، وعَدَم الإخْسَارِ فيهما، من المكَرَّراتِ في النُّصوص، للدّلالة على أنْ شُعَيْباً عليه السلام كان يُكَرِّرُها في دَعْوَتِه ونصائحه ووصاياه لقومه، إذْ لَمْ يكُنْ يَجِدُ لديهم استجابَةً لما يَدْعُوهم إليه.

الْبَخْسُ: النقص، وفعل «بخَسَ» مثل فعل «نقص» يتعدىٰ إلىٰ مفعولين. يقال لُغة: بَخسَ فُلاَنَ فُلاَنا حَقّه، أي: نَقَصَهُ حَقَّه.

والنقص عن الحقِّ مع العلْمِ لاَ يكونُ إلاَّ بِظُلْم، وقَدْ تُسْتَخْدَمُ فيه وسائل الاحتيالِ والكَذِبِ والمخادعة.

إنّ أقوال شعيب عليه السلام لقومه، الّتي تدلُّ عليها عبارات:

﴿أَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾.. تُفِيدُ أنَّ شعيباً عليه السلام كان يَلْجأُ في

خطاباته ومواعظه لقومه إلى أسْلُوب الإطناب، لأنّ أحوالهم كانت تقتضي ذَلِك، ولأنَّهم كانوا يَفْعَلُونَ بالتفصيل كلّ هٰذِهِ الرَّذَائِلِ والعدوانَاتِ على عباد الله من قومهم ومن غير قومهم.

إنَّ بعض هذه العبارات كانت تكْفِي، للدّلاَلَة على أنَّه يَحْرُمُ عليهم دِيناً وبمقتضَىٰ العقول السليمة العدوانُ على الناس في حقوقهم، لكنَّ أحوالهم النفسيَّة والسُّلُوكِيَّةَ والفِكْرِيَّة، كانت تقتضي الإطنابَ بتفصيل.

وقد كان من فصاحَتِه عليه السّلام، أنَّه يُنَوِّعُ في الكَلِماتِ وفي الأساليب، ويأتي للدَّلالة على المعنى الواحد من وُجُوهٍ مختلفة، فمرَّةً من جهة الإيجاب ومرَّةً من جِهَةِ السَّلْب، ومرَّةً بِتَغْيين القضيَّة، وأُخْرَىٰ بإِدْخالها ضِمْنَ قضيَّةٍ عامّة.

وهكذا تكُونُ براعَةُ الْخُطَباء.

والله عزَّ وجل يَعْرِضُ عَلَيْنَا بحكْمَتِه نماذِجَ من طَرائِقِ شُعَيْبٍ عليه السَّلام في دَعْوَته لقومه، ونُصْحِهِ لهم، ليُعَلِّمَ الدُّعَاةَ إلى دين الله، وخطباءَ الدَّعْوَةِ والأَمْرِ بالمعْرُوفِ والنَّهْي عن المنكر، كَيْفَ يَكُونُ تَصريفُ الكَلامِ وَتَنْويعُهُ حَوْل قضيَّةٍ واحِدَةٍ يَهْتَمُّونَ بمُعَالَجَتِها، إذْ لَيْس من المستَحْسَن في نفوس الناس تكْرِيرُ الْجُمَلِ والأَلْفاظ تكريراً متطابقاً، ما لم تكُنْ من الكليّات العامّة، الّتي يرادُ تَثْبيتها وتَرْسِيخُها، وتَفريعُ الفروع الكثيرة عليها، مثل عبارات التوحيد، والأمر بعبادة الله، ومثل كليّة: ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ الّتي جاءت مُكَرَّرَةً في مقولات شعيب لقومه بصِيغتها دون تَنوِيعٍ، في مُخْتَلِفِ المواقف الداعية إلى التنبيه على مضْمُونها، أو التَّذكير به.

ومن المعلوم أنّ التحايلَ والتلاعُبَ في الكَيْلِ والمكاييل، وفي الْوَزْنِ والموازين، هو من أكل أموال الناس بالباطل، وهذا يَدْخُلُ في عُمُومِ «بَخْسِ

النَّاسِ أشْيَاءَهُمْ» وكُلُّ ذَلِكَ من الظُّلْم الّذِي حَرَّمَهُ الله على نَفْسِه، وَجَعَلَهُ بين عِبَادِه مُحَرَّماً.

• ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣)﴾:

سبَقَ تَدَبُّر نظير هٰذِهِ العبارة في النّصّ الذي من سورة (العنكبوت) وأضيف هنا بيان أنّ الإفساد يَشْمَلُ إفسادَ أَخْلاَقِ الناس، وإِفْسَادَ سُلُوكهم، وإفْسَادَ أفكارِهم ومَفْهُومَاتِهم، ويشملُ إفْسَادَ الأشياء والأحياء، ومنه إفساد العمران الحضاريّ، وإفساد المدُن والْقُرَى، وإفساد النَّباتِ والجوّ، والإفسادُ في الجيناتِ الوراثية.

ونُلاحظ في زَمَانِنَا الّذِي نَعِيشُ فيه، أنَّهُ قَدْ ظهَرَ الْفَسَادُ في البرّ والْبَحْرِ والجوّ بما كَسَبَتْ أيدي الناس ظهوراً شنيعاً فَاحِشاً.

ومن مظاهر هذا الفساد في الأرض انْتِشارُ الفواحِشِ والمنكرات في المجتمع البشريّ، وانتشارُ الأوجاع والأمْرَاض والأسْقام، الّتي هي نتائجُ معاصِي الناس لِرَبِّهم، كمَرَض «الإيدْز».

ومن مظاهر إفساد الناس في الأرض نقص طبقة الأوزون في الجو، من جرّاء سوء استخدام الناس للموادّ الكيمائيّة، والغازات القواتل للأحياء.

فالإفساد في الأرض من أخْطَر أنواعِ السُّلوك الإنسانيّ، ومِنْ أجْلِ ذلك نهىٰ اللَّهُ عزّ وجلّ عنه في كلّ الرسالات التي كَلَّفَ رُسُلَه أن يُبَلِّغُوها للناس، فَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ المفسدين، بلْ يَنْتَقِمُ منْهُمْ ويُهلِكُهم.

• ﴿وَاتَّقُوا الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ (١٨٤)﴾:

الْجِبِلَّة: الأُمَّةُ مِنَ الْخَلق، والجماعَةُ من الناس.

أي: واتَّقُوا عِقَابَ وَعذَابَ رَبِّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ، وخَلَقَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ، بالإيمان به، وبالإسْلاَم له، وبطاعَتِه في أوامِرِه ونواهِيه.

فَمَنْ كان لدَيْه عقْلٌ وبَصِيرة، وعَلِمَ بأحوال الأُمَم السّالِفَة، وما أنْزَلَ اللّهُ بالكافرين من عذابٍ وهلاكٍ شاملٍ، اقتنَعَ واتَّعَظَ، فلَمْ يُعَرِّضْ نفسه لسَخَطِ اللّهِ عليه بمعصيتِه من الكبائر، حتَّى لاَ يكُونَ عُرْضَةً لعِقَابه العادلِ الذي لا مَحِيصَ عنهُ إلاَّ بالاسْتِغْفار والتوبة الصَّحيحة الصادقة، فاللّهُ جلَّ جلالُهُ غفُورٌ رَحِيمٌ بِعِباده.

❁ ❁ ❁

ثالثاً:

ثُمَّ وَسَّعَ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ مَقُولاته في دَعْوَتِه لِقَوْمه، مع محافظته على أُسْلُوبِ الرِّفْقِ واللِّين في القول.

فقال لقومه مَا جاء بيانُه بقول اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ وَلَا تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَۖ إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾.

● قرأ الكِسَائي وأبو جعفر: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بِكَسْرِ الراء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] بضَمّ الراء.

الكَسْرُ رُوعي فيه لفظ «إله» المجرور بحرْف الجرّ الزائد. والضمّ روعي فيه محلُّ لفظ «إلَه» وهو الرفع.

● قرأ نافع، والْبَزّي، وأبو عَرو، وأبو جعفر: [إِنِّيَ أَرَاكُمْ] بفتح ياء المتكلّم، وقرأ باقي القرّاء العشرة: [إِنِّي أَرَاكُمْ] بإسْكانِ ياء المتكلم.

القراءتان وجهان عرَبيان لنطق يَاء المتكلّم.

• قرأ نافع، وابنَ كثير، وأبو عمرو، وأبو جعفر: [وَإِنِّيَ أَخَاف] بفتح ياء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَإِنِّي آخاف] بإسْكان ياء المتكلم.

❁ ❁ ❁

• ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: هٰذه الجملة بدايَةٌ للرَّبط بما قبلها في السورة، وهي تَوطئة لازمة للحديث عن شعيب وقومه، فتكْريرها في بعض النّصوصِ تَسْتَدْعيه الحاجة في النصّ للرَّبْط والتوطئة. وقدْ سبَقَ تَدَبُّر نظيرها.

• ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾:

هذه العبارة وَجَّهَها كُلُّ رُسُلِ اللّهِ لأقوامهم، لأنَّها الفرع الأول من فروع القاعدة الإيمانية، الَّتي هي جذْرُ شَجَرَةِ الدّين.

وقد سبَق تَدبُّر عبارة: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في النصّ الذي من سورة (العنبكوت).

لكِنْ جَاء في هٰذِهِ العبارة إضافَةُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ على ما جاء في النصّ الذي من سورة (العنبكوت).

لَقَدْ كرّر شعيبٌ عليه السلام لقومه الأمْرَ بعبادة الله، لأنّهم اسْتَمَرُّوا مُصرين على الاستغراق في أمور دنياهم، مُبْتَعِدين عن عبادةِ ربّهم وعن طاعته، واستَمَرُّوا على التخبُّطِ في أوحالِ كبائر الإثم والجرائم الّتي تُدْرِكُ العقولُ بالْبَديهة قباحَتَها وشناعتها. وأنَّها من الظُّلم الفاحِشِ لعباد الله.

ودلَّتْ عبارة: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ عَلَىٰ أنّهم كانوا مُشْرِكين لهم عباداتٌ شِرْكِيَّةٌ لغَيْرِ الله عزَّ وجلَّ، فأبان لهم عليه السلام أنّه ليس لهم في الوجود كُلّه من معبود يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ إلاّ اللّهُ وحْدَه لا شريك له، أي: لأنّه لا ربّ في الوجود كُلّه غير الله جلَّ جلالُهُ وعَظُم سُلْطانه، فلا

إلَـه يُعْبَدُ بحقٍّ سواه، وكلُّ إلَـهٍ يُتَّخَذُ من دون الله فهو باطلٌ لاَ حَقِيقَةَ لإلَـهيّته، وما الآلِهَةُ الّتي يَعْبُدُها المشركون إلاَّ أسماءٌ سَمَّوْها من عِنْدِ أنفُسِهم، وليْسَ لها من الإلَـهِيَّةِ شيْءٌ مُطْلقاً، إذا كان لها وجود في الواقع، كالملائكة والجنّ وأزواح الموتَىٰ من الصالحين وغير ذلك من أشياء أو أحياء، وإلاَّ فَهِيَ أَوْهَامٌ وتخيُّلاَتٌ باطلات.

وهذه العبارة تَدُلُّ عَنْ طريق اللُّزُوم الذهْنِيّ عَلَىٰ مَطْوِيٍّ في اللَّفْظِ مُلاحَظٍ في الذِّهْنِ بعْدَ عبارة: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: اعبُدوا اللَّهَ ووَحِّدُوهُ في العبادة، ولاَ تُشْرِكُوا به شيئاً، لأنّه: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾.

● ﴿وَلَا تَنقُصُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾:

﴿ٱلۡمِكۡيَالَ﴾: ويجمع على «مكاييل» وعاء خاصٌّ يَتَعارفُ الناس على مقدار مع يستوعِبُ في فراغه، تكالُ به الأشياء التي توضَعُ فيه لمعرفَةِ مقادير حجُومها، جامدةً كانت أَمْ سائلة. وقد يُراد بالمكيال الكَيْلُ.

﴿وَٱلۡمِيزَانَۖ﴾: ويجمع على «مَوازِين» آلَةٌ تُوزَنُ بها الأَشْيَاء لمَرِفَةِ مقادير ثِقَلِها. وقد يُرادُ بالميزان الْوَزْن.

ويُطْلَقُ لفظ «الميزان» أيضاً على الواحد من السَّنج الّتي تُوضَعُ بإحْدَىٰ كفَّتَيْهِ، ليُوزَنَ على مقدارها في الكِفَّةِ الأُخرى.

وقد دلَّ نَهْيُ شعيب عليه السلام قومَهُ عن نَقْصِ المِكْيَالِ والميزانِ، على أنَّهُمْ كانُوا ينقصون في معايير مكاييلهم وموازينهم، فيَجْعَلُونَ مِكْيالاً نَاقصاً يكيلُونَ به للناس، وهو مُشَابِهٌ في الصُّورَةِ لِلْمِكْيَالِ الصّحيح، الّذي يَكيلون به لأَنْفُسِهِمْ من أموال الناس، وقد يكيلُون لأنفسهم بمكاييلَ زائدة على المكاييل الصحيحة المتعارف عليها. ويَجْعَلُونَ موازينَ تنقصُ من مقدار الحقّ الذي للناس، فَيَزِنُونَ لهم بها، وموازين أخرى وافية أو زائدة يَزِنون بها لأنفسهم، هي مشابهةٌ في الصورة للموازين الصحيحة.

ولمَّا كانت أعمالهم هذه من أكْلِ أَمْوالِ النّاسِ بالباطل، كان من عناصر نُصْحِهِ عليه السّلام في دَعْوَته لهم، أَنْ ينهاهم عن النقص في المكيال، وعَنِ النَّقْص في الميزان.

وسَبَق في النّصّ الذي من سورة (الشعراء) بيان أَنَّه قال لَهُمْ:

﴿۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾﴾.

ومُؤَدّىٰ العبارات واحد، إلاَّ أنَّه كان عَلَيْهِ السَّلاَمُ لبَرَاعَتِهِ البيانيَّة يُنَوِّعُ لهم في العبارات، ابتعاداً عَنِ التكرير المتطابق.

وعلى كلّ الأَحْوال فإنَّ البيان القرآنيّ لاَ تَكْرِيرَ فيه، لأنه يُعَبِّرُ عَنِ الواقع المتكَرِّرِ الذي كان في خُطَبِ شعيبٍ عليه السلام وأحاديثه ونصائحه لقومه.

• ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾: أي: إنّي أَرَاكُمْ بِسَعَةٍ وَنِعْمَةٍ وَوَفْرةٍ من الرّزق، فلا دافع لَكُمْ لتَأْكُلُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بالباطِلِ إلاَّ الطَّمَعُ في الثراء الواسِعِ من أموالِ الضُّعَفَاءِ، وأَهْلِ السَّذَاجَةِ الَّذِينَ لاَ يكْتَشِفُونَ حِيلَ المتحايلين، وتَلاَعُبَاتِ المتلاعبين.

وهؤلاء المتحايِلُون المطَفِّفُونَ يَسْتَهِينُونَ بِظُلْمِ عِباد اللَّهِ والْعُدْوانِ على حُقُوقِهم.

• ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾:

عذابُ هذا الْيَوْمِ المحيط، إمَّا أَنْ يكُونَ عَذَابَ يَوْمٍ مِنْ أَيَّام الدُّنيا، كالأَيَّام الّتي أَهْلَكَ اللَّهُ عزّ وجلّ فيها وعَذَّبَ مُجْرِمي الأُمَمِ السَّالِفَةِ، وإِمَّا أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِه عَذَابَ يَوْمِ الدِّينِ، بَعْدَ الْبَعْثِ للحساب وفَصْلِ القضاء وتحقيق الجزاء.

ولا مانع مِنْ حَمْلِ العبارة على هَذَيْنِ المعنَيَيْنِ معاً، واللَّهُ أعلم.

وقد جاء في هٰذِهِ العبارة وَصْفُ هذا اليوم بالإحاطَةِ، لإعْلاَمِهِمْ بأنَّه يَوْمٌ لاَ بُد أَنْ يُدْرِكَ كُلَّ واحِدٍ مِنْهُمْ بالعذاب، إذْ أَزْمَانَ ذَلِكَ الْيَوْمِ المحيط بهم مَمْلُوءَةٌ بأحداثِ تَعْذِيبهم، وبوسائل تَعْذِيبهم، وزَمَانُهُ جَارٍ علىٰ كُلِّ واحدٍ مِنْهُمْ لا مَحَالة.

بخلاف ما لو كانت الإحاطةُ وَصْفاً للعذاب، فقد يُتَوَهَّمُ معها أَنَّ العذَابَ الّذي يُحيطُ بالْقَوْم قَدْ لاَ يُصِيبُ بعض أفرادِهم المتخلّلِينَ في الوسَط.

فَوَصْفُ يَوْمِ العذاب بالإحاطة بهم أَبْلَغُ في الدَّلاَلة على أَنَّهُ لاَ يَنْجو مِنْهُمْ أحَدٌ.

• ﴿وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أي بالْعَدْل، وهو التَّسَاوِي بين حقِّ صاحب الحق، وبَيْنَ مَا يُؤَدَّىٰ إلَيْه. **الْعَدْلُ**: هو إعطاءُ كلّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

دلَّتْ هذه الفِقْرة على أنّ شُعَيباً عَلَيْهِ السَّلامُ، قَدْ كَانَ يُكَرِّرُ على قومه النهْيَ عَنْ رَذِيلَةِ النقص في المكاييل والموازين بعبارات مختلفات، وأضاف هذا النصّ عبارة: ﴿بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾: أي: أَوْفُوا الكَيْلَ والمكيالَ والْوَزْنَ والميزان وفاءً مُتَّصِفاً بالقِسْط.

وكرَّرَ عليه السَّلامُ على قومه عبارَتَيْ: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾ و﴿وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ لأنَّهُما من الكليَّات اللاَّتي يَحْسُنُ تَكْرِيرُها لترسِيخها، وبنَاء الفروع عليها.

فالعبارة الأولى قد جاءت في النصّ الذي من سورة (هود).

والعبارة الثانية قَدْ جاءت في النَّصّ الذي من سورة (العنبكوت) والنَّصّ الذي من سورة (هود).

وقد سَبَقَ تَدَبُّر هاتَيْنِ العبارَتَيْن.

● ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

[الْبَقِيَّةُ]: مَا يَبْقَىٰ مِنَ الشيء، وَبَقِيَّةُ اللَّهِ هِيَ مَا يُبْقِيهِ اللَّهُ لِعَبْدِه من خَيْرٍ عاجلٍ أو آجل، فالعاجِلُ من الرّزْق، مَا يَنْتَفِعُ به الإِنْسَانُ في الحياة الدُّنيا، والآجِلُ مِنْهُ لِيَوْمِ الدّين، ما ادَّخَرَهُ اللَّهُ وأَبْقَاهُ لعبادِه المؤمِنِين المتقين، يَنَالُونه في جنّاتِ النَّعِيم رِزقاً خَالِداً، غَيْرَ مَقْطُوعٍ ولا مَمْنُوع.

دلَّ هٰذا الموجَزُ القرآنيُّ على أنَّ شعيباً علي السَّلام قَدَّم بَياناً إقناعيًّا لقَوْمِه، بأنَّ ما يُبْقيه اللَّهُ لَهُم من رِبْحِ أَذِنَ لهم به في تجاراتهم، وبيعهم وشرائهم وسائر مجالات كَسْبِ الرّزق، وما يُبْقِيه لَهُم من ثوابٍ جزيلٍ على طاعَتِهِمْ لِرَبِّهم، واسْتِقَامَتِهِم على صراطِه المستقيم، خَيْرٌ لَهُمْ في الدنيا والآخِرَة.

أمَّا مَا يَأْكُلُونه مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بالباطِلِ بوسائل التطفيف في المكاييل والموازين، وبَخْسِ الناس أشياءَهُمْ، والْعُثُوّ في الأَرْضِ مُفْسِدِين، فسَيَمْحَقُهُ اللَّه، ويَمْحَقُ مَعَهُ بَعْضَ حَلاَلِ أَمْوَالهم، مع ما يُلاقُونَهُ من عذابٍ بِهِ في الحياة الدُّنيا، ثمّ من عَذَابٍ على معصيَةِ اللَّهِ فيه بالْعَدْلِ يَوْم الدِّين.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: إنْ كُنتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بِمَا أَدْعُوكُمْ إلى الإيمان به، وتَعْمَلُونَ بما يُوجبهُ عَلَيْكُمْ إيمانُكُمْ.

فإنْ لم تُؤْمِنُوا فإنَّ نُصْحِي لَنْ يَنفَعَكُمْ بشَيْءٍ، وسَتَسْتَمِرُّون على ظُلْمِكم وعُدْوانِكُمْ على عباد الله، وعلَىٰ قبائحكُمْ ومُنْكَرَاتِكُمْ.

● ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ۝٨٤﴾:

الحفيظ: القائم بعناية على حراسةِ وصيانَةِ ما هو مسؤولٌ عَن حفظه، والقائمُ بأداءِ حُقُوقه بأمانة، دون خيانةٍ ما، والمواظبُ على القيام برعايته،

وفِعْلِ ما يجب فِعْلُه، واجْتِنَاب ما يجب تَرْكُه، من كلِّ ما يقتضي حفظَهُ سالماً، لا يَتَعَرَّضُ لضُرٍّ أَوْ أذىً، ممّا يَمْلِكُ رَدَّهُ أو دَفْعَه أو تَحْويلِه.

كَحَارِسِ قَطِيعِ الأغْنَامِ أو الأبقار القائم بصيانتها، وعَمَلِ كُلِّ ما يقتضي سلامَتَها، ولو بإكراهها، وسَوْقِهَا بِشِدَّةٍ إلى مواطِنِ سلامَتِها وحفظها من كُلِّ مَكْرُوه.

فالحفيظ مُكْرِهٌ مُجْبرٌ سَائِقٌ أو قائدٌ، يَصُونُ ويَحْمِي وَيُؤَدِّي وظائف حفظ ما يرعَاه بكلِّ أمانة، وعلى مقدار ما يَسْتَطيع.

فقول شعيب عليه السّلام لِقَومه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ﴾ معناه: وَمَا أنا مُرْسَلٌ إليكم لأكُونَ مُسَيْطِراً عَلَيْكُمْ، أَحْفَظُكُمْ بسُلْطان الجبر والإكْراه، من عَذَابِ رَبِّكُمُ الْعَاجِل والآجل، إنّما أنا مُبَلِّغٌ فقط رِسالةَ رَبِّي إليكُمْ.

وهذا الذي أبانَهُ شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلام لقومه، قد أبانه اللَّهُ عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ في عِدَّةِ نُصُوص:

● فقال له في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكُواْۗ وَمَا جَعَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿١٠٧﴾﴾.

● وجاء في هذه السورة أيضاً أنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ قد قال لِقَوْمه: ومَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفيظ، فقال الله عزّ وجلّ فيها مُبَيّناً بعْضَ مقالاته لقومه:

﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَنۡ أَبۡصَرَ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ عَمِيَ فَعَلَيۡهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيۡكُم بِحَفِيظٖ ﴿١٠٤﴾﴾.

● وجاء في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ لرسُولِهِ مُحمَّد ﷺ بشأن إعراض قومه عَنْ دَعْوَته:

﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظًاۖ إِنۡ عَلَيۡكَ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُۗ... ﴿٤٨﴾﴾.

● وجاء في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول) قولُ اللّهُ عزّ وجلّ لرسوله محمّد ﷺ بشأن مَنْ يَتَوَلّىٰ مُدْبراً عَنْ دَعْوَتِهِ:

﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾﴾.

ومع أداء هذا المعنى الذي هو الأساس في عبارة شعيب لقومه: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ فإنّ هذه العبارة تَحْمِلُ دَلاَلَةً أُخْرَىٰ، وَهِيَ أَنَّ شُعَيْباً عليه السّلاَم أَلْمَحَ إلى قَوْمِهِ ضِمْناً، أَنَّه مَهْمَا كَانَ رَحِيماً بِهِمْ، حَرِيصاً على دَفْعِ الضُّرِّ عَنهم، لأَنَّهُمْ قَوْمُهُ وَفِيهم عَشِيرَتُه وَرَحِمُهُ، وهو واحدٌ منْهُم نَسَباً وَلُغَةً وَموْطِناً، ومَهْما كانت لهم في قَلْبِه مَكَانَةٌ، وَمَهْمَا كانَتْ لَهُ دَالَّةٌ علىٰ رَبّه، فَإِنَّهُ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يكُونَ حَفِيظاً عليهم، يَقِيهِمْ مِنْ عَذَاب الله، إذَا أراد الله عزّ وجلّ بحكْمَتِهِ وَعَدْلِهِ أَنْ يُعاقِبَهُمْ، ويُنْزِلَ بهم نِقمَتَهُ وَعَذَابه.

إنّما يَقيهم من عذاب الله إيمانُهُمْ وطَاعَتُهُمْ لربّهم، واتّباعُهُم ما أُنزِلَ إليهِم من رَبِّهِمْ.



رابعاً:

ثُمَّ إنَّ شُعيباً عليه السَّلاَمُ شَدَّدَ وَأَكَّدَ وَزَادَ في مَقُولاتِهِ لِقَوْمه، فقال لهم مَا جاء بيانُه في سورة (الأَعْرَاف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) بقول الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

● قرأ الكِسَائي وأبو جَعْفر: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرِهِ] بِكَسْرِ الرَّاء.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ] بِضَمّ الرّاء.

وقد سبق أكثر من مَرَّة توجيه هاتين القراءتين.

● قرأ قُنبُل، ورُوَيس، وقرأ بالإشمام خَلَفٌ عَنْ حَمْزَة [سِرَاطِ] بالسين. وقرأ باقي القراء العشرة: [صراطِ] بالصاد.

سِرَاط وصِرَاط، لغتان عَرَبيتان في نطق هذه الكلمة.

● ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾: هذه الجملة بدايَةٌ للرَّبط بما قبلها في السّورة، وتوطئة لازمة للحديث عن شعيبٍ وقومه، فتكْرِيرُهَا تَسْتَدْعِيه الحاجَةُ في النّصّ للرَّبْطِ والتوطئة.

وقد سبَقَ تَدَبُّر نظيرها.

● ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾:

هذه العبارة قد سبق نظيرها، وتكْرِيرُها ممَّا تَدْعُو حاجَةُ الدَّعْوَةِ الرَّشيدَةِ إِلَيْه، لأنَّها من أوّليات فروع عناصِرِ القاعِدَةِ الإيمانية، الّتي اسْتَمرَّ قَوْمُ شعيب على الكفر بها حتّىٰ إهلاكهم، فكان من الحكمة أن يُكَرِّرَها عليهم في دَعْوَته.

وقد سبَقَ تَدَبُّرها في بعض النصوص السابقة في هذا الملحق، فلا حاجَة إلى إعادة البيان التفصِيليّ حولها.

● ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾:

﴿بَيِّنَةٌ﴾: صفةٌ لموصوف محذوف لفظاً مُرَادٍ في المعنى. **والبيِّنَة** في اللّغة هي الواضحة الظاهرة، الّتي لا شَكّ فيها، ولاَ غموض، ولا غَبَش عليها، من «بَانَ الشّيءُ يَبِينُ بَيَاناً» أي: اتَّضَحَ، فهو «بَيِّنٌ» وهي «بَيِّنَةٌ».

وقَدْ أُطْلقَتِ البيِّنَةُ في القرآن على الرّسالة الرَّبَّانيَّة الواضِحَة، وعلى الرّسول، وعلى الصُّحُف المنَزَّلة من عند اللّهِ عزّ وجلّ، وعَلَىٰ الآيات والمعجزات الواضحات الجليّات الشاهدات على أنّ من أجراها الله عزّ وجلّ له صادقٌ في نُبُوَّتِه ورِسالَتِه وفيما يُبَلّغ عن ربّه.

والمرادُ بالبيّنَةِ هُنَا على ما يظهر، مَا أنزل الله عزّ وجلّ على شُعَيْبٍ عليه السّلام من آياتِ الصُّحُف أو الكتاب الّتي اشتملَتْ على رسالات الله الّتي كانَ يَتْلُوها على قَوْمه، مُبَلّغا إيَّاها عَنْ رَبّه كُلَّمَا أُنزِلَ علَيْه شيءٌ منها. وما آتاهُ اللّهُ من آياتِ مُعْجزَاتٍ تَدُلُّ علَىٰ أنَّهُ رَسُولٌ لهم من رَبّهم، مؤيَّدٌ مِنْهُ بما يُثْبتُ نُبُوَّتَهُ ورِسالَتَه.

● ﴿فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ﴾:

هاتان القضيَّتَانِ اللّتَانِ جاءَتَا في هٰذِهِ العبارة، هُمَا من مقولات شعيب عليه السلام المكرَّرَاتِ الّتي جاءت في البيانات السابقات المعبِّرَاتِ عن مَقُولاَتِه لقومه.

والدَّاعِي إلَىٰ تكريرها في البيان القرآني، الدَّلاَلَةُ على أنَّ شُعَيْباً عليه السَّلام قَدْ كَانَ يُكَرّرُها في بيانَاتِه لِقَوْمِه، في خُطَبه وأحاديثه ونصائِحِه وَجَدَليَّاتِه وتَحْذِيراته وإنذارته، لأنَّهم قد استَمَرُّوا على ممارساتهم في ظلْم الناس والعدوان عليهم، بإخْسَارِ الكيْلِ والميزان، وَبخس الناس أشْيَاءَهم.

وقد سبَقَ تَدَبُّر نظير هذا البيان، فلا حاجة للإعادة، إلاَّ أَنَّ وجود «الفاء» هنا في [فَأَوْفُو] قد دلَّ على أنَّ شعيباً عليه السَّلام قد رَتَّبَ هٰذا البيانَ تَرْتيباً عقليًّا مَنْطِقِياً على أَنَّهُمْ قَدْ جاءَتْهُمْ بيّنَةٌ من ربّهم ذاتُ بُرهانٍ دامِغٍ على أَنَّهُ نبيٌّ وَرَسُولٌ مَبْعُوثٌ لَهُمْ لهدايتهم مِنْ رَبّهم، وهٰذِهِ البيّنَةُ الدامغَةُ تقْطَعُ كُلَّ عُذْرٍ يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا به لَدَى رَبِهم، في موقف الحساب وفَصْلِ القضاء يوْمَ الدّين، أو يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ لهم عُذراً يمْنَعُ إنزَالَ العذابِ والْهَلاَكِ عليهم في الحياة الدنيا.

فهٰذِهِ الْفِكْرَةُ مِنَ الإضافات الّتي اشْتَملَ عليها هٰذا البيان، ولا يُوجَدُ نظيرٌ لَهَا في سائر النُّصوص.

• ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾:

لَقَدْ تَكرَّرَتْ في النُّصوص السَّابقة عبارة: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ باعتبار أنَّها من الكُلّيَّاتِ الكُبْرَى الّتي يَحْسُنُ تَكْرِيرُهَا لِتَرْسِيخِها، إذْ تتفَرَّعُ عَنْهَا فُرُوعٌ كثيرة.

أمَّا هٰذِهِ العبارة: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ فإنَّها لم تَرِدْ في سَائر النُّصوص الخاصَّة بشُعَيْب عليه السلام وقومه، إلاّ أنَّها تَدْخُلُ في عُمُومِ ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

ولعلّ الداعيَ إلى ذِكْرِها هُنَا في النصّ الذي مِنْ سُورَةِ (الأعراف) التَّنبِيهُ على أنَّ قَوْم شعيب قَدْ كان من مُنْكراتهم وَشناعاتهم علَىٰ وَجْهِ الخصوص الإفساد في الأرض بَعْدِ إصلاحها، كَحَرْقِ مَزارِعِ خُصُومهم، وإتْلاَفِ مَحَاصِيلِهم الزّراعِيَّة، ونحو ذلك، فاحتاج شُعيبٌ عليه السَّلام إلىٰ تخصيص هٰذا الإفْسَادِ بالذِّكْرِ في بياناته المتأخِرَة الّتي نَهَاهم فيها عن جرائم الْفَسَاد والإفساد.

الفساد في اللّغة: التّلَفُ والْعَطَبُ، وتَحوُّلُ الشَّيْء من كَوْنِهِ صالحاً نَافِعاً، إلَىٰ كَوْنِهِ غَيْرَ صالحِ وَلاَ نَافِعٍ، بَلْ رُبَّما يَصِيرُ ضارًّا كَرِيهاً مُفْسِداً للأشياء الصالحة.

والإفساد: الإتْلاَفُ، وتَحْويلُ الشَّيْءِ عَنْ صلاحه، وقَدْ يَصِلُ إلى جَعْلِ الشَّيْء ضارًّا كَرِيهاً مُفْسِداً لِلأَشْيَاءِ الصَّالِحة.

وقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ أنواعِ الْفَسَادِ والإفْسَاد.

• ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾:

المشارُ إليه باسْم الإشَارَة ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الأَوَامِرُ والنَّواهِي الَّتِي جَاءَتْ فِي سوَابق هٰذِهِ العبارة في النَّصّ.

﴿خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: أي: أعْظَمُ وَأَكْبَرُ في جَلْبِ الْخَيْرِ والسَّعَادَة لَكُمْ، وتحقيق مَا تُحِبُّونَ في عَاجلِ أَمْرِكُمْ وآجلِهِ، إنْ كُنْتُمْ سَتُؤْمِنُونَ بِي نَبِيًّا وَرَسُولاً، وتُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ من رَبّكم، فتَعْمَلُون به، وتطبّقُونه بالْعَمل بما يأمُرُكُمْ به، وَباجْتِنَابِ مَا يَنْهَاكُمْ عَنْه.

أَمَّا ما تتصَوَّرُونَ أَنَّكُمْ تَحْصُلونَ عَلَيْهِ مِنْ خَيْر، كَزِيَادَةِ أَرْبَاحٍ وَمَكَاسِبَ عَاجِلَة، واسْتِمْتَاعَاتٍ تَسْتَمْتِعُونَ بها، بمعصِيَةِ اللَّهِ، فَهِيَ قَلِيلَةٌ ضَئِيلَةٌ في عَاجِلِ حيَاتِكُمْ، وتجلُبُ لَكُمْ شرًّا عظيماً، وعذاباً أَلِيما في آخِرَتِكُمْ، ورُبّما في دُنياكُمْ أيضاً، إذَا اقتضَتْ حكْمَةُ الله ذلك.

● ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾:

مَا تَضمّنَتْهُ هٰذِهِ العبارة، هو من القضايا الّتي أَضَافَهَا شُعَيْبٌ عَلَيْهِ السّلام في بياناته الدَّعَوِيَّةِ اللاّحِقَات، ومواعظه ونصائحه لقومه، على ما كان قد اهْتَمَّ بتَوْجِيهِهِ لَهُمْ قَبْلَ ذلِكَ.

وفي هذا النهي من شعيْبٍ عليه السّلام لقَوْمه، دَلاَلَةٌ عَلَىٰ أَنَّه قَدْ كانَ مِنْ قَبَائِحِهم العدوانيَّةِ الظالِمَةِ الآثِمَة، أنَّهُم كانُوا يُرابطُون في الطُّرُقاتِ العامَّاتِ الواسعات، الّلاتي يجتازُها السَّابلَة، ويَمُرُّ منْها المسافِرُون، ويختارُونَها لِمَا فِيها مِنْ أمْنٍ بِحَسَبِ عادَةِ الشُّعُوبِ والأُمَم في بُلْدَانهم وَطُرُقَاتِ أراضيهم، فيقطَعُ أصْحَابُ مَدْيَنَ أو جُنُودُهُم وزبَانِيتُهم علَيْهِمُ الصراط، ويُكلِّفُونَهُمْ دَفْعَ إِتَاواتٍ ومُكُوسٍ ظالمة، لا تخضع للأنظمة المتعَارَفِ عَلَيْهَا بين الشعوب، حَتَّىٰ يأذَنُوا لَهُمْ بالاجتياز والمرور، وَإِلاَّ كانُوا عُرْضَةً لمَا يكْرَهُونَ في أَجْسَادِهم، أَوْ ممتَلَكاتِهِم، من ضُرٍّ أو أذىً، وسَلْبٍ ونَهْبٍ ومصادرات ونحو ذلك، ويَتَهَدَّدُونَهُمْ ويَتَوَعَّدُونهم ظلماً وعُدْواناً.

﴿وَلَا تَقْعُدُواْ﴾: المرادُ بالقُعُودِ الَّذِي نهاهم عنه رسُولُهُمْ شُعَيْبٌ عليه السّلام، المرابطَةُ والتَّرَبُّصُ لِقَطْعِ الصِّراط علَىٰ المارّين من المجتازين والْمُسَافِرِين، من غَيْرِ قَوْمِهِمْ، وَرُبَّما كَانوا من ضُعَفَاءِ قَوْمِهِمْ أَيْضاً.

الصّراط والسِّراط: الطريق الواضِحُ، الّذي يسْلُكُهُ في العادةِ من يُرِيدُ أَنْ يكون آمِناً.

﴿تُوعِدُونَ﴾: أي: تَتَهَدَّدُونَ وَتَتَوَعَّدُونَ باسْتِخْدامِ الْقُوَّةِ المسَلَّحَةِ، للإِكْرَاه وإِنْزَالِ المصائب القبيحة.

- ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾:

﴿وَتَصُدُّونَ﴾: أي: وتَمْنَعُونَ وتَصْرِفون.

﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾ سَبِيلُ اللَّهُ هو دين الله الّذي اصطفاه لعباده.

والمعنى: وتمنعون وتَصْرِفون عن دينِ اللَّهِ عزَّ وجلّ من آمن بهذا الدين الّذي بلّغتكُمْ أَيَاهُ عَنْ رَبّي.

أمّا مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بَعْدُ في هٰذه المرحلَةِ من مراحِلِ دعوة شعيب علَيْه السَّلام لِقَوْمه، فهو على طريقتهم ومِلَّتِهِم، وصارَ فيما يظهر ميؤوساً من إيمانه، باستثناء القلَّةِ الّذين لديهم الاستعداد لأن يُؤْمِنُوا مستقبلاً.

- ﴿وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾: أي: وتَبْغُونَ السَّبِيلَ الَّتِي تَسْلُكُونَها سَبيلاً عِوَجاً، على وَفْقِ أهوائكم وشهواتِكُمْ ورَغباتكم الّتي لاَ تتحقَّقُ إلاّ بالظُّلْمِ والْعِدْوان، والْفِسْقِ والْفُجُورِ والْعِصْيان، للرَّبِّ الملِكِ الدَّيَّان.

إنَّ سَالِكَ السَّبِيلِ الْعِوَج لاَ بُدَّ أنْ يَنْحَرِفَ إلى مَتَعَرِّجَاتِ السُّبُلِ الهابِطَةِ إلَىٰ حَضِيض الْفَسَادِ والظُّلْمِ الاجتماعيّ، وسَخَطِ الله وغَضَبِهِ وَنِقْمَتِه وعَذَابه.

الْعِوَج: بكَسْرِ الْعَيْن، عَدَمُ الاستقامةِ في الأشياء المعنويَّة، وقد يُطْلَقُ علىٰ عدم الاستواءِ في الأَرْض.

• ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾: نصَحَ شُعَيْب قومَهُ بهٰذِهِ العبارة، أَنْ يَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بتَكْثِيرِ أعدادهم في مُدَّةٍ وَجِيزَةٍ، حتَّىٰ صَارُوا ذوي قُوَّةٍ وَبَأْسٍ يتَسلَّطُونَ عَلَىٰ عبادِ اللَّهِ ظُلْماً وَعُدْواناً، وقَدْ كَانُوا قِلَّةً ضُعَفَاء بين المصْرِيِّين، والفلسطنيِّينَ، وعَرَبِ الحجاز. وأَبَانَ عليه السّلام لهم أَنَّ هٰذِهِ النِّعْمَةَ تَسْتَدْعِي منهُمْ أن يُؤَدُّوا واجِبَ الشكر عليها لرَبِّهم، بالإيمان به إيماناً صَحِيحاً صادقاً، وبِعِبَادَتِه وحْدَهُ لاَ شَرِيكَ له، وبِطَاعَتِهِ جلَّ جلالُهُ في أَوَامِرِه، وفي نواهيه.

• ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾:

أي: وانظُرُوا نَظَرَ تَفكّرٍ واتِّعَاظٍ، بأحْوالِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ الّتي طَغَتْ وبَغَتْ وأفسَدَتْ في الأَرْضِ، وكذَّبَتْ رَسُولَ رَبّها، كَيْفَ جعَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بِعَدْلِهِ عاقِبَتَها هَلاَكاً لأَحْيَائها، ودماراً لمساكِنِهَا ومُمْتَلَكاتِها، وفي هٰذا العقاب العاجل دلالَةٌ على ما ستَلْقَاهُ مِنْ عذَابٍ يوْمَ الدِّين.

ويَظْهَرُ أنّ شعيباً عليه السّلام قد أشارَ ضِمْناً في عبارته العامَّةِ هذه إلى ما حَصَل لِقَوْمِ لُوطٍ عليه السَّلام، على وجْهِ الْخُصُوص، لِقُرْبِ زَمَانِهم وأَرْضِهم مِنْ زَمَانِ مَدْيَنَ وأرْضِهِم.



الفصل الثاني
مرحلة الجدَليات بين قومِ شُعَيب عليه السّلام وبَينَه

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ۝٨٧ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ

عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ ﴿٨٩﴾ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾ ﴾.

● قرأ حفص، وحمزة، والكِسَائي، وخلَفٌ: [أَصَلاتُكَ] بالإفراد.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: [أَصَلَوَاتُكَ] بالجمع.

والمؤدّىٰ في القراءتَيْن واحد، فلفظ «صلاة» بالإفراد اسم جنْس، وهو مضافٌ لضَمِير المخاطب، فَهُوَ يَعُمُّ كُلَّ صَلَواته.

● وقرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [شِقَاقِيَ أَنْ] بفتح ياء المتكلّم.

وقرأ باقي القرّاء العشرة [شِاقِيٓ أَنْ] بإسْكانِ يَاءِ المتكلّم مع المدّ في الوصل.

والقراءتان وجْهَان لنُطْقِ يَاءِ المتكلّم.

دلَّ هذا النصّ من سورة (هود) على أَنَّ قَوْمَ شُعَيْبٍ عليه السَّلام لَجَؤُوا أَوَّلَ الأمْرِ، إلى اسْتخدام مجادَلتِه حَوْلَ مَا يَدْعُوهم إليه من تَوحِيد اللَّهِ فِي عبادتِه، وتَرْكِ مَا هُمْ علَيْهِ مِنْ شِرْكِيَّاتٍ مَوْرُوثَةٍ، وحَوْلَ ما كان يأْمُرُهم به مِنْ إِيفَاءِ الكَيْلِ والْوَزْنِ، والوزنِ بالقِسْطاسِ المستقيم، وعَدَمِ ظُلْم النّاس بالنقص في الكيل والمكيال، والْوَزْنِ والميزان، ليأكُلوا من أموال النّاس بالباطل، ومَا كان ينهاهم عنه من بَخْسِ الناس أشياءهم.

وقد كان شعيبٌ عليه السَّلام يُصَلِّي لِلَّهِ على وفْقِ الصَّلاَة الموروثَةِ عَنْ إبراهيم عليه السَّلام في قَوْمه، والّتِي أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بأَنْ يُحَافِظَ عليها، وكان قَوْمُهُ يَرَوْنَ مِنْهُ هٰذِهِ المحافَظَةَ على الصَّلاَةِ الَّتِي بَقِيَتْ لدَىٰ بعْضِهم

مظاهِرُها، مع شِرْكِيّاتٍ أَحْدَثُوها في عِبَادَاتهم، كَمَا كَانَ حَالُ أَهْلِ الجاهِلِيَّةِ الْعَرَبِيّة، قَبْلَ بِعْثة محمد ﷺ رسولاً.

وكانَ شُعَيْبٌ علَيْهِ السَّلاَمُ مَعْرُوفاً في قَوْمِهِ، قَبْلَ أَنْ يَبْعَثَه الله عزّ وجلّ إلى قومه رَسُولاً، بالتَّميُّزِ مِنْ دُون سَائِرِ أفراد قَوْمِه بأنّه الْحَلِيمُ الرَّشيد.

الْحَلِيمُ: ذو الأناة، القادر على ضَبْطِ نَفْسِهِ عنْدَ الغضب، أو عِنْد حُلُولِ مَكْرُوهٍ به، والَّذِي يَعْقِلُ بإرادَةٍ قَوِيَّة نوازعَ نَفْسِه، عَنْ أَنْ تَدْفَعَهُ إلى ما لاَ يُحْمَدُ مِنْ قَوْل أَوْ عَمَل، والَّذِي يَعْفُو وَيَصْفَحُ مع قُدْرَتِه على الانتقام.

الرَّشِيدُ: ذُو السُّلُوكِ الفكْرِيّ والنفسيّ والخلُقِيّ الموافق للحقّ والصَّواب، أو لما هو الأفْضَلُ والأَحْسَنُ، والأكثر نفعاً، والأبْعَدُ عَن الضَرَر.

قالوا له ست مقولات، ثلاثٌ منها مُصَرَّحٌ بها في النصّ، وثلاثٌ منها مطويَّاتٌ في مثانيه:

المقولات المصرّح بها في النص:

﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾:

في هٰذِهِ الآية تلْخِيصٌ لِثَلاَثِ مَقُولاَتٍ جَدَلِيَّةٍ قَالَها قَوْمُ شعيب عليه السَّلامُ له.

المقولة الأولى: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾؟!

لفظ الصلاة مستعملٌ هُنَا فيما هو مَعْروفٌ في كلّ الرّسَالات الرَّبَّانِيَّةِ والشعوب الّتي فيها بقايا من دينٍ رَبَّاني، وهي الصلاة ذات القيام والرُّكوع والسُّجود والتلاوات والأذكار والأدعية، فهي عبادة محمودة عند كلّ

الشعوب حتى الشعوب الوثنيّة، فليست عبارة قوم شعيب هذه له عبارة استهزاء به، وليسَتْ بمعنَىٰ مطْلَق القراءة، وليست بمعنى الدِّين، ولا غير ذلك من تأويلات مذكوراتٍ في كتبُ التفسير.

والاستفهامُ في هذه العبارة استفهامٌ تَعَجُّبيٌّ إنْكارِيٌّ مِنهم، أَنْ يكون من أهل الْمُحَافظة على عبادة رَبِّه بالصَّلاَة، وأنْ يَنْهَىٰ مع ذلِكَ قَوْمَهُ عن عباداتٍ هي من الموروثاتِ لدَيْهم الّتي يَرَوْنَ أنّها حَقٌّ وَنافِعَةٌ لهم، فآبَاؤهم كبارُ السّنّ الْهَرِمُونَ يَعْبُدُونَ آلِهَةً مِنْ دُونِ الله، وهُمْ قَدْ وَرِثُوا هٰذِه العباداتِ عَنِ الَّذِينَ مَاتُوا مِنْ آبَائهم، أفيُعْقَلُ أنْ تكونَ هٰذِهِ العباداتُ الموروثاتُ عباداتٍ باطلاتٍ، وآبَاؤُهم الْهَرِمُونَ يَعْبُدُونها، وَكَانَ آباؤُهُمْ من قَبْلِهم كَذٰلِكَ، وهم وَرِثُوا الدِّين عن جَدِّهِمُ الأعلى إبراهيم عليه السَّلام.

هذا الأُسْلُوبُ التعجُّبيُّ الإنكاريُّ نَجِدُهُ لَدَىٰ كثير من الناس، حِينَ يتصدَّىٰ مثلاً دَاعٍ من الدُّعاة، أو ناصِحٌ من الناصِحِينَ، ذُو الْتزامٍ بمُقْتَضَيَاتِ التقوى، فينْهَاهُمْ عَمَّا هُو مألُوفٌ لهم مُعْتَادٌ لديهم من المحرَّمَات، كَشُرْبِ الخمور، وممارسَةِ الزّنا، أو غير ذٰلِكَ من الفواحش، فيقولُون له: أتَقْوَاكَ تأمرُك بأنْ تنهَانا عَمَّا هو مَوْرُوثٌ لَدَيْنَا، يمارِسُهُ كبارُ آبائِنَا، وقَدْ وَرِثُوهُ عن الّذين ماتُوا مِنْ آبائِهم؟!!.

لَقَدِ اعتبروا عبادة آبائهم لآلهة من دون الله حُجَّة يَصِحُّ أَنْ يَحْتَجَّ بها الْعُقَلاء، مع أنَّ هٰذِهِ الحجَّة باطِلَةٌ ساقِطَةٌ، لِأَنَّ أفعَالَ النَّاسِ وَتَقَالِيدَهُم مَهْمَا تواطَؤُوا عليها، ليْسَتْ فِي الواقع البشريّ حُجَّةً علَىٰ الحقيقة الّتي تُثْبِتُها البراهينُ العقليّة.

فقد يكون الناس قَدْ تَأَثَّرُوا بضلالاتِ المضلّين، الذينَ زيَّنُوا لهم الباطل فرأَوْهُ حقًّا، أَوْ تأثرُوا بأوهام لا أَسَاس لها مِنَ الحقيقة، لقلَّةِ عِلْمهم وانتشارِ الْجَهْلِ بَيْنَهُم، فهم بذلك لاَ يهتَدُون إلى الحقّ والصواب، فَيَقعون

في ضَلاَلاَتِ فِكْرِيَّةٍ أو سُلوكيّة، ثمّ تكونُ مواريثَ في قومهم، أو دعَتْهُمْ إلى ممارساتهم الباطلة أهواؤهم وشهواتهم ورَغباتُهُمْ من الحياة الدُّنيا، ثُمَّ كانت مواريث في قومهم.

المقولة الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾.

أي: أو صَلاتُكَ تأْمُرُكَ أَنْ تَنهَانَا عَنْ أن نَفعَلَ في أمْوَالِنَا مَا نشاء؟!

مُرادُهم يمكن التَّعْبِيرُ عنه بعبارة أُخْرَىٰ: إنَّنا حينما نبادِلُ الناس في معامَلاتنا، فإنَّنَا نَأْخُذُ مِنهم وَنُعْطِيهم بحَسَب مَا لَدَىٰ كلٍّ مِنَّا من مهارات واحْتِيَالاَت، فَنَحْنُ نتصَرَّفُ معهم بحَسَبِ قُدْراتِنَا وَمَهَارَاتِنَا واحْتِيَالاَتِنا، وهُمْ يَتَصَرَّفُونَ مَعَنَا في تَعَامُلِهم بحَسَبِ قدراتهم ومَهاراتهم واحْتِيَالاَتهم.

إنَّهم يَفْعَلُونَ في أموالهم مَا يَشاءُون، ونَحْنُ نَفْعَلُ فِي أموالِنَا مَا نَشاءُ.

فَكَيْفَ تَنْهَانَا عَنْ أَنْ نَفعَلَ فِي أموالِنَا مَا نشَاء؟!!

إنَّ هٰذَا لَأَمْرٌ عجيب يَتَنافَىٰ مع مُقْتَضَيات صَلَواتِكَ الَّتِي تُصَلِّيها عبادَةً لِرَبِّك.

المقولة الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾:

أرى أنّ هذه العبارة على الاستفهام الإنكاري، بحذف أداة الاستفهام، أي: أإنَّكَ المعروف فينا قَبْلَ أَنْ تَدَّعِيَ أَنَّكَ رسُولُ الله لنا بأنَّكَ لأَنْتَ الحليم الرَّشيد في قوْمِنا؟! فكيف تُشَدِّدُ عَلَيْنا في النهي عن عبادة ما يَعْبُد آباؤُنَا الوارثون لهذه العبادات عن آبائهم وتُشَدِّدُ علينا في الإنكار، وتكرّرُ نهيَنَا عن أنْ نفعل في أموالنا ما نشاء؟!

إنّ هٰذا يتناقض مع ما عُرِفَ عَنكَ في قَوْمِنا بأنَّكَ المتفرِّدُ من بَيْنَنَا بصفة الحِلْم من أعلى الدرجات، وبالرّشْدِ من أعلى الدرجات، حتَّىٰ صار يُقَالُ لَكَ: إنَّكَ لأَنْتَ الْحَلِيمُ الْرشيد المتَّميِّزُ الأَوْحَدُ بغَايَةَ صِفَتَي الْحِلْمُ والرُّشد.

فما الذي جرىٰ لَكَ حتّىٰ صِرْتَ تَتَصَرَّفُ تصرُّفاتٍ ليْسَ فيها حِلْمٌ ولاَ رُشْدٌ؟!! . ما بالُ شخصِّيتِك النفسيَّةِ قد تبدَّلَتْ وتغيرَتْ، حتّىٰ صِرْتَ غَيْرَ حَلِيمٍ ولاَ شيد، وانْفَرَدْتَ بمفهوماتٍ وأقوالٍ خاصَّةٍ، مناقضَةٍ لمفْهُوماتِ عُقَلاء قومك، وأقوالهم وأعمالهم؟!.

لا شَكَّ أَنّ هذه المقولة منهم تَدُلُّ على أحَدِ احتمالين:

الاحتمال الأول: أنّهم يقولُونَها على سَبيل المغالطة والمخادعة لجماهيرهم، حتَّى يَتَأَثَّروا بأقوالهم الجدليّة.

الاحتمال الثاني: أنّهم قد وصلوا إلى غاية انطماس البصيرة، بتأثير اتّباعِهم أهواءَهم وشهواتِهم وشَرَهِهِمْ للإثراءِ ولو بالظلْم والعدوان على عباد الله، وبتأثير المحافظة العصبيَّةِ علَىٰ تقليدهم الأعمىٰ لآبائهم وأجدادهم.

وهذا الانطماس في بصائرهم جعَلَهُمْ يَعْمَوْنَ عن إدراكِ الْبَدَهِيَّات، حتَّىٰ صاروا يَرَوْنَ الباطل حقًّا والحقَّ باطلاً.

المقولات المطويات في مثاني النصّ:

وقالوا له مقولاَت أُخْرَىٰ طواها النّصُّ في مثانيه، ولكن يمكن كشْفُهَا واسْتِخْرَاجها بالنظر التأمُلِيّ في إجابات شعيب عليه السلام لقومه، المصرَّحِ بها في النصّ.

فالمقولة الرابعة: وهي من المطويات في المثاني: إنَّكَ يَا شعيب ذو مالٍ كثير، فكيف جمَعْته؟. لاَ بُدَّ أنَّكَ من الّذين يجمعون أموالهم الكثيرة سِرًّا بالوسال الّتي تَنهانا عنها.

والمقولة الخامسة: وهي أيضاً من المطويَّات في المثاني: إنَّكَ تُرِيدُ بدَعْوَتِكَ الَّتِي جئتنابها، أَنْ تكون سَيّداً ذا سُلطانٍ علينا، تُلْزِمُنَا بما تشاء بأوامِرِكَ ونواهيكَ، وتُكْرِهُنَا على طاعتك.

والمقولة السادسة، وهي أيضاً من المطويَّات في المثاني: هَلْ أَنْتَ ضامِنٌ أَنْ تُحقق ما تُريد بخطاباتك، وأحَادِيثِكَ، وجَدَلِيَّاتِك، وأنت فِينا ضعيفٌ لا تَمْلِكُ قُوَةً تَسْتَطِيعُ أن تُلْزِمُنَا بها بما تُريدُ منّا، ونَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بكَ ولاَ بما جئتنا به؟.

فأجابهم شعيبٌ عليه السّلام على مقولاتهم السّتّ بإجابَاتٍ محكمات.

الإجابة الأولى: وَقَدْ اكْتَفَىٰ بِهَا لِلرَّدِّ على مقولاتهم الثلاث المصرَّحِ بها في النصّ:

- ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾؟!:

أي: قالَ لهم: يَا قَوْمِ أفكَّرْتُمْ وَتَدَبَّرْتُمْ وَوَضَعْتُمْ في رُؤْيَتِكُمُ الفِكْرِيَّةِ احْتِمَالَ أنّي عَلَىٰ بَيّنَةٍ مِنْ رَبّي، مُعْتَصِمٌ بها، ومُسْتَمْسِكٌ بالاعْتِمَاد عليها؟.

فإذا ثبت لديكم هذا الاحتمالُ الّذي تنكِرُونَه الآن، أَوْ تَشُكُّونَ فيه، أَكُنتُمْ مُصَدِّقِيَّ فيما آمُرُكم به من عبادة الله وَحْدَه، لا تُشْرِكُونَ به مَعْبُوداً آخر؟. أَكُنتُمْ مُصَدِّقيَّ فيما أنهاكُمْ عَنْهُ من التطفيف في الكَيْلِ والْوَزْن، ومِنْ بَخْسِ النّاس أشياءهم، واتخاذِكُمْ الْحِيلَ لتأكُلُوا أموال الناس بالباطل، وفيما أنْهَاكُمْ عَنْهُ من العدوان علَىٰ الناس، إِذْ تَقْعُدُونَ بكلِّ صراطٍ تُوعِدُونَ، وفيما أنهاكُمْ عَنْهُ من الإفساد في الأرض؟؟.

أَخْبِرُوني ما هُوَ مَوْقفُكُمْ مِن هذا الاحتمال، أليس هو احْتِمالاً مُمْكِناً أن يكون؟؟.

ضَعُوا هذا الاحْتِمالَ في أَذْهَانِكُمْ وفكِّرُوا فِيما أَدْعُوكم إليه بمنْطِقِ العقل، لا بمنْطِق التقليد الأعْمَىٰ، والمصلحة الخاصّة، دُونَ بَصِيرَةٍ فِكْرِيَّة.

فإذا قَبِلْتُم برُؤْيتِكُمُ الفكريَّةِ إمكانَ وجُود هذا الاحتمال، فاسْأَلُوني عَنِ البيّنة الّتي أنا مُعْتَمِدٌ عليها، ومُتمكِّنٌ مِنها أُجِبْكُمْ، حتّىٰ أُثبت لَكُمْ بالبراهين

القاطعة أنّ ما أَدْعوكُمْ إليه، وَمَا آمُرُكم به هو الحقُّ من ربكم، وهو الْخَيْرُ لَكُمْ، وهو ما يقتضيه العقل السّليم، والمصلحةُ الاجتماعية للجميع.

وإنْ شئتم معجزةً خارقةً تَشْهَدُ لِي بأني نبيٌّ ورسوُلٌ صادق مُرْسَلٌ من رَبّي وَرَبِّكُمْ إليكُمْ، فإنّي أسْأَلُ رَبّي أَنْ يَشْهَدَ لي بأنّي رسولُهُ حقًّا وصِدْقاً، بإجراء مُعْجِزَةٍ خَارِقَةٍ كَمَا أَجْرَىٰ لِغَيْرِي من المرسَلين.

البيّنة: هي هنا البراهين الواضحة، أو الآيَةُ والمعجزةُ الباهرة.

لقد عرض شعيبٌ عليه السلام على قومه احتمال أن يكون على بيّنَةٍ واضحة من رَبّه، واستعداده التّام لأن يُقَدِّمَ لهُمْ هٰذِهِ الْبَيِّنَة، إذَا كان لديهم الاستعداد لقبولها، على الرُّغم من أنَّ ما يَدْعُوهم إليه هو من الأمور الّتي تُدْرِكُ العقولُ صحَّتَها، وأنّها حقٌّ وخَيْرٌ بالْبَداهَة، أو مع تفكير قليلٍ ليس فيه إجهادٌ للأذهان.

الإجابة الثانية: من شعيب عليه السَّلام على مقولة قومه الرابعة المطويّة في مَثَاني النصّ: إنَّكَ ذُو مالٍ كَثِيرٍ فكيف جمعْتَه؟ لا بُدَّ أنَّك من الّذِين يجمعُون أموالهم الكثيرة سِرّاً بالوسائل الّتي تنهانا عنها.

فكان جوابُهُ عليه السلام:

● ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًاۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُۚ﴾:

أي: لَمْ أتجاوز في كَسْبِ مَا لَدَيَّ من أموالٍ حُدُودَ ما أَذِنَ رَبّي عزّ وجلَّ في اكتسابها. فما رَزَقَنِي مِنْهُ كُلُّه رزقٌ حَسَنٌ لاَ معصية للّهِ فيه، ولا عُدْوان فيه على أَحَد، وكُلُّه حَلالٌ طيّبٌ قد بَارَكَ الله عزّ وجلّ فيه، فلَمْ أعْمَلْ فيما سَبَقَ عملاً نَهيتكُمْ وأنْهَاكُمْ عَنْه.

ومَا أُرِيد الآن ولا مستقبلاً أن أَقْصِدَ الشيْءَ الّذِي أدعُوكم إلى اجتنابه والانصراف عنه.

يقال لغة: خالَفَكَ فُلانٌ إلى كَذا، أي: قصَدَهُ وأنت مُنصرفٌ ومُتَولٍّ عنه، ويُقال: خالَفَ الرَّجُلُ صاحِبَهُ إلى مكان كذا، إذا قَصَد هَٰذَا المكان بعد أن انْصَرَفَ صاحبُه عنه.

قال الزمخشريّ: يلْقَاكَ الرَّجُلُ صادراً عن الماء، فتسْألُه عن صاحبه، فيقول: خالَفَنِي إلى الماء، يُرِيدُ أنَّهُ قَدْ ذَهَبَ إلَيْهِ وارداً، وأنا ذاهِبٌ عَنْه صادراً.

أقول: إذا كانت وفْرَة المال الذي عند شعيب عليه السلام من الأنْعَام، فإنّ تَرْبية الأنعام الّتي تأكُلُ من الكَلأ المباح، قابلَةٌ لأن تَجْعَلَ مالِكَها ذا ثَرَاءٍ واسِعٍ جدًّا بنَحْو عَقْدٍ فأكْثَر من السنين، إذا بارك اللَّهُ عزَّ وجلَّ بمواليدها وَأصوافها وأوبارِهَا وشُعُورِها.

وإذا كانت وَفْرَةُ المال الذي عنده من الزّراعة، فمِنْ سُنَنِ الله تبارك وتعالى في عطاءاته لبعض عبادِ، أنْ يُبَارِكَ لهم بها، حَتَّىٰ يُنْبِتَ من الحبَّةِ الواحدة سَبْعَ سنابل، ويَجْعَلَ في كُلِّ سُنْبُلَةٍ مئةَ حَبَّةٍ، وبسَنَواتٍ مَعْدُودَاتٍ يكونُ الّذِي بارَكَ اللَّهُ له بزارعَتِه مِنْ أكْثَرَ الناس مالاً، دون أن يَلْجَأ إلى أكْلِ أموال النّاس بالباطل.

إلى غير ذلك من وجوه يبارك اللَّهُ بها على عَبْدِهِ في الرزق.

الإجابَة الثَالِثَة: مِنْ شعيب عليه السَّلام على مقولة قومه الخامسة المطويَّةِ في مَثَاني النّص، وهي: إنَّكَ يا شُعَيب تُريد بدعْوَتك الّتي جئتنا بها أنْ تكُونَ سَيّداً ذَا سلطانٍ عَلَيْنا، تُلْزِمُنَا بما تَشَاءُ بأوامِرِكَ وَنواهيك، وتُكْرِهُنَا عَلَىٰ طاعَتِك.

فكان جوابه عليه السلام على مقولتهم هٰذِه:

● ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾:

أي: مَا أُرِيدُ بما أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ، وأُكَرِّرُ عَلَيْكُمْ به نَصَائحي سيادَةً عليكم ولاَ سُلْطاناً، إنَّما أُرِيدُ لَكُمُ الإصلاح، والْخَلاصَ من الْفَسَادِ الذي أنتم فيه غارقون، ما استَطَعْتُ إلى ذلِكَ سبيلاً عن طريق الإقناع والموعظة الحسنة، والمجادَلَةِ بالّتي هي أحْسَن، من غَيْرِ جَبْرٍ وَلاَ إكْراه.

الإجابة الرابعة: من شعيب عليه السَّلام على مقولة قومه السّادسة المطويَّةِ في مَثَانِي النَّصّ، وهي: هَلْ أَنْتَ طامِعٌ أَنْ تَبْلُغَ ما تُرِيد بخطاباتك وأحاديثِكَ ومواعِظِكَ، وَجَدَلِيَّاتِكَ، وأنْتَ فِينا ضعيفٌ لاَ تَمْلِكُ قُوَّة تَسْتَطِيعُ بها أَنْ تَبْلُغَ مَا تُرِيد، ونَحْنُ غَيْرُ مُؤْمِنِينَ بكَ وَلاَ بما جئتنا به، فَدَعْ دَعْوَتَكَ هٰذِهِ، إذْ لَنْ نَستجيبَ لَكَ.

فكان جوابُهُ عليه السَّلاَم على مَقُولتِهم هذه وذُيولها:

- ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾:

التوفيق من الله لعبده: يكون بإلْهامه الصواب، وبإعانته، وتَيْسِيرِ سُبُلِه، للعمل بما يحقّقُ له النتيجة الَّتي تُرْضيه مما يَسْعَىٰ له مما هو له خير، مع تَسْدِيدِهِ في خطواتِ سَعْيه.

أي: وما إصابتي الرُّشْدَ في قَوْلي وفي عَمَلِي إلاَّ بمعونة اللّهِ وعطائه وَتَسْدِيده.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾: أي: عَلَيْهِ وَحْدَهُ تَوكَّلْتُ، اسْتُفِيدَ الْقَصْرُ من تقديم المعمول [عَلَيۡهِ] على عامِلِه [تَوَكَّلۡتُ].

التوكُّلُ على الله: هو الاستسلام إليه، والاعتماد عليه، وتفويض تدبير الأمور إليه، لتحقيق ما يَرْجو المتوكّل، مع قِيامِه بالأسْباب المستطاعة له المادّيّة والمعنويّة طاعَةً لأوامره ونواهيه.

[وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ]: أي: وَإِلَيْهِ أَرْجِعُ في أُمُورِي كُلّها. يقالُ لغة: أناب،

إِذَا رَجَع. والمنيبُ إلى الله، هو ذُو الرُّجوع إليه دواماً بقَلْبِه وَنَفْسِه وَفِكْرِه.

والمعنى: وما تَسْدِيدي في خُطُواتِ سَعْيِي لتبليغ رسالاتِ رَبِّي إلاَّ بمعونَةِ الله وإلهامه وقضائه وقَدَرِه، فإذا قَدَّرَ ذَلِكَ لي وقضاه حقَّقَ لي ما عَزَمَتْ عليه إرادتي، وحقّق لي الغاية الَّتي أرْجُوها، وإلاَّ فَلَه الأَمْرُ كلُّه، وهو العليم الحكيم.

وإِنِّي في قيامي بوظائف رسالتي الَّتي كلَّفَنِيها رَبِّي مُسْتَسْلِمٌ وَمُفَوِّضٌ تَدْبير أموري إليه، مع قيامي بالأسباب المادّية والمعنوية الَّتِي أستطيعها. وإِنِّي أَرْجَعُ إلَيْه دواماً في كلّ أَمْرٍ من أُمُوري مَهْما جَدَّ فيها جَدِيدٌ، على توالي الأزْمان المتتابعة.

❁ ❁ ❁

ثُمَّ رَأَىٰ شُعَيْبٌ عليه السَّلام قوْمَهُ يُصَعِّدُون مِنْ مَواقفِ عِدَائهم له وللذّين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، فوجَّه لهم التحذيرَ مِنْ أن تَحْمِلَهُمْ معاداتُهم ومُشَاقَّتُهُمْ له، على الإصرار على شِرْكِيَّاتهم، وارْتكاب جرائمهم الاجتماعيَّةِ العدوانيّة الظَّالِمَة، الَّتي تَجْعَلُهُمْ يَسْتَحِقُّونَ بِسَبَبِها الإهلاكَ الشَّامِلَ الَّذِي أصَابَ الأقوام الّذِينَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ مِنْ قَبلهم، فقال لهم:

﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿لَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾: أي: لاَ يَحْمِلنَّكُمْ، وفي اختيار هذا الفعل رائحةُ اكْتِسَاب جُرْم، فاخْتِيرَ في العبارة اختياراً ملائِماً، وجاء تأكيد الفعل بنون التوكيد الثقيلة.

﴿شِقَاقِيٓ﴾: الشِّقَاقُ: الخِلاَفُ، والْعِدَاءُ الذي يكون مَعَه المعَادِي في شِقٍّ مضادٍّ لشِقِّ عَدُوِّه، وفي جِهَةٍ وناحِيَةٍ مُبَايِنَةٍ لِجِهَتِهِ وَنَاحِيَتِه.

أي: لاَ يَحْمِلَنَّكُمْ مَا في نفوسِكُمْ مِن مخالَفَتِي ومُعَادَاتي حتَّىٰ ظهَر في أعمالكُمُ الاستعداد والتهيُّؤ للانتقام مِنِّي ومن الّذين آمَنُوا بِي واتَّبَعُوني، على الإصرار على الباطل الّذي تُؤمِنُون به، والإِصْرار على الجرائم الّتي تَرْتَكِبُونها والقيامِ بأعمال إجراميّة ضِدَّنا، فهذا الإصرار سَيُسَبِّبُ لكم استحقاقَ الإهلاك الشامِل الَّذِي استَحقَّه المهلَكُونَ السَّابقون من قبلِكم، وفصَّلَ لَهُمْ عليه السَّلام بإطْنَابِ الأقوام الذين أُهلِكُوا مِنْ قبلهم فقال لهم:

﴿مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ﴾ وخَصَّ ذكرَ قَومِ لُوطٍ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ أي: ومَا قوْمُ لوطٍ بِبَعِيدِين عَنْكُمْ زَمَاناً في الماضي، ولا مكاناً في الأرض.

بَعِيد: على وزن «فَعِيلٍ بمعنَى فاعل» عومل معاملة مَا يَسْتَوِي فيه المفرد والمثنىٰ والجمع والمذكّر والمؤنّث، إذا كان بمَعْنَىٰ «مَفْعُولٍ» مثل «جَرِيح». وقَدْ جاء في القرآن نظير هذا الاستعمال في: «كثير - قليل - ظَهِير - رَفيق» ونحوها مع أنها بمعنى اسم الفاعل، لا بمعنى اسم المفعول.

والمعنى: فاحْذَرُوا أَنْ يُصِيبَكم مثلُ ما أصاب قومَ نوحٍ من إغراقٍ شامل أهلكهم اللَّهُ به، أو أن يصيبكم مثل ما أَصَابَ قوم هود الَّذِينَ أهلكهم الله بريحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَة، أو أَنْ يصيبَكُمْ مِثْلُ مَا أصَابَ قَوْمَ صَالح الَّذِينَ أَهْلَكَهُم الله بالصَّيْحَةِ الَّتي رَافقتها زَلْزَلَةٌ وصَاعِقَة، أو أن يُصِيبكم مثْلُ مَا أصَابَ قوم لُوطٍ الْقَرِيبينَ منكُمْ زَماناً وَمكاناً، الَّذِين أهلَكَهُمُ الله بحِجَارَةٍ من سِجِّيلٍ وَبصَيْحَةٍ وَبُرْكَانٍ قَلَبَ به اللَّهُ أَرْضَهُمْ فجَعَلَ عَالِيَها سَافِلَها.

وتابع شعيبٌ عليه السَّلامُ نُصْحَهُ لِقَوْمِهِ، رحمةً بِهِم، وشفقةً عليهم، فقال لهم:

● ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ﴿٩٠﴾﴾:

﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ﴾: أي: وادْعوا رَبَّكُمْ طَالِبينَ مِنْهُ أَنْ يَغْفِرَ لَكُمْ ما سَبَقَ أَنِ ارْتَكَبْتُمْ من شِرْكِيَّاتٍ وجرائم وآثام.

﴿ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾: أي: ثُمَّ بعْدَ الاستغفار الصادق الّذي تَطْمَئِنُّ إليه قُلُوبُكُمْ، جَاهِدُوا أنفُسَكُمْ جهاداً شاقًّا في زَمَنٍ طويل، حتَّىٰ تَرْجِعُوا إلَىٰ رَبِّكُمْ، بالْقيام بالأَعْمَال الصالِحَةِ، وبتَرْكِ الأَعْمَالِ السَّيِّئَةِ المتأصِّلَةِ في عاداتكُمْ، شيئاً فشيئاً، مُتَحَمِّلين مَشَقَّاتِ مخالفةِ عاداتِكُمْ، ومُصَارَعَةِ أهوائِكم وشهواتِكم، والتغلُّب على عقبات نفوسكم واقتحامها.

﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ ۝٩٠﴾: في هٰذِهِ الجملة المتضمّنَةِ الثناءَ على اللَّهِ بأنَّهُ رَحِيمٌ وَدُودٌ، إطْماعٌ لهم بأنْ لا يَقْنَطُوا من رحمة اللَّهِ مهما أسْرَفُوا على أنفسهم قبل أن يسْتَغْفِرُوا وَيَتُوبوا، وبأنْ لا يقْنَطُوا مِنْ أَنْ يُحِيطَهُمُ اللَّهُ جلَّ جلالُهُ بوُدِّه، إذا اسْتَغْفَرُوا ثم تابوا إلَيْهِ شيَئاً فشيْئاً، حتَّىٰ يكُونوا من أهل الاستقامة علىٰ صراطه الَّذِي أبانه لعباده، فيما أنزل على رُسُله.

[رَحِيمٌ]: صيغة تكثير لاسم الفاعل «راحم» أي: ذو رَحْمَةٍ واسِعَةٍ بالِغَةٍ الغاية. **والرَّحْمَة**: صفة نفسيَّةٌ من صفات اللَّهِ عزّ وجلّ، نُثْبِتُهَا لَهُ على مَا يَلِيقُ بجَلالِه، ومن آثارها الغفران والعفو، والعطاء والمعونة، والتوفيق في الأمور، وإزالَةُ البؤس والمكاره، والإمدادُ بِمَا يَسُرُّ، وبما تَسْكُنُ به النَّفْس، ويَطْمَئِنُّ به الْقَلْبُ، ويُمتِعُ ذَا الحياة بما يَطِيبُ لَدَيه، ويَهَبُهُ مَا يُلَبِّي حاجاته، ويَكُفُّ عَنْهُ الشَّرّ والضُّرَّ والسُّوءَ والأَذَىٰ، ويَهْدِيه إلى ما فيه خيرُه وسعادته في عاجِلِ أَمْرِه وآجِلِه، ويُبَيِّنُ له ما فيه شرٌّ له وضُرٌّ وأَذَىٰ ليجْتَنِبَه، ونحو ذلك.

[وَدُودٌ]: صيغة تكثِير لاسم الفاعل من فعل «وَدَّ». الْوُدُّ نَوْعٌ من الحبِّ الهادىء الثابت النافع. **وَالْوَدُد**: اسم من أسماء الله الحسنَىٰ، فمن وَدَّهُ الله أفاض عليه من نِعَمِه بحسب حكمته، وادَّخَرَ لَهُ السَّعَادة العظمى إلى يوم الدين.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث

مَرحلَة اضطهادٍ وتَهديدٍ من قوم شعيب له وللّذين آمَنُوا به وجدَالٍ منطقي من شعيب عليه السلام دفاعاً عنهم

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عَزَّ وجل:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ اللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

دلَّ هذا النَّصُّ على لُجُوء ذوي السُّلطان من كُفَّار قوم شعيب، إلى اضطهاد الّذين آمَنُوا به واتّبعُوه، بذَرِيعَةِ الدّفاع عن موروثاتهم الدّينيَّة، انتصاراً لدِين الله الموروث عن جَدِّهِمْ إبراهيم عليه السلام، فتصَدَّىٰ شعيبٌ عليه السّلام للدفاع عن المؤمنين بأسلوبه القائم على مُجرّد رفْعِ الصَّوْتِ بالإِقناع الفكْرِيِّ والمجادَلَةِ بالَّتي هي أحْسَن، فقال عليه السَّلام لذوي السُّلطان من كُفَّار قومه:

﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِالَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ الْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾:

الطائفة: تُطْلَقُ علَىٰ الواحِدِ فأكْثر من الجماعة، أو القوم، أو الأمّة، وتُطْلَقُ أيْضاً على الجماعَةِ، وعلى الفِرْقَة.

عبارة شعيب عليه السّلام هذه، تَدُلُّ على أن أهل مدين قد وصَلُوا بَعْدَ أطوارٍ متصاعدة في الشّدّة، إلى طوْرِ إيقاف انتشار دعوة رسولهم بالْقُوَّة، ومواجهة الذين آمَنُوا بِهِ واتَّبعُوه بالْقَمْع والاضطهاد.

ويظهر أنَّهم تَذَرَّعُوا للقيام بأعْمَالِ الْقَمع بذرائع تَعْتَمِد على خِدَاعٍ دينيّ، زاعمينَ أنّ من حَقِّهم لحمايَةِ دينِهِم الموروثِ عن آبائهم، إلَىٰ جدّهم إبراهيم عليه السّلام، أنْ يمْنَعُوا بالْقُوَّةِ الَّذِين آمَنُوا بشُعَيْبٍ عن اتّباعه والدَّعْوَةِ إلى دينه، متجاهلين الشركيَّاتِ والتحريفات الضَّالات الباطلات، في المفهوماتِ الاعتقاديَّةِ وفي الأحكام الشرعيّة الّتي دخَلَتْ إلى دينهم.

فقال لهم شُعَيبٌ عليه السّلاَمُ: إنَّ كُنتُمْ كَمَا تَزْعُمُونَ حَرِيصينَ على حمَايَةِ دِين الله، فاتْرُكوا أَمْرَ نُصْرَةِ الدِّين لله، ولا تَجْعَلُوا أنْفُسَكُمْ أَوْصِيَاءَ علَيْه، حتَّىٰ تضطّهِدُوا مُخَالفيكُم، فاللّهُ عزَّ وجلَّ قادِرٌ علَىٰ أَنْ يَنْتَصِرَ لِدِينِه الحقّ.

فإنْ كان الدّين الحقُّ هو نَدْعُو نَحْنُ إلَيْه، أو ما تتمسَّكُونَ أنتم به، فاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا، ويُنَفِّذَ حُكْمَهُ الْقَضَائِيّ لَنَا أوْ عَلَيْنا، لَكُمْ أو علَيْكُمْ، ولاَ تتعجَّلُوا منْعَ دَعْوَتِنَا من الانْتِشَار بالْقُوَّة، ولا تَقْمَعُوا الَّذِين آمَنُوا بِها وهم مِنْكُمْ نسباً ولُغةً ومَوْطناً، واللّهُ خَيْرُ الحاكمين. إنْ كُنَّا نَحْنُ على الحقّ الّذي يَرْضَاهُ حَكَمَ لَنا فَنصَرَنَا فِي دَعْوَتِنَا وَأَيَّدنا، وإنْ كُنْتُمْ أَنتم الَّذِين هُمْ على الْحَقّ نَصَرَكم وأَيَّدَكُمْ، وَخَذَلَنَا فِي دَعْوَتنا.

إذا تفكَّرْنَا في قَوْل شعيب عليه السّلام لذوي السُّلْطان من كبراء قومه: ﴿فَٱصۡبِرُواْ﴾. وحَلَّلْنَا مقتضيَاتِ مَوْقف المواجهة بيْنَ طائفتَيْنِ: طائفةٍ مُؤمِنَةٍ قَلِيلَةٍ ضعيفَةٍ، لا تَسْتَطِيعُ الدِّفاعَ عن نفسها بقواها المادّيَّة، وطائفةٍ غَيْرُ مُؤْمِنَةٍ كثيرة، وتَمْلِكُ من أدواتِ القوة ما تَسْتَطِيعُ به مُعَاقَبَةَ الطَّائِفَةِ المؤمِنَةِ مِنْ أَجْلِ إيمانها.

وإذا تفكَّرْنَا في الذرائع الّتي يُمْكِنُ أن يَتخِذَها ذَوُو السُّلْطانِ من الَّذِين لم يُؤْمِنُوا، والَّتي يُلائِمُها أَنْ يَقُول لهم الرَّسُول شعيبٌ عليه السلام: ﴿فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ وَجَدْنَا أَنَّ الْقَوْم أَرَادُوا

أنْ يُعَاقِبُوا المؤمِنِينَ بِذَرِيعَةِ الانتصار لدين الله الموروث، وهو دينٌ محرَّفٌ دَخَلَتْ فيه شركيَّات، وأحكامٌ سُلُوكيَّةٌ باطلَة، فاسدة ومُفْسِدَة منْسُوبَةٌ إلى دين اللَّهِ الموروث زُوراً وافتراءً على الله.

فقال لهم رسُولُهم شُعَيْبٌ عليه السَّلام: إنْ كانَ أَمْرُكُمْ كَما تَدَّعُونَ فاتْرُكُوا أمْرَ الدِّينِ لله، فهو الذي يحْكُمُ بَيْنَ عباده، ولسْتُمْ أَنْتُمْ أوصياءَ على دينه. أمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني فَهُمْ يَعْتَقِدُونَ أنَّهم يَحْمِلُونَ رِسالة دَعْوَةٍ إلى دين اللَّهِ الْحَقّ، ولاَ يُؤْذُونكُمْ في دُنْياكُمْ، ولاَ يَقِفُونَ في طريق مصالحكم بالقوة، إنَّما يُقَدِّمُون لمن يسْتَمِع إليهم النُّصْحَ فقط.

إنَّ هذا الحوار الاحْتِجَاجيَّ الْجَدَليَّ حِوارٌ بَارِعٌ جدًّا من شُعَيْبٍ عليه السلام، وهو حوارٌ في غايَةِ الْقُوَّةِ والإِلْزَام بالحجَّةِ الدَّامغَة.

وتأزَّم الموْقِفُ بين الفريقَيْن: فَرِيقِ شُعَيْب والَّذِينَ آمَنُوا به واتّبَعُوه، وفَرِيق ذوي السُّلْطانِ من قومه، الّذِين عَجزُوا عن مُقَارَعَةِ الحجَّةِ بِمِثْلِها، فَوَصَلَ هذا الْفَرِيقُ الأكْثَرُ والأَقْوَىٰ مادّيًا بالرِّجالِ والسِّلاَحِ، إلَىٰ طَوْرِ تَهْدِيدِ الفريقِ الأوّلِ بالإِخْرَاجِ من أرْضِهم، أو الْعَوْدَةِ عن دينهم الذي آمنوا به، والدُّخولِ في مِلَّةِ قَوْمِهِم:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا... ﴿٨٨﴾﴾:

﴿ٱلْمَلَأُ﴾: كُبَرَاءُ الْقَوْمِ وسَرَاتُهُمُ الَّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُونَ العامَّة.

﴿ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾: هذه العبارة كنايَةٌ عَنِ الَّذِين احْتَلُّوا في قَوْمهم مراكز السُّلْطَةِ الإداريَّة، فهم الَّذِين يُصْدِرُون قرارات الطَّرْدِ والإبْعَادِ والحِرْمان من الإقامَةِ في البلاد، وكان هؤلاء من الملأ الّذين كَفَرُوا بشعيبٍ عليه السلام، وبما جاء به عن ربّه.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ﴾: أي: لنخرجنَّكَ يا شُعَيْبُ وَلَنُخْرِجَنَّ مَعَكَ الَّذِينَ آمَنُوا بك وبما جئْتَ به.

﴿مِن قَرْيَتِنَآ﴾: أي: من مُجَمَّعَاتنا السكنية، تُطْلَقُ الْقَرْيَة في اللُّغَة على كلِّ أَرْضٍ فيها بُيُوتٌ وَمَساكِنُ مُجْتَمِعَةٌ قَلَّتْ أَمْ كَثُرَتْ، ولو بلَغَتْ مَدِينَةً عظيمةً جدًّا.

لقَدْ أَصْدَرَ أَصْحَابُ السلطة في مَدْين قراراً بإكراه شعيْبٍ والَّذِين آمَنُوا بدينِه معَهُ على الخروج والابْتِعَادِ عن قُراهم، وعن كلِّ أرضهم وكُلِّ شعبهم، أَوْ إكْرَاهِهِمْ على العودَةِ عَنْ دِينهم والدُّخُول في مِلَّةِ قَوْمِهم، حتَّىٰ يَكُونُوا مُشَارِكين لَهُمْ في مِلَّتِهِمْ عقيدَةً وسُلُوكاً.

والإخراجُ هو ما يُعْرَفُ في أنظمة الدُّول بالنَّفْي والإبعادِ، والطَّرْدِ من البلاد.

اللاّمُ في [لَنُخْرِجَنَّكَ] وفي [لَتَعُودُنَّ] واقعةٌ في جواب قَسَم مَنْوِيٍّ ملاحَظٍ ذهْناً، كَمَا قَالَ الْخَلِيلُ في مِثْلِ هذا الاستعمال، فالْفِعْلُ في كُلٍّ من العبارتَيْنِ مُؤَكَّدٌ بِقَسَمٍ مُقَدَّرٍ، وبنون التوكيد الثقيلة.

لَقَدِ انْهَزَمَ كُبَرَاء قَوْمِ شُعَيب عليه السّلام، وأَصْحَابُ السُّلْطَةِ الإدارِيَّة في مَدْيَنَ، تُجَاهَ مُنَاظراتِهِ وبياناتِه وجَدَلياته هزائم فِكْرِيَّةً مُنكَرَةً مُخْزِيَةً، فَلَجَؤوا إلَىٰ قَرار اسْتِعْمالِ الْقُوَّةِ الماديَّةِ المسلَّحَةِ الْعَسْكرِيَّة، للتَّخْيِيرِبَيْنَ تَرْكِ دِينِهم، والدُّخول في مِلَّةِ قَوْمهم، وبَيْنَ الطَّرْدِ والإبْعَاد من البلاد.

لَقَدْ وَجَّهُوا قرارَهُم بصِيغَةٍ مُؤَكَّدَةٍ بالْقَسَمِ وبنُونِ التوكيد الثقيلَةِ اللازمة له، فَهُو قرار لا رجْعَةَ فيه بِحَسَبِ تَصَوُّرِهِمْ.

﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ﴾: أي: أَوْ لَتَعُودُنَ عَنْ دِينِكُمُ الجديدِ، الّذي آمَنْتُم به، وَتَتَبِعُونَ تَعْلِيمَاتِه وَلَتَدْخُلُنَّ في مِلَّتِنَا.

وَلاَ بُدَّ أن يَصْطَنِعُوا لِهَذَا نَعِلاَّتٍ مِنْ فِكْرَةِ وُجُوب اتّباعِ الدِّينِ المْورُوث، ومِنْ فِكْرَة الْوَحْدَةِ الْقَوْمِيَّة.

• ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

لَقَدِ اسْتَفَادَ شُعَيْبٌ عليه السَّلامُ، مِنْ إصْدَار ذوي السُّلْطَةِ الإداريَّةِ في قَوْمِه، قَرَارَهُمُ التَّخْيِيرِيَّ بَيْنَ الإخْرَاج بالْقُوَّةِ مِنْ أَرْض مَدْين، وبَيْنَ الْعَوْدَة عن دينهم الجديد، والدُّخول في مِلَّةِ قومهم، فأَخَذَ جانِبَ الإكْرَاهِ في قَضِيَّةِ الدِّين، ليُنَاظِرَهم بِشَأْنِهِ، ولِيُقِيمَ الحجَّةَ علَيْهِم، بأَنَّهُ لا يَصِحُّ في الْعَقْلِ، ولا في الوِجْدَان، ولا في أَعْرَافِ الحرِّيَّةِ الإنسانيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ، إكْرَاهُ الإنْسَانِ على اعْتِنَاقِ دِينٍ لاَ يُؤْمِنُ به، وهُوَ مقتَنِعٌ فِكْرِيًا بالْبُرْهَانِ الْقَاطِعَ أَنَّهُ بَاطِلٌ، وبِسَبَبِ بُطْلاَنِهِ يَكْرَهُ أَنْ يَعْتَنِقَهُ ويَلْتَزِمَ لَوازمَه.

فَنَاظر عليه السَّلامُ كُبَرَاءَ قَوْمِهِ مُنَاظَرَةً جَدَلِيَّةً مُفْحِمَةً حَوْل هٰذه الْقَضِيَّة، واشتملَتْ مُنَاظَرَتُه علىٰ ثَلاَثِ مَقُولاَتٍ جَدَلِيَّة، وأَعْقَبَها بِبَيانِ ثَبَاتِهِ علَىٰ مَوْقِفِهِ مِنْ دِينِهِ، مُتَوكِّلاً على الله، مهما كانت النتائِجُ والتَّدْبيراتُ الّتي يُدَبِّرُونَها ضِدَّه، وضدَّ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، ثُمَّ بِدُعَاءٍ سَأل اللَّه عَزَّ وجلَّ فيه أَنْ يَفْتَحَ بَيْنَهُ وَبيْنَ قَوْمِهِ بالْحَقِّ، مُثْنِياً عليه بِأَنَّهُ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ.

المقولة الجدلية الأُولى: دَلَّتْ عَلَيْها بإيجاز عبارة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾:

أي: أَتُكْرِهوننا على الْعَوْدَةِ عن دِينِنا والدُّخولِ في مِلَّتِكُمْ، وَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ تَرْكَ دِيننا وَالدُّخولَ في مِلَّتِكُمْ؟!!.

إنَّ الكارِهَ لتَرْكِ الإيمان بقَضِيَّةٍ يُؤْمِنُ بها بقَلْبِهِ، لا يُمْكِنُ أن يَتْرُكَهُ، إذِ الإيمانُ إرادَةٌ داخِلِيَّةٌ لاَ يَعْرِفُهَا أَحَدٌ من الناسِ إلاَّ صاحِبُها، وإنَّ الإكْرَاهَ علَىٰ الإيمان بقَضِيَّةٍ يَعْلَمُ الْمُكْرَهُ علَيْها أَنها قضيَّةٌ باطِلَةٌ، لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُوجِدَ إيماناً بها، إذِ الإيمانُ إرادَةٌ داخِلِيَّةٌ لاَ يَعْرِفُها أَحَدٌ من الناس إلاَّ صاحِبُها.

لَكِنْ قَدْ يُكْرَهُ الإنْسَانُ علَىٰ إعْلاَنِ الكُفْرِ بما هُو مُؤْمِنٌ به في قَلْبه، فَيُعْلِنُ ذَلِكَ وهُو كاذِبٌ، وَقَدْ يُكْرَهُ علىٰ إعْلاَنِ الإيمان بما هُو كافِرٌ به، فَيُعْلِنُ ذَلِكَ وهُوَ كَاذِبٌ.

فعبارة: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ﴾ مع ما فيها من إيجاز بالغٍ تَدُلُّ على حقيقة من حقائق السُّلُوكِ الإنْسَانِيّ الدَّاخِلِيّ، وهي استحالَةُ إكْرَاهِ ذي الإرادة الحرَّةِ على أَنْ يَكْفُرَ بقَضِيَّةٍ فِكْرِيَّةٍ يَرَىٰ أنّها حَقٌّ، وهو يُؤْمِنُ بأنّها حقٌّ، أو على أَنْ يُؤْمِنَ بِفِكْرَةٍ لَمْ يَقْتَنِعْ بها، وَلاَ يُرِيدُ أَنْ يُؤْمِنَ بها.

إنَّ من الحقائق الثابتَةِ الَّتي لا تَتَغيَّرُ ما دَامَ الإنسانُ على ما فَطَرَهُ اللَّهُ عليه ذا إرادَةٍ حُرَّةٍ، أَنَّهُ لاَ إكْرَاهَ في الدِّين، إذْ قاعِدَةُ الدّينِ الحق جَوْهَرُها الإيمانُ الْقَلْبِيُّ بمبادئه، والإيمانُ إرادَةٌ داخِلِيَّةٌ، لاَ يُمْكِنُ إكْرَاهُ الإنسان على إيجاده أو نسخه، ما دَام ذا فِكْرٍ خاصٍّ به، وَذَا إرادَةٍ حُرَّةٍ.

بهذا المنطِق العقليّ ذي الحجَّةِ الدَّامغَةِ ناقَشَ شُعَيبٌ عَلَيْهِ السَّلامُ قَوْمه.

قَدْ يُكْرَهُ الإنسانُ على العَمَل بِسُلُوكٍ ظاهِرِيٍّ مُعَيَّنٍ، وهُوَ لاَ يُؤْمِنُ بِصِحَّتِه وَلاَ بِجَدْوَاه، فَيُنَافِقُ في سُلُوكه الَّذي أُكْرِهَ عَلَيْه، لكِنَّه لاَ يُمْكِنُ أَنْ يُكْرَهَ على الإيمان بِفِكْرَةٍ يراها باطلاً. أو لا يُرِيدُ الإيمان بها لئلاً يلْتَزِم مقتضَيَاتِها في السُّلُوك.

إنّ الإيمان إرادة قَلْبِيَّةٌ تَتَضَمَّنُ اعْتِرافاً بِفِكْرَةٍ ما، وينتج عنه استسلامٌ نَفْسِيٌّ لَها، ثُمَّ تَحَرُّكٌ لِلْعَمَلِ بمُقْتَضَاها.

كذلِكَ سَائر العواطف القلبيّة والنفسيَّة.

ومِنْ أَجْلِ هٰذِهِ الحقيقة لَمْ يَكُنْ رُسُلُ اللَّهِ يُكْرِهُون النَّاسَ على الإيمان بالدّين الرَّبَّانِيّ الحقّ، الّذي يَدْعُونَ الناسَ إلى تَفَهُّم مبادئه الاعتقاديّة والإيمان بها باختيارهم الحرّ، وليس في أيَّة رسالَةٍ رَبَّانِيّة صحيحة النسبة إلى الله ما يقتضي إكراهَ الناس على الإيمان بما جاء فيها.

إنَّ الإكراه على الإيمان أو على الكفر بقضيّة من القضايا الفكريّة من الأمور المرفوضة عقلاً وواقعاً، وكلُّ فَهْم على خلاف هذا فهم غير صحيح.

وإنَّ تَاريخ البشريَّة لَمْ يُسجِّلْ على أُمَّةٍ مُؤْمِنَةٍ برسالة ربَّانِيَّةٍ حَقٍّ، فاهِمَةٍ لمضمون دين رَبِّها وَحقيقته، أنَّها كانت تُكْرِه المخالِفِينَ لَهَا في الدين، على الإيمان بالدِّين الَّذِي آمَنتْ به، إنّما كانت تَدْعو إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدالِ بالّتي هي أَحْسَن، للإقناع الفكري، والترغيب والترهيب النفسي.

لكنّ تاريخَ البَشَرِيَّةِ مَلِيءٌ بالشواهد الدّالَّة على أَنَّ أصْحابَ المذاهب والأذيان الّتي هي من أوضاع البشر، أو من تَحْرِيفاتِ المحرّفين لدِينٍ رَبَّانِيٍّ صَحِيح الأصل، وكَذَلِكَ سَائِرُ قادَةِ مِلَلِ الكُفْرِ، كَانُوا هُمُ الَّذِينَ يُكْرِهُونَ مُخَالِفِيهِمْ علَىٰ تَرْك أَدْيانهم، ومَبَادئهم وَمَذَاهِبِمْ، والإيمان والْعَمَل بِدِينِ المكْرِهين، أَوْ بمذاهبهم، وإلاَّ كان العذابُ الشديدُ حتَّىٰ الموتِ مَصِيرَهم.

إنّ من مبادىء الرّسَالاَتِ الرَّبَّانِيَّةِ كُلِّها أَنَّ الدِّينَ لِلَّهِ، وأنَّهُ لاَ إكراهَ في الدِّين، فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُر، ولَكِنْ مَنِ اخْتَارَ لِنَفْسِهِ الكُفْرَ فَعلَيْهِ أَنْ يَتَحَمَّلَ تُجاهَ رَبِّهِ مسؤوليَّة اختياره الحرّ، وعلَيْهِ أَنْ يَتَرَقَّبَ عَذَابَ الله الْمُعَجَّلَ في الدنيا، إذا اقتضَتْ حِكْمَتُهُ جلَّ جلالُهُ أَنْ يُذِيقَهُ شيئاً من العذاب المعجّل. وعليه أَنْ يَتَرَقَّبَ عذاب الله المؤجَّلَ إلى يوم الدين، وهذا العذابُ سَوْف يَلْقَاهُ حتماً في جَهَنَّمَ دار العذاب الأكبر، خالداً فيها مُخَلّداً، وقَدْ أَعْذَر مَنْ أَنْذَر.

المقولة الجدلية الثانية: دلّت عليها بإيجاز عبارة: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾:

لمَّا كانت مِلَّةُ قومه أهْلِ مَدْين فيها شركيّاتٌ، وفيها استباحَةُ ما

حَرَّمَ اللَّهُ عزّ وجَلَّ في كُلِّ ما أنْزَلَ من دينٍ على رُسُله، كَقَطْع طُرُقِ الناس، وظلمهم والعدوان عليهم، وأكل أموالهم بالباطل، مع ادّعاءِ أنَّ ذَلِكَ من الدّين الذي ورثوه عن جذهم «مَدْيَنَ» عن أبيه إبراهيم الخليل عليه السّلام، فإنَّ عودة شعيب عليه السّلام والذين آمنوا به واتَّبَعُوهُ عن دينهم، وَدُخولهم في ملّةِ قَوْمهم، يَجْعَلُهم مِثْلَ قَوْمِهِمْ مُفتَرِين على الله كَذِباً.

الإفتراء: اختلاقُ الكذِب عَمْداً مع الْعِلْم بأنّه كذب.

الملّة: الدّين، والشريعة، صحيحةً كانت أم باطلة.

﴿بَعۡدَ إِذۡ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾: «إذْ» ظرف للزّمان الماضي، وهو مضاف إلى جملة ﴿نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنۡهَاۚ﴾: أي: بَعْدَ حين تَنْجِيَةِ اللَّهِ لنا مِنها. والمرادُ تنجيتهم من العقاب على اعتناقها، وهو الخلود في عذاب جهنّم المقرَّرِ عِنْدَ اللَّهِ عزّ وجلّ لمن كفَرَ بالدِّينِ الحقّ، وافترى على اللَّهِ كذباً.

﴿كَذِبًا﴾ مفعولٌ مطلَقٌ مؤكِّدٌ لعَامِله: ﴿ٱفۡتَرَيۡنَا﴾ إذْ هو مرادفٌ للمصدر الذي هو «افتراءٌ».

المقولة الجدليّةُ الثالثة: دلَّت عليها بإيجاز عبارة: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ﴾:

صيغة: «وَمَا يَكونُ لَنَا أنْ نفعل كذا» وأشباهها يُؤتَىٰ بها لتأكيد النفي بأبلَغِ تعبير، إذْ جاء فيها كَوْنٌ مَنْفِيٌّ وبَعْدَهُ لاَمُ الجحود، كما يقول النحويُّون.

والمعنى: أنّ عَوْدَنا عن دينِ رَبِّنا وَدُخولَنا في ملّتكُمْ أمْرٌ نَرْفُضُه رَفْضاً قَطْعيّاً، ولشدّة إصْرارنا على رفضه نُخْبركم من الآن بأنّه ما يكونُ لنا في المستقبل مِثْلُ هٰذَا الَّذِي تَطْلُبُونَه منّا، فهو لَنْ يُوجَدَ إلاّ إذا أردنا إيجادَه، ما دام الله جلّ جلالُهُ وعظم سلطانُهُ يُمِدُّنا بإرادَةٍ حُرَّةٍ غَيْرِ مَجْبُورَةٍ، إذْ إنَّنا نَخْشَىٰ عقَابَ اللَّهِ وعذابَه، وهو الخلُودُ في جَهَنَّمَ دَارِ العذاب يَوْم الدِّين.

﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾: أي: إلاَّ أَنْ يَشَاء اللّهُ رَبُّنَا أَنْ نُظْهِرَ لَكُمْ بألْسِنَتِنا وَبِبَعْضِ تَصرُّفَاتِنَا مَا يُرْضِيكُمْ، لِحِكْمَةِ حِمَايَتِنا مِنْكُمْ مُؤَقَّتاً بوقتٍ غير مَدِيد، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ، أَمَّا قُلُوبُنَا ونفوسُنَا فَسَتَبْقَىٰ مُطْمَئِنَّةً بالْإيمان، وأمَّا أَعْمَالُنَا في السِّرِّ فَسَتَبْقَىٰ على وفْقِ دين اللّهِ الحقّ.

هذا ما فتح اللّهُ به عليّ في فهم هذا الاستثناء من كلام شعيب عليه السَّلام، وهذا الفهم مطابقٌ لِمَا جَاءَ في الإسلام بِشَأنِ مَنْ أُكْرِه عَلَىٰ أعلان الكُفر وقَلْبُهُ مطمَئِنٌ بالإيمان.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾.

وقَدْ أشْكَلَتْ عبارة الاسْتِثْناء ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ في كلام شعيبٍ عليه السّلام على المفسّرين:

● فقال بعضهم: ذكرَ شعيبٌ عليه السّلامُ هذا تأدُّباً مع رَبّه، إذْ لِلّهِ المشيئة المطلقة، وعلى المؤمن أنْ يُعْلِنَ خُضُوعَهُ لَهَا دائماً، وإنْ كان مُتَيَقِّناً مِنْ أنَّ الله جلَّ جَلالُهُ لَنْ يَشَاءَ لِعِبَادِه أن يَعُودُوا عن الإيمان بالحقّ، والدُّخول في ملَّةِ الكافرين.

● وفهم الجبريُّون من هذا الاستثناء: إلاّ أنْ يشاء الله أن يَجْعَلَنا مجبورين على أنْ نَعُودَ عن الإيمان بالحقّ، والدُّخول في ملَّةِ الكافرين، وهٰذَا الْفَهْمُ مَرْفُوضٌ حتماً.

وما فتح اللّهُ به عليَّ في فهم هذه العبارة، هو الحقُّ المطابقُ لقواعِد الإيمان، فاللّهُ عزّ وجلّ لاَ يَرْضَىٰ لعباده الكُفْرَ، فَلاَ يُجْبِرُهُمْ عليه حتماً، ولا يأذَنُ لهم به حتماً، إلاّ أن يكون تقيَّةً لِسَانِيَّةً، وببعض التصرُّفات الظاهرات، لدفع شرور المكْرِهين.

مقولة ثبات شعيب على مَوْقفه مُتَوكّلاً على الله: دلَّت عليها بإيجاز عبارة: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾:

﴿عِلْمًاۚ﴾ تمييز مُحَوَّلٌ عن الفاعل، والتقدير: وَسِعَ عِلْمُ الله فاسْتَوْعَبَ كُلَّ شيءٍ، سواءٌ أكان مَوْجوداً أمْ مَعْدُوماً، ففي جُمْلة ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًاۚ﴾ ثَنَاءٌ علىٰ اللَّهِ عزّ وجلّ بِعِلْمه الشامِلِ كُلَّ شيء، والمحيطِ بكُلِّ شيء، والغرَضُ من إيراده التوطِئَة لجُمْلَةِ: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ﴾.

أي: يَا قَوْمِ إِذَا قَرَّرْتُمْ إِخْرَاجِي من أَرْضِكُمْ وَإِخْرَاجَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعِي، إِذَا لَمْ نَعُدْ عَنْ دِينِنَا ونَدْخُلْ فِي مِلَّتِكُمْ، فإننا نُعْلِنُ لَكُمْ ثَبَاتَنَا على دينِنا، وَبَيْنَنَا وَبينكُمُ اللَّهُ الَّذِي وَسِعَ عِلْمُهُ كُلَّ شَيْءٍ، وأحاطَتْ قُدْرَتُهُ العظيمة بكُلِّ شيءٍ، فَهُو الَّذِي يحكُمُ بيننا، فإنْ مَكَّنكُمْ من إخراجنا وهو العليم بِنَا وَبِكُمْ، فلِحِكْمَةٍ يفْعَلُ ذَلك، وَإِنْ لم يمكنْكُمْ فهو لنا منه نَصْرٌ عليكم، فَدَبِّرُوا ما شِئْتُمْ، وافعلُوا مَا شئتم، فإنَّنا علَيْه وَحْدَهُ تَوَكَّلْنا.

التوكُلُ على الله: الاستسلامُ إلَيْهِ، وتَفْويضُ تدبيرِ الأمْرِ وتحقيق ما يَرْجُو المتوكّل إليه، مع قيامه بالأسْباب المستطاعة الماديّة والمعنويَّة طاعَةً لِأَمْرِه.

أفاد تَقْديمُ المعمول: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ علىٰ عامِله: ﴿تَوَكَّلْنَاۚ﴾ في الجملَةِ الْقَصْرَ والحصْرَ، أيْ: على اللَّهِ وَحْدَه تَوَكَّلْنَا، فهو القادر على حمايتنا ونَصْرِنا، وتَدْبِير أمُورِ نجاتنا وَتنفيذِها بِحِكْمَته.

مقولة دُعَاء شعيب أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمه: دَلَّتْ عليها عبارة:

﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾:

﴿رَبَّنَا﴾: أي: يَا رَبَّنَا، حُذِفَتْ أداة النداء بالدُّعاء، وهو الأكْثَرُ استعمالاً في دُعاء الرَّبّ جلَّ جلالُه وَعَظُمَ سُلْطانه، وفي حَذْفها مغْنَىٰ عَدَم الحاجة إلى ذكْرِها في اللّفظ، لأنّ الله تعالى قريبٌ من عباده، يُجِيبُ دعوة الداعي إذا دعاه.

﴿ٱفۡتَحۡ﴾: الْفَتْحُ بين الخصْمَيْنِ هو القضاء والحكم، ويلْزَمُ مِنْ قَضاء الله وحُكْمِهِ نَصْرُ أَوْليائه على خُصُومِهِم وأعدائهم، وقد يُرادُ بالْفَتْحِ النَّصْرُ والتأييدُ العمليّان.

﴿بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ قَوۡمِنَا بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: اقض رَبَّنا بَيْنَنا وَبين قَوْمِنَا الَّذِينَ هَدَّدُونَا بالإِخْرَاج، قضاءً بالحق.

إنّ شُعَيباً علَيْهِ السَّلام، يَعْلَمُ عِلْمَ اليقين، أنَّ الحقَّ هو ما عليه هو والَّذِينَ آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، وأنَّ قضاء الله لا بُدَّ أن يكونَ بنجاتهم وَنَصْرِهِمْ علَىٰ عَدُوِّهم من قومهم، لِأَنَّ الحق بجانبهم، لَكِنَّ الأدَبَ مَعَ اللَّهِ عزّ وجلّ في الدُّعاء بالفتح يقتضي تقييدَهُ بالحق، مَعَ ما في هذا التقْييد من إشعارِ للخَصْم بأنَّ الدَّاعِي لاَ يَدْعُو رَبَّهُ بأنْ يَنْصُرَ الباطِلَ على الحقّ، بل يَدْعُوه بأنْ ينْصُرَ الحقَّ على الباطل، ولو كان الحقُّ بجانب خَصْمِهِ.

﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡفَٰتِحِينَ﴾: أي: وأنتَ يا رَبَّنا خير الحاكمين والناصرين، وفي هذا ثَناءٌ على الله فيه معنى الاستِعطاف لاستجابة الدُّعاء.

ويظْهَرُ أَنَّ شعيباً عليه السلام أسْمَعَ قَوْمَهُ دُعاءَهُ فألْقَىٰ الرعْبَ في قلوبهم.

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعۡتُمۡ شُعَيۡبًا إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

لقد ألْقَىٰ دُعاءُ شُعَيْب عليه السَّلامُ الرُّعْبَ في قُلُوب الملأ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمه، وخافُوا أن يُنْزِلَ اللَّهُ بهم مثْلَ الَّذِي أنزَلَه بالْمُهلَكِينَ من قبلهم، قوم نوح، وعادٍ، وثمود، وقوم لوط، وكان شعيب عليه السَّلام قَدْ حَذَّرَهُمْ من ذلك، فصَرَفُوا النظر عن تنفيذ قرار إخراجه. وتوجّهوا للذين آمنوا به واتَّبعوه مُهَدِّدِين ومُتَوعِّدِين بالاضطهاد والتعذيب حتَّىٰ الموت.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾: أي: وقال الَّذِينَ كَفَرُوا من مَلأ قومه، وهم الكبراءُ والأعْيَانُ الَّذِينَ يَمْلَؤُون عُيُونَ العامّة، سواءٌ أكانوا ذوي سلطة إداريّة، أم من مستشاريهم وأهلِ الحلّ والعقد فيهم، وأمّا أصحاب السلطة الإداريَّة، فقد سبَق وصفهم بأنَّهم الَّذِين اسْتَكْبَرُوا.

ويظهر أنَّ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وَصْفٌ تقييديّ. يُشْعِرُ بأنَّ بَعْضَ مَلأ قَوْمِهِ هم من الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه.

وطَوَىٰ النَّصُّ المواجَهِينَ بهذا الخطاب، للعلم بهم من مضمون ما خوطِبُوا به، فَهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا بِشُعَيْبٍ عليه السَّلام واتَّبَعُوه.

﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾: أي: نُقْسِمُ: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً في إصْرارِهِ علَىٰ مَوْقِفِهِ الَّذِي أَعْلَنَهُ، إِنَّكُمْ إِذاً لَخاسِرُونَ، أي: إِنَّكُمْ إِذاً لتكُونُون خاسِرِينَ، إذْ سَنُسَلِّطُ عليكم من رِجَالِنَا مَنْ يُعَذِّبُكُمْ وَيضطهِدُكم، وَيسْلُبُكُمْ ممتلَكاتهم، حتّىٰ تَصِيرُوا خاسِرِينَ كُلَّ شيءٍ، وقد تُقْتَلُون فتَخْسَرُونَ الحياة، وقَدْ تَخْسَرُونَ أَهْلِيكُمْ وَأولادَكُمْ بالتَّعْذِيب والتشريد والقتل.

أكَّدُوا تَهْدِيدهم بالقَسَم، فاللامُ في [لَئِنْ] موطّئةٌ لِلْقَسَمَ المنويّ ذهناً، وجُمْلَةُ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ الواقعة في جواب الْقَسَمِ مُؤَكَّدَةٌ أيضاً بالمؤكّدات: «إنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاّم المزحلَقَةُ لِلْخَبَر ـ وَأَعْتبر (إذاً) هنا من المؤكدات أيضاً، لأنّ ما قَبْلَها مفتقرٌ لما بَعْدها، فهي زائِدَةٌ للتّأكيد».

❁ ❁ ❁

الفصل الرابع
مرحلة تَهدِيد قوم شعيب له باستحقاقه الرّجمَ لَوْلاَ رَهطُهُ فيهم

جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ مصحف/ ٥٢ نزول) قولُ الله عزّ وجل:

﴿قَالُوا يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ (٩١) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣)﴾:

● قرأ نافع، وأبو عمرو، وابْنُ كثير، وأبو جعفر، وابْنُ ذَكْوان: **[أَرَهطِيَ أعَزُّ]** بِفَتْحِ يَاءَ المتكلّم.

وقرأ باقي القُرَّاءِ العشرة: **[أَرَهطِيْ أعَزُّ]** بإسكان ياء المتكلم مع المدّ في الوصل.

والقراءتان وجهان عَرَبيان لنطقِ يَاء المتكلم.

● قرأ شعبة: **[عَلَىٰ مَكَانَاتِكُمْ]** بالْجَمْع. وقرأ باقي القراء العشرة **[على مَكَانَتِكُمْ]** بالإفراد. ومؤدَّىٰ القراءتَيْنِ واحِدٌ، لأنّ اسم الجنس إذا أضيف إلى معرفةٍ كان بقوّة الجمع.

دلَّ هذا النصّ على أنّ قوم شعيب عليه السَّلاَم، قَدْ أَحَسُّوا بالعجْزِ الكامِلِ عَنْ مقابلَةِ حُجَجِ شُعَيْبٍ عليه السلام القويّةِ، بما يَقِفُ معها مَوْقَفِ النّدّ ولَوْ في جولَةٍ واحدة من جولات الصّراع الفكري، فلَجَؤُوا إلى تَهْدِيدِهِ بالْقَتْلِ رَجماً بالحجارة، لكنّ له رهطاً من عشيرته لا يُرِيدُون إسخاطهم، وهُمْ على ملّتهم، إلاّ أنهم بحَسَبِ عاداتهم العشائِرِيَّة يَنْصُرُونَ شُعيباً نُصْرَةَ عصَبِيَّةً جاهليَّة، فهم يحفظون لعشيرته كرامَتَهُمْ.

• ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾.

لقَدْ أوقفُوا المناظرة القائمة على الفكر بينهم وبينه، متّهمينَ إيّاهُ بأنّهُ يقول كلاماً لا يَفْقَهُون كثيراً منه، فلا فائدة من مُتَابَعَةِ المناظرات الفكريَّة بينهم وَبينه.

وفي هذه الآية إيجازٌ لِأَرْبَعِ مَقُولاَتٍ وَجَّهُوها له.

المقولة الأولى: دلَّت عليها عبارة: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾:

أي: ما نفهم كثيراً من أقوالِكَ الَّتي تَقُولُها لنا، فلا فائدة من متابعة الحديثِ الجدالي مَعَك، فاقْطَعْ كَلاَمَكَ مَعنا. ﴿نَفْقَهُ﴾ هنا بمعْنَىٰ نَفْهَمُ.

هذا القول يَدُلُّ دلالَةً صَرِيحةً على هُرُوبهم من المعركةِ الفكْرِيَّة، بادّعَاءِ أنَّهم لا يَفْقَهُون كثيراً ممَّا يَقُولُ في مُناظراتِه لهم.

إنَّهُمْ في الحقيقة منهَزِمُون في معاركِ الفكر والمناظرة والبيان، ولهذا تَحَوَّلُوا إلى مَعْرَكَةِ الْقُوَىٰ الماديَّةِ الَّتي يَمْلِكُونَ مِنها ما لا يَمْلِكُ شُعَيبٌ عليه السَّلاَمُ والَّذِينَ آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه.

المقولة الثانية: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ﴾: هٰذه الجملة فيها تأكيد بثلاثة مؤكّدات: «إنَّ ـ الجملة الاسمية ـ اللاَّمُ المزحْلَقَةُ إلى الخبر».

أي: نُؤَكِّدُ لَكَ أَنَّنا نَعْلَمُ أَنَّكَ ضَعِيفٌ فينا، فلا قُوَّةَ لَكَ تَسْتَطِيعُ بها مُواجهة قُوانَا إذَا أَرَدْنا قَتْلَكَ رَجْماً بالحجارة، لنتخلَّصَ مِنْكَ ومِنْ دَعْوَتِك، فَقَدْ وَصَلَ أَمْرُكَ معَنَا إلى أقْصَىٰ ما نَحْتَمِلُ مِنْكَ، وَلَمْ يَبْقَ لنَا إلاَّ أنْ نتخلَّصَ مِنْكَ بوسيلةٍ ما.

وفي هذا القول تَهْدِيدٌ قَوِيٌّ له بأنهم قَدْ بَدَؤُوا يفكِّرُونَ تفكيراً جدِّيًّا باسْتِخْدَامِ الْقُوَّةِ لإيقَافِ دعْوَته، خوفاً من انتشارها بين جماهيرهم.

المقولَةُ الثالثة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَ﴾:

﴿رَهۡطُكَ﴾: رَهْطُ الرَّجُلِ عَشِيرَتُه الأَقْرَبُونَ فِي قَوْمه، وهَذَا هو المراد هنا، وقَدْ يراد برهط الرَّجل قبيلتُه، وقد يرادُ بهم قَوْمه.

﴿لَرَجَمۡنَٰكَ﴾: أي: لَقَتَلْنَاكَ رَجْماً بالحجارة، وهٰذه عادَة الشعوب قديماً إذا خَرَجَ خارجٌ على قَوْمه رَجَمُوهُ حتَّىٰ الموت.

في هذه العبارة إعلان غاية العداء، إذ فيها دلالَةٌ على أنَّهُ قد وصل إلى حالةٍ يستَحِقُّ فيها أَنْ يُقْتَلَ رَجماً بالحجارة، تنكيلاً به، وعقاباً له، لولا أنَّ له عشيرةً عَزِيزَةً على نفوسهم، وهُمْ لاَ يُرِيدُون أَنْ يُسْخِطُوهم مُثِيرين فيهم عصبِيَّتَهُمُ القَبَلِيَّة، ولو كانوا غَيْرَ مُؤْمنين برسالَتِه، ولا بما جاء به عن رَبّه، إذْ من عادة القبائل والعشائر أنْ تَحْمِي الرَّجُلَ منها بدافع العصبيَّة، وَلَوْ خَرَجَ على مِلَّتِها ولم يَلْتَزِمْ طِرِيقَتَها.

المقولة الرابعة: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾:

أي: وَمَا أَنْتَ بذي كَرَامَةٍ عَلَيْنا نُكْرِمُكَ عَنِ الرَّجْم من أجْلها، بَعْدَ الَّذِي كان منكَ من خُرُوجٍ عَلَىٰ مِلَّتِنا، ومخالفةٍ لطريقتنا، واتخاذ دينٍ يُعَارِضُ دِينَنا، وتجمَعُ عَلَيْهِ مَنْ يَسْتَجِيبُ لَكَ من قَوْمِنا.

لكِنَّ رَهْطَكَ وهم عشيرتُكَ الأَقْرَبُون أعِزَّاءُ عَلَيْنا، ذَوو كرامَةٍ بَيْنَنَا، ونَحْنُ حَرِيصُونَ على أن لا نَجْرَحَ كرامَتَهُمْ بَيْنَنَا، ولاَ نُؤْذِيَ مَشاعِرَهُمْ، ولاَ نُهِينَهُمْ بقَتْلِكَ.

العزيز: يأتي في اللّغَةِ بمعنَيَيْن:

المعنى الأول: القويُّ الغالِبُ الَّذِي لاَ يُغْلَبُ. يقولون: مَنَ عَزَّبَزَّ، أي: مَنْ غَلَبَ سَلَبَ.

المعنى الثاني: ذو الكرامة الذي لا يَصِحُّ أن تُهان كرامَتُه، وهذا المعنى هو المرد هنا.

● ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌۖ وَٱرْتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾﴾:

لَمْ يَكْتَرِثْ شُعَيْبٌ عَلَيْه السَّلامُ لِتَهْدِيداتِ كُبَراءَ قَوْمِهِ وَوَعِيدِهم، واسْتَمَرَّ يُواجِهُهُمْ بِمَقُولاَتِهِ الإِقْنَاعِيَّةِ، لَكِنَّهُ ارْتَقَىٰ بِها إلى أُسْلُوبِ التثْريب والتلْويم والتعْنِيف، واتَّخذ معهم موقف المتحدِّي المنْذِر، المترقب الصَّامِد المتوكّل على رَبه.

لقد وجَّهَ لهم ثمانِيَ مقولات جاء إيجازُها في هاتَيْنِ الآيتَيْن، باخْتزَالٍ شديد:

المقولة الأولى: دلَّت عليها عبارة: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

أي: أَرَهْطِي (عَشيرَتي الأَقْرَبُون) الّذينَ هُمْ عَبيدٌ مِثْلُكُمْ، وخَلْقٌ مِنْ خَلْق الله، أَكْرَمُ عَلَيْكُمْ من الله رَبِّكُمْ، الَّذِي يُمِدُّكم دواماً بعَطَاءَاتِ رُبُوبِيّته، والَّذِي أَرْسَلَنِي رَسُولاً إليكم، فهو يَحْمِينِي ويَصُونُنِي ويُنْجِينِي من شُرُوركم؟!!

إنَّ هٰذا مِنْكُمْ لأَمْرٌ يَسْتَدْعِي أشدّ العجب، لقَدْ كانَ مِنَ المفروض فيكُمْ وأنْتُمْ تَدَّعُون الْعَقْلَ والرُّشْدَ والْحِكمة، وتَزْعُمُونَ أنكم تنصُرُونَ مُوْرُوثاتِكُمْ الدِّينيَّةَ الباقِيَةَ فيكُمْ من مِلَّةِ جَدّكُمْ مَدْيَنَ بن إبراهيم الخليل عليه السلام، أنْ يكُون اللّهُ جلّ جلالُهُ أعَزَّ على قُلُوبكم ونُفُوسِكُمْ مِنْ كُلِّ عَزيز، وأكْرَمَ عندكم من كُلِّ ذي كرامة، فمَا أنا إلاَّ رَسُولٌ مِنْكُمْ أَدْعُوكُمْ إلَىٰ عِبادَةِ اللَّهِ رَبِّكُمْ وحْدَهُ لاَ تُشْرِكون بعبادتِه شيئاً، وأَدْعُوكم إلى طاعَته، واجْتِنابِ ظُلْم العباد، فما هو الشَّيْءُ الّذي يَصِحُّ في العقول السليمة أنْ تُنْكِرُوهُ عليَّ في دَعْوتي.

المقولَةُ الثانية: دَلَّتْ عليها عبارة: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾:

أي: واتَّخَذْتُمْ دِينَ الله وأوامِرَهُ وشرائعه ومطالِبَهُ مِنْكُمْ وَرَاءَكُمْ، فَجَعَلْتُمْ مَا جَاءَكُمْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ظِهْرِيًّا، أي: منبُوذاً مَنْسِيًّا مَتْرُوكاً وَرَاءَ ظُهُورِكم.

الظِّهْرِي: هو في اللُّغَةِ المنبوذُ وراءَ الظَّهْرِ، المتروكُ المنسِيُّ المسْتَهانُ به.

والياء في كلمة «ظِهْرِيّ» هي ياء النسب، فالظِّهْرِيُّ هو المنسوبُ إلَىٰ الظَّهْر، وكَسْرُ الظاء جاءَ من تغييرات النَّسَب الّذي يَرِدُ على غير قياس، كما قالُوا في النسبة إلى «دَهْرٍ» دُهْرِي بضم الدّال، وفي النّسْبَةِ إلى «أَمْس» إِمْسِي بِكَسْرِ الهمزة.

المقولة الثالثة: دلَّت عليها عبارَة: ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾:

أي: إنَّ ما تَعْمَلُونه مما يُسْخِطُ رَبَّكُمْ عليكم، وما تَعْملُونَهُ من تَدْبيراتٍ لقَمْعِ رَسُولِهِ، ولِقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا به واتَّبَعُوه ونَصَرُوهُ، وللتنكيلِ بهم، ومَا تَعْمَلُونَه لإيقافِ امْتِدادِ الاسْتِجَابَةِ لدِينِه، أَعْمَالٌ يُحِيطُ بها الله جلّ جلالُهُ إحَاطَةً تَامَّةً، بعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ وعَدْلِهِ وَقُدْرَتِه، وسَائِرِ صفاتِ رُبُوبيّتِه.

إنّ الدّينَ دِينُه، وَإِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ له، وأَنَا واحِدٌ مِنْ أنبيائه ورُسُلِه، والمؤمِنُونَ بي من أوْليائه، ونَحْنُ جَمِيعاً نفَوِّضُ أُمورَنا إلَيْهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكيل.

المقولة الرابعة: دلَّت عليها عبارَةُ: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾:

﴿عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾: أي: على مَوْضِعِكُمْ وجِهَتِكُمْ وَنَاحيتِكُمْ الَّتي اخْتَرْتُموها لأنْفُسِكُمْ، المشاقَّةِ والمعادِيَةِ لِي وَلِدِيني ولِلّذِينَ آمَنُوا بي.

المكانة: مؤنَّثُ المكان، تُطْلَقُ على الموضع المادّيّ أو المعنوي. وتُطْلَقُ على المنْزِلَة. والمرادُ هنا الموضع.

والمعنى: وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا وَأَنْتُم علَىٰ مَوضِعِكُمْ وَجِهتِكُمْ وَنَاحِيتَكُمُ المشَّاقَةِ لي، والنّائيةِ عن مَوْضِعِ الحقّ، وهي المكانَةُ الَّتي اخْتَرْتُمُوها لأنْفُسكم.

اعْمَلُوا مَا تَسْتَطِيعُونَ عَمَلَهُ ضِدِّي، وضِدَّ الَّذِينَ آمَنُوا بي، وضِدَّ رِسالَةِ رَبّي وَرَبّكم.

وظاهرٌ ما في هٰذِهِ المقولة من تحدٍّ لَهُم أن يَفْعَلُوا ما يَشَاءُونَ غير عابىءٍ بتدبيراتهم وأعمالهم.

المقولة الخامسة: دلّت عليها عبارة: ﴿إِنِّي عَامِلٌ﴾: أي: إنّي متابعٌ القيام بعملي، على وَفْقِ ما أمَرَني به رَبّي، وعلى وفْقِ ما تقتضيه مني رسالَتِي، فلا أتوقف، مع ملازمة مكانتي المضادّةِ والمشاقة لمكانتكم، حتّى يَقْضِي اللَّهُ بيني وبينكم.

وظاهر في هذه المقولة أيضاً، أنّ شعيباً عليه السلام يتحدَّىٰ كُبَرَاء كُفَّارِ قَوْمِهِ، بأنه لَنْ يَتَوَقَّفَ عن دعْوَتِهِ، على الرُّغْمِ من كلّ تَهْدِيداتِهم وتَدْبيراتهم الكَيْدِيّة.

المقولة السادسة: دلَّتْ عليها عبارة: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾:

من الظاهر في هذه المقولة أنَّ شعيباً عليه السَّلام يُنْذِرُ كُفَّار قَوْمه بأسْلُوب التَّلْويح لا التَّصْرِيح، بأنَّهم هم الّذِينَ سَيَنْزِلُ بهم العذابُ الّذي يُخْزِيهم.

الْخِزْيُ: الذُّلُّ والهَوان، والافتضاح بالقبائح والآثام المخجلة التي تجلُبُ العقوبات الْمُهِينات المذِلاّت.

ويُطْلقُ الخزيُ على الوقوع في الشرّ والعذابِ، والْبَلايَا والنّكبات المصحوبة بذُلّ وهوان.

استعمال شعيب عليه السلام حرف «سَوْف» دون حرف «السّين» احتياط ذكيٌّ منه، إذْ لم يكُنْ لدَيْه عِلْمٌ بقُرْبِ وقْتِ وُقوع العذاب المخزي بقومه، الذي سيأتيهم من ربّهم.

أكثر ما يستعمل حرف «سوف» في القرآن المجيد للدلالة على ما سوف يكون يوم الدين، أو في المستقبل البعيد.

المقولة السابعة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ﴾: أي: وسوف تعلمون حينما ينزل عذاب الله المخزي من هو كاذبٌ في ادّعاء أنّه على حقٍّ، وأنَّهُ يَنْصُرُ دين الله بحَقٍّ وصِدْق.

هذا البيان يَدُلُّ على أنّهم كانوا يَزْعُمون أنهم على الحقّ، وأنَّهُمْ يَنْصُرُونَ دين الله الموروثَ عن أبائهم إلى جدهم مدْيَن بن إبراهيم عليه السلام.

وفي هذا البيان تلويحٌ بأنّهم هم الكاذبون، كما في العبارة السابقة لها.

المقولة الثامنة: دلّت عليها عبارة: ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾:

أي: وانْتَظِرُوا انتظار المراقب بكلّ حواسّه، لكلِّ ما تأتي به أحداثُ المستقبل، إنِّي معَكُمْ رَقيب لهذه الأحْداث.

إنّه لا يتحدّىٰ مثلَ هذا التحدّي إلاَّ مَنْ كان على ثقةٍ من رَبّه بأنّه سيَنْصُرُهُ، وسيَخْذُلُ ويُخزِي عَدُوَّه بالعذاب الأليم الْمُهين.

ولَقَدْ وَجَّه شعيبٌ علَيْه السَّلام مقولاتِه هٰذِهِ لِلكُبَراء كُفّار قومه، وذوي السُّلْطة الإداريَّةِ فيهم، بقَلْبٍ ثابت شُجَاع، ونفْسٍ مطمئنّة واثقة بنَصْر الله العِليّ الأَعلَى، الحكيم القدير، المنْتَقِم الجبار.

❁ ❁ ❁

الفصل الخامس
مرحلة تحدّي قوم شعيب له بأن يأتيهم بما يتوعّدهم به من عذاب اللّهِ

جاء في سُورَةِ (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول الله عزّ وجل بشأن شعيب عليه السلام وقومه:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾:

هذا النصّ يكْشِفُ التحدّي الأخير الَّذِي وَجَّهَهُ كُبَرَاءُ كُفَّارِ قَوْم شُعَيْبٍ عليه السّلام له، ومن ورائهم جماهِيرُهُمْ، بَعْدَ أنْ أَمْهَلَهُمُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ إمْهَالاً كَافِياً قَاطِعاً لكُلِّ أَعْذَارِهم.

وقد اشتمل هذا النّص على بيانِ موجَزِ ثلاثِ مقولاتٍ وَجَّهُوها له:

المقولة الأولى: دلَّتْ عليها عبارَةُ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾: أي: ما أنت إلاَّ من الَّذِينَ سُحِرُوا سِحْراً قَوِيًا، حتَّىٰ أثَّرَ فيك هذا السِّحْرُ الشّديدُ، فأفْسَدَكَ وَغَيَّرَكَ عَمَّا كُنَّا نَعْهَدُهُ فيك من عَقْلٍ رَاجح، وفضائلَ تُحْمَدُ عليها، وسَلَبَكَ مَا كُنْتَ تتحلَّىٰ به من حِلْمٍ ورُشْدٍ عظيمَيْنِ انْفَرَدْت بهما دون سائر قومك.

أقول: لو أَنَّهُم نظروا إِلَىٰ مضمُون دَعْوَتِهِ بعقْلٍ وَبَصِيرَة، وأَبْعَدُوا عنْهُمْ مؤثّراتِ الأهواء والشهوات والمطامع، والتقاليد والتبعيَّات العمياء، لَرَأَوْا أنّه قَدْ زَاد حِلْماً وحكمةً، وعقْلاً ورُشداً، وأنّه ناصح لهم أمين.

إنّ انْطِماسَ الْبَصِيرة بغِشَاوات الأهواء والشهوات والتقاليد العمياء، يُفْسِدُ على أهل العقول عقولهم ومفهوماتهم، وقد يجعلهم كالْبُلْهِ، أو كالأنعام، أو أضلَّ سبيلاً.

المقولة الثانية: دلَّت عليها عبارة: ﴿وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾: هذه تَعِلَّةُ كلّ الذين كذّبُوا رُسُلَ رَبّهم، وكَفَرُوا بما جاءُهم به عنه، إذْ يَزْعُمون أنَّ البشريَّة لا تَصْلُح للاصطفاء بالنُّبُوة وبالرّسالة، مع أنَّ الحكمة الرفيعة السامِيَة تقتضي أن يكون الرَّسُولُ إلى البشر واحداً منهم، يَصْطَفيه الله بالوحي إليه، ويكلّفُه حَمْلَ رِسالَتِهِ وَتَبْلِيغَها لقَوْمه.

إنّ الاعتراض على بَشرِيَّةِ الرَّسُولِ لا يسْتَنِدُ إلاَّ إلى مُجَرَّدِ إعلان الاسْتِبْعَادِ والاستِغْرابِ والتعجُّب، وَهَٰذَا لَيْسَ بدليلٍ مُطْلقاً، إذْ لا يوجَدُ مانِعٌ عَقْلِيٌّ من أَنْ يُوحِيَ اللّهُ الرَّبُّ الخالِقُ إلى من يَشَاءُ مِنْ عباده، وهو جَلَّ جلالُهُ القدير على أَنْ يَفْعَل ما يشاء، وأن يخْلَقَ ما يشاء.

بل الحكمة تقتضي أن يجعل اللّهُ الرَّسُولَ إلى البشر، من الْبَشَرِ أنفسهم، ليكون في سلوكه حُجَّةً عليهم.

المقولة الثالثة: دلَّت عليها عبارة: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾: أي: وَنُؤكّدُ لَكَ أنّنا نَظُنُّكَ كاذِباً من الكاذبين، الَّذِينَ يَفْتَرُونَ على رَبّهم، بادّعَاء النبوَّةِ والرِّسَالة.

[إِنْ] هي المخففة من الثقيلة، ويُؤَازِرُها في التأكيد اللاَّم في [لَمِنَ].

ونظراً إلى أنَّهُ قَدْ كان مَعْرُوفاً لدى عامَّةِ قومه وَخاصَّتِهم بأنَّهُ صادقٌ لا يَقُولُ إلاَّ حَقًّا، ما استطاعُوا أن يقولُوا له عِبَارَةً يَجْزِمُونَ فيها بأنَّهُ كاذِبٌ في دَعْوَاهُ النبوَّة والرّسَالَة، أو بأنّه واحِدٌ من المتنبّئِينَ الكاذبين، بل اكْتَفَوْا ببيَان أنَّ ما يتصوَّرُونه فيه هُوَ من قبيل الظَّنّ، لا من قبيل الْيَقين المستند إلى عِلْمٍ وَخِبْرَةٍ بأحْوالِهِ وأفعاله وأقواله.

وصبَر شعيبٌ عليه السلام على شتائم الكبراء من كفار قومه له، كما صبَر سَائِر رُسُلِ الله على شَتَائِم أقوامهم لهم، فلَمْ يُقابِلُوا شتائم أقوامهم بأمثالها.

وبعد هٰذه الْمَقُولات الثلاث وجَّهُوا له عبارة التحدِّي الأحْمَق، فقالوا له:

• ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾:

﴿كِسَفًا﴾: الكِسَفُ والكِسْفُ، بفَتْحِ السّين وإسكانها، القِطَعُ من أي شيء، وهو جمع واحدته: «كِسْفَةٌ» وهي القطعة من أيِّ شيءٍ.

والمعنى: فأسْقِط علينا ما تَسْتطِيع إسْقاطه من قِطَعٍ من السَّماء تُعَذِّبُنَا وَتُهْلِكُنَا بها، إنْ كُنتَ من الصّادقين في أَنَّكَ نبيٌّ ورسُولٌ أرسَلَكَ اللَّهُ إلينا.

استعملوا حرف الشرط «إنْ» للإشعار بأنّهم لا يُؤْمِنُون بنبوّته ولا برسالته، فهم يطلُبُونَ منه هذا الطلَبَ على سبيل التعجيز.

لَقَدْ غرَّهم طولُ إمْهالِ اللَّهِ لهم، مع وجُودِ رَسُولِهِ بينهم يُعَالِجُهم بكل وسائل الحكمة والموعظة الحَسَنةِ والجدال بالّتي هي أحْسَن، ويَرَوْنَ أنهمْ مُمَكَّنُونَ في أرضهم.

• ﴿قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾﴾: أي: لستُ أنا الَّذي أُسْقِطُ الكِسَفَ مِنَ السَّمَاءِ، إنَّمَا الَّذِي يَفْعَلُ ذَلِكَ هُو رَبّي، وربّي إنَّما يَفْعَله أو يَفْعَلُ شيئا آخر يُهْلِكُكُمْ به، إذا عَلِمَ من أَعْمَالِكُمْ أَنَّكُمْ صِرْتُمْ تَسْتَحِقُّونَ إِنْزَالَ العقابِ الشَّاملِ فيكم، واقْتَضَتْ حِكْمَتُهُ ذلك.

إنه جلَّ جلالُهُ وعظم سُلْطانُهُ أَعْلَمُ بما تَعْمَلُون.

في ياء المتكلّم من ﴿رَبِّىٓ أَعْلَمُ﴾ قراءتان الإسكان والفتح، ففَتَحها نافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جعفر، وأسْكَنَها مع المدّ باقي القرّاء العشرة.

❁ ❁ ❁

الفصل السادس
مرحلة توجيه كبراء كفّار قوم شعيب إنذارهم الأخير للّذِين آمَنُوا به واتّبَعُوه

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾:

وصَلَ كُبَرَاءُ كُفَّار قومِ شُعَيْب إلى حالَةِ الحذَرِ من أن يُنزِلَ اللَّهُ بهِمُ العذابَ والإهْلاكَ الشّامل، لمَّا رَأَوْا أَنَّ شُعَيْباً غيْرَ عَابِىءٍ بتهدِيداتهم، وغيرَ مُكْتَرِثٍ لأنَّه صار من وجهة نظرِهم مُسْتَحقًّا لِأَن يُقْتَلَ رَجماً بالحجارَةِ، ولَولاَ الكرامَةُ الَّتي رَعَوْها لِعَشيرَتِهِ الأقربين لَرَجَمُوه.

فَوَجَّهُوا إِنْذَارَهُمْ للّذين آمَنُوا بِه واتَّبَعُوه منهم، وأَقْسَمُوا لهم قائِلين: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾:

أي: نُقْسِمُ لَكُمْ: لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيباً في إصْرارِه على مَوْقِفِهِ الَّذي أعْلَنَه، إنَّكُمْ إذاً لتكونون خاسِرين، إذْ سَنُسَلِّطُ عليكم بأوامرنا من رجالنا من يَسومُونكم سُوءَ العذاب، ويضطهِدُونَكُمْ، ويسلُبُونَكُمْ مُمْتَلكاتِكُمْ، حتَّىٰ تكونُوا خاسِرِين كلَّ شيءٍ، وَقَدْ تَخْسَرُونَ أَهْلِيكُمْ وَأَوْلاَدَكُمْ بالتَّعْذِيب والتَّشْرِيدِ والقتل.

أَكَّدُوا تهديدهم ووعِيدَهُمْ بالقسم، فاللام في [لَئِن] مُوطِّئَةٌ لِلْقَسَمِ المنويّ الملاحظ ذهناً، وجملةُ: ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ الواقِعَةُ في جواب القسم مؤكَّدَة بالمؤكدات: «إِنَّ ـ والجملة الاسمية ـ واللاّم المزحلقة للخبر ـ وأعْتَبِرُ [إذاً] هنا من المؤكّدات أيضاً، لأنّ مَا قَبْلَها مفتقرٌ لمَا بَعْدَها فهي زائدةٌ للتأكيد».

وقد تضمَّن هذا القولُ قراراً بتنفيذ العقاب الماديّ بالّذين آمَنُوا بشُعَيْبٍ واتَّبَعُوه.

وبهذا اجتمعت الأسبابُ الّتي تقتضي إهلاكَ الْقَوْمِ الكافرين وهي:

(١) تكذيب الرسُول.

(٢) التكذيب بما جاء به عن رَبِّه.

(٣) تَحَدِّي الرَّسُولِ بأن يُنْزِلَ عليهم العذابَ الَّذِي كان يُنْذِرُهم به، متوهمين أنَّه ليس رسُولاً، فلَنْ يَسْتجيب الله لدُعائه.

(٤) إنذار الذين آمنوا به واتَّبَعُوه، بأن يُنْزِلُوا بهم العقاب القامع لهم جَمِيعاً، إذا اتَّبَعُوا شعيباً في مواقفه المخالفة لمطالبهم منه.

فقضى الله بتعذيبهم وإهلاكهم كما سيأتي بيانُه.



الفصل السابع
مرحلة إنزال العذاب الشامل المهلِك الذي استأصل الله به كُفَّار قوم شعيب عليه السلام

جاء في القرآن المجيد أرْبَعَةُ نصوص من أربع سُور، وفيها بيانُ إهلاك كفَّارِ قَوْمِ شعيبٍ عليه السلام، بعد أَنْ وصَلَ مُعْظَمُهُمْ إلى حالَةٍ ميؤوس معها من استجابتهم لدعْوَةِ رسول رَبّهم، مهْمَا مَدَّ اللّهُ عزَّ وجلَّ في إمْهالهم.

(١) فجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾.

(٢) وجاء في سُورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) قول اللّهِ عزّ وجلّ بشأن شعيبٍ وقومه:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾.

(٣) وَجاء في سورة (العنبكوت/ ٢٩ مصحف/ ٨٥ نزول) قول اللّهِ عزّ وجلَّ بشأن شُعَيب وقومه أيضاً:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

(٤) وَجاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

هذه النصوص الأَرْبَعة أجتهد في تَدَبُّرها تَدَبُّراً تكامُلِيًّا، بمعونة الله وتَوْفيقه وتَسْدِيده.

● ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾: أي: ولمَّا جاء وَقْتُ تَنْفِيذِ أَمْرِنا السَّابقِ، بأَنْ نُنَجِّي شُعَيْباً ونُنَجِّيَ الَّذِينَ آمَنُوا به معه بِرَحْمَةٍ مِنَّا، وَبأَنْ نُهْلِكَ كُفَّارَ قَوْمه بعَذَابٍ على وَفْقِ حِكْمَتِنَا وعَدْلِنا نَفَّذْنا ما يلي:

أوّلاً: (بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ الَّذِينَ نَجّاهُمُ الله): ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا... ﴿٩٤﴾﴾ «هود».

أي: نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَنَجَّيْنا مَعَهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وبما جاء به عن رَبّه، بإِبْعَادِهم عَنْ أَمَاكِن تَنَزُّلِ وسَائِلِ التَّعْذِيب والإهلاك، وكان هذا بقَدَرٍ وقضَاءٍ، وأَمْرٍ صَادِرَاتٍ مِنْ رَحْمَتِنا.

الرَّحْمة: صِفَةٌ من صِفَاتِ الله جلّ جلالُهُ، من آثارها الإِنْعَامُ، والإِكْرَامُ، والنَّجَاةُ والنَّصْرُ، إلى أمور كثيرة.

ثانياً: (بالنسبة إلى الَّذِينَ أَهْلَكَهُمُ الله):

(١) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ (الشعراء):

(٢) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (العنكبوت):

(٣) ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾ (الأعراف):

(٤) ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾ (هود):

هٰذه النُّصوص مُتكامِلَةٌ فيما بينها.

● فَقَدْ دَلَّ النَّصّ الَّذِي جاء في سورة (الشعراء) على أن الله عزّ وجلّ قَدْ شمِلَهُمْ بعَذَابٍ قَبَضَ عليهم في يَوْمِ الظُّلَّةِ.

وكانت الظُّلَّةُ غَمَامَةً حَارَّةً ذَات سَمُومٍ يَنْدَفِعُ مِنْها إِلَىٰ أَرْضِ مَدْين، فيُعَذِّبُ مَنْ قَضَىٰ اللَّهُ علَيْه بالعذاب بَحَرِّها وسَمُومِها، ومَا تُحْدِثُهُ من اختناقات، واسْتَمَرَّتْ هٰذه الْغَمَامَةُ العذابيَّة، طَوَالَ يَوْم تَعْذِيبِهم.

الظُّلَّة: هي في اللُّغَةِ كُلُّ شَيْءٍ أَظَلَّ وسَتَرَ وأَطْبَقَ مِنْ فَوْق.

ووصَفَ الله عزّ وجلّ عَذَابَ يَوْم الظُّلَّةِ بِأَنَّهُ كان عَذَابَ يَوْم عظيم، ومَعْلُومٌ أَنَّ عَذَابَ الْيَوْمِ الْعَظِيم لاَ بُدَّ أَنْ يَكُونَ عَذَاباً عظيماً مصَاحِباً كُلَّ أَجْزاءِ ذَلِكَ الْيَوْمِ العظيم.

● ودَلَّ النصّ الَّذِي في سُورَةِ (العنكبوت) على أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ قَدْ زَلْزَلَ الْأَرْضَ من تَحْتِ كُفَّارِ قَوْمِ شُعَيْبٍ زِلْزَالاً عظيماً مُدَمِّراً ما عَلَيْها، ومُعَذِّباً الكافرين الَّذِينَ يَسْكُنُونها.

ودَلَّ على أَنَّهُمْ حينما دَخَلُوا في صُبْحِ الْيَوْمِ التَّالي لِيَوْمِ الظُّلَّة كانوا هَالِكِين جَاثِمِين.

﴿جَٰثِمِينَ﴾: أي: لاَصِقِينَ بالأَرْضِ علَىٰ رُكَبِهِمْ وَوُجُوهِهِمْ، ومُلاَزِمِينَ أمْكِنَتَهُمْ هَلْكَىٰ.

● وَأَضاف النَّصُّ الذي جاء في سُورَة (الأعراف) على النصّ الذي جاء في سورة (العنبكوت) بَعْدَ ذِكْرِ العبارة المماثلة للَّتِي في (العنكبوت) قول اللَّهِ عزَّ وَجلّ:

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ﴾: أي: كَأَنْ لَمْ يَسْبِقْ لَهُمْ أَنْ أَقَامُوا في أَرْضِهِم، وَهٰذا يَدُلُّ عن طَرِيق الكِنَايَةِ ولَوازِمِ الأَفكار على استِئْصَالِهِم، وَطَمْسِ كُلّ آثارِهم.

يُقَال لُغَةً: غَنِيَ بالْمَكَان يَغْنَىٰ، أي: أَقامَ فيه، أَوْ طَالَ مُقَامُه فيه.

﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾﴾: جاءَ هَٰذَا البيانُ التعقيبيُّ الرَّبَّانِيُّ، في مُقَابلِ تَهْدِيدِ وَوَعِيد هؤلاَءِ المكذّبين للّذِين آمَنُوا بشُعَيْبٍ عليه السّلام، إذْ قَالُوا لهم: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

﴿كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾: في هذه العبارة قَصْرٌ إضافيٌّ، دَلَّ عليه تعريف طرفي الإسناد.

لَقَدْ خَسِرَ المكذِّبُونَ دُنياهُمْ فكَانُوا جَمِيعاً هَلْكَىٰ، وخَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ في آخِرَتهم، إذْ عَرَّضُوها لعذاب الله، وسوف يكُونُ مصيرُهم إلَىٰ الْخُلُودِ في عذاب الحريقِ بجهنَّم يَوْم الدّين خالِدين فيها مُخَلَّدِين.

● وَدَلَّ النّصّ الذي جاء في سورة (هود) على أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ أَرْسَلَ

علَيْهِم صَيْحَةَ قَدْ تكُونُ مصاحِبَةً للزَّلْزَلة، فأصْبَحُوا في دِيَارِهِمْ جاثِمين، كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها.

ويلاحظ أنَّه جاء في (العنبكوت) وفي (الأعراف): ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ بصيغَة الإفراد لكلمة «دار».

وجاء في سورة (هود): ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ بصيغة الجمع: «دِيَار».

فيحتَمِلُ أنْ تكونَ [في دَارِهِم] بصيغَة الإفراد، تُشِيرُ إلى حاضِرَة أهل مَدْين الكُبْرَىٰ، الَّتِي يَسْكُنُها كُبَرَاءُ كُفَّارِ القَوم، وأَنْ تكُونَ ﴿فِى دِيَٰرِهِمْ﴾ بصيغَةِ الجمع تُشِيرُ إلى جميع أَرْضِ قوم مَدْين في قراهم وَبوادِيهم، وأنَّ هَلاَكَ البعيدين عن الحاضِرَةِ الكُبرَىٰ لبلاَدِهم قد كان بالصَّيْحَةِ الَّتي جاء ذِكْرُها في سورة (هود) والله أعلم.

❃ ❃ ❃

الفصل الثامن

التعقيب الرَّبَّاني على إهلاك قوم شعيب عليه السلام

(١) جاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) قول الله عزّ وجلّ عقب بيان إهلاك كُفَّار قوم شعيب عليه السلام:

● ﴿...أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾﴾:

﴿أَلَا﴾ أداة تَنْبيه، وفيها معنَىٰ التَّوْكيد.

﴿بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾: أي: طرداً لكُفَّار مَدْيَنَ الَّذِينَ أُهلِكُوا، مِنْ مَدَىٰ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي وسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ يَسْتَحِقُّ أن يكُونَ في الوجود شيئاً ينالُهُ قَدْرٌ ما من رحمة الله.

بُعْداً: مَفْعُول مطْلَق لفِعْلِ محذوفٍ وجوباً، وهو على تقدير: أُبْعِدُهم بُعداً، أي: أَطْرُدُهُمْ طرْداً.

[كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ]: تُشْعِرُ هذه العبارة بأنّ كُفَّارَ قَوْم شعيب عليه السّلاَم، كانُوا يُشْبِهُونَ فِي تَكْذِيبِهِمْ وَتَمرُّدِهم وَكثيرٍ مِنْ تَصرُّفَاتهم ثَمُوداً قَوْمَ النبيّ الرسُول صالحٍ عليه السّلام.

يُقَالُ لُغَةً: «بَعُدَ يَبْعُدُ بُعْداً» و«بَعِدَ يَبْعَدُ بَعَداً» ضدُّ قَرُبَ. واستُعْمِل بمعنى «هَلَكَ». ويقولون في الدُّعاء على مَنْ يُرِيدُونَ هَلاَكَهُ: «بُعْداً لَه».

وقد جاء في القرآن استعمال نظير هذه العبارة تعقيباً على إهلاك قوم نوح، وقَوْمِ هُود، وقَوْم صالح، وأقوام مُتَعَدِّدِين أُهْلِكُوا لَمْ تُذْكَرْ أسماؤهم ولا أسماء رسُلِهم.

(٢) وَجاء في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) عَقِبَ بيان إهلاكهم أيضاً:

● ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً﴾: أي: إنّ في ذَلِكَ الَّذِي جَرَىٰ لكفَّار قوم شعيب من الإهلاك الشّامل، لآيَةً وعَلامَةً على سُنَّةِ الله في عباده، في مجاري حكمته وعَدْله.

﴿... وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾: أي: أهْلَكْناهُمْ إهلاكاً عامًّا شامِلاً، لأنّ أكثَرهم لم يكُونُوا مُسْتَعِدّين لأنْ يُؤْمنوا مستقبلاً، مهما أمْهَلْنَاهم.

﴿مُّؤْمِنِينَ﴾: جمع اسم الفاعل «مُؤْمِن» وهُوَ يستَعْمَلُ للحالِ والاستقبال كالمضارع.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾:

[الْعَزِيز]: اسم من أسماء الله الحسنىٰ، والعزيز في اللّغة: القويُّ

الغالِبُ. ومعناه بالنسبة إلى الله جلّ جلاله: الَّذِي لا يعجِزُهُ ممكِنٌ من الممكنَاتِ العقلية، وذكر هذا الاسم من أسماء الله الحسنىٰ يُشيرُ هنا إلى أنَّه تَبَارَكَ وتَعَالَىٰ قَدْ أهْلَكَ قَوْمَ شُعَيْبٍ بعِزَّته، وسَوف يجازيهم يوم الدّين بعزّته على جرائمهم في جهنّم دار تَعْذِيب المجرمين.

وصيغةُ «عزيز» من صِيَغِ المبالغة والتكثير.

[الرَّحِيم]: اسم من أسماء الله الحسنى، أي: ذو الرَّحْمَةِ البالغة مداها الأقصَىٰ، صيغة «رحيم» من صيغ المبالغة والتكثير.

وذكر هذا الاسم من أسماء الله الحسنَىٰ هنا، يُشِيرُ إلى أنّ الله تبارَكَ وتَعَالى سوف يَرْحَمُ يوْمَ الدّين، مَنْ كان لَدَيْه اسْتِعْدادٌ من قَوْمِ شُعَيْب لأنْ يُؤمِنَ فيما لَوْ أُمْهِلَ زمناً آخر، ولكِنْ اقْتَضَتْ حِكْمَةُ الله إهْلاَكَهُ مع المهلِكِين من قَوْمِه، إذْ بَلَغَ الفسادُ في مجْمُوعِهِم الأعْظَم أقْصَاه، وبَعْدَ البعْثِ يُحَاسِبُ اللَّهُ عزّ وجلَّ كلَّ فَرْدٍ مِنهُمْ على مقدار ما في قلْبِه مِنْ شَرٍّ أَوْ خَيْرٍ وإِنْ قَلَّ.

(٣) وَجاء في سورة (التوبة/ ٩ مصحف/ ١١٣) بشأن جُمْلَةٍ مِنَ المهلِكِينَ السابِقِين، ومنهم «أَصْحَابُ مَدْيَنَ» قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾﴾:

أي: إنَّ المهلَكِينَ هُمُ الَّذِينَ جَنَوْا عَلَىٰ أنْفُسِهِمْ، فأصَرُّوا على الكُفر، وعلى أن يَعْمَلُوا مَا يَنْتَهِي بهم إلى العذاب والهلاك، ثمّ إلى العذاب في دار العذاب يوم الدّين، على الرُّغم من كلّ البيانات الكافيات، والتحْذِيراتِ الشديدات لهم.

ولم يُجْرِ اللَّهُ فيهم إلاَّ مقتضىٰ الحكْمَةِ والْعَدْلِ، كَمَنْ أَوْقَدَ ناراً،

وَرَمَىٰ نَفْسَهُ فيها معانداً، وَقَدْ جعل اللَّهُ عزّ وجلَّ من سُنَنِهِ التكوينيَّة أنْ يُحْرِقَ الأجْسَادَ الحيَّة الّتي تَدْخُلُ فِيها، فإنّ اللَّهَ عظُمَتْ قُدْرَتُه، وجَلَّتْ حِكْمَتُهُ يُحْرِقُهُ بنارِهِ الّتِي أَوْقَدَهَا وَقَذَفَ نفْسَهُ فيها.

فالمُهْلَكُونَ والمُعَذَّبُونَ لَمْ يَكُنِ اللَّهُ جلّ جلالُهُ ليَظْلِمَهُمْ شيئاً، ولَكِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ كانُوا يَظْلِمُونَ أنفُسَهُمْ.

❁ ❁ ❁

الفصل التاسع
مَاذا فَعَلَ شُعَيبٌ عليه السّلام بَعْدَ أَنْ أهْلَكَ اللّهُ قَوْمه ونَجّاهُ والّذينَ آمَنُوا معه

جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾:

أي: فانْصَرَف شعيبٌ عليه السّلام مُدْبراً عن ديارِ إهْلاَكِ الَّذِينَ كَفَرُوا من قَوْمه، وربّما كان مَعَهُ في الانصراف الَّذِين آمنُوا به واتَّبَعُوه، ونادى كفّار قَومِهِ وَهُمْ هَالِكُونَ قَائِلاً لهم:

﴿يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي﴾: أي: يا قَوْم لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا كانَ يَنْزِلُ علَيَّ مِنْ صُحُفٍ أو كتابٍ تنزيلاً مُنَجماً، وَمَا كَانَ يُوحَىٰ به إلَيَّ لِأُبلِّغَكُمْ إيّاه مِنْ مَعَانٍ وبيانات، دَلّتْ صيغَةُ الجمع ﴿رِسَٰلَٰتِ﴾ على التَنْزِيلِ المنجّم. واختار أَنْ يُشْعِرُهم بعبارَة: ﴿يَٰقَوْمِ﴾ أَنَّهُ كان يَعْطِفُ عليهم لأنّهم قومه.

﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾: أي: قَدَّمْتُ لَكُمْ مَا فيه خيركم خالصاً من الشوائب، فلَمْ آلُ جَهْداً في نُصْحِي لَكُمْ، لَكِنَّكُمْ لم تَسْتجيبوا لِدَعْوَتي، مع

شدَّةِ حِرْصِي على نجاتِكُمْ، ولم تَعْبَؤُوا بنُصْحِي، بل كَذَّبْتُموني، وكذَّبْتُمْ بما جئتكُمْ به عن رَبِّي، وكَفَرْتُمْ مع عِلْمِكُمْ بأنَّ مَا جئْتِكُمْ به هو الحقُّ مِنْ رَبِّكُمْ.

﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾: أي: فكَيْفَ أَحْزَنُ علَىٰ هَلاَكَ قَوْمٍ كافِرِين، وكَيْفَ أَحْزَنُ من أجْلِهِمْ، إذا نزل بهم عذابُ رَبِّهم المعجّل، وسَوْف يُعَذَّبُونَ عَذاباً خالِداً في جهنّم يوم الدّين بمقتضى حِكْمَةِ اللَّهِ وَعَدْله.

يُقَال لغة: أسِيَ عَلَيْه، وأسِيَ لَهُ يأسَىٰ أسىً، أي: حَزِنَ، فهو «آسٍ، وآسِيٌّ، وَأسْوَانٌ، وَأسْيَانٌ». أصْلُ: «آسَىٰ» أأْسَىٰ.

والمرادُ بالاستفهام عَنِ الكيْفِيَّة، بيانُ أنَّهُ لاَ تُوجَدُ كَيْفِيَّةٌ يَصِحُّ معها أَنْ أحْزَنَ عَلَيْهم، فَقَدِ اخْتَارُوا لأنفسهم بإراداتهم الحرَّةِ أَنْ يَكْفُرُوا بالحقّ، مَعَ عِلْمِهِمْ بأَنَّ مَا جِئْتُهُمْ به هو الحقُّ من رَبّهم، ولَكِنْ غَلَبَتْ شَهَواتُ نفوسهم، وأهْوَاؤهم عُقُولَهُمْ، وإراداتِهم الحرَّة، فاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ علىٰ الْهُدَىٰ، وآثَرُوا المتاع الزائلِ الفاني، على النعيم الخالد الباقي، وجَعَلُوا أعِنَّتَهُمْ بأيْدِي الشياطين، فما نزلَ بهم هو نتيجة اختيارهم وهُمْ عَالِمونَ، فلا يَصِحُّ أَنْ أحْزَنَ عليهم في كيفيَّةٍ من الكيفيَّات.

❃ ❃ ❃

الفصل العاشر
العظة بنبأ إهلاك قوم شعيب عليه السلام

إنّ العظة الّتي تُقَدِّمُها أحداثُ قصّة قَوْمِ شعيب عليه السلام، وما نزل بهم من عذاب وإهلاك شامل، قد جاءت في القرآن المجيد في مُنَاسَبَاتٍ متعدِّدات سَبَقَ بيانُها في مُقَدِّمَةِ هذا الملْحق، فلا حاجة للإعادَة.

والحمد لله على توفيقه وفتحه ومعونته

(٢٣)
الملحق السابع
حول ما جاء في القرآن بشأن سُنَنِ اللّهِ في الأُمَمِ حتى استحقاقها الإهلاك الشامل

أولاً:

مقدمة

أبان الله عزّ وجلّ في القرآن المجيد سُنَنَهُ في عبادِهِ قبل أنْ يُنْزِل عَذَابَهُ الّذي يكونُ بِهِ إهلاكُ الأُمَمِ الكافِرَةِ المجْرِمة الّتي كذَّبَتْ رُسُل رَبِّها، وكذَّبَتْ بِما جَاءُوهم به من عِنْدِه، وظَلَمَتْ وطَغَتْ وبَغَتْ، ونَشَرَتِ الفساد والإفسادَ في الأرض.

وبالتَّتَبُّعِ الإحْصَائِيّ مَعَ التَّأَمُّلِ اكْتَشَفْتُ سُنَناً عشراً، فرأيْتُ أنّ من الْخَيْرِ ذِكْرَها في هذا الملْحَقَ، وعَرْضَ النُّصُوصِ الّتي دَلَّت عليها، مَصْحُوبةً ببعض التدبّر لآياتها وفِقَراتها.

ونظرتُ في النُّصُوص القرآنية الّتِي اشتملَتْ على تطبيقَاتِ هذه السُّنَن، فرأيْتُ أن أَسْتَعْرِضَها مُفَصَّلَةً فِي خَمْسَةِ فُصُول، بحَسَب ما اشتملَتْ عليه من دَلاَلاَتٍ يتلاءَمُ بعضها مع بعض.

ثانياً:

ذكر السُّنَنِ بصورَةٍ مُجْملَةٍ

السُّنَّةُ الأُولَىٰ: أنّ الله عزّ وجلّ قضَتْ حِكْمَتُهُ أَنْ لا يَدَعَ أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ دُونَ أَنْ يَبْعَثَ لَها رسُولاً نبيّاً، يُبَيّنُ لَهَا الغايَةَ من وُجُودها في الحياة الدُّنيا، ودِينَها الَّذِي اصْطَفَاهُ لَها عقِيدَةً وشريعَةً ومِنْهَاجَ سُلُوك، ويُبَشِّرُ مَنْ آمَن وأطاع بالنَّعِيم الخَالد في الجنَّةِ، ويُنْذِرُ من كفر وعصىٰ بعذابٍ أليم يوْمَ الدِّين، في جَهَنَّمَ دار عَذَاب الْمُجْرِمِين.

السُّنَّةُ الثانية: أنْ يَبْعَثَ اللَّهُ الرَّسُولَ في المجَمَّع السَّكنيّ الأُمّ، لكلّ أُمَّةٍ يُرْسِلُ إلَيْهَا رَسُولاً، ويُلْحَقُ به سَائِرُ القُرَىٰ والبوادي التابعَةُ له، والّتي يسْكُنُهَا المنتَمُونَ إلى هٰذِهِ الأمَّة.

السُّنَّةُ الثالثة: أن لا يُهْلِكَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ أُمَّةً كافرةً مُجْرِمَةً إهلاكاً شاملاً مقترناً بتعذِبها، إلاَّ بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ عليها الحجَّة، بَدْءاً بكُبَرَائها والمترفِين فيها، وبَعْدَ أنْ يوجّه لهم الأوامر والنواهي فيتمرَّدُوا عليها، ويَفْسُقُوا خارجين خروجاً كاملاً عن الطَّاعة.

السُّنَّةُ الرَّابعة: أنَّ الله عزّ وجلَّ لا يُهْلِكُ أهل القُرَىٰ ومُلْحقَاتِها إهلاكاً عامًّا شاملاً، إلاّ في حالة كوْنِهم ظالِمين، عالِمينَ بما يجب عليهم تُجاهَ رَبّهم.

السُّنَّة الخامسة: أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ لا يُهْلِكُ أهل القرىٰ وملحقَاتِها، ما دَام فيها من يَسْتَجِيبُون لدعوة الرُّسُل تِباعاً، ويُصْلِحُونَ من أمْرِهم، وَإِنْ قَلُّوا، فَلاَ يُنْزِلُ الله بهم العذابَ المهْلِكَ لهم إهلاكاً شاملاً، حتَّىٰ يَصِلُوا إلى حالةٍ مَيْؤُوسٍ مِنها بوجْهٍ عامّ.

السُّنَّة السادسة: أنّ الله عزّ وجل يُمْهِلُ عباده الظالمين ويُمْلِي لهم، ولاَ يَعْجَلُ بإنْزال العقاب الشَّامِلِ وَالإهلاكِ العامّ فيهم.

السُّنَّةُ السَّابعة: أنّ اللَّهَ عزّ وجلّ يبدأُ مُعَالجةَ الأُمَم قبلَ إهلاكها الشامل، بابتلائها بالبأساء والضَّرَّاء، والمصائِب والمكاره الْجُزْئِيَّةِ، رغبةً في أن يَتَضَرَّعُوا له مُسْتَغفِرين وتائبين، ومُلْتَزِمِينَ بِالتَّدرِيج الْعَمَلَ بما أمرهم به، والابْتِعَادَ عمَّا نَهَاهُمْ عنه.

السُّنَّةُ الثامنة: أن لا يُحَقّقَ اللَّهُ إهلاك أُمَّةٍ إهلاكاً شاملاً، إلاَّ بعْدَ قَدَرٍ وقضاءٍ يُحَدَّدُ فيهما زَمَنُ إهْلاَكِها، وبَعْدَ كِتَابةِ ذَلِكَ، وإعلام ذَوِي الْعَلاَقَةَ بَتَنْفِذِه من الملائكة، ويكُونُ هذا الزّمَنُ أجَلَ بقاء هذه الأمَّةِ في الحياة الدنيا، ويكونُ التَّنفِيذُ فيه تماماً دُونَ سَبْقٍ ودونَ تَأْخير.

السُّنَّةُ التاسعة: غالباً ما يكُونُ إهْلاكُ الأُمَمِ الّتي قَضَىٰ اللّهُ بإهْلاَكها، عنْدَ الصُّبْح، وقد يسْتَمِرُّ حتَّىٰ الإشراق، أو عِنْدَ شُرُوقِ الشَّمْسِ، أوْ يكُونُ بياتاً وهم نائمون، أَوْ في وسَط النَّهار وهم قائِلُون، أو في الضُّحَىٰ وهم يَلْعَبُون.

السُّنَّةُ العاشرة: أنّ الله عزّ وجلّ إذا أَنزَل بأْسَهُ فيمن استحقُّوا الإهلاك، وصَدَر الأمْرُ الرَّبّانيُّ بإهلاكهم، فإنَّهُ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ يأخُذُهُمْ أَخْذاً أليماً شَدِيداً بِسُلْطَانِ القَهْرِ والجَبَرُوت.



ثالثاً:

ذكر عنوانات الفصول التي اشتملت على بياناتِ تطبيقاتِ السُّنَنِ السابقة

الفصل الأول: كيْفَ قابلَتِ الأُمَمُ المهْلَكَةُ دَعوات رسُلِ رَبها.

الفصل الثاني: حَوْلَ تطبيق اللّهِ عزّ وجلّ سُنَّتَهُ في العذاب التأديبي التخويفي قبْلَ الإهلاك الشامل.

الفصل الثالث: حول بيان حالِ الذين كفَرُوا بالرَّسول محمد ﷺ، من أهل مكّةَ وهو فيهم يَدْعُوهم إلى دين الله وصراطه المستقيم.

الفصل الرابع: حول ما جاء في القرآن بشَأْنِ مستقبل الناسِ في مُجَمَّعَاتهم السّكنِيَّةِ وَتَوابِعها.

الفَصْل الخامس: حول تطبيق سُنَّةِ الله عزّ وجَلَّ في إهْلاَك الأمم إهلاكاً شاملاً مقروناً بتعذيبهم، لأنَّهم صارُوا بؤرةَ فسادٍ وإفساد، وأمَّةً ميؤوساً من صَلاَحِها عن طريق إراداتِ أفرادِهَا الحرّة.

❁ ❁ ❁

رابعاً:

شرح سُنَنِ اللَّهِ في الأمم

شرح السُّنَّةُ الأولى:

وهيَ أنَّ اللَّهَ عزّ وجلَّ قَضتْ حِكْمَتُهُ أَنْ لا يَدَعَ أُمَّةً من الْأُمَمِ دُون أَنْ يَبْعَثَ لَهَا رَسُولاً نَبِيًّا، يُبَيِّنُ لَهَا الْغَايَة منْ وجُودهَا في الحياة الدنيا، ودِينَها الّذي اصْطَفَاهُ لَها عقيدَةً وشريعةً ومِنْهَاجَ سُلُوكٍ، ويُبَشِّرُ من آمَن وأطاعَ بالنَّعِيم الخالِدِ في الجنّة، ويُنْذِرُ من كفَرَ وعَصَىٰ بعذابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ الدِّين، في جهنَّمَ دَارِ عَذَابِ المجرِمين.

فما من أُمَّةٍ سَلَفَتْ في تَارِيخِ النّاس، قبْلَ بِعْثَةِ خاتَم المرسلين، إلاَّ بعَثَ اللَّهُ إليها نبيًّا رسُولاً، فأمَرَها بلاغاً من رَبّه بعِبادَة اللَّهِ وحْدَهُ، واجْتِنَابِ الطَّاغوت.

وبَدَهِيٌّ أَنَّ الْأَمْرَ بعِبادَةِ اللَّهِ وحْدَهُ، لا بُدَّ أَنْ يَكُونَ مَسْبُوقاً بِالإيمان بِهِ رَبًّا واحداً لا شريكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِهِ، وبالإيمان بكمال صفاته، ومنْها حكمتُهُ في الخلْق، ومنْها عَدْلُه.

وهذا الإيمان يستَلْزِمُ عَقْلاً التعريفَ بأنَّ اللَّهَ جلَّ جلالُهُ، قد خَلَقَ النَّاسَ ليَبْلُوَهُمْ في ظُرُوفِ الحياة الدنيا، سَرَّائِها وضرَّائها، محْبُوباتها ومَكْروهاتها. ويَسْتَلْزِمُ إعْلاَمَهُمْ بالمطْلُوب مِنْهُمْ في رحْلَة امتحانهم، وإعلامَهُمْ بأنَّهم محاسَبُونَ ومَدِينُونَ ومُجَازَونَ يوم الدِّين.

أمّا الأمْرُ باجْتِنَابِ الطَّاغوت فَهُو يَتَضَمَّنُ النَّهْيَ عن فِعْلِ كلِّ شَرٍّ، وعن فِعْلِ كلِّ مَا يُفْضِي إلى شرّ، ويَتضمَّنُ النَّهْيَ عن اتّباع وَسَاوِسِ المضلِّين من الإنسِ والجنِّ الَّذِينَ يُحاولُون أن يُطْغُوا عباد الله بوسائلهم المضِلَّة.

الطَّاغوت: هو كثير الطغيان والشيطانُ. وكلُّ رأسٍ في الضّلال. وكُلُّ ما عُبِدَ من دُون الله من الأوثَانِ (يَسْتَوِي فيه الواحد وغيرُه، والمذكر والمؤنث) ويجمع على «طواغيت» و«طَواغٍ».

هذه السُّنَّةُ الرَّبّانيّة قد دلَّت عليها عدَّة نصوصٍ في القرآن المجيد.

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) خطاباً لرسُوله محمَّدٍ ﷺ:

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾:

● قرأ جمهور القرّاءِ العشرة: ﴿نَكِيرِ﴾ بحَذْفِ يَاءِ المتكلّم.

وقرأ وَرْشٌ [نَكِيرِي] بإثبات ياء المتكلم في الوصل فقط، وكذلك يعقوب في الوصل وفي الوقف.

والقراءتان وجهان عربيان مستَعْملان.

﴿نَكِيرِ﴾: أي نكيري. **النَّكِيرُ**: يأتي بمعنى الإنكار، ويأتي بمعنى العقاب، وإنكار القادر على المعاقبة والانتقام، يَدُلُّ على عقابِهِ وانتقَامِه، إذا كانت الحكمة تقتضي ذلك.

أي: ﴿إِنَّآ﴾: «بضمير المتكلّم العظيم» أرسَلْنَاكَ يا مُحَمَّدُ بالحقِّ الثابتِ الذي لا يأتيه الباطل من بين يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِه، بَشِيراً لِمَنْ آمَنَ بِكَ وبِمَا أَرسَلْنَاكَ بِه واتَّبَعَكَ، بسَعَادَةِ الدُّنيا الّتي يُلاحَظُ مِنْها طُمَأْنِينَةُ الْقَلْبِ، ورَاحَةُ النَّفْسِ، والأُنْسُ بالله، وبسَعَادَةِ الآخِرَة في جنَّاتِ النعِيم الّتي وعَدَ اللَّهُ المتقين بأنْ يكُونُوا يَوْمَ الدّين خالِدِينَ فيها مُنَعَّمِينَ بغايَةِ مَا يتَمَنَّوْن. ونَذِيراً لمَنْ كَفَرَ وعصَىٰ بِعَذَابٍ يُدْرِكُ الكافِرُونَ الجاحِدُونَ منه قَلَقَ

الْقَلْبِ، وظَمَأَ النَّفسِ، ومَتَاعِبَ الحياة في الدنْيَا، وبِعَذَابٍ في الآخرة في جهنَّمَ الَّتِي أعَدَّهَا الله جلَّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطَانُه، للكافِرِينَ الجاحِدِينَ المجرمين.

● ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: أي: ومَا مِنْ أُمَّةٍ سلَفَتْ في الأزمان الغوابر قبْلَ بعْثَةِ محمّد ﷺ إلاَّ جاءَها رَسُولٌ من ربّها إليها، بَشَّرَها إذا هي آمَنَتْ وأطَاعَت، فلَمَّا كَفَرَتْ وعَصَتْ كَانَ آخِرُ أَمْرِهِ مَعَهَا أنَّهُ كان بالنسْبَةِ إلَيْها نَذِيراً بعَذَابِ الله.

﴿خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾: أي: مضَىٰ وذَهَبَ مَعَ ذَهَابِها نَذِيرٌ كَانَ قَدْ دعاها إلى دين ربّها، وانتهىٰ أمْرُه معها إلَىٰ أَنَّهُ كَانَ بالنسبة إليها نَذِيراً.

● ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾: أي: وإنْ يُكَذِّبْكَ يَا مُحَمَّد مَنْ كَذَّبَكَ مِنْ أُمَّةِ دَعْوَتِك، فَلَسْتَ الْفَرِيدَ مِنْ بَيْنِ الرُّسُلِ بهذا الأَمْرِ، فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِين من قَبْلِهِم رُسُلَ رَبِّهم إليهم، كما كَذَّبَكَ من كذَّبَكَ مِنْ أُمَّةِ دَعْوَتِك، والمعنيّون الأوَّلُون كفَّار مكة ومن حولها.

● ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾﴾: أي: إنَّ الأُمَمَ الَّذِينَ مَضَوْا قَدْ جاءَتْهُمْ أيضا رُسُلُهُمْ بالبيِّنَاتِ، وهي الواضِحَاتُ مِنَ البَيَانَاتِ، وكذلك الْعَلاَمَاتُ والآيَاتُ الدَّالاَّت على صِدْقِ رِسَالاتِهم مِنْ خَوَارِقِ العاداتِ، وجَاءَتْهُمْ بالزُّبُرِ وهي الصُّحُفُ الرَّبَّانِيَّةُ الَّتي فيها شرائع اللَّهِ وَتَعْلِيمَاتُهُ لعباده، وجَاءَتهم بالكتاب المنير، كالكتابِ العظيم الّذي جاء به من وَحْي رَبّه بَعْضُ رُسُلِ الله، مثل التوراة الّذِي جاء به مُوسَىٰ عليه السلام، والإنجيلِ الَّذي جاءَ به عيسَىٰ عليه السّلام.

وظاهِرٌ أَنَّ الْبَيِّنَاتِ والزُّبُرَ والكِتابَ المنير هي على التوزيع بين الرسُل، فبَعْضهم جاءَ من رَبّه بالبيِّنَات، وبعضهم جاء بالزُّبُر، وبعضهم جاء بالكِتَاب المنير.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾: أي: ثم عاقبْتُ الذين كَفَرُوا بِرُسُلِي، وبما جاءُوهُمْ به عَنّي عِقَابَ إهلاكٍ شامل.

فانظُرْ كَيْفَ كان إنكاري (أي: عقابي) لِلْكَفَرَةِ المكَذِّبين المشَاقِّين لرُسُلِي المقاومين لدعواتهم.

إنَّهُ كان عقاباً أليماً مُسْتَأْصِلاً يَجْعَلُ في قُلُوب أوليائي المضطَهَدِين الطُّمأنينَةَ بأنّي سَأَنْصُرُهُمْ كما نَصَرْتُ رُسُلِي والذين آمنوا بهم من قبلهم، ويَجْعلُ فِي قُلُوب ذوي العقلِ والرُّشْدِ من الكافرين الذُّعْرَ من الهلاك والعذاب الذي يُعَرِّضُون أنفُسَهُمْ له، إذا أَصَرُّوا على مَا هم فيه من كُفْرٍ وعنادٍ، وفسادٍ وإفسادٍ في الأرض.

❁ ❁ ❁

النصّ الثاني: قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾:

أي: ولِكُلِّ أُمَّةٍ من الناسِ في قَضَاء اللَّهِ وقَدَرِهِ وتدابيرِه لاخْتِبَارِ الناس في ظُرُوفَ الحياة الدُّنْيا، رَسُولٌ نبيٌّ يبلِّغُهُم عَنّي الغايَةَ من خَلْقِ بني آدَمَ في الأرض، وهي الابتلاء الّذِي يسْتَلْزِمُ المحاسبَة وفَصْلَ الْقَضَاءِ وتَحْقِيقَ الجزاءِ يوْمَ الدِّين، ويُبَلِّغُهُمْ مَطْلُوبَ رَبِّهِم مِنْهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحَانِهم، وما سَوْفَ يُلاقونَهُ من جزاءِ يوم الدِّينِ بالثواب أو بالْعِقَاب، ويُبَيِّنُ لَهُمْ مَا قَدْ يَنْزِلُ بهم في الحياة الدنيا من عذابٍ وإهلاك شامل، إذا أَصَرُّوا على الكُفْرِ وعلَىٰ تكْذِيبِ رُسُلِ رَبّهم وشاقُّوهُمْ وعانَدُوا الحقَّ، ونَشَرُوا الفساد والإفسادَ في الأرض.

فإذا جاءَهُمْ رَسُولُهُمْ، وأدَّىٰ وظائِفَهُ فيهم كما أَمَرَهُ اللَّه رَبُّهُ ورَبُّهُمْ وَرَبُّ كلّ شيء، فآمَنَ بِهِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَسَعَىٰ يَسْلُكُ سبيلَ المتَّقِين، وكَفَرَ

به مَنْ كَفَرَ منهم، وانطَلَقَ يَسْلُكُ سُبُلَ الفُجَّارِ المُجْرِمِينَ، وأصَرَّ هٰؤلاَءِ على عِنادِهم ومُشَاقَّةِ رَسُولِ رَبِّهِمْ، واضطهاد المؤمنين.

عندَئذٍ يُجْرِي اللَّهُ فِيهم سُنَّتَهُ، فيقْضِي بَيْنَ الفريقَيْنِ بالْعَدْلِ، فَيُنْجِي الّذِين آمَنُوا، ويُعَذِّبُ ويُهْلِكُ المكذِّبين.

والَّذِينَ يُهْلِكُهُمْ ويُعَذِّبُهُمْ رَبُّهُمْ، لا يُظْلَمُونَ حين إهلاكِهِمْ بالعذاب شيئاً.

﴿بِٱلْقِسْطِ﴾: أي: بالْعَدْل. **والقِسْطُ**: من المصادر التي يوصف بها «يوصف به الواحد فأكْثَر، والمذكَّر والمؤنث».

❁ ❁ ❁

النّصّ الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

دلّ هذا النَّصُّ على أَنَّهُ ما مِنْ أُمَّةٍ سَلَفَتْ فِي تَاريخ البشَرِيَّةِ قبْلَ أُمَّةِ دَعْوَةِ مُحمَّدٍ ﷺ، وهُمُ النَّاسُ أجْمَعُونَ بَعْدَ بِعْثَتِه، إلاَّ بَعَثَ اللَّهُ بعظَمَةِ رُبُوبِيّتِه فيها رَسُولاً:

- فأمَرَ أُمَّتَهُ بعبادة الله، وأمَرَهُمْ بكلّ ما لا بُدَّ منه لتقحيقِ عبادَةِ اللَّهِ علىٰ مُراد اللَّهِ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سلطانه فيما شَرَع لهم واصْطَفَى من الدّين.
- وأَمَرَهُمْ باجْتِنَابِ الطَّاغوتِ، وبكلّ ما يَلْزَمُ لتحقيق هذا الاجْتِنَاب.

الطَّاغُوت: هو الشيطانُ من الجنّ والإنسِ، وكُلُّ رأسٍ في الضلال، وكلُّ ما عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأوثان، وكلُّ من يُطْغِي وَيُبْعِدُ عن

صراط الله، وكلُّ ما يُطْغي من مُحَسّ وغَيْر مُحَسّ، حتَّىٰ الأفْكارُ والأهواء والشهوات والأَوْهام والْخُرَافات.

«أَنْ» في عبارة: ﴿أَنِ اعْبُدُواْ﴾ مصْدَرِيَّة، والتقدير: ولَقَدْ بَعَثْنَا في كلّ أُمَّةٍ رَسُولاً بِأَنِ اعْبُدُوا الله واجْتَنِبُوا الطَّاغوت، أو تَفْسيرِيَّة، لأنَّ في العبارة قَبلَها معْنَىٰ التكْلِيفِ أَنْ يقول لقومه، دون حُروف القول.

فماذَا كان واقِعُ حَالِ الأُمَمِ تُجاهَ دَعَواتِ رُسُلِ رَبِّهِمْ إليهم؟:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾: أي: فَمِنْهُم من حَكَمَ اللَّهُ لَهُم بالهدايَة، إِذِ اسْتَجابُوا لَدَعَوات رُسُلِ رَبّهم باختيارِهم الحرّ، فآمَنُوا باللَّهِ وبِرَسُوله إليهم وبسائر رسُلِهِ، كُلٌّ على قَدْرِه، وعَبَدُوا اللَّهَ قَلِيلاً أو كَثِيراً، كُلٌّ على الْقَدْرِ الَّذِي اتَّجهتْ له إرادتُه الحرَّةُ وعَزِيمَتُهُ.

وهؤلاَءِ هُمُ الْعَدَدُ القليلُ بحَسَب واقع أحوال الناس.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾: أي: ومِنْهُمْ مَنْ ثَبَتَتْ عَلَيْهِ الضَّلاَلَةُ، إذ سَلَكَ سبُلَ الضَّلالَة باختياره الحرّ، فحكَمَ اللَّهُ عليه بالضّلالة.

وإذْ قاوَمَ هؤلاءِ رُسُلَ رَبّهم والَّذِين آمَنُوا بهم، ووقَفُوا منهم مواقف العداء والشِّقاق واسْتِخْدام الْقُوَّةِ لِلْقَمْع، فقد اسْتَحقُّوا أنْ يُعَاقبهم الله بالعذاب والإهلاك الشامل، انتصاراً لِرُسُله وللّذين آمنوا بهم واتَّبَعُوهم، فحقَّتْ عليهم عقوباتُ ضلالَتِهم، فعَذَّبَهُمْ وأهلكهم بذنوبهم، وأبْقَىٰ بعض آثارهم في الأرْضِ آياتٍ عَلَى ما جَرَىٰ لهم، رغْبَةً في أنْ يتعظ بها مَنْ شاء من الأمم الّتي تكون خَلائِفَ من بَعْدِهم.

﴿... فَسِيرُواْ فِي الْأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾:

هذا أَمْرٌ لِكلّ الّذِينَ يَرْغُبون في معرفة عاقبة مكذّبي رُسُل رَبّهم من أهل القرونِ السالفة، ومعرفةِ كيْفَ أهلكهم الله إهلاكاً شَامِلاً مَقْرُوناً بِتعذيب، فَدَمَّرَ عليهم دِيَارَهُمْ، واسْتَأْصَلَ شأفَتَهُمْ، وقطَعَ دَابِرَهم.

❁ ❁ ❁

شرح السُّنَّةِ الثانية:

وهي أن يَبْعَثَ اللَّهُ عزّ وجلّ الرّسُولَ في المجمّع السّكَنِيِّ الأُمّ، لكُلِّ أمَّةٍ يُرْسِلُ إلَيْهَا رَسُولاً، ويُلْحَقُ بِهِ سَائِرُ الْقُرَىٰ والبوادي التابعَةُ له، والّتي يسْكُنُهَا المنتَمُونَ إلَىٰ هٰذِهِ الأُمَّة.

وقد أطلق الله عزّ وجلّ على كلّ مجمَّعٍ سَكَنِيٍّ اسْمَ قَرْيَةَ، ولو كانت مدينةً عظمى، لأنّ معنَىٰ الْقَرْيَةِ في اللّسَانِ العربيّ كذلك.

قال ابْنُ سِيدَة: الْقَرْيَةُ والْقِرْيَة، المِصْرُ الجامع.

أقول: أمّا تخصيصُ الْقَرْيَةِ بالمجمَّعَاتِ السكنيّة الصغرىٰ، بخلاف الكُبْرَىٰ، إذْ يُطْلَقُ على الواحدة منها اسْمُ مَدِينَة، فَهُوَ عُرْفٌ اصطلاحيٌّ متأخّر.

وأمُّ الْقُرَىٰ: هي مكة المكَرَّمة، إمَّا لأنَّها أوّلُ مَا بُنِيَ في الأَرْضِ من أبنية، إذْ فيها أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لعبادة الله. وإمَّا لأَنَّ أهْلَ الْقُرَىٰ يَحُجُّوْنَ إلَيْها فَيَؤُمُّونَها.

دلَّ علىٰ هذه السُّنَّة قول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الْقَصَص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَاۚ . . . ﴿٥٩﴾﴾:

● قرأ حَمْزَةُ والكِسَائي في الوصل ﴿إمِّهَا﴾ بِكَسْرِ الهمزة، وهي لُغَةٌ عَرَبِيَّة.

وقرأ باقي الْقُرَّاءِ العشَرَةِ [**أُمِّهَا**] بضمّ الهمزة.

﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾: أي: حتَّىٰ يَبْعَثَ رَسُولاً في الْقَرْيَةِ الَّتي هي بمثابَة الأُمّ، لِسَائِرِ قُرَىٰ الأُمَّةِ وَمُلْحَقَاتِها، وتكونُ هذه في العادة من

كُبْراها، ومَرْكَزَ سلطاتِها الإداريَّة، وكثيرٌ مِنْ أفرادِ هذه الأمَّةِ يَؤُمُّونَها لقضاء كثيرٍ من مصالحهم الحياتيَّة، وتجْتَمِعُ فيها غالباً معظمُ المصالِحِ الاقتصادية وغَيْرِها، وتُسَمَّىٰ في لُغَة عُصُورِنا «العاصِمَة».

وهذا الرَّسُولُ النبيُّ يُبَلِّغُ الأُمَّة مَا أَمَرَهُ الله بتبليغهم إيّاه، وهي قضايا دينِهم، وواجِبَاتِهم تُجاه ربّهم.

﴿يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِنَا﴾: هٰذِهِ الْعِبَارة تَدُلُّ على أنَّهُ ما من رسُولٍ أَرْسَلَهُ اللَّهُ، إلاَّ كَانَ قَدْ تَلَقَّىٰ مِنْ رَبِّهِ آيَاتٍ مِنَ البيَانِ مُنَزَّلاَتٍ عليه، وهو مُكَلَّفٌ أَنْ يتْلُوَها عليهم، ويُبَلِّغَهُمْ إيَّاها، سَواءٌ أكانت بمقْدَارِ صُحُفٍ ذَوَاتِ عَدَدٍ غير كثير، أو زُبُراً ذاتَ شَأن، أو كُتُباً عُظْمَىٰ، كالتوراةِ والإنجيل والقرآن.



شرح السُّنَّة الثالثة:

وهي أن لا يُهْلِكَ اللَّهُ عزّ وجلّ أُمَّة كافِرَةً مُجْرِمَةً إهْلاَكاً شاملاً مُقْتَرِناً بِتَعْذِيبها إلاَّ بَعْدَ أَنْ يُقِيمَ عليها الحجَّة، بدءاً بكُبَرائها والمتْرَفِينَ فيها، وبعد أن يوجّه لَهُمُ الأوامِرَ والنواهي، فيتَمَرَّدُوا عليها، ويَفْسُقُوا خارجين خُرُوجاً كاملاً عن الطاعة.

دلَّ على إقامة الحجّة عليها قَبْلَ إهلاكها ببيانات الرُّسُل قول الله عزّ وجلَّ في سُورَة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾:

(مِنْ) في ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ حرف جرٍّ زيد للتنصيص على العموم، و«قرية» مفعول به منصوب محلاً.

أي: وما سَبَق أن أهلكْنا مِنْ أهْل قَرْيَةٍ من القرون السَّابقة، إلاَّ في

حالَةِ كونها لها مُنْذِرُونَ أَنْذَرُوهُمْ عذاب رَبِّهم على كفرهم وجرائمهم وإفسادهم في الأرض.

وهؤلاء المنذِرُون هُمْ رسُلٌ، أَوْ أنبياءُ متَّبِعُون رِسَالاَتِ رُسُلٍ، أو دُعَاةٌ مُبَلِّغُونَ دَعَوَاتِ الرُّسُلِ الَّذِينَ آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم.

وهذا الإهلاك الذي يُجْريه الله هو ذِكْرَىٰ، أي: يَجْعَلُه لِلأُمَمِ اللاَّحقة، حقيقةً يَضَعُونَها في ذاكراتهم، ليتَّعِظوا بها إنْ شاءوا.

وهذا الإهلاك لا يكونُ بحِكْمةِ اللَّهِ إلاَّ تحقيقاً للعدْلِ، فلا ظُلْمَ فيه ﴿وَمَا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴾.

الذكْرَىٰ: اسْمٌ للتذكير، ويكُونُ بمعنَىٰ التذكُّر، ويأتي اسماً للتَّذْكِرَة، وهي الوسيلة الّتي تُذَكِّرُ، كالْبطاقة.

ودلَّ على إقَامَةِ الحجَّةِ عَلَيْها قبْلَ تَعْذِيبها قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل في (سورة الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾:

يتحدّث رَبُّنا جلّ جلالُهُ بِضَمِير المتكلّم العظيم إشارة إلى كمالِ صفاته ومنها حكْمَتُه.

أي: وَمَا مِنْ شأنِنا دَواماً أَنْ نَكُونَ مُعَذِّبين الأُمَمَ الكافِرَةَ المستحِقَّةَ للتَّعْذِيبِ الشَّامل، عذاباً مُعَجَّلاً في الدُّنيا مقروناً بإهلاكٍ شاملٍ، حتَّىٰ نَبْعث فيهم رسُولاً يُبَلِّغُهُمْ مَا يَجب عليهم تُجاه ربّهم من إيمانٍ وعَمَلٍ، في رِحْلَةِ امْتِحَانهم، ونقيمَ الحجَّةَ عليهم.

ويَكْفِي أَنْ تَبْلُغَهُمْ دَعْوَةُ الرَّسُولِ علىٰ أَلْسِنَةِ الدُّعَاةِ مِنْ أُمَّتِهِ، أو تَبْلُغَهُمْ قَضَايَا الدِّين عن طريق قراءةِ كِتَابِ اللَّهِ الصحيح الثابت المنَزَّلِ لعباده، أو

معرفةِ ما جاء فيه بأيَّةِ وسِيلَة، وهُمْ مَسْؤُولُون عن البحث لمعرفة دين الله الحقّ الذي يُطَالِبُ الله به عباده الممتَحَنِين.

ودلَّ على الْبَدْءِ بكُبَرَاءِ الأمَّةِ والمتْرَفِين فِيها، قولُ اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُواْ فِيهَاۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

تمهيد:

خلَقَ اللَّهُ النَّاسَ مُتَفَاضِلين في هِبَاتِهم الفكريَّةِ والنفسيَّةِ والْجَسَدِيَّة، لتَتَوزَّعَ بَيْنَ أَفْرَادِهِم مُهِمَّاتُ الْمُجْتَمِع البشري، فيكُونَ منْهُمْ عمَّالٌ، وصُنَّاعٌ، وزُرَّاعٌ، وأصْحَابُ مِهَنٍ وحِرَف، وتُجَّارٌ، ومفكِّرُونَ، ومُتَعَلِّمُونَ، ولِيَبْرُز فيهم قَادَةٌ يُدِيرُونَ كُبْرَيَات شُؤُونِ المجتمع.

والْقَادَةُ يكُونُونَ في سُنَنِ الاجْتِمَاعِ الْبَشَرِيِّ هُمُ الكُبراءَ في أَقْوَامِهِمْ ومُجْتَمِعَاتِهِم، ويكُونُونَ هُمُ الَّذِينَ تُسْنَدُ إِلَيْهِم الرِّيَاسَاتَ، وَيُرْجَعُ إِلَيْهِمْ في الشُّؤُونِ العامَّة، وتَكُونُ الجماهير تَبَعاً لَهُمْ، يَبْذُلُونَ لَهُمُ الْوَلاَءَ والطَّاعَةَ والانقِيَاد.

وهؤلاء القادةُ تتكَوَّن لهم في مجتَمِعِهِمْ مصالحُ نَفْسِيَّةٌ ومَادِّيَّةٌ يَحْرِصُونَ على أن لا يُنَازِعَهُمْ عَلَيْها مُنَازِع، ولا يُشَارِكَهُمْ فيها مُشارك.

فإذَا كانَتْ للمجتمع مبادىء وعقَائِدُ وَتَقَالِيدُ وعاداتٌ تَرْتَبِطُ بِهَا مصالحُ كُبَرَاءِ الْقَوْم وَقَادَتِهم، فإنَّهُمْ يكُونُون في العادَة هُمُ الأعداء الطبيعيّين لِمَنْ يُرِيدُونَ تغْيِيرَها، إذْ يَرَوْنَ أَنَّ مَنْ يُحَاوِلُ تَغْيِيرَهَا يُرِيدُ أَنْ يَنْتَزِعَ مِنْهُمْ مَنَاصِبَهُمُ الاجْتِمَاعِيَّة، ويَسْلُبَهُمْ سُلْطَانهم ومصالِحَهُمُ المادّيَّة.

وتَبْرُزُ في كلّ مجتمع مُعْتَقَداتٌ ومفهوماتٌ باطلات، وأنواعٌ من التقالِيد الّتي لا خير فيها، وأنواعٌ من السُّلُوك الفاسد، الَّتي ترتَبِطُ بِها مصالحُ كُبَرَاءِ الْقَومِ القياديَّة، والسُّلْطَانِيَّة، والنَّفْعِيَّة، وهي في الْغَالِبِ تُرْضِي الأهواءَ والشهواتِ والأنانيّاتِ الفرديَّة، وتَقُومُ على الظُّلْم والْعُدْوان والإفْسَادِ في الأرْض.

فيبعثُ اللَّهُ الرُّسُلَ لإعلام النَّاسِ بالغاية من خَلْقِهِم في ظروفِ الحياة الدنيا، وإعْلامِهِم بمَطْلُوب الله منهم في رحلة امتحانهم، وبالغاية المعدَّةِ لهم يَوْمَ الدّين، بَعْدَ الحسابِ وفَصْلِ القضاء.

وهؤلاء الرُّسُلُ يأمُرُونَ أقوامَهُمْ بالإيمان بالحقّ الّذي قامَتْ عليه الرِّسالاَت الرَّبَّانِيَّةُ كُلُّها، وبعبادة الله وحدَهُ لا شريك له، ويَنْهَوْنَهُمْ عن ارتكاب ما يُسْخِطُ الله مِنْ عباده، من فِسْقٍ وظُلْمٍ وإفْسَادٍ في الأرْض، وعُدْوانٍ وطُغْيَان.

فيقفُ كُبراءُ الْقَوْم في وُجُوههم مُعَارِضين ومُنْكِرين لمَا جاءوا به عن رَبّهم، ثُمَّ يَكُونُونَ مُعَادِينَ لهم، ثُمَّ يُعِدُّونَ ما يَلْزَمُ لإيقافِ دعْوَتِهِمْ بالْقُوَّةِ، وقَمْعِ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم.

ويُسانِدُ هٰؤلاءِ القادَة الكبراءَ الْجُمْهُورُ الأعْظَمُ من قومِهِمْ، لأنَّهُمْ يَرَوْنَ أَنَّ مصالِحَهُمْ وَمَا اعْتَادُوهُ في حياتهم، ممَّا يُرْضي أهواءَهُمْ وشهَواتِهم وأَنَانِيَّاتِهِمْ، مُرْتَبِطَةٌ بمُنَاصَرَةِ قَادَتِهِمْ التَّقْلِيدِيّين من قومهم.

ويكُونُ لِلْقَادَةِ في أقوامِهِمْ بحَسَبِ مَا أُوتُوا من ذَكاءٍ وحِيلَةٍ، وقُدْراتٍ سلطانية، أنواعٌ من المكْرِ الكبير بجماهيرِ أتْباعهم، لإحْكامِ رَبْطِهِمْ بهم، وأنواعٌ أخْرَى كثيرة من المكر الشَّدِيد ضدَّ الرُّسُل وضِدَّ مَا جَاءُوا به عن رَبّهم، وضدَّ كُلّ ما اشْتَملَتْ عليه دَعْوتُهم، وضِدَّ أتباعِهِم الَّذِين آمَنُوا بهم من قَوْمهم واتَّبَعُوهم.

التدبّر:

● ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾:

دلَّت سوابقُ هذا النَّصّ من سورة (الأنعام) على أوضاعٍ تكوينيَّةٍ تَمَّ بها نظامُ الخلْق العامّ، وما جاء في هذا النصّ معطوفٌ عليها.

أي: وكذلِكَ الوضعِ التكوينيّ الّذي تَمَّ به نِظَامُ الْخَلْقِ العامّ، والَّذي يَتّبعُ فيه المؤمِنُونَ مَا يَرَوْنَ من حَقٍّ وَخَيْرٍ وفَضِيلَةٍ بإراداتِهمُ الحرَّة، ويَتَّبعُ فيه الَّذِينَ كَفَرُوا أَهْوَاءَهُمْ وشهواتهم وَمَا يُزَيّنُ لهم الطَّاغوتُ من جرائم في الحياة الدنيا، مع أنَّ كِلاَ الْفَرِيقَيْنِ يَتَعَرَّضَانِ لِلْمُرَغباتِ في سَبِيلِ الْهُدَىٰ، ولِلْبَهَارِجِ والزِّينَاتِ في سُبُلِ الضَّلَالِ بِنِسْبَةٍ سواء.

كذَلِكَ الوضعِ التكوينيّ جَعَلْنا أيضاً في نظام الخلْقِ العامّ أَنْ يُوجَدَ في كُلِّ مجتَمِعٍ بَشَرِيٍّ فَرِيقٌ هُمُ القيادِيُّون، بما يُوهَبُونَ من خَصَائِصَ فِكْرِيَّةٍ وَنَفْسِيَّة، تُؤَهِّلُهُمْ لِأَنْ يَكُونُوا أكابِرَ في أقوامهم، وقادَةً تَتَهَيَّأُ لَهُمْ بِسَبَبِ قيادتهم مصالح نفسيَّةٌ سُلْطَانِيَّة، ومَصَالِحُ أُخْرَىٰ تُرْضِي أهواءَهُمْ وشهَواتِهم، وَمَصَالِحُ مادِّيَّةٌ مختلفة.

وهُمْ في الغالِب لا يَسْتَطِيعُونَ تحقيقَ مطامعهم الشَّرِهَةِ، إلاَّ بوسائل إجْرَامِيَّةٍ ظاهِرَةٍ أَوْ خَفِيَّة.

فإذا بَعَثَ اللَّهُ رُسُلَهُ، وبَدَؤُوا بتَبْلِيغ أَوامِرِ اللَّهِ وَنَواهِيهِ أَكَابِرَ أَقْوامِهِم، كان من أَمْرِ هؤلاء الكُبَراء أَنْ يَمْكُرُوا بِرُسُلِ الله مَكْرا كُبَّاراً، ليمنَعُوا رسالاتِهم من أَنْ يكُونَ لها انْتشَارٌ في أقْوامِهِم، بغْيَةَ المحافَظَةِ على مصالحهم ومَنَافِعِهِمْ ومطامِعِهم الواسعة الإجْرَامِيَّةِ في أقوامهم، وبُغْيَةَ المحافظة على زَعاماتِهِمْ لهم، وربْطِهِمْ بهم تابعينَ مُنْقَادِين.

اللاّم في ﴿لِيَمْكُرُوا۟﴾ ليْسَتْ لاَمَ التَّعْلِيل، إنَّما هي لام العاقِبَةِ كما يَقُولُ النُّحَاة. **المكر**: تَدْبيرُ أَمْرٍ في خَفاء، ويكُونُ في الخير ويكونُ في الشرّ.

إنّ الحكمة التكوينيَّةَ قَضَتْ تَنظِيمَ حَالِ المجتمع البشري، وامْتِحَانَ الناس بِحَسَبِ مَوَاهِبِهم وخَصَائِصهم، وبحسَبِ مكاناتِهم في مجتمعاتهم، فاستغلّ القادَة من أكابر الأقوام ما لديهم من هِبَاتٍ في الإجْرَام، في معادات دعوات رُسُل رَبّهم، كما يَسْتَغِلُّ صاحِبُ المالِ الواسِعِ مالَهُ في الْفُجُورِ والْإِثم ومَعْصِيَةِ اللّهِ ورَسُوله، وكما يَسْتَغِلُّ أصْحابُ القُوىٰ الجسدِيَّةِ أجْسَادَهُمْ في السَّطْوِ على بَعْضِ عبادِ الله الضُّعَفاء، وكما يَسْتِغلُّ أصْحَابُ الحيلَةِ قُدْرَاتهم في الحيلَةِ، لتحقيق مصالحَ لَهُمْ قَائِمَةٍ على الْعُدْوانِ والظُّلْم، وهكذا إلى سائر الخصائص الفِطْرِيَّة.

مع أنَّ أصحاب الفِطَرِ المتميّزَةِ قَدْ مُنِحُوا فِطَرَهُم لِيَبْلُوهُمُ اللّهُ بِها، وباستطاعَتِهِم أنْ يَفْعَلُوا فيها الْخَيْر والشَّرَّ، والصَّلاح والفسادَ، والطاعَةَ والمعصية، وأنْ تكون وسيلَتَهُمْ للمَرَاتِب الْعَلِيَّةِ في جَنَّاتِ النعيم، وأنْ تكون وسِيلَتَهُمْ للانحِطَاط إلى الدركات السُّفْلَىٰ من دَرَكَاتِ الجحيم.

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾:

أي: إنَّهُمْ حينما يَسْتَعْمِلُونَ هِبَاتهم الّتي مَيَّزَهُمُ اللّهُ بها، فيما يَسْتَطِيعون من مَكْرٍ بُغْيَة قَمْعِ دَعَوَاتِ رُسُلِ الله، ومُعَادَاتِ رسالاتهم، واضْطِهَادِ أتباعهم، فإنَّهُمْ في الحقيقة يَمْكُرون بأنفسهم، لِأَنَّهُمْ بمثابَةِ مَنْ يَثْقُبُ في ظُلُمَاتِ اللَّيلِ الجدار، لِيَسْرِقَ ما في الدّار، حتَّىٰ إذا كادَ أنْ يَدْخُلَ وَيَظْفَرَ بِمَا يُرِيد أُسْقِطَ علَيْه الجدار الّذي نَقَبَهُ أو صَخْرَةٌ عظيمَةٌ منْهُ فَقَتَلَتْه، أَوْ أَطْبَقَ عليه الْفَخُّ الموضوعُ وَرَاءَ النَّقْبِ الَّذِي يَنْقُبُه، فَنَشِبَتْ به مخالِبُهُ.

إنَّهم يَمْكُرُونَ مُتَرَقِّبِينَ الظَّفَرَ، وتُسَهَّلُ لَهُمُ المقدَّمَاتُ وهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ بما يَتَرَصَّدُهم من ضَرْبَةٍ، أَوْ عَذَابٍ أَلِيم، وبَيْنَما هُمْ مُبْتَهِجُون بِقُرْب الظفَرَ، إذا بِهِمْ يُفَاجَؤُونَ بما لم يكونوا يَتَوَقَّعُونَ، فَيَنْزِلُ بِهِمْ عِقَابُ اللّهِ وَعَذَابه.

- ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِيَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾:

دلَّت هَٰذِه الفِقْرَةُ علىٰ أنَّ وَضعَ هٰؤلاَءِ الكُبراءِ القياديَّ في مجْتَمَعِهم، قَدْ نَفَخَ في نفوسِهِم وَصُدُورِهمُ الكِبْرَ، فجعَلَهُمْ يسْتَكْبرُون عَنِ اتّباعِ رُسُلِ الله، معَ إقامَةِ الحجَّةِ علَيْهم بآيَةٍ من آياتِ اللَّهِ المعْجِزاتِ المقْنِعَاتِ بأنَّ الرَّسُولَ الَّذِي يُبلِّغُهُمْ عن ربّهِ هو رسُولُ اللَّهِ حَقًّا وصِدْقاً.

وَيَرىٰ هؤلاء الكبراء أنَّهُمْ مُؤهَّلُونَ لأنْ يُوحِي اللَّهُ إلَيْهم، كما أَوْحَىٰ إلى رُسُلِه، وَأَنْ تَنْزِلَ علَيْهِمُ الملائكة بالوحي كما أَنْزَلَهَا اللَّهُ على رُسُلِه، وَغَرَضُهُمْ أَنْ يُحَافِظُوا على مَنَاصِبِهم الاجْتماعِيَّةِ في أقوامهم.

فيكابِرُونَ بالْبَاطِل، ويُعَانِدُونَ الحقَّ، ويَقُولون: لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ الله، مَعَ أَنَّهُمْ في الحقيقة لَيْسُوا مُؤَهَّلِينَ للاصطفاء بالنُّبُوَّةِ والرِّسَالة، فالله جلّ جلاله عليم حكيم، إنَّما يَجْعَلُ رِسَالَتَه حَيْثُ يَجِدُ في عَبْدِهِ الأَهْلِيَّةَ التَّامَّة لحَمْلِهَا، والْقِيَامِ بوظائِفِها وَأَعْبَائِها.

● ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾:

أي: إنَّ الاصْطِفَاءَ بِالْوَحْي والنُّبُوَّةِ، والاصْطِفَاءَ بالرِّسالة، لاَ يكُونُ على وفْق تَشَهِّيَاتِ الناس، ومَا يَتَصَوَّرُون في أَنْفُسِهِمْ أو يَتَمَنَّوْنَه، إنّما يكون ذَلِكَ مبنيًّا على عِلْمِ الله بِعَبْدِه، هَلْ هو مُؤَهَّلٌ أَمْ لا؟ هَلْ يَصْلُحُ للنُّبُوَّةِ والرِّسَالة أم لاَ يَصْلُحُ؟.

ولَيْسَ كلُّ مَنْ يُمْكِنُ أن يكون مُؤَهَّلاً للنُّبُوَّةِ يصْطَفِيه اللَّهُ بها، ولَيْسَ كُلُّ من يُمْكِنُ أَنْ يكُونَ مؤهَّلاً للرِّسَالَةِ يَصْطفِيهِ اللَّهُ بها. إنَّهُ جلَّ جلاله عليم حكيم.

● ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا كَانُواْ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾:

أبانت هذه الفقرة عُقُوبَةَ هَؤُلاَءِ المستَكْبِرِينَ عِنْدَ رَبّهم، جزاء مَكْرِهِمْ بِرُسُلِ اللَّهِ وبرسالاته، وإِذْ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ مُؤَهَّلُونَ للاصْطفاءِ بالنبوّة والرِّسالة،

مغتَرّينَ بأنَّهمْ أكابِرُ أقوامهم، فيَفرِضُون على رَبّهم أَنْ يُؤْتِيَهُمْ مِثْلَ ما آتىٰ رُسُلَه، حتّىٰ يُؤْمِنُوا بما هو مطلوبٌ منهم أنْ يُؤْمِنُوا به، وجزاءَ ما يقْتَرِفُونه مِنْ جرائم ليُحَافِظوا على مناصِبِهم الاجْتماعيَّة، ومصالحهم النفسيَّة والمادّية.

أمّا الصَّغَارُ الذي سَيُصِيبُهُمْ فهو العقوبةُ المناسِبَةُ لحالة اسْتِكْبارِهم علىٰ آيَاتِ الله وعلى رسُلِهِ.

وأمّا العذاب الشّديدُ فَهُوَ العقوبةُ الملائمة لجُحُودِهم الحقّ، ولكُفْرِهم، ولجرائمهم الكثيرة الّتي كانُوا يُمَارِسُونها.

ودَلّ على الْبَدْءِ بِكُبَرَاءِ الْأُمَّةِ والمترفين فيها مَعَ التَّنْبيه علىٰ كونِهمْ مُتْرَفين، إذْ يُلْحَقُ بِكُبَرَاءِ الْقَوْمِ المتْرَفُونَ فِيهم، ولَوْ لم يَكونُوا أصْحَابَ سُلطةٍ إداريَّة، قول اللّهِ عَزَّ وجَلّ في سورة (الإسْراءِ/ ١٧ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾:

أي: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾ تَسْتَحِقُّ الْإِهْلاَكَ لغُلُوّها في كُفْرِهَا، وإسْرَافِها في الظُّلْمِ والطغيان، والإثم والبغي والعدوان، والإفساد في الأرض.

أُطْلِق لفظ قَرْية والمرادُ أَهْلُها، وهَـٰذا من المجاز المرسَل، كَما هو معروف عند علماء البلاغة، ونظائر هذا الإطلاق كثيرةٌ جدًّا في القرآن المجيد.

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ أي: أرسَلْنا إليها رَسُولاً أو أكثر، ومَعَهُ مَنْ آمَنَ به واتَّبَعَهُ، وحَمَلَ مَعَهُ رسَالَة الدَّعْوَةِ إلى دينِ الله، فبَدَؤُوا بتبليغ مُتْرَفيها دِينَ الله لِعِبَادِهِ، وأوامِرَهُ ونواهِيه، وسَائرَ وصَايَاه، وأمْرُ الله لاَ يكُونُ إلاّ بالخير، فلا يكُونُ بِالفحشاء والمنكر والبغي والشرّ.

المتْرَفُون: هم الّذِينَ وَسَّعَ اللّهُ عليهم في الرّزْقِ والمال، فكانوا من ذوي الاسْتِمتَاع الزّائدِ بلَذّتِ الحياة الدنيا، وبمطالبِ نفوسهم من زيناتِها، ورُبّما جعَلَهُمْ ذلِكَ مِنَ المسْتَكْبِرين الْبَطِرين.

وَهَٰؤُلاء يَكُونُونَ في مُعْتَادِ الشُّعُوب الخارجَةِ عن العمل بِمِنْهاج رَبِّها، هُمْ الكُبَرَاءَ أَصْحابَ السُّلْطَةِ الإدارِيّة، أو الْهَالَةَ الاجْتِمَاعِيَّة المحيطَةَ بِهِم، ولو لم يكُونوا ذَوي سُلْطَةٍ إداريّة مُبَاشِرَة.

يُقَال لُغَةً: أُترِفَ فُلاَنٌ، أيْ: وُسِّعَ عَلَيْهِ في الرزْقِ والمال، فكان بذلِكَ من المنَعَّمِين. وَيُقال: أَتْرَفَتِ النّعْمَةُ فُلاَناً، أي: أَبْطَرَتْهُ فجعلَتْهُ من المستكْبرين.

ويكُونُ بَدْءُ تَوْجِيهِ أوامِرِ اللّهِ للمُتْرَفِين، وهُمُ الكُبَراء والْهَالَةُ الاجْتِماعيَّةُ المحيطَةُ بهم، باعتبارهم وجُوهَ الْقَوْمِ وقَادَتَهُمْ، ومِنْ وَرائهم أتباعُهُمْ الموالُون لهم من قومهم، وهم السّوادُ الأعظم.

فالمقْصُودُ تَبْلِيغُ أَمْرِ اللّهِ لجميعِ الأمَّةِ متْبُوعِينَ وأتباعاً.

﴿فَفَسَقُوا۟ فِيهَا﴾: أي: فَخَرَجُوا عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ اللّهِ في قَرْيَتِهِمْ، متْبُوعِينَ مُتْرَفِينَ، وجماهِيرَ تابِعِينَ لَهُمْ غَيْرَ مُتْرَفين.

الْفِسْقُ: هُو العِصْيَانُ والْخُرُوج عَنْ طَاعَةِ أَمْرِ مَنْ تَجِبُ طَاعَتُه. يُقَالُ لغةً: فَسَقَ يَفْسُقُ وَيَفْسِقُ فِسْقاً وفُسُوقاً.

وَهُوَ مصطَلَحٌ إسْلاَمِيٌّ مأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِ الْعَرَب: فَسَقَتِ الرُّطَبَةُ، إذا خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِها، ومَعْلُومٌ أَنَّ الرُّطَبَةَ مَتَىٰ خَرَجَتْ مِنْ قِشْرَتِها تَعَرَّضَتْ للفَسَادِ السَّرِيع.

ودَرَكَةُ الْفِسْقِ المرادِ في هذا النّصّ هي دَرَكَةُ الكُفْرِ ومَا يَجْتَمِعُ معه ويَنْتُجُ عَنْهُ، من فُجُورٍ وبَغْيٍ وجَرَائِمَ كثيرة.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ﴾: أي: فَثَبَتَ عليها الْقَوْلُ بإهْلاَكها وتَعْذِيبها، وإصْدارِ الأمْرِ الرَّبَّانِيّ بذلك على وفق قضاء الله وَقَدَرِه، وهذا يكُونُ قبل التَّنْفِيذ.

﴿فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾: أي: فَدَمَّرْنَا الْقَرْيَةَ على أَهْلِها الْفَاسِقِين، هٰذه الجملَةُ تُعَبّرُ عَنْ مَرْحَلَةِ التَّنْفِيذِ الفِعْليّ.

التَّدْمير: الإهْلاَكُ باستِئْصَال، ومَحْوُ المبَاني وآثارِها حتَّىٰ لاَ يُرَىٰ مِنها شيء، وهذا يكون بالنسبة إلى بَعْض الأُمَم لا كُلِّهم.

أصْلُ التدميرِ تَحْطِيمُ الشَّيْءِ عَلَىٰ وَجْهٍ لاَ يُرْجَىٰ بَعْدَهُ إصْلاَحُه، وتَدْمِيرُ كُلّ شيءٍ يكونُ بحَسَب ما يُلائمه.

﴿تَدْمِيرًا﴾: مَفْعُول مُطْلَق مُؤَكّدٌ لِفِعْلِه، ومُشْعِرٌ بأَنَّ التَّدْمِيرَ كانَ شدِيداً عَنِيفاً مُسْتَأْصِلاً، مَاحِياً لكلّ أَثر.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍۗ﴾: أي: عَدَداً كثيراً أَهْلَكْنَا مِنَ القرون مِنْ بَعْدِ نُوحٍ عليه السلام.

﴿كَمْ﴾: اسْم ثُنَائِي مَبْنِيٌّ على السُّكُونِ. وكَلِمَةُ «كَمْ» هنا خَبَرِيَّةٌ تَدُلُّ عَلَىٰ عَدَدٍ كثير، ويُعَبَّرُ بِها عَنْ مُبْهَمٍ يَحْتَاجُ تمييزاً.

﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾: تَمْييزُ «كَمْ» مَجْرُورٌ بحرف «مِنْ».

﴿ٱلْقُرُونِ﴾: جَمْعُ «قَرْنٍ» والْمُرَادُ هُنَا أَهْلُ زَمَانٍ واحِدٍ، وسُمُّوا قَرْناً في اللُّغَة، لأنَّهُمْ اقْتَرَنُوا معاً في ذلِكَ الزَّمان:

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾: أي: وكَفَىٰ رَبُّكَ مُسْتَغْنياً بذاتِه وصِفَاتِهِ، حالَةَ كونه خَبير بَصِيراً بِذُنُوب عباده، فَهُوَ يُعَذِّبُهُمْ وَيُهلِكُهُمْ وَيَقْطَعُ رِحْلَةَ امْتِحَانِ أَفْرَادهم في الحياة الدُّنيا، لعِلْمِهِ التّامّ بهم القائم على خِبْرَةٍ دَقِيقَةٍ بأحْوالِهِمْ الظاهِرَة والباطنة، وبَصِيرٍ مُحِيطٍ مُدْرِك لكلّ كبيرَةٍ وَصَغِيرَةٍ مِمَّا يُرَىٰ بالأَبْصار من أعمالهم الظاهرة والباطنة، الجَسَدِيَّة والنفسية.

الباء في ﴿بِرَبِّكَ﴾ حَرْفُ جَرٍ زِيدَ لتأكيد اسْتِغْنَائِه جلّ جلالُهُ بذاته وصفاته.

﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ﴾ معمولٌ مُتقدِّمٌ على عامِلِهِ ﴿خَبِيرًا﴾ لمراعاة الجمالِ التناسقي بيْنَ رُؤُوسِ الآيات.

الْخَبِيرُ: هُوَ ذُو الْعِلْم الدَّقيق القائم على الشُّهُود والحضور دواماً مع المعلوم.

الْبَصِير: هو ذو البصر المحِيط بالدَّقائِق.



شرح السّنَّةِ الرابعة:

وهي أنَّ اللَّهَ عز وجلّ لاَ يُهْلِكُ أَهْلَ الْقُرَىٰ ومُلْحَقَاتِها إهلاكاً عامًا شاملاً، إلاَّ في حالَةِ كَوْنهم ظالمين، عالِمِينَ بما يجب عليهم تُجاهَ رَبّهم.

دَلَّ على هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيّة قول اللَّهِ عَزَّ وجلّ في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾:

وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾:

أُطْلِقَ لفظُ القرىٰ والمراد أهْلُها على طريقة المجاز المرسَل، والعلاقة الحاليّة والمحليَّة.

أي: ومَا كَانَ من شأن الرَّبّ جلَّ جلالُهُ، وعظُم سلطانه، وسَمَتْ حكْمتُه، أَنْ يُهْلِكَ أهْلَ الْقُرَىٰ بسَبَبِ ظُلْمٍ هُمْ فيه، اقْتَرَفُوهُ ويمارِسُونَهُ دواماً

دون استغفار ولا تَوْبَة، إلاَّ في حالَةِ كوْنِهِمْ عالِمِينَ بما هو مطلُوبٌ مِنهُمْ تُجَاهَ رَبِّهِمْ من إيمان وعَمَلٍ، عن طريقِ المبلِّغين عن الله، وغَيْرَ غَافِلِينَ بِسَبَبِ جَهْلِهِم.

وهذا العلم يَشْمَلُ الإنْذَارَ بعذاب الله وبالهلاك الشامل، إذا أَصَرُّوا على مَا هُمْ فيه من ظُلم.

❁ ❁ ❁

شرح السنة الخامسة:

وهي أنّ الله عزّ وجلّ لا يُهْلِكُ أهْلَ القرىٰ وملحقاتها، ما دامَ فيها من يستجيبُون لدَعْوَةِ الرُّسُلِ تِباعاً، ويُصْلِحُونَ مِنْ أَمْرِهِم وإنْ قَلُّوا، فلا يُنْزِلُ اللَّهُ بهم العذابَ الْمُهْلِكَ لَهُم إهلاكاً شاملاً، حتَّىٰ يَصِلُوا إلى حالةٍ ميؤُوس مِنْها بوَجْهٍ عامٍّ.

● دلَّ على هذه السُّنَّة الرَّبَّانية قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾:

اللام الجارَّة في ﴿لِيُهْلِكَ﴾ هي لام الجحود لوقوعها بعد كون منفي، وهٰذه الصيغة من أبلغ صِيَغِ النفي في العربية، والمجرور باللاّم المصْدَرُ المؤوّل من «أن» المصدرية الناصبة للفعل المضارع والمقدرة بعد اللاّم ومن الفعل المضارع.

والمراد بالقرىٰ أَهْلُها، على طريقة المجاز المرسل.

أي: لَيْسَ من سُنَّةِ رَبِّكَ، وَلاَ مِنْ أفعاله ولو على سبيل النُّدْرة، في معاملة أهل القرىٰ الظالمين ومَنْ يُلْحَقُ بهم، أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهْلاكاً عامًّا شَاملاً مُسْتَأْصِلاً لَهُمْ في حالة كَوْنِ أفرادٍ مِنهُمْ سَائِرِينَ في طَرِيق الإصْلَاح إيماناً

وعَملاً، فلاَ تَحِقُّ كَلِمةُ الإهلاك الشامل عليهم، حتَّىٰ يَصِيرَ تَدَرُّجُهُمْ في طَرِيق الإصْلاَح بإراداتهم الحرَّة أمراً مَيْؤُساً منه بوجْهٍ عامّ.

الإصلاح: الإتيان بما هو صالح. وإصْلاحُ الشيء، إزالَةُ فَساده.

● ودلّ عليها أيضاً قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾﴾:

أي: إنَّ الَّذِينَ ثَبَتَتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبّكَ بأنْ يُعَذَّبُوا وَيُهْلَكُوا، لَمْ تَقْتَضِ الحكمة ذلك فيهم إلاَّ بسَبَب أنَّهُمْ قَدْ وَصَلُوا إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوس معها من أَنْ يُؤْمِنُوا مُسْتَقبلاً بإراداتِهم الحرَّة، ولَوْ جاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ من الآيات البيانيّة، والإعجازيَّة الكافية لإقناع ذي فِكْرٍ راغِبٍ في أَنْ يقْتَنِعَ بالحقّ.

﴿حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾: أي: حتَّىٰ يرَوْا بَدْءَ نُزُول العذاب الأليم بهم، عِقَاباً لهم على كُفْرِهم، وَعندَئذٍ يُعْلِنُونَ إيمانَهم، لكِنَّ أيمانَهُمْ سَاعَتَئِذٍ لاَ يَنفَعُهُمْ، إذ تَكُونُ مُدَّةُ امتحانهم قد انتَهَتْ، وَجاءَتْ مَرْحَلَةُ الجزاء، ويكونُ حالُهُمْ كحال فِرْعَوْنَ حِينَما أدْرَكَهُ الْغَرقُ، قال: آمَنْتُ أنَّهُ لاَ إِلَه إلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إسْرائيل، فلَمْ يَنفَعْهُ إيمانُهُ سَاعَتَئذٍ، قال الله عزّ وجلّ في سورة (يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول):

﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾.

● ودلَّ عليها أيضاً قولُ الله عزَّ وجلّ بشأن كُفَّارِ أهل مكَّةَ إبَّانَ التَّنْزِيلِ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ⟨٦⟩﴾؟.

أي: لَمْ يَحْصُلْ إيمانٌ ما من أَهْلِ قَرْيَةٍ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ إِهْلَاكاً عامًّا شاملاً، فيما سبَقَ من أهل القرون السَّالِفَة، مع إمْهَالِهِمُ الطويل، وبذلك استحقُّوا التعذيبَ والإهلاكَ الشامل، ولَوْ أنّ أفراداً مِنهُمْ كانُوا يُؤْمِنُون تِباعاً غَيْرَ الَّذِينَ سبَقَ أَنْ آمَنُوا مِنهُمْ، واتَّبعُوا رَسُولَ رَبهم، لما أَهْلكهم الله إهلاكاً عامًّا شاملاً.

أَفكفَّارُ أهْل مكّة يُؤمِنُونَ مُسْتَقْبلاً بالتَّدرُّج، حتّى لاَ يستَحِقُّوا الإهْلاَكَ الشامل؟.

جوابُ هذا السؤال قَدْ كشفَهُ الواقع فيما بَعْدُ، وهو أَنَّ أكْثَرَ من كان كافراً من أهل مكَّةَ قَدْ آمَنَ فيما بَعْدُ، ولا سيما بعْدَ أن فَتَحَها اللَّهُ للرَّسُول ﷺ ولِلْمَؤْمنين معه، ولهذا لم يُنْزِل اللَّهُ بهم الإهلاكَ الشامل.

● ودلَّ عليها أيضاً قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول):

﴿وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ⟨٩٥⟩﴾:

أي: وحرامٌ على أهل قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ بِظُلْمِهِمْ الْبَقَاءُ في حياة الابتلاء مُمْتَحَنِين، بسَببِ أنَّهُمْ لا يَرجعون إلى فِطْرَةِ الإيمان والطاعَةِ مَهْمَا أَمْهَلْنَاهُمْ، بلْ هذا الرُّجوعُ مَيْؤُوس منه عَنْ طَرِيق إراداتِهِم الحرَّة.

ولهذا استَحَقُّوا الإهلاكَ الشَّامِلَ، واللَّهُ هو العليم الخبير بعباده، الحكيم في تصاريف قضائه وقَدَره، وتنفيذ أَفعاله.

❀ ❀ ❀

شرح السُّنة السادسة:

وهيَ أنّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يُمْهِلُ عباده الظَّالمين ويُمْلِي لهم، ولا يَعْجَلُ بإنْزَال العقاب الشَّامل والإهلاك العام فيهم.

لقد قَضَتْ حكْمَةُ اللَّهِ جلَّ وعلا، أنْ يمْنَحَ الظّالمين من عباده أقْصَىٰ إمْهال، وأطْوَل زَمَنٍ ضِمْنَ ظُرُوف رِحْلَةِ الحياة الدنيا، كافٍ لاسْتبصار الحقّ، والتراجع عن الباطل، ومُحَاسبةِ الأنْفُس، والكَفِّ عن ارتكاب الجرائم.

والجهَلَةُ من الناس بسُنَّةِ اللَّهِ هٰذه قَدْ يَسْتَبْطِئُون نُزُولَ العذاب بالظَّالِمِينَ مِنَ الأمم، فتَتَوارَدُ على نفوسهم الشُّكُوك، ولكنّ الله عزّ وجلّ يُعَامِلُ عباده بمقْتَضَىٰ سُنَنِهِ الحكيمة، لا بمقتَضَىٰ أهواء الناس وتَشَهِّيَاتهم، ومَا يُرِيدُون أَنْ يَشْفُوابه غيظ صُدُورهم، من أعدائهم الكافرين.

دلَّ على هذه السُّنَة عدَّة نُصُوص في القرآن المجيد:

النصّ الأول: قول الله عزّ وجلّ عزّ وجلّ في سورة (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول):

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾:

﴿نُمْلِي لَهُمْ﴾: أي: نمْهِلُهم ونُطَوّلُ مدَّة امْتِحانهم في الحياة الدُّنيا.

فالمعنى: ولا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالحقّ الَّذِي بلَّغَهُمْ إياه رُسُلُنا، مَقْروناً بالبراهين الَّتي تُثْبِتُ أنَّه حقٌّ، وتَقُومُ بها الحجَّةُ عليهم بأنَّهُ حَقٌّ، أنَّ إمْهالَنَا لَهُمْ وهُمْ مُصِرُّونَ على الكُفْرِ عالِمُونَ أنَّهم على باطلٍ وشرٍّ، وأنَّهُم ظالِمُون، هُوَ خَيْرٌ لأنفُسِهِمْ، إذْ تَطُولُ مُدَّةُ اسْتِمْتَاعِهم بِمَا حَرَّمْنَا عَلَيْهِم، دُونَ أَنْ نُعَاقِبهم ونُعَذِّبَهُمْ ونُتْبعَ ذلك بإهلاكهم إهلاكَ اسْتِئصال.

ونفهم عقلاً أنَّ الغاية من الإمْهال إتَاحَةُ أوْسَع مُدَّةٍ لَهُمْ يُمكنُ أَنْ يتخلّصوا فيها من سُلْطان أهوائهم وشهواتهم ويُؤمنوا ويتوبوا، ودَلَّتِ الآيَةُ على أنَّهُمْ إذا لم يُؤْمِنُوا في مُدَّةِ الإمْهَالِ فإنَّهمْ سَيَزْدادُون إثماً، وسَيَحْمِلُون أَوْزاراً مضافَةً إلى أوزارهم السَّابقات، وَيسْتَحقُّون عليها عذاباً

مضافاً إلى ما كانوا قَدِ اسْتَحقُّوهُ قَبْلَ الإمهال، ولهم إذا اسْتَمرُّوا علىٰ باطِلِهم وكُفْرِهم وآثامهم عَذَابٌ مُهِينٌ مُذِلٌّ لهم، على مقادير ما جَنَىٰ كلُّ واحدٍ مِنْهُمْ من إثْم، إضافَةً إلَىٰ الكُفْرِ الذي استحقوا به الخلودَ في عذاب النار، أخذاً من دلالات نُصُوصٍ قرآنيّةٍ أخْرَى، إذ النُّصُوصُ القرآنيَّة مُتَكاملة فيما بَيْنها.

النصّ الثاني: قول الله عزّ وجل في سورة (الرّعد/ ١٣ مصحف/ ٩٦ نزول) خطاباً لرَسُولِهِ محمّد ﷺ طمَأنَةً له بعاقبة النصر، وتَسْلِيَةً له بشأن ما يُلاقيه من بعض كُفّار قومه من استهزاءٍ به:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾:

أي: فأَمْهَلْتُ المسْتَهزِئينَ بِرُسُلِي من قَبْلِكَ إمْهَالاً كافياً لقَطْعِ كلّ أعْذارِهم، وعلى الرُّغم من الإمْهالِ الطويل الكافِي لم يَتُوبُوا، ولم يَسْتَغْفِرُوا، ولم يَرْجِعُوا إلى فِطَرِهم الإيمانيَّةِ بإراداتِهم الحرَّة، فأخَذْتُهم أخْذَ عِقابٍ وعذابٍ وإهْلاَكٍ.

فانْظُرْ كَيْفَ كان عقابي الشديدُ لهم، وكيْفَ كانت نُصْرتي لِرُسُلِي، فَكُنْ مُطْمَئِناً إلى أنّي سأنْصُرُكَ كما نَصَرْتُ رُسُلي السَّابِقِين، ضِمْنَ تَطْبيقَاتِ سُنَّتِي.

النص الثالث: قول الله عزّ وجلّ في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾: أي: ويَسْتَعْجِلُكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بك وبما جِئْتَ

به عَنْ رَبّك، بالعذاب الَّذي وَعَدْتُهُمْ به فيما بلَّغْتَهُمْ عَني، تَوَهُّماً مِنْهُمْ أنَّكَ غَيْرُ صَادِقٍ فيما تُبَلِّغُهُمْ عَني.

﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾: أي: ولَـنْ أُخْـلِـفَ وَعْـدِي، لأنّـي أنـا الله العليم الحكيم القدير على فِعْل ما أُريد، فإذا وَعَدْت بأمْرٍ فلا بُدَّ أَنْ أُحَقِّقَ تَنفيذَه، لَكِنَّ أيّامِي في معاملة عبادي لَيْسَتْ كأيامِكُمْ.

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾: أي: إنَّ تَـقْـدِيـرَ الزَّمَنِ الَّذي أُعَامِلُ بِهِ عِبادي في امتحانهم، وإمْهَالِهم، وإنْزَالِ العقاب بهم، مختَلِفٌ عن تَقْدِيراتكم.

فاليوم الواحد عندي يُشْبِهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ بِحَسَبِ أيّامكم، وعلى هذا فالسَّاعة الواحدة من هذا الْيَوْمِ تعادلُ أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعِينَ سَنَةً بحِسَاب أيّامِنَا نَحْن.

أي: فَمَا الداعي لاسْتِبْطَاءِ تَحْقِيقِ الوعْدِ؟!

﴿وَكَأَيِّن﴾: اسْمٌ مُرَكَّبٌ من كافِ التشبيه، و«أيٍّ» المنونَة، وهو يُفِيدُ تكْثِيرَ الْعَدَدِ بمعنى «كَمْ» الخبريَّة.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: أي: وأهْلُ قرىً كثيرة ظَالمون، طَوَّلْتُ لهم مُدَّة امْتِحانهم بحَسَب مقتضَىٰ حِكْمَتِي.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾: أي: ثُمَّ أَخَذْتُ أهْلَها الظَّالِمينَ، أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاكٍ شامل.

﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: وإلـيَّ الـمـصيـرُ بَـعْـدَ الـبـعـث لـيـوم الـديـن، لمحاسَبَتِهِمْ ومجازاتهم على كُفْرِهم وَجرائِمهم الكثيرة.

❊ ❊ ❊

شرح السنَّة السابعة:

وهي أنَّ اللَّهَ عَزَّ وجلَّ يَبْدَأُ مُعَالَجَةَ الأُمَمِ قَبْلَ إِهْلاَكها إهلاكاً شاملاً، بابْتِلائِها بالبأْسَاءِ والضَّرَّاءِ، والمصائب والمكاره الجزئيَّة، رَغْبَةً فِي أَنْ يَتَضَرَّعوا مُسْتَغفِرِينَ وتَائِبين، ومُلْتَزِمِينَ بالتدرُّج العملَ بما أَمَرَهم به، والابْتِعَادَ عَمَّا نَهَاهُمْ عنه.

وبابتلائها بالبأْسَاءِ والضَرَّاءِ والمصائب الجزئية، تنبيهٌ لَهَا، وتذكير، وإنذار، فإذا فَعَلُوا ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا رَفع الله عنهم ما أنزل بهم، ولم يُنْزِلْ بهم العذابَ والإهلاكَ الشَاملَيْن.

وإلاَّ رَفَعَ اللَّهُ عنهم ما أنزلَ بهم من مصائب جزئيَة، وأَمْهَلَهُمْ مُدَّةً من الزّمن، ثم باغْتَهُمْ بالتَّعْذِيب والإهْلاكِ الشَّامِلَيْن.

● دلَّ على هذه السُّنَّة قَوْلُ الله عزَّ وجلَّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾:

أي: وما أرسَلْنَا في أهْل قَرْيَةٍ من نبيٍّ رَسُولاً لهم، لأنَّهم صارُوا بسبب كُفْرِهم وظُلْمِهم وإفسادِهم في الأرض، بحاجَةٍ إلى رسُولٍ يُعَلِّمُهُمْ أُمُورَ دِينِهم ويُبَشِّرُهم ويُنْذِرُهم، فعانَدُوه وأصَرُّوا على كُفْرِهم وَغَوَايتهم، إلاَّ أَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ تأديب وَتَنْبِيهٍ وإنْذَارٍ بالبأسَاء والضَّرَّاءِ.

البأْسَاءُ: الجوعُ، والمشقة، والفقر، وضَنْكُ العيش، والحرب.

الضرَّاءُ: الشّدَّة، وكُلُّ حَالةٍ تَضُرُّ في الأموال والأنفس.

والغرض من هذا الأخْذِ تَذْكيرُهم بِرَبّهم، ليَدْعُوه متضرّعين إليه، سائلين أن يكْشِفَ عنهم ما نزل بهم ممَّا يكْرَهُون.

﴿لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبَةً في أَنْ يَتَذَكَّرُوا رَبَّهم، فَيَتَضَرَّعُوا له، مُعْتَرِفين بذنوبهم، سائِلِينَ أن يَكْشِفَ عنهم ما نزل بهم.

التَّضَرُّعُ: التذلُّلُ والخضوع، مأخوذٌ من خُضُوعِ وَلَدِ البهيمة الرَّضِيع، ليمتَصَّ حَلِيبَ أُمِّهِ من ضَرْعِها.

﴿ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ﴾: أي: وبَعْدَ مُدَّةٍ مُتراخِيَةٍ اسْتَمَرَّتْ خِلاَلَها البأَسَاءُ والضَّرَّاء، بدَّلْنا مَوَادَّ الابْتِلاَء، فجَعَلْنا الحَسَنَة في مَكانِ السيئة، فتَحَوَّلُوا إلى النعمة والرَّخاء والأمن.

﴿حَتَّىٰ عَفَوا﴾: أي: حتَّىٰ كَثُرَ أَهْلُ الْقَرْيَةِ بأَنْسالِهِمْ، وعادُوا إلى بَغْيِهم وعُدْوانِهم وغَوَايَتِهم، فأَخَذْنَاهم بالبأَسَاءِ والضَّرَّاءِ مَرَّةً أُخْرَىٰ.

﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾: أي: ثُمَّ ذَهَبَتْ عنهم البأساء والضرّاء، وقالُوا: هي ظواهر طبيعيَّةٌ مُتكرِّرةٌ في الدَّهْرِ، ولَيْسَ من ورائها قَصْدُ تأدِيب، أَوْ تَذْكير، أو تربية.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾: أي: فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاكٍ شامِلَيْنِ مُبَاغِتَين، دون إشعارٍ لهم بمقَدِّمَاتٍ فِيها إِنْذَارٌ، لأنَّهم قد وصَلُوا إلى الحضيض كُفْراً، وفجوراً، واسْتِغراقاً في الآثام، مع تفسيرهم ظواهر حِكْمَةِ الله بأنها ظواهر طبيعيَّةٌ مُتَكَرِّرَة، وليس من ورائها قَصْدٌ رَبَّاني.

● ودلَّ علىٰ هَٰذه السُّنَّة أيضاً قَوْلُ الله عزّ وجَلَّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾:

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾: أي: رَغْبةً في أن يتضَرَّعُوا، أو لنجْعَلَهُمْ في مَوْقِفٍ من شأنِه أن يَدْفعَهُمْ ـ إذَا كان لدَيْهم رُشْدٌ ما ـ إلى أن يَتذَلَّلُوا لربّهم، ويخْضَعُوا ويتوبوا له، كي يرفَعَ عنهم ما أُنزل بهم، فإذا رفَعَ ما أنزل بهم كان مِنْ شأنِه أن يكُونَ مُذَكِّراً لهم دواماً بِرَبّهم، ومُنْذِراً لهم بنزول العذاب والإهلاكِ الشاملَيْن، فإذَا لَمْ يَنْتَفِعُوا بَعْدَ ذَلِكَ من هٰذِهِ المقدِّمات، استَحقُّوا التّعذيبَ والإهلاك الشاملين.

﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ﴾: أي: فَهَلاَّ تَضَرَّعُوا إِذْ جاءَهُمْ عَذَابُنَا التأديبيُّ الجُزئيّ، المُنْذِرُ بالعذابِ والإهْلاَكِ الشامِلَيْنِ المسْتَأْصِلَيْن.

«لَوْلاَ» هُنَا أداةُ تحضيض مثل «هَلاَّ».

﴿وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾:

أي: ولكنْ لَمْ يتضرعوا ولم يتوبُوا ولم يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهم، إذْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ فلَمْ تَلِنْ لما نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عذابٍ تأديبيٍّ إنْذَارِيّ، وجعَلَ الشَّيْطَانُ يُزَيّنُ لهم أَنَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَيْسَ هو الذي اقتضَىٰ أَنْ يُنْزِل اللَّهُ بِهِمُ المصائِبَ وأنْواعاً من البأساء والضرّاء، ويُزَيِّنُ لهم أَنَّ ما نزَلَ بهم هو من تَقَلُّبَاتِ الدّهر، الّتي تَحْدُثُ بصُورَةٍ طبيعيَّةٍ خالِيَةٍ مِنْ قَصْدٍ رَبَّانِيٍّ للتَّرْبِيَةِ والجزاء.

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾: أي: فلَمَّا تَرَكُوا مَا ذُكِّرُوا به من البأساء والضَّرَّاءِ، وما ذَكَّرُوا به من قِبَلِ رُسُلِ رَبّهم، أو الدُّعَاةِ من الَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ واتَّبَعُوهم، تَذْكيراً بيانيًا، بالنُّصْحِ والإرْشاد، ولم يَكْتَرِثوا لكلّ ذَلِكَ ولم يَعْبَؤوا به.

﴿فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ﴾: أيْ: وسَّعْنا لَهُمْ في الحياة الدنيا الأرْزَاقَ، ويَسَّرْنا لَهُمُ المسالِكَ لنَيْلِ ما يَشْتَهُونَ من متاع الحياة الدنيا، من كلِّ شيْءٍ تتعلّقُ نفوسهم به.

شُبِّهَ تيسيرُ المسالِكِ للوصول إلى ما يَشْتَهُونَ بفَتْحِ الأبواب، فاسْتُعِيرتْ عبارة «فَتْحِ الأبْواب» للدَّلالَة على ذلك.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

﴿فَرِحُوا۟﴾ هُنَا، بمعنى بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا، وتَفَاخَرُوا وتَعَالَوْا علَىٰ الناس، فَطَغَوْا وبَغَوْا.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: أخْذَ بَغْتَةٍ، أوْ مُبَاغِتين. **البَغْتَةُ**: المفاجأة.

﴿مُّبْلِسُونَ﴾: أي: ساكِتُون، يائِسُونَ، نادِمُون، لا يَقْدِرُون على شيء.

يقالُ لغة: **أبْلَسَ الرَّجل**، أي: قُطِعَ به، وسَكَتَ، ونَدِم.

وأبْلَسَ مِنْ رَحْمَةِ الله، أي: يَئِسَ.

والمعنى: حتَّىٰ إذا بَطِرُوا واسْتَكْبَرُوا وطَغَوْا وبَغَوْا بِمَا فُتِحَ عَلَيْهِم من متاع الحياة الدُّنيا، أخَذَهُمُ الله بالْعَذَاب والإهْلاَكِ الشامِلَيْنِ، بصُورَةٍ مفاجِئَةٍ غَيْرِ مُرْتَقَبَةٍ، فإذَا هم سَاكِتُون، يائسُونَ، نادِمُونَ، لاَ يَسْتطِيعُونَ أن يَفْعَلُوا شيئاً يَقِيهم من عَذَابِ الله، ونوازل الإهلاك الشامل.

﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾: أي: فأُهْلِكُوا جَمِيعاً، حَتَّىٰ لَمْ يَبْقَ لهم تابعٌ يَتْبَعُهُمْ.

الدَّابِرُ: التابع، وهُوَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ آخِرُه، وقَطْعُ الدابِرُ كِنَايَةٌ عن الاستئصالِ التامّ.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾: أي: وكُلُّ الثناء على اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِين، الّذِي خَلَّصَ المجتمع الْبَشَرِيَّ من قوم ظالِمِينَ، بَلَغُوا درَكَةَ اليأسِ من أن يَصْلُحوا عن طَرِيقِ إرادَاتِهم الحرَّة، في حَيَاةِ الابْتِلاءِ والاختبار في ظروفِ هٰذِه الحَياة الدنيا.

إنَّ إهلاكَ القَوْمِ الظالمين، الّذين أمْسَوْا بُؤْرَةَ فَسَادٍ وإفسادٍ في

الأرض، وطُغْيانٍ وبَغْيٍ وعُدْوانٍ، نِعْمَةٌ عظيمةٌ تَنْتَزِعُ من قُلوب أولي الألبابِ الْحَمْدَ والثناءَ من دَرَجَةٍ قُصْوىٰ، على رَبِّ العباد الذي رحِمَهُمْ فخلَّصَهُمْ مِنْ وَبَاءٍ لا سبيلَ إلى الخلاص منه إلاَّ بالاستئصال التامّ، حتَّىٰ لا تبقَىٰ منهم جُرْثُومَةٌ تَنْشُرُ شرّاً في دنيا الناس.

❁ ❁ ❁

شرح السُّنَّة الثامنة:

وهي أنْ لا يحقِّقَ اللَّهُ عزّ وجلَّ إهْلَاكَ أُمَّةٍ إهلاكاً شاملاً، إلاَّ بَعْدَ قَدَرٍ وَقَضَاءٍ يُحَدِّدُ فيهما زمَنَ إهْلَاكِها، وبَعْدَ كِتَابَةِ ذَلِكَ، وإعْلَامِ ذوي الْعَلَاقَةِ بتَنْفِيذِه من الملائكة.

ويكونُ زَمَنُ الإهْلاكِ هُوَ أَجَلَ بَقَاءِ هٰذِهِ الأمَّةِ في الحياة الدُّنيا، ويكُونُ التَّنْفِيذُ في هذا الأجَلِ بالتَّحْدِيدِ، دون سبْقٍ ودُونَ تأخِير.

● دلَّ على هٰذه السُّنَّةِ قولُ اللَّهِ عزّ وجلَّ في سورة (الْحِجْرِ/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾.

● وقول الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمِنُونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) في معرض الحديث عن أقوامٍ أُهْلِكوا، وعن أقْوَامٍ بَعْدَهُمْ أُهْلِكوا أيضاً:

﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٤٣﴾.

﴿وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤﴾: أي: وما أهلكنا من أهْلِ قَرْيَةٍ اسْتَحَقُّوا الإهْلَاك الشَّامِلَ بِحِكْمَةِ الله وَقَضائِهِ وقَدَرِه، في حالٍ من الأحوال، إلاَّ في حالِ كَوْنِ إهلاكِهِمْ مُسَجَّلاً في كتابٍ مَعْلُومٍ للَّهِ، ومَعْلُومٍ لَدَىٰ الملائكة المأمُورين بالتنفيذ، وهذا الكتاب يَشْتَمِلُ علىٰ بيان زَمَنِ الإهْلَاكِ وكلِّ جُزْئِيَّةٍ منْ جُزْئيَّاتِ التَّنْفِيذ.

﴿مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ۝٥﴾: أيْ: مَا يكُونُ إهلاكُها سَابقاً لأجَلِهَا المقَدَّرِ لَهَا في كِتَابِها، إذْ لَوْ حَصَلَ مِثْلُ هٰذَا التَّعْجِيلِ في أَجَلِ الْإِهْلاَكِ، لكانَ هَلاَكُهَا سَابِقاً أَجَلَها المقَدَّرَ لها.

وما يَسْتَطِيعُونَ أيْضاً أَنْ يُؤَخِرُّوا هٰذا الأَجَلَ المقَرَّر لإهلاكها بوسِيلَةٍ من الوسائل.

الأجل: يأتي في اللّغة:

(١) بمعنىٰ غايَةِ الوقت المحدَّدِ لشيء ما، أو المأذون به.

(٢) وبمعنى الوقْتِ المحدَّدِ أو المناسب لحصُول الشيء، وابتداء زمانه.

(٣) وبمعنى المدَّةِ المحدَّدَةِ للشَّيْءِ والمحصُورَة بَيْنَ أَوَّلٍ وآخر.



شرح السُّنَّة التاسعة:

وهي أنه غالباً ما يكونُ إهْلاَكُ الأُمَم الَّتي قضىٰ اللَّهُ بإهلاكها، عنْدَ الصُّبحْ، وقَدْ يَسْتَمِرُّ التَّعْذِيب والإهْلاِكُ حتّىٰ الإشراق. أو يكون عند شُرُوق الشمس، أوْ يكُونُ بَيَاتاً وهم نائمون، أَوْ في وسَطِ النّهارِ وهُمْ قَائِلُون، أو في الضُّحىٰ وهُمْ يَلْعبُونَ.

● دلَّ على هذه السُّنَّة قول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ۝٤﴾:

أي: وَعَدَداً كثيراً منْ أَهْلِ الْقُرَىٰ وتوابعها قَدَّرْنا وقضينَا إهْلاَكَهُمْ، وعند التنفيذ جَاءَهم عذابُنَا بَيَاتاً وهم نَائِمُونَ، أو في وسَطِ النهار وهم نَائِمُون في وقْتِ الْقَيْلُولَة، أو مستريحون فيه.

﴿قَآئِلُونَ﴾: أي: مُسْتَرِيحُونَ في وقْتِ القيْلُولَة، وهي الاستراحةُ في نصْفِ النهار عند اشتداد الحرّ، وفي الغالب ينامُ المستريحون في هذا الوقت.

● ودلَّ عليها أيضاً قَوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الحِجْر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول) بشأن لُوطٍ عليه السلام، في حكاية خطاب الملائكة له:

﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾.

● وقال الله عزَّ وجلّ فيها أيضاً بشأنهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

أي: نزل العذاب بهم في وقت الصُّبح، وتمَّ إهلاكهم بالصَّيْحَةِ في وقْتِ إشراق الشمس.

● وقول اللّهِ عزَّ وجلَّ بشأنهم أيضاً في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول): ضِمْنَ حكايَةِ قِصَّتِهم وقَوْلِ الملائِكة لِلُوطٍ عليه السَّلام:

﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾:

وكان حَديثهم هذا مع لوط بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيل.

● ودَلَّ عَلَيْها أيضا قولُ الله عزّ وجلّ بشأن ثمودَ قَوْمِ النبيّ الرسول صالح عليه السلام في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

● وقَدْ أَنْذَرَ اللّهُ عزّ وجلَّ أَهْلَ القرى الظالِمِينَ باحْتِمال أَنْ يُنْزِلَ بَأْسَهُ بهم في وقت الضُّحىٰ وهم يَلْعَبُونَ، فقال تعالى في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾﴾.



شرح السُّنَّة العاشرة:

وهي أنّ الله عزّ وجلّ إِذَا أَنْزَلَ بَأْسَهُ فِيمَنِ اسْتَحقُّوا الإهلاك والتَّعْذِيبَ بوسائله، وَصَدَرَ الْأَمْرُ الرَّبَّانِيُّ بِذَلِكَ، فإِنَّهُ جلّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ يَأْخُذُهُمْ أَخْذاً أَلِيماً شَدِيداً بِسُلْطَانِ الْقَهْرِ والْجَبَرُوت.

دَلَّ على هذه السُّنَّةِ الرَّبَّانِيَّة قَوْلُ اللَّهِ عزّ وجل في سُورَة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ . . .﴾.

المشار إليْهِ بعبارَة: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مَا سَبَقَ هذا النصّ من بيان إهلاك طائفةٍ من الأقوام السابقة الغابرَة.

وقد جعل الله عزّ وجلّ إهْلاَكَ الأُمَم المستَحِقَّةِ للتَّعْذِيب والإهلاك بهٰذِهِ الصورة الشديدة الْعَنيفة المؤلمة، لِيَتَّعِظَ من يَخافُ عذابَ اللَّهِ يوْمَ الدِّين، لأَنَّهُ سوْفَ يكُونُ أَكْثَرَ إيلاماً وشِدَّةً ودَواماً.

❁ ❁ ❁

خامساً:

فصولٌ خَمسَة تَشتَمِلُ على بيانَاتِ تَطبيقاتِ السُّنَنِ العشر السَّابقة

الفصل الأول
كيفَ قابَلَتِ الأمَمُ الْمُهلَكَةُ دَعَواتِ رُسُلِ رَبّها قبل إنزال الْعَذَابِ والهلاكِ فيها

(١) جاء في سُورَةِ (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول) قول اللَّهِ عزّ وجلّ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾:

أي: وما أرسَلْنَا في قَرْيَةٍ من رَسُولٍ كان آخِرُ أمْرِهِ مَعَ أهْلِها، أن أنْذَرَهُمْ بعذاب الله، إلاّ قال مُتْرَفُوها وهم أصْحابُ السُّلْطَةِ الإداريَّة والْهَالَةُ مِنْ أصحاب الثراء في القوم حولهم: إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ.

فَدَلَّتْ هٰذِهِ الآيَةُ على أنَّ مُتْرَفِي الأُمَمِ وهُمْ أكابِرُ القوم وأصْحَابُ المالِ والثراء من حولهم، كانُوا يُواجِهُون رُسُلَ الله بالتكذِيب والجُحُودِ، والكُفْرِ بما جاءُوهُمْ به عَنْ رَبّهم.

ويَتْبَعُ هؤلاء في العادة معظم جماهير قومهم، لأنَّهُمْ لهم أتباع، ويَتَأثَّرُونَ بوسائل مَكْرِهِمْ وتَزْييناتهم، وبسُلْطَانِهِمْ عليهم.

(٢) وجاء في سورة (يس/ ٣٦ مصحف/ ٤١ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، مبيناً لكفّار أهل مكّة قِصَّةً من قِصَص الكافرين الغابِرين:

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾ وحتَّىٰ الآيَةِ (٣٠) من السّورة، وقَدِ انْتَهىٰ أَمْرُهُمْ بالإهْلاَكِ بالصَّيْحَةِ، فكانوا بها خامِدِين مَيِّتِين، كالرَّماد الَّذِي خَمَدَتْ ناره.

(٣) وجاء في سُورة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول) قول اللَّهِ عزّ وجل خطاباً لرسُوله محمد ﷺ:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾:

﴿عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾: أي: على طَرِيقةٍ من المبادىء والمفهومات والسُّلُوك.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾: أي: وإنَّا على آثارهم سَائِرُونَ، ونَحْنُ بهم مُقْتَدُون.

وكانَ كُلُّ رَسُولٍ يُجِيبُ قَوْمَهُ بما أبَانَهُ الله عزّ وجل في الآية التالية من السورة:

﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

فكانت النهاية أن استحقَّ القوم أنْ يَنْتَقِمَ اللَّهُ منهم، فيُعَذِّبَهُمْ وَيُهْلِكَهُمْ، وفي بيان هذه النهاية قال اللَّهُ عزّ وجلّ في الآية التالية من السّورة:

﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

(٤) وجاء في سورة (النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمد ﷺ بشأنِ اليهود والنّصارى وأمثالهم من أهل المِلَلِ المحرَّفَةِ عَنْ أُصولها الرَّبَّانيّة الصحيحة.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾:

أي: فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ التحريفيَّة والتبديليَّةِ، الَّتي حَرَّفُوا فيها دينَ اللَّهِ وبَدَّلُوه، فلمَّا أدْخَلُوا تَحْرِيفاتهم وتَبْدِيلاتهم الاعتقادية والسُّلوكيّة على دين الله، صار الشَّيْطَانُ هو وليَّهُمْ اليوم في الحياة الدنيا، يتولَّىٰ إغواءَهم فيَسُوقُهم أو يقودُهم موغلين في أوديَةِ الضَّلالِ والغَوَايَة.

ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ يَوْمَ الدِّين، أي: لأنَّهم كَذَّبُوا رَسُولي الَّذِي خَتَمْتُ بِبِعْثَتِهِ النبّوات والرّسالاتِ، وكذّبُوا بما جاءهم به عَنّي، واتَّبَعُوا أهواءهم، وتقاليدَهم العمياء.

(٥) وجاء في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول) في معرض الَّذِين كذّبوا رسُولَ الله محمّداً ﷺ، وكذَّبُوا بما جاءَهُمْ به عنْ رَبّه:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾﴾:

﴿وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾: هُمْ أَحْزابُ الكُفْرِ الَّذِينَ كَذَّبُوا رُسُلَ اللَّهِ الَّذِينَ جاءُوا بَعْدَ نُوحٍ عليه السَّلام، مبْعُوثين لأقوامهم.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾: أيْ: ليأخُذوهُ أَخْذَ عَذابٍ وإهْلاَكٍ، ولَكِنْ كانَ هَمُّهُمْ دُونَ مُسْتَوىٰ الإِرادَةِ المقرونَةِ بالتَّنْفِيذ.

﴿وَجَٰدَلُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ﴾: أي: وجادَلُوا بالكلام الباطِلِ في حقيقَتِه، المزَخْرَفِ في ظاهره، لِيُدْحِضُوا به الحقّ، أي: لِيُزْلِقُوا به الحقّ الذي جاء به رسُولُهم، في مزالق الشُّبُهات والتَّلْبِيسات، فَيُزِيلُوهُ عن مواقع ثباته في أذهان وقلوب المؤمنين به.

الإدْحَاض: الإزْلاَقُ في المزالق للإسقاط.

﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾: أي: فأخَذْتُهُمْ أَخْذَ تَعْذِيبٍ وإهلاكٍ عُقُوبَةً معجَّلَةً لهم في الدُّنيا.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾: أيْ: فَانْظُرْ أيُّها المتَفَكِّرُ بسُنَنِي في عبادي، كَيْفَ كان عَقابي الشديدُ الأليم المخيف.

(٦) وجاء في سورة (المؤمِنُون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بعد الحديث عن إهلاك قوم نوحٍ وقوم هودٍ عليهما السّلام:

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ القَرْنُ، أَهْل زمانٍ واحد، وجمعه قرون.

● ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ ﴿٤٣﴾﴾: أي: وأهلكنا الأُمَم الكافِرَةَ مِنْ هٰذِهِ القرونِ، في آجالها المحدَّدةِ بقضائنا وقَدَرِنا، والمعلومَةِ والمكتوبةِ، أخْذاً ممَّا جاء في نُصُوصٍ أخرىٰ.

وحين إهلاكها مَا يَحْصُلُ سَبْقٌ، وَلاَ تَأْخِيرٌ لأُمَّةٍ عَنْ أَجَلِها المقرَّر المحدَّدِ لإهلاكها، فالمرادُ نَفْيُ وُجودِ وحُصُولِ السَّبْقِ أو التأخُّر، لاَ نفي أنَّ الأمَّة تحاولُ أَوْ تَطْلُبُ تَعْجِيلَ أَجَلِ إهلاكها، أو تأجِيلَهُ، فهذا غَيْرُ وارِدٍ، لأنَّ إهلاكها يأتي بَغْتَةً.

ومثل هذا الاستعمال يُعَبَّر به عن حصول الشيء ووُجُودِهِ إِثْبَاتاً أو نفياً، نظير استعمال «كان» تامَّةً لا تحتاجُ إلى خبر.

● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ أي: ثُمَّ أَرْسَلْنا رُسُلَنا مُتَتابعين، مع فاصلٍ زَمَنِيّ بَيْنَ الرَّسُول وَبَيْنَ الَّذِي يَأْتي بَعْدَه، وهٰذا معنى «تَتْرَا».

● ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُ﴾: أي: كَذَّبُوه في أنَّه نبيُّ اللَّهِ وَرَسُولُه، وكذَّبُوهُ بما جاءَهُمْ بِه عَنْ رَبّه.

● ﴿فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُم بَعْضًا﴾: أي: فأتْبعْنا بعْضَهُمُ المتأخِّر بَعْضَهُمُ المتقدّم بالتَّعْذِيب والإهلاك الشامِلَيْن.

● ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾: أي: واسْتَأْصَلْنَاهُمْ فَلَمْ يَبْقَ في الحياة شيءٌ يَتَّصِلُ بهم إلاَّ الأحاديثُ الَّتي تُرْوَىٰ عَنْهُمْ، وعَنْ كُفْرِهم، وعن إهلاك الله لهم وهٰذا قد حصل بالنسبة إلى الّذين لم تبق لهم آثارٌ.

● ﴿فَبُعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾: أي: فَطَرْداً ولَعْناً وإهلاكاً لِقَوْمٍ لَيْسَ لَدَيْهِمُ الاسْتِعْدادُ لأنْ يُؤْمِنُوا مَهْمَا أَمْهَلْنَاهُمْ في رِحْلَةِ الابتلاء.

● ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾﴾:

أي: ثم أرسلناهما رسولين يبلغان عنّا الدين، الذي اصطفيناه لعبادنا إيماناً وعملاً، مصحوبين بآياتنا البيانيّة التي تُتلى، ليتّخذها الناس ذكراً، ومصحوبين بسلطان مبين، والمراد به المعجزات التي آتاها الله لموسى عليه السلام.

• ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَاسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾﴾:

ملأُ فرعون: حاشيتُهُ وكبارُ قومِه الذين يدعمون مُلْكَهُ وجبروته في الأرض.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن اتّباع موسى وأخيه، المرسَلَيْنِ إليهم من ربّ العالمين.

﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾: أي: شاعرين بأنّهم في مكان العُلُوّ فوق سائر الناس، فكيف يتّبعون إنسانين بشرين من قوم مستعبدين لهم.

• ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: إنّ هذا أمرٌ لا نفعله لأنّه يحطّ من مكانتنا العالية في جماهير شعب مصر، إذْ يجعلنا أتباعاً، بينما نحن سادةٌ مطاعون طاعةً تشبه العبادة.

• ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾: أي: فكان آخر أمرهم بعد إمهالٍ طويلٍ من الله لهم، أنْ أصرّوا على تكذيبهما ورفض اتّباعهما، فعلِمَ اللّهُ من حقائق ما في نفوسهم أنّهم لن يؤمنوا مستقبلاً مهما أملى وطوّل لهم، وأمهلهم، فقدّر وقضى أنْ يُهلكهم، فكانوا من فريق المهلكين الذين أهلكهم الله من أُمم الكفر.

ولقد دلّت هذه النصوص على تشابه الأقوام والأمم في مواجهاتهم لرسل ربّهم، ومعاملتهم لهم.

❁ ❁ ❁

الفصل الثاني
حول تطبيق الله سُنّتهُ في العذاب التخويفي التأديبيّ قَبلَ الإهلاك الشامل

(١) جاء في سُورَةِ (الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول) خطاباً لِرَسُوله محمّدٍ ﷺ:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾:

سبَقَ تَدبُّرُ هذا النصّ تَدبُّراً كشَفَ مَا دَلَّ عليه من تطبيقات الْعَذابِ الجزئي التأديبيّ التخويفي، من تَوْطِئاتٍ وتَمْهِيداتٍ رَبَّانية مُذَكِّرَة ومُنَبِّهةٍ وواعظة لمن لدَيْه استعدادٌ لأن يتعظ.

ولكِنْ لم تَنْتَفِعْ بِهَا الأمَمُ الّتي قضىٰ الله بعْدَ ذلك بإهلاكها.

(٢) قول الله عزّ وجلّ في سورة (الزخرف/٤٣ مصحف/٦٣ نزول) بشأن فِرْعَوْن وَمَلَئِه وَقَوْمِه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾:

• ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾: الآيات تنطَبقُ على الآياتِ البيانيَّة الّتي تتضَمَّنَ أوامر الله ونواهيه، كالنهْي عن الشِّرْك، وقَتْلِ النَّفْسِ التي حرَّم الله إلاّ بالحق، والسَّرِقة، والزّنا، والسّحر، ونحوها.

وتنطَبِقُ أيضاً على الآيات الدَّالاَّتِ على صِدْق موسى عليه السلام في أنّه رَسُولٌ مُرْسَلٌ من رَبِّ العالمين، مثل آيَةِ العصا، وآيَةِ الْيَد.

ولكن عبارة: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنۡهَا يَضۡحَكُونَ ٤٧﴾ تَدُلُّ على أنَّ المراد الآياتُ الّتي تتضَمَّنُ أوامر الله ونواهيَهُ، لأنّها هي الآيَاتُ الّتي تُثِيرُ ضَحِكَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِه، إذْ هُمْ في واقِعِهِمُ الْعَمَلِي يُخَالِفُونها ويعْتَبِرُونَ ما يمَارِسُونه من الْعَادَاتِ المستحبَّاتِ الّتي لا يَصِحُّ لِأَحَدٍ أنْ يُعَارِضَهُمْ فيها.

أمّا الآيَاتُ الإعجازيَّةُ فلا تُثِيرُ الضَّحِكَ، فآيَةُ العصا الّتي تَنْقَلِبُ ثُعْبَانَا مُبيناً، آيَةٌ مُخِيفَةٌ تُثِير في الْقُلُوبِ الحذَرَ والرَّهْبَة، والانبهَارَ والدَّهْشَة. وآيَةُ إدْخال الْيَدِ في الجيب وإخراجها بيْضَاءَ مُتَلأْلِئَةً كالمصْباح الدُّرّيّ، آيَةٌ مُدْهِشَةٌ تُثير الإعْجَابَ. وآيَاتُ الْعَذاب العامّ كالطوفان والجراد والْقُمَّلِ والضفادع والدَّم، آيَاتٌ تُثِيرَ الأَلَمَ واسْتِجْداءَ رَفْعِ البلاء.

● ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنۡ ءَايَةٍ إِلَّا هِيَ أَكۡبَرُ مِنۡ أُخۡتِهَاۖ﴾: المرادُ من الآياتِ هُنَا آيَاتُ الْعَذَابِ، إذْ هِيَ الّتي تُوصَفُ بأنَّ بَعْضَها أكْبَرُ من بَعْض، وهي الّتي يلائِمُها قَوْلُ اللّهِ عَقِبَها: ﴿وَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡعَذَابِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾. أي: وقَبَضْنَا عَلَيْهم، وأنْزلنا بهم آياتِ العذابِ آيَةً فآيَةِ بالتتابع مع فواصِلَ زَمَنِيَّةٍ بَيْنَ كُلِّ آيَةٍ والآيَةِ التالِيَة لها، رَغْبَةً فِي أنْ يَرْجِعُوا عن غَيّهِمْ فَيُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا، وكانت الغاية مِنْها التخويفَ، والتأديبَ والإنْذارَ بالإهلاكِ الشامل.

● ﴿وَقَالُواْ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ٤٩﴾.

طَلَبُوا مِنْ مُوسَىٰ عليه السلام أنْ يَدْعُو رَبه لِيَرْفَعَ عَنْهُمْ مَا نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عذابٍ، ووعَدُوه بأن يُؤْمنوا ويُسْلِمُوا لَهُ إذا رَفَعَ رَبُّهُ الْعَذَابَ عَنْهُمْ.

ومع هَٰذا الطلب لم يَسْمَحُوا لأنفُسِهم بأنْ يَقُولُوا له: يا أيُّها الرسُول، بل أَصَرُّوا على اعتبارِه ساحراً، فقالُوا له: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ وقَدْ تَجاوز عَنْها مُوسى عليه السلام رَغْبَةً في أَنْ يُؤْمِنُوا ويُسْلِمُوا.

﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾: أي: بما جعَلَ عِنْدَك مِنْ عَهْدٍ في أَنْ يَسْتَجِيبَ دُعَاءَك إِذَا دَعَوْتَه.

﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾: أي: لَئِنْ رَفَعَ رَبُّكَ عَنَّا الْعَذَابَ بِدُعائك إنَّنا لَمُهْتَدُونَ إلى ما هَدَيْتَنا إِلَيْهِ من إيمانٍ، وإسْلَامٍ، وعَمَلٍ بأوَامِرِ اللَّهِ ونواهِيه.

كانت هٰذِهِ العبارَةُ وعْداً مُؤَكَّدَ بِعِدَّةِ مُؤَكِّدَاتٍ، وفيها استعطافٌ لموسَىٰ عليه السّلام ليَدْعُو رَبَّهُ، باعتبار أنَّ مَا يَدْعُوهم إليه هو من قبيلِ الْهِداية، وما كانوا ليفْعَلُوا ذَلِكَ لَوْلاَ مُعَانَاتُهُمُ الشَّدِيدَةُ من البأسَاءِ والضَّرَّاءِ الَّتي نزلَتْ بهم تأدِيباً وإنْذاراً.

● ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾﴾: أي: فَدَعا موسَىٰ رَبَّهُ فَكَشَفَ عَنهم ما أنْزَل بهم من أنواع عذابٍ جُزْئيّ تأديبيّ وإنْذارِي:

﴿إِذَا﴾ فُجائِيَّةٌ ﴿هُمْ يَنكُثُونَ﴾: أي: يَنقُضُونَ عَهْدَهُمُ الَّذِي عاهدوا عليه موسَىٰ عليه السَّلام، جاء التعبير بالمفاجأة إذْ كانَ من المرتَقَبِ منْهُمْ أَنْ يَفُوا بِعَهْدِهِم فَيَهْتَدُوا، لاَ أَنْ يَنْقُضُوا عَهْدَهم، فَيُصِرُّوا على مَا كانُوا فيه من كُفرٍ.

(٣) وقول الله عزّ وجل في سُورَة (المؤمنونَ/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول): بشأن كُفَّارِ مكّة إذْ دعا الرَّسُولُ محمّد ﷺ عليهم بأنْ يُعَذِّبَهُمُ الله بسنِين كَسِنِي يُوسف، فاسْتَجَابَ اللَّهُ له فَأَنْزَلَ بِهِمْ عَذَابَ الْقَحْطِ والجوع.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: ولَقَدْ قَبَضْنا عَلَيْهِمْ بالْعَذَابِ الَّذِي لَيْسَ بالشدِيدِ على طريقَةِ الإِنْذَارِ الأَوَّلِي التَّأْدِيبيِّ التمهيدي.

● ﴿فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ﴾: أي: فَمَا خَضَعُوا وَلاَ ذَلُّوا لربِّهم الذي يُمِدُّهم بعطاءات رُبُوبيَّته. بل اسْتَمرُّوا على ما كانوا فيه من كفر وعِنادٍ.

يقال لغة: اسْتَكَانَ الرَّجُلُ، أي: خَضَعَ وَذَلَّ.

● ﴿وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾: أي: وما كانوا يُوالُونَ التَّذَلُّلَ لِرَبهم، داعِينَ، مستَجْدينَ أَنْ يُرْفَعَ ما نَزَلَ بِهِمْ مِنْ عَذَابٍ ابْتدائي، استعمال الفعل المضارع هنا يدُلُّ على أن الدُّعاءَ لِرَفْعِ البلاء بالعذاب يحتاج مُتَابعةً في التَّضَرُّع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾﴾:

أي: واسْتَمَرُّوا غير مُسْتَكِينينَ لِرَبهم وَمَا يَتَضَرَّعُون، حتَّىٰ وقْتِ فَتْح باب ذي عَذَابٍ شَدِيدٍ عليهم، بِالْقَتْلِ في بَدْرٍ وبالهزائم المنكرة الَّتي كانَ فَتْحُ مَكَّةَ آخرِهَا، إِذَا هُمْ في هذا العذاب مُبْلِسُونَ.

﴿مُبْلِسُونَ ﴾: أي: سَاكِتُونَ، ساكِنُونَ، نَادِمُونَ، مُتَحَيِّرُون، غَيْرُ قادِرِينَ على أَنْ يَصْنَعُوا شيئاً لِرَفْعِ العذاب الشديد عنهم.

وكان قد نزل بشأنهم أيضاً قَوْلُ الله تعالى في سورة (النحل/ ١٦ مصحف/ ٧٠ نزول):

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾:

كان هذا العذابُ الَّذِي نَزَل بهم تَأْدِيباً وإِنْذَاراً وتَهْدِيداً بما هو أشد، وهو ما جاء بيانه في النَّصّ السّابق.

﴿رَغَدًا ﴾: أي: كثيراً طيّباً واسِعاً غزيراً رَفِيهاً.

﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾: أي: من كلِّ مَكَانٍ يُصَدَّرُ مِنْهُ رِزْقٌ بالنَّشاط التجاري.

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ ﴾: في هَٰذِهِ العبارة تَشْبِيهُ ما نَزَلَ

بهم من جُوعٍ وَخَوْفٍ على حياتهم باللّبَاسِ، لأنَّهُ كَانَ ذَا شُمُولٍ كَشُمُولِ اللّباسِ معظمَ الْبَدَنِ. وَشَبَّهَ مِقْدَارَ ما نَزَلَ بِهِمْ بالذَّوَاقِ، لأنَّ الألم به كان كالألم لدىٰ ذَواقِ الشيء الشديد المرارة، أو الشديد الحرارة.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾: أي: فقبَضَ عليهُم العَذَابُ في حالة كَوْنِهِمْ ظالِمين، متجاوزين حدُودَ الحقِّ والعدْلِ والخيْرِ والفضيلة، إلىٰ الْبَاطِلِ والجور والشرّ والرذيلَة.

❁ ❁ ❁

الفصل الثالث
حولَ بيانِ حالِ الكفّارِ بمحمّد ﷺ من أهل مكة وهو فيهم يدعُوهُمْ إلى دين الله الحقّ

(١) جاء في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول) بِشأنِ حَالِ كُفَّارِ مكّة قبلَ أَنْ يَبْعث اللّهُ إليهم رسُوله محمّداً ﷺ:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾:

﴿جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ﴾: أي: غاية ما لَدَيْهِمْ من أيمَانٍ مؤكَّدةٍ مُشَدَّدة.

جَهْدُ الشيء: يأتي في اللُّغة بمعنىٰ غايتِه ونِهَايته. وبمعْنَىٰ وُسْعِهِ وطاقته. ويأتي الْجَهْدُ بمعنىٰ المشقة.

● ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾: أي: ولا يُصِيبُ ولاَ يَنْزِلُ التَّدْبير السَّيِّئُ ولاَ يُحِيطُ إلاّ بأَهلِهِ، المستحقِّين أَنْ يُصِيبَهُمْ، وهُمُ الكَفَرَةُ الظَّلَمَةُ الْمُفسِدُون.

دَلَّ هٰذا النَّصُّ على أنّ كُبَراءَ مُشْرِكي قُرَيشٍ، كانُوا يَقُولُون قَبْلَ بِعْثَةِ الرَّسُولِ محمّد ﷺ مُقْسِمِين باللَّهِ أَبْلَغَ أَيْمَانِهِمْ وأَشَدَّهَا وأقواها: لَئِنْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ من عِنْدَ الله، فبلَّغَهُمْ عن اللَّهِ، وَبَشَّرَهُمْ وأَنْذَرَهُمْ، لَيَكُونُنَّ أكْثَرَ هِدَايَةً من النَّصارى الّذِينَ جاءهم عيسَىٰ علَيْهِ السَّلام، أو مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ جاءهم موسَىٰ وَهارُونَ عليهما السّلام، بِحُسْنِ الْفَهم، وحُسْنِ الاتّبَاع، إذْ كانُوايَرَوْن تَفَوُّقَ الْيَهُودِ وَالنَّصارَىٰ عليهم في الْهِدَايَةِ، بسَبَب الرُّسُل الّذِينَ بَعَثَهُمُ الله عزّ وجلَّ فيهم لهدايتهم، والكُتُب الَّتي أَنْزَلَهَا إلَيْهِم.

فلَمَّا بَعَثَ الله فيهم رسُولَهُ محمّداً ﷺ مَا زَادَهُمْ مَجِيئُهُ فيهم إلاَّ نُفُوراً من دين الله الحقّ، وتَمَسُّكاً بِشِرْكِهِمْ، وَجَاهِليّاتهم، ولم يَفُو بوُعُودِهم السَّابقة الّتِي كانوا يَقُولُونها، مفاخَرَةً بقَوْمِيَّتِهِمْ وأعراقهم، واسْتِعْدَاداتهم الفطريَّةِ، في مقابل شعورهم بتَفَوُّقِ أهْلِ الكِتَابِ عليهم، بسبب الرُّسُل الّذين أَرْسَلَهُمُ الله إليهم، والكُتب الّتي أنزلَها عليهم، لاَ بسَبَب تميُّزهم الذَّاتِيّ عليهم.

ومن الملاحظ أنّ كُلَّ الَّذِينَ يَفْتَخرون بأعراقهم الْقَوْمِيَّةِ يقولُون مثلَ هذا القول، إذا رأَوْا غيرهم تفوَّقُوا عليهم بعِلْمٍ أوْ حَضارةٍ، بسَبَبٍ خارجٍ عن تميّزِهم الذاتي بخصائص تكوينيَّة.

والسبب الّذي جعل كُبَراءَ مشركي مكةَ يَرْفضُون دعوة الرسول محمّد ﷺ ويَنْفِرونَ مِنْها، يَرْجعُ إلى باعِثَيْن نَفْسِيَّيْن:

الباعث الأول: الاسْتِكْبَارُ في الأرض، إذْ رأَوْا إيمانهم بالرَّسُولِ يُلْزِمُهُمْ باتّباعه، والخُضوع لقيادَتِه، وهذه قضيَّةٌ تتنافَىٰ مع مَشاعِرِ الاستكْبارِ في نفوسِهم.

الباعث الثاني: أنّ الإيمان بالرَّسُولِ وبما جاء به عن ربّه يمنَعُهُمْ مِنْ كثيرٍ من مصالحهم ومنافعهم الماديَّة والنَّفْسِيَّة الّتي يَحْصُلُونَ عليها، باسْتخدامِ

أنواعٍ من المكر السَّيِّىءِ الّذي يَمْكرونه بجماهيرهم، وبغَيْرِهِمْ من الوافدين إليهم من شتَّىٰ قبائل الْعَرَب.

فالاسْتِكْبَارُ والمكْرُ السَّيِّىءُ هُما الأمران اللَّذانِ جَعَلاَهم يَنْفِرُون من دعوة الرسُول ﷺ.

وبما أنَّ المكْرَ السَّيِّىءَ لاَ يَحيقُ إلاَّ بأَهْلِهِ، بمقتضَىٰ سُنَّةِ اللَّهِ في عباده، فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إلاَّ أَنْ تَنْزِلَ بهِمْ سُنَّةُ اللَّهِ الّتِي أنزلَها بالكُفَّارِ السَّابقين في القرون السَّالفة، وهي سُنَّة التعْذِيب فالإهلاك الشامل، إذا وصَلَ القوْمُ إلى حالةٍ ميْؤوسٍ مِنْ صلاحِهم معَها عن طريق إراداتهِمُ الحرَّة.

ولَنْ تجدَ لسُنَّةِ اللَّهِ السَّابقةِ في تاريخ الناس تَبْدِيلاً لمَضْمُونها في المستقبل، ولَنْ تَجِدَ لَهَا تَحْوِيلاً عن مجراها.

(٢) وَجاء في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) بشأن كُبَراءِ مُشْرِكي قُرَيشٍ أيضاً:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾﴾:

• ﴿إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ﴾: أي: إلَىٰ مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ مَعْدُودَةِ الأجْزَاءِ عند الله.

• ﴿لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾: أي: لَيَقُولُنَّ على سَبِيلِ الاسْتِهْزَاءِ الدَّالِّ على إنكارهم نُذُرَ الْعَذَابِ: أيُّ شيْءٍ يمنَعُهُ عن أن يَنْزِلَ بِنا، وقَدْ بلَغَنا من دعوة محمَّدٍ أبلَغ الْجُحُودِ، وبلَغْنَا من الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه الاضطهادَ، والعداءَ، والتَّهَيُّؤ للحرْبِ.

• ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾: أي: تَنبيهٌ عامٌ، يَوْمَ يأتِيهِمُ العذابُ المقَدَّرُ لَهُ مُدَّةٌ زَمَنِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، اقتَضْتَها الحكْمَةُ البالغة، لَيْسَ مَصْرُوفاً عَنْهُمْ مُطْلَقاً مَهْمَا اتَّخَذُوا من وسائل.

• ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾: أي: وأصابَهُمْ، ونَزَلَ بهم العذابُ الَّذِي كانوا يَسْتَهْزِئُون بالإنْذَاراتِ الَّتي كانت تُوَجَّهُ لَهُمْ بشأنه.

❀ ❀ ❀

الفصل الرابع
حول ما جاء في القرآن بشأن مُستقْبَل المجّمعاتِ التكنيّة وتوابعها في تاريخ البشريّة المستقبليّ

جاء في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وَما مِنْ أهل قريَة من قُرَىٰ الناس في الأرْضِ يَظلِمُونَ، ويَسْتَحِقُّون بمقتضَىٰ سُنَّة الله الإهْلاَكَ أو التَّعْذِبَ الشَّدِيد، إلاَّ نَحْنُ مُهْلِكوها إذا اسْتَحَقَّتِ الإهلاك، أو مُعَذِّبُوها إذا اسْتَحَقَّتِ العذاب دُونَ إهلاك.

وقَدْ يكونُ نَبأً عامًا شاملاً كُلَّ المجمَّعَاتِ السّكَنِيَّةِ للناس في الأرض، ولِتَوابِعها. وإذا كان هذا هو المراد، فقد عَلِمَ الله جلَّ جَلالُهُ، أَنَّ الناس في كلّ مجمَّعَاتهم السّكَنِيَّة وَلواحِقِها، سَيَفْسُدُونَ في الأرض فساداً يَسْتَحِقُّونَ عليه بمقتضَىٰ سُنَّتِه أَنْ يُهْلِكَهُمْ إهلاكاً شاملاً كما أَهْلَك كثيراً من كُفَّارِ أهل القرون السالفة، أو يَسْتَحِقُّون أنْ يُعَذَّبُوا عذاباً شدِيداً.

وهذه الحقيقة المستقبليَّة مَسْطُورَةٌ مَكْتُوبَةٌ في الكتاب عند الله جلَّ جلاله، وسَمَتْ حِكْمَتُهُ، وعظُمَ سلطانُه.

❀ ❀ ❀

الفصل الخامس

حول تطبيق سُنَّة الله عزّ وجل في إهلاك الأمم إهلاكاً شاملاً مقروناً بتغذيبهم لأَنَّهُمْ صَارُوا بُؤرَةَ فَسَادٍ وإفسادٍ، وأُمَّةً ميئُوساً من صلاحهم عن طريق إراداتِ أفرادها الحرَّة

(١) جاء في سورة (القصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول) قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾:

أي: وَعَدداً كثيراً مِنَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهَا جزاء أنَّها بَطِرَت مَعِيشَتَها والمراد أَهْلُ هذه القرى.

﴿بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾: أي: بَطِرَتْ في معيشَتِها الّتي كانت فيها ذاتَ نِعَم كثيرة ورَخاءٍ وسَعَةٍ، والمرادُ الاستكبارُ بها، وجُحُودُ حقِّ المنْعِم الذي أَنْعَمَ بها عليها، فكفَرَتْ به، واستكْبَرَتْ عن الإيمان به وبِرَسُوله، وعن طَاعَتِه بفِعْلِ ما أمَرَ به، واجتناب ما نهىٰ عنه، فتمادتْ في ضلالها وفسادها، حتَّىٰ استحقت بحكْمَةِ اللَّهِ أن يُعَذِّبَها، ويُهلِكَها إهلاكاً شاملاً، ففعل ذلك بها.

وجاء في هٰذِهِ الآيَةِ الكنايَةُ عَنْ إهْلاك أهل هذه القرىٰ، بالإشارة إلى مساكنهم الّتي لم تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلاَّ قَلِيلاً، وما جاء في هذا النصّ إهلاكٌ لم تُدَمَّرْ معَه الْقُرىٰ.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾: أي: لم نَجْعَلْ لمسَاكِنِهم خَلاَئِفَ يرِثُونَهَا، بَلْ صارَتْ لاَ مَالِكَ لَهَا مِنَ الناس، وانْكَشَفَ أَنَّ مالِكَها هو الله الرَّبُّ خالِقُها، الذي له ما في السماوات وما في الأرض.

(٢) وجاء في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ في معرضِ خِطَابه لمُشرِكي أهْلِ مكة إبَّانَ التنزيل:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَـٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

أي: ويَا كُفَّارَ مكَّةَ قد أَهْلَكْنَا مَا حَوْلكم من أهْل الْقُرَىٰ، كَقَوْم هُودٍ، وقوم صالح، وقوم لُوطٍ، وقَوْمِ شُعَيْبٍ، لأنَّهم وصَلُوا في الكُفْرِ والعناد والفساد والإفساد إلى دَرَكَةٍ اسْتَحَقُّوا بها الإهْلاَكَ الشامل في الحياة الدُّنيا، قبل العذاب الخالد يوم الدّين.

وكُنَّا قبل إهلاكهم صَرَّفْنَا الآيَاتِ، أي: نَوَّعْنَا في تقديم الآيات لهم، لنحاصِرَهُمْ بالأدلَّةِ من كُلّ جانب، فتتوافر لَدَيْهم القناعَةُ بالحقّ، فيَسْتغْفِروا ويَتُوبوا إلى بارئهم، ويَرْجِعُوا إلى الَّذِي ابْتَعَدُوا عَنْهُ بِشِرْكِيَّاتهم وجاهِلِيَّاتهم وضلاَلاَتهم.

● ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾:

أي: فَهلاَّ نَصرَهُمْ حِينَ وَجَّهَ اللَّهُ لهم أسْبَابَ العذابِ والإهلاك الشَّامل، الَّذينَ اتَّخذُوهم آلِهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَعَبَدُوهُمْ زاعِمِينَ أنَّهم بِعِبادَتِهِمْ يُقَدِّمُونَ قُرْبَاناً إلى الله.

الْقُرْبان: كُلُّ مَا يُتَقَرَّبُ بِهِ إلى اللَّهِ مِنْ عبادة.

﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾: أي: لم يَنْصُرُوهم، بلْ ضَاعُوا عنهم فلم يَجِدُوا لهم أثراً، أوْ لَمْ يَجِدُوا لهم نفعاً.

﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾: أي: وَذَلِكَ التعذيب والإهلاك، هو جزاء إفكِهِم المعجّل في الدنيا، وجزاءُ ما كانوا في رحلة امتحانهم يفْترون.

﴿إِفْكُهُمْ﴾: أي: كَذِبهمْ على الله.

﴿وَمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾: أي: وما كانوا يختلِقُونَ من ضلالاتٍ، وينْسُبُونَها إلى الدِّينِ ويَعْمَلُونَ بها.

(٣) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول) خطاباً لرسوله محمّد ﷺ، في مَعْرِضِ بيان اعْتِرَاض قَوْمه على بَشَرِّيتهِ، وتَكْذِيبهم إيَّاه، واتِّهَامِهم له بأنَّه افترىٰ القرآنَ من عِنْدِه ونسَبَهُ إلى الله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَـٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَـٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَـٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

• ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾: أي: فاسألوا أهلَ العِلْمِ مِنْ حُفَّاظِ تَاريخ الأُمَمِ السَّالِفَةِ: هَلْ كانَتْ أنْبِيَاؤُهُمْ وَرُسُلُهُمْ إلاَّ رِجَالاً من البشر. اصْطَفَاهُمْ الله من بين الناس بالوحي إليهم، وبَعَثَهُمْ إلى أقوامِهم لِيُبَلِّغُوا الناسَ ما أنْزَلَ رَبُّهم إليهم.

وجاء استعمالُ «إنْ» في الشرط دون «إذا» للإشعار بأنَّهُمْ يَعْلَمُونَ هٰذِهِ الحقيقة فهم لا يحتاجون سؤال أهل الذكر، فإن الشرطية تُسْتَعمل كثيراً فيما هو غير واقع.

﴿وَمَا جَعَلْنَـٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ ﴾: أي: وَمَا جَعَلْنَاهم كالملائكة، بَلْ هم بَشَرٌ يأكلون الطعام مثل سائر البشر.

• ﴿وَمَا كَانُواْ خَـٰلِدِينَ ﴾: أي: بل ماتوا كما مَاتَ ويَمُوتُ سائر الناس، إذ الحياة الأولى لا خُلُودَ فيها لأحَدٍ.

• ﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾: أي: ثُمَّ بَعْدَ مُدَّةِ إمْهالٍ لأقوام الرُّسُلِ، لِقَطْعِ كُلِّ أعْذَارِهِم الّتي يُمكِنُ أنْ يَعْتَذِرُوا بها، صَدَقْنَا رُسُلَنا ما كُنَّا وَعَدْنَاهُمْ إيَّاه من النجاة من كلّ مكايِد مكَذِّبيهم من أقوامهم، ومِنْ تَعْذِيب وإهلاكِ المكذّبين الّذين أرادُوا بهم وبالَّذِين آمَنُوا بهم واتَّبَعُوهم شرًّا وضرًّا.

• ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾: أي: لَقد أنْزَلْنَا إليكُمْ كتاباً هو القرآن الَّذِي يُبَلِّغُكُمْ إيَّاهُ رسُولُنَا مُحمّد.

وفي هذا الكتاب ذِكْرُكُمْ، أي: فيه شَرَفٌ لكُمْ لأنَّهُ نَزَلَ بلُغَتكم، فالخطابُ مُوجَّهٌ لمكذّبي الرَّسُولِ محمد ﷺ من قومه العَرب.

وفي هذا الكتاب ذِكْرُكُمْ، أي: ما يجب عليكُمْ أَنْ تَذْكُروه من شرائع وأحكام رَبّكم الّتِي اصطفاها لَكُمْ، والّتي ترتَبِطُ باتّباعها سعادتكم في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة. والخطابُ على هذا المعنىٰ مُوجَّهٌ لكلّ الناسِ من بَعْدِ بِعْثَةِ محمّد ﷺ.

أفلا تَعْقِلُونَ أهواءَكم وشهواتِكم بإرادةٍ عاقلةٍ حازمة، فَتَتَّبِعُونَ الحقَّ بِبَصِيرَةِ ذوي الْعَقْل العلميّ والعقل الإرادي، فلا تَنْزَلِقُوا إلى شقاوَتكم، والعذاب الأليم الّذي أعْتَدَهُ الله جلّ جلالُهُ وعظُم سُلْطانُهُ للْمُجْرِمِينَ الظّالمين.

• ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾: أي: وعَدَداً كثيراً من الْقُرَىٰ سَبَقَ في تاريخ الناس أنَّنا قَصَمْنَا أَهْلَها الظّالمين، لأنّهم كذّبوا رُسُلَ رَبّهم وأجْرَمُوا.

﴿مِن قَرْيَةٍ﴾: أي: من أهل قرية، وهذا الإطلاق هو من قبيل المجاز المرسل.

القصم في اللغة: الكَسْرُ، والمرادُ من كَسْرِ أَهْلِ القرى الظالمين، إهلاكُهُمْ بقُوَّةٍ تَكسِرُ وتُحَطِّمُ كلَّ قُواهم ودِفاعاتِهم وحُصُونهم.

• ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾: أي: فلمَّا أَحَسُّوا بحواسّهم الظّاهِرَةِ مُقَدِّماتِ إنْزالِ أَسْبابِ العذاب والهلاك بهم.

البأس: العذاب.

• ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾: أي: فاجَؤوا برُدُودِ أَفْعَالٍ سَرِيعَةٍ، يَبْتَغُون الفِرَار من مواطن تنزُّلِ أسباب تَعْذِيبهم وإهلاكهم، فجَعَلُوا يَرْكُضُونَ مِنْ جهة مساكِنِهِمْ إلى خارجها.

لكِنْ لا يَنْفَعُهم الفرارُ، فقد جعل الله وسَائِلَ تَعْذِيبهم وإهلاكهم تحيطُ بهم من كلّ جانب، وتحاصِرُهم حِصَاراً تاماً.

• ﴿لَا تَرْكُضُواْ وَارْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾﴾:

كان لسانُ حال كلّ جهةٍ يَرْكُضُونَ إليها يَقُولُ لهم: لا تَرْكُضُوا فَارِّينَ من نوازل أَسْبابِ العذاب والهلاك، فقد أحاطَتْ هذه الأَسْباب بكم من كلّ جانب، وارْجِعُوا إنْ كانت لكم قدرةٌ على الحركة، إلَىٰ ما أُتْرِفْتُمْ فيه من زينَةِ الحياة الدُّنيا، فَعَصَيْتُم الله به، واتَّخَذْتُمْ منهُ وسائلَ لمُقَاوَمَة دَعْوَةِ رُسُل ربّكُمْ، واضطهاد الّذِينَ آمَنُوا بهم واتّبَعُوهم، وارْجِعُوا إلى مساكِنكُمُ الّتي كنْتُمْ تتفاخرون بها، وتَحْتَمُون بِجُدْرانها وأَسْوَارِها، لعلكُمْ تُسْأَلُونَ إنْ وَصَلْتُمْ إليها من قبل أَهْلِكم عَنْ سَبَب هذا العذاب المهلِك الذي نزل بكم فأَخَذْتُمْ مِنه تَفِرُّون مَذْعُورِين، أَوْ تُسْأَلُونَ عن مساعدتهم بأسباب النجاة.

فإنْ سُئِلْتُمْ فسَتُجِيبون بأنكم كنتُمْ ظالمين، دلَّ على هذا ما يلي:

• ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾:

أي: فَمَا زَالُوا يُرَدِّدُون قَوْلَهُمْ: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾: نداء توجّع وتَحسُّرٍ وَنَدَمٍ بسبب ما نزل بهم من عذاب.

«وَيل» كَلِمة عذاب، وهي تُقال عند نُزول العذاب، وتقالُ عِنْدَ الإنْذار والتَّهْدِيد والوعيد به. ونداء هذا الويل نداءُ نَدمٍ وتَحَسُّرٍ وتَوجُّع.

إنّهمْ يُرَدِّدُون هٰذِهِ العِبَارة، معترفينَ بما كان منهم من ظلم، عالمين بأنَّ ما نزلَ بهم من عذاب الله المهْلِكِ، إنّما هو بسبب ظلمهم، طامعين بأنْ يخفِّفَ اللّٰهُ عنهم.

وتوالَتْ عليهم ضربَاتُ عذَابِ اللّٰهِ المهلِكِ، حتَّىٰ جعَلَهُمْ رَبُّهُمْ كحصِيد الزَّرْع، هَلْكَىٰ خامِدِينَ، لا حركة لهم، ولا حَرَارَة فيهم.

لَقَدْ خَمَدُوا كما تَخْمُدُ النارُ فتصير رماداً.

لم يَنْفَعهْم اعترافُهم بظُلْمِهِمْ حينئذٍ، لأنَّهُ قد انتهىٰ دَوْرُ الابتلاء منذ بَدْءِ نزول العذاب بهم، وجاءَتْ مَرْحَلَةُ مُقَدّماتِ الجزاء.

(٤) وَجاء في سورة (محمّد/٤٧ مصحف/٩٥ نزول) قول الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمَّدٍ ﷺ:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾:

﴿وَكَأَيِّن﴾: كلمة مُبْهَمة تَدُلُّ على تكثير العدد، ﴿مِّن قَرْيَةٍ﴾ تمييزٌ مجرور بـ «مِنْ».

أي: يا مُحَمّد، وعدداً كثيراً من الْقَرىٰ (أي: من أهلها) هي أشَدُّ قوة من قريتك (وهي مكة) الّتي أخْرَجَتْكَ أهْلُها، أهْلَكْنَاهم لأنَهم كذّبوا رُسُلَ ربّهم، وعَصَوْهم، وأكْثَرُوا في الأرض الفساد، وحين أهلكْنَاهُمْ ما كان لَهُمْ ناصِرٌ يَدْفَعُ أو يَرْفَعُ عنهم عذابنا.

لَقَدْ زُيّنَ لهم قبل تعذيبهم سُوءُ عَمَلِهم، إذْ كان يحقّقُ لهم ما يَهْوَوْنَ ويَشْتَهُونَ، واتَّبَعُوا أهواءَهم الّتي انْحَدَرَتْ بهم إلى حضيض الكُفْرِ والفساد

والبغي والطغيان، فجلب ذلك لهم نِقْمَةَ الله، فأنْزَلَ بهم العذابَ والإهْلاكَ الشاملين.

وفي هذا النصّ طمأنَةٌ للرسول والذين آمنوا به واتّبَعُوه، بأن الله جلَّ جلاله سينصُرُهم، وفيه إنْذارٌ ضِمْنِيٌّ لكُفَّارِ أهْلِ مَكّة، بأنهم إذا أصَرُّوا على كفرهم فإنه سَيَحُلُّ بهم نَظِيرُ الذي حلَّ بالقرىٰ الكافرة من قبلهم.

(٥) وَجاء في سورة (الطّلاق/ ٦٥ مصحف/ ٩٩ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ... ﴿١٠﴾﴾:

• ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾: أي: طَغَتْ واسْتَكْبَرَت مُتجاوِزَةً أَمْرَ رَبِّها بالمخالفة والعِصْيَان، ومتجاوزة أوامِرَ رُسُلِ رَبّها.

• ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ على ما كان منها من ظُلْمٍ وعُتُوّ، وقَدَّرْنا وقَضَيْنَا أن نُعَذِّبَها ونُهْلِكَها.

• ﴿وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا﴾: أي: وعذَّبناها عَذَاباً شَدِيداً صَعْباً.

النُكْرُ والنُكُرُ: في اللُّغَة، الشّدِيدُ الصَّعْب.

• ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾: أي: فَأَحَسَّتْ بآلامِ سُوءِ عاقِبَةِ أَمْرِها في الكُفْرِ والْعُتوّ عَنْ أَمْرِ رَبّها وأوامِرِ رُسله.

• ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾: أي: وَكَانَ عاقِبَةُ أَمْرِها في الكُفْر والْعُتُوّ خُسْراً لكلّ شيء، إذْ خَسِرَتْ أنْفُسَهَا وَكُلَّ ما كانت تَمْلِكُ.

• ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ﴾: أي: ولا يَقْتَصِر العذابُ على الّذي نزل بهم في الحيَاةِ الدنيا الذي تمّ به هلاكهم، فقد أعَدَّ اللَّهُ لهم عذاباً شدِيداً سوف يذوقُون آلامَه في جهنّم يوم الدّين.

(٦) وَجاء في سورة (الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول) قولُ اللّهِ عزّ وجلّ:

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾:

● ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾: أي: فكثيرٌ من أُمَمِ قُرَىٰ أهلكناها حالة كَوْنها ظالمة.

● ﴿فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: أي: فالْقَرْيَةُ المهْلَكُ أَهْلُهَا خاليَةٌ من ساكنِين فيها. يقال لغة: خَوَىٰ المكان يَخْوِي، أي: خَلاَ.

﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾: تُطلَقُ الْعُرُوش على السُّقُوف، وعَلَىٰ كُلِّ مَا يُظَلِّلُ، والجارُ والمجرور متعلقان بمَحْذُوف قدَّرَهُ المفسِّرُونَ: «سَاقِطَةٌ» أي: فهي ساقِطَةٌ على عُرُوشِها، أخذاً من واقع حال كثير من الْقُرَىٰ الَّتي أَهْلَكَ الله مَنْ كَانَ يَسْكُنَها من الظالَمِين.

أقول: وَيُمْكِنُ تَقْدِير «بَاقِيَةٌ» إِذْ تُوجَدُ قُرَىٰ أَهْلَكَ اللَّهُ أَهْلَها وسُقُوفُهَا باقِيَةٌ لم تتهدّم ولم تَسْقُطْ، وهي خَاوِيَةَ من السَّاكنين، وهذا المعنى يلائم وصْفَها بالخاوية، لأنَّ سُقُوفها لو كانت سَاقطةً مُتَهَدِّمةً لأغْنَىٰ ذكر سُقُوطِها عن ذكْرِ خَوائِها، فالبيوتُ التي تَهَدَّمَتْ سُقُوفُها لا تُسْكَنُ من الناس.

ويلائم أيضاً ذِكْرَ بِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ، وذِكْرَ قَصْرٍ مَشِيدٍ.

● ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾: أي: مُهْمَلَةٍ مَتْرُوكَةٍ، لاَ يَسْتَقِي مِنها الْوَارِدُون، مع صَلاحها للوُرُود منها.

• ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾: أي: وقَصْرٍ رَفيعِ البناءِ مَطْلِيٍّ بالشِّيد. **الشِّيدُ**: كُلّ مَا يُطْلَىٰ بِهِ البناء من جصٍّ ونَحْوِه.

وقد كانت هذه الآثارُ مَوْجُودَةً بِكَثْرَةٍ إبَّان التنزيل، والنصّ هنا يَتَحدَّث عَنْ أُمَمٍ أهْلِكَتْ إهلاكاً شاملاً، دُون أن تُدَمَّرَ مساكِنَهُمْ تَدْمِيراً شاملاً، بل بقيت فيها بقايا.

• ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: أَلَزِمَ مُكَذِّبُوكَ يا محمّد مواطِنَ إقامتهم فلم يسيروا في الأرض فيَرَوْا آثار المهلكين السابقين ليتَّعَظُوا بها، أمْ سَارُوا في الأرض ورأوْها ولكن رأوْها رؤيةً غَيْرَ ذاتِ أثَرٍ واعظٍ في قلوبهم، لأنّ قُلوبَهُمْ مُصَابَةٌ بعمًى يمنعها من إدراك حقائق دلالاتِ الأشياء:

• ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾: أي: فتكُونَ لَهُمْ بمشاهدة آثارِ السَّابِقين أعمالٌ في أجهزة التفْكِيرِ والفَهم لَدَيْهِم الَّتِي هي في دَاخِلِهِم، يَعْقِلُونَ بها عَقْلاً عِلْمِيًّا فيُدْرِكُونَ سُنَنَ اللَّهِ في عباده، ويَعْقِلُونَ بإراداتهم الّتي هي فيها، نفوسَهُمْ وأهواءَهم وشهواتِهم عن الإنْزِلاَقِ إلى المهالِكِ الّتي تُزْلِقُ إليها المعاصِي والذُّنُوبُ والآثام، وأخْبَثُها الكُفْرُ والشِّرْكُ بالله.

• ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ مِنْ تَالِي كتاب الله آياتِهِ المنزّلاَت، فيتَدَبَّرُونَها ويَهْتَدُون بِهَدْيها.

وتكُونَ لَهُمْ أبْصَارٌ يَرَوْنَ بها آياتِ الله فِي كوْنِهِ المدهِشِ، رُؤْيَةَ بَاحِثِين متدبِّرِين مُهْتَدِينَ إلَىٰ الحق، لاَ رُؤْيَةَ مُسْتَمْتَعِين بالظَّواهر، غافلين عن البواطن ودَلاَلاتها، فَمَنْ يَكْتَفِي بِالاسْتِمتَاع بالظواهر، فَإنّ قَلْبَهُ المدْرِكَ الّذِي به يَفْهَمُ حقائق الأشياء وبواطنها قَلْبٌ أعْمَىٰ، لا يَرَىٰ الْحَقّ.

• ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ﴾: أي: لاَ تَعْمَىٰ الأبْصَار عَنْ إدْراك بَوَاطِنِ الآياتِ وحقَائِقها، لأنها لا تَمْلِكُ بِفِطْرَتِها هٰذه القُدْراتِ الإدْرَاكيَّة.

• ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾: أي: ولَكِنْ تَعْمَىٰ عَنْ إدْراك

دَلاَلات آيات الله في كونه، أجْهِزَةُ الإدْراك في الْقُلُوب الّتي في الصُّدُور، والْمُرَادُ بالْقُلُوب مَرَاكِزُ التفكِيرِ في الناس، والمرادُ بالصُّدُور مَا في داخلها في عُمْقِ المراكِزِ الإدْرَاكِيّة. هٰذِه هي الّتِي تَعْمَىٰ، إذْ تَمْلِكُ الْقُدْرَاتِ التفكيريَّةَ الإدْرَاكيَّة، في أَصْل فِطْرَتها الرَّبَّانِيَّة، ولَكِنَّ الأَهْوَاء والشهواتِ ورَغَبَاتِ الاستمتاع بمتَاعَاتِ الحياة الدُّنيا تُغَشّي عليها، فَتُعْمِيها.

● ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾: أي: وَيَسْتعجلُكَ يا مُحَمَّدُ الّذين كَذَّبُوك بتحقيق ما أَنْذَرْتَهُمْ به من عَذَاب الله بلاغاً عَنَّا.

وظاهرٌ أنّهم لا يَطْلُبُونَ نزولَ العذاب بهم، ولكنَّهم يَتَحَدَّوْنَه تَحَدِّي المكذّب له. أي: إنَّ ما كُنْتَ تُبَلّغُنَا إيَّاه من الإنْذَارِ بعذاب من الله معجَّل، قَدْ كان تَبْلِيغاً كاذباً تفتريه على رَبّك، ولهذا جاء في النصّ ما يلي:

● ﴿وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾: أي: ولا بُدَّ أَنْ يَتَحَقَّقَ في المستقبل مَا وعَدَ اللَّهُ به، وبلَّغَهُ رَسُولُه، ولَكِنَّ حِسَابَ الزَّمَنِ في مقاديرِ اللَّهِ غيْرُ حِسَابِ النّاسِ للزّمَن، فالناسُ يَسْتَبْطِئُونَ وُقُوعَ الموعُودِ به، بحسب الأيّام الّتي يَعُدُّونها، أمَّا اللَّهُ جَلَّ جلالُهُ وعظم سُلطانه فتقدير الزمن بالنسبة إلى أفعاله في كَوْنه كما يلي:

● ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾: أي: فـإذَا وَعَدَ الله أَنْ يُحْدِثَ أَمْراً بعْد ساعة من حساب زمَنِهِ لمقاديره، فإنّ هذه السَّاعَة تعادل أكثر من أربعين سَنَة في حساب الناس لأيّامهم. والله جلّ جلالُهُ حَلِيمٌ صَبُور، يُمْلِي لعبادِه، ولا يَعْجَلُ بتَعذِيبهم وإهلاكهم، ليعطيَهُمْ أطْوَلَ مُدَّةٍ يُرَاجِعُون فيها أنفسهم، رَغْبةً في أن يَسْتَغفروا ويتوبوا، ويكونوا من أهْلِ النجاة، وليقْطَعَ فِيهَا كُلَّ أعْذَارِهم الّتي يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَذِرُوا بها.

لكِنَّ إمْهَالَه جلَّ جلالَهُ إذا أَخَذَ مَداه الأقْصَىٰ، دون أَنْ يَرْجِعَ عبادُه الظالمُون عَنْ ظُلْمهم، فإنَّهُ يُنْزِلُ بهم العذابَ والإهْلاَك، ثُمَّ يَكُونُ مَصِيرُهُمْ

إليه يَوْم الدّين، للحسَابِ وفَصْل القضاء وتحقيق الجزاء، وقد جاء بيانُ هذا فيما يلي:

- ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾:

﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾: أي: طَوَّلْتُ مُدَّةَ إمْهالها.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾: أي: ثُمَّ قَبَضْتُ عليها بيدِ العذاب والإهْلاك.

﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾: أي: وإليَّ مُنْتهاهُمْ وَعَاقِبَتُهُمْ.

والحمد لله على مَعُونتِه وَتَوْفيقه

❊ ❊ ❊

(٢٤)
الملحق الثامن
حول رغبة الكافر أن يقْضي الله له باستئناف رِحلة امتحانه حتى تمنيه أن يكون تراباً

جاء في القرآن المجيد عشَرَةُ نصوص، تبيّن رغبة الكافر في أنْ يُسْمَحَ له باستئناف رحلة امتحانه منذ اللحظة التي يلْمَسُ فيها عتبة الموت، ويَنْكِشفُ له شيءٌ من أحوال ما بَعْدَ الموت، وتَسْتَمِرُّ هذه الرغْبَةُ تتجدّد لَدَيْهِ في المواقف حتى خُلُوده في عذاب النار، ويأسه، ومُطَالَبتِه بأن يقضي الله عليه بالموت النهائي، وتمنّيه أن يكون تراباً.

وفي بَعْضِ هٰذِه المواقف يسْأل رَبَّهُ أن يُرْجعَهُ إلى الحياة الدُّنيا ليَعْمَلُ صالحاً فيُرْفَضُ طلَبُه، وفي بعضَها يُعْلِنُ تمَنِّيَه ذلك، وفي دارِ العذاب يجْتَمِع مع الخالدين فيها، فيُنادُون نداءً جماعيًا داعِينَ: رَبَّنَا أَخْرِجْنا نعمل صالحاً، فلا يُسْتَجابُ لهم، وفي بعضها يَسْألُونَ باسْتِعطَافِ خَزَنَةَ جَهَنَّم ليتوسّطوا لهم عند ربّهم داعين أن يُخَفِّفَ اللَّهُ عنهم يوماً من العذاب، وفي بعْضها يُنَادُونَ

مالكاً كبير خَزَنَةِ دَارِ العذاب، يطْلُبُون منه أنْ يَقْضِيَ الله عليهم بالموت، فيقول لهم: إنكم ماكِثُون، وأخيرا يتمنُّون أن يكونوا تراباً.

ولدَىٰ تدبُّر هذه النُّصوص بعُمْقٍ، لِفَهْم دَلَالاَتِها، تبيَّنَ أنَّها متكاملةٌ فيما بينها، ولا يُوجَدُ نصٌّ واحِدٌ مِنْها مُطابقاً لأيّ نصٍّ آخر، وتبيَّن أنّها تُعَبِّرُ عَنْ مَوَاقِفَ عشَرَة، لا عَنْ مَوْقفٍ واحِدٍ، وأنَّها تكون في عشر مراحِلٍ.

الموقف الأوّل
ما يكونُ منه عندَ الموت

قال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول) بشأن الكافرين الظالمين.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

دلّ هذه النصّ على أنّ الكافر الظالم إذا لاَمَسَ عتبة الموت، وانكَشَفَتْ لنَفْسِه بعض مصايره في الآخرة، وبدأت الملائكة المأمورون بتعذيبه يضْربُون وجْهَهُ ودُبُرَهُ، يسْأَلُ رَبَّه بِذُلٍّ وانكِسَارٍ مُسْتَجْدِياً بِتَعبير فيه تعظيم للرّبّ جلّ جلاله، قائِلاً: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ في الحياة الدنيا، أي: مما كان يملُك التصرف به فيها.

لقد كان في حياته كافراً بربّه، جاحداً حقَّ رُبوبيّته، مستنكِفاً عن عبادته وحْدَه لا شريك له، مُكَذِّباً رَسُوله، ومُكذّباً بما جاء به عن رَبّه، ومكذباً بالجزاء وبيوم الدّين.

إنّه لا يَدْعُو بهذا الدُّعاء ما لم يكن قد رأىٰ بعض مشاهِدَ من عالم الآخرة، وكُشِفَ لَهُ عَنْ نُزُلِه من النار، وذاقت نفسه بعْض عذاب هو من

مقدّماتِ عذاب يوم الدين، مما يكون في البْرزَخ الفاصل بين الحياة الدنيا وبيْنَ الْبَعْث.

ودُعاؤه بهذا الدُّعاء يَدُلُّ على وجودِ أمَلٍ لدَيْهِ باحتمالِ استجابة طلبه، لكنّ الجواب الرَّبّانيُّ قد دلَّ عليه قول الله تعالى:

● ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾.

﴿كَلَّآ﴾: أداةُ رَدْعٍ وزَجْرٍ تُنْبِىءُ عن رَفض طلبه، فقد استوفَىٰ زمَنَ ابتلائه الّذي مُنِحَ فيه الإمْهال الكافي، طَوالَ عُمْرٍ كان يكفيه منه دقائق قبل أن يُلاَمِسَ عتبَةَ الموت، يُعْلِنُ فيها إيمانه بربّه وإسلامه له، على وجْهٍ يَحْمِيهِ من الخلود في عذاب النار، لكنّه لم يفعل.

● ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ هي كلمة دعائه: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ في الحياة الدّنيا مما كنتُ أستطيع أن أعملَ به صالحاً إذْ جَعَلْتَ يا رَبّ لي عليه سلطاناً، وفي عبَارة: ﴿ٱرْجِعُونِ﴾ استعمالُ ضمير المخاطب العظيم تذلُّلاً واستعطّافاً.

والمرادُ بكَوْنها كَلِمَةً هُو قائِلُها، أنّهُ غَيْرُ مأْذُون له بأن يَدْعُوَ بها، لسَبْقِ القضاء الرَّبَّانيّ بأَن لا يُسْتَجابَ له، إنّ أَبْواب الاستجابة مؤصدةٌ قُبالَتَهُ بعد انتهاء رحلة امتحانه، فكلمة دُعائه مَرْدُودَةٌ عليه بموته وهو على كُفْرِه وظُلْمِه، وهي حَبِيسَةٌ في مُحِيط نفسه لا سريانَ لها.

بخلاف دعاء الداعي وهو مأذونٌ له من رَبّه بأنْ يَدْعو، فإنّ كَلِمَةَ دُعَائِه مَجْذُوبَة إلى الله بجاذِب استقبالٍ من رحمته، إذْ قال لعباده وهم في رحلة ابتلائهم: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْۚ﴾ فكَلِمَةُ الداعي وهو في هٰذه الحالة لا تكون كَلِمتَهُ وَحْدَه، بل هي كَلِمَةٌ مَجْذُوبَةٌ إلى الاستجابة بكَلِمَةِ الله.

● ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾، أي: ويُوجَدُ من ورائهم وهو زَمَنُ المستقبل، فَاصِلٌ يفْصِلُ مَا بَيْنَ آخر الحياة الدُّنيا، وأوّل الحياة الأخرى، الّتي تبدأ عند البعث.

● ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾: النفخة الَّتي يكون بها بَعْثُ الموتَىٰ، إلى الحياة الأُخرَىٰ.

● ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾: أي: فلا أنْسَابَ نافِعةٌ لهم يوْمَئذٍ، إذْ لا يسْتَطِيع أنْ يَنصُرَ قَرِيبٌ قريباً، ولا حَمِيمٌ حَمِياً، وَلاَ يسْأَلُ أَحَدٌ أحداً قائلاً له انصُرْني بحَقِّ الرَّحِم، إذْ لا يَسْتَطِيع أحَدٌ يَوْمَئِذٍ أَنْ يَنْصُرَ أحداً.

يومَئِذٍ يَفِرُّ المرْءُ من أخيه، وأُمِّه وأبيه، وصاحبتِه وبَنِيهِ، لكل امْرِىء منهم يومَئذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه.

❁ ❁ ❁

الموقف الثاني
ما يكونُ من الكافرين
في موقف الحشر بغد البعث عند حساب ربّهم لهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (السجدة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾.

وصف الله الكافرين الظالمين بأنّهم المجرون، أي: المستحقّون للخُلُودِ في عذاب جهنم، وأبَانَ في هٰذِهِ الآية حالَتَهُم حينما يكونون في موقف أَوْ أكثر من مواقف الحشْرِ، وأشدُّها ما يكُونُ عِنْد حسَابهم بين يَدَي رَبّهم.

● أما حالَتُهم الْجَسَدِيةُ فَهُمْ ناكِسُو رُؤُوسهم، أي: مُطأطئو رؤوسهم ذُلاً وانْكسارا وخضوعاً عِنْدَ رَبّهم.

● وأمّا حَالَةُ تَعْبِيرَاتِهم بأَلْسِنَتِهِمْ، الدَّالَّةِ على رَغباتِ أَنْفُسِهِم الذَّلِيلَةِ

المنكَسِرَة، النادِمَة علىٰ مَا أَسْلَفَتْ من جرائم في رحِلة الحياة الدُّنيا، رِحْلَةِ الامتحان، فقد دلَّ عليها دُعاؤهم التالي:

﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾.

أي: يا ربَّنا أبصَرنا الْيَوْم بأَعْيُنِنا، وسَمِعْنَا بآذَانِنا، ما كُنَّا نَكَذِّبُ بِه في الحياة الدنيا، حينَما كان خَبَراً، جاء علَىٰ أَلْسِنَةِ رُسُلِكَ، ونَزَلَت به آياتُ كتُبِك، فَنَحْنُ اليومَ مُوقِنُونَ بكلّ ما بَعَثْتَ به رُسُلَك، وبكلّ ما أنزلْتَهُ فِي كتُبِكَ، فارْجِعْنَا إلَىٰ مِثْلِ الحياة الدّنيا، حياةِ الامتحان، فإنَّنا نُعْطِيكَ يا رَبَّنا عَهْداً بأنْ نَعْمَلَ صالحاً، بَعْدَ أَنْ صِرْنَا مُوقنين، إذْ صَارَ مَا كان خَبَراً عن غَيْبٍ أمْراً مشْهُوداً، رأيْنَاهُ بأَعْيُنِنَا وسمعناهُ بآذاننا.

اليقين: هو العلم الذي لا شكّ فيه، مُوقِنٌ: اسم فاعل من فعل أيقن، أي: عَلِمَ الشيْءَ عِلْماً كامِلاً لا يخالطُه شكٌّ.

ولكن ما قيمة اليقين بَعْد الشهود الحسّيّ، في قضيّةٍ من قضايا الإيمان بالغيب الواجب، بالاستنادِ إلى براهين العقل وأدِلّته، وهذا الإيمانُ هو قاعدة الامتحان الكبرىٰ، في رحْلَة الحياة الدنيا.

لقَدْ سَقَطُوا في سَحِيق الكُفْر والجحود، عند عقبة الإيمان بالغيب، رافِضين البراهين العقليَّة، والحُجَجَ الدَّامغَة، ومُتَعَلِّلينَ بأنّ ما جاء به الدّين عن اللّهِ وصِفَاتِه، وعن اليوم الآخر، أمُورٌ غيبيَّة غَيْرُ مشهودَةٍ بحواسِّهم، فهم لا يُؤْمِنُون بها، لذلك فهم لا يَعْمَلُونَ بمقتضاها.

إنّ هَـٰذا اليقينَ بَعْدَ الشُّهُودِ الحسّيّ لاَ يَنْفَعُهُمْ عند رَبّهم بِشَيْءٍ لأمْرَين:

الأمر الأول: أنّ المطلُوبَ منْهُمْ في امتحانهم أَنْ يُؤْمِنُوا بالغيب.

الأمر الثاني: أنَّ مُدَّةَ امْتحِانهم قد انتهت بموتهم، وقد سقَطُوا في هذا الامْتِحان، واسْتَحقُّوا الخلُودَ في عَذَاب النار.

على أنَّ الله ـ جلَّت حِكْمتُه ـ لو استجاب لطَلَبِهم باستئناف رِحْلَةِ امتِحانهم، فإنّه لنْ يُعيدَهم إلاّ بَعْدَ أنْ يَمْسَحَ مِنْ ذاكراتهم كُلَّ ما شَهِدُوه، ممَّا هو مطلوبٌ منهم أنْ يُؤْمِنُوا بِهِ إيماناً غيْبيًّا، وعنْدَئذٍ يَعُودُون إلى مِثْلِ ما كانوا عليه في الحياة الدّنيا، وسيَكْفُرون كما كَفَرُوا في الامتحان السّابق، وسيَجْحَدُون كما جَحَدوا فيه، وسيكونون مجرمين كما سَبق أَنْ كانوا مجرمين، فإرْجاعُهُمْ ليَعْمَلُوا صالحاً لن يُفِيدَهُمْ شيئاً، إذْ لاَ يتغَيَّرُ من حال نفوسهم شيءٌ، لقد أعطاهم الله عزَّ وجلَّ في الحياة الدُّنيا إمْهَالاً ليؤْمِنُوا، وليكْسِبُوا فِي إيمانِهم خيراً ما، بِعَدَدِ سَاعَاتِ عُمُرِهم، فلَمْ يفْعَلُوا.

﴿فَأَرْجِعْنَا﴾ من فعل «رَجَعَهُ» المجرّد ـ ويقال في اللّغة أيضاً «أَرْجَعَهُ» ويأتي لازماً، فيقالُ: رَجَعَ المسافِرُ من سَفَرِه.

❁ ❁ ❁

الموقف الثالث

ما يكونُ من الكافرين حين يَرَوْنَ العذابَ شهوداً بَصَرِيًّا بِعَرْضٍ سَريع

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الشورىٰ/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾.

هٰذا النصُّ يُعَبِّر عن مَوْقِفٍ من مواقف الكُفَّار الظَّالِمين، الذين قَضَىٰ الله عليهم بالخلُودِ في عذاب النار يوْمَ القيامة، وهو موقِفُ عرضهم عَرْضاً مُرُورِيًّا على النار دارِ تَعْذِيبهم المعدَّةِ لخُلُودِهم فيها، وقبل إيقافِهم على أبوابها تمهيداً لكَبْكَبَتِهِمْ في هَاوِيَتها، إذْ يَرَوْنَ ما فيها من هَوْلِ مَا سيُلاَقُونَهُ من عذابٍ، في عَرْضٍ سريعٍ.

إنَّهُمْ في هٰذا الموقف يَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، أو يسألُون الملائكَة القائمين على حشرهم وسَوْقِهم وعَرْضِهِمْ على دار عذابهم، قائلين: هل إلى مَرَدٍ إلَىٰ الحياة الدّنيا من سبيلٍ، حتَّىٰ نَعْمَلَ صَالحاً، غَيْرَ الْعَمَلِ الفاسِدِ الّذِي كُنّا نَعْمَلُ حين كُنّا فِي حَيَاةِ الامتحان؟

إنَّهم يَطْرَحُونَ هذا السؤال على سبيل التَّمَنِي، إذْ سَبَقَ أنْ رُفِضَ طَلَبُهُمْ مَرَّتَيْن: مَرَّةً عِنْدَ الموت، وأُخْرَىٰ وهم في موقف أو أكثر من مواقف الحشر نَاكِسُو رُؤوسهم عِنْدَ حِسَابِ ربهم لهم.

وتَسَاؤلهم هذا يُشْعِرُ بأنّ أمَلَهُمْ باستئناف رِحْلَة امتحانهم لم ينقطع بَعْدُ.

● ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾: أي: وتَـرَىٰ يَـا مَـنْ يَـشْـهَـدُ الظَّالِمِينَ، مِنْ دَرَكَةِ ظُلْم الكُفْر، حين يُدْنَون من دار العذاب النار، ويُعَرَضُون عرضاً سريعاً عَلَيْها لِيَشْهَدُوا قبْلَ إيقافهم عند أبوابها، ما سيُلاقونَ فيها مِنْ عذابٍ شدِيدٍ، بِالْحَرِيق وغَيْرِه من مُعَذِّبَاتٍ مؤلِمَاتٍ.

المرادُ بالظالمين هنا الكافِرُون المجْرِمُون المحكومُ عليهم بالخلود في دار العذاب، إذْ هم الذين يتَمنَّوْنَ اسْتِئْنَافَ رحْلَةِ امتحانهم ليؤمِنُوا ويَعْمَلُوا صالحاً، فـ (ال) في ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هي الدالَّةُ على بُلوغهم الطبَقَةَ السفلىٰ في الظلم الكامل.

﴿لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾: أي: لمَّا رَأَوْا دَارَ العذاب، ولَمَحُوا مَا فيها من أهوالٍ ذاتِ تَعْذِيب شديد، لمَنْ هم من أصحابها الملازِمِين لها. حُذِفَ المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه على طريقة المجاز المرسل.

العذاب: اسم للعقاب وللنَّكال، وهو كلُّ ما فيه إيلامٌ عِقَاباً علَى ذَنْب، ولفظ «عذاب» اسم لمصْدَرِ «عَذَّبَ يُعَذِّبُ تَعْذِيباً».

والمرادُ بالرُّؤيَةِ الرُّؤيَةُ البَصَرِيَّة، لأنّهم يكونون عند عرضهم السريع

على دار عذابهم مُبْصِرين، بخلاف حالِهم عند حَشْرِهِمْ إذْ يكونون حينئذٍ عمياناً.

● ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾؟ أي: يقولونَ مقالَةَ سائلٍ مُسْتَفْهِمٍ، يتمنَّىٰ أن يُقْضَىٰ له باسْتِئْنافِ حياةِ الامتحان: هَلْ لنا مِنْ سبيل يوصل إلى تحقيق هٰذه الأُمْنيَّة.

﴿مَرَدٍّ﴾: أي: مَرْجِعٍ إلى الحياة الأولى لإعادة الامتحان، وهو مَصْدرٌ ميمي من: «رَدَّهُ يَرُدُّهُ رَدّاً» بمعْنَىٰ: «أَرْجَعَهُ».

﴿مِّن سَبِيلٍ﴾: «مِنْ» حرف جرٍّ زيد لتنصِيصٍ على التعْمِيم، أي: هلْ يُوجدُ سبيلٌ ما نسلُكُهُ لإرجاعنا إلى الحياة الدُّنيا، كي نستأنف امْتِحانَنا، فنعملَ صالحاً غير الذي كُنَّا نعمل.

● ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾: أي: وتَرَىٰ أيُّها المشاهِدُ لهؤلاء الظالمين، حينَ عَرْضِهِمْ على دَارِ عذابهم، كيْف يكون حالُهُمْ خاشِعِينَ من الذّلّ.

الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ يَعُودُ علَىٰ المضاف المحذوف قبل كلمة العذاب، وهي كلمة «دار» إذِ الكلامُ على تقدير: لمَّا رَأَوْا دار العذاب.

الْخُشُوع: هو الخضوع، والْخَوْف، والسُّكون. والخشُوعُ في الْبَصَر، الانكسارُ والنَّظَر إلى الأرض من الذِّلَّةِ.

﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾: الذُّلُّ، الضَّعْفُ والْهوان.

أي: يُعْرضون عرضاً دونَ وقوف على دار العذاب النّار، لِيَشْهَدُوا ما فيها من أهوالٍ ذاتِ تَعْذِيبٍ شَدِيد، دون أنْ يوقَفُوا عنْد أبوابها، هُمْ وسائر أصحابها من الجنّ والإنْس الذين سيَخْلُدونَ فيها، فيكونُونَ خاشعين، أي: خاضعِين، خائِفين، سَاكِنِين، منكَسِرَةً أبْصارُهم يَنْظُرُون إلى الأرض نظر الضعيف الْمُهَانِ المحتقر.

وجاء قَيْدُ ﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ لبَيَانِ أَنَّ خُشُوعَهم ليْسَ خُشُوعَ العابِدِ لرَبِّه، المعتزِّ بعبودِيَّتِه له، بل هو خُشُوعٌ من الذُّلِّ والمهانَةِ والصّغار، والشُّعُورِ بثِقَلِ الْجُرْمِ الّذي جَنَىٰ به على نفسه، فكَانَ سبباً في الحكم عليه بأنّه من الخالدين في عذاب النار.

● ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: أي: يَنظُرُون إلى ما في دار العذاب الّتي ستكون مصيرَهُمْ، من أهوالِ شديدَةِ التعذيب للذين يَدْخلونَ فيها. ولكنَّهُمْ لاَ ينظرُونَ إليها بمِلْءِ عُيُونِهِمْ، بل: ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ ذُعراً وخَوْفاً فيَقْتَصِرُونَ على بَعْضِ النظر مُنْكَسِرِينَ أذِلاَّء خزايَا نَادِمين.

الطَّرْف: تَحْرِيكُ الجفْن، ويُطْلَقُ أيضاً على الْعَيْن. ومن شَأْنِ من كانَ خاشِعَ الْبَصَرِ مُنْكَسِرَهُ أن يَنظُرَ إلى الأرض من الذِّلة والْمَهانة، إذا أَرادَ أَنْ يَرَىٰ شيْئاً يقَعُ قُبالَتَهُ دُونَ أَنْ يُمْعِنَ النظر إلَيْه، خَوْفاً، أَوْ إخفاءً لرُؤْيَتِه له، فإنَّهُ يُحَرّكُ جَفْنَه بِسُرْعَة، ويُعِيدُهُ إلى ما كان عليه من انْكِسَارِ فَوْراً، فتَخْفَىٰ حَرَكَةُ جَفْنِه على مَنْ يُراقِبُهُ، حتَّىٰ يَظُنَّ أنَّه لم يَرَ ذَٰلِك الشيء.

هٰذا هو الطَّرْف الْخَفِيُّ، أي: الرُّؤيَةُ الخفيَّة، النَّاتِجَةُ عن تَحْرِيكِ الْجَفْنِ بسُرْعة.

و﴿مِن﴾ في عبارة ﴿مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾: هي فيما أرىٰ بمَعْنى: مِنْ بَعْضِ طَرْفٍ خَفِيّ، وهذا يَدُلُّ على أنّهم لا يفتحون جُفُونَهم لدىٰ تحريكها لاسْتِراقِ النَّظَرِ فَتْحاً واسعاً.

التبعيض: من معاني حرف «مِنْ» الذي هو أحد حروف الجرّ.

● ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾:

أي: وحِينَ يَشْهَدُ المؤمِنُونَ أصحابُ الجنَّةِ يَوْمَ الدِّين، أحْوَالَ الظالِمين المجرمين، الخالدين في عذاب الجحيم، يتّضحُ لهم بالشهود

الحسّي خَسَارَةُ هؤلاء من الدَّرَكَة السُّفلَىٰ، ويَرَوْنَ أَنَّ خَسَارَتَهُمْ هِيَ الخسَارَةُ الكامِلَة، إذْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فأَلْقَوْها بجرائمهم في عَذَابِ الجَحيم الْخَالِدِ، وهَذَا أَعْظَمُ الْخُسْرَان، وخَسِرُوا الأنْسَ بأَهْلِيهم ممَّنْ فَارقوا بَعْدَ رِحْلَةِ الحياة الدُّنيا، فلا لِقَاءَ بَيْنَهُمْ يوم الدين، إذِ الأَخِلَّاءُ يومئذٍ بعضُهم لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاّ المتقين، وخَسِرُوا السَّعَادَة بأهليهم من الحور العين الّلاتي أَعَدَّهُنَّ الله لَهُمْ في الجنَّة، بشَرْطِ أَنْ يموتُوا على إيمانٍ صَحِيحٍ مقبول عنْدَ رَبّهم، فلمَّا مَاتُوا كافِرِينَ جَعَلَهُنَّ اللَّهُ مِيراثاً مُسْعداً للمؤمنين أَصْحابِ الجنَّة. وخَسِرُوا السعادَة بأَهْلِهم المؤمنين الذين كانوا أهلهم في الحياة الدنيا.

● ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾﴾:

هذا بَيَانٌ صادرٌ عن الله جَلّ جَلَالُه، يُؤَكِّدُهُ الله بـ «أداة الاسْتِفتاح والتَّنْبيه ـ وبإنّ ـ وبالجملة الأسميَّة» فيُثْبتُ فيه أَنَّ الظَّالِمين من دَركة الكُفْر، سَوْفَ يكونون خالِدِين في دار العذاب، وهذا العذابُ سيَكُونُ محيطاً بهم، ومُقيماً إقامةً دائمةً علىٰ ذواتهم، ويظهر أَنَّ هٰذا بَيَانُ حُكْمِ الله عليهم بالعذاب المقيم.

● ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أي: وحين أَصْدَرَ اللَّهُ حُكْمَهُ على الظالمين، بأنْ يكونوا في العذاب المقيم، لم يكن لَهُمْ بالاستِغْراقِ الشَّاملِ أيُّ نصيرٍ لهم يواليهم ويَنْصُرُهم من دون الله، فَيَدْفَعُ عَنهم العذاب المقيمَ في الجحيم.

«مِنْ» في: ﴿مِّنْ أَوْلِيَآءَ﴾ زائدَةٌ للدلالة على تأكيد الاستغراق في النفي، واللاّم في ﴿لَهُم﴾ هي لام الجحود الواردة بَعْدَ كَوْنٍ منفي، ومثل هذه الصيغة هي من أبلغ صيغ النفي في اللّسانِ العربي.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: أي: من غير الله الذين هم جميعاً دُونه، وهو جلّ جلالُهُ العليُّ الأعلى.

• ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾: أي: ومَنْ يَحْكُم اللَّهُ عليه بالضَّلَالِ، لأنّه كان في رحلة امتحانه ضالاً بإرادته الحرَّة، فَمَالَهُ من سَبِيلِ يُنجِيهِ ممَّا حكَمَ اللَّهُ به عليه منْ عِقاب.

لا بصَرْفِ العذابِ عنه، ولا بقَبُول عُذْرِ منه، ولاَ بقَبُولِ فداء، ولا بقبول شفاعَةٍ له من أحَدٍ، ولا باستجابة طلبه في استئناف رِحْلَةِ امتحانه.

وجاء التّعبير هنا بعبارة ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ مُناسباً لقولِ الظالمين لمَّا رأَوُا العذاب: ﴿هَلۡ إِلَىٰ مَرَدّٖ مِّن سَبِيلٖ ﴿٤٤﴾﴾.

السَّبيل: هُو الطريق الحسّي، وبالتوسّع في الاستعمال المجازي القائم على الاستعارة، صَارَ يُطْلَقُ على كلِّ مُوصِلٍ معنوي لغايةٍ من الغايات الحسيَّةِ والمعنوية.

وأصل هذه الاستعارة، تشبيهُ الْمُوصِلِ المعنويّ بِالسَّبِيل الحسّيّ الموصِلِ إلى مكانٍ مَا مِنَ الأرض.



الموقف الرابع

ما يكون من الكافرين من بحث عمّن يشفع لهم عند الله بصَرْفِ العذاب عنهم أو برَدّهم إلى حياة الابتلاء ليَعْملوا صالحاً

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) في معرض الحديث عن أصحاب النار الخالدين فيها:

﴿وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

بَعْدَ تساؤُلِ المحكوم عليهم بالخلود في عذاب الجحيم، لمّا رَأَوْا أهوال العذاب بأعينهم، إِذْ عُرِضُوا على النارِ عَرْضاً، قائلين: هَلْ إلى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ، كما جاء بيانُه في الموقف الثالث من مواقفهم يَوْمَ الدّين، وبَعْدَ تَشاوُرِهِمْ فيما بَيْنَهُم، والوصول إلى أنّ اللّهَ لَنْ يَسْتَجِيب طَلَبَهُمْ، إذا سَأَلُوهُ بصورة مباشِرَة، فقد سبَقَ أنْ رَفَضَ اللّهُ دُعَاءَهُمْ واسْتجداءَهُمْ مَرَّتين.

بَعْدَ هذا يتَساءَلُونَ عَنْ وُجود شُفعاء يشفَعُونَ لَهُمْ بإعْفَائهم من العذاب، أو بأنْ يَقْضِي الله لهم باستئناف امتحانهم، في حياةٍ ممثالَةٍ للحَيَاةِ الأولى الّتي كانوا فيها ظالمين كافِرين، فاستَحقُّوا الحكْمَ علَيْهم بالخُلُودِ في عذَابِ النّار، دارِ خلُودِ المجرمين في العذاب.

فجاء هذا النصّ من سورة (الأعراف) مبيّناً هٰذا الموقف الرابع من مواقفهم يوم الدّين، الذي يُعَبِّرُون فيه عن رغبتهم في استئناف رِحْلَةِ امتحانهم.

● ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: أي: إنّـهم اتّـخذُوا دِينـهم لَهْواً ولَعِباً وَغرَّتْهُمُ الحياة الدُّنيا، كما جاء في الآية السابقة لهذا النّصّ، والْحَالُ أنّنا لَقَدْ جئْنَاهُمْ بكتابٍ بَلّغَهُمْ إِيّاهُ رُسُلُنَا، ولَقَدْ فَصّلْنَاه، أي: بيّنّاهُ علَىٰ عِلْمٍ كامِلٍ بحَقَائِقِ المعلومات، الّتي تتعلّق بأمور الدّين الذي اصطفيْنَاهُ لهم، تفصيلاً يتناوَل كُلّيَّاتِها وجُزئيَّاتها، كبارَها وصِغَارَها، ممّا فيه نجاتُهُمْ من العذاب يوم الدّين، في حُدُودِ تطوُّرِهم البشريّ الّذِي وصَلُوا إليه.

● ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾: أي: جئناهم بِكتَابٍ مُفَصَّلٍ لأجلِ أَنْ يَكُونَ هُدًى ورَحْمَةً لِقَوْمٍ لدَيهم الاستعداد لأنْ يُؤْمِنُوا بالحقّ إذا جاءَهُمْ، فَيَدْفَعُوا عن أنفسهم العذَاب، ويجلُبُوا لأنفسهم السَّعَادَة الأبَدِيَّة، والنعيمَ الخالد.

﴿هُدًىٰ﴾: أي: رَشاداً، وذا دلالَةٍ إلى ما يوصل إلى الفلاح، وطريقاً واضحاً جليًّا يوصل إلى معرفة الحقّ والخير، أوْ مَا هو الأصلح والأنفع.

﴿وَرَحۡمَةٗ﴾: أي: ورحمة من الله لعباده في رحلة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، إذْ أبان الله عزّ وجلّ فيه لهم صراط سعادتهم في العاجلة، وفي الآجلة.

• ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾: أي: هَلْ يَنْتظرون بعد الأدلّة الكافية، والبراهين العقلية القاطعة، الْمُقْنِعَة لمن أراد أن يقتنع، إلاّ تَحَقُّقَ ما تؤول إليه الأخبار الّتي اشتمل عليها من أنباء يوم الدّين، إذْ تتحقَّقُ هٰذه الأنباء في الواقع، ويجدون أنفسهم في أنواع عذاب جهنم، بَعْدَ الحساب، وفضْل القضاء، يذوقُون آلامَ عقاب الله لهم.

﴿يَنظُرُونَ﴾: أي: ينتظِرُونَ.

﴿إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥ﴾: أي: إلاّ الواقع التنفيذيّ الذي تَؤُولُ إليه.

• ﴿يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ﴾: أي: يوم يأتي تحقُّقُ نبأ نُذُرِ العذاب، التي اشتمل عليها الكتاب، وهذا يكون في يوم الدّين.

• ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ﴾: أي: يقولُ الكافرون الّذين تَركوا الإيمان بما جاء في كتاب رَبّهم لعباده، وتركوا الْعَمَل بأوامره ونواهيه ووصاياه: قد جاءَتْ رُسُل رَبّنا بالحقّ.

أصل معنى النسيان: الترك.

إنهم يعترفون يوم الدّين بأنّ رُسُلَ رَبّهم قد جاؤوا بالحقّ، ولكنْ ما فائدة اعترافهم هذا، وقد كانوا في رحلة امتحانهم قد كذَّبُوهم، وكذَّبُوا بما جاءُوهم به بلاغاً عن الله عزّ وجل.

• ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ﴾؟: أي: فلم نُؤمِنْ برُسُل رَبِّنَا في حياة الامتحان، فقضىٰ الله علينا بالعذاب الأبديّ يوم القيامة، فَهَلْ لنا من شُفَعَاءَ يَشْفَعُونَ لنا عِنْدَ رَبّنَا، فيَرْفَعَ عنا ما قَضَاهُ علينا من عذابٍ أبديّ.

● ﴿أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾: أي: أو يَشْفَعُونَ لنا عنْدَ رَبِّنَا فيَرُدُّنا إلَىٰ مِثْلِ مَا كُنَّا فِيه في حياة الامتحان، لنَسْتَأْنِفَ رحلة امتحاننا، فنَعْمَلَ صالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ أعمالٍ فاسِدَةٍ إجْراميَّة.

● ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾: هـذا تعقيب رَبَّانِيٌ يَدُلُّ بالكناية لا بصريح اللَّفْظ، على أنَّ أُمْنِيَّتَيْهِمْ لا يكونُ لَهُما أثَرٌ في الواقع، إذ لاَ يجدون شفيعاً يَشْفَعُ لهم عند رَبّهم، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يأذَنُ لأيِّ شافع بأن يشفع لهم مهما كان ذا قربٍ من رَبّه.

لقد خَسِرُوا أنفسهم إذ قَذَفُوا بها إلى عذاب الجحيم خالدين، وضَاعَ عنهم ما كانوا يفترون في الحياة الدُّنيا، ممَّا يُنافي الحقّ الذي جاءَهم به رُسُلُ رَبّهم، فَلَمْ يجدوا له أثراً. ﴿ضلَّ﴾: أي: ضاعَ.

أمّا شركاؤُهم الّذين كانوا يعبدونهم من دون الله، ليجلُبوا لهم نفعاً، أوْ يَدْفعوا عنهم ضرّاً، بما جعلوا لهم من بعض خصائص الرُّبوبيّة، افتراءً على الله، أو ليقرّبوهم إلى الله زلْفَىٰ، أو ليشفعوا لهم عند ربّهم، افتراءً على دين الله، فقد ضلُّوا عنهم، أي: ضاعوا عنهم فلم يجدوا لهم أثراً، أوْ لم يجدوا لديهم شفاعة، ولم يجدوا أنها قرَّبتهم إلى ربّهم، بل زادتهم عبادتهم لهم خيْبَةً وخُسْراناً.

❁ ❁ ❁

الموقف الخامس
ما يكُون من الكافرين حينما يوقَفُونَ على النار قُبَيْلَ إلقائهم فيها

قال الله عزّ وجل في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ

لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾.

جاء في هذا النَّصّ بيان مَوْقِفٍ من مواقف الكافرين يوم الدين، وهو ما يكُونُ منهم حينَ إيقافهم عندَ أبواب النّار، تَمْهِيداً لكَبْكَبَتِهم في هاويتها.

إنّهم يُنَادُون مُتمَنّين أن يُرَدُّوا إلى حياة الامْتِحان، وأن لا يُكذِّبوا بآيَات رَبّهم، وأَنْ يكونُوا من المؤمنين.

إنّهم يقْتَصِرُون علَىٰ إعْلَان تمَنِّيهم بأسْلُوب النّداء، دونَ أَنْ يَدْعُوا رَبّهم أن يحقّق لهم أمْنِيَّتَهُم، إذْ سبَقَ أن سألُوه رَدَّهم إلى حياة الامْتِحان فلَمْ يَسْتَجِبْ لهم، وهذا النداء يعلنون فيه ندمهم وحسرتهم.

وقد كانُوا في المواقف السابقة بَعْد البعث يحاولون إخفاء ندمهم وحسْرتهم، طمعاً في أن يَجِدوا وسيلةً يتخلّصون بها من دخول النار، أو من الخلود فيها، ولكنَّهم لمّا وُقِفُوا على النار، وعاينوا مواقعهم فيها، وأنّهم صاروا على وشَكِ إلْقائهم فيها ليكونوا في عذابها خَالِدين، بدا لهم أن ينادوا بأصواتٍ عالِيَةٍ جهيرة متحسِّرين نادمين، حتى يسمعهم في موقف الحشر من تَصِل إليهم أصواتهم، قائلين: يا ليْتَنَا نُرَدُّ إلى حياة الابتلاء، لاستئناف رحلة امتحاننا، ولاَ نُكذِّبَ بآيات رَبّنا ونكون من المؤمنين.

لكنّهم كاذِبُون في ادّعاءِ أنّهم لو رُدُّوا إلى حياة الامتحان لآمنوا وعملوا صالحاً، بل سَيُعيدون سِيَرتَهم الأولى، لأنّ رَدّهم إلى حياة الامتحان لو كان، فَلَنْ يكون إلاّ بَعْدَ أَنْ يَمْسَحَ اللَّهُ من ذاكراتِهِمْ كُلَّ مَشاهِد الآخرة الَّتِي أخافَتْهم، فهُمْ يَعُودون إلى مثل ما كانت عليه نفوسهم من قبل، وسيكْفُرُون كما كَفرُوا في الاختبار السَّابق، وسيفْعَلُون كما فَعَلُوا في الاختبار السّابق، وسيكونُونَ ظالمين مجْرِيمن.

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾: أي: ولو ترىٰ أيُها الرائي أيًا كنْتَ الكَافِرينَ حِين وُقِفُوا عِنْدَ أبواب النَّار قُبَيْلَ إلقائهم في هاويتها، ليستقروا في مواقع عذابهم الخالدِ دَاخِلَها، استعمل الفعل الماضي في ﴿وُقِفُوا۟﴾ للدلالة على تحقُّقِ الْوُقُوع مستقبلاً يوم الدين، حتّىٰ كأنَّه أمْرٌ قد وقع فعلاً.

﴿وُقِفُوا۟﴾: فعلٌ ماضٍ لما لم يُسَمَّ فاعله، والمعنى: وقفتهم الملائكة المأمورون بسوقهم وحشرِهم إلى أبواب دار عذابهم، بأمْرِ رَبّهم الذي له الأمْرُ والحكْم.

يقال لغة: وَقَفَ فُلاَنٌ فُلاناً، أي: جعَلَهُ يَقِف، ويُقَال: وَقَفَهُ على الأمر، أي: أطْلَعَهُ عليه.

﴿عَلَى ٱلنَّارِ﴾ أي: على المكان المشْرِفِ على هاوية النار، وهذا يكونُ عنْدَ أبوابها.

وبهذا الوقوف يَشْهَدُ المحكومُ عليهم بالخلود فيها مواقِعَهُم في داخلها، حيث تكونُ مصايرهم الأبدية.

وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف مقدّر يفسّره ما جاء في تتمة الآية، أي: لرأيتهم ينادُون ﴿يَٰلَيْتَنَا . . .﴾.

• ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿يَٰلَيْتَنَا﴾: عبارة تَمَنٍّ وتَحَسُّرٍ ونَدَمٍ وتَفَجُّع، كأنهم ينادون ما يتَمَنَّوْنَه ممّا هو بعيد جدًا، أو هو وراءَ حُدُودِ الممكنات.

﴿نُرَدُّ﴾: أي: نُرْجَعُ إلى مثل حياة الامتحان التي سلفت في أزْمان الحياة الدُّنيا.

﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: بنَصْبِ ﴿نُكَذِّبَ﴾ في قراءة حَفْصٍ، وحَمْزة، ويَعْقُوب، ومثله: ﴿وَنَكُونَ﴾ المعطوف عليه. وبرفع

الفعلين في قراءة جمهور القرّاء العشرة. وقرأ ابنُ عامر: ﴿وَلَا نُكَذِّبُ بِئَايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

فالنَّصبُ هو بأنْ مضمرةً بعد الواو، أي: وأنْ لا نكذّبَ. ونكُونَ من المؤمنين، وهذا تابع للتمني:

والرّفع على الاستئناف، أي: ونحن إذا أُعِدْنَا إلى حياة الامتحان لاَ نُكَذِّبُ بآيات رَبّنا، وسَنكونُ من المؤمين، وهذا عَهْدٌ منهم يُقَدِّمُونه.

وقراءة ابن عامر من الوجوه العربية الجائزة، ولا تخرج دلالتها عن القراءتين الأخريين.

● ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُۖ..﴾: «بَلْ» هنا: حرف إضراب انتقالي، أي: بل بدا لهمْ أنْ يُعْلِنُوا على رؤوس الأشهاد ندمهم وحسرتهُم، بَعْدَ أنْ عايَنُوا بأبصارهم، وهم واقفون مُشرفون على هاوية جهنّم، وعند أبوابها، مواقِعَهُم فيها، فاشتَدَّ ذعْرهُم وخوفهم، ولَعَلَّ في هذا الإعلان بأصواتهم العالية الجهيرة استجداءً للرحمة والعطف عليهم، وكانت لواعجُ النَّدَم والتحسُّر والاستجداء أموراً يُخْفُونها في مواقِفهم السَّابقة بَعْدَ بَعْثِهم، واستمرّوا في إخفائها فيما بينهم أو في صُدُورهم، حتَّىٰ عاينوا مباشرةً مصايرهُمْ، وهُمْ عند أبواب جهنم خائفون مَذْعُورون.

ولم ينتبِه المفسرون إلى هذا المعنى، فكانت لهم آراءٌ متكلَّفة فيما أرى، ولا يحتمل النصّ إرادة شيء منها.

● ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾﴾:

أي: ولَوْ رُدّوا إلى حياة الامتحان مرّةً أخرى، لَعَادوا لمثل الأمْر الّذي كانوا عليه في الحياة الدنيا، وهو الكفْرُ والتكذيبُ بآيات الله والعصيانُ لربّهم بارتكاب الجرائم، وهو الأمر الذي كانوا قد نهوا عنه.

والسبب أنّ إعادة الامتحان تستلزم مَسْحَ كلِّ مشاهد الآخرة من ذاكراتهم، فإذا أعيدوا إلى ظروف حياة أخرى كانت نُفوسُهم على مثلِ الْحَالِ الّتي كانَتْ عليها في الامتحان الأول لم يتَغيَّرْ فيها شيء، فهم يعودون إلى سيرتهم الأولى حتماً.

﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾: أي: في ادّعائهم أنهم إذا أعيدوا فسيكونون مؤمنين يعملون الصالحات، باعتبار أن واقع حالهم سيكون على نقيض هذا، وليس المراد أنّهم كاذبون في التعبير عن مشاعرهم الدّاخلية لدى تقديم وعُودهم بأنهم سيُؤْمنون ويعملون الصالحات، إذْ هي مشاعر قد عبَّروا عنها بصِدْقٍ وهم عند أبواب جهنم، لكنّها لا تُطَابقُ واقع حالهم حينما يسْتَأْنفون رحلة امتحانهم.

● ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾﴾: عَبّرت هٰذه الآية عن أوهام كلّ الكافرين، الّتي صارَتْ لديهم عَقِيدةً مُوَجِّهة لسلوكهم في الحياة الدنيا، فجعلَتْهُم يكذّبُونَ رُسُلَ الله، ويُكذّبون بآياته، وهي أنّ الحياة مقتصرة على الحياة الدُّنيا فقط، ولا تُوجَدُ حياةٌ أخرى بعدها، فلا بعْثَ ولاَ حَشْرَ، ولا حِسَابَ، ولا فَصْل قضاء رَبَّانيّ، ولا جزاء.

﴿إِنْ﴾ هنا حَرْفُ نفي بمعنى «ما» النافية ﴿هِىَ﴾ ضميرٌ يعودُ على ملاحَظٍ ذِهْناً، وهو «حياتنا» وهذا الملاحظ في الذهن مفسَّرٌ بما جاء بعد ﴿إِلَّا ﴾.

فالمعنى: مَا حَيَاتُنَا الّتي لَنَا في الوجود كُلّه إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنيا، ومَا نَحْنُ بمَبْعُوثين لحياة أُخرى يكون فيها الحسابُ، وفَصْل القضاء، وتنفيذُ الجزاء.

● ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ ﴾: أي: ولو تَرَىٰ حِينَ وُقِفوا على مَوْقِفِ مُحَاكمةِ رَبّهم لهم، لَرَأيتَ ما تضمَّنَه البيان في تتمّة الآية.

حُذِف جواب «لَوْ» لدلاَلَة تتمَّة الآية عليه. وحُذف أيضاً «مَوْقف مُحاكمة» لسهولة استخراجه بشيء من التدبّر. وهذان الحذفان المدرَكانِ ذهْناً من الإيجاز المعهود في القرآن المجيد.

• ﴿قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ﴾؟: أي: قالَ اللَّهُ للَّذِينَ كانوا في الحياة الدُّنْيا كافِرِينَ مُكذِّبين بيَوْمِ الدّين، أَلَيْسَ هٰذَا الّذِي كُنْتُمْ بِهِ تكْفُرُون وتكَذِّبُونَ بالواقع الْحقِّ الذي لاَ رَيْبَ فيه.

الباء في ﴿بِالْحَقِّ﴾ زائدة للتأكيد، أي: أليس هذا حقًّا مُؤَكّداً؟.

• ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾: أي: بلَىٰ هو الْحَقُّ الَّذِي لاَ شَكَ فيه، وأكَّدُوا اعترافَهم بالْقَسَم بربّهم: ﴿وَرَبِّنَا﴾.

«بَلَىٰ» حرف جَوَاب، ويختصُّ بالنَّفْي، ويُفِيدُ إبطاله. وإبطالُ النفي هنا معناه إثباتُ أنّ هذا الذي يُشَاهدُونَهُ يوم الدِّين حقٌّ، وفي هذا الاعتراف حُكْمٌ منهم على أنفسهم بأنهم كانوا في الحياة الدنيا كافِرين.

• ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾: أي: قال الله عزّ وجلّ لَهُمْ: فقد حكمنا عليكم بالخلود في عذاب النّار حكماً عادلاً، على وفق بياناتنا الّتي بلّغكُمْ إيّاها رُسُلُنا، وأنْزَلناها إليكم في كتابنا، فذوقوا العذاب بسبب ما كنتم تَكْفُرونَ جحوداً واستكباراً واتّباعاً للهوى.

الفاء في ﴿فَذُوقُوا﴾ فصيحةٌ عطفت على محذوف يسْهُل على المتدبّر إدْراكُ معناه.

• ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾: في هذا البيان تعليقٌ رَبَّانِيٌّ على ما جاء في سوابقه حول بيانِ بَعْضِ أحوال الكافِرِينَ يوم الدِّين، وعلَىٰ الحكْمِ عليهم بالخلودِ في عذاب النار.

قد خَسِرُوا، وجاء في نصٍّ سَابِقٍ أَنَّهم قد خَسِرُوا أَنْفُسَهم وأَهْلِيهم.

والمرادُ بِلِقاءِ الله لِقَاؤُه لمحاسبتهم، والحكم عليهم، والأمْرِ بتنفيذ جزائهم، وهذا أمْرٌ كانوا يكذّبون به وهم في حياة الامتحان.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾: يُمْكِنُ حَمْلُ لفظ الساعة هُنا علَىٰ ساعَةِ مَوْتِ كلّ واحِدٍ منهم، وعلى ساعَةِ إِنْهَاء ظروف الحياة الدنيا كُلّها، وعلى سَاعَةِ البَعْث.

﴿بَغْتَةً﴾: أي: فَجْأَةً، فَهِي بَاغِتَةٌ لهم. ولفظ «بَغْتَةً» هُنا مَصْدَرٌ في موضع الحال. وجواب إذا في العبارة التالية:

• ﴿قَالُوا يَحَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾: ﴿يَحَسْرَتَنَا﴾: عبارة يَقُولُها كلُّ واحدٍ منهم بَيْنَه وبين نفسه، لا يُعْلِنها مع نُظَرائه إعلاناً جماعيًّا، لِمَا سبق بيانه، وهي عبارةٌ تُعَبِّر عن النّدَم والتّحَسُّرِ والتفجُّع.

• ﴿عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾: أي: علىٰ مَا قَصَّرْنا وَضيَّعْنا وَتَرَكْنا في الحياة الدُّنيا، ممَّا هو سبَبُ نجاتنا وَسعادَتِنا يوم القيامة.

• ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾: أي: والحالُ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ أحْمَالَهمُ الثقيلة عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ، مِنَ الذُّنُوب والمعاصي والآثام والجرائم، كما تَحْمِلُ البغالُ والْحَمِيرُ الأحْمَالَ الثقيلَةَ على ظهورها.

الوِزْرُ: الحمْلُ الثقيل، وأُطلِقَ على الذنْب، وجمعُهُ «الأوزار».

• ﴿... أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾: ﴿أَلَا﴾: أداةُ استفتاحٍ وتنبيه، يُؤْتى بها في أوّل الجملة. ﴿سَاءَ﴾: كلمة تُقَال لإنشاء الذَّمّ، مثل: «بِئْس» ﴿مَا يَزِرُونَ﴾: أي: مَا يَحْمِلُونَ من آثام وجرائم، يقال لُغَةً: «وَزَرَ يَزِرُ وِزْراً وَزِرَةً» أي: حَمَلَ مَا يُثْقِل ظَهْرَهُ من جرائم ثقيلَة.



الموقف السادس
مَا يكون من الكافرين بَعْدَ أن يُكَبُّوا في النّار ويُعَذَّبُوا فيها إذ يتجدّد لديهم الأمَلُ أن يُقبل طلَبُهم استئناف امتحانهم

قال اللّهُ عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ

فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾.

هذا النّصّ يكشف موقف الكافرين يوْمَ الدّين بعْدَ أن دخلوا النار وذاقُوا بعْضَ عذابها، ولفَحتْ وُجوهَهُمُ النارُ فَهُمْ فيها كالحون.

حينئذٍ يقول الله لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾؟ فيَعْترفون على أنفسِهِمْ بأنّهم كانُوا ضالّين.

وتُطْمعُهُمْ مُحادَثَةُ اللّهِ لهم، فيَتَجدَّدُ لديهم الأمل بأن يستجيبَ اللّهُ دُعَاءَهم، بشأن اسْتِئْنَافِ امْتِحَانهم، وإعادَتِهم إلى مثْلِ ما كانوا عليه في الحياة الدُّنيا، فيَسْألُون رَبَّهم أَنْ يُخْرِجَهُمْ من النار، ويَرُدَّهم إلى حياة الامتحان ليؤمنوا ويعملوا صالحاً. فيقول الله لهم: اخْسَؤُوا فِي النّار وَلاَ تَكلِّموني، تَيْئِيساً لهم من إجابَةِ سُؤالهم.

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾:

أي: ومَنْ خَفَّتْ أعمالُهُ الموزونَةُ بموازِين الرحْمٰن يوم الدّين، إذْ كانَتْ سَالِبَةَ الضغط، لكُفْرِهِ وسُوءِ أَعْمَالِهِ في الدُّنيا، فلَمْ تُسَجِّلْ لَهُ إشاراتُ الموازِينِ ثِقلاً ما، لِعَمَلٍ إرادِيّ صالحٍ، مَقْبُولٍ عِنْد الله، فأولئك البعداء عن رَحْمَةِ الله الّذين خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ، إذْ تسبَّبُوا فِي إلقاءِ أنفسهم في دار العذاب النّار، يَذُوقون العذاب فيها خَالِدِين.

- ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾: أي: تَمَسُّ وجُوهَهُمُ النّار بإحْرَاقٍ غَيْرِ مُنْضِجٍ.
- ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾: أي: وَهُمْ فيها عَابِسُونَ، قَدْ غَيَّرَ لَفْحُ النّار ألوانَ وُجُوهِهِمْ.

الوجْهُ الكالح: هو الوجْهُ الشاحِبُ العابِسُ، والّذِي قَصُرَتْ شفتُهُ عن أسْنانه.

وقد سبق تَدَبّر هذا في الملحق الثالث من هذه الملاحق، خلال تدبُّر النصّ السادس.

• ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾: أي: أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي الّتي أَنْزَلْتُهَا فِي كِتَابِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ، مِنْ قِبَلِ الرَّسُول، أَوْ مِنْ قِبَلِ الدُّعاة والمذكِّرِينَ مِنْ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه؟!

استفهامُ تَوْبيخٍ وَتَأْنِيبٍ وَتَلْوِيم.

ولا بُدَّ أَنْ يَكُونَ جوابُهُمْ: بَلَىٰ، فَهُمْ في العذاب الَّذِي حَكَمَ اللَّهُ به عليهم يَتَقَلَّبُونَ، ولو أنْكَرُوا جحوداً لزادَ اللَّهُ من عذابِهِمْ.

• ﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾﴾:

وقرأ حمزة، والكِسَائي، وخَلَفٌ: **[شَقَاوَتُنَا]**.

الشِّقْوَة، والشَّقَاوَةُ، والشَّقَاء: التَّعَاسَةُ، وسُوءُ الْحال، والشِّدَّةُ، والْعُسْرُ، والضّلال.

أي: رَبَّنا غَلَبَتْ عَلَىٰ إرادَاتِنا وعُقُولِنَا مُسَبِّبَاتُ شِقْوَتِنا، وهي أهواؤُهم، وشَهَواتهم، ولذَّاتُهُمْ، ومطالِبُ نفوسهم من زِينَةِ الحياة الدُّنيا، وكِبْرُهُمْ، ورَغباتُهُمْ في الْفُجور، فجعلَتْهُمْ يكْفُرون بالحق، ويجْحَدونه، ويكَذِّبُون بآيات الله، ويُعْرِضون عنها، ثُمَّ يُدْبِرُون.

﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾: أي: وكُنّا بسَبب ذَلِكَ قوماً ضالّين، بعيدين عن صراط الحقّ.

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾: أطمعتهم محادَثَةُ رَبّهم لهم، ولو كانت على سبيل التوبيخ والتقريع والتثريب، فقالوا: رَبَّنا أَخْرِجنا مِنْ دَارِ العذاب، واقْضِ لنا باسْتِئنافِ رحلة امْتِحاننا، فإننا سَنُؤْمِنُ بما فَرَضْتَ علينا أَنْ نُؤْمِنَ به، وسَنَعْمَلُ صَالِحاً كما أَمَرْتنا.

فإن عُدْنَا إلى مِثْلِ ما كُنَّا عليه في الامْتحان الأوَّلِ فإنَّا ظَالِمُونَ ظُلْماً نَحْكُمُ به علىٰ أنفُسِنَا بالْخُلُودِ في عذاب النار.

﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾﴾: أي: كُونُوا بُعَداءَ أَذِلاَّءَ فِي جَهَنَّمَ مَطْرُودِين مُحْتَقرين مُهَانين، ولا تكلموني.

يُقال لغة: خَسأَ الكَلبُ ونَحْوُه يَخْسَأُ خَسْئاً وَخُسُوءاً، أي: ذَلَّ وبَعُدَ مُحْتَقَراً مُهَاناً مَطْروداً.

ولا يبقىٰ لهم في هذا الموقف إلاّ التمني فقال الله عزّ وجل بشأنهم وهم يُعذّبون ويتخاصمون في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول): ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾﴾

«لو» حرف تَمَنٍّ هنا. «كَرَّةً» أي: رجْعة لحياة الامتحان.

الموقف السابع

ما يكون من الكافرين في جهنم بَعْدَ أن يطول عذابُهم من تظاهرة جماعيّة يَصْطَرِخُونَ فيها ويَضِجُّون ويَصِيحُونَ مطالبين باستئناف امتِحانهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (فاطر/ ٣٥ مصحف/ ٤٣ نزول):

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾﴾:

دلّ هَٰذا النصّ على أنّ الذين كفروا بَعْدَ بعْثَةِ محمّد ﷺ لَهُمْ من الجزاءِ عذابُ نارِ جهنّم، وأنّ هذا العذاب ملازم لهم دواماً، فَلا يُقْضَىٰ عليهم بالْمَوْتِ فَيَمُوتوا، ويَسْتَرِيحوا بالموت من العذاب، ولا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عذاب النار شيءٌ.

وأنّ كلَّ كفُورٍ من الإنْسِ والجنّ يَجْزِيهِ الله مثْلَ ذَلِكَ الجزاء العظيم الشديد.

وقرأ أبُو عَمْرو: [وَكَذَلِكَ يُجْزَىٰ كُلُّ كُفُور] ومؤدّى القراءتين واحد.

وجاء في هذا النصّ بيان مَوْقف من مواقف المعذّبين الخالدين في النار، بَعْدَ أن يَطُولَ فيها عذابهم، وهو موقف الاصطراخ في مظاهرة جماعيَّةٍ ينادُونَ فيها رَبّهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من النّار، وأرجعنا إلى حياة الامتحان [نَعْمَلْ] عَملاً ﴿صَٰلِحًا غَيْرَ﴾ العمل الفاسد ﴿ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾ في الحياة الدنيا حياة الامتحان.

فيقول اللَّهُ لهم: أَلَمْ تَحمِلُوا الأَمَانَةَ الَّتي أبتْ حَمْلَهَا السَّمَاوَاتُ والأرض والجبال، وكانَ حَمْلُكُمْ للأمانةِ بكامِلِ حُرِّيَتِكُمْ، ودَخَلْتُمْ حياة الامتحان مُخْتارينَ غيْرَ مَجْبُورين ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ عمراً ﴿مَّا﴾ طَويلاً كافِياً لأن تَهْتَدُوا فيه، وتضعوا في ذاكراتكم خلاله ما يجب عليكم في رحلة امتحانكم، فتؤمنوا وتَعْمَلُوا صالحاً، وهٰذا الْعُمْرَ ﴿يَتَذَكَّرُ فِيهِ﴾ مستجيباً لمطلوب النجاة والسعادة ﴿مَن تَذَكَّرَ﴾ من عِبَادِنا المؤمنين الذين عملوا صالحاً ﴿وَجَآءَكُمُ﴾ الرَّسُول المبلّغُ عَنّا آياتِنا و ﴿ٱلنَّذِيرُ﴾ لَكُمْ بالخلود في عذاب النار إذا كَفَرْتم وجحدتم واستكبرتم عن عبادة ربكم، واتَّبَعْتُمْ سُبُل الضلال والْغَيّ.

وهنا لا بُدّ أن يقولوا: بلىٰ.

عندئذٍ يقول الله لهم: ﴿فَذُوقُواْ﴾ العذابَ دَواماً ﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾.

وجاء في آخر هذا النصّ بيانٌ لمَنْ يخْطُرُ لَهُ احْتِمالُ صِدْقِ بعض الكافرين، المطالبين باستئناف حياة الامتحان لهم، إذا أَعْطَاهُمُ الله فُرْصَةَ إعادَةَ الاختبار، في رحلة امتحان أخرى.

وهذا البيان يُشير إلىٰ أنّهم سيكونون مِثْلما كانوا عليه في الامتحان الأوّل، ولو أُعْطُوا ما شاءوا من إعادة إلى حياة الامتحان، فاللَّهُ الذي يَعْلَمُ غيْبَ السَّماوات والأرض، هو الْعَلِيم بذاتِ الصدور، وهي الأشياء المختصّة بالصدور، والمصاحبة لها دواماً، من نِيّاتٍ وإراداتٍ موجّهات للسلوك الباطِنِ والظَّاهر، فلو علم الله فيهم خيراً لَرَدَّهم إلى حياة الامتحان، ولمنحهم فرصَةَ إعادةِ الاختبار.

لكنهم حينما يُرَدّون إلى حياة الامتحان لو كان من الحكْمَةِ رَدَّهم لَمَسَحَ الله من ذاكراتهم كلّ مَشَاهِدِ الآخرة وذكرياتها، فيعودون حينئذٍ إلى مثل ما كانوا عليه في الامتحان الأول.

❁ ❁ ❁

الموقف الثامن

ما يكون من الكافرين وهم يُعذَّبُونَ في النّار بَعْدَ أن يشْتَدّ ضجرهم من طول عذابهم دُون انقطاع إذ يطالِبُون بتخفيف يَومٍ من العذاب فلا يُستَجابُ لهم

قال الله عزّ وجلّ في سورة (غافر/ ٤٠ مصحف/ ٦٠ نزول):

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ ۚ قَالُواْ فَٱدْعُواْ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

دلّ هذا النصّ على أنّ المعذَّبِيْنَ في النار من الكافرين، يَصِلُونَ إلى دَرَكَةِ اليأس من استئناف امتحانهم، ومن إخراجهم من النار، فيُحَاوِلُون أن يَسْتَجدُوا من خَزَنَةِ جهنَّمَ، وهم ملائكةٌ غِلاَظٌ شِداد لاَ يَعْصُونَ الله ما أَمَرَهم، ويَفْعَلُونَ ما يُؤْمَرُون، أن يَشْفَعُوا لهم عِنْدَ رَبِّهم دَاعِينَ أَنْ يُخَفِّفَ اللَّهُ عنهم يَوْماً من الْعَذاب.

فيقول لهم خَزَنَةُ جَهَنَّمَ: أَلَمْ تَدْخُلُوا رِحْلَةَ امْتِحَانِكُمْ باختياركُم الحرُ ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ من الآيات الإعجازية، والآيات

الْبُرْهَانيَّة العقليَّة، والآيات المنزلاَتِ من ربّكم لبيان مطلوب الله مِنْكُمْ في رحلة امتحانكم.

فيقول الخالدون في النّار: ﴿بَلَىٰ﴾.

فيقول لهم خَزَنَة جهنَّم: [فَادْعُوا أَنْتُمْ] فإنَّنا لَنْ نَدْعُو لكم، لأنّ ربَّنا لم يأْذَنْ لنا بأن نَدْعُوَه من أجلكم، وإذا دَعَوْتم أنتم فلَنْ يَسْتَجِيبَ الله لكم فقد كنتم في حياة امتحانكم كافِرِين: ﴿وَمَا دُعَتَؤُا ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ أي: في ضياع، فلا يكون له أثَرٌ نافع.

وجاء النصّ بأسلوب حكاية أمْرٍ وقع ومضىٰ، وهو من أحداث يوم الدّين، للدلالة على أنه سوف يتحقق يوم الدين حتماً، فهو بمثابة أمْرٍ قد وقع وتَحَقَّقَ فعلاً.



الموقف التاسع

ما يكون من الكافرين من اليأس النهائي من الخروج ومن استئناف حياة الامتحان ومن التخفيف من العذاب

إنهم بعد المواقف السابقة يَصِلُونَ إلى دركة اليأس الكامل من استئناف حياة امتحانهم، ومن التخفيف من العذاب، فينادُونَ مالكاً خازِنَ النار الأكبر، قائلين بأصوات عالية جهيرة فيها صُراخٌ وضجيج: يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ. فيجيبهم بقوله: إنَّكُمْ مَاكِثُون.

إنّهم يطالبون بالموت الأبدي، لكِنْ لا مَوْت بَعْدَ البعث ليوم الدين، بل حياة خالدة.

قال الله عزّ وجل في سورة (الزُّخْرُف/ ٤٣ مصحف/ ٦٣ نزول):

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ﴾: أي: لاَ يُخفَّفُ عنهم العذاب، ولاَ يُسَكَّنُ، ولا تُلَيَّنُ شِدَّتُه.

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾: أي: وهم فيه ساكنون يائسون.

﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾: أي: ليقض علينا بالموت النهائي الأبدي.

﴿إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾: أي: إنَّكُمْ مُقِيمُون في العذاب لا تَحَوُّل لكم عنه.

وبَعْدَ هٰذه اللقطة من مشاهد يوم الدّين، أبَانَ الله لعباده مخاطباً لهم، بأسلوب إقناعيّ هادىء فقال عزّ وجل لهم:

﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾﴾.

❁ ❁ ❁

الموقف العاشر
ما يكون من تمنّي الكافر أن يكون تراباً

بعد كلّ المواقف السابقة، والمحاولات الّتي اتخذها الكافرون للخلاص من عذاب الجحيم، لا يَبْقَىٰ أمام الكافر إلاّ أن يتمنى أن يكون تُراباً، كما عادت البهائم تراباً بَعْدَ بَعْثِها.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (النّبأ/ ٧٨ مصحف/ ٨٠ نزول):

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا﴾.

وقد يكون هذا التمنّي مصاحباً لكلّ مواقفه بعد أصدار الحكم عليه بالخلود في عذاب النار، في محكمة العدل الرَّبّانيّة.

❁ ❁ ❁

وبهذا تمّ تَتَبُّعُ وَتَدَبُّر النصوص الموزعة في القرآن حول هذا الموضوع، والحمد لله على توفيقه وفتحه.

❁ ❁ ❁

سُورَةُ ٱلْجِنِّ

٧٢ مَصْحَف ٤٠ نزول
وَهِيَ كُلُّهَا مَكِيَّة

وسُمّيت بسورة الجنّ لاشتمالها
على بيان قصة نفر من الجنّ وفَدُوا إلى الرسول ﷺ
واستمعوا القرآن منه، وآمَنُوا به، وانصرفوا دعاة بين قومهم



(١)

نص السورة وما فيها من فَرْش القراءات

سورة الجن

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ

من ٣ ـ ١٤● قرأ ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، وَخلف، بفتح همزة «أنَّ» في: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ﴾ و﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ﴾ و﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا﴾ و﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ﴾ و﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا﴾ و﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا﴾ و﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ﴾ و﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي﴾ و﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ﴾ و﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ﴾، و﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ﴾ و﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾.

● وقَرَأَ أبو جَعْفَر بفتح «أنَّ» في ثلاثة مما سبَق، وهي: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ﴾ و﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ﴾ و﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ﴾، والباقي بكَسْرِها.

● وقرأ باقي القراء العشرة، بكَسْرِ «إنَّ» في جميع هذه المواضع.

ففتح «أنَّ» على أنها وما بعدها بتأويل مصدر عطفاً على ضمير (به) في ﴿فَآمَنَّا بِهِ﴾.

وكَسْرُها على أنها مَعْطوفة على: [إِنَّا سَمِعْنَا].

٥ ـ ● قَرَأَ يعقوب: [أَنْ لَنْ تَقَوَّل]: أي: لَنْ تَتَقَول. التقوُّلُ افتِرَاءُ الكذب.

● وقرأ باقي القراء العشرة: [أَنْ لَنْ تَقُول].

أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟

٨ ـ ● قرأ أبو جَعْفَر: [مُلِيَتْ] بالياء بدل الهمزة. وكذلك حمزة في الوقف.

● وقرأ باقي القراء ﴿مُلِئَتْ﴾ بالهمزة.

١٧ ـ ● قرأ نافع، وابنُ كثير، وأَبو عَمرو، وابنُ عَامر، وأَبو جَعْفَر: [نَسْلُكْهُ] بنون المتكلّم العظيم.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بياء الحديث عن الغائب والضمير يعود على الله.

١٩ ـ ● قرأ نافع وشعبة: [وَإِنَّهُ لمَّا قَامَ] بكَسْرِ هِمْزَة «إِنَّ» وهو على الاستئناف.

● وقرأ بَاقي القراء العشرة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾ بفتح همزة «أَنَّ» وهو على العطف.

وهما وجهان عربيان صحيحان.

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾».

١٩ - ● قرأ هشام: [لُبَدًا] بضمّ اللاّم في أحد وجهين له.
● وقرأ باقي القراء العشرة: ﴿لِبَدًا﴾ بِكَسْر اللاّم، وهي الوجه الآخر لهشام.
والقراءتان وجهان عربيان للكلمة.

٢٠ - ●قرأ عاصم، وحَمْزَة، وأبو جَعْفَر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ﴾.
وقرأ باقي القرّاء العشرة: [قَالَ إِنَّمَا].
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: أمره الله فقال.

٢٥ - ● قرأ نافع، وابْنُ كثير، وأبُو عَمْرو، وأبو جَعْفر: [رَبِّيَ أَمَدًا] بفتح ياء المتكلم. وقرأ باقي القراء العشرة: بإسْكانها مع المدّ في الوصل.

٢٨ - ● قرأ رُويس: ﴿لِيُعْلَمَ﴾ بالبناء لما لم يسمّ فاعلُه، وقرأ باقي القراء [لِيَعْلَمَ].
وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد.

(٢)
موضوع سُورَةِ الجنّ

سورة الجنّ ذاتُ موضوع واحِدٍ يتناول قصَّةَ نَفَرٍ من الجنّ، اسْتَمَعُوا القرآن مِن الرَّسُول ﷺ، ولم يكن الرسول يَعْلَمُ بحُضُورِهم ولا باسْتِماعِهم القرآن من تلاوته، ولا بقصتهم.

وقد أعلمه الله عزّ وجلّ في هذه السورة بحضُورهم، وباسْتِماعِهِمُ القرآن منه، وأنبأه بقِصَّتهِم، وبما قَالُوه لإخوانهم من الجنّ حِينَ رجَعُوا إليهم، وأمَرَهُ بأن يُخْبِرَ الناسَ بما أَنْزَلَ عليه من نَبَئِهم في هٰذِه السُّورَة، وبما قَالُوه.

وأَتْبَعَ الله عزّ وجلّ قِصَّتهُمْ ببيانٍ تكْمِيلِيٍّ لأقْوالِهم الإيمانيَّةِ، إشعاراً بصِحَّةِ أقوالهم الّتِي قالُوها.

وأتبَعَ الله عزّ وجلّ ذَلِكَ ببياناتٍ تتعَلَّقُ بِرِسالة الرسول محمّد ﷺ، وبما أوصاه أَنْ يقوله لقومه، في المرحَلَةِ الَّتي نزلَتْ فيها هذه السورة، معالجةً للموقفِ الّذي وصَلَ إليه كُفَّارُ قومه في مكّة المكرمة.

(٣)
دروس سورة الجنّ

تشتمل سورة الجنّ على ثلاثة دروس كما يلي:

الدرس الأول: يتضمَّنُ بيان قصَّةِ النَّفَر من الجنّ، الّذِينَ استمعوا القرآن من الرسول محمد ﷺ، فآمنوا به، وانْصَرَفُوا إلى أقوامهم من الجنّ دُعاةً إلى دِين الله الحقّ، الذي أَنْزَله الله على خاتم أنبيائه ورُسُله، وجَعَلَهُ خاتم الرسالات الرّبانية للناس.

وهو الآيات من (١ ـ ١٥).

الدرس الثاني: يتضمَّنُ بياناً من الله عزّ وجلّ مكَمِّلاً لبعض قضايا دينيَّة، جاءت مضافةً إلى القضايا الَّتي ذكرَها دُعَاةُ الجنّ بين أقوامهم، ومعطوفَةً عليها، للإشعار بأنّ ما ذكره هؤلاء النَّفَرُ من الجنّ بَيْنَ أقوامهم حقٌّ، وهو بمثابة التّصْديق من الله لها، واعتمادها، فتُنَزَّلُ منزلَةَ القول المباشر من الله جلّ جلاله.

وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩).

الدّرس الثالث: يتضمَّنُ تعلِيماً من الله للرسول محمّد ﷺ، ما يقولُه في دعوته، وقضايا هذا التعليم تُعْتَبر من القضايا الدّينيَّةِ الأصول، الّتي تتناسَبُ مع القضايا الّتي ذكرها دعاةُ النفر من الجنّ، والقضايا الأخرىٰ الّتي أضافها البيان الرّبّاني المباشر، وتُلائِم المرحلة الدّعَوِيَّة الّتي نَزلَتْ فيها سورة الجنّ، وفيها معالجة الموقف الذي وصلَ إليه كبراء مشركي قومه في مكّة المكرَّمة.

وهو الآيات من (٢٠ ـ ٢٨) آخر السورة.

وبهذا تظْهَرُ لَنَا وَحْدَةُ مَوْضُوع السّورة، ويظهر لنا ترابطُ قضاياها، وَتَعَانُقُ آياتها.



(٤)
دراسة شاملة للجنّ

تعريف بالجن:

دلَّت النُّصوص على أنّ الجنّ خلْقٌ من خَلْقِ الله يُشبِهُون الإنْسَ في الصفاتِ الّتِي تُؤَهِّلُهُمْ للابْتِلَاء في ظُرُوفِ الحياة الدُّنيا، وقَدْ خَلَقَهُمُ اللَّهُ ليَبْلُوهم أيُّهُمْ أحْسَنُ عملاً، وكَلَّفَهُمْ في رحلة ابتلائهم أن يَعْبُدوه ولا يُشْرِكوا بعبادته أحداً.

وبَعْدَ رحلة الابتلاء والموت، ومرور فاصل زمنيّ بَعْدَ الموت، يكونُ بعثُهم للحياة الأخرىٰ، ليَلْقَوْا فيها حِسابَهُمْ وفَصْل القضاء بشَأْنِهم، وجزاءهم في دار النعيم التي هي الجنّة المعَدَّةُ للمتّقين، أَوْ في دار العقاب والعذاب، المعَدَّةِ للمجرمين، والكفَرة، والعاصين.

أمّا طبيعة أجسامهم، فلطيفَةٌ لاَ تراها أعْيُنُ النّاس بحَسَبِ العادة، وبحَسَبِ شروط رؤيَةِ الناس في الحياة الدنيا، لَكِنْ لا يمْنَعُ الْعَقْلُ من إمكان رؤيَتِهم، إِذَا تَشَكَّلُوا بالْأَشْكَالِ الجسمانيّة، الّتي يمكن أنْ تراهَا أعْيُن الإنس، أو كان لدى الرائي من الإنس قُدرات خاصّة تؤهّله لرؤيتهم.

وقد دلَّت النُّصُوصُ علىٰ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أعْطاهُمُ القدرة علَىٰ التشكُّل بأجسادٍ يراها الإنس، وهم قد يتشكلون بها أحياناً.

ولا يمْنَعُ العقْلُ أيضاً منْ إمْكانِ رؤيةِ بعْضِ الناس لهم، دونَ أن يتشكَّلُوا بالأشكال الجسمانيّة الكثيفة، ويكون هذا لمن وهبهم الله عزّ وجلّ قدراتٍ خاصَّةً فوْقَ قُدْرَاتِ النَّاسِ العاديَّة، وهٰذه الرُّؤيَةُ تكونُ في أحوالٍ نادِرَةٍ.

وقد صحَّ أنَّ الرَّسُول محمّداً ﷺ رأىٰ بعْض الجنّ وهم على أَصْلِ طبيعتهم، دون أَنْ يتشكّلُوا بالأشكال الجسمانية، الّتي يمكن أن تراها أعْيُن الإنْس.

ويوجَدُ لدى بعْض الناس طاقاتٌ نَفْسِيَّةٌ نادرات، لا يُوجد نظيرها لدَىٰ سائر الناس، وبهٰذه الطاقات النفسيّة النادرات قد يَرَوْن الجنَّ وهُمْ على أصْلِ طبيعتهم دون أن يتشكَّلُوا.

وإنكارُ مِثْل هٰذِهِ الحقائق مكابَرَةٌ لاَ تغيِّر من الحقّ والواقِع شيئاً، والله على كلّ شيءٍ قدير.

ولا يَنفِي وُجُودَ أَصْلِ هٰذِهِ الحقيقة وَفْرَةُ الدَّعَاوىٰ الكاذبة، الّتي يَدَّعيها

المشتَغِلُون بالسِّحْر، والمشعْوِذُون، ومُدَّعُو الصِّلَةِ بالجنّ، الّذِين يتّخذُون السِّحْرَ والشعوذة مَهْنَةً لهم، يبْتزُّونَ بها أَمْوالَ الْبُسَطَاءِ، والسُّذَّج، وضُعفاء العقول، الّذِين يَجْرُونَ وراءَ الأوْهام، ويتَّبِعُونَ المشَعْوِذين، والدَّجّالِينَ، والمخَرِّفين.

❁ ❁ ❁

مادّة كلمة (الجنّ) عند أهل اللّغة:

أخْذاً مما جاءَ في «لسَان العرب» وغيره من المعاجم العربيّة حول مادّة كلمة الجنّ، أذكر البيان التالي:

المادّة اللّغويَّة لكلمة «الْجِنّ» تَدُلُّ في كلّ صِيَغِهَا على معْنَىٰ السَّتْر. فيقال: جَنَّ فُلاَنٌ الشيءَ يَجُنُّهُ جَنًّا، أي: سَتَره.

وكُلُّ شيءٍ سُتِرَ عَنْكَ، فَقَدْ جُنَّ عَنْكَ.

ويقال: جَنَّهُ اللَّيْلُ يَجُنُّهُ جَنًّا وَجُنُوناً، أي: سَتَره، ويقالُ: جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ يَجُنُّ جَنًّا وَجُنُوناً وجِناناً، وأجَنَّهُ، أي: سَتَره.

ومِنْ هٰذا سُمِّيَ «الْجِنُّ» بهذا الاسم لاستتارهم، واختفائهم عن أبْصار الناس. ويُطْلَقُ عليهم أيْضاً لفظُ «الْجِنَّة».

والْجَنِين في بَطْنِ أُمِهِ سُمِّيَ «جَنِيناً» لاسْتِتَارِه في بَطْنِ أُمِّه.

ويُقال لغة: جَنَّ الْجَنِينُ في الرَّحِمِ يَجِنُّ جَنًّا، وأجَنَّتْهُ الحامل. أي: حمَلَتْ به.

وَيُسَمَّى التُّرسُ: «مِجَنًّا» لأنّه آلةٌ تُسْتَخْدَمُ لسَتْرِ المقاتِلِ من ضَرَبَاتِ سِلاح خَصْمِه المحارب له.

ويُسَمَّىٰ الدِّرْعُ: «جُنَّة» لأنَّهُ يَسْتُرُ ويقي من سلاح الْعَدُوّ، وكُلُّ وَاقٍ وواقيَةٍ يُسَمَّىٰ: «جُنَّةٌ».

ويُسَمَّىٰ القَبْر: «جَنَنَاً» لأنَّه يسْتُرُ الميّت، وكذلِك يُسمَّىٰ الكَفَن.

ويُقَالُ: أَجَنَّهُ، أي: كَفَّنَه، أو دفنه في القَبْر.

ويُسَمَّىٰ الْقَلْبُ «جَنَاناً» لاسْتِتَارِه في الصَّدْرِ.

وتُسَمَّىٰ الْحَدِيقَةُ ذَاتُ الأشجار الكثيرَةِ المتقاربة «جَنَّةً» لأنَّ أشجارها تَسْتُرُ أرْضَها.

وهكذَا تَدُورُ صِيَغُ هٰذِهِ المادَّةِ دالَّةً على معانٍ مختَلِفَةٍ، تشْتَرِكُ جميعها بمعْنَىٰ السَّتْرِ والاسْتِتار.

ويُقَالُ للواحد من «الجِنّ» لفظ «الْجِنّي» فهو اسْمُ جنْسٍ جَمْعِيٌّ يُفْرَقُ بَيْنَه وبَيْنَ وَاحِدِه بالْيَاء.

قال ابْن سِيدَه (من عُلَماء اللُّغَة): «الجِنُّ نوْعٌ من الْعَالَم، سُمُّوا بذلِكَ، لاجْتِنَانِهم عن الأبْصَار، ولأَنَّهُم اسْتَجنُّوا من الناس، فَلَا يُرَوْن» اهـ.

❁ ❁ ❁

الجنّ مخلوقون من مارجٍ من نار، والملائكة من نور، والإنْسُ من الطين:

ودَلَّت النُّصوص الثابتة الصحيحة على أنّ الجنَّ مَخْلُوقُونَ مِنْ مَارِجٍ من نارٍ، أي: من أخْلَاطِ لَهَبٍ صافٍ من النار، وهٰذِه النار قَدْ اشتَدَّ تَوَقُّدُها بسَبَبِ السَّمُوم، وهي الرِّيح ذاتُ الحرارة الشديدة الّتي تَنفُذ في مسَامّ الأشياء والأبْدَان.

أمّا الإنْسُ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ مِن الطّين، وأمَّا الملائكَةُ فَهُمْ مَخْلُوقُونَ مِنَ النُّور.

هٰذِهِ الحقائق قَدْ دَلَّتْ عليها نُصُوصٌ مِنَ القرآن والسُّنَّة، ومِنْها ما يلي:

(١) روى مُسْلِمٌ عَنْ عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها، أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال:

«خُلِقَتِ الْمَلائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ».

أي: وخُلِقَ آدم من طين، كما جاء بيانُه في القرآن المجيد.

الْجَانّ: هو أبو الجنّ كما ذكر المفسّرون، أو هو جِنْسُ الجنّ، كما ذكر بعْضُ اللُّغَوِيّين، وعلى هذا تُحْمَلُ بعض النُّصُوصِ القرآنية.

(٢) قال الله عزّ وجلّ في سورة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾.

(٣) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾﴾.

(٤) وقال الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾: **الصَّلْصَال**: هو الطِّينُ اليابسُ الّذِي إذَا نُقِرَ بشَيْءٍ أعْطَىٰ صَوْتاً فِيهِ تَرْجِيع، ومعلومٌ أنّه لا يكُونُ صَلْصَالاً حَتَّىٰ يَمُرَّ بِمَرْحَلَةِ الطّين، وقَبْلَ الطّين كان تُراباً وماءً.

﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾: **السُّلالَة**: ما اسْتُلَّ مِنَ الشيء وانْتُزِعَ برِفْقٍ، كانْتزاعِ الشَّعْرَةِ من العجين الطَّرِيّ اللَّيّن.

وهكذا تُستَلُّ أغْذِيَةُ النباتات من الطّين، وتُستَلُّ عَناصِرُ بِناء الأَجْسَادِ من الأغْذِيَة، وتُستَلُّ عناصر النُطفَةِ المنويَّةِ مِنَ الأجْسَادِ الحيَّة.

﴿مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾: **الحَمأُ**: هو الطّينُ الأسْوَدُ المُنتِنُ. **المسْنُون**: هو المصوَّرُ المصْقُولُ المُمَلَّس.

﴿كَالْفَخَّارِ﴾: **الفخار**: الأواني والأدواتُ الّتِي تُصْنَعُ من الطّين، وتُشْوَىٰ في النار حتَّىٰ تَشْتَدَّ وتتصَلَّب.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧)﴾: أي: وخَلَقْنا المخلُوقَ الأوَّل من الجنّ من نَارٍ تَوقَّدَتْ من ريحِ حارَّةٍ شديدة الحرارة، وهي الّتِي يُقَالُ لها: «**السَّمُوم**» لنُفُوذِها في المسَامّ.

وهٰذِهِ النّار الملْتَهِبَةُ لَهباً صَافِياً مُكَوَّنَةٌ مِنْ عَنَاصِرَ مختلطة، باعتبار أنّ وقودَها عَناصر مختَلِطَةٌ مختلفة.

﴿مِن قَبْلُ﴾: أي: من قبل خَلْق الإنسان.

﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥)﴾: **الجَانّ**: أبو الجنّ. **مِنْ مَارِجٍ**: أي: من مُختلط. **المَارِجُ**: المختَلِط، فهو ذو العناصر المختَلِفَةِ المختَلِطة. ويقال: مَرَجَ اللَّهَبُ إذا ارتفع. **والمارج**: اللَّهَبُ الصافِي من الدُّخان.

❁ ❁ ❁

إبليس من الْجِنّ:

إبليس من نوع الجنّ، فهو من سلالَةِ «الْجَانّ» أَبِيهم.

لقد كان إبليسُ من الجنّ فانْدَسَّ في صفوف الملائكة، لوجود تشَابُهٍ ظاهِرِيٍّ بين الملائكة والجنّ، وجَعَلَ يتظاهر بالعبادةِ لِلّهِ كالملائكة، حتَّىٰ وَصَلَ إلى صفوف الملأ الأعلى.

ففَسَقَ خَارِجاً عن طَاعَةِ أمْرِ رَبِّه، إذْ رَفَضَ أنْ يَسْجُدَ لآدَم، وكان قَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ بأنْ يَسْجُدَ مع الملائكة الَّذِينَ انْدَسّ فيهم، وأمَرَهُم اللَّهُ بأن يَسْجُدُوا لآدم، فكشَفَ بمَعْصِيته أنَّهُ لَيْسَ مِنْ صِنْف الملائكة الَّذِين لاَ يَعْصُونَ اللَّهَ ما أمَرَهم بالفِطْرَةِ، ويَفْعَلُونَ مَا يُؤمَرُون، فأخْرَجه الله وطَرَدَه، وجعَلَه من المطرودين الملعونين ومن أهل النار، إذْ أصَرَّ على معصيته ولم يسْتَغْفِر، بَعْدَ ثلاث جَلْسَاتٍ كرَّرَ الله فيها محاكمته، ليَمْنَحَهُ فُرصَةَ التوبة والاستغفار فلَمْ يفعل.

قال الله عزّ وجل في سورة (الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

❁ ❁ ❁

الجنّ سُلاَلَة كالإنْسِ أصْنافٌ وألوان ولهم مذاهب شتى وهُمْ يَرَوْنَنَا مِنْ حَيْثُ لاَ نَراهُمْ:

والجنُّ سُلاَلَةٌ كالإنْسِ أقوامٌ وقبائل، وأصنافٌ وألوان، ولَهُمْ مَسَاكِنُ وَمَنازل، يَرَوْنَنَا مِنْ حَيْثُ لاَ نراهم، وقَدْ يَجْلِسُونَ مَعَنا، وَيُسَاكِنُونَنا فِي بُيُوتِنَا.

ومنهم الأقزام ومنهم العمالقة، وَمِنْهُمْ الضُّعَفَاءُ ومنْهُمْ الأشدّاء الأقوياء، ومنهم الْغَوَّاصُونَ في البحار، ومنهم الّذِين يسْتَطِيعون القيام بأعمال البناء، ومنهم الّذِين يَسْتطيعُونَ القيام بأعمال الصّناعات كالإنْس.

دلَّ على هذا ما جاء في قصّة سليمان عليه السّلام، إذْ سَلَّطَهُ الله عزّ وجَلَّ على الْجِنّ، فقال في عَرْضِ لقطات من قصّته في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

وقد سبَق تدبُّر سورة (ص) فلْيُرْجَعْ إليها. **الشياطين**: هم كفرة الجنّ والدعاة إلى الكفر.

وجاء في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) قول الله عزّ وجل:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾﴾:

﴿يُوزَعُونَ﴾: أي: يُصَفُّون وَيُرَتَّبُونَ بانتِظام.

فأبانت هذه الآية أنّ الله عز وجل قد سلّط سليمان عليه السلام على الجنّ، فاتّخذ منهم جنوداً، وأنه جمعهم مع جنوده من الإنس، وجنوده من الطير، ليَسُوقهم إلى الجهاد في سبيل الله، وهذا لا يدلّ على أن الإنس كانوا يَرَوْن جنوده من الجنّ.

وقال الله عز وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزول):

﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾.

المحاريب: جمع «**محراب**» وهو صَدْرُ البيت، وأكرم مَوْضِعٍ فيه، والغرفة، وأرفع بيتٍ في الدّار، وأرفع مكان في المسجد، ومحاريبُ بني إسرائيل مساجدهم التي كانوا يجلِسُون فيها.

التّماثيل: المجسَّمات الّتي تُصْنَعُ على صُوَر الأحياء وغيرها.

الجفان: القِصَاع الّتي تُقَدَّمُ فيها الأطْعِمَةُ لِلأَكْلِ منها.

﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: أي: كالأَحْوَاضِ مِنَ الماء، مَفْرَدُها «الْجَابِيَة».

﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَـٰتٍ﴾: الْقُدور: هي الأواني الّتي يُطْبَخُ الطَّعَامُ فيها، الواحدة منها «قِدْر». رَاسِيات: أي: ثابتَات لا تتقَلْقَل لعظمها.

﴿دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾: هي الأرضة، وهي دُوَيبَّةٌ تأكُلُ الخشَبَ ونحوه.

﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾: الْمِنْسَأَةُ: العصا الغليظَةُ الَّتي تكون مع الراعي.

لقد حفظ الله جسَدَ سليمان وهو على كرسيِّه متكئاً على عصَاه بعْدَ موته، حتَّى أكلَتْها الأَرَضَة فضعفَتْ فخرَّ جَسَدُهُ إلى الأرض.

وقال الله عزّ وجلّ في عرض بعض قِصّته في سورة (النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول) بشأن عَرْشِ بِلْقِيس ملكة سَبأ:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: أي: قَوِيٌّ مَاكِرٌ مِنهم، وكان هذا الجنيُّ العِفْرِيتُ أحَدَ المَلأِ الكبار من جُلَسَاءِ مَجْلِسِ سليمان عليه السلام، ويظهَرُ أنَّ سُلَيْمَانَ كَانَ بِعَطَاءٍ خاصٍّ من رَبِّه يَرَىٰ الجِنَّ، ويَصْطَفِي مِنْهُمْ صَفْوَةً لمجَالِسِه، فكان يراهُمْ فيها، في حين أَنّ غَيْرَهُ من جُلَسَاءِ مَجْلِسِهِ لاَ يَرَوْنَهُمْ، وَكان يَسْمَعُ أحاديثَهم وأسْئِلَتَهُمْ وأجْوِبَتَهُمْ في حِين أنّ جُلَسَاءَ مَجْلِسِه لاَ يَسْمَعُونها.

﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾: أي: قبل أن ينتَهِيَ وقْتُ مَجْلِسِكَ المعتاد الّذي تَجْلِسُ فيه للنَّاس.

❁ ❁ ❁

الجنّ يأكُلونَ ويَشْرَبُونَ ويتناكحُونَ ويَتَنَاسَلُون:

دلّت النُّصوصُ الصحيحة على أنّ الجنّ يأكُلونَ ويشربونَ، ويَتَنَاكحُون، ويَتَناسَلُون، إلاّ أَنَّ كيفيّات طعامهم وشرابهم وتناكحهم وتناسُلِهم مجهولَةٌ لَنا.

ومن الأدلة على هَذِهِ الصّفات للجنّ ما يلي:

(١) روى مسلم والترمذيّ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَسْتَنْجُوا بالرَّوْثِ وَلاَ بالْعِظام، فإنَّها زَادُ إِخْوَانِكُمْ مِنَ الْجِنّ».

الرّوث: هو ما تخرجه البهائم من فضلات طعامها، وهو طعام دوابّ إخواننا المؤمنين من الجنّ.

(٢) وروى أبو داود بإسْنَادٍ صحيح عن ابن مَسْعُودٍ أيضاً قال:

«لَمَّا قَدِمَ وَفْدُ الْجِنّ عَلَىٰ النبيّ ﷺ قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ انه أُمّتَكَ أَنْ يَسْتَنْجُوا بِعَظْمٍ أَوْ رَوْثَةٍ أَوْ حُمَمَة، فَإنَّ اللَّهَ جَعَلَ لَنَا فِيهَا رِزْقاً، فَنَهَانا رسُول الله ﷺ عَنْ ذَلِكَ».

حُمَمَة: أي: فَحْمَة، وجَمْعُها «حُمَم».

(٣) وروى مسلم عن ابْنِ مَسْعُودٍ أيضاً قال: قالَ رسول الله ﷺ:

«أَتَانِي دَاعِي الْجِنّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمْ القرآن».

قَال: فانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثارَهُمْ، وآثارَ نيرانهم، وسأَلُوه الزَّادَ، فقال:

«لَكُمْ كُلُّ عَظمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْه، يَقَعُ في أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً، وكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لدَوَابّكُمْ».

فقال رسول الله ﷺ:

«لاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فإنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».

(٤) وروى مُسْلِمٌ عن ابْنِ عُمَر رضي الله عنهما أنَّ رَسُول الله ﷺ قال:

«إِذَا أَكَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَأْكُل بِيَمِينِهِ، وإِذَا شَرِبَ فَلْيَشْرَبْ بِيَمِينِهِ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشِمَالِهِ ويَشْرَبُ بِشِمَالِهِ».

وبما أنَّ الشياطين من الجنّ، فقد دلَّ هٰذَا الْحَدِيثُ عَلَىٰ أَنَّ الْجِنَّ يَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ، وأنَّهُمْ ذَوُو أَيْدٍ كما لِلإنسِ أَيْدٍ، يَعْمَلُون بِها أعمالَهُم، ويَأْكُلُونَ بِها، ويَشْرَبُون بها.

(٤) وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، أنَّه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقول:

«إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ الله عِنْدَ دُخُولِهِ وعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لاَ مَبِيتَ لَكُمْ وَلاَ عَشَاءَ، وإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ قال: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ والْعَشَاء».

(٥) وروى مُسْلِمٌ أيضاً عن حُذَيْفَةَ رضي الله عنه قال: كُنَّا إِذَا حَضَرْنَا مَعَ النبيِّ ﷺ طَعَاماً، لَمْ نَضَعْ أَيْدِيَنَا حَتَّىٰ يَبْدَأَ رَسُولُ الله ﷺ فيضَعَ يَدَهُ، وَأَنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مَرَّةً طَعَاماً، فَجَاءَتْ جَارِيَةٌ كَأَنَّهَا تُدْفَعُ، فَذَهَبَتْ لِتَضَعَ يَدَهَا في الطَّعَامِ، فَأَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِها، ثمّ جاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّهُ يُدْفَعُ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ فقال رسُول الله ﷺ:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لاَ يُذْكَرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهٰذِهِ الْجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بِهَا، فَأَخَذْتُ بِيَدِها، فَجَاءَ بِهَذَا الأَعْرَابِي لِيَسْتَحِلَّ بِهِ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ، والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّ يَدَهُ فِي يَدِي مَعَ يَدها».

فدلَّ هذا الحديثُ على أنّ الجِنَّ يَأْكُلُونَ، وأنَّ الشَّيَاطِين مِنْهُمْ يَسْتَحِلُّونَ الأَكْلَ مع الإنسِ مِنْ طعامهم، إذا لَمْ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيه، فإذَا ذَكَرُوا اسْمَ اللَّهِ كَانَ هٰذا الذِّكْرُ مَانِعاً لَهُمْ من مُشَارَكَةِ الإنْسِ فِي طَعَامِهِم، بِقُوىً غيبيَّةٍ يُسَخِّرهَا الله عزّ وجلّ، كملائكةٍ تمنعُهُمْ من مَدِّ أيديهم إلى الطعام، ومن الأكْلِ منه.

على أنَّ مَوضوعَ الجنّ وتَصَرُّفَاتِهِمْ من الأمور الّتي هي غيْبٌ عن حَواسِّنَا هي وآثارُها فينا، باستثناءِ بَعْضِ الآثار الّتي تَبْدُو في الَّذِينَ يُصِيبُهم

مَسٌّ من الجنّ، بسَبَبِ عَدَم تَحصُّنِهم بذِكْرِ الله، والدُّعاء، وتلاوة القرآن، مع وُجودِ الاستِعْدَادِ في طبِيعَتِهم النفسِيَّةِ لتَقبُّلِ المسّ.

❀ ❀ ❀

رسالةُ محمد ﷺ رسالةٌ عامَّةٌ للإنس والجنّ:

دلَّتْ سورة (الجنّ) ونُصوصٌ قرآنيَّةٌ أُخْرَىٰ، وأحاديث نَبوِيَّةٌ، على أنّ الرسولَ محمّداً ﷺ قَدْ جاءَ بِرِسَالَةٍ عامَّةٍ شامِلَةٍ لِلْإِنْسِ والجنّ، وهو خاتم الأنبياء والمرسَلِينَ جَمِيعاً إنْسِهِمْ وجِنِّهِمْ.

❀ ❀ ❀

هَلْ بَعَثَ اللَّهُ رُسُلاً مِنَ الجِنِّ إلَىٰ الجنّ؟:

اختلفت آراء عُلَماء المسلمين في الإجابة على هذا السؤال، لكِنْ ترجّح لدَيَّ أنّ الله عزّ وجلَّ قد أَرْسَلَ إلَىٰ الجنِّ رُسُلاً مِنْهُمْ، فقد كانوا مَوْضُوعين مَوْضِع الامتحانِ في الحياة الدنيا قبْلَ خَلْقِ آدم عليه السلام، ومُكَلَّفِينَ أن يُؤْمِنُوا، ويَعْمَلُوا الصالحات، ويتركُوا السَّيِّئاتِ، إذْ لَهُمْ إراداتٌ حُرّةٌ، وقُدراتٌ فكريَّة على إدراك الخير والشّرّ، والحسَنِ والقَبيحِ، والظُّلْمِ والْعَدْل، والتقوىٰ والبرّ والإحسان، ولهم غرائز وأهواء وشهوات، وقُدْراتٌ ما على تنفيذ ما يريدون من طاعةٍ لله ومعصيَةٍ له.

ومِنْ سُنَّة اللَّهِ العامَّةِ، أن يُرْسِلَ لِمَنْ يضَعُهُمْ موضِعَ الامتحانِ رُسُلاً لهم طبَائِعُ مَنْ يُرْسَلُونَ إلَيْهم.

وصَحَّ مَعَ هٰذِهِ السُّنَّةِ أَنْ يُرْسِلَ إلىٰ الجنّ رُسُلا بشَراً، لأنَّ للبَشَرِ طبائعَ نَفْسِيَّةً مُشَابِهةً لطبائِع الجنّ.

ولمّا كان الجنُّ مخلُوقِينَ قَبْلَ الإنس، كانَ منْ مقتضَىٰ حكْمَةِ اللَّهِ أَنْ لاَ يَدَعَهُمْ دُونَ رُسُلٍ في الْمُدَّةِ الَّتِي هُمْ فِيهَا مُمْتَحَنُونَ، مع أنَّهُ لَمْ يكن

يُوجَدُ يَوْمَئِذٍ بَشر، ولا يكونُ رُسُلُ الجِنّ من الملائكة، لِأَنَّ طبيعَةَ الملائِكَةِ مُخَالِفَةٌ لطبيعَةِ الإنْسِ والجنّ، فهُمْ لا يَعْصُون اللَّهَ ما أَمَرَهُمْ ويفْعَلُون مَا يُؤْمَرُونَ، بخلافِ الجِنّ والإنسِ، فقَدْ أبَانَ الواقع أَنَّهُمْ ذَوو طبَائِعَ قابلَةٍ لأنْ تُطِيعَ أو تَعْصِي بإرادة حُرَّة.

وقد جاء في القرآن المجيد ما يَدُلُّ على أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أرسلَ إلى الجنّ رُسُلاً مِنهم، فقال الله تباركَ وتعالى حكايَةً لما سَوْفَ يُخَاطب به الجنَّ والإنْسَ يَوْمَ الحشْرِ، في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾﴾.

﴿يَٰمَعْشَرَ﴾: **المعشر**: كلُّ جماعَةٍ أَمْرُهم واحد.

﴿يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى﴾: أي: يَتْلُونَ عليكم آيَاتِي بتَتَبُّعِ مُسْتَقْصٍ كلمةً فكلمة، وآيَةً فآية.

تقول لغة: قَصَصْتُ الشَّيْءَ، إذَا تَتَبَعْتَ أَثَرَهُ شيئاً فشيئاً، قَصًّا وقَصَصاً.

فقول الله عزّ وجلّ للجنّ والإنس: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟ يَدُلُّ دَلاَلَةً واضِحَةً على أنَّ الجنَّ أُرْسِلَ إلَيْهم رسُلٌ مِنهم، وأنَّ الإنْسَ أُرْسِلَ إلَيْهِمْ رُسُلٌ مِنْهم.

وحَمْلُ النَّصّ على أنَّهُ من بابِ تغليب الإنْسِ على الجنّ خلاف الظاهر، ولا مقتضِي له.

ويضافُ إلى دَلالة هٰذا النَّصّ مَا جاء في قصَّة إبليس وهو من الجنّ، ففسَقَ خَارجاً عن طاعة أَمْرِ رَبِّه، وأنّه كانَ من الكافِرين باطناً قبْلَ آدم، وقَبْلَ أَنْ يكونَ آدمُ رَسُولاً، وقَبْلَ أن يُرْسِلَ اللَّهُ من ذُرِّيَّتِهِ أحداً.

وما دَلَّت عليه النُّصوصُ منْ أنّ الجنَّ كانُوا مكلّفِين أَنْ يُؤْمِنُوا بربّهم ويُسْلِمُوا له، وأنَّهُمْ كانوا مُبَلَّغِينَ بأنَّ الحياة الدنيا دارُ امتحانهم، وأنّها ستنتهي ظروفها، وأنَّهُمْ سيُبْعَثُونَ للحسابِ، وفَصْلِ الْقَضَاء، وتنفيذ الجزاء.

دلّ على هذا ما جاء في قصَّةِ مُحَاكَمَة الله عزّ وجلَّ إبليس علَىٰ معْصِيَتِه، ورفْضِه أَنْ يَسْجُد لآدم، إذْ أَمَرَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ أن يَسْجُدَ لَهُ مع ملائكة الملأ الأعلى، باعتبار أنّه كانَ مُنْدَسًّا فيهم مُنَافقاً، ومتظاهراً بالعبادة والطَّاعة، كأنّه واحدٌ منهم، طمعاً في أنْ يكونَ بينهم ذا رِياسَةٍ، فقد جاء في هذه القِصَّةِ أنّ إبْليسَ كان من الجنّ ففَسَقَّ عَنْ طَاعَةِ أمْرِ رَبّه، وأنَّهُ سَأَلَ رَبَّهُ أنْ يُنْظِرَهُ إلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُون، وهذا يَدلُّ على أَنّ قضيَّةَ البعْثِ للحسَابِ، وفَصْلِ القضاء، وتحْقِيق الجزاء، من القضايا الّتي أُمِرَ الجنُّ بأَنْ يُؤْمِنُوا بها، وكان ذلك قَبْلَ خَلْق آدم.

وإِذْ لَمْ يَكُنْ قَبْلَ آدم عليه السّلام رُسُلٌ من الإنس، فلاَ بُدَّ أن يكونَ الرُّسُلُ الْمُرْسَلُونَ إليهم من الجِنّ.

فينْبَغِي حَمْلُ الآيَةِ علَىٰ ظاهِرِها دُونَ تأويل، وإثباتُ أَنَّ اللَّهَ عزَّ وجلّ قَدْ أَرْسَلَ إلى الجنّ رُسُلاً منهم.

لَكِنْ بَعْدَ أَنْ أَرْسَلَ اللَّهُ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطانُه ـ إلى البَشَرِ رُسُلاً مِنْهُمْ، مُبَشِّرِين ومُنْذِرِين، وصار باستطاعة الجنّ أَنْ يَتَبَلَّغُوا دِينَ اللَّهِ عن طَرِيق الرُّسُلِ من الإنسِ، ولمّا كان تكوينُ الإنسِ أكْمَلَ وَأَحْسَنَ تَقْوِيماً من الجنّ، مع الاشتراك في طبائِعَ نَفْسِيَّةٍ مُتَشابهة، فقَدْ يكُونُ من الحكْمَةِ الرّبّانيّة الاكتِفَاءُ بِرُسُل الإنسِ، لتَبْلِيغ الجنّ دينَ رَبّهم.

ورُبّما كَانَ لهم أَيْضاً مع الرُّسُل من الإنسِ رُسُلٌ من الْجِنّ في عُصُورٍ سلَفَتْ، قَبْلَ بِعْثَة محمّد ﷺ، إذْ جعلَهُ اللَّهُ رَسُولاً للإنس والجنّ، وخاتم الأنبياء والمرسَلين جَمِيعاً.

وكَوْنُ الرُّسُل والأنبيَاء بَعْدَ نُوحٍ علَيْهِ السَّلَامُ من ذُرِّيَّتِه، وكَوْنُ اللَّهِ عزّ وجلّ قَدْ جَعَلَ في ذُرِّيَّةِ إبراهيم عَلَيْه السَّلام، النُّبوَّة والكتابَ، كما جاء في النصوص القرآنيّة، لا يتعارَضُ مَعَ الَّذِي تَرَجَّحَ لدَيَّ في هذا الموضوع، فقد يكون للجنّ رُسُلٌ قَبْلَ نوح عَلَيْهِ السّلام، وقَدْ يكون ما جاء بشأن نوح وإبراهيم عليهما السَّلام خاصًا بالإنسِ، لأنَّ سوابق النُّصوص ولواحِقَها تتحدَّثُ عن الإنْسِ دُونَ الجنّ.

❁ ❁ ❁

الجنُّ يمُوتُونَ ويُبْعَثُونَ يوم القيامة للحساب والْقَضاء والجزاء:

ثبت في القرآن والسُّنَّة أَنَّ الجِنَّ يمُوتُون، وأنّهم يُبْعَثُونَ يوم القيامة، للحساب، وفَصْل القضاء، وتَنْفيذ الجزاء.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/٤٦ مصحف/٦٦ نزول) بشأن الكافِرين الخاسِرين إبَّانَ التَّنزيل:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾.

فأبَانَ اللَّهُ عزّ وجلّ في هٰذا النَّصّ أَنَّهُ قَدْ خَلَتْ قَبْلَ الكافِرِينَ المعاصِرين لرسالة الرسول محمّد ﷺ أُمَمٌ مِنْ قبلهم، وهٰذِه الأمم تنقسم إلى قسمين:

- قِسْم من الجنّ.
- وقسم من الإنْس.

﴿خَلَتۡ﴾: أي: مَضَتْ بالْمَوْتِ، فنظام الحياة والموت نظامٌ يَشْمَلُ الجنَّ والإنْسَ.

وقَدْ عَلِمَ إبليسُ وهو من الجِنّ، أَنَّهُ خاضِعٌ لِنظام الموتِ، كسَائِر

الجنّ، فسألَ رَبَّه بَعْدَ أن حَكَمَ عليه بالإخراج من الملأ الأعلى، والطَّرْدِ واللّعْن، أنْ يُنْظِرَهُ فَلا يُمِيتَهُ إلى يوم البعث، فَوَعَدَهُ الله ـ جلّتْ حكْمَتُهُ وعَظُمَ سلطانُه ـ بأنْ يُنْظِرَهُ ولكِنْ لاَ إلَىٰ يَوْمِ الْبعْث، بلْ إلَىٰ وقْتِ إنْهَاءِ ظُرُوف الحياة الدُّنيا، ضِمْنَ المنظَرِينَ إلى ذَلِكَ الوقْتِ من الملائكة، وبَعْدَهَا لاَ يَبْقَىٰ حَيٌّ في الوجُودِ كُلِّهِ إلاّ الله عزّ وجَلّ:

قال الله عزّ وجلّ في آخر سورة (القَصص/ ٢٨ مصحف/ ٤٩ نزول):

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

ودلَّ على أنّ الجنَّ يموتُون، ما رواه البخاريُّ وابن حِبّان، عن عبد الله بن عبّاسٍ رضي الله عنهما ـ أنّ النبيّ ﷺ كانَ يقولُ:

«أعُوذ بِعِزَّتِكَ الَّذِي لاَ إله إلاَّ أنْتَ، الَّذِي لاَ يَمُوتُ وَالْجِنُّ والإنْسُ يَمُوتُون».

وجاء في بيان تَعْذِيب كفَرَةِ الجنّ في النار يوْمَ الدِّين قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) حكايةً لما يُخاطبُ به الَّذِين كانُوا يفترونَ على الله كذباً، ويُكذِّبُونَ بآياتِهِ كافرين:

﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ . . . ﴿٣٨﴾﴾.

فدَلّ هذا النصّ على أنّ حالَ الجنّ كحال الإنْسِ امتحاناً وتكليفاً في الدُّنيا، وجزاءً يَوْمَ الدين.

وجاء فيها أيضاً قولُ الله عزّ وجلّ:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

وقول الله عز وجل في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾.

مَا وَرَدَ بَشَأن وُفود الجنّ إلىٰ الرَّسُول ﷺ:

أوّلاً:

جاء في القرآن الكريم بشأن من وفَدَ إلى الرسول ﷺ من الجنّ نصانِ:

النّصّ الأوّل: مَا جَاء في سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) وهو النّصّ الّذي أجتهد في تدبُّره إن شاء الله، خلال تدبّر دُرُوس السّورة.

النّص الثاني: ما جاء في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) وهو الآيات من (٢٩ ـ ٣٢) من هذه السورة.

وقد دلَّ ما جاء في النَّصِ الذي من سورة (الجنّ) على أنَّهُ يتحدَّث عن وفْدٍ لَمْ يَعْلَم الرَّسُول ﷺ بحضورهم، واستماعهم القرآن منه، ولم يَعْلَمْ بإيمانهم، ولا بانصرافهم إلى قومهم دُعاةً إلى دين الله، حتَّىٰ أَعْلَمَهُ الله بذلك، وأنزل عليه سورة (الجنّ) وأَمَرَهُ بأن يُحَدِّث النّاسَ بخبرهم، كما جاء في هذه السورة.

أمّا ما جاء في سورة (الأحقاف) فليس فيه ما يَدُلُّ على أنّ الرسُولَ ﷺ لم يكُنْ يعلَمُ بحُضُورهم لدَىٰ وُفُودِهم إليه، ويُمْكن أنْ يُحْمَلَ علَيْه بعضُ ما ورَدَ من الأحاديث، الّتِي جاء فيها ذكْرُ وِفَادَة الجنّ إلى الرسول محمّد ﷺ.

ويَحْسُن تَدَبُّر النّصّ القصير الذي جاء في سورة (الأحقاف) قبل الدخول في تَدَبّر سورة (الجنّ) ذاتِ البيان الطويل الذي اشتملت عليه حكاية أقْوالهم، ليتّضِحَ التكامل بين النَّصَّيْن لدى المقارنة بينهما.

تدبّر نصّ الأحقاف بشأن وفْدٍ من وفود الجنّ إلى الرسول:

قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) خطاباً لرسوله ﷺ:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

● ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ﴾: أي: وَضَعْ في ذاكِرَتِكَ يا مُحَمَّد هذا الحدَثَ الذي جرَىٰ وقْتَ صَرْف نفَرٍ مِنَ الجنّ عَمَّا كانوا فيه، وأرسَلْناهُمْ إلَيْكَ، واذْكُرْهُ في بياناتك التي تدعوَ بها إلى سبيل ربّك.

ضُمّنَ فِعْلُ «صَرَفَ» معنىٰ فعْل «أرْسَلَ» وعُدّي تَعْدِيَته، فأَغْنَتِ الجملة عَنْ جُمْلَتين، إحداهما دَلَّ عليها الفعل في ﴿صَرَفْنَآ﴾ والأخرى دلَّت علَيْها عبارة ﴿إِلَيْكَ﴾ وهذا من الإيجاز البديع في القرآن.

أصْلُ فعل «صَرَفَ» يُعَدَّىٰ بحرف «عن». يقَالُ صَرَفَهُ عَنِ الأمْرِ، أو عن العمل. والمناسبُ للتعْدِيَة بـ ﴿إِلَيْكَ﴾ في هذا البيان فعل «بَعَثَ» أَوْ «أَرْسَلَ».

وتَحدَّثَ اللَّهُ عزَّ وجَلّ في هٰذَا البيان بنُونِ المتكلّم العظيم للإشعار بأنّ هذا الصَّرْفَ وهذا الإرْسالَ، قَدْ كَانَا بوسَائلَ لطيفةٍ خفيَّةٍ، لا يملكُها إلاَّ الرَّبُّ القديرُ اللّطيفُ الخبير.

● ﴿نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: النَّفَر: يُطْلق على عدَدٍ مِنَ الرّجال ما بين الثلاثَةِ إلى العشرة. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ متعلّق بمحذوف هو صفةٌ للفظ ﴿نَفَرًا﴾.

● ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾: جملةٌ في محلّ نَصْبٍ على أنها صفةٌ لـ «نَفَراً» أي: نَفَراً مستمعين للقرآن بعنايةٍ وقَصْدٍ، ويَدُلُّ هذا على أنّهم قَدْ بَلَغَتْهُمْ أنباءُ بِعْثَةِ الرّسُول محمّد ﷺ، ونُزُولِ كِتَابٍ عَلَيْهِ من رَبّ العالمين،

فانْبَعَثُوا لاستماع بعْضِ ما جاء في هذا الكتاب من تلاوة الرَّسُول الذي أرسلَه الله للإنْس وللجنّ. فالمعنى: نفراً موصوفين بأنهم من الجن، وبأنهم قدموا وهم يقصدون منذ بدْء توجههم استماعَ القرآن من الرسول محمد ﷺ.

ولا بُدّ أن يكون هؤلاءِ النفر من فضلاءِ وعقلاءِ وسَادَةِ قَوْمِهِم من الجنّ، ولعلّهم قد وفَدُوا إلى الرسُول بطَلَبٍ منهم، إذ انْتَشَرَ بيْنَ الجِنّ أنَّ رَسُولاً في مكّة أَرْسَلَهُ اللَّهُ، وأنْزَل عليه كتاباً.

أمّا كيف صرفهم الله إلى الرسول فلم يأت في النصّ ولا في بيانات الرسول ما يدُلُّ عليه.

• ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾: أي: فَحِينَ حضَرُوا القرآنَ والرَّسُولُ يتْلُوه. يُقَالُ لغةً: حضَرَ فُلانٌ الْمَجْلِسَ وَنَحْوَهُ، أي: شهِدَه.

فالمعنى: فحين شَهِدُوا تلاوة القرآن من الرسول ﷺ.

• ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾: أي: قال بعضُهم لبعْضٍ: اسكتُوا، ولا يَكُنْ من أحَدِكُمْ صَوتٌ ما، حتّى نُحْسِنَ الاستماع.

الإنْصَاتُ: هو السُّكُوتُ وعَدَمُ الكلام، وعَدَمُ إحداثِ أي صَوْتٍ بمعنًى أو بغَيْر معنى، والسَّبَبُ في طلب الإنْصَاتِ تهيئَةُ الجوّ للاستماع الجيّد.

يقال لغة: أنْصَت فلانٌ فلاناً، أي: أسكته.

• ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾: أي: فحِينَ أُنهِيَ المقْدَارُ الَّذِي كانَ الرَّسُولُ قد عَمَدَ إلى تلاوته من القرآن ﴿قُضِىَ﴾ بالبناء لمَا لَمْ يُسَمَّ فاعله، ونائب الفاعل ضَمِيرٌ يعودُ على القرآن الّذي كان الرَّسُول يتْلُوه.

• ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾: ﴿وَلَّوْا۟﴾: أي: أَدْبَرُوا ونَأَوْا ذَاهِبِين

﴿إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾ مِنَ الجنّ ﴿مُّنذِرِينَ﴾: أي: مبلّغين أولاً، وداعين إلى دين الله، ومُبَشِّرين من آمَنَ بالنعيم المقيم، ومُنْذِرِين أخيراً مَنْ كَفَرَ بعذابٍ أليمٍ، حَرِيقاً في الجحيم.

جاء التعبيرُ بالإنْذَارِ آخِرِ فِقْرَةٍ من فِقَرات الدَّعْوَة إلى دين الله، ليَدُلَّ باللُّزوم الذِّهْنِيِّ على مَا يكونُ قَبْلَهُ من فِقراتٍ دعَوِيَّةٍ، يقتضيها الترتيبُ الحكيم، في الْبَيَان والإعلام، والدَّعْوةِ للدُّخول في دينٍ متكامل البنيان، راسخ الأركان، عظيم الإتقان.

الإِنْذَارُ: الإعْلاَمُ بما هو مَخُوفٌ منه، ويجب على أهل الْعَقْل والرُّشْدِ أَنْ يتَّقُوه. والإنْذَار: التحذير والتخويف من شرّ.

• ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾: هذا بيانٌ تمهيديٌّ لبَدْءِ دَعْوتهم قَوْمَهُمْ مِن الجنّ، وهذا يدلُّ على أنّ الجنّ أقوامٌ يُشْبِهُونَ في تقسيماتِهم أَقوامَ الإنْسِ.

• ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾: أي: إنَّا سَمِعْنَا آيات من كِتَابٍ رَبَّانِي، أُنْزِلَ عَلَىٰ رسُولٍ من بَعْدِ مُوسَىٰ وكِتَابِهِ التوراة.

ويُشْعِرُ هذا البيانُ أنَّ هؤلاءِ النَّفَرَ مِنَ الجنّ كانُوا يَهُوداً، لذكرهم موسَىٰ عليه السّلام وكتابَه، وعَدَمِ ذِكْرِهم عيسَىٰ عليه السلام والكتابَ الَّذِي أُنْزِلَ علَيْه.

• ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾: أي: مُصَدِّقاً لمَا سَبَقَ إنزالُه من كُتُبٍ رَبَّانِيَّة، وللأنبياء والرُّسُل السَّابِقِين للرَّسُولِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ هذا الكتابُ الّذي سَمِعْنا بعْضَ آياته المنزَّلاَت.

الزمان الماضي هو ما بيْن يدي الأحياء المدركة، وأمّا المستقبلُ فهو الذي يكون خلفَهم لأنهم يجهلُونه.

• ﴿يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠﴾: أي: يَهْدِي بما اشْتَمَلَ علَيْهِ من بيان إلىٰ أَصْلَيْنِ رَئيسَيْن، هما:

الأصل الأول: الحقُّ في بيان العقائد الإيمانيّة، وفي بيان الأخبار الماضية والحاضرة والمستقبلة، وفي بيان ما في الكون.

الأصل الثاني: الطريق المستقيم، وهو طريقُ سلُوكِ ذوي الإراداتِ الحرَّة، في رحْلَة امتحانهم في الحياة الدُّنيا، سواء أكان سلوكاً ظاهراً أم باطناً.

يقال لغة: هدَىٰ فلانٌ فلاناً الطَّرِيق، وهَدَاهُ لَهُ، وهَدَاهُ إليه، أي: عَرَّفَهُ به، وبَيَّنَهُ له.

هذه هي المقالة الأولى الّتي وجّهوها لقومهمْ في دَعْوَتهم قومهم إلى دين الإسلام.

● ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾ نداءٌ دَعَوِيٌّ بَعْدَ النداءِ التمهيديّ الأوّل. أي: يَا قومنا أطيعوا داعي الله فيما يدعو إليه من إيمان وعمل.

يقال لغة: أجابَ دَعْوةَ الداعي، أي: قَبِلَ دعوته، وأطاعه، وحقَّقَ ما طلب منه.

وصفوا الرَّسُولَ محمّداً بأنّه دَاعِي الله، أي: الداعِي المبلّغُ دينَ الله.

وكذلك وَصَفُوا القرآن بأنه داعي الله، أي: الْبَيَانُ المبيِّنُ دينَ الله.

وكُلٌّ منهما ينادِي: استجيبوا لدَعْوةِ الله، وأطيعوه، ولا تعصُوا، ونحن نناديكم فندعوكم إلى قَبُولِ الدّعوة، والطاعَةِ، والاستجابة بالإيمان بالحقّ، وسُلُوك الطريق المستقيم في رحلة امتحانكم في الحياة الدنيا.

● ﴿وَءَامِنُواْ بِهِۦ﴾: الضمير يعُودُ على الداعي، وهو يشْمَلُ الرَّسُولَ والقرآنَ، أما الرَّسُول فَلِأَنَّهُ رسُولُ الله الذي يُبَلِّغُ عن الله كتابَه، وبيانات الدين الذي أرسله الله به، وأَمَّا القرآنُ فِلأنّهُ كِتَابُ الله المشْتَمِلُ على مطلوب الله من عباده في رحلة امتحانهم.

● ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾: أي: يَسْتُرْ لَكُمْ بعْض ذُنُوبكم بسبب الإجابَةِ والإيمان، وإذا سَتَرَهَا فإنَّهُ لاَ يُحَاسبُكُمْ عَلَيْها، ولا يجازيكُمْ بعذابٍ عليها. ذكروا بعض الذنوب احترازاً من الذُّنُوبِ الّتي تَتَعَلّقُ بها حقُوق العباد.

غَفرُ الذُّنوبِ سَتْرُهَا، وفَوقَهُ الْعَفْوُ، وفوقَهُمَا رَفْعُ الْجُنَاح، وفوقَها جميعاً أنْ يُبَدِّلَ اللّهُ سَيِّئاتِ المذنبين حَسَناتٍ.

● ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾: أي: ويَحْمِكُمْ مِنْ عذابٍ أليم في جَهَنَّمَ، فلا يُعَذِّبكم بالحريقِ فيها بسبب إيمانِكُمْ، فالإيمانُ يكون سبباً في وقايتكم.

يقالُ لغة: أجَارَ فُلاَنٌ فلاناً، أي: حَمَاهُ، وحَفِظَهُ، وَدَفَعَ عَنْه ما يكْرَه، ووَقَاهُ ممَّا استجار به منه.

فالجنُّ يعذَّبُون في النار كالإنْسِ، إذا كانوا من الْكَافِرينَ المجرمين.

ومن أجارَه الله من الخلُود في عذاب النار أدْخَلَهُ الجنَّةَ لا محالة، سواءٌ أكان من الإنس أم من الجنّ، لقول الله عزّ وجل خطاباً للجنّ والإنْسِ في سورة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾﴾.

ومعلوم أن المتقين من الجنّ قد خافوا مقام ربّهم يوم الدِّين.

الفعْلان ﴿يَغْفِرْ﴾ و[يُجِرْ] مجزوان على أنّهما واقِعَانِ في جواب الطَّلَب في: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾.

● ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾: أي: وَمَنْ يَعْصِ بعَدَمِ إجابَتِهِ دعْوَةَ الرَّسُولِ، وَدَعْوَةَ القرآن، إلى الإيمانِ والإسلام، واتّباعِ الرَّسُولِ، واتّباعِ مَا أُنزِلَ للْمَوْضُوعِين مَوْضِعَ الامتحان في الحياة الدُّنيا من رَبِّهِمْ. ﴿مَنْ﴾ اسم

شَرْط جازم ﴿لَّا يُجِبْ﴾ الفِعْلُ مجزوم على أنّه فِعْلُ الشَّرْط. وجوابُهُ دَلّت عليه عبارة:

● ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾: أي: فلَيْسَ بقادِرٍ علىٰ أنْ يَفْلَتَ من عقاب اللّهِ وَعَذَابِه، مَهْمَا كانَتْ له قُدْرَةٌ على الْهَرَبِ، واجتياز المسَافاتِ بِسُرْعَاتٍ فائقات، إِذْ هُوَ مُحَاطٌ بِقُدْرَةِ الرَّبّ من وراء كلّ الأبْعَادِ، الّتي يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ يُمْكِنُ أن يَهْرُبَ إِلَيها، بقُدْرَاتِه العفريتِيَّة.

وقد جاءت هذه العبارة كِنَايَةً عن جواب الشرط، الّذي يَدُلُّ دَلاَلَةً مباشِرَةً على نُزُول العقاب به لا محالة.

والمعنى: فَهُو مُعَذَّبٌ عَذَاباً أَلِيما لاَ محالة، فلَو حاوَل الْهَرَبَ ليُفْلِتَ من العذاب، فلَيْسَ بمُعْجِز الْمَلاَئكةَ المأمُورينَ بالْقبضِ عَلَيْهِ، وبِتَعْذِيبِه، وبإِدْخاله جهنَّم دَارَ عذاب الكافرين المجرمين، فَضْلاً عن أن يُعْجِزَ اللّهَ هرَباً، وهو الذي خلَقَهُ ومَنَحَهُ قُدْراتِه التي يقطع بها المسافات الشّاسِعات، بسُرْعاتٍ فَائِقَات.

وجاءَتْ عِنايَةُ هؤلاء النَّفَرِ المؤمنينَ من الجنّ، بِالتَّوجيه في دَعْوَتِهِم لقوْمهم، لحقيقة أنّهم لا يُعْجِزُونَ رَبَّهُمْ في الأرض، إذا أراد اللّهُ معاقَبَتَهُمْ، نظراً إلىٰ أنَّ قَوْمَهُمْ من صنف الجنّ الطيَّارِين، الّذِين قَدْ يتَوَهَّمُونَ أنَّهُمْ قَادِرُون علىٰ الْهَرَب من جُنُودِ اللّهِ، بسَبَبِ ما آتاهُمُ اللّهُ من سُرْعَاتٍ فائقَاتٍ.

● ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾: أي: ولَيْسَ لَهُ من دُون اللّهِ نُصَراء يَنْصُرونَهُ، فيَدْفَعُونَ عَنه عذابَ الله علَىٰ معْصِيته وكُفْرِه.

الأولياء: هُنَا النُّصَراءُ الّذين يحْرِصُونَ على نُصْرَةِ أتباعهم، أو إخوانهم، والذين كانوا في أزمَان الامتحان يحرّضُونَ من يَتَّبِعُهم على الإثم والظلم ونَشْرِ الفساد في الأرض.

● ﴿.. أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢﴾: جاءت الإشارة إلى ﴿وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ باسم الإشارة الذي يُشارُ به إلىٰ الجمع، نظراً إلى أنّ اسم الشرط «مَنْ» لَهُ اعتباران، فلَفْظُهُ لفظُ مُفْرَدٌ، ومعناه قَدْ يكون جمعاً، فعلىٰ لفْظِهِ يُعَامل معامَلَة المفرد، وعلى اعتبار معناه يجوز معاملته معاملة الجمع.

وجاء اسم الإشارة الموضوع للمشارِ إليهم البعيدين، للإشعار بِبُعْدِهم مُتَسَفِّلين في اتجاه الدّرك الأسفل، أو هم من أهل الدرْك الأسفل من النارِ، وهذا الْبُعْد السَّحِيقُ قَدْ أبْعَدَهُمْ عن تنزُّلاَتِ رَحَمَاتِ الله، إذْ جَعَلُوا بيْنَهُم وبينها حُجُباً من الكُفْر باللَّهِ وبِرسُوله وبِكتابِه، وعَدَم اتّباعِهم ما أنزل الله لعباده الموضوعين موضع الامتحان، وأمَرَهُمْ أَنْ يَعْمَلُوا به.

ونلاحظ في دَعْوَةِ هؤلاء الفضلاء من الجنّ، أَنَّهُم اخْتَارُوا لدىٰ دَعْوَتهم قَوْمَهُمْ، التوجيهَ للكليّات الكبرىٰ، الّتي تَقَعُ في الدّرجةِ الأولى من الأولويّاتِ الدّعَويَّة إلى دِينِ الله الحقّ.

❁ ❁ ❁

ثانياً:

ومما جاء في السُّنّة بشأنِ وفاداتِ وفودٍ من الجنّ إلى الرسول محمد ﷺ، لاستماع القرآن، ولتلَقّي ما يُحَدِّثُهُمْ به من قضايا الدين ما يلي:

(١) روىٰ البخاري ومُسْلم وأحمد والترمذي وغيرهم عن ابن عباسٍ قال: انْطَلَقَ رَسُولُ الله ﷺ في طائفةٍ من أصحابه، عامِدِينَ إلَىٰ سُوقِ عُكاظ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهب، فَرَجَعَتِ الشَّياطِينُ، فقالُوا: مَا لَكُمْ؟ فقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاء، وأُرْسِلَتْ عَلَيْنا الشُّهب.

قالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إلاَّ شيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، لِتَعْرِفُوا مَا هَذَا الأَمْرُ الّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ.

فانْطَلَقُوا فَضَرَبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ ومَغَارِبَها، يَنْظُرُونَ مَا هَذَا الأَمْرُ الَّذِي حَالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاء.

قال: فانْطَلَقَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِنَخْلَة[1]، وهُوَ عَامِدٌ إلَىٰ سُوقِ عُكَاظِ[2]، وهو يُصَلِّي بأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ، فلَمَّا سَمِعُوا القرآن تَسَمَّعُوا له، فَقَالُوا: هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ رَجَعُوا إلَىٰ قَوْمِهِمْ، فقالُوا: يَا قَوْمَنا ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ وَأَنْزَلَ اللَّهُ على نبيِّه ﷺ:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْل الجنّ.

ورُوِي عن ابن مَسْعودٍ أَنَّهم كانوا من جنِّ نَصِيبين.

(٢) وروى مُسْلِمٌ عن علْقَمة، قال: سأَلْتُ ابْنُ مَسْعُودٍ، فَقُلْتُ، هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنكُمْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةَ الجنّ؟.

قَالَ: لاَ، وَلَكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ ذَاتَ لَيْلَةٍ. فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الأَوْدِيَةِ والشِّعَابِ. فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ[3]، أوِ اغتيلَ.

قال: فبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْم، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ من قِبَلِ حِرَاء.

---

(١) **نخلة**: أحَدُ واديين على ليلة من مكة في اتجاه الطائف، يقال لأحدهما: نخلة الشامية، ويقال للآخر: نخلة اليمانية.

(٢) **عكاظ**: مكان قريب من الطائف.

(٣) **استطير**: أي: طَارَتْ بِهِ الجنّ.

قال: فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَدْنَاكَ، فَطَلَبْنَاكَ، فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فقال:

«أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» قال: فانطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ، وآثَارَ نِيرَانهم، وسَأَلُوه الزَّادَ، فقال:

«لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحماً، وكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ».

فقال رسُول الله ﷺ:

«فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا، فإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ».

ورُوي عن ابن مسعود أنهم سبعة أحَدُهم زَوْبعة، ورُوي عَنْه أَنَّهُمْ كانوا تِسْعَةً.

وظاهر أَنَّ مَا جَاءَ في هذا الحديث، يَدُلُّ على وِفَادَةٍ لِلْجِنّ غير الوفادة الَّتِي دَلَّ عَلَيْها الحديث الذي جاء ذِكْرُهُ قبْلَه.

وجاء بيانُ وِفَادَاتِ الجنّ إلى الرسول ﷺ في أحاديث مُتَعَدِّدَة، ونَفْهَمُ من هٰذِهِ الأحاديث المتَعَدِّدَةِ، أَنَّ وفاداتِ الجنِّ إِلَىٰ الرسُول ﷺ قَدْ كانت متَعَدِّدَة، أَوْصَلَهَا بَعْضُهُمْ إلىٰ سِتِّ وِفَادَات.

وبِنَاءً علىٰ هٰذا فَمَا جَاء في سُورَةِ (الجنّ) يَدُلُّ علىٰ حادثَةٍ غير الحادثَة الَّتي دَلَّ عليها النَّصُّ الذي جاء في سورة (الأحقاف).

وتوجَدُ وِفادات أُخرَىٰ لم يأتِ بيانٌ عنها في القرآن المجيد.

(٣) وَمن هذه الوفادات لقاء الرسول ﷺ بالجِنّ في مكة، في مكانٍ يُعْرَفُ بالْحَجُون، ويُوجَدُ فيه الآن مَسْجِدٌ يُسَمَّىٰ «مَسْجِدَ الْجِنّ».

وقد اسْتَصْحَبَ الرَّسُولُ ﷺ حِينَ أَرَادَ الْخُرُوجَ إليهم، «عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ» وأَجْلَسَهُ الرَّسولُ في مَكانٍ، وخَطَّ عَلَيْهِ خَطًّا في الأَرْضِ، وقالَ له: «لاَ تُجَاوِزَهُ».

ثُمَّ مَضَىٰ إلى الْحَجُونِ، وابْنُ مَسْعُودٍ يَنْظُرُ، وكان الجنّ في هٰذِهِ المرَّةِ كثيرين، حتَّىٰ غَشُوهُ من كَثْرَتِهِمْ، فَصَارَ ابْنُ مَسْعُودٍ لاَ يَرَاهُ، فَأَسْمَعَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ القرآن.

وسَأَلُوهُ الزَّادَ، فزَوَّدَهُمُ الْعَظْمَ مِنْ بَقَايا طَعَام المسلمين، وزوّدهم الْبَعَر، أي: لدوابّهم، كما جاء في صريح بعض الرّوايَات.

وجاء في بعض الروايات كلمة «الرَّوْث» بدل «البعر».

(٤) ومن هٰذِهِ الوفادات لقاءُ الرَّسُول ﷺ وفْداً مِنَ الجنّ بالمدينة، بَعْدَ الهجرة، واستَصْحَبَ الرّسُولُ معه في هذا اللّقاء الزبير بْنَ العوّامّ، وَمَشَىٰ بِهِ حتّىٰ ابتَعَدَ عَنِ الجبال، ووصل إلى أرضٍ فضاء واسعة.

قال الزبير بْنُ العوّام رضي الله عنه: وأَفْضَيْنَا إلىٰ أَرْضٍ بَرَازٍ، فإذا رِجالٌ طِوالٌ كأنَّهُمُ الرّماح، مستَثْفِرِي ثيابهم[1]، مِنْ بَيْنِ أَرْجُلِهِمْ، فلمَّا رَأَيْتُهُمْ غَشِيَتْنِي رِعْدَةٌ شديدةٌ، حتَّىٰ ما تُمْسِكُنِي رِجْلاَي مِنَ الْفَرَقِ[2]، فَلَمَّا دَنَوْنا منْهم، خَطَّ رَسُولُ الله ﷺ بإبْهَام رِجْلِهِ في الأرض خطّاً، فَقَالَ لي:

«أقْعُدْ في وَسَطِهِ».

فَلمَّا جَلَسْتُ ذَهَبَ عَنِّي كُلُّ شيْءٍ أجِدُهُ مِنْ رِيبة، ومضىٰ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنِي وبينهم، فَتَلَا قُرآناً رَفِيعاً حتَّىٰ طلَعَ الفجر، ثُمَّ أَقْبَلَ حِينَ مَرَّ بي فقال لي: «الْحَقْ». فجَعَلْتُ أَمْشِي مَعَهُ، فمضَيْنَا غَيْرَ بَعِيدٍ، فقال لي: «الْتَفِتْ فَانْظُرْ هَلْ تَرَىٰ حَيْثُ كَانَ أُولَٰئِكَ مِنْ أَحَدٍ؟».

---

(١) **الاستثفار بالثوب**: هو لَمُّ أطرافه وأَخْذُها مِنْ بَيْنِ الفخذين، فربطها في الوسط، وهذا عند الاستعداد للمصارعة ونحوها.
واستثفار الحائض هو اتّخاذها خِرْقَةً عَرِيضَةً بيْنَ فَخِذَيها تشدها في حزامها.

(٢) **الفرق**: الخوف.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَىٰ سَوَاداً كَثِيراً، فَخَفَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَأْسَهُ إِلَىٰ الأَرْض، فنظَمَ عظْماً بروث[1]، ثُمَّ رَمَىٰ بِهِ إِلَيْهِم، وقَالَ:

«رَشُدَ أُولَئِكَ مِنْ وَفْدِ قَوْم، هُمْ وَفْدُ نَصِيبِينَ، سَأَلُونِي الزَّادَ، فجعَلْتُ لهم كُلَّ عَظْمٍ وَرَوْثَة».

قال الزُّبَيْر: فلا يَحِلُّ لِأَحَدٍ أَنْ يَسْتَنْجِيَ بعَظْمٍ وَلاَ رَوْثَةٍ أَبَداً».

قال الهيثمي في مَجْمَعِ الزَّوائِد: رَوَاهُ الطَّبَرانِيُّ في الكبير، وإسناده حَسَن.

فالعظْمُ الذي يَرْمِيه المسْلِمُونَ يجْعَلُ اللَّهُ مِنْهُ طَعَاماً لإخوانِهم المسْلِمينَ من الجِنّ، ورَوْثُ دوابّ المسلمين يَجْعَلُ اللَّهُ منْهُ طعاماً لدوابّ إخوانهم المسلمين من الجنّ، لذَلِك فلا يَحِلُّ لنا أنْ نُنَجِّسَ لهُمْ طَعَامَهُمْ، لما في ذلك من إيذاء لهم، وإفسادٍ لما جَعَلَ الرَّسُولُ ﷺ لَهُمْ وَلِدَوابِّهم من طعام.

❁ ❁ ❁

احتمال حضور الجنّ مجالس الرسول اليوميّة:

واحتمال أنّ من الجنّ من كانوا يحضُرون مجالس الرسول ﷺ اليوميَّة، لتلَقّي المعارف الدينيّة، وتبليغها لأقوامهم، احتمال قائمٌ، وهو الراجِحُ، لأنّهُمْ بعد أن يتبلّغوا وَيؤمنُوا، فإنّه يجب عليهم أن يتعلّمُوا أمور الدين الذي آمنوا به، واتبعوا رَسُولَه، وإنْ كُنّا لاَ نَمْلِكُ دليلاً من القرآن والسنة على هذا.



[1] أي: جَمَعَهُما بيده.

تتمة متفرّقات عن الجنّ في النصوص القرآنيَّة:

النصّ الأول:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الناس/ ١١٤ مصحف/ ٢١ نزول):

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾﴾.

جاء في هذه السّورة ذِكْرٌ لِلْجِنِّ الَّذِين يُوَسْوِسُونَ فِي صُدُور النّاس، لإغْوَائِهم، وإغْرَائِهِمْ، بمَعْصِيَةِ الله، وبفِعْلِ الشّرّ، وهؤلاء هُمْ من شياطين الجنّ.

الجِنّ والجِنَّة: لفظان يُطْلَقَانِ على جنسٍ من مخلُوقاتِ الله عزّ وجلّ، يشبهون في صِفاتهم النفسيَّة الإنس، ويختلِفُون عن الإنسِ في تكوين أجسادهم، وهم مَسْتُورونَ عن أعْيُن الإنس.

النصّ الثاني:

قول الله عزّ وجل في سُورَةِ (الإسْراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول) مُتَحَدِّياً الإنْسَ والْجِنَّ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذا القرآنِ، الَّذِي يُنَزِّلُهُ على رسُوله محمّد بن عبد الله ﷺ، وقد أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ بأَنْ يُوَجّه هذا التحدّي:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾.

وبدأ اللَّهُ بالإنسِ لأنَّهُمُ المعْنِيُّونَ بالدَّرَجَةِ الأولىٰ بالتّحدِّي، ولِأَنَّهُمُ الأَقْدَرَ بياناً، والأَعْلَمُ بمواطِن الإعجاز البلاغيّ.

[ظهيراً]: الظهير: المعين.

النصّ الثالث:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) بشأنِ طائفةٍ من المشركين الَّذِينَ جعَلُوا بَعْضَ الجِنِّ شُركاء لله:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٠١)﴾.

﴿وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ﴾: أي: واخْتَلَقُوا افْتِرَاءً وَكَذِباً، فَنَسَبُوا إلَىٰ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بَنِينَ وَبنَاتٍ، مَعَ أَنَّهُ ـ جلَّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ مُبْدِعُ السَّمَاواتِ والأَرْضِ علَىٰ غَيْرِ مِثَالٍ سبَق، ويَسْتَحِيلُ عَقْلاً أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ، أَوْ أَنْ تَكُونَ لَهُ صَاحِبَةٌ.

كيْفَ يكُونُ له صاحِبَةٌ أو وَلَدٌ وهو الَّذِي خَلَقَ كُلَّ شيءٍ.

النّص الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢)﴾.

أي: وَكَذَلِكَ الّذي حصَلَ مِنْ عَدَوَاةِ المشْرِكين وأوليائِهِمْ مِنَ الجِنّ للرَّسُولِ محمّد ﷺ، جَعَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بمقْتَضَىٰ التكوين الْقَدَرِيّ العامّ، الَّذِي هو نتيجة طبيعيَّةٌ لجَعْلِ الجنّ والإِنْسِ مُخَيَّرِين غَيْرَ مجْبُورين في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، حياة الابتلاء، أَنْ يُوجَدَ في الإِنْسِ والجِنّ كَفَرَةٌ مُجْرِمُونَ، وَأَنْ يكُونُوا بمقْتَضَىٰ كُفْرِهِمْ أَعْدَاءَ للحَقِّ والْخَيْرِ والْهُدَىٰ، وأعْداءَ لِدُعَاةِ الحقّ والخيْر والْهُدَىٰ.

وفي مُقَدّمَةِ هٰؤلاء الدُّعَاةِ رُسُلُ الله وأنبياؤه.

وحين يلْتَقِي الإنْسُ والْجِنُّ عَلَىٰ مُعَاداة دُعَاةِ الحقّ والخير والْهُدَىٰ، فلاَ بُدَّ أَنْ يُوحِيَ بَعْضُهُمْ إلىٰ بَعْضٍ خُطَطَ مُقَاوَمَةِ هؤلاء الدُّعاة، ومُقَاوَمَةِ ومُقَارَعَةِ وَقَمْعِ دَعْوَتِهم، بأقْوالٍ باطِلَةٍ، إلاَّ أَنَّها مُزَيَّنَةٌ بِزُخْرُفٍ ذَهَبِيٍّ في صُورَتِه الظَّاهِرَة، للإغراءِ والإغواء.

الزُّخْرُفُ: الذَّهبُ.

﴿زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ﴾: أي: الكلامُ المزَيَّنُ بما يَخْدَعُ وَيَغُرُّ، لِتَزْيين الباطلِ والكَذِبِ، شُبِّهَ الكلامُ الباطل المزَيَّنُ المنَمَّقُ بِالأَشياء الْحَقِيرَةِ الْمُزَخْرَفَةِ بالذَّهَب، طلاءً أو نَحْوه.

النصّ الخامس:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) أيضاً:

﴿. . . وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾.

أي: وإنْ أَطَعْتُمُ المشركين فيما أَوْحَتْ بِهِ إليهم الشياطين، أوْصَلُوكُمْ إلى الشِّرْكِ حَتْماً، وعِنْدَئِذٍ سَتَكُونُون مُشْرِكين مِثْلَ المشركين الّذين اتَّخذُوا الشياطين أَوْلِيَاءَ لهم، إِذْ صار بَيْنَهُمْ وبَيْنَهُمْ مُناصَرَةٌ وتعاوُنٌ على الإثم والعدوان ومعْصِيَة الله ورسوله.

الشياطين: كفرة الجنّ، وجنودُ إبليس المضَلِّلُون بالإغراء وتزيينِ الباطل.

النص السادس:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى

بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ﴾.

● ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ ﴾:

الْمَعْشَرُ: كُلُّ جَماعَةٍ أَمْرُهُمْ واحد.

أي: وَيَوْمَ يَحْشُرُ الله عزّ وجلّ عُصَاةَ الجِنِّ والإِنْسِ جميعاً، لِلْحِسَابِ، وفَصْلِ القضاء، يُنَادِيهم قائلاً: يَا مَعْشَرَ الجنّ قد استَكْثَرْتُمْ من اتِّخَاذِ أَوْلِياءَ من الإنس، تَنْصُرُونَهُمْ وَيَنْصُرُونَكُمْ على الضَّلالِ والإثم والْعِصْيَانِ.

فيَعْتَرِفُونَ بخطاياهم، هُمْ وأولياؤُهُمْ من الإنْسِ، لأنّها مُسَجَّلَةٌ عليهم بالصُّورَةِ والصَّوْتِ والأَفْكَارِ والنيَّات، دَلَّ على هٰذا الاعتراف قول الله عزّ وجلّ في النّص:

● ﴿وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾:

أي: وَجَدْنَا في التَّنَاصُر فيما بيْنَنا مَنَافِع اسْتَمْتَعَ بِها بَعْضُنا بمناصَرَةِ بعْض، وهٰذا الّذي جعَلَنا نَرْكَبُ مَراكِبَ المعصِيَةِ، وَيَتّخِذُ بَعْضُنَا بَعْضاً أَوْلِيَاءَ.

﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ..﴾:

أي: واسْتَمَرَّ حَالُنَا كَذَلِكَ، حَتَّىٰ انْتَهَتْ آجالُنَا في الحياة الدُّنيا، كما قَضَيْتَها وَقَدَّرْتَها لنا يا رَبَّنَا دُونَ أَنْ نَتُوبَ مِنْ آثامِنَا.

● ﴿قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ..﴾.

أي: قَالَ اللّهُ لَهُمْ يَوْمَ الدِّين، وهذا على سبيل حكاية ما سوْف يقع فكَأَنَّهُ وقَعَ فِعلاً، للدَّلاَلَةِ على أنّه لاَ بُدَّ أن يَقَعَ حتماً، فهو يشْبِهُ أَمْراً واقعاً:

﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ﴾: أيْ: النَّارُ مَكَانُ إِقَامَتِكُمْ واسْتِقْرَارِكم.

يُقَال لَهُ: ثَوَىٰ بالمكانِ يَثْوِي ثَوَاءً وَثُوِيًّا، أي: أَقَامَ به واسْتَقَرَّ.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾: أي: بَاقِين فيها دواماً بلا نِهَايَة.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾: الذي يَظْهَرُ أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ يكُونُ مع كَثْرَةِ جرائمِهِ وآثامه، قد بقي لدَيْه الإيمانُ بكَلِمَةِ التوحيد، وبها يَسْتَحِقُّ الخروج من النار، والدُّخولَ في الجنَّة، فقال الله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ وهذا يَرْجع إلى علم الله بعَبْدِهِ، ومَشيئَتِهِ المطلَقَة الّتي لا تُفارِقُ حِكْمَته.

وهذا يكونُ بحَسَبِ ظاهره من الكَفَرَةِ الخالدينَ في عذاب النار.

● ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾.

أي: وكَذَلِكَ الَّذِي حَصَلَ بَيْنَ الجِنِّ وَأَوْلِيَائِهِمْ من الإنْسِ مِنْ تَنَاصُرٍ علَىٰ الضَّلَالِ، تَجْرِي سُنَّةُ اللَّهِ عزّ وجلّ في كُلِّ الظالِمِين، الإنْسِ مع الإنْسِ، والجنِّ مع الجنّ، والإنسِ مع الجنّ.

وسبَقَ تَدَبُّر الآية (١٣٠) من هذا النّصّ.

النصّ السابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَّات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول) في بيان بعض عقائد بعض المشركين، إِذْ جَعَلُوا بَيْنَ الله سُبحانه وتعالى وبَيْنَ سادَاتِ الجنّ وكُبَرائِهم نسباً، افتراءً على الله، والتزاماً بما يُثْبِتُ العقل بطلانه.

﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٥٨ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٦٠﴾.

● قرأ ابن كثير، وأبو عَمْرو، وابْنُ عَامرٍ، ويَعْقُوبَ [**المخْلِصِينَ**] بكسر اللام.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللاَّم على أنَّهُ اسم مفعول.

فبَيْن القراءتَيْن تكامُلٌ في تأدية المعنَىٰ المراد، وقد يكون المراد بالمخلَصِينَ بفَتْح اللاَّم، المعْصُومُونَ من الجِنّ، وهم أنبياؤهم ورُسُلهم.

ذكر أبو حيّانٍ في الْبَحْر: أنَّه رُوي عن الكُفَّارِ في ذَلِكَ مقالاتٌ شَنِيعات، منها أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ صَاهَرَ سَرَواتِ الجِنّ، فولَدَ منْهُمُ الملائكة، وهم فِرْقَةٌ مِنْ بَنِي مُدْلِجٍ، وذَكَر أنَّ بَعْضَ الكُفَّارِ ذكَرَ هذا الأمْرَ لأبي بَكْرٍ رَضي الله عنه.

أقول: إنَّ حَمْلَ لفظ «الجِنَّة» على الجنّ، هو الّذي يتّفِق مع الاستعمالات القرآنية لهذه اللّفظة، وهو الّذِي يتَسِقُ مع السّوابقِ واللّوَاحِقِ في السُّورَة، ولا يَصِحُّ حمْلُ لفظ «الجِنَّةِ» على الملائكة كما توهَّم بعضهم.

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾:

أي: ولَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ الكافِرُونَ بما جَاءَهُمْ من بَلاَغ عن اللَّهِ إِنَّهم لَمُحْضَرُونَ في العذاب في نار جَهنَّم. كُسِرَت همزة [إِنَّهم] لوقوع اللام في خبر «إِنَّ».

دَلَّ على أَنَّ المرادَ بالجنَّةِ المحْضَرِين في العَذاب في نَار جهنَّم الكافِرُونَ منهم، الاسْتِثناءُ في قَوْلِ الله عزّ وجلّ: ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ على القراءتين بفتح اللاّم وبكسرها. أي: إلاّ عبادَ اللَّهِ الذين اصطفاهم اللَّهُ من الجنّ بالنبوّة، وإلاَّ عبادَ اللَّهِ الّذِينَ آمَنُوا باللَّهِ صادقين مُخْلِصين، غيرَ مُنَافقين ولا كاذبين.

وحَمْل عبارة: ﴿فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ على الإحْضَار في العذاب في نار جَهنَّم، هو الّذي يَتَنَاسَبُ معَ نظائِر هَٰذَا النَّصّ في السُّورَة، مع دلالة استثناء عبادِ اللَّهِ المخلِصِينَ والمخْلَصِينَ.

فقد جاء في هٰذِهِ السّورَة بشأن قوْمِ إلياس عليه السّلام:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۝١٢٧ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝١٢٨﴾:

فيها أيضاً القراءتان الآنفِتَا الذّكر بفتح اللاّم وبكسرها. ومعلومٌ أنَّ المكذّبين يُحْضَرُونَ إكْراهاً في عذاب نَارِ جهنم.

وجاء في هَٰذه السُّورَةِ أيضاً، بشأن مُخَاطَبَةِ المؤمِنِ وهو في الجَّنةِ، للّذِي كانَ في الدنيا قَرِينَهُ يُوسْوِسُ لَهُ لِيُغْوِيَهُ:

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ۝٥٥ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ۝٥٦ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٥٧﴾:

﴿فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾: أي: في وَسَطِ الجحيم. قال الزَّجّاج: سَواءُ كُلّ شيءٍ وَسَطُه.

أي: ولولا نعْمَةُ رَبِّي عَلَيَّ إذْ لَمْ أسْتَجِب لإغوائِكَ، لكنْتُ من المحضَرينَ في عذاب جهنّم كما أُحْضِرتَ أنْتَ فيه.

النصّ الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (سبأ/ ٣٤ مصحف/ ٥٨ نزُول) يَعْرِضُ لقْطَةً من مشَاهِدِ يَوْمِ الحشر، وفيها يَسْأَلُ الملائكة عَنْ عِبَادَةِ بَعْضِ المشركين لَهُمْ كما يَزْعُمُ المشرِكُون:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ۝٤١﴾:

هذا النَّصُّ يَدُلُّ علَىٰ أنَّ الجنَّ كَانُوا في الدُّنْيا يَخْدَعُونَ أَولياءَهُمْ من الإنس، فَيَكْذِبُونَ عَلَيْهم، وقَدْ يَزْعُمُونَ لَهُمْ أنَّهُمْ مَلائِكَةٌ، من أهْلِ الملأ الأعْلَىٰ، فيَسْتَسْلِمُونَ لهم، ويطِيعونَهُمْ فِيمَا يأمُرُونهم به، مُشَارِكِينَ اللّهَ عزَّ وجلَّ في رُبُوبيَّتِه، ليُحَقِّقُوا ما تكفَّلَ بِهِ إبليسُ منْ إغْواءِ بَنِي آدَم، وسَوْقِهِم مَعَهُ إلىٰ جَهَنَّمَ يَوْمَ الحِسَابِ والجزاء.

النصّ التاسع:

قولُ اللّهِ عزّ وجلّ في سورة (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) بِشَأْنِ قُرَنَاءِ الْإِنْسِ من شَيَاطين الجنّ، الَّذِينَ يُوَسْوِسُونَ في صُدُورِهِمْ بالشّرّ، إغْرَاءً ومُخَادَعَةً لِيُغْوُوهُمْ، ويَجْعَلُوهم من أَهْل النّار، والنَّصُّ يَتَحَدَّثُ عَن الَّذِينَ اسْتجابُوا لقُرَنَائِهِم من شَيَاطِينِ الجنّ، فَحَقَّ عليهم يَوْمَ الدِّين أَنّهم في العذاب خالدون:

﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾:

● ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ﴾: أي: وَهَيَّأْنَا لَهُمْ. [قُرناء] جمع «قَرِين» وهو المقارِنُ المصاحب، وهؤلاء القرناءُ هُمْ من الجنّ، مُهَيَّؤُون للوسْوسة في الصُّدُور، وللإغْواءِ والاستدراجِ إلىٰ الإثم والغَواية، وهم شياطين من جنود إبليس.

ويُقَارِنُ الإنسانَ مع القرين من الشياطين، قَرِينٌ من الملائكَةِ يُزَيِّنُ لَهُ فعلَ الخيراتِ والصَّالِحاتِ، ويُقَبِّحُ لَهُ فِعْلَ الآثَام والمنكرات، فتتعادل الكفّتَان، وإرادَةُ الْإِنْسَانِ الحرَّةُ هي المرجِّحَةُ ذاتَ اليَمِين أو ذَاتَ الشمال.

● ﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: أيْ: فَحَسَّنُوا لَهُمْ مَا كَانُوا قَدْ فَعَلُوهُ من إِثْم وَبَغْيٍ وعِصْيَان، فهو بَيْنَ أيْديهم في جَانِب الماضي إذْ هُوَ مَعْلُومٌ لهم. ولَهُ في نفوسهم ذِكْرَيَاتٌ لَذَّات، وحَسَّنُوا لَهُمْ أنْ يَرْتكِبُوا الآثَامَ والمنكَراتِ والمعاصِيَ في مُسْتَقبلِ حياتهم، فالْمُسْتَقْبَلُ خَلْفَهُمْ، إذْ هُوَ مَجهولٌ لَهُمْ غَيْرُ مَعْلُوم ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ﴾.

● ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾: أي: وَحَقَّ عَلَيْهِمْ قَوْلُ اللّهِ المبَيِّنُ مَصِير الكافرين المجرمين، بأَنَّهُمْ في عذاب النار خالدون.

● ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ﴾: أي: وحَقَّ عليهم

القولُ حَالَةَ كَوْنهم داخِلينَ في عُموم أُمَمٍ كافِرَةٍ مُجْرِمَةٍ، قد مَضَتْ من قبلهم من الجنّ والإنس.

● ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾: أي: إنَّهُمْ صَارُوا بِمَا قَدَّمُوا من سُوءِ إيمانٍ وعَمَلٍ خاسِرِين كُلَّ شيءٍ، إذْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ باخْتِيَارِ سُلُوكِ طريق جهَنَّم، دَارِ عذابِ الكافرين المجرمين، التي يخْلُدُون فيها ومَا هُمْ منها بمُخْرَجين، وهذا هو الخسرانُ الأعظم.

النصّ العاشر:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (فُصِّلَتْ/ ٤١ مصحف/ ٦١ نزول) أيضاً بَياناً لما يقولُه الكافِرُونَ وهُمْ يُعَذَّبُونَ في النار:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

النصّ الحادي عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الذّارِيَات/ ٥١ مصحف/ ٦٧ نزول):

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾:

﴿ٱلْمَتِينُ﴾: الصُّلْبُ الشَّدِيدُ الْقَوِيُّ. يقالُ لغة: مَتُنَ الشيءُ يَمْتُنُ مَتَانَةً، أيْ: صَلُبَ واشْتَدَّ وَقَوِيَ، ولفظ «الْمَتِين» من أسماء الله الحسنى.

أي: وَمَا خَلَقْتُ الجنَّ والإنْسَ في الحياةِ الدُّنيا ممتَحَنِين مخْتَبَرِينَ، إلاَّ ليكُونَ المطْلُوبُ منهُمْ في رِحْلَةِ امْتِحانِهِمْ أَنْ يَعْبُدُوني، لاَ أن يُقَدِّمُوا لي رِزقاً ولاَ أَنْ يُقَدِّمُوا لي طَعَاماً، كمَا يَتوهَّمُ المشركُونَ، إذْ يُقَدِّمُونَ القرابينَ والأَرْزَاقَ والأَطْعِمَةَ لشُرَكائهم.

وإذْ تَساوَىٰ الجنُّ والإنسُ في الابْتِلاء والتكليفِ، فلا بُدَّ أنْ يكونَ لكُلٍّ مِنْهُما حِسَابٌ وَجَزاءٌ بالثَّوابِ أو بالْعِقاب، علَىٰ حَسَبِ أعْمَالهم.

النَّصّ الثاني عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سُورةِ (السَّجْدَة/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾:

أي: ولَوْ شِئْنَا أَنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُدَاها بسُلْطَانِ الْجَبْرِ، لَسَلَبْنَا الجنَّ والإنْسَ اختياراتِهِم وإراداتِهِم الحرَّةِ، ولَجَعَلْنَاهُمْ مَجْبُورِينَ غَيْرَ مُخَيَّرِين، وحِينئذٍ يكُونُ مِنَ الْحِكْمَةِ أَنْ نُؤْتِيَ كُلَّ نَفْسٍ هُداها، إذْ لاَ تكُونُ نَفْسٌ مَجْبُورَةً علىٰ الضَّلاَلَةِ، لِمُنَافاةِ هٰذَا لِحِكْمَةِ الحكِيم وَعَدْله.

ولكِنْ قَضَتِ الحكمةُ بأنْ يَكُونَ الجنُّ والإنْسُ مُخَيَّرِينَ لابْتَلاءِ إرَادَاتِهم في ظُرُوفِ الحياةِ الدُّنيا، فَمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَعَمِلَ صَالحاً، كانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ النَّعِيم، ومَنْ كَفَر وعَصَىٰ كَانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ العذاب، وإذْ سَيَكُونُ هَؤلاَءِ هُمْ الأَكْثَرِينَ بحَسَبِ سَابقِ الْعِلْمِ بحالِهِمْ واخْتِيَارَاتِهم، فَقَدْ حَقَّ وَثَبتَ الْقَوْلُ مِنِّي:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

النَّصُّ الثالث عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول):

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾﴾.

المَعْشَرُ: كلُّ جَمَاعَةٍ أَمْرُهُمْ واحد، وخطابُ الجنّ والإنْسِ معاً يُشْعِرُ بأَنَّ الله يتحدَّىٰ كَفَرَةَ الجنّ والإنسِ، إذْ يجْمَعُهم جامعُ الكُفْر.

الشُّوَاظ: اللَّهَبُ الَّذي لا دُخان له.

والنفوذُ من أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ هُو الخروجُ عَنْ دائرة الكوْنِ كُلّه، وهذا أمر لا يَسْتَطِيعُهُ مخلُوقٌ ما.

أمّا الوصُولُ إلىٰ الْقَمر والمريخ ونحوهما، فَهُوَ تَجَوُّلٌ في أَقْطارِ السَّمَاوَاتِ والأرْضِ، لاَ نُفُوذٌ مِنهُما وَخُرُوجٌ عَنْهُما.

النصّ الرّابع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحمن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) أيضاً بشَأْنِ أحْدَاثِ يَوْمِ القيامَة:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾﴾:

إذْ يَرَىٰ كُلُّ واحِدٍ ذُنُوبَهُ مُسَجَّلَةً فِي كِتَاب عَمَلِهِ، شَريطاً مُسَجَّلاً بالصُّورَةِ والصَّوْتِ، والنِّيَّاتِ والْخَوَاطِر.

النصّ الخامس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (الرحمن) أيضاً بِشَأْنِ زَوْجاتِ المؤمنينَ الأبرار من الثَّقَلَيْنِ، في الجنتَيْنِ المعَدَّتَيْنِ للإنْسِ والجنّ ضِمْن عُمُوم الجنَّةِ الواحدة:

﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾: أي: يَقْصُرْنَ أبْصَارَهُنّ على أزْواجِهِنَّ، فلاَ يَنْظُرْنَ إِلَىٰ غَيْرِهِمْ.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: أي: لم يفتَضّ بكارَتَهُنَّ إنْسٌ قَبْلَ أَزْواجِهِنَّ ولاَ جَانٌّ.

﴿إِنسٌ﴾: اسْمُ جِنْسٍ لنوع الإنسان.

﴿جَآنٌّ﴾: اسْمُ جِنْسٍ لنوع الْجِنّ.

النصّ السادس عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة (الرَّحْمٰنِ) أيضاً بشَأْنِ مَا للمُؤْمِنِين المتقين من حور عين:

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾.



(٥)
التدبّر التحليلي للدرس الأول من دروس السورة وهو الآيات من (١ ـ ١٥)

قال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾:

تمهيد:

هذا الدّرس يُبَيِّنُ قصَّةَ نَفرٍ من الجنّ استمعوا القرآن من الرسول ﷺ، دون أنْ يَعْلَم بحُضُورهم، ولا باسْتِماعِهم، ولا بأقوالهم، حتَّىٰ أوحى الله إليه بذلك، ويشتمل على ذكر أقوالهم بالتفصيل.

ويمكن أن تكُونَ قصَّةُ هؤلاء هي القصّة التي جَاء ذكْرُها في الحديث الأوّل، الذي سبَق بيانَه، لدَى بيان بعْضِ ما جاء في السنة بشأن وفادات وفودٍ من الجنّ إلى الرسول ﷺ، وهو الحديث الذي رواه البخاري ومسلم وأحمد والترمذيّ وغيرُهم، عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما.

التّدبُّر:

● ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ . . ①﴾:

بَدأ اللّهُ عزّ وجَلَّ السُّورَةَ بخِطَابٍ لرَسُولِهِ يَأمُرُهُ فيه، بأَنْ يُخبِرَ عن وِفَادَةِ نَفَرٍ من الْجِنِّ لاستماع القرآن مِنْهُ، دُونَ أن يكونَ عالماً بمَقْدَمِهِمْ إليه، واسْتِماعِهِم القرآن مِنْ تِلاوَتِه له، وأنَّ الْعِلْمَ بمَقْدَمِهِمْ إِلَيْهِ واسْتِمَاعِهِم القرآنَ منه، والعلْمَ بما تَذَاكَرُوا بِهِ، وبما نقَلُوهُ إلى قومهم دُعَاةً، قَضَايَا أوحَىٰ اللّهُ بِها إلَيْه، إذْ لم يكُنِ الأمْرُ بالنِّسْبَةِ إلَيْه إدْراكاً حِسِّيًا مُباشراً في هٰذِهِ الحادثة، بل جَاءَه بشأْنِها خَبَرٌ صَادِقٌ عن الله عزّ وجَلَّ، أوحَىٰ اللّهُ بِهِ إلَيْهِ في قرآنٍ يُتْلَىٰ، لاَ يأْتِيه الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْه وَلاَ مِنْ خلْفه.

وفي توجيه الأمْرِ من اللّهِ لِرَسُوله بكلمة ﴿قُلْ﴾ تكْلِيفٌ إلزاميٌ لَهُ بأنْ يُحَدِّثَ بما أَمَرَهُ الله بِهِ أنْ يَقُولَهُ، حتَّىٰ آخِرِ الأقوال الَّتِي قَالَها هٰؤُلاء النَّفَرُ مِن الجنّ، الّتي جاءَ بيانُها في السّورَة.

فإذا استَحْضَرْنَا أَنَّ اللّهَ عَزَّ وجلَّ قد كَلَّفَهُ أَنْ يُبَلِّغَ كُلَّ القرآن، أَدْرَكْنا أَنَّ تكليفَه أنْ يقولَ: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.. وحتى آخر

أقوالهم، فيه مَزِيدُ تأكيدٍ بأن يُعْلِمَ النَّاسَ بِوَفْدِ الجِنّ وأقوالهم الإيمانيّة.

ونَسْتفيد من هٰذه العبارة القرآنيّة الّتِي بدأ الله بها سورة (الجنّ) عدَّة قَضَايا:

القضيّة الأولى: أنّ الله عزّ وجلّ يُبلِّغُ المؤمنين بحادثة حضور نفر من الجنّ إلى الرسول ﷺ، واستِماعِهِمُ القرآن من تلاوته، بأسلوب غيْرِ مُبَاشرٍ، مع تبليغ الرسولِ بطريقة مباشرة، فيتحقّقُ بهذا تَبْلِيغَانِ، أحَدُهُمَا من قِبَلِ الله، والآخَرُ من قِبَل الرسول.

ومعلُومٌ أنَّ مَا يأمُر الله به رسُولَهُ أنْ يَقُولَهُ يتضمَّنُ بلاغاً من اللَّهِ للمؤمنين.

القضيّة الثانية: إبْعادُ الشُّبْهَةِ الّتي كان قد طَرَحَها في بدْءِ رسالة الرَّسُولِ بَعْضُ المشركين، بأنّ الوحْي الّذِي كان يَنْزِلُ عليه هو رَئِيٌّ[1] من الجنّ، كان يأتي إلَيْه فيُحَدِّثُه، إذْ دلَّتْ سورة (الجنّ) على أنَّ أَوائِلَ وُفود الجنّ لاسْتماع القرآن منه، وتلَقّي معارفِ الدِّين عنه، لم يَكُن الرَّسُولُ يَعْلَم بوفادتهم إليه، إذْ لم يسْبِقْ له أنْ كانَ له مع الجنّ لقاء، لا قَبْلَ النُّبُوَّةِ ولاَ بَعْدَها.

والحكْمَةُ مِنْ هذا أن لا يختَلِطَ على النّاس الأمْرُ، ويَحْدُثَ في قُلُوبِهِمُ الشَّكُّ، فيَخْلِطُوا بين رسُولِ الله من الملائكة وهُوَ جبريلُ عليه السلام، وبَيْنَ لقَاءَاتِ الرَّسُول للجنّ، فجبريلُ مَلَكٌ يُبَلّغ عن الله عزّ وجلّ، والجنُّ عبادٌ ممتَحَنُونَ مكَلَّفُونَ متَلَقُّون متعلّمون من الرَّسُولِ كالإنس، ولهذا لم يُهَيِّىءِ اللّهُ لرسُوله محمّدٍ ﷺ أن يلْتَقِي الجنَّ قبْلَ الرسالة، مع استعدادِه الفطْريّ لذلك، ولم يُهَيِّىءْ له أن يلتقيَهُمْ بَعْدَ الرسالة حتَّىٰ مضَتْ مُدَّةٌ مِنْ

(١) الرَّئِيّ: بفتح الراء وكسرِها، الجنيُّ يَعْرِض للإنسان ويُخْبِره بما يزعم أنّه من الغيْب.

رِسَالَتِه تَزِيد على تِسْعِ سنين، كما تَدُلُّ أحداثُ السّيرة المحمّديَّة، وقد نزلَتْ عليه أَرْبعونَ سورةً دون أن يكون له اتصالٌ بالجنّ، وأعلمه الله في سورة (الجنّ/ ٤٠ نزول) بأنَّ نفراً منْهُمْ اسْتَمَعُوا القرآنَ مِنْه وهو يتْلُوه، فقالُوا ما حَكَىٰ اللَّهُ عنهم في هذه السورة.

ثم أعْلَمه في سورة (الأحقاف/ ٦٦ نزول) بأنَّهُ صَرَفَ نفراً من الجن عمَّا كانوا فيه، وبَعَثَهُمْ إليه، ليتَبَلَّغُوا الدِّين، ويَرْجعُوا إلى أقوامهم مُبَلِّغِين دعاةً ومُعَلّمين فَمُنْذِرِينَ، وكَانَ هٰذا في الثُّلُث الأخير من المرحَلَةِ المكيَّة.

القضية الثالثة: إعْلامُ اللَّهِ الناسَ عن طريق تكْلِيفِ رَسُولِه، بأنَّ الجنَّ مخْلُوقُونَ في ظرُوف الحياة الدُّنيا للابتلاء، كما أنَّ الإنْسَ مخْلقون في ظروف الحياة الدُّنيا أيْضاً لهٰذه الحكمة، وأنَّ الدار الآخِرَة لهما هي دار الحِسَاب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، وأنَّ الجنَّ مكَلَّفُونَ أنْ يَسْتَمِعُوا آياتِ اللَّهِ المنزَّلاَتِ، ليَعْلَمُوا مَا هُوَ مَطْلُوبٌ منْهُمْ في رِحْلَةِ ابتِلاَئهم كالإنس.

ولهذا جاء نفر من أشرافهم لاستماع القرآن، وليقوموا بتبليغ أقوامهم هذا الدّين الّذِي ختَمَ اللَّهُ بِه رِسَالاَتِهِ لأهل الأرض.

وَمَا جاء في سُورَة (الأحقاف/ ٤٦ مصحف/ ٦٦ نزول) تَضَمَّنَ أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ اصطَفَىٰ نفَراً مختارين منَ الجنّ فصَرَفَهُمْ عن اتجاهاتهم وأعْمَالهم السَّابقات الّتي كانوا مُشْتَغِلينَ بها، وأرسَلَهُمْ إلى الرَّسُولِ محمّد ﷺ، بوسيلَةٍ لم يَذْكُرْها الله لنا، ليتبلَّغُوا القرآن منه، وليَرْجِعُوا إلىٰ أقوامهم مُبَلِّغين دِينَ الله الخاتم، الَّذِي أنزلَهُ إلىٰ الإِنْسِ والجنّ، ومُنْذِرين بعَذَاب الله من لم يسْتَجِبْ من الجنّ لدَعْوَةِ هذا الدِّين العامّ الشَّامل الذي اصطفى الله عزّ وجلّ لتبليغِه خاتم الأنبياء والمرسَلِين من الإنسِ، وهو أفضل رُسُلِ الله وأنبيائه أجْمَعِينَ.

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾: جاء لفظ ﴿أُوحِيَ﴾ بصِيغَة المبني لِمَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِله، لأنَّ الفاعل المرسِلَ لملَكِ الوحي جبريل عليه السّلام، قد صار معلوماً للمؤمنين والكافرين بأنّه الله جلَّ جلاله وعظم سلطانه، بَعْدَ مُرور سنين على إعلانِه نبوّته، وأنّه رَسُول الله، وأنَّهُ يَتَلَقَّىٰ الوحي عنه.

الْوحي: هو في اللّغة الإعلامُ الخفيُّ السَّرِيعُ، مهما اختلفت أسبابُ هذا الإعلام، ولهذا فهو يُطَلقُ على الإيماء، وعلى الإشارة السّريعة، وعلى الكَلامِ الخفِيّ، وعلى الكتابة، وعلى إلقاء المعْنَىٰ في النفس، وعلى الإلْهَام، وعلى الرُّؤيا الصالحة الجليَّة.

أمّا الوحيُ إلى الأَنبياءِ والمرسلين، فَهُو نَامُوسُ الإعْلامِ الرَّبَّانِيّ للمصْطَفَيْن من عباده لرسَالته، أو لنبوّته، وبوحْي اللَّهِ إليهم ينْطَبع فيهم ما يُنَزِّلُه عَلَيْهِم مِنْ مَعَانٍ أَوْ أقوالٍ وعُلُومِ انطِبَاعاً جَلِيًّا واضحاً لاَ يحْتَمِل الشَّكَّ، وتكونُ لديهم مَعَارِفَ يقينيَّةً مقْطوعاً بها.

ونستطيع أنْ نُعَرّف الوحي الخاصّ بالأنبياء والرُّسُل بأن نقول: هو إعلام الله رسولاً من رُسُله أو نبيًّا من أنبيائه بما يشاء من كلام أو معنًى بطَرِيقَةٍ تُفِيدُ مَنْ يُوحَىٰ إليه الْعِلْمَ اليقينيَّ القاطع بما أعلمه الله به.

وجُوهُ تكليم اللَّهِ لِبَشَرٍ مِنْ عباده:

وقد أبان الله عزّ وجل أنّ وَحْيَهُ إلى المصطَفَيْن مِن عباده، له ثلاثَةُ وجوه:

الوجْهُ الأول: أن يكُونَ بالإلْقاءِ في القلب مباشرةً من الله يقظةً أَوْ مَنَاماً.

وتحقيقُهُ أنْ يَخْلُقَ اللَّهُ جلَّ جلالُه في قلْبِ الموحَىٰ إِلَيْهِ المعصوم، عِلْماً ضَرُوريًّا بإدْراكِ مَا شاء اللَّهُ أنْ يُذْرِكَهُ من كلامِه تباركَ وتعالى.

الوجه الثاني: أنْ يُسْمِعَ اللَّهُ الموحَىٰ إلَيْه كلامَهُ من وراء حجابٍ، كما حصَلَ لموسَىٰ علَيْهِ السّلام.

الوجْهُ الثالث: أن يكون بوَسَاطَةِ إرْسال رسُولٍ مَلَكٍ تُرَىٰ صورتُهُ الّتِي خَلَقَهُ اللَّهُ عليها، وقد يتمثَّلُ بصُورة أخرى، كَصُورَة إنْسان، وهو يُبَلِّغُ النبيَّ أو الرسولَ ما أَمَرَهُ الله بتبليغه إياه.

وهذا الوجْهُ هو الغالِبُ من وُجُوه الوحْي بالنسبة إلَىٰ الأنبياء والمرسَلِين عليهم السَّلام، فغالبُ أحوالهم أن يكون الوحي إليهم بوساطَةِ رُسُلٍ من الملائكة، وقد ثبت أن جبريل عليه السّلام هو في الغالب أمِينُ الْوَحْي، وهو الرَّسُول الذي يُرسلُهُ الله غَالِباً من الملائكة، ليقوم بالسِّفَارَةِ بَيْنه وبين أنبيائه ورُسُلِهِ من البشر.

وقد دَلَّ على هذه الوجوه الثلاثة قول الله عزّ وجل في سورة (الشورى/ ٤٢ مصحف/ ٦٢ نزول):

﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾.

يقال لغة: أوْحَىٰ إلَيْه، وأوحَىٰ له. ويقال: وحَىٰ إليه، ووَحَىٰ له. والَّذِي اسْتُعْمِلَ في القرآن صيغَة «أوْحَىٰ».

﴿ٱسْتَمَعَ﴾: أي: سَمِعَ بعِنَايَةٍ وأَصْغَىٰ، يُقَالُ لُغَةً: اسْتَمَعَهُ، واسْتَمَعَ إلَيْه، واسْتَمَعَ له.

دلَّتْ صيغَة «افْتَعَل» بزيادة التاء، الّتي تَدُلُّ على العناية والتكلّف، على معنى الْقَصْدِ بعنايَةٍ وإصغاء وإنْصاتٍ.

﴿نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾: النَّفر: يطْلَقُ لغةً على عدَدٍ من الرِّجال ما بين الثلاثة إلى العشرة.

فدلّ هذا على أنّهم كانوا رِجالاً من الجنّ لا نساءً، ودَلَّ على أنّهم لا يَقِلُّون عن ثلاثة، ولا يَزِيدُون على عشرة.

وحُذِفَ المفعولُ به «الْمُسْتَمَعُ» لفعل ﴿أَسْتَمَعَ﴾ وهُو القرآن، لدَلاَلة ما جاء في الآيَة بَعْدَ ذلِكَ من بيان قولهم، ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. وهذا من قبيل الحذف من الأوائل، لدلالَةِ ما في الأواخر.

ويظْهَرُ أَنَّ ما جاءَ في السُّورَةِ مِنْ بيَانِ أَقْوالهم، هو عَنَاوينُ المقالاَت الّتي تَحَدَّثُوا بها، ويترجّح لدي أنها مقالات دعويَّةٌ وجَّهُوها لقومهم من الجنّ.

أمّا القضايا الّتِي تَحَدَّثَ بها هؤلاَء النَّفَرُ من الجنّ، وذكَرَها اللَّهُ عزّ وجلَّ في السُّورَة، مُقِرّاً لها، ومُثْنِياً على ما كان منهم من إيمانٍ ومن التزام بأنْ لا يُشْرِكُوا في مُسْتَقْبلِ حياتهم بربّهم أحداً، بأسْلُوبِ ذِكْرِها إخْبَاراً عنهم، فهي سَبْعَ عشَرةَ قضيَّة:

القضية الأولى:

دلَّتْ عليها جُمْلَة: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾:

أي: إنَّا سَمِعْنَا كلاماً مُنزّلاً في كتاب يُقْرأ قُرآناً جَدِيراً بالاستماع إليه، وتدبّر معانيه، إذْ هو عجَبٌ في مبانيه، وفي معانيه.

لفظ «قرآن» مصْدَر «قَرَأَ» وأُطْلِقَ المصْدَرُ هُنا على الكلام الّذِي يُقْرأ، والقراءةُ تكُونُ عادة لكلامٍ مكتوبٍ، فدَلَّ قولُهم:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ على أَنَّهُمْ سَمِعُوا آياتِ كتابٍ يُقْرأُ.

وجاء وصْفُ هذا القرآن بأنَّهُ «عَجَبٌ» فقالوا: ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾. ولفظ «عَجَبٍ» مَصْدَرُ «عَجِبَ» تَقُول لُغَةً: «عَجِبَ يَعْجَبُ عَجَباً».

والوصْفُ بالمَصْدرِ فيه مُبَالَغَةٌ في التعبير، إذْ فِيهِ ادّعَاءُ أنّ ذاتَ الشيء

صارت عيْنَ مفْهُوم المصْدَر، فهنا يقوم التَّصوُّرُ عَلَىٰ أَنَّ ذاتَ المقروءِ من كَثْرَةِ عجائِبه صارَتْ عجباً، فَلاَ شيءَ من عناصِره وأجزائِه إلاّ هو عجب. ونظيرُهُ مثلاً: رأيت عليًّا العَدْلَ. وُصِف بالمصدر بدَلَ اسْمِ الفاعل «عادِل» حتى كأنّه هو العدل.

ولاَ يكون القرآنُ عجباً في مبَانِيه وفي معانيه إلاَّ إذَا كَانَ مُعْجِزاً، متَفَرِّداً متميّزاً عن كلّ كلامٍ آخر، فلا تَسْتَطِيعُ الخلائق أنْ تأتي بمثِلِه، ولو كان بعضهم لبَعْضٍ ظهيراً بالمساعدة والمعاونة والاشتراك في العمل، فَهُو إذَنْ كلامٌ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِين.

وقَدْ عَبَّر هؤلاء النَّفَرُ مِنَ الجِنِّ عمَّا أَدْرَكُوا من عناصِرِ إعجاز القرآنِ الكثيرة بقولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

القضية الثّانية:

دلَّتْ عليها جُمْلَةُ: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ وَصْفاً لما سَمِعُوا من القرآن المجيد، من تِلاَوَةِ الرَّسُول ﷺ.

﴿يَهْدِىٓ﴾: أي: يَدُلُّ وَيُرْشِد، يقالُ لغةً: هدَىٰ فُلاناً الطَّرِيقَ، وهَدَاهُ له، وهَدَاهُ إليه، إذا عرَّفَهُ به، وبيَّنَهُ له.

﴿إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾: **الرُّشْد**: هو السُّلُوكُ الفِكْرِيُّ أو النَّفْسِيُّ، أو الْعَمَلِيُّ، الموافِقُ للحقّ والصَّواب، أَوْ لمَا هُو الأفْضَلُ والأحْسَنُ والأكْثَرُ نَفْعاً، والأبْعَدُ عن الضَّرَرِ أو الأذَى.

فوصْفُ القرآن بأنَّهُ يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ، وصْفٌ يجْمَعُ كُلَّ ما اشْتَمَلَ عَلَيْهِ القرآنُ من دَعْوَةٍ إِلَىٰ الحقّ والْخَيْر، ومَا هُو الأفْضَلُ. والأحْسَنُ، والأنْفَعُ، والأبْعَدُ عن الضَّرَرِ والأذى، حَالاً، ومستقبلاً قريباً، ومستقبلاً بَعِيداً، حتَّىٰ يومِ الدِّين يَوْمِ الحسَابِ، وفَصْلِ القضاء وتنفيذ الجزاء، في دار النعيم، أو في دار العذاب الأليم.

القضيَّة الثَّالِثَةُ:

دلّت عليها عبارتُهم: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ ففي هَٰذِهِ العبارة إعلانٌ منْهُمْ بأنّهم آمنوا بهذا القرآن الذي سمعوه من تلاوةَ الرَّسُول ﷺ له.

ومعلومٌ أنّ إيمانهم بالقرآن يستَلْزِم إيمانَهُمْ بالرَّسُولِ الذي يُبَلِّغُهُ عن رَبّهِ، وإيمانَهُمْ بسائر أركان الإيمان، وأيمانَهُمْ بكُلّ القضايا الدينيَّة، والخبريَّة، والعلميَّةِ، الّتي اشتَمَلَتْ عليها آيات القرآن المجيد، وهي تشْتَمِلُ على كلّ ما يجب الإيمان بهِ في رحلة الامتحان إجمالاً وتَفْصِيلاً.

الإيمان: هو التَّصْدِيقُ الإراديُّ القلْبِيُّ المقتَرِنُ بالاعْتِرَافِ والتَّسْلِيم، والباعِثُ عَلَى الْعَمل.

القضية الرابعة

دلَّتْ عليها عبارتُهم: ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢﴾: فأعْلَنُوا بهٰذه العبارة عزْمَهُمُ الإرَادِيَّ على أَنْ لاَ يُشرِكُوا في مُسْتَقْبَلِ حيَاتِهِمْ بِرَبِّهِمْ أحداً، لاَ في رُبُوبيّته، ولاَ فِي إلَٰهِيَّتِهِ. وهذا منهم وَعْدٌ بِعَهْدٍ جازم قَطَعُوهُ على أَنْفُسِهم.

وقد دَلَّ إلْزَامُهُمْ أنفُسَهُمْ بهٰذا الْوَعْدِ والْعَهْد، على أَنَّ ما اسْتَمَعُوهُ من القرآن قد تضمَّنَ فيما تضَمَّنَ التَّحْذِيرَ مِنَ الشِّرْكِ في رُبُوبيَّةِ الله، أَوْ في إلَٰهِيَّتِهِ، مَهْمَا كانَ نَوْعُ الشِّرْك جُزْئِيًا وهَيّناً، كَشِرْك الّذين يَعْبُدونَ غَيْرَ اللَّهِ لِيُقَرِّبُوهم إلى اللَّهِ زُلْفَىٰ، لأنّ الله عزّ وجلّ لاَ يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به لاَ في رُبُوبيَّته، ولا في إلَٰهِيَّتِهِ، ويَغْفِرُ مَا دون ذلك لمنْ يشاء.

ودَلَّ هذا أيضاً على أَنَّهُمْ قَدْ كانَتْ لهم قبل اسْتِماعهم القرآنَ من الرَّسُول ﷺ، شِرْكِيَّاتٌ تَخلَّوْا عَنها، وأعْلَنُوا أَنَّهُمْ لَنْ يَعُودُوا إِلَيْها ولاَ إِلَىٰ مِثْلِهَا.

فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ نَصارَىٰ الجنّ فإنَّ عباداتِهم لعيسَى عليه السَّلام

وأُمّه من الشِّرْك في إلَهيَّة اللَّهِ الواحدة، وإنّ اعْتِقَادَهُم في أَنَّ اللَّهَ ثالِثُ ثَلَاثَةٍ هو من الشّركِ في رُبُوبيَّةِ اللَّهِ الواحدة.

ولو أَنَّهُمْ كَانُوا مِنْ وَثنِيّي الجِنّ، فَشِرْكُهُمْ كَشرك وثَنِيِّي الإنس.

وإذْ قَدْ تَخَلَّوْا عن الشّركِ بربّهم الّذِي يُؤمِنُونَ به رَبًّا خالقاً لاَ شريك له في رُبوبيّته، ولا شريكَ لَهُ في إلَهيَّتِه، فإنَّهُمْ عن سَائِر أنواع الكُفْر الّتي هي أشدُّ من الشِّرْك أَكْثَرُ تَبرِّيًا وابتعاداً، وأكثرُ الْتِزاماً بأن لاَ يَقْرَبُوا شيئاً منها.

القضيّة الخامسة

دَلّتْ علَيْها مقالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾:

في هذه المقالة إشعار بوصولهم إلى قناعَةٍ تامَّةٍ، وقُدْرَةٍ على إقناع غيرهِم من قومهم، بتعالي الله عزّ وجلّ في صفاته السَّنِيَّةِ عَنْ أنْ يَتَّخِذَ صَاحِبَةً أَوْ وَلَداً.

فاتِّخاذُ الزَّوْجَاتِ من صِفاتِ النقْص في المخْلُوقاتِ الحادثات، وإنجابُ الأوْلادِ مُشَارَكَةٌ لِلَّهِ في خصائِصِ ذَاتِه الأزليَّةِ، والله ـ جلّ جلالُهُ وعظُمَ سُلْطانُه ـ مُنَزَّهٌ عن كُلّ ذَلِكَ.

واتخاذُ الأَوْلادِ بالتَّبَنّي افْتِراءٌ على الحقيقة، فالْعَبْدُ المخلُوقُ لا يكونُ ابْناً لخَالِقِه الرَّبُّ سبحانَه وتَعَالَىٰ علوّاً كبيراً.

قراءة: ﴿وَأَنَّهُ﴾ لُوحِظَ فيها الْعَطْفُ على ضَمِير ﴿بِهِۦ﴾ في قولهم ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾: أي: فآمَنَّا بِهِ وَبِأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبّنَا.

وقراءة: ﴿وَإِنَّهُ﴾ لُوحِظَ فيها العطف على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾.

وفي القراءتَيْن تكامُلٌ فِكْرِيٌّ، فإحْدَىٰ القراءتَيْن يُعَبِّرُون بها عَنْ عِلْمٍ يُقَرِّرُونَهُ، والأخرى يُعَبِّرُون بها عَنْ إيمانٍ يُؤْمِنُون به.

﴿تَعَٰلَىٰ﴾: أي: هو بَالِغُ العلوِّ الذي لا حُدُودَ له، ولا نهايةَ له، فَهُوَ مترَفِّعٌ عن كلّ الصِّفَاتِ الّتي لا تَلِيقُ بجَلاله، وأزليّته، وأبَدِيَّتِهِ، ووَحدانيته في رُبوبيّته وإِلَهيَّتِهِ، وأحَدِيّتِهِ وصَمَدِيَّتِهِ، ومُنَزَّهٌ عن الحاجَةِ لِذَاتِه، أو لصفاته.

﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾: الجدُّ في اللُّغَة هو الحَظُّ والغِنَىٰ، وجَدُّ الرَّبّ جلَّ جلالُهُ هو حَظُّهُ من كمال الصّفات الذّاتيَّةِ الَّتِي يتّصفُ بها، وغِناهُ سبحانَهُ بذَاته وصِفَاته عن كلِّ شيْءٍ سِواه، فهو بكمالِ صفاته وبغناه عمَّا سواهُ لاَ يتخذ صاحبَةً، ولا يُنجِبُ ولَداً، ولا يَتَبَنَّىٰ وَلداً.

وعبارة: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ على ما فهمنا منها هي بمثابَةِ الدليلِ العقْلِيِّ الَّذِي يَدُلُّ على أنّه سبحانه ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فتقديمها تَمْهِيدٌ حكيم، وهو من أساليب تقديم الدَّليل قَبْلَ تقرِير الدَّعْوىٰ.

وعبارة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ فيها حَذْفٌ يكْشِفُهُ التَّدبُّر بأناةٍ، والتقدير: ما اتَّخذَ صاحبَة وَلاَ أنجبَ وَلا تبنَّىٰ ولَداً، وهو من قبيل الإيجاز بالحذْفِ، كقَوْل الشاعِرِ:

وَزَجَّجْنَ الْحَواجِبَ والْعُيُونا[1].

أي: وزَجَّجْنَ الحواجِبَ، وكحَّلْنَ الْعُيُون.

وكلمة: ﴿صَٰحِبَةً﴾ تَعُمُّ كُلَّ أُنْثَىٰ تُتَّخَذُ للمُعَاشَرَةِ، سواءٌ أكانَتْ زَوْجَةً أَمْ غَيْرَ زَوْجَة.

القضيَّة السادسة

دلَّتْ علَيْها مَقَالَتُهُمْ: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾:

---

(١) التَّزجِيجُ في الحواجب: جَعْلُها دَقِيقَةً طويلة مُقَوَّسة.

فأبَانَ هَٰؤُلَاءِ النَّفَرُ من الجنّ بمقالَتِهِمْ هَٰذِهِ أنَّ سَفِيهَهُمْ إبْلِيسَ وَكُلَّ مَن اسْتَجابَ لَهُ، واتَّبَعَ كُفْرَهُ بِرَبِّه، كان يَقُولُ علىٰ اللَّهِ قَوْلاً شَطَطاً، أي: بعيداً عن الحقّ جائراً.

وظاهرٌ أنَّ كُلَّ قَوْلٍ بَعِيدٍ عن الحقّ هو باطلٌ وكذبٌ، ومعلومٌ أنّ كُلَّ باطِلٍ وكَذِبٍ يُنْسَبُ إلىٰ اللَّهِ هو كُفْرٌ بذاتِهِ أو بصِفَاتِهِ، أو بحَقّ رُبُوبيَّتِهِ أَوْ إلَٰهيّتِهِ.

قُرِىء كما سبَقَ بيانُهُ مَعَ نَصِّ السّورة بفتح همزة ﴿وَأَنَّهُ﴾ وبكَسْرِها، وسبَقَ توجيهُ القراءتين في نظيرَتَيْهِمَا في القضيَّة الخامسة.

الشَّطَطُ: هو في اللّغة البُعْدُ، وتجاوز الحدّ، والجوْرُ، وكُلُّ مَا بَعُدَ، وتجاوز حُدودَ الحق، وجارَ عن الطريق السّويّ، فهو باطلٌ، وهو في الأخبار كذب.

﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ هو من التنازعُ عنْدَ النحويّين، فيجوز عِنْدهم أن يكونَ لفظ «سَفِيهِ» من ﴿سَفِيهُنَا﴾ اسْمَ ﴿كَانَ﴾ أو فاعل [**يَقُولُ**] ويُقَدَّرُ للآخر ضَمِيرٌ مُلائِمٌ.

أقول: هذا من الإيجاز في اللّفظ، ويُمْكِنُ اعْتِبَارُ جُمْلَةِ ﴿يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ سَادَّةً مَسَدَّ اسْم كان وخَبَرِها.

السَّفِيه: هو في اللُّغَةِ ناقِصُ الْعَقْل، الَّذِي لا يُحْكِمُ أَمْرَه بِرُشْدٍ، فيُجَانِبُ الحقَّ والصَّوَابَ وسبيلَ الْهُدَىٰ.

وإبليسُ إمَامُ سُفَهَاءِ الجنّ، إذْ عَرَّضَ نَفْسَهُ للطّرْدِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، ومنَازِلِ الْقُرْبِ منْ رَبّه، وللعذابِ الأبَدِيّ، والشقاء الدائم، إرْضاءً لنزعَةِ الكِبْرِ والْحَسَد في نَفْسِه، إذْ رَفَضَ أمْرَ رَبّه لَهُ بأَنْ يَسْجُدَ لآدم، وجَحَد حَقَّ اللَّهِ على عباده في طاعَتِه بمَا يشاء.

وهَٰذَا من فَرْطِ سفاهَتِه، وقِلَّةِ عقْلِهِ الإرَادِيّ، إذْ لَمْ تَقْوَ إرادَتُهُ على ضَبْطِ جماحِ هواهُ في الكِبْرِ والحسَدِ، معَ وَفْرَةِ ذكائه العِلْمِيّ وواسِعِ حيلَتِه.

ويتْبَعُ إبليسَ في السَّفَاهَةِ كلُّ كفرَةِ الجنّ الّذِين اتَّبَعُوا سُبُلَه، وعبارة: ﴿سَفِيهُنَا﴾ تَعُمُّ كُلَّ كَفَرَةِ الجنّ، مُتَنَاوِلَةً إبْلِيسَ إمَامَهُمْ أوَّلَ مَا تتناول.

أمَّا الشَّطَطُ الّذي أضَلَّ بِهِ إبْلِيسُ كفَرَةَ الجنّ، فيَدْخُلُ فيه كُلُّ قَوْلٍ يتضمَّنُ وصْفَ الله عزّ وجلَّ بما هُو مُنَزَّهٌ عنه في ذاته، أو في صفاته، أو في أفعاله، أو في أوامره ونواهيه وشرائعه لعِبَادِه، وتصاريفهِ في كَوْنه، ونَحْو ذلكَ مِنْ كُلّ ما فِيه طَعْنٌ أوْ تشكيكٌ في حكمته.

ويَدْخل فيه كلُّ قَوْلٍ يَتَضَمَّنُ إنكارَ أوْ جُحودَ وَصْفٍ ما، من صفاتِ الكمال الثابتة له.

وكُفرِيَّاتُ الجنّ مُشَابِهَةٌ لكُفرِيَّاتِ الإنسِ، إذْ مِنْ شأنِهِمْ أنْ يُوْحِيَ بعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ زُخْرُفَ القول غروراً، كما جاء في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾.

القضيَّة السابعة:

دلَّتْ علَيْها مقالَتُهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾﴾.

قُرِىء كما سبَقَ بيانُه مَعَ نصّ السّورة بفَتْحِ هَمْزَة: ﴿وَأَنَّا﴾ وبِكسْرِها، وقَدْ سبَقَ تَوجيه القراءتَيْن في نظيرَتَيْهما في القضيَّةِ الخامسة.

أبانت هذه المقالة أنّ هؤلاء النَّفَرَ مِنَ الجنّ كانُوا مَخْدُوعينَ بأقْوالِ

كَانُوا يَسْمعُونها من الإنْسِ ومِنَ الجنّ، وفيها كذِبٌ عَلَىٰ الله، فيقْبَلُونها، ظانِّينَ ظَنًّا تَوَهُّمِيًّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الإنسُ والجنُّ علىٰ اللّهِ كَذِباً، فَلَمَّا اسْتَمَعُوا القرآن الْعَجَب من الرَّسُولِ مُحمَّدٍ ﷺ، تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ مَا كانُوا يَسْمَعُونَه مِنَ الإنْسِ والجِنِّ من أقوالٍ على الله، ومنْها أقوالُ الْيَهُودِ والنصارىٰ، وأقوالُ الْوَثَنِيّينَ هيَ أقوالٌ كاذِبَةٌ باطِلَةٌ، إذ كانت مضادَّةً لما جاء في كتابِ الله القرآن، فَمَنِ اعتقدها وآمَنَ بها كفَرَ بربِّه.

وكما دلَّتْ هٰذِهِ العبارة على أَنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ اسْتماع القرآنِ مَخْدُوعين بأقوالٍ كُفْرِيَّةٍ كَاذِبَةٍ كَانُوا يسمعُونها من الإنْسِ والجنّ، فقد دلَّتْ أيضاً على أنَّهم قَدْ كَفَرُوا بِها الآن، وآمَنُوا بما جاءَ في القرآن.

وقرأ يعْقُوبُ فقط: [أَنْ لَنْ تَقَوَّلَ]: أي: لَنْ تَتَقَوَّلَ، التَّقَوُّلُ: هو افتراء القول، واخْتِلاَقُه.

وبَيْنَ القراءتَيْنِ ﴿تَقُولَ﴾ و [تَقَوَّلَ] تَكَامُلٌ في أداء المعنىٰ المراد.

فقِرَاءَة الجمهور: ﴿تَقُولَ﴾ دلَّتْ على الأقوال الّتي ينْقُلَها الإنْسُ والجنُّ حكايةً وروايةً عن غيرهم، دُونَ أن يتحقَّقُوا من صِدْقها، ولَيْسُوا هُمُ المفترين لها، وكان يجب عليهم أن لا يَنْقُلُوا أقوالاً تَتَعلَّق بالله دون تحرّي أن تكون حقًّا.

وقراءة يعقوب: [تَقَوَّلَ] بتشدِيد الواو المفتوحة، دَلَّتْ علىٰ الأقوال التي يَفْتَريها ويخْتَلِقُها الإنْسُ والجِنُّ على الله عزّ وجلّ.

قدّموا الإنس في عبارتهم لشعورهم بأنّ الإنْسَ أفضلُ من الجنّ بأصل تكوينهم.

القضيّة الثامنة:

دلّت عليها مقالتهم: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾:

قُرِىء كما سبَقَ بيانه مع نَصِّ السورة بفَتْحِ همزة ﴿وَأَنَّهُ﴾ وبَكَسْرِها، وقد سبَقَ توجيهُ القراءَتَيْنِ في نَظِيرَتيهما في القضيَّة الخامسة.

وقد أبَانَتْ هذه المقالةُ من مقالاَتِ النفر من الجنّ أمراً واقعاً كَانَ يَجْرِي بين الإنس والجنّ، وهو أنّ رِجالاً من الإنْسِ الَّذِين هم أحْسَنُ تَقْوِيماً من الجنّ، وأكثر علماً وذكَاءً، كَانُوا يَلْجَؤُونَ إلىٰ رجالٍ من الْجِنّ، مستعيذين بهم، ليُعِينُوهم وليُعِيذوهم مِمَّا يخافون، وذلكَ من فساد مَفْهُومَاتهم وتصَوُّرَاتهم عَنْ عالَم الجنّ، وكَانَ الرّجالُ من الجنّ يَزِيدون المستعيذين بِهِمْ من الإنْسِ سَفهاً وحَمَاقَةً، وجَهْلاً وإثماً، وعَنَاءً بتكاليفَ ثقيلَة، ويَزيدونَهُم من رُكُوبِ الشّرّ، وغِشيَان المآثم والمعاصِي والشّركيّات.

ويُشْعِرُ هذا البيان بأن هؤلاء النفر يسْتَخِفُّون ويَسْتَهِينُون بالإنْسِ الذين يَعُوذُون بالجنّ.

﴿يَعُوذُونَ﴾: أي: يَلْتَجِئُون، ويَعْتَصِمُون، برِجال من الجنّ، ويلازمون الالتصاقَ بهم.

يقال لغة: عَاذ به، يَعُوذُ، عَوْذاً، وعِيَاذاً، أي: الْتَجأ إليه، واعْتَصَمَ به، ولَزِمَه، رَجاءَ الحِمايَةِ وتحقيق المطالب.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾: أي: فزادُوهُم تَعَباً، وسَفهاً، وحَمَاقَةً، وجهلاً وإثماً، وضلالاً.

الرَّهَقُ: يأتي في اللُّغَة بمعنى: السَّفَهِ، والْحَمَاقَةِ، والْجَهْلِ، والإثْم، وحَمْلِ المشاقّ والمتْعِبَات، ورُكوبِ الشرّ والظُّلْمِ، وغشيان المحارم، وارتكاب كبَائر الإثم.

ويَدْخُلُ في هذا مُمَارَسة الشّرْكيّات وسَائر الكُفريَّات.

ويُقَالُ لغة: أرْهَقَ فُلانٌ فُلاَناً، إذَا حَمَّلَه ما لا يُطِيقُ.

والرَّهَقُ: مَصْدَرُ «رَهِقَ، يَرْهَقُ».

وهذا البيان من هؤلاء النفر من الجنّ بعبارَةِ الفِعْلِ الماضي: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ﴾ لاَ يُفِيدُ تَوَقُّفَ هٰذا الأمْر، إذْ هٰذِهِ الاستعاذَةُ بالجنّ من قبلِ الإنْسِ مَا زَالَتْ، ولَنْ تَزَال ما دَامَ في الأرْضِ عُصَاةٌ لِلَّهِ ولِرَسُوله.

فالنفر من الجنّ قد عَبَّروا عَنْ أَمْرِ عَلِمُوهُ ممَّا مضَىٰ، ولم يَتَحَدَّثُوا عن المستقبل وما سيجري فيه، إذِ المستقبل غَيْبٌ بالنّسَبَةِ إليهم.

رُوي عن الحسَنِ وابْنِ زَيْدٍ وغيرهما: أَنّه كان من استعاذات العرب في الجاهلية، أنّه إذا نَزَلَ الرَّجُلُ منهم بوادٍ قال: أعُوذُ بسَيِّدِ هذا الوادي من شرّ سُفَهاءِ قَوْمِه، فيَبِيتُ بجواره حتَّىٰ يُصْبح.

ويؤكِّدُ المشتَغِلُون بموضوعِ أعْمالِ السَّحَرة، وأَعْمَال الَّذِينَ يتّصلون بالجنّ، لاستخدامهم في بعْضِ ما يُريدون منهم، أنّ الجنَّ الّذين يَلْجَؤُون إليهم، لا يُؤَدّون لهم الخدمات المطلوبة منهم، ما لم يَقُمْ مستخدموهم بأعمال أو أقوالٍ فيها شِرْكٌ، أو فيها بعْضُ كبائِرِ الإثم، مع أعْمالٍ أخْرىٰ فيها حماقة وسَفَهٌ وَجَهالة.

فهم بهٰذِهِ الأعمال والأقوال الّتي يطْلُبُونَ منهم تنفيذها يَزِيدونَهُمْ رَهَقاً، أي: يزِيدونهم سَفَهاً وحَماقةً وجهلاً وإثماً، وفي معظم الأحوال يأمُرُونَهُمْ بعزائم من أقوالٍ غير مفهومة، وهي ذاتُ مضامين شِرْكِية في لغةٍ قد تكون من اللّغات القديمة، أو يأمُرونهم بأعْمالٍ هي من الكفْرات العملية، كإلْقَاءِ القرآن الكريم أو آيات منه في النجاسات.

ومعظم الجنّ الذين يحضُرُونَ بالعَزَائم القولية للمستعيذين بهم من الإنس، هم من الشياطين الكَفَرة، جنُودِ إبليس علَيْهم لعنَةُ الله والملائكة والمؤمنين أجمعين.

وهؤلاء الجنّ الّذِين يحضُرون للمستعيذين بهم من الإنْس بالعزائم، قد

يُوهمون المستعيذين بهم أنّهم من الملائكة، وقد يطلُبون منهم عبادتهم، أو عبادة سيّدهم، وهو في الحقيقة الّتي يقْصِدُونها إبليس عَلَيْه لعْنَةُ الله، وقد يطلبون منهم عبادة وثَنٍ أو صخرة أو شجرة أو حيوان أو إنسانٍ حيٍّ أو ميّت.

وعبارة: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ تفيد أنَّ الجنَّ فيهم رجالٌ ونِسَاء، وأنَّهُمْ يتزاوجُونَ، ويتناسلون كالإنس.

وبما أنَّهم يُشْبِهُون في صفاتهم النفسيَّة الإنس، وهم موضوعون موضع الامتحان في الحياة الدنيا كالإنس، وإنْ نزلَتْ رُتبتُهم عن الإنْسِ بوجْهٍ عامٍّ، وبما أنَّهم يتكلَّمُون بلُغَاتِ الإنس على اختلاف أَلسنَتِهم، مع احتمال أن تكُونَ لهم لُغَاتٌ خاصة يتخاطبون بها، فليس من المستغرب أن يُسَمُّوا ذُكُورَهم البالغين رجالاً، وأنْ يُسَمُّوا إناثهم البالغات نساء، أو يَكُونُ النصُّ القرآنيُّ تَرْجَمةً لما قالوا. فلا يُقَال إنّ لفظة «رِجَال» خاصَّةٌ بالذكُورِ البالغين من الإنس.

أمّا الملائكة فبما أَنَّهُمْ لاَ يتناكَحُونَ ولا يَتَناسَلُونَ، فلَيْسَ فيهم ذُكُورٌ ولاَ إنَاث، ولا رجالٌ ولا نساء.

وأمّا ذُكورُ وإناثُ البهائم فلا يُقالُ لمَنْ بلَغَ مِنْها رِجَالٌ وَلاَ نِسَاء، لأنَّها غيْرُ عاقلة، وغير موضوعة في الحياة الدُّنيا موضع الابتلاء.

وبهذا التحليل يَسْقُط الاعتراض، وتندفع الإشكالات، ويثبتُ أنَّ في الجنّ رِجالاً ونساءً، وأنَّهم يَتَنَاسَلُونَ، وأنَّ لهم ذُرّيات، ولهذا أبان الله عزّ وجلّ أنّ لإبْليس ذُرّيَّةً يُضِلُّون ويُغْوُونَ بالوسوسة والتسويل، فقال اللّهُ عزّ وجل في سورة (الكهف/١٨ مصحف/٦٩ نزول):

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾.

القضيّة التاسعة

دلّت عليها مقالتهم: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧﴾:

قُرِىء كما سَبَق بيانه مع نصّ السُّورَة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وبكَسْرِها، وقد سَبَقَ تَوْجِيهُ القراءتَيْن في نظيرتيهما في القضيّة الخامسة.

فأبانَ هٰؤلاَءِ النفرُ من الجنّ لِقَوْمِهم أَنَّ الإنسَ الَّذِينَ يقُولُونَ على اللَّهِ كَذِباً مثْلَ نُظَرائهم من الجنّ، قَدْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ لِيَوْم الحسَابِ أحداً، فَلاَ حِسَابَ، ولاَ فَصْلَ قَضاءٍ، ولاَ تَنْفِيذ جزاء.

أقول: ومِنْ شأن هذا الظَنّ التَوهُّمِيّ الباطل، المنكر لبراهين العقل، وأنباء الدِّين الّتي بلّغها عن رَبّ العالمين، جميعُ الأنبياء والمرسَلِين، أنْ يجعلَ صاحبَهُ عَاصِياً لله، غَيْرَ متَّبع ما أنزل لعباده في كُتبِه، وبلَّغها عَنْهُ رُسُلُه، وأن يجعَلَهُ منطلقاً في ارتكاب الآثامِ فاجراً، وأَنْ يُزَيِّنَ لَهُ الشّركيَّاتِ الّتي يتوهَّمُ أنّها تنفَعُهُ في الحياة الدنيا. ومنها بعْضُ الخدمات الحقِيرَاتِ الّتي تُقَدِّمُها له الشياطين.

فالإيمان بالبعث للحساب وفصْل القضاء وتنفيذ الجزاء، هُو الرّادِعُ الْأَكْبَرُ للمخلُوق المدْرِكِ ذي الإرادة الحرَّة، الموضوع موضع الابتلاء في ظُرُوف الحياة الدُّنيا.

وقد اهتمّ هؤلاء النَّفَرُ ببيَانِ رُكْنِ الإيمان بالبعثِ، لإيمانهم بأنّ الجِنَّ سَوْف يُبْعَثُونَ ويُحَاسَبُونَ ويُجَازَوْن، كما سَوْفَ يُبْعَثُ الإنْسُ ليَوْمِ الدّين.

وأُأَكِّدُ هُنَا أَنَّ مُؤْمِني الجنّ المتَّقِين هُمْ من أصحاب الجنة كالمؤمنين المتّقين من الإنس، كما أنّ كفّارَهُمْ وعُصاتَهم يُعَذَّبُونَ في جهنم كنظرائهم من الإنس.

ورأىٰ بعْضُ أَهْل الاجتهاد وأَهْلِ التأويل أَنَّ الجنَّ يُعَذَّبُونَ فِي النّار

على كُفرِهِمْ ومعاصيهم، لكنَّهُمْ لاَ يَدْخُلون الجنَّةَ إذا آمَنُوا واستقاموا وعَمِلُوا الصَّالحات، فثوابُهُمْ يكون بالنجاة من عذاب النار.

أما جُمْهُورُ أهْل العلم من أهل الاجتهاد، وجُمْهُورُ المفسّرين، فقالوا: الجنُّ كالإنْس في الابتلاء وفي البعث، وفي الحساب، وفَصْلِ القضاء، وتنفيذ الجزاء، فسُنَّةُ الله في النوعَيْنِ سَواء.

وأقول: بما أنّ الجنّ ممتَحنُون في الحياة الدّنيا بالإيمان والإسلام والعبادة كالإنْس، وبما أنَّ خصائِصَهُمُ النفسيَّة مُشابهة لخصائصِ الإنس، في اللّذَّاتِ والآلام، والأهواء والشهوات، والإدْرَاكِ وحُرِّيَّةِ الإرادة، فإن مِمَّا يَنْبَغي أنْ نُدْرِكه أنّ حِكْمَةَ الله ـ جلَّ جَلالُه ـ تقضي بأن يكونَ لمؤمِنيهِمْ في الآخرةِ ثوابٌ بنعيم في الجنة، كما أنّ لكفَّارهم وعُصَاتِهِمْ عِقاباً وعذاباً أليماً في النار، والمتقون من الجنّ يدخلون في عموم المتقين الذين أعدّت لهم جنات النعيم.

وقدْ ثبت في قواطع النّصوصِ أنَّ الجنّ يُحْشَرُونَ ويُحَاسَبُونَ علىٰ ما كَسَبُوا واكْتَسَبُوا في الحياة الدنيا، وفيما يلي طائفة منها:

(١) قول الله عزّ وجلّ لإبْلِيسَ رَئيسِ شياطين الجنّ، حِينَ أَلْزَمَ نَفْسَه بإغواء بَنِي آدم، في سورة (صَ/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (السَّجْدَةِ/ ٣٢ مصحف/ ٧٥ نزول):

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾.

(٣) وقول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ. . . ﴿٣٨﴾﴾.

هذا الخطاب يُوجَّهُ يوم الدِّين بَعْدَ الحساب، وفَصْلِ القضاء، من الله جلّ جلالُهُ، للّذِينَ كذَّبوا بآياتِه الّتِي أَنْزَلها على رسُولِهِ محمَّد ﷺ، وهو يشمل الإنْسَ والجنّ.

(٤) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

(٥) وقول الله عزّ وجلّ في سُورَة (الرَّحْمٰن/ ٥٥ مصحف/ ٩٧ نزول) مُبيناً بَعْضَ الثواب الذي يُخَصَّصُ لكُلّ مُؤمِنٍ اتَّقىٰ الله وَخَافَ مقامه يوم الدّين:

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾.

ومعلوم أنّ مُتَّقِي الجنّ ممَّنْ خاف مَقَام رَبه.

(٦) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (الرحْمٰن) أيضاً:

﴿فِيهِنَّ قَـٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾: أي: لَم يَفتَضّ بكارَتَهُنَّ إنسٌ قَبْلَ أَزْواجهنَّ الَّذِين هُنَّ مُخَصَّصَاتٌ لهم في الجنّة إنْسٌ وَلاَ جَانٌ.

الطَّمْثُ: جماعٌ تفضُّ به البكارة.

ولولا أنّ مُؤمِنِي الجنّ يَدْخُلُونَ الجنَّة، ولو لَمْ يَكُنْ فيهم رجالٌ يباشرون الزَّوْجات كالإنس، لمَا كان لهذا الاحتراز فائدة.

ولهذا النّصّ دلالَةٌ أُخرى، وهي أنّ رجال الجنّ لهم زوجاتٌ في الجنَّة مُخَصَّصات لهم، لم يطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبْلَهُمْ وَلاَ جَانٌ. ويَدُلُّ أيضاً على إمكان التزوج بين الجنّ والإنْس، ولو ضِمْن شُرُوطٍ خاصّة.

القضيّة العاشرة

دلّت عليها مقالتهم: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾﴾.

قُرِىء كما سبق بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا﴾ وبكسرها، وقد سبق توجيه القراءتين في نظيرتيهما في القضِيَّة الخامسة.

فأبَان هؤلاء النّفَر من الجنّ في دعوتهم قوْمَهُمْ إلى الإيمان بالقرآن وبالرسول محمّد ﷺ، وبما جاء به عن ربّه، أنّهم ارتقَوْا حتى لَمَسُوا السَّماءَ لاسْتِراقِ السَّمْعِ من الملائكة كعادتهم السابقة فوجَدُوا السَّماء قَدْ مُلِئت حَرَساً شدِيداً، ومُلِئَتْ شُهُباً تلاحق مُسْتَرِقي السَّمْعِ من الجنّ بالرَّجم بالشُّهُب.

فدلَّت هذه المقالة على أَنَّ هؤلاء النّفَرَ هم من فئِة الجنّ الطيّارين، الذين لهم قُدْرةٌ على الارتقاء في الجوّ باتّجاه السَّماء الدنيَا لاستراق السّمع، فهم يُخْبِرُونَ عَنْ ظاهرةٍ جَدِيدَةٍ في السماء، وهي امتلاءُ كُلّ الأماكن التي كانُوا يسْتَرِقُون السَّمْعَ مِنَ الْمَلاَئِكةِ إذا وصَلُوا إليها، لمنْعِهم من الاقتراب واسْتِراقِ السّمع.

﴿لَمَسْنَا﴾ **اللَّمْس**: هُوَ المسُّ باليَد، يقال لغة: لمَسَهُ يلْمِسُه ويَلْمُسُه، أي: مَسَّه بيده، ولاَمَسَهُ مُلاَمَسَةً ولِمَاساً، أي: تشاركا في المسّ، فكُلٌّ منهما مَسَّ الآخر.

فيظهَرُ أنَّ ارتقاءَهُمْ لم يكُنْ يزيد على بلُوغ مواطِنِ المسّ، دُونَ الدُّخول في السَّمَاء، حيْثُ الملائكَةُ مُنْتَشِرُونَ يَعْبُدون ربّهم.

﴿مُلِئَتْ﴾: التَّعبير بالملْء قَدْ يَدُلُّ على أنَّه كان في السَّماءِ حَرَسٌ، وكَانَ الجنّ المسترقون للسَّمْعِ يُطْرَدُون رجماً بالشُّهب، لكنّها لم تَكُنْ مَمْلُوءَةً بالْحَرَسِ والشُّهُب، بل كان فيها أماكِنُ غيْرُ مَحْرُوسة.

﴿حَرَسًا﴾: مُفْرَدُهُ «حَرَسِيٌّ» فهو اسْمُ جِنْسٍ جمعيّ، يوصف بالمفرد وبالجمع. **الْحَرَسُ**: هم الجنْدُ الّذين يُرَتَّبُون لحفظ ذي السلطان وحراسَتِه. وَوُصِف لفظ ﴿حَرَسًا﴾ بلفظ ﴿شَدِيدًا﴾ أي: قَوِيًا، صَعْباً، عظيمَ القدرة.

﴿وَشُهُبًا﴾: الشُّهُبُ: جمع «شِهاب» وهو الشعلة السّاطعة من النار.

والنجم المضيء اللامع. وجِرْمٌ سماويٌّ يسْبَحُ في الفضاء، فإذا دخل في جوّ الأرض جذبته الأرض فاشْتَعَل وهو ينْطَلِقُ كالسَّهم وصَارَ رَماداً.

فإذا كان المرادُ بالشُّهُب الأجرام السَّماويَّةَ السّابحةَ في الفضاء، وأنّها هي التي تُلاحِقُ مسترقي السّمع بالرَّجْم، كان مُسْتَرقُو السَّمْعِ من الجنّ لا يجاوزون في ارتقاءاتهم آخِرَ حدود الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، وهذا يُطْلَقُ علَيْه لفظ «السماء» في اللّغة.

ويَشْهَد لهذا ما رواه الإمام مُسْلِمٌ عن عبد الله بن عبّاسٍ قال: أَخْبَرَنِي رجُلٌ من أصحاب النبيّ ﷺ من الأنصار، أنّهم بَيْنَما هُمْ جُلُوسٌ لَيْلَةً مع رَسُولِ الله ﷺ، رُمِيَ بِنَجْمٍ فاسْتَنَارَ. فقال لهم رسُول الله ﷺ:

«مَاذَا كُنتُمْ تَقُولُونَ في الجاهِليَّةِ إِذَا رُمِيَ بِمِثْل هٰذَا»؟.

قالوا: اللّهُ ورسُولُهُ أعْلَمُ، كُنَّا نَقُولُ: وُلِدَ اللَّيْلَةَ رَجُلٌ عَظِيمٌ، ومَاتَ رَجُلٌ عظيم.

فقال رسول الله ﷺ:

«فَإِنَّها لاَ يُرْمَىٰ بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، ولَكِنْ رَبُّنَا تبارَكَ وَتَعَالى اسْمُهُ، إِذَا قَضَىٰ أَمْراً سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أهل السَّمَاءِ الَّذِينَ يَلُونَهمْ، حَتَّىٰ يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ أَهْلَ هٰذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيا.

ثُمَّ قَالَ الَّذِينَ يَلُونَ حَمَلَةَ الْعَرْشِ لِحملَةِ الْعَرْشِ: مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟.

فَيُخْبِرُونَهُمْ مَاذَا قَالَ».

قال: «فَيَسْتَخْبِرُ بعْضُ أهْل السماوات بَعْضاً، حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْخَبَرُ هَٰذِهِ السَّمَاءَ الدُّنيا، فَتَخْطَفُ الجنُّ السَّمْعَ، فَيَقْذِفُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ، ويُرْمَوْنَ به، فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ، ولكِنَّهُمْ يَقْرِفُونَ فِيهِ وَيَزِيدُونَ».

يَقْرِفُونَ: أي: يكْذِبُ أولياؤهم من الإنس، ويُخَلِّطُون.

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ المراد بالشُّهُبِ الأَجْرَامُ السَّمَاويَّة الّتي تَسْبَحُ في الفضاء فوق الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، فإذا دخل الواحد منها في جَوّ الأرض، اشْتَعَلَ وتَوَهَّج، وهذه هي التي جعلَها الله رُجوماً للشياطين، وكان أهل الجاهلية يُسَمُّونَ هٰذِهِ الشُّهُبَ نُجُوماً، وظاهر أنَّ لها وظيفتين: وظيفَةَ تَزْيِينِ السماء، ووظيفة رَجْمِ الشياطين، مُستَرقي السَّمْعِ من الملائكة إذا وَصَلُوا ضِمْنَ الْغِلاَفِ الغازي المحيط بالأرض، إلى حَيْثُ يُبَلّغُ بَعْضُ أهْلِ الملأ الأعلَىٰ مَلائِكَةَ الأرض مَا قضاه اللّهُ عزّ وجلّ، لِيَقُومَ كلُّ ذي وظيفَةٍ مِنْهُمْ بوظيفته في الأرض، ضِمْنَ نظام الأسباب والمسبَّبات الّتي جعَلَها الله في كونه، وهو جلَّ وعَلا الخَلاَّق الفعَّالُ لما يشاء، من خلالِ قنواتِ الأسْباب.

وعلى مَا جاء في هذا الحديث يُمْكِنُ حمْلُ مَا رَواه البخاريُّ عَنْ أبي هريرة أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:

«إِذَا قَضَىٰ اللّٰهُ الأَمْرَ في السَّمَاء، ضَرَبَتِ الْمَلاَئِكَةُ بأجْنحِتِها خُضْعَاناً لِقَوْله، كالسِّلْسِلَةِ عَلَىٰ صَفْوان، فإذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبهم[1]، قَالُوا: مَاذَا قَالَ رَبُّكُم؟.

قالُوا للّذِي قَالَ: الْحَقَّ، وهُوَ الْعَلِيُّ الكَبِيرُ، فَيَسْمَعُها مُسْتَرِقُو السَّمعِ، ومُسْتَرِقُو السَّمعِ هَكَذَا واحِدٌ فَوْقَ آخر».

ووَصَفَ سُفْيَانُ[2] بِيَدِهِ، وفَرَّجَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ الْيُمْنَىٰ، نَصَبَ بَعْضَهَا فَوْقَ بَعْضٍ.

«فَرُبَّمَا أَدْرَكَ الشِّهَابُ المسْتَمِعَ قَبْلَ أَنْ يَرمِيَ بِهَا إِلَىٰ صَاحِبِهِ فيُحْرِقَهُ، ورَبَّمَا لَمْ يُدْرِكْهُ حَتَّىٰ يَرْمِيَ بِهَا إِلَىٰ الَّذِي يَلِيهِ، إِلَىٰ الّذِي هُوَ أَسْفَل مِنْهُ،

(١) فُزِّعَ عن قلوبهم: أي: أُزيلَ الفزع عنها.
(٢) أَحَدُ رواة الحديث عن أبي هريرة.

حَتَّىٰ يُلْقُوها إِلَىٰ الْأَرْضِ، فَتُلْقَىٰ عَلَىٰ فَم السَّاحِرِ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَةٍ، فَيُصَدَّقُ، فيقولُون: أَلَمْ يُخْبِرْنَا: يَوْمَ كَذَا وكَذَا، يَكُونُ كَذَا وَكَذَا، فَوَجَدْنَاهُ حَقًّا؟ لِلْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعتْ مِنَ السَّمَاءِ».

وروى البخاريّ عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إِنَّ الملائكة تَنْزِلُ في الْعَنَانِ[1]، فَتَذْكُر الأَمْرَ قُضِي في السَّمَاءَ، فتَسْرِقُ الشَّيَاطِينُ السَّمْعَ، فتَسْمَعُهُ، فَتُوجّهُهُ إلىٰ الكُهّان، فَيَكْذِبُونَ مَعَها مِئَة كَذْبَةٍ مِنْ عِنْدِ أنفسهم».

ويَدُلُّ على أنَّ هؤلاء النفر من صنف الجنّ الطّيّارين، بيانُ أنّهم كانُوا يَرْتَقُونَ لاستراق السَّمْعِ من الملائكة الذين ينْزِلُون في العنان، وما رُوِيَ عن النبيّ ﷺ من أنّ الجنّ علَىٰ ثلاثة أصناف، ومنهم صنف طيّارون لهم أجنحة يطيرون بها في الهواء.

أخرج البيهقيُّ في الأسماء والصفات، بإسناد صحيح، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْر، عن أبي ثعْلَبَةَ الخُشَنِيّ قال: قال رسول الله ﷺ:

«الْجِنُّ عَلَىٰ ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: صِنفٌ لَهُمْ أَجْنِحَةٌ يَطِيرُونَ بِهَا في الْهَوَاءِ، وصِنْفٌ حَيَّاتٌ وَكِلَابٌ، وصِنفٌ يَحِلُّونَ ويَظْعَنُونَ».

وأَخْرَجَ الحاكم في المسْتَدْرَكِ نَحْوَهُ، وصَحَّحَهُ، وتابَعَهُ الذهبيّ.

ويظْهَرُ أنّ العِفْرِيتَ[2] من الجِنّ الّذِي عَرَض على النبيّ سليمان علَيْهِ السّلام، أنْ يأتِيَهُ بِعَرْشِ بِلْقِيس، قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَقامِهِ في مَجْلِسِ الحكْمِ كانَ من صِنْف الجنّ الطَّيَّارِين.

---

(١) **العنان**: ما يبدو لَكَ من السّمَاء إذا نظرت إليها. **والْعَنَانُ**: السّحاب.

(٢) **العفريت**: القويُّ الماكر.

فَمِنْ جُمْلَةِ النصوص، معَ تتبُّعِ البحوث العلميَّةِ الإنْسَانِيَّةِ عَنِ السَّماء، تَبَيَّنَ لِي أنَّه قَدْ يُرادُ بالسَّمَاءِ الدُّنيا الغِلاَف الهوائيّ الغازي المحيط بالأرض، فهو في اللّغَة يُسَمَّىٰ سماءً، إذْ كُلُّ مَا عَلاَ فأَظَلَّ فَهُوَ سماءٌ في اللُّغَة، ومَعْلُومٌ أنَّ أوّلَ عُلُوٍّ فوْقَ سطح الأرض هو هذا الغلافُ الغازي، وقد تبيَّنَ لي أيضاً، أنَّهُ قد يُرادُ بلفظ النجوم في النُّصُوص، مَا كانَ العربُ يعتبرونه من النجوم، وهيَ في الحقيقة أجْرامٌ وَكُتَلٌ صَخْرِيَّةٌ مُنْبَثَّةٌ في الفراغ فوق الغلام الغازيّ حَوْلَ الأَرْض، ودُونَ مَجَالِ الكواكِب التابعة للشمس، وهي من مجموعَتِها كالأرض، وتَجْرِي في أَفْلاَكِ حوْلها.

فمُسْتَرِقو السَّمْعِ من الجنّ لا يتجاوَزُونَ هذا الغلاف، وهُمْ يُرْجَمون من هٰذِه الأجْرام، فإذا دَخلَتْ هذه الأجرام الغلاف الجويّ التهبت وسَطَعَ ضَوْؤُها، وطَرَدَتِ المتَسمِّعِينَ، لَذْعاً بالنار، إذْ تَكونُ شُهُباً مُوَجَّهَةً عليهم فتَؤدّي في أَعْيُنِ الناس في الأرض وظيفَة التزيين، مع النجوم العظمىٰ التي في المجرّاتِ، وتُؤدّي وظيفة رَجْمِ مُسْتَرِقي السَّمْعِ من الجنّ، بأمْرِ خفيٍّ عَنْ إحْسَاسَاتِنا.

وهل رَجْمُ مسْتَرِقي السَّمْعِ من الجنّ بالشُّهُبِ يكُونُ سَببا في قَتْلِهِمْ، أو لاَ يَقْتُلُهم، بَلْ يَمَسُّهُمْ بحَرِيق، أو يوقِعُ بِهِمْ عذاباً مضْنِياً؟.

أقول: يُمْكِنُ أن يَقْتُلَ بعْضَهُمْ، ويُمْكِنُ أَنْ يَقْتَصِرَ على إنْزَالِ الضَّرَرِ والعَذاب بِهِمْ مِنْ دُون القتل، فالنُّصُوصُ ليسَ فيها تصريحٌ بأنَّ طَرْدَهُمْ بالشُّهُبِ يُسَبِّبُ قَتْلهِمْ، فاحتمال الأمرَيْن قائم، والغرض أن يكونُوا مَعْزُولِينَ عن تَلَقِّي ما يَنْزِلُ من السماء على أَلْسِنَةِ أهْلِ الملأ الأعلى، لإعْلاَم المَلأ من ملائكة الأرض، بما قضاهُ الله.

نظرة تدبّرية إلى النصوص القرآنية بشأن حفظ السَّماء من الشياطين:

وضِمْنَ هٰذا الذي تبيَّنَ لي يُمْكِنُ فَهْمُ مَا جاء في القرآن المجيد، حول هذا الموضوع، ولَدَينا أَرْبَعَةُ نُصُوصٍ مُوزّعَة في أربع سُور:

النصّ الأول:

قولُ الله عزّ وجلّ في سورة (الشعراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول) في معرض الحديث عن القرآن:

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ﴾: أي: وَمَا يَسْهُل لهم التوصُّلُ إلَىٰ تَلَقِّي القرآنِ من ملائكة، ومَا يَصْلُحون لمثل هذا التلَقِّي حتَّىٰ يَتَنَزَّلوا به، فهم مَعْزُولُونَ بسُلْطَانِ الْقَهْرِ الرَّبَّاني عن هٰذا التلَقِّي، وعَنْ هٰذَا التنزُّل.

النصّ الثاني:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الحجر/ ١٥ مصحف/ ٥٤ نزول):

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾.

من المعلوم علميًّا أنَّ نُجومَ السَّماءِ الموزَّعَةَ في مَجَرَّتنا، ومَا فَوْقَها، لا تَظْهَرُ زِينَتُها لأَعْيُنِ الناظِرِين في الأرض، إلاَّ بوساطة الخصائصِ التي خَلَقَها اللّهُ عزّ وجلّ في الغلاف الْغَازيّ حول الأرض، ولولاَهُ لم تَكُنْ زينَةً للناظِرين.

وقَدْ حفظ الله السَّماءَ بَدْءاً من نهايات الغلاف الغازي، الذي جعله الله محيطاً بالأرض، من كُلِّ شيْطان مَرْجُومٍ مطرود، فهو لا يسْتَطِيعُ أن يَسْتَرِقَ السَّمْعَ من ملائكة السَّماء، لدَىٰ تبْلِيغِهِمْ مَا أنْزَلَهُ الله لملائكة الأرْض.

وحين يَسْتَرِقُ بعْضُهُمْ السَّمْعَ فيخْطَفُ شيئاً بحيلَتِه وسُرْعَتِه، فإنَّ شِهَاباً مُبيناً يَتْبَعُهُ فَيُحْرِقُهُ فيمِيتُه، أو يُعَطِّلُ أجْهِزَتَهُ، فيجعَلُهُ غيْرَ قادِرٍ على نَقْلِ ما اخْتَطَفَهُ وتَبْلِيغِهِ، أو تَجْعَلُه يَتَقَلَّبُ في عذابٍ موجع.

﴿فَأَتْبَعَهُۥ﴾: أي: فتبِعَهُ بسُرْعَةٍ وقُوَّة.

النصّ الثالث:

قول اللَّهِ عزّ وجلّ في سورة (الصَّافَات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول):

﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ۝٨ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ۝٩ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾.

● قرأ شعبة: [بِزِينَةٍ الكَوَاكِبَ] بتنويل «زِينةٍ» ونَصْب الكواكب.

أي: بزينَةٍ بديعة رائِعة، أعْنِي الكواكب، فجاء التنكير في كلمة ﴿بِزِينَةٍ﴾ للتفخيم والتعظيم. وجاء نصْبُ لفظ [الكَوَاكِبَ] بفعلٍ محذوف تقديره «أعْنِي» بياناً للشيء العظيم الفخم، الذي حصَلَ به التَّزْيين، إنَّها كواكب السماء.

والمرادُ بالسَّماء الدنيا هُنَا، الدائرةُ الهوائية الغازيّة حول الأرض، الَّتي تَبْدُو الكواكب زِينَة فيها، لأنّ الّذِين يخرجون فوق هذه الدائرة لا يَرَوْن النجوم والكواكب ذات زينَةٍ ضوئية. والمرادُ بالكواكب النجوم.

● وقرأ حَفْصٌ، وَحمزة: ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ﴾ بتنوينِ «زِينَةٍ» وبجرِّ «الكَواكِبِ» على أنها بَدَلٌ من لَفْظِ «زينةٍ» أي: وزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بالكواكب الّتي هي بنورها وتوزيعها في السماء زينَةٌ للناظرين إليها من سُكّان الأرض.

● وقرأ باقي القرّاء العشرة: [بِزِيَنَةِ الكَوَاكِبِ] بإضافة لفظ «زينَة» إلى الكواكب، والإضافة على تقدير اللاَّم، أوْ مِنْ، فالمعنى: بزينَةٍ لِلْكواكب، أو بزينةٍ من الكواكب.

ومؤدّىٰ هٰذه القراءات مُتَاشبه، وهي من قبيل التفَنُّنِ في التعبير الجميل.

﴿وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ۝٧﴾: أي: وحفظناها حِفْظاً شديداً محكماً مِنْ كُلِّ شيطان مَارِدٍ. ﴿وَحِفۡظٗا﴾ مفعُول مطلق لفعل محذوف.

﴿شَيْطَانٍ﴾: المراد به هُنَا المغْوِي المضلُّ المفْسِدُ مِنْ كفَرَة الجنّ.

﴿مَّارِدٍ﴾: أي: بالغِ الغايَةَ في العتوّ وَالْخُبْثِ، واتّخاذِ وسائل الإغواء والإضلال والمهارة في اصطناع المكايد الشرّيرة.

وإذا كانت السّمَاءُ محفوظة من كلّ شيطان مَاردٍ، فهي محفوظَةٌ حتماً من الشياطين الذين لم يَبْلُغوا أن يكونوا مَرَدةً.

﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾: قرأ حفصٌ، وحَمْزَةُ، والكسائي، وخَلَفٌ: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ﴾: أي: لاَ يَتَسَمَّعُون، أدْغمت التاء بالسين فصارت سيناً مشدّدة، والمعنى: لا يَقْدِرون على أن يتسَمَّعُوا ولو تكلّفُوا ذلك.

وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ﴾: أي: لا يَقْدِرُون أَنْ يَسْمَعُوا لأنّهم عن السَّمْع معزُولُون محجوبُون مَمْنُوعون.

الملأ: السّادة والأشراف، والذين لهم التقدّم، والكلمةُ المسموعة، ولهم الأمْرُ والنهيُ والتبْليغ.

والمُرادِ بِـ ﴿ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أصْحَابُ الرّياسَةِ وحملةُ رِسَالاَت الله من ملائكة السَّمَاء، ومنهم سَادَةُ ملائكة السَّماءِ الدُّنيا، الَّذِين ينقُلُونَ إلى مَلأ ملائكة الأرض مَا قضاه الله، أو أنزل به بياناً. وُصِفَ الملأ بالأعلى لأنه اسم جنس، ويجمع على أمْلاء. ولكلّ سماءٍ من السماوات السَّبْع ملأ، وللأرض ملأ منهم.

﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾: أي: ويُرْمَوْنَ من كلّ جانب من جوانب السَّماء الدُّنيا، بالأجرام المنبثة في الفضاء الخارجي، وهي التي تَصِير شُهُباً تخِرُّ إذَا دَخَلَتْ في الغلاف الغازي الذي يُحيطُ بالأرض، فمنْها ما يُطْرَدُ به الشياطين عن اسْتراق السَّمْع، من الملأ الأعلى، أي: من ملأ السماء الدنيا.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾﴾: **دُحُوراً**: أي: طرداً بعنف وشدَّةٍ مع إهَانَةٍ وإذلال. وهو مَصْدرُ «دَحَرَهُ، يَدْحَرُهُ، دَحْراً، وَدُحُوراً» أي: أبعده وطرده بعُنْفٍ وشدّةٍ.

و ﴿دُحُورًا﴾: مفعُول مطلق لفعل محذوف تقديره: يُدْحَرُونَ دُحُوراً.

والعذابُ الواصِبُ: هو العذاب الدّائم الذي لا يَنْقَطِع، وهو عذابُ يوم الدين في نار جَهَنَّمَ.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾: أي: إلاَّ مَنْ اسْتَمَعَ اسْتِمَاعاً يَسِيراً، على سبيل الخطف، فإنَّه لا يَسْتَطيع أن يَهْرُبَ به لتبليغه إلى أهل الأرض، إذْ يَتْبَعُهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ فيقْتُلُه، أو يُعَطِّلُ أداة التبليغ عنده.

﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾: أي: فتَبِعَهُ شَهابٌ ثَاقِبٌ فأدْرَكه فقتله، أَوْ عَطَّلَ أداة التبليغ عنده.

شِهَابٌ ثَاقِبٌ: أي: شهابٌ نارِيٌّ مُلْتَهبٌ مُحْرِقٌ بنارِه المتوقّدة.

النصّ الرابع:

قول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَةِ (المُلْكِ/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول):

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾.

المصابيح: جمع «المِصْبَاح» وهو شُعْلَةُ النّار الّتي تُرىٰ في القنديل، أو في السّراج. وهٰذِهِ المصابيح تَنْطَبِقُ على الشُّهُبِ أكثر من انْطِباقها على النجوم العليا.

فتكاملت النُّصُوصُ في الدَّلاَلَة على أنَّ المراد بالسَّمَاء الدّنيا الغلافُ الغازِيُّ الهوائي المحيطُ بالأرض، فهي المزَيَّنَةُ للناظِرِين من سُكّان الأرض بالكواكب، وبالمصابيح، وضِمْنَ حُدُودِهَا تُحَاوِلُ الشياطين أَنْ تَتَسَمَّعَ إلى المَلأ الأعلى من الملائكة، النّازِلينَ إلى ملائكة الأرض بالرَّسَائِل الرّبّانيّة.

القضيَّة الحاديَة عشرة:

دلَّتْ عليها مقالتُهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩﴾.

قُرِىءَ كمَا سَبَقَ بيانُه مع نصّ السورة بفَتْحِ همزة: ﴿وَأَنَّا كُنَّا﴾ وبكَسْرِها، وقد سبق توجيه القراءَتَيْن في نَظِيرَتَيْهِما في الْقَضِيَّةِ الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجنّ أنَّهم كانُوا يَصْعَدُون، فَيَقْعُدُونَ عند الأماكِنِ الّتي تتلَقَّىٰ بها مَلائكَةُ الأرْضِ، مِنْ مَلأ مَلائكةِ السَّمَاءِ، ما يَتَعَلَّقُ بالأحْداثِ الّتي قضىٰ اللّهُ أن تَحْدُثَ في الأرض، فيلتَقِطُون مِنْهُمْ ما يَسْتَطِيعُونَ الْتِقَاطَهُ، ويهربون به هابطين إلى الأرض، متحاشين أن تصيبهم الشهب، وهذه الأخبار الّتي كانُوا يسْتَرِقونها، قد يُلْقُونها إلى أوليائهم مِنَ الإنس.

أمّا قُعُودُهم في مواطنَ من الغلاف الغازيّ المحيط بالأرض، فأمْرٌ سَهْلٌ بالنِّسْبَةِ إلى الجنّ الطيّارين، إذْ هُمْ بأجسامهم الرقيقة الخفيفَةِ أقْدَرُ على الانتظار طويلاً في أيّ مكان من هذا الغلاف من الطَّيْر الّتي تَلْبَثُ صَافَاتٍ.

وكان غَرضُهُمْ من هذا القُعُودِ استراقَ السَّمْع من الملائكة النازلين بمَا قضَىٰ الله، لتبلِيغِه إلى الملإِ من ملائكة الأرض.

لكنَّهم وجَدُوا الآنَ بَعْدَ بِعْثَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَا بَعْدَ الآن، أنّ من يُحاولُ أن يسْتَمِعَ فإنَّهُ يَجدُ شِهَاباً رَصَداً يُوَجَّهُ له لطَرْدِه أو قَتْلِه، أو إصابته بضرَرِ بالغ.

﴿ٱلْـَٔانَ﴾: أي: بدْءاً من زَمَنِ بِعْثَة الرسول ﷺ، فما يأتي من أزمانٍ لاحقات.

﴿شِهَابًا﴾: سَبَق بيانه قريباً.

﴿رَصَدًا﴾: **الرَّصَدُ**: الراصِدُ الذي يُرَاقِب بعنايَةٍ بالغةٍ ما يترقَّبه ويرصُدُه.

يقال لغةً: «رَصَدَهُ، يَرْصُدُهُ، رَصْداً، ورَصَداً» أي: قَعَدَ لَهُ على الطريق يَرْقُبُه.

القضيَّةُ الثانية عشرة:

دَلَّتْ عليها مَقَالَتُهم: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

قرىء كما سبق بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ﴾ وَبكسْرِها، وقد سبَق توجيه القراءتين في نظيرَتَيْهما في القضيَّة الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجنّ بَعْدَ منعِ الجنّ من اسْتراق السَّمْع، إذْ مُلِئَتِ السَّماءُ حَرَساً شدِيداً، جهْلَهُمْ بالغايَةِ من هذا الإجراء الرَّبَّانيّ، هَلْ هُو لشرٍّ أُرِيدَ بمَنْ في الأرض عقاباً لهم، على ما انتشر فيهم مِنْ شرٍّ وفَسَادٍ وكُفرٍ، كإهلاكٍ شامل، دُونَ أنْ يكون أحَدٌ على عِلْم به من الجنّ أو من الإنس. أمْ أَرادَ بهم رَبُّهم أمراً رَشَداً، يمْنَعُ به عنهم كِهَانَةَ الكُهَّان، وَمَا تُوحِي به إليهم الشياطين من الأنباء التي تنزل بها ملائكَةُ السَّماء.

وَنَفْهَمُ من سوابق هذا البيان ولَوَاحِقِه، أنَّ تُحَيُّرَهم هذا قَدْ كان قبل أن يَطُوفُوا الأرض باحثين عَنِ السّبب، وقَبْل أن يَسْتَمِعُوا القرآن الْعَجبَ من تلاوة الرَّسُولِ محمّد ﷺ.

فلمَّا اسْتَمْعُوا القرآنَ عَرَفُوا السَّبَب، وذَهَبَ عنهم التَّحيُّر، وعَلِمُوا أنَّ الله عزّ وجلّ قَدْ أراد بأهل الأرْض أمراً رَشداً، إذْ منَعَ عنهم ما كانت الشياطين تُوحِيه إلى أوليائهم الإنس، من أخْبارٍ حَقِيقِيَّةٍ يَسْتَرِقُونها من مَلأ ملائكة السماء، حينما يَتلَقّاها مَلأُ ملائكة الأرض، ليقوم ملائكة الأرض بوظائفهم في الأرض على مقتضاها.

﴿رَشَدًا﴾: الرَّشَدُ السُّلُوكُ الموافق للحقِّ والصواب، أما لما هو الأفضل، والأحْسَنُ والأكثر نفعاً.

القضية الثالثة عشرة:

دلّت عليها عبارتهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ⁽¹¹⁾﴾:

قُرِىء كما سَبَقَ بيانه مع نصّ السورة بفتح همزة ﴿وَأَنَّا مِنَّا﴾ وبكَسْرِها، وقد سَبَقَ توجيه القراءتَيْن في نظيرتهما في القضيَّة الخامسة.

فأبان هؤلاء النفر من الجنّ واقِعَ حَال قومهم من الجنّ، وأنَّهُ يُوجَدُ مِنْهُمْ صالِحُون، ويوجَدُ منهم آخرون تنازلاً في الدّرَجاتِ والدَّرَكات حتَّىٰ أَخَسِّها وأسْفَلِها.

﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾: جمع «الصّالح» وهو ضدُّ الفاسِد، وقد جاء في القرآن لفظ «الصَّالحين» وصفاً للأنبياء والمرسَلِين، والمؤمنين الّذِين يأمُرُونَ بالمعروف وينْهُونَ عن المنكرِ ويُسَارِعُون في الخيرات.

وأدْخل الله عزّ وجلَّ في الصَّالِحِينَ الأوَّابين، الَّذِينَ إذَا فَعَلُوا بعْضَ المعاصي والمخالفات، رجَعُوا إلى ربّهم بالتَّوبة والاستغفار على وَجْهِ السُّرْعَةِ دُون إبْطاءٍ، ولو تكرَّرَ منْهُمْ ذلِك.

فدَلَّ هذا على أنَّ الْفُسَّاقَ والْعُصَاةَ فاسِدُون، لأنَّهُمْ بالْعَمل الفاسِدِ غير الصالِحِ قَدْ عَرَّضُوا نُفُوسَهُمْ للفساد، باستثناء الأوّابين التوّابين، الّذِين يُدَاوُونَ مَا أصَابَ نُفُوسَهُمْ من عوارض الْفَسَاد، بما يُصْلِحُها وَيُعِيدُها إلى الصِّحَّةِ والسَّلاَمَة، فَيَعُودُونَ بسَبَبِ الإيمان والْعَمل الصالح صالحين.

وشَرُّ الفاسِدِين الكافِرُون، وتتفاقَمُ شُرُورُهُمْ بحَسَب دَرَكاتِ كُفرِهم، وظُلْمهم، وبغيهم، وعدوانهم، وإفسادهم في الأرض، وأعمالهم الإغوائية الإضلالية، ومع أهل الدّرْك الأسفَل منهم أخْباثُ المنافقين.

فكُلُّ هؤلاء المتنازلين في الدَّرَجاتِ، فالدَّركاتِ، عن دَرَجات الصالحين، تَعُمُّهُمْ عبارة: ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: دُون فريق الصالحين، مراتبَ ودَرَجاتٍ ودركاتٍ.

وعبارتُهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ تُفيد أنّه قَدْ كان في الجنّ جنٌّ صالِحُونَ قَبْلَ وُصُولِ دَعْوَة الرَّسُول محمّد ﷺ إليهم، إذْ كانوا على مِلَّةٍ مقبولَةٍ عنْدَ اللَّهِ، غَيْرَ مَنْسُوخَةٍ بِمِلَّةٍ لاحِقَة.

أمّا بَعْدَ أن وصَلَتْ إلى الجنّ دَعْوَةُ محمّد ﷺ، فلا يُوصَفُ بالصلاح إلاّ مَنْ كان مُؤْمناً مُسْلِماً تَقِيًّا، متَّبِعاً رسالةَ خاتَمِ الأنبياء والْمُرْسَلِينَ عليه أفضلُ الصلاة وأتَمُّ التسليم.

ويقول الَّذِين لهم اطِّلاعٌ على بعض أحوال الجنّ: إنَّ فيهم يهوداً ونصارى وصابئين، وغَيْر ذلك، فأحوالهم ومذاهبهم، مناظرةٌ لأحوال الإنْسِ ومذاهبهم، والله أعلم.

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾: أي: ذَوِي مذاهبَ وعقائِدَ ومِلَلٍ وأهواءٍ مختَلِفَةٍ متقطِّعَةٍ، لا جامِعةَ تجمع بينها، فنحن فِرَقٌ شَتَّىٰ.

﴿طَرَآئِقَ﴾: جَمْعُ «طَرِيقة» وهي في اللُّغَة تُطْلَقُ عَلىٰ السِّيرَةِ، والمذهب، والحالِ، والفرقة.

وإطلاق لفظ «طرائق» على الجنّ بمعنَى الْفِرَق، لا يحتاج إلى تأويلٍ ولا إلى تقدير.

أمّا إطلاق لفظ «طرائق» على الجنّ بمعنَىٰ المذاهب والسِّيَرِ والأحوال، فهو على تقدير: كنَّا ذوي طرائق، بِحَذْفِ المضاف لفظاً وملاحظتِه ذهناً، أو هو من قبيل المجاز المرسَلِ، من إطلاق الشَّيْءِ على صاحبه، نظير قولي:

هو الْجُودُ إلاَّ أنَّ لِلْجُودِ زَلَّةً. هُوَ البِرُّ والتقْوَىٰ بِلَا صَبَوَاتِ.

أي: هو صاحب الجود والبرّ والتقوىٰ، أو هو عين الجود والبرّ والتقوىٰ لعظم هذه الصفات فيه، فكأنّه هي.

﴿قِدَدًا ﴾: جَمْعُ «قِدَّة» وهي القِطْعَةُ من الشيء، والفِرْقَةُ من الناس المتميِّزَةُ بهوًى، أو مَذْهب.

وأصْلُ مادّة الْقَدِّ، يَدُلُّ على القَطْعِ المستأصل، وعلى الشَّقِّ طُولاً، يقال لغةً: «قَدَّ الجلْدَ، يَقُدُّهُ، قَدّاً» أي: قَطَعَهُ قَطْعاً مُسْتَطِيلاً، فاسْتَخْرَجَ مِنْه سَيْراً.

وكان عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه، إذا اسْتَعْلَىٰ في الحرْب قَدَّ، أي: قَطَعَ مُنَازِلَهُ المحارِبَ لَهُ طُولاً، وكانَ إذَا اعْتَرَضَ قَطَّ، أي: قَطَعَ عَرْضاً.

القضيّة الرابعة عشرة:

دلَّتْ عليها عبارتهم: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾:

قرىء كما سبَقَ بَيَانُهُ مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ ﴾ وبكَسْرِها، وقد سبق توجيه القراءتَيْن في نَظِيرَتَيْهما في القضيّة الخامسة.

فَأَبَانَ هَؤلاءِ النَّفَرُ مِنَ الجنّ أنَّهُمْ جَعَلُوا يُفكِّرُونَ في أنَّ الله ـ جلَّ جلالُهُ وَعَظُمَ سُلْطانه ـ لَوْ شَاءَ أَنْ يُنْزِلَ بالْعُصَاةِ من عباده عقابَهُ وعَذَابَه، ولو كَانُوا مِنْ أَقْوَىٰ رِجالِ الجِنّ، وأقْدَرِهِمْ على المقاوَمَةِ أوِ الْهَرَبِ، فَهَلْ يَسْتَطِيعُون مُقَاوَمَةَ وسَائِلِ عِقَابِهِ، بالمصارعَة، أو باتّخاذ ملاجىءَ وَوَاقياتٍ تخمِيهم، أو بالْهَرَبِ مِنْ مواقع تَنَزُّلِ أسبابِ عذاب الله، وهُمْ خَلْقٌ من خَلْقِهِ، وهو الذي مَنَحُهُم القوىٰ، وجَعَلَهُمْ يقْعُدُونَ في الأجواء العلْيَا مقاعِدَ للسَّمْع، لالتقاط أخبار السَّماءِ من ملائكة الملأ الأعلى.

وبعْدَ التَّفْكِير المتأنّي غَلَبَ علىٰ ظَنّهِمْ، أَنَّهُمْ لَنْ يُعْجِزُوا الله إذا أرادَ معاقَبَتَهم والانتقام منهم، لا بالمقاومة والمصارعة، ولا باتخاذ الملاجي والواقِيَاتِ، ولا بالهَرَب إلى أماكن آمِنَة.

وكان هذا الظنُّ منهُمْ ظنًّا رَاجحاً لم يَبْلُغْ مبلغ اليقين، إذْ هم يُحَدِّثون عمَّا كانُوا عليه قبْلَ اسْتماع القرآن من الرسول، وقبْلَ الإيمان به وبالرَّسُول وبكل ما جاء به عن ربّه.

وسبق إلى أذهان بعض المفسّرين أنّ هؤلاء النفر من الجنّ يُحَدِّثُون عن حالهم بَعْدَ اسْتماع القرآن وَبَعْدَ الإيمان به، ففسَّرُوا الظَّنّ هُنَا بمعنى العِلْمِ واليقين، وقد نظرْتُ مُتَفكّراً في استعمالات مادة الظّنّ هُنَا بمعنى العِلْمِ واليقين، وقد نظرْتُ مُتَفكّرا في استعمالات مادة الظّنّ في القرآن مع الاستقراء التامّ، فثبَتَ لدَيَّ أنَّهُ لم يُسْتَعْمَلِ الظَّنُّ في آياته إلاّ بما هو دون اليقين، ونزولاً حتَّىٰ الظَّنُّ الضعيف المرفوض، الّذي لا يَصِحُ الأَخْذُ به بوجْهٍ من الوجوه. أَمَّا الظَّنُّ المقبولُ فَهُوَ الظَّنُّ الراجح، ويَصِحُّ العَمَلُ به حتَّىٰ يأتِيَ مَا هُو أَرْجَحُ منه وأقوىٰ دليلاً.

وفي إعلان هؤلاء النفر من الجنّ عمَّا كانوا عليه قبل أن يؤمِنُوا، وهم يقومون بدَعْوَةِ قَوْمِهم إلى الإيمان بهذا الدّين الذي جاء به رسولُ اللّه محمّد ﷺ، استخدامٌ للأسلوب الحكيم في دعوتهم، إذْ أعْلنونَ تَدَرُّجَهُمْ في الاقتناع، حتى بلغوا إلى اليقينِ فآمَنُوا، وهذا الأسلوبُ من أنجح الأسَالِيب الحكيمة المؤثِّرَةِ في المدعُوِّين، لأنَّ طبائع النفوس في التدرُّج إلى الإيمان بالحقّ مُتَشَابهة.

القضيّة الخامِسَة عشرة:

دلَّتْ عليها عبارتُهُمْ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ... ﴿١٣﴾﴾:

قُرِىء كما سَبَقَ بيانُهُ مع نصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا لَمَّا﴾ وَبكسْرِها، وقد سبق توجيه القراءتين في نظيرتيهما في القضية الخامسة.

فأبانَ هؤلاء النفر في دعْوَتِهم لقومهم من الجنّ، أَنَّهُمْ لمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ وَمَا اشْتَمَل عليه من الْهُدَىٰ، آمَنُوا به، إذْ رأَوْهُ حَقًّا وداعِياً إلى صراط مُستقيم، ويَهْدِي إلى الرُّشد.

اتَّخذُوا الأُسْلُوب المؤثر الحكيم بالحديث عن أنفسهم لدى دعْوَتهم قومَهُمْ إلى الإيمان والإسلام، والاهتداء بَهْدْي القرآن.

القضية السادسة عشرة:

دلَّتْ عليها عبارتهم: ﴿فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾:

هذا البيان من هؤلاء النفر من الجنّ أبان أَنَّهُمْ حَمَلَةُ رِسالَةِ دَعْوَةٍ في قومهم، إلَىٰ الإيمان بالرَّبّ جلَّ جلالُهُ إيماناً كاملاً، وهذا الإيمان الكامل الصحيح يسْتَلْزِمُ الإيمانَ بكلّ مَا جاء عن الله، وبكل ما أَمَرَ بالإيمان به، والإيمان يَسْتَلْزِمُ إعلانَ الطاعَةِ والإسْلام لله عزّ وجلّ باستلام كامل.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا﴾: أي: فلا يخافُ نقصاً من أجْرِ إيمانه ولوازم إيمانه. ولاَ يَخافُ ظُلْماً. بل يُوفِّيه الله أجْرَه على إيمانه، إذ هو جلّ جلاَلُه كريم لاَ يُخْلِفُ الميعاد.

الْبَخْسُ: هو في اللُّغَةِ النقصانُ والظُّلْم، يقال لغة: بخس فلانٌ فلاناً، أي: ظَلَمَهُ بنُقْصَانٍ من حَقِّهِ الَّذِي هُو له.

﴿وَلَا رَهَقًا﴾: الرَّهَقُ يأتي للدَّلاَلَةِ على معانٍ مُتعَدِّدَة، سبَقَ بيانها لدى تَدَبُّر الآية (٦) من هذه السورة، وأنسَبُهَا لما جاء هُنَا في عبارة: ﴿وَلَا رَهَقًا﴾ وَلاَ يَخافُ أن يُحمَّلَ مَا لاَ يُطِيق.

قال الأزهري في هذه الآية: الرُّهَقُ اسْمٌ من الإرْهَاقِ، وهُوَ أَنْ يُحْمَلَ علَيْهِ مَا لا يُطيق.

أقول: إنَّ الإيمان بالخالق الرَّبّ ـ جلَّ جَلاَلُهُ وعظُمَ سلطانه ـ يَسْتَلْزِمُ

قبول التكاليف الَّتِي يكلّفُهُ اللَّهُ إياها، لكن رَحْمَةَ الله عزّ وجلّ قد جعلَتْ هٰذِهِ التكاليفَ ضِمْنَ حُدُود الطَّاقةِ والاسْتِطاعة واليُسْر، إذْ لاَ يُكلّفُ اللَّهُ نفساً إلاَّ وُسْعَها، فَمَنْ يُؤْمِنْ بربِّهِ فهو لاَ يخَافُ رَهَقاً منْ تَكاليف لاَ يُطِيقُ حمْلَها.

ولعلّ هؤلاء النفر قد استفادُوا هذه الحقيقة ممَّا جاء في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) إذْ جاء فيها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾﴾.

وظاهر من ترتيب النزول أنّ سورة (الأعراف) قد نزلَتْ قبل سورة (الجنّ).

القضيّة السَّابعة عشرة:

دلَّتْ علَيْها مقالتهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

قُرِىء كما سَبَق بيانُه مع نَصّ السورة بفتح همزة: ﴿وَأَنَّا مِنَّا﴾ وبِكَسْرِها، وقَدْ سبَقَ توجيه القراءتَيْن في نظيرتَيْهِما في القضيَّة الخامسة.

هاتان الآيتان اشتَمَلَتا على بيانٍ من هؤلاء النفر من الجنّ، عن حَالِ قَوْمِهم من الجنّ، بَعْدَ أنْ قَامُوا برسالةِ الدّعوة إلى الله، وإلى صراطه المستقيم بينهم، فاستجابَ لدَعْوَتِهم فريقٌ منهم، ورفَضَ الاستجابَةَ فريق آخر.

فأبَانُوا أنّ من استجابَ منهم فأَسْلَمَ قَدِ اجْتَهَدُوا في طَلَب الحقّ وفي طلَب الصواب، وهذا هو تَحَرِّي الرَّشد.

وأبانُوا أنَّ الذين جارُوا وعَدَلُوا عن الحقّ والصَّواب، وعن صراط

الْهُدَى، فلم يتحرَّوُا الرَّشد، قَدْ عَرَّضوا أنفسَهُمْ لعذابٍ أَلِيمٍ خالِدٍ في جهنم، إذْ جَعَلُوا أنفُسَهُمْ باختيارهم الكُفْرَ والعصيانَ، مُؤْثِرِينَ ذلك على الإيمان والإسلام والطَّاعَةِ لربّهم، وَقُوداً لجهنَّم يَوْمَ الدِّين مع الحجارَة وسائِرِ الكَفَرَةِ المجرمينَ من الجنّ والإنس، فَهُمْ كالْحَطَب لجهنَّم، إلاَّ أن الحطَبَ يفْنَىٰ بالحَرِيق فَيَصِيرُ رَمَاداً، أمّا المجْرِمون الذين يذوقونَ عذابَ الحريق في جهنَّم، فَكُلَّمَا نَضِجَتْ جلودُهم بدّلَهُمُ اللَّهُ جلوداً غَيْرَها لِيَذُوقوا العذاب.

● ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ أي: وأنَّ قَـوْمَـنَـا بَـعْـدَ أن دَعَوْناهم إلى الإسلام صَارُوا فريقين:

الفريق الأول: المسْلِمُون، وهم الّذِين أعْلَنُوا إسلامهم، واتّباعَهم لأحكام الإسلام وشرائعه، إذ استجابوا لدَعْوَةِ إخوانهم النَّفَرِ من الجنّ الّذِين اسْتَمَعُوا القرآن فآمَنُوا بِهِ وبِمَنْ أُنزِلَ عليه، وأطاعُوا رَبَّهُمْ وأسْلَمُوا له.

وبإعْلانهم هٰذا اختارُوا لأنفسِهم أَنْ يسْلُكُوا الصراط المستقيم، صراط الذين أنْعَمَ الله عليهم من النبيّين والصّدّيقين، والشهداء والصالحين.

الفريق الثاني: القَاسِطُون، أي: الجائِرُون الذين عَدلوا عن الحقّ، وانْحَرَفُوا عن الصراط المستقيم.

والسبَبُ في عُدُولهم عن الحقّ والصِّرَاطِ المستقيم، أنّهم لم يُسْلِمُوا، فجاء الاستغناء ببَيَان جَوْرِهم الكُلِّيّ عن ذِكْرِ عَدَمِ إسلامهم.

أمّا المسلمونَ فإنّهم لا يجورُون جوراً كُلِّيًّا، ولا يتنكّبُون الصراط المستقيم تنكُّباً كُلِّيًّا شَاملاً، وإنْ عَصَوْا معاصِيَ متفرّقَة، فالمعاصي من دون الكفر لاَ تَدمَغُهم بأنَّهُمْ القاسِطُونَ الجائرونَ جوراً كلّيًّا عاماً.

استفَدْنا معنى جورهم الكلّي العامّ الشامل من أداة التعريف «ال» في كَلمة ﴿ٱلْقَٰسِطُونَ﴾: فهي هنا «ال» المستغرقة لكل معاني الجور وعناصره، وهذا إنما يكون بالكفر.

القاسط: هو في اللّغة، الجائر الذي يَعْدِلُ عن الحق، وعن طَرِيق الهدى، يقال لغة: «قَسَط، يَقسِطُ، قَسْطاً، وقُسُوطاً، فهو قَاسِط» أي: عَدَلَ عن الحق وعن طريق الهدى، وطريق الهدى هو الصراط المستقيم، الذي أوضَحَ معالمه وحُدوده دِينُ رَبِّ العالمين.

أمّا «قَسَطَ يَقْسِطُ قِسْطاً (بكَسْر القاف في المصدر) وأقْسَطَ يُقْسِطُ إقْسَاطاً فَهُو مُقْسِطٌ، أي: عَادِلٌ غَيْرَ جائر.

● ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴾:

﴿فَمَنْ أَسْلَمَ ﴾: أي: فمن أعْلَنَ اسْتِسْلامَهُ لِلَّهِ صادقاً مُخْلِصاً، وأعْلَنَ قبولَهُ أنْ يَدْخُلَ في دين الإسلام طائعاً مختاراً، على ما أنْزَلَ الله لعبادِه، وبعَثَ به رسُولَهُ محمّداً ﷺ.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المستَحِقُّون لأن يُشَار إليهم باسم الإشارة الموضوع للمشار إليهم البَعِيدِين، للدّلالة على ارتفاع منزلتهم، وسُمُوّ دَرجَتِهِم، عند رَبّهم.

﴿تَحَرَّوْاْ ﴾ أي: قَصَدُوا باهْتِمَامٍ واجتهادٍ وعنايَةٍ أفْضَلَ الأمور، واجتهدوا في الطَّلَب مع التدقيق.

يقال لُغةً: تحرَّىٰ الأمْرَ أو الشَّيْءَ، إذَا قَصَدَه وَتَوخَّاه، وتوجَّهَ له، واجتَهَدَ في طَلَبِهِ مُدَقِّقاً بِعِنَايَة.

﴿رَشَدًا ﴾: **الرَّشَدُ، والرُّشْدُ. والرَّشَادُ**: الاهْتِداءُ إلَىٰ الحقّ والصواب، والأفضل والأحْسَن.

يُقَالُ لغة: «رَشَدَ، يَرْشُدُ، فهو راشِد» و«رَشِدَ، يَرْشَدُ، رَشَداً، ورَشاداً، فَهُوَ رَشِيدٌ» أي: اهْتَدَى إلى الحقّ والصّواب والأفضل.

ومن الاهتداء إلى الحقّ والصّواب ومَا هُو الأفْضَل، السُّلُوكُ الفكريُّ،

والنفسِيُّ، والخلقيُّ، والعَمليّ، الموافق للحقّ والصّوَاب، أو لما هُوَ الأفضل والأحْسَنُ والأكْثَرُ نفعاً والأبْعَدُ عن الضُّرّ والأذى.

ويُفْهَمُ من تحرِّي الّذين أسْلَمُوا الرَّشَد، أنَّهُمْ يجْتَهدون مُدَقِقين في قَصْدِ والْتزامِ ما يُحَقِّق لهم السَّعَادَة العاجلة والآجلة يوم الدّين، وهٰذِه السَّعادَة إنّما تتحقَّقُ لهم بالإيمان بالحقّ، والأخذ بالصواب والعمل الصالح.

ولوحظ في اسم الموصُول في عبارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ معنى الجمْعِ فأشير إليه باسم الإشارة ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾.

● ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾: أي: وأمّا الجائرون بعَدَم إسلامهم، وهم الَّذِين عَدَلُوا عن سلوك سبيل الْهُدَىٰ، وهُوَ صراط الله المستقيم، إذْ لم يُؤْمِنُوا بما أنزل اللّهُ عزّ وجلّ على رسُوله، بل أصَرُّوا على ما كانوا عليه من ضلالاتهم السّابقات، وشركيَّاتِهِمْ وكُفْرِيَّاتِهِمُ المختلفات، فجعَلُوا أنفسهم باختيارهم الحرّ مُسْتَحقِّين لأنْ يكونوا لجهنّم يوْمَ الدِّين، بمثابَةِ الحطَبِ الّذِي يُعَدُّ لِتُوقَدَ بِه النّار، أو لِيَزِيدَ بِه وَقُودُها.

وهذا من التشبيه البَلِيغ، إذْ حُذِفَتْ منْهُ أداة التشبيه ووجْهُ الشَّبه.

إنَّهم سوف يُطْرَحُونَ ويُكَبُّونَ في جهنَّم كما يُطْرَحُ ويُكَبُّ الحطَبُ في النار.

فالنار تزيدُ وقُوداً بأجْسَادِهم، وكلّما احترقَتْ جلُودُهم ونَضِجَتْ، بدَّلَهُمُ الله جلُوداً غيْرَها ليَذُوقُوا العذاب.

وفي تشبيههم بالحطَب دلاَلَةٌ أُخرَىٰ، وهِيَ أَنَّهُمْ بجحودِهم للحقّ، ورفْضِهم أن يسْتَجيبُوا لِنِداء رَبِّهِمْ في كتابِهِ المنَزَّلِ، وإبائهم أنْ يَتَّبِعُوا الْهُدَىٰ، ويَسْلُكُوا الصراط المستقيم، صَارُوا كَمَنْ فَقَدَ قُوىٰ الإدْراكِ فيه، ثُمّ فَقَد قُوىٰ الإحْسَاسِ الباطِنَةَ والظّاهرةَ، فصار لا يُؤَثِّرُ فيه التَّخْويفُ والترهيب من عذاب الله في النار، ولا يُؤَثِّر فيه الإطْماعُ والترغيبُ في نَعِيم اللّهِ الخالِدِ في الجنَّة.

ومَنْ فقد الإدْراكَ والإحْسَاس، وهو في الأصل جِسْمٌ نَام مُدْرِكٌ ذو حواسٍّ ظاهرةٍ وباطنةٍ، صَارَ كشجَرَةٍ مَجْثُوثَةٍ لاَ حَيَاةَ فيها، وقَدْ يَبِسَتْ بمُرُور الزَّمن، فهِيَ قطعةٌ من الحطَبِ الّذِي تُوقَدُ به النار.

وقد فَهِمَ هؤلاَءِ النَّفَرُ من الجنّ، أنّ الكّافرينَ منهم الذين يجُورُونَ فلا يتَّبِعُونَ صِراط الله المستقيم، يُعَذَّبُونَ في جهنم، ممّا سبَقَ أَنْ أَنْزَلَهُ الله من قرآن قبل إنزال سورة (الجنّ).

فقد جاء في بعض السُّوَرِ النازلَةِ قبْلَها أَنَّ الجنّ يُعَذَّبُونَ في نار جهنّم كالإنس، إذا اختارُوا لأنفُسِهِمْ في الحياة الدنيا أن يكُونوا كافِرِين، على أيّ مَذْهَبٍ من مذاهِبِ الكُفْر بالحقّ، وبما أنزل الله لعباده، وفق آخِر تنزيلٍ أنْزَلَهُ إليهم.

ويلاحظ في عبارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدٗا ١٤ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا ١٥﴾ ما يُسَمَّىٰ عند علماء البلاغةِ الاحْتِباك، وهو الحذْفُ من الأوائل لدَلاَلَة الأواخر، والحذْفُ من الأواخِرِ لدَلاَلَةِ الأَوائل.

إذ المعنى في هٰذهِ الْعِبَارة: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدٗا﴾ فكانُوا من أهل الجنة دار النعيم يُنَعَّمُونَ فيها يوم الدين ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ فاتَّبَعُوا غيًّا ولم يتحَرَّوا رَشداً ﴿فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبٗا﴾ يُعَذَّبون فيها.

وبهذا ينتهي الدرس الأول من دُروس السورة الثلاثة
والحمد لله على فتحه وتوفيقه
ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله

❁ ❁ ❁

التدبّر التحليلي للدرس الثاني من دُرُوس السورة وهو الآيات من (١٦ ـ ١٩)

قال الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

تمهيد:

هذا الدرس الثاني من دروس السورة الثلاثة، درْسٌ يَعْطِفُ اللَّهُ عزّ وجلّ فيه بعْضَ قضايا دينيَّةٍ لا على سبيل الحكاية لمقالاَت النَّفَر من الجنّ، بل على سبيلِ إضافة قضايا جَدَيدَةٍ يُبَيِّنُها اللَّهُ عزّ وجلّ، هي بمثَابَةِ تَتِمَّاتٍ من عند اللَّهِ عزّ وجلّ لمقالاَتِ النَّفَر من الجنّ.

وقد ظهر لي أنَّ الغرضَ مِنْ هٰذا الأسْلُوب البيانيّ الإشعارُ بتصديق ما ذكر هؤلاء النَّفَرُ من الجنّ في مقالاتهم، وبهذا التصديق تكونُ مقالاتُهم بمثَابَة مقالاتٍ صادراتٍ عن الله عزّ وجلّ مباشرة.

نظير أن يُقَرّر تلميذُ الشيخ بحضُوره أَحْكاماً تتعلَّق بمسْأَلَةٍ مِنْ مسائل العلم، حتّىٰ إذا أَتَمَّ التلْمِيذُ كلامَهُ، وأرادَ الشيخُ أنْ يُشْعِرَ الحاضرين المستمعين بأنَّه يُقِرُّ تلميذه على ما قال، وأراد أن يضيف أشياء من عنده لم يذكُرْها التلميذ، فيبني كلاماً من عنْدِه، ويَعْطفُهُ على ما سَبَقَ أن ذكره تلميذُه.

أي: كُلُّ ما ذَكَرَهُ حقٌّ وصِدْقٌ، وأضيف إليه كذا وكذا. وهٰذا فَنٌّ إيجازيٌّ في الكلام بديع، ونستطيع أن نَضَعَ له عنواناً نقول فيه:

«تصديق المتكلّم بعَطْف كلامٍ لم يقُلْه علىٰ كلامه مع الإشعار بأنَّه ليْسَ مِنْ كلامه».

وهذا القيد لازم للاحتراز من الإدْراج، ومن التدليس.

القراءات:

• قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وخَلَف، ويَعْقوب: ﴿يَسْلُكْهُ﴾ بياء الغائب. وقرأ باقي القراء العشرة «نافع، وابن كثير، وأبُو عَمْرو، وابْنُ عامر، وأبو جعفر: [نَسْلُكْهُ] بنون المتكلّم العظيم.

وبين القراءتين تكامُلٌ في الأداء البياني، إذْ جاءت إحداهما بأُسلوب الحديث عن الغائب. وجاءت الأخرى بأسلوب حديث المتكلّم العظيم عن نفسه.

ومعلومٌ أنّ الله عزّ وجلّ غائبٌ عن حواسّ المخاطبين، وحاضرٌ غير غائب بعلمه، وسمعه، وبصره، وسلطانه، وهيمنَتِه على عباده.

• وقرأ نافع، وشُعْبَةُ عن عاصم: [وَإِنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ] بكَسْر همزَةِ [وَإِنَّهُ] وقرأ باقي القرّاء العشرة: [وَأَنَّهُ] بفتح الهمزة.

أمّا فتح الهمزة فلُوحِظَ فيه العطف على نظائرها، المبدوءة في أوّل السّورة بقول الله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

وأمّا كَسْرُ الهمزة فلُوحظ فيه العطف على جُمْلَةِ ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ فهي مَقُول فعل: ﴿قُلْ﴾ ومعلومٌ أنّ همزة «إِنّ» تُكْسَرُ إِذَا كانت مقولَ القول، أو معطوفةً عليه.

والقراءتان هما من قبيل التفنُّن في التوجيه الإعرابي، ومؤدَّاهُما من جهة المعنى متشابهان.

• وقرأ هشام في إحدى روايتين عَنْه: [لُبَدًا] بضم اللاّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿لِبَدًا﴾ بكَسْرِ اللاّم، وهو الوجْهُ الثاني لهِشام.

والقراءتان لغتان عَرَبِيَّتَان في النُّطْق، والمعنَىٰ فيهما واحد.

التدبر التحليلي:

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ .....﴾.

﴿وَأَلَّوِ﴾: أصْلُها «وَأنْ لَو» كُتبتْ كما تُنْطَقُ، إذْ تُدْغَمُ النون باللاّم، فتصير لاماً مُشَدَّدَة.

«أَنْ» هي المخففة من الثقيلة «أَنَّ» الّتي يؤتَى بها لتأكيد مضمون الجملة التالية لها، واسْمُها ضَمِيرُ الشأن العظيم، وخَبَرُها جملة: «لَوِ اسْتَقَامُوا على الطَّرِيقَةِ لأَسْقيْنَاهُمْ مَاءَ غَدَقاً لِنَفتنَهُمْ فيه».

والمعنى: وأنَّ الشأنَ العظيم المؤكّد هو ما يلي: لو حَصَلَتْ منهم الاستقامة على الطريقة المثْلَىٰ، الّتي اصطفاها رَبُّهُمْ لهم، وأنزلَها في هذا الدين الخاتم، وهو صراط الله المستقيم، لأسقيناهُمْ بعظمة رُبوبيَّتِنا وفيض عَطايانا ماءَ وفيراً كثيراً، فكان السَّبَب في كثْرةِ النبات، ووفرة الأنْعام، وكُلّ رزقٍ طيّبٍ نافع في الأرض، ولعاشُوا في مَتَاعٍ حسَنٍ، ورَغَدٍ من الرزْق، وكان امتحانُهم في هذه الحياة الدنيا بوافر النعم وغزيرِها.

والحديث في هذا البيان عن الجنّ والإنْسِ معاً، لأنَّ هذين النوعَيْنِ كليهما ممتَحَنَان في ظروف الحياة الدنيا، والامتحان يكون بما يُحِبُّ الْعَبْدُ الممْتَحَنُ وبما يكْرَه.

واستقامتُهُمْ على الطريقة المثْلَى تتضَمَّنُ قيامهم بِشُكْرِ الله على نِعَمه، والشُّكْر يجلُبُ مَزِيدَ عطاءٍ من فضل الله، ضِمْن سُنَّتِه الثابتة في ظروف هٰذِهِ الحياة الدنيا.

• **[وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا]**: «لَوْ» حرف شرط للتّعلِيقِ في الماضي، وتقتضي لزوم امتناع جَوابِها لامْتِنَاعِ شَرْطها.

اسْتَقَاموا: أي: اعْتَدَلُوا واسْتَوَوْا ولَمْ يَنْحَرِفوا خُرُوجاً عن الطريقة المثلىٰ. **الاستقامة**: هي الاعتدال والاستواء وعَدَمُ الاعْوِجَاجِ خروجاً عن الصراط السّويّ.

فعل «اسْتَقامَ» مثل فعل «قَامَ» بمعنى «اعتَدَلَ» إلاَّ أنَّ «اسْتَقامَ» أبْلَغُ وأقوى في الدَّلالة على معنى الاعتدال، نظراً إلى زيادة المبْنَىٰ الّتي تُفِيدُ في العربيَّةِ زيادَةَ المعنى.

وقد تَدُلُّ هذه الصيغةُ على معنى المطاوعة لمطلب الاعتدال، فهم يستقيمون على صراط الله المستقيم طاعةً لأوامِرِهِ ونواهِيه، وإسلاماً واستسلاماً له جلّ جلالُه.

• ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾: **الطَّرِيقة**: هي السِّيرَةُ الكامِلَةُ المثْلَىٰ في الإيمانِ والعَمَل الصَّالح، وهي صراطُ الإسلام، صراطُ اللّهِ المستقيم.

ونفهم كمال الطريقة من أداة التعريف «ال» الدّالَةِ هُنَا على الكمال بمساعَدة القرائن. ومعلومٌ في الدِّين أن الطريقة المثْلَىٰ عند الله جلّ جلاله، صراطُهُ المستقيم.

والمعنيّون بضمير: ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ الجنُّ والإنْسُ، لأنّ الحديث في السُّورَةِ متعلّقٌ بهِمَا وبابْتِلاَئهما.

• ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ اللاّم واقعة في جواب «لو» الشرطيَّة. والماءُ الغدق، هو الماء الغامِرُ الكثير.

أسْقيناهم: يقال لغة: سَقَاه سَقْياً، وأسقاه إسْقَاءً. والمرادُ إنْزَالُ الماءِ من السَّماءِ لسُقْيا أرَضِهم وأنْعَامهم، ولسُقْياهُمْ بأفواهِهِمْ، ولاستخدام الماء في منافعهم ومصالحهم المختَلِفَة، كما قال الله عزّ وجلّ في سورة (الفرقان/ ٢٥ مصحف / ٤٢ نزول):

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾.

وجاء تخصيص إسقائهم الماء بالذكر، لأنّ الماء من أجَلّ نِعَم الله على الأحياء، وبه تتحقّقُ سائر منافع الأرض لهم.

وقد أبانَ اللّهُ عزّ وجلّ أنّ مِنْ سُنَّتِه أَنْ يُفِيضَ اللّهُ علىٰ عبادِهِ بركات من السَّمَاءِ والأَرْض، إذا آمَنُوا واتَّقَوْا، فقال اللّهُ عزّ وجلّ في سُورَةِ (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وقال جلّ جلاله وعظُمَ سُلْطانُهُ في سُورَةِ (المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول) بشأن أهل الكتاب:

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿مُّقْتَصِدَةٌ﴾: أي: لا يَتوسَّعُون في فِعْلِ الخيرات والصَّالحات من مَرْتبتي البرّ والإحْسَان، بل يقتصرون مُقْتَصِدين على درجات مَرْتَبَةِ التقوى.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾: أي: وكثيرٌ مِنهُمْ عُصَاةٌ فاسِقُونَ ظالِمُونَ مُسْرِفون في ارْتكاب الآثام، حتّىٰ دَرَكَةِ الكُبائر الكبرىٰ، فأعْمالُهُمْ تَسْتَحِقُّ أَنْ تُذَمّ بأشَدّ عبارات الذمّ، فيُقَالَ بشأنهم: «سَاءَ مَا يَعْمَلُون» أي: ما أشدّ سُوءَ ما يَعْمَلُونَ.

أي: فلَوْ أنَّ أهْلَ التوراة أقاموا التوراة، ولو أنّ أَهْلَ الإنْجِيلِ أَقَامُوا الإنْجِيلَ، فعَمِلُوا بما فيهما، لأكَلُوا مِنْ فوقهم من ثمار الأشجار بلا مصائب ولا جوائح، ولأكَلُوا من تَحت أَرْجُلِهِمْ ممَّا تُخْرِجُ الأرضُ من خيرات بلا

مصائب ولا جوائح، ولكنَّهم لَم يقيموا التوراة والإنجيل، فأنزل الله بهم الجوائح والقحط والجدبَ، والمصائبَ في الأرْزَاقِ والأَمْوالِ، إذْ إنَّ الكثيرَ مِنهُمْ مَا أَشَدَّ سُوءَ ما يَعْمَلُونَ.

ووعَدَ كلٌّ من نوحٍ وهودٍ علَيْهما السَّلاَم أَقْوَامَهُمَا بِأَنْ يُرْسِلَ الله السّماء عَلَيْهم مِدْراراً إذا اسْتَغْفَرُوا ربَّهم وتابُوا إليه.

قال الله عزّ وجلّ في سورة (نوح/ ٧١ مصحف/ ٧١ نزول) حكايَةً لقَوْلِ نوحٍ عليه السلام لربّه عمَّا وَجَّهَهُ لقومه:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾.

وقال الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) حكايةً لمَا قَالَ هُودٌ عليه السَّلامُ لقومه:

﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

وقد أَخطَأَ من قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾:

«وأَنْ لو اسْتَقَامُوا علىٰ الطريقة الّتِي هُمْ عَلَيْها من الكُفْر». وخطأ هذا القول يظْهَرُ من التحليل التالي:

(١) إنّ الكافرين ليست لهم استقامة مَا على طريقة، بل لهم طرائقُ قِدَدٌ مقطَّعَةٌ متفرّقة، كما قال النفر من الجنّ: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾:

(٢) وصَفَ الله عزّ وجلّ صراطه بأنّه صراطٌ مستقيم، وأمَرَ الناس باتّباعه، ونَهَاهُمْ عَنِ اتباع السُّبُلِ لأنّها سبُلُ الشيطان ومتّبِعِي الشيطان فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾.

(٣) إِنَّ التوسِعَةَ علىٰ الكافِرينَ ليْسَتْ من سُنَنِ اللَّهِ الثابتَةِ، وإنّما تكُونُ بَعْدَ وُصُولِهم إلى دَرَكَةٍ مَيْؤُوسٍ من صَلاحِهِمْ فيها عن طريق إراداتهم الحرَّة، وقبل إهلاكهم الشامل، إذْ يُوسّعُ اللَّهُ عليهم حتَّىٰ ينكَشِفَ طُغْيانُهُمْ انكشافاً تامًّا، وعِنْدَئذٍ يُنْزِلُ الله بهم الإِهْلاكَ الشَّامِلَ بصُورَةٍ مُباغِتَة.

وقد أبانَ اللَّهُ عزّ وجلّ هٰذِهِ السُّنَّة بقوله تعالَىٰ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾.

● ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾: أي: لنَمْتَحِنَهُمْ ولنختَبِرَهُمْ فيما نُوسِّعُ عليهم من نِعَمٍ كَثيرَةٍ، سَبَبُها إِفَاضَةُ الماء الْغَدَقِ علَيْهِم.

الفتنة: في اللّغة تأتي بمعنَىٰ الابتلاء والامتحانِ والاختبار، وهذا هو الأَصْلُ من معانيها.

وللفتْنَةِ فروعُ معانٍ أُخرَىٰ لاَ تَصْلُحُ هُنَا.

ونَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ نصوص قرآنية كثيرة أنّ الابتلاء بالنِّعَمِ والمصائب في الحياة الدنيا، هو الغايَةُ من خَلْق الإِنْسِ والجنّ في ظروف هذه الحياة بصفاتهم الّتي فَطَرهم الله عليها، وأجَلُّها الإرادة الحُرَّة، والقدرةُ الإِدراكيّة، والصِّفات النفسيَّةُ، والتَّمكِينُ بالتسخير الرَّبّاني من تنفيذ المراد.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

• ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾.

وفي القراءة الأخرى: **[نَسْلُكه]** بنُون المتكلّم العظيم، لإلْقاءِ الرَّهْبَةِ مِنْ عَذاب الرَّبّ العظيم.

• ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾:

الإعْراض: مَنْزلَةٌ وُسطَىٰ بين الإقْبَالِ والإدْبار، وأَصْلُ الإعراض إعطاء الجانب، وعُرْضُ الشيء في اللُّغَةِ جانبه، وعارضاً الإنسان صفحَتَا خَدَّيْه.

ذِكْرُ الرَّبِّ هو الكتاب المنزَّل من لَدُنْهُ، وهو القرآنُ بَعْدَ أوّل مراحِل إنزالِه على خاتم أنبيائه ورُسُله، إذْ أنزلَهُ الله جلَّ جلالُه وعظم سلطانُه ذكْراً للعالمين، أي: ليَتبَلَّغُوهُ وليتَدَبَّرُوه، ولِيَضَعوهُ في خزائن ذاكراتهم، ثُمَّ ليَذْكُروا بياناته وأحكامَه وأوامِره ونواهيَهُ كُلَما دَعَا أمْرٌ أو حَدَثٌ لتَذَكُّرِها، من أَجْلِ اتِّبَاعِهَا وَالْعَمَل بها.

واختصاراً لهٰذه المطالب بشأن القرآن سمَّاهُ الله ذِكْراً للعالَمين، فقال الله عزّ وجلّ في صورة (ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول) بشأن القرآن:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾﴾.

والإعراضُ عن القرآن يكُونُ بعَدَمِ التوجُّه لتَلَقِّيه وتَدَبُّرِ مَعَانيه، وتَفَهُّمِ ما اشْتَمل عليه من حقٍّ وهدايَةٍ إلى الصراط المستقيم، وما فيه من وصايا وبيانات وأحكامٍ وشرائع.

ومن أعْرَض عن القرآن هذا الإعراض، لم يكُنْ له في نَفْسِه ذِكْرٌ ما، بلْ يسْتَمِرُّ طَوالَ حَياتِه مُسْتَغْرِقاً في مطالبِها، وفي مطالب أهوائه وشهوات نفْسِه خلالَها، ومُسْتَغْرقاً في ضلالاته ومعاصِيهِ، مفتوناً بها.

وأشدّ من الإعراض الإدْبارُ والتولّي، وقد اكْتَفَى النصُّ بذِكْر

الإعراض، عن ذكرِ الإدْبار والتَّوَلّي، لأنَّ ذِكْر الأخفّ يَدُلُّ على الأشَدِّ من بَاب أولى عقلاً.

فَمَنْ يُعْرِضْ عن ذِكْرِ رَبِّهِ طَوالَ حَياتِه، ويَأْتِهِ أَجَلُهُ وهُوَ على إعْرَاضه، وتَنْزِلْ بِهِ مَنِيَّتُهُ، يَسْلُكْهُ رَبُّهُ عَذَاباً صَعَداً، أي: يُدْخِلْهُ كَمَا يُدْخَلُ السِّلْكُ في الثَّقْبِ الضَّيِّقِ لتَعْذيبِه في جهنَّمَ تَعْذيباً شَدِيداً، ولِيَذُوقَ بهذا الإدْخالِ عَذَاباً شَدِيداً، جزاء إعْرَاضِهِ عَنْ دَعْوَةِ رَبّه له، وعَدَمِ اسْتِجَابَتِهِ لِنِدَاء الدُّعَاةِ إلى دينِ الله، واتّباع كتابِه القرآن المجيد.

● ﴿يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾:

يُقَالُ لغة: «سَلَكَ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ سَلْكاً فَانْسَلَكَ» أي: أَدْخَلَهُ فيه فَدَخَلَ.

قال ابن الأعرابي من أئمة اللُّغَة: سَلَكْتُ الطَّرِيقَ، وسَلَكْتُهُ غَيْرِي، فجعَلَ من استعمالات فعل «سَلَك» أنَّهُ يتعدَّىٰ إلى مفعُولَيْنِ، فإذَا كان فعل «سَلَكَ» يتعدَّىٰ بنفسِه إلَىٰ مفعُولَيْن كَما ذَكر، فكَلِمَةُ ﴿عَذَابًا ﴾ مفعُولٌ به ثانٍ.

وإذا كان فعل «سَلَكَ» لا يَتَعَدَّىٰ إلاّ إلى مفعول به واحد، فكَلِمَة ﴿عَذَابًا ﴾ منصوبةٌ بِنَزْعِ الخافض، والأَصْلُ: «في عذابٍ».

أي: في مُحِيطٍ به يَذُوقُ منْهُ عذاباً دَواماً.

ويمكن أن تكونَ العبارة جاريَةً على تَضمِين فعل ﴿يَسْلُكْهُ ﴾ معنى فعل «يُذِيقُهُ» والتقدير: يَسْلُكُهُ مُذِيقاً إيَّاهُ عذاباً. وهذا التضمين كثيرٌ في القرآن، إذْ تُغْنِي الجملة الواحدة به عن جُمْلَتين، ذُكِرَ مِنْ إحداهُما عَامِلُها، وَذُكِرَ من الأخرى معمولُها، وهذا من بدائع الإيجاز في القرآن.

ومعنى العبارة عموماً: يُدْخِلْهُ مُكْرَهاً في مكانٍ ضَيّقٍ من جهَنَّم يُعَذِّبُهُ بِه عَذَاباً شَدِيداً.

﴿صَعَدًا﴾: أي: شاقًا شدِيداً، جاءتْ هٰذه الكلمة وصْفاً لكلمة: ﴿عَذَابًا﴾. فالمعْنَىٰ: يَسْلُكُهُ ويُذِيقُهُ عذاباً شاقًا شدِيداً.

الصَّعَدُ: هو في اللّغة المشقة. وَيُقَالُ لُغةً: عذابٌ صَعَدٌ، أي: شدِيدٌ شاقٌّ.

وعبارَةُ ﴿يَسْلُكْهُ﴾ الّتي دلَّتْ علَىٰ الإدْخال في مكانٍ ضَيِّقٍ لا يَتَّسِعُ لأكْثَرَ مِنْهُ، قد جاء التصريح به في قول الله عزّ وجلّ في سورة (الْفُرْقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول):

﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُوا۟ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا وَٱدْعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾﴾.

الثُّبُور: الْهَلاكُ بالْمَوْت، ولكنْ لا مَوْتَ بَعْدَ البعث ليوم الدين. فالمكذّبون بيَوْم الدِّين، الْمُعْرِضُون عن القرآن الّذِي هو ذِكْرُ ربّهم، يُلْقَوْنَ إلْقَاءً مُهِيناً مُذِلاً في مكانٍ ضيّقٍ من جهنَّمَ، حيثُ السّعِيرُ مُلْتَهبٌ فيها، فَيُسْلَكُونَ فيهِ سَلْكاً، على مقادير مُحِيطِ أجْسَادِهم، ليَذُوقُوا الْعَذَابَ من كلِّ جَانب.

فالتَّعْبيرُ بالسَّلْكِ الذي منه سَلْكُ الخيْطِ في ثَقْبِ الإبْرَة، منْ أدَقّ التعابير وأبْرَعِهَا، للدَّلالَةِ علىٰ إحَاطَتِهِمْ بالوسائل الّتي تُدْخِلُ إلَىٰ مَرَاكِز الإحْسَاسِ في ذَوَاتِهِمْ مَا يُعَذَّبُون به.

هذا العذاب لا يَعْرِفُ مقْدَارَه، ولا يَسْتَطيعُ تَصَوُّرَهُ، إلاَّ مَنْ أُدْخِلَ في قَنَاةٍ من الْحَدِيدِ الْمَحْمِيّ بحرارة شَدِيدَةٍ، مع بقائِه حيًّا مُحِسًّا واعياً لكل ما يجري له، وهذه القناة الحديدِيَّةُ علىٰ قَدْرِ جِسْمِهِ، أو أضْيَقُ قَلِيلاً من جِسْمِه، فَهُوَ يُسْلَكُ فيها بدَفْعٍ أَوْ جَذْبٍ شَدِيدَين.

❁ ❁ ❁

قول اللّٰهِ عزّ وجلّ:

● ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾:

هذا الخطابُ في هٰذه الآيَةِ مُوجَّهٌ للإِنْسِ والجنّ معاً.

﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾: جَمْعُ الْمَسْجد، وكَلِمةُ «مَسْجِدِ» على وزْنِ «مَفْعِل» تأتي «**اسْمَ مكان**» وتأتي: «**اسْمَ زمان**» وتأتي «**مَصْدَراً مِيمِيًا**». وأَصْلُ قياسِها «**مَسْجَد**» بفتح الجيم لأن مضارع فِعْلِها على وزن «يَفْعُل» بضم الْعَيْن، تقول: «**سَجَدَ يَسْجُدُ**».

قال عُلماء العربية: ويصحّ فيما جاء مسمُوعاً على خلافِ القياس أن يُنْطق على وفق القياس.

وأطلِقَ لفظ «مَسْجِدِ» في الاصطلاح العامّ الّذي يُعْتَبَرُ عُرْفاً شائعاً على كلّ مكانٍ بُنِيَ لعِبَادَةِ الله عزّ وجلّ.

وبالنظر إلى المعاني اللُّغَوِيّة التي يُطْلَقُ عليها لفظ «مَسْجِد». وجَمْعُه «مَساجِد».

وبالنظر أيضاً إلى أنَّ كلَّ مَا في الوجودِ سِوىٰ اللّٰهِ عزَّ وجلَّ، هو مِلْكٌ للّٰهِ لاَ يُشَارِكُهُ في ملكيّتِه له أحَدٌ.

كانت عبارة: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ صالحةً للدَّلاَلَة على أنَّ كُلَّ ما يُطْلَقُ عَلَيْهِ لفظ «مسجد» وجمعه «مساجد» هو مِلْكٌ للّٰهِ وحْدَهُ، لا يُشَارِكُه في ملكيَّتِه أحَدٌ، وهو حَقٌّ للّٰهِ وَحْدَهُ إذَا كان مَصْدراً مِيمِيًا بمعنَىٰ السُّجود.

ولهٰذا جاء في أقوال المفسّرين في تفسير كلمة ﴿ٱلْمَسَٰجِدَ﴾ في هذا النصّ ما يلي:

● هي الأماكن المخصَّصة للعبادة.

● هي الأرض كُلُّها، إذْ جَعَلَ اللّٰهُ الأرْضَ كُلَّها للرسُولِ محمّد ﷺ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وهٰذِهِ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ هٰذِه الرسالة الرَّبَّانِيَّةِ الخاتمة.

● هي الأعضاء الَّتي يَسْجُدُ المصَلِّي بها على الأرض في صلاته، وهي: جبهَتُهُ، وأنْفُهُ، وَكَفَّاهُ، وَرُكْبَتَاهُ، وعَظمَتَا قَدَمَيْه.

● هي أعمال السُّجُودِ كُلُّها، إذْ هِيَ حَقٌّ لِلَّهِ وَحْدَه.

أقول:

إنّ من الأسْلُوبِ المتَّبَع في القرآن المجيد لتحقيق الإعْجَازِ في الإيجاز البديع، اسْتِعْمَالَ اللَّفظ في كلّ المعاني الّتِي يَصْلُحُ لها في السِّياق والسّباقِ من جُمْلَةِ المعاني الّتِي يَدُلُّ عَلَيْهَا.

وهٰذا ما ذهَبَ إلَيْهِ أئِمَّةُ المذاهب الثلاثة: «مَالك، والشافعي، وأَحْمَد» رضي الله عنهم، وأجْزَل مَثُوبَتَهُم.

ولفظ «المساجد»، هُنَا يَصْلُحُ للدَّلَالة على كلّ معانيه، فلا داعيَ للتخصيص، إذْ كُلُّ ما يُطْلَقُ علَيْه لفظ «مسجد» هو مِلْكٌ لله عزّ وجلّ.

● ﴿فَلَا تَدْعُوا مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ خطاباً للإنس والجنّ، أي: فلا تَعْبُدُوا مع الله أحداً.

أصل الدّعاء في اللّغة النّداء، ويأتي بمعنى الرَّغْبَة إلى الله والطّلَبِ منه لأمور الدُّنيا أو الآخرة، ويأتي بمَعْنَىٰ مُطْلَق العبادة لله عزّ وجل.

والدُّعاء بمعنَىٰ سؤال الله من خَيْرَي الدّنيا والآخرة، هو من العبادة، بلْ هو رأسُ العبادة ومُخُّها، وأحَدُ عناصرها الكبرى.

فالأولى أنْ تُحْمَلَ الْعِبَارَةُ علىٰ مُطْلَقِ العبادة، لمَا فيها من شمول.

ويَدْخُلُ في العبادة تبليغ دين الله، وتبليغ كتاب اللَّهِ القرآن، وشرحُ معَانِيه ودلالاتِ آياته وعباراته وجُمَلِه، والإقْناعُ بما فيها من حقّ وهُدىً.

وهذا التبليغ من أفضل العبادات وأجلّها، إذ هُوَ وَظيفةُ الْمُرْسَلِين.

❀ ❀ ❀

قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿لِبَدًا﴾ بكَسْرِ اللام لجمهور القرّاء، وفي قراءة لهِشام عن ابن عامر: [لُبَداً] بضَمّ اللاّم، وهُما لغتان والمعنى فيهما واحد. «لِبَداً» جَمْعُ «لِبْدة» و«لُبداً» جَمْعُ «لُبْدَة».

اللِّبْدَة واللُّبْدَة: في اللُّغَةِ الجماعَةُ من الناسِ. ويُقال لغةً: النَّاسُ لُبَد، أي: مجتمعون. ومالٌ لُبَد، أي: كثيرٌ لا يُخَافُ فناؤه، كأنه الْتَبَدَ بعْضُه على بعض. ولِبْدَةُ الأسد: الشعر المتراكب بين كتفَيْه وسمّيت الجماعة من الناس لِبدة، لتلبُّدِهم كالصُّوفِ الذي يلْتَبِدُ بَعْضُهُ على بعض. أو كالشعر المتراكب بعضه على بعض.

ورُوي عن ابن عبّاس في تفسير: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: أي: مجتمعين بعضهم على بعض. قال: ومعنى «لبد»: يَرْكب بعضهم بعضاً[1].

أقول: الجماعاتُ المتألّبَةُ ضِدَّهُ، هذا أنسب المعاني الملائمة للسّياق في النصّ، لعبارة: ﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ كما سيأتي إنْ شاء اللّه إيضاحه في التدبّر.

● ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾: أي: لـمّا قام عبد الله مُحمَّد ﷺ بوظيفَتِهِ الّتي كلّفَهُ الله إيّاها، وهي الدَّعْوَةُ إلى الله.

﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾: أي: كَادَ رافِضُو دَعْوتِه يكُونُونَ جماعَات مُجْتَمعةً بكَثَافَةٍ ضِدَّهُ لمقَاوَمَةِ دَعْوته، ولمنعه من أداء رسالة رَبّه.

لقد شرّف اللّهُ رَسُولَهُ محمّداً بأنّه عَبْدُه، لأنّه قَدْ تحقَّقَ بعُبُوديّتِه له تحقُّقاً هو أقْصَىٰ ما يسْتطيعُهُ الكامِلُونَ من البشر باختِيارِهم الحرّ، ضمن مفهوماتِ العبوديَّةِ الاختيارِيَّة.

---

(١) انظر، «لسَان العرب» لابن منظور: مادّة «لبد».

أمّا الْعُبُودِيّة الجبْرِيّةُ للّهِ عزّ وجلّ فَهِيَ وصْفٌ ملازمٌ لِلأنْسِ والجنّ والملائكةِ، ولكلِّ حَيٍّ، لأنّهُمْ جَمِيعاً خلْقُه، فهو بمقْتَضَىٰ خَلْقِه لهم هو مالِكُهم، وبمُقْتَضَىٰ سُلْطانِه عليهم دواماً، وإمدادِه لَهُمْ بالبقاء دواماً، وبمُقْتَضَىٰ خُضُوعِهِمْ لمقاديره دواماً، فَهُمْ عَبِيدُهُ دواماً عُبُودِيَّةً جَبْرِيَّةً، لاَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنهُمْ الخروج عَنهَا طَرْفَةَ عَيْنٍ وَلاَ أَقَلَّ من ذَلِك، فالكفّارُ والفجّارُ عبيدٌ لله بالْقَهر.

وأمّا تحقُّقُ المؤمنين بالْعُبودِيّة الاختياريّة، فهو في الغالِبِ من أحوالهم، وفي معظم أفرادهم، تحَقُّقٌ ناقصٌ، لوَفْرَةِ مَا يَرْتكبُون من المعاصي والآثام والخطايا.

وقد شَرَّف الله عزّ وجَلَّ الرُّسُلَ والأنبياءَ في القرآن المجيد بالْعُبُودِيّة الاختياريّة الخاصّة، ذاتِ الدرجات القريبات منه جلّ جلاله.

ومنح بفَضْلِه جميع المؤمنين المتقين عُبُودِيَّةً ذاتَ تفضيل ما، بحسَب مراتبهم ودَرَجاتِهم في الإيمان والتقوى، والبرّ والإحْسَان.

والقرائنُ في النُّصُوص تدُلُّ بإشَاراتها على مُسْتَوىٰ المرتبة والدَّرَجَةِ في الْعُبُودِيّة التَّشْرِيفيَّة الّتي يَمْنَحُها الله لعَبْدِه، أو لطوائفَ وزُمَرٍ من عباده.

وممَّن منَحَهُمُ اللّهُ ـ جلّ جلالُه وعظُمَ سلطانُه ـ مَرْتَبَةَ عُبُودِيَّةٍ تَشْرِيفيَّةٍ رفيعةٍ جدًّا:

(١) رَسُولُ الله محمَّدٌ ﷺ، ومن أوضح النصوص الدّالّةِ على هذه المرتبة العظيمة والدَّرَجَةِ الرَّفيعة فيها، قول الله عزّ وجلّ في سورة (الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول):

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾.

(٢) رُسُلُ اللَّهِ: «إبراهيمُ وإسحَاق ويَعْقُوب» عليهم السّلام، ومن أوضح النصوص الدَّالَّةِ على مَرْتَبتِهِم العظيمة في عبوديتهم لله عزّ وجلّ ودَرَجَتِهِمُ الرَّفيعة فيها، قول الله عزّ وجلّ بشأنهم في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

ومع ما في ذكرِ العُبودِيَّةِ التَّشْرِيفيَّة للَّهِ عزَّ وجلّ وصْفاً للكامِلين من البشر، وتنويهاً بارْتفاع مَرْتَبَتِهِمْ ودَرَجتِهِمْ فيها، فإنَّ فيها تَنْبيهاً على أنَّ أحداً سِوَىٰ اللَّهِ مَهْمَا ارْتَقَتْ مَنزِلَتُهُ قُرْباً من رَبّه، حتَّىٰ عُرِجَ بِهِ إلىٰ سِدْرَةِ المنتَهىٰ، فإنَّهُ لاَ يَخْرُجُ عَنْ أَنْ يكُونَ عبداً للَّهِ ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُهُ ـ فلَنْ يكونَ ابْناً لله، ولا شَريكاً لَهُ في شَيْءٍ من رُبوبيّتِه، ولاَ فِي شيْءٍ من إلهيّته، فاللَّهُ عزّ وجلَّ غَنِيٌّ بذاته، وبصِفاته، عن أن يتَّخِذَ صاحِبَةً، أوْ وَلَداً، أَوْ شرِيكاً، ومُنَزَّهٌ عَنْ أَنْ يلِدَ أو يُولَد، وعَنْ أن يكُونَ أحَدٌ كُفُؤاً له سبحانه.

إنَّه ـ جلَّ جلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانُه ـ أَحَدٌ صَمَد.

ولهذا قال اللَّهُ عَزَّ وجلَّ بشأن عيسىٰ عليه السّلام وبشَأْن الملائكة المقربين، في سورة (النساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول):

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾.

اسْتَنْكَفَ: أي: أنِفَ وامْتَنع، يقال لغة: استَنْكَفَ من الشيء، واسْتَنكَفَ عنه، أي: أنِفَ وامْتَنَعَ كارِهاً له. واستنكفَ عن الْعَمَلِ امتنع عن القيام به كَارِهاً له، وقد تكون الكراهِيَةُ ناشئةً عن الاستكبار.

وَلِيًّا: أي: سيّداً يحتَمُونَ به.

ولاَ نَصِيراً: أي: ولا نَصِيراً يَنْصُرهم، فيَدْفَعُ عَنهُمْ عذاب الله الأليم.

● ﴿يَدْعُوهُ﴾: أي: يَعْبُدُ الله بتَبْلِيغِ دِينِهِ، والدَّعْوَةِ إلى سبيلِ رَبّه، والْتِزَامِهِ بأنْ يكُونَ أوّلَ الْمُسْلِمينَ المجاهدين، الصّادِعِين بالحقّ، المتوكّلِينَ علىٰ الله، والملتجئين إليه بالدُّعاء.

فالدَّعْوَةُ إلى اللّهِ مع الالْتِزام بشروطها، ومنها أنْ يكون مُطَبّقاً مَا يَدْعو إليه، أشْرَفُ العباداتِ وأكْملها.

سَبَقَ أنْ ظهر لَنَا بالتَّحْلِيل أنَّ الدُّعَاءَ يَشْمَلُ كُلَّ أنواع العبادات، وفي مُقَدّمتها الدَّعْوَةُ إلى الله.

ولمّا قام الرَّسُول محمَّدٌ ﷺ يَدْعو رَبَّهُ، فيعْبُدُهُ بالدَّعْوَة إلى دِينهِ، بجهادٍ مُتواصِلٍ، وُمَتابَعَةٍ بِصَبْرٍ وَدَأبٍ، ويُبَلّغ ما يَنْزِلُ عليه، لاَ يَنْقُصُ منه شيئاً، أزْعجَ بجهاده وصَبْرِهِ ودَأبِه المشركينَ، وسائرَ الكافرين، وهاجَهُمْ، واسْتَثَارَ غَضَبَهُمْ، ولا سِيمَا حينما أخَذَ أتباعُهُ الّذين آمَنُوا به واستجابوا لدَعْوَتِه يَتَكاثَرُون، وَيكُونُونَ من حوله قوّةً مُنَاصِرَة مؤازِرَة.

وخاف كبراء قوْمِه الّذين لم يسْتجيبوا لدَعْوتِهِ، أن يَفْقِدُوا في قوْمِهم مكاناتِهم الّتي لهم، وأنْ يسْلُبَهُمْ محمَّدٌ سُلطانَهم وزَعامَاتهم، وخافُوا أن تكون كلمةُ اللّهِ الّتي يَدْعو الناسَ إليها هي الْعُلْيَا، وأنْ تكونَ كَلِمَاتُهُمْ هي السُّفْلَىٰ في مجتمعهم، عندَئذٍ تَدَاعَوْا عَلَيْهِ مُتَنَاصِرِينَ جماعَاتٍ جَمَاعَات، حتَّىٰ كَادُوا أن يَكُونُوا ضِدَّه لِبداً، ليواجِهُوا دعْوَتَه بالْقُوَّةِ الّتِي تَقْمَعُها، وتُفرِّقُ أنْصَارَها، بالاضطهاد والعنْفِ القاسِر.

وكان هذا قُبَيْلَ إنْزَال سُورَةِ (الجنّ) وَإبّان إنْزَالِها، وهذا ما دَلَّ عليه قولُ الله عزّ وجلّ فيها: ﴿كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾. لَمْ يَصِيرُوا بَعْدُ عليه لُبَداً، جماعَاتٍ مُتَألّبَةٍ ضِدَّهُ، لمقاومَةِ دَعْوَتِهِ، واضطهاد الذين آمَنُوا به واتَّبعُوه، لكِنَّهُمْ كَادُوا أنْ يكونُوا كذلك.

هٰذه العبارة تَصِفُ المرحَلَةَ الّتي وَصَلَ إليها مُشرِكُو مَكّة من تاريخ دعوة الرسول محمّد ﷺ، وقد جاءت بَعْدَهَا مراحل أشدُّ مِنها.

ولدَىٰ ملاحظة تَشْبيه مُقَاوِمي دَعْوَةِ الرَّسُول ﷺ في أواسط المرحلة المكيّةَ باللُّبد، ومن معاني اللّبد جمع «لِبْدَة» وهي الشعَرُ المتراكب بين كَتِفي الأسَدِ، نجد إيحاءً بأنّ جماعات مُقَاومي دَعْوَته، ولو وَصَلُوا حتَّىٰ صارُوا لبداً بالفعل، فإنَّهم لَنْ يَضُرُّوه شيئاً، لأنّهم سَيكُونون باجتماعهم عليه مثْلَ لِبْدَة الأسدِ بالنِّسْبَةِ إليه، فاللَّهُ عزّ وجلّ حَامِيه، وناصِرٌ دِينَهُ وخاذِلٌ كلَّ من يُعادِيه ويُقَاوِمُ دَعْوَته، ويَضْطهِدُ الّذِين آمَنُوا بِهه واتَّبَعُوه، وهذا هو الذي تحقَّقَ فيما بعد.

فالمعنى الذي نستخلصه مِنْ قول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ۝١٩﴾ كما يلي:

وأنّه لمّا نَهضَ عبْدُ اللّهِ مُحَمَّدٌ بِهِمَّةٍ وحَزم وعَزْم وحكْمةٍ وصَبْرٍ ودأبٍ، مُتحلّياً بالْعُبُودِيَّة الاختياريَّةِ الْكَامِلَةِ لِرَبّه، يُبَلِّغُ كِتَابَ اللّهِ الّذِي يَتَنَزَّلُ عليه، ويَدْعو إلى سَبِيلِ رَبِّهِ بالْحِكْمَةِ والموعظةِ الحسَنَةِ، مُطَبّقاً بذاته أحكامَ الإسلام وشرائعه، فاسْتَجَابَ لدَعْوَتِهِ من قومِه فَرِيقٌ صالحون مؤمنون مجاهدون، وصار أمْرُه مَخُوفاً بالنّسْبَةِ إلى كُبَراء قَومه المشركين، إذْ صاروا يحْذَرُون من انتشار دَعْوته أن يفقدوا مكاناتهم ومصالحهم وزعاماتهم.

لمّا حصل ذلك تنادَىٰ هؤلاء الكبراء الكافرون لمقاومَتِه، وإسْكاتِ دعْوَته، واضطهاد الذين آمنوا بِه واتَّبَعُوه، فأخَذُوا يحاولون تجميع جماعَاتِ متكاثفاتِ مُتَلبّدات، بُغْيَة الإحاطة بالرَّسُول حول رَقَبَتِه، كإحَاطَةِ لِبْدَةِ الأسَدِ حَوْلَ رَقبته.

وبالنظر إلى السُّوَر الّتي نزلَتْ قبل سُورَةِ (الجنّ) في نجوم التنزيل، نجد أنَّ هذه الآيَةَ، تَتحدَّث عَنْ طورِ تَطَوَّرَت إِلَيْهِ مواقِفُ كبراء مُشرِكي مكّة

قُبَيْل نُزُول سورة (الجن) وهو طَوْرُ التَّكتُّلِ في جماعات ضِدَّ الرسول محمد ﷺ، وضدّ الذين آمَنُوا به واتبعُوه.

وهذه مَرْحَلَةٌ طبيعيَّةٌ ارْتقائيَّةٌ في الْعِداء، وهي تكْشِفُ الطَّورَ الجديد الذي تحوّلَتْ إليه مواقفُ كُبَراءِ أعداءِ دعْوَتِه في مَكَّة.

لَقَدْ كانَ الطَّورُ إبَّان نُزُول سُورَة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) طوراً كان فيه هؤلاء الكبراء في عزّةٍ وشقاق.

وإبّان نُزولِ سورة (الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول) تَرَقَّوْا إلى طَوْرِ من يحاول الاجتماع المتلَبِّدَ لِحَرْبه، وبهذا تظْهَرُ حَرَكِيَّةُ الأَطْوار في مواقف كُبراء كفّار مكّة تجاه دَعْوَة الرَّسُول ﷺ.

أمّا ما ذكره بعض أهل التأويل في تفسير الآية، من أنّ الجنّ كادوا يكونون عليه لِبداً حينما حضَروا واستمعوا القرآن منه، فهو لا يتلاءم مطْلَقاً مع كونهم نفراً لا يتجاوزون العشرة، وجاء في الروايات أنهم كانوا سبعة أو تسعة، ولا يتلاءم مع المعنَىٰ اللّغويّ لكلمة «لُبَد» كما سبقَ بيانه.

وأظنُّ أنهم قد اختلطت عليهم حادثة لقاء الجنّ في الحَجُون أواخر الْعَهْد المكيّ على ما رواه ابن مَسْعود، بحادثَةِ النَّفر الّذين اسْتَمَعُوا القرآن من الرسول، وهو لا يَعْلَمُ بهم، حتَّىٰ أَوْحَىٰ الله إليه بقِصَّتِهم.

وبهذا انتهىٰ تدبُّر الدّرسِ الثاني من دروس السورة والحمدُ لله على توفيقه ومعونته وفتحه.

❀ ❀ ❀

(٧)
التدبّر التحليلي للدرس الثالث من دُروس السورة وهو الآيات من (٢٠ ـ ٢٨) آخر السورة.

قال الله عزّ وجلّ خطاباً لرسوله محمّد ﷺ ومُعلّماً ما يقوله:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

القراءات:

● قرأ عاصم، وحمزة، وأبو جَعْفَر: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي﴾ ﴿قُلْ﴾ فِعْلُ أمر. وقرأ باقي القرّاء العشرة **[قَالَ]** فعلاً ماضياً.

وبين القراءتين تكامل في أداء المعنى المراد، أي: قال اللَّهُ له: **[قُلْ]** فـ**[قَالَ]** كما أمَرَهُ الله.

● وقرأ نَافع، وابْنُ كثير، وأبو عَمْرو، وأبو جَعْفر: **[رَبِّيَ أَمَداً]** بفَتْحِ يَاء المتكلّم. وقرأ باقي القرّاء العشرة: ﴿رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ بإسْكانها وَمَدّها وصْلاً. وهما وجْهان عرَبيان لنطق ياء المتكلّم.

● وقرأ رُوَيس: **[لِيُعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا]** ببناء «يُعْلَم» لما لم يُسَمَّ فاعِله. وقرأ بَاقي القرّاء الْعَشَرةِ: ﴿لِّيَعْلَمَ﴾ بالبناء للمعلوم، والفاعل ضَمِير يَعُودُ على لفظ ﴿رَبِّىٓ﴾ في الآية (٢٥).

وبين القراءتَيْن تكامُلٌ في أداء المعنى المراد، فقراءة الجمهور دلَّتْ على عِلْمَ الله خاصَّة، وقراءة «رُوَيْس» دلّت على وُجود هذا الْعِلْم عِنْدَ غير اللَّهِ كالملائكة المكلّفين أن يُسَجِّلُوا أعمال العباد.

تمهيد:

هذا الدّرس الثالث من دُرُوس السورة، دَرْسٌ يُعَلِّم الله عزّ وجلّ فيه رسُولَهُ ما يقولُه لكفَّارِ قَوْمِه، في المرحلة الَّتي نزلَتْ فيها سورة (الجنّ). في مواجَهَةِ الطَّوْر الّذي وَصَلوا إليه، حتَّى كادُوا يكونُون مُتَألِّبِينَ جماعاتٍ علىٰ عداوَتِه، ومقاومَةِ دَعْوَته، واضطهاد الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتّبَعُوه، وهذه الجماعات متكاثفةٌ مُتَلَبِّدةٌ كتَلبُّد الصُّوف، أو الشَّعر حين يتراكبُ بعْضُهُ على بعض، كما سبَقَ بيانه في الدرس الثاني من دُروس السورة، لدى تدبُّر قول الله عزّ وجل:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

إنَّ هٰذا الطَّوْر يَسْتَدعي مقالاتٍ يُوَجِّهها الرَّسُولُ ﷺ لرافضي الاستجابَةِ لدَعْوَته، يُبَيّنُ لهم فيها مَسْؤُوليَّتَهُ تُجاهَ رَبّه، وخَوْفَهُ من مُخَالَفَةِ مَا كَلَّفَهُ اللَّهُ إيَّاه من تَبْلِيغ دِينِهِ، ويُحَذِّرُهم فيها من عَاقِبَةِ مَعْصِيَتِهم لِلَّهِ ولِرَسُوله، ويُجِيبُهُمْ فيها على تَسَاؤلاَتِهم المتعلّقة بمَا كَانَ قَدْ أَنْذَرَهم به، من انتصار الحقّ الذي جاء به عن رَبّه، على بَاطِلِهم المصِرّين على الالتزام به بعنادٍ واستكبار، وما وَعَدَهم به من انتصار من آمَنَ به منهم، على مَنْ كَفر ووقف مواقف العداء، والاستعداد للمقاومة والحرْب، حتّىٰ كادُوا يُجَمِّعُون جماعاتهم اللِّبدِ لقَمْع دَعْوَتِه، واضطهاد أنْصارِه الذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، اضطهاداً يوقف مَسِيرَة دعوة الإسلام وانتشارها.

وكُلُّ قول يَقُولُه الرَّسُول ﷺ لكُفَّارِ الإنس، هو قولٌ مُوَجَّهٌ أيْضاً لكُفَّارِ الجنّ، لأنَّ الجنّ في قضايا الدّين وبلاغاته تابعُونَ لنُظَرائهم من الإنْس في رسالة محمّد ﷺ، الخاتمة لرِسالاتِ الله لعِبادِه.

التدبُّر التحليلي:

قول الله عَزّ وجلّ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾.

وَفي القراءة الأخرى: [قَالَ]، أي: كما سَبَقَ بيانه: ﴿قُلْ﴾ فـ[قَالَ] كما أَمَرَهُ رَبُّهُ.

والمعنى: قُل: يا مُحَمَّدُ: مَا أَعْبُدُ إلاَّ رَبّي في سُلُوكي الشَّخْصيّ، وفي دَعْوَتي إلى سَبيلِهِ، وَفِي الْبَلاَغَاتِ الّتِي أَمَرَني بأَنْ أُبَلِّغَها لِعِبادِه، وأَنَا لاَ أُشْرِكُ به أحداً.

﴿إِنَّمَآ﴾ أَدَاةُ حَصْرٍ، وهي في معناها تَدُلُّ على ما يَدُلُّ عليه النَّفْيُ والاستثناء بـ«إلاَّ» بَعْدَه، والمَقْصُورُ بِهَذِهِ الأَدَاةِ هُوَ مَا يَلِيها مُباشَرَةً، والمَقْصُورَ عليه هو الذي يجيء بَعْدَه. فالمعنى: أَقْصُرُ دُعَائي علىٰ رَبّي، أي: ما دُعَائِي إلاَّ لِرَبّي، فَرَبّي وَحْدَهُ هو الموصُوفُ بأنّي أَدْعُو إلَيْه، وهُوَ قَصْرٌ حقيقيٌّ من قبيل قَصْرِ الصِّفَةِ على الموصوف عند علماء البلاغة.

فقال الرَّسُولُ محمَّد وفق دَلالة القراءة الثانية: إنَّني فيما أَدْعُو، وفيما أُبَلّغُ عَنْ رَبّي، أقُومُ بما يَجبُ عليَّ مِنْ عِبادَةٍ تُجاهَ رَبّي الّذِي لاَ شَرِيكَ لَهُ في رُبُوبيَّتِه، وَلاَ في إلَهِيَّتِه. فأَنَا لاَ أَتَلَقَّىٰ الأوامِرَ منْكُمْ ولاَ مِنْ آلِهَتِكُمُ الباطِلَةِ الّتي تَعْبُدُونَها مِنْ دُون اللَّهِ عزَّ وجلَّ، حَتَّىٰ أَتَوَقَّفَ عَنْ عِبادَتِي لِرَبّي في القيامِ بما يجبُ عليَّ منْ دَعْوَةٍ إِلَىٰ سَبِيلِهِ، وفيما يَجبُ عليَّ مِن تَبْلِيغِ كتابِهِ الّذِي يُنَزِّلُهُ عَليّ تباعاً نَجْماً فَنَجْماً.

إنَّكُمْ تُطَالِبُونَنِي بأنْ أَتوقفَ عَنْ دَعْوَتي إِلَىٰ سَبِيلِ رَبّي، وبأَنْ أَتَوَقَّفَ عَنْ تَبْلِيغِ القرآنِ الّذي يُنَزِّلُهُ عَليَّ، وأَنَا لاَ اسْتَجِيبُ لِمَطْلَبِكُمْ هٰذا، فأنَا أَعْبُدُ رَبّي الذي لاَ شريكَ له، وهو الَّذِي كلّفَنِي أنْ أقُومَ بهذا التَّبْلِيغِ، وأَنْ أَدْعُوَ إِلَىٰ سَبيلِهِ، وسَأُتَابعُ عِبادَتي لِرَبّي في تبليغِ دِينهِ، ونَشْرِهِ بَيْن عِبادِه، مَهْمَا

جَمَّعْتُهُمْ جُموعَكُمْ لِحَرْبِي، ومقاومَةِ دَعْوَتي، ومَهْما تَلَبَّدْتُم عليَّ، مُتواطِئين ضِدِّي، وضاغِطِينَ علىٰ صَدْرِي، لقَطْعِ أنفاسِي، وإسْكَانِ لِسَاني.

لَقَدْ أشْعَرَ هَذَا القول: ﴿إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ مع قَرِينَةِ تَلَبُّدِ كُبَراءِ مشركي قَوْمِه بأنَّهُمْ طالَبُوهُ بإلحاحٍ أنْ يكُفَّ عن دَعْوَتِه إلى الدِّين الذي جاءهم به عن رَبّه، وإلاَّ قَاوَمُوهُ بقُوَّةٍ، أوْ أنْزل به آلِهَتُهُمْ شرًّا، وأشعر أيضاً عن طريق اللُّزومِ الفِكْرِيّ بأنَّهُ لاَ يَخْشَىٰ منهُمْ وَلاَ مِنْ آلِهَتِهم، فآلِهَتُهُمْ باطِلَةٌ لاَ يُؤْمِنُ هو بها، ولاَ يَخْشَىٰ شرّاً يأتِيهِ مِنْ قِبَلِهَا، إذْ لا رَبَّ في الوجود إلاَّ رَبٌّ واحِدٌ، وهو سُبْحَانَهُ الإلهُ الأَحَدُ، الَّذِي لاَ شريكَ له، ولا والِدَ، ولا صاحِبَةَ ولا وَلد. وهو لا يَخْشَىٰ أيضاً مِنهُمْ، لأنَّ رَبَّهُ الَّذِي كلَّفَهُ القيامَ برسالَتِه سيَحْمِيهِ.

وأخَّرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بحكْمَتِه، تَعْلِيمَ رَسُولِهِ ما يُجِيبُهُمْ به إجابَةً صَرِيحَةً، على تَهْدِيدِهِمُ الْعَمَلِيّ له، بما يُجَمِّعُونَ من جُموعٍ لمقاومَةِ دَعْوَته، ورُبَّما اقْتَرَنَ بهٰذا التَّهْدِيدِ الْعَمليّ منهم تَهْدِيدٌ قَوْلِيٌّ أيضاً، إذْ جاءَ في هذا الدَّرْسِ التعليميّ ما يَدُلُّ علىٰ أنَّ اللَّهَ لَمْ يأذَنْ له بمُقَاوَمَتِهِمْ مُقَاوَمَةً دِفاعِيَّةً مُسَلَّحة، وجاءَ فيه ما يُشْعِرُ بأنَّهُ يُؤْثِرُ تَحَمُّلَ أَذَاهم، وتحَمُّلَ اضطهادِهِمْ لضعفاء المؤمنين، مهما بَلَغَ ذَلِكَ، إذْ هُو يَحْمِي نَفْسَه مِنْ عِقَابِ الله الشَّدِيد الّذِي يَسْتَحِقُّهُ لَوْ كَفَّ عَنْ دَعْوَتِهِ، ولَمْ يَصْدَعْ بما أمَرَهُ اللَّهُ أنْ يَصْدَعَ به.

ونَحْنُ نَعْلَمُ مِنْ سِيرَةِ الرَّسُول ﷺ أنَّ الْعَهْدَ المكِّيَّ كانَ عَهْدَ سِيَاسَةِ الصَّبْرِ وتَحَمُّلِ الأذىٰ، وكَفِّ الأيْدِي عن مُقَاوَمَةِ الْقُوَّةِ الماديَّةِ بِقُوَّةٍ ماديَّةٍ مُسَلَّحَةٍ.

❁ ❁ ❁

قول اللَّهِ عزّ وجلّ خطاباً لرسوله:

● ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾:

إذا تأمَّلْنَا بتَدْقيقٍ في الطَّوْرِ الَّذِي وَصَلَ إلَيْهِ المشركُون أعداءُ دعوة الرَّسُول ﷺ بمكّة، إبَّان نزول سورة (الجنّ) وجَدْنا أنَّهُمْ، مع تَخَوُّفِهم من تَفَاقُم دَعْوَتِهِ وتكاثُر أنْصَارِه ـ مَا زَالُوا يَشْعُرُون بأنَّ الرَّسُولَ والَّذِين آمَنُوا معه، لا يَمْلِكُونَ في ذٰلِكَ الوقْتِ قُوىٰ دِفاعٍ تُحَصِّنُهُمْ مِنْ قُوىٰ مشركي مكَّةَ، لو اجْتَمُعوا عَلَيْهِم، وأعَدُّوا الْعُدَّةَ لِقَمْعِهِمْ، لَكِنَّ أَمْرَهُمْ يتَفَاقَمُ يَوْماً فَيَوْماً، فَهُمْ لاَ بُدَّ أنْ يَتَخَوَّفُوا مِن احْتِمالاتِ المستَقْبَل، وعَلَيْهِمْ أنْ يُسَارِعُوا حتَّىٰ يَتَدَارَكُوا الأمْرَ قَبْلَ أنْ يسْتَفْحِلَ، ويَفْلَتَ زِمَامُهُ من أيْديهم.

والسِّيَاسَةُ الحكِيمَةُ في مُواجَهَةِ هٰذا الطَّوْرِ الَّذِي بلَغَهُ مُشْرِكُو مَكّة، تَقْتَضِي إعْطَاءَهُمْ جرْعاتِ تَهْدِئَةٍ تُخَدِّرُهم، وَتُبَرِّدُ لَهِيبَ تَوَجُّسِهم من احْتمالاتِ تفاقُمِ قُوَّةِ الرَّسُول والَّذِينَ آمَنُوا مَعَه.

فحِينَما يقول لهم: ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا﴾ كما أمَرهُ اللهُ عزّ وجلّ أن يقول لهم، فإنَّ هذا القولَ يُوقِعُ في مشاعِرِهِمْ أنَّهُ ما زال بَعيداً بُعْداً كبيراً عن الاسْتِعْداد لِمُقارَعَتِهِمْ بقُوَّةٍ دِفاعيَّةٍ، فتَبْرُدُ حَمَاسَتُهُمْ، ويَتَوَقَّفُ ولَوْ إلَىٰ حِينٍ تجمُّعُهُمْ لِلْقَمْعِ، ولإعْدَادِ الْقُوىٰ القتاليَّةِ لإيقاف امْتِداد الْقُوَّةِ الإسلاميَّة.

● ﴿إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا﴾: أي: مَاذَا أفْعَلُ مَعَكُمْ، وَحَالِي أنَّني لاَ أمْلِكُ في مُقَابَلَةِ تَلَبُّدِكُمْ مُجْتَمِعِينَ ضِدَّ دَعْوَتِي، وَسِيلةً مَادِّيَّةً أضُرُّكُمْ بِها ضرَراً ما، لأمْنَعَ بها تألُّبَكُمْ عليَّ وعلىٰ الَّذِين آمَنُوا بي واتَّبَعُونِي، وأنَا لاَ أسْتَطِيعُ أنْ أعْصِيَ رَبِّي بالتَّوقُّفِ عن تأدِيَةِ رِسَالاَتِه الّتي اصطفانِي لَها، وأمَرَنِي بأن أقوم بأدائها؟

ويَطْوِي الرَّسُول ﷺ في نَفْسِه أنَّ الله عزّ وجلَّ لم يأذَنْ لَهُ بَعْدُ بذلك، ولم يأذَنْ له بَعْدُ بإعداد الْعُدَّةِ له، وأنّ الله سيأذن له مستَقْبلاً بقِتَالِهم، حينما تكون الظروف مواتية، وتكُونُ احتمالاتُ النَّصر مَرْجُوَّةً ضِمْنَ سُنَنِ الله السَّبَبيَّةِ في كوْنه.

ولا يخفىٰ ما في هذا الإعلانِ من سياسة حكيمةٍ مُهدِّئةٍ لقَلَقِ المشركين، وثَوْرَتِهِمْ ضِدَّه، ومُبَرِّدَةٍ لحَرَارَةِ الحمَاسَةِ لتَجْميعِ القُوى، وإعْدَاد العُدَّة، إذْ لا يَمْلِكُ محمَّدٌ والّذين آمَنُوا به واتبعُوه من الوسائل الماديَّةِ مَا يَخْشُونَ تَفَاقُمَهُ الآن، فما الدّاعي إلَىٰ القلَق الدّافع إلى اتّخاذ القُوَىٰ الماديَّةِ قَبْلَ أَنْ تُوجَدَ المشْكِلَةُ في الواقع؟

● ﴿وَلَا رَشَدًا ﴾: أي: وَلاَ أمْلِكُ وَسليةً أُلْزِمُكُمْ بها إلْزاماً قَسْرِيًّا إكراهيًّا أن تكونوا رَاشِدِين، مُسْلِمِين، متَّبِعِينَ صراط الْهُدىٰ، ضامِنِينَ لأنفُسِكُمْ سَعَادَةَ الدّارَيْنِ.

لَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ الناسَ في الحياة الدُّنيَا مُخيَّرِين غَيْرَ مَجْبُورِين، ليمتَحِنَهُمْ وَيَبْلُوَهم فيما آتاهم، ثم ليُحَاسِبَهم، ويَفْصِلَ الْقَضاء بَيْنهم، ثمّ يجَازِيهم على ما قدَّموا في رحْلَةِ امْتِحانهم.

هٰذه المقالة تدلُّ على أمْرَيْن:

الأمر الأوّل: أنَّه لن يُلْزِمَهُمْ يَوْماً ما على الإيمان به واتِّباعِه، وهذا يَزيد في تَبْرِيد حرارَة حَمَاسَتِهم لمقاومَةِ دَعْوَتِهِ وَقَمْعِها.

الأمْرُ الثاني: أنَّهُ يُحمّلُهُمْ مَسْؤُولِيَّةَ اختيارِهم الحرّ تُجاهَ رَبّهم، الَّذِي سيُحاسِبُهم وسَيُجَازِيهِم يَوْمَ الدّين، وربّما يُعَجّلُ لَهُم بَعْضَ العِقَابِ في الحياة الدُّنيا، كما عَجّل لِكُفَّارِ الْقُرُون السابِقَةِ، الَّذِين طَغَوْا وَبَغَوْا في الأرض.

❁ ❁ ❁

قولُ الله عزّ وجلَّ خِطاباً لرَسُولِهِ:

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾:

رُوِيَ أنّ كَفَّارَ قريش قالُوا للنّبيّ ﷺ: إنَّكَ جئْتَ بأمْر عظيم، وَقَدْ عَادَيْتَ النَّاسَ كُلَّهمْ فَارْجَعْ عن هٰذَا فَنَحْنُ نُجِيرُكَ.

فاقتضَىٰ هذا أنْ يُبيّنَ لَهُمْ أنّهُ مَسْؤول تُجَاهَ رَبّه عَنْ تَبْلِيغ ما يأْمُرُهُ بتَبْلِيغِه للنَّاس، وإنْ لم يَقُمْ بهٰذا الواجب العظيم، فإنَّ اللَّهَ يُعَاقِبُهُ عقاباً شديداً، ولَنْ يُجيرَهُ فيحْمِيَهُ من عذاب اللَّهِ أحَدٌ، ولَنْ يَجِدَ من دُون الله مكَاناً يميلُ إليه، ويَلْتَجئ فيه، ليَدْفَعَ عنْ نَفسِه عَذابَ اللَّه، لَوْ أنَّه تَرَكَ دَعْوَته إلى دِينِ ربّه، وكفّ عن القيام بأداء رسالته، فأنزل الله عزّ وجّل عليه هذا التعليم.

• ﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي﴾: أي: قُلْ يا مُحَمَّدُ إنّي أُأَكّدُ لَكُمْ أنّي إذا استجبْتُ لطَلَبِكُمْ فلَنْ يَمْنَعَنِي ولنْ يحْمِيَنِي من عذَابِ اللَّهِ الشَّدِيدِ أحَدٌ في الْوُجود كُلِّه، وإنّي أخاف من عذابِه.

أصل هذا التعبير أنَّ العَرَبَ كانُوا يَحْمُونَ ويمنَعُونَ مَنْ يدْخُلُ في جوارهم ممَّنْ يُرِيدُه بِشَرّ، لأنَّ جارَهُمْ عَزيزٌ بهم، وكانَ عَزِيزُ القَوْم إذَا أعْلَنَ أنَّ فُلَاناً جارٌ لَهُ، فقد أعْلَنَ أنه يَمْنَعُهُ ويَحْمِيه، كما يَمْنَعُ أهْلَهُ ويَحْميهم، ويُقَالُ لكُلّ من المستجيرِ والمجيرِ: «جَار».

وكانَ متَىٰ قال أحَدٌ يخافُ علىٰ نَفْسِهِ في مجتَمعٍ عَرَبّيّ أنا جارُ فُلان، وكانَ ذلك الرَّجُلُ عزيزاً في قومه، فإنَّ أحداً لا يَسْتَطيع أن يمَسَّهُ بما يكره، وَإنْ فعَلَ نَصرَهُ المستجارُ به بكلّ ما يَمْلِكُ من قُوَّةٍ وعِزَّة.

• ﴿مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾: أي: لَنْ يجيرَني من عذاب الله وعقابه وانتقامه منّي أحَدٌ، وإنّي أخاف من عذاب الله.

«لَنْ» أَدَاةُ نَفْيٍ فيها معنىٰ تَأْكِيدِ النَّفي، ويُفْهَمُ التأْبِيد هُنَا من أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ الْقَادِرَ علىٰ كُلّ شيءٍ الأزِليَّ الأبَدِيَّ هو المخوفُ من عَذَابِه.

• ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: أيْ: ولَنْ أجدَ مِنْ شيءٍ في الوجودِ

إذْ هُو دُونَ الله جلّ جلالهُ ملْجأً ألْتَجِئُ إليه، وأَحْتَمِي به، إنْ أراد الله مُعَاقَبَتِي، فيما لو لَمْ أقُمْ بأدَاءِ رسالاته.

المُلْتَحَدُ: هو المَلْجَأُ الّذِي يَمِيلُ اللأَجِئُ إِلَيْهِ لِيَحْتَمِيَ به. إنَّهُ لاَ يُوجَدُ في الوجود كُلّهِ مَلْجَأً يَحْمِي من عذاب الله، ولهذا جاء في الصحيح من أدْعِيَةِ الرَّسُول ﷺ خطاباً لله عزّ وجل بالدّعاء عبارة: «لاَ مَلْجأً وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إلاَّ إليك».

روى البخاريُّ ومُسْلمٌ عن البراء بْنِ عازبٍ رضي الله عنهُمَا، قال: قال رسولُ الله ﷺ:

«إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاةِ، ثُمَّ اضطجِعْ علىٰ شِقِّكَ الأيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ:

اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إلَيْكَ وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَة وَرَهْبَةً إلَيْكَ، لاَ مَلْجأً وَلاَ مَنْجا مِنْكَ إلاَّ إِلَيْكَ. اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ».

بما أنّ التكليفَ بِتَبْلِيغِ رسَالاَتِ اللَّهِ مُوجَّهٌ من الله جلّ جلاَلُهُ وعظُمَ سُلْطَانه، وبما أنّه هو وحْدَهُ المحاسِبُ والمجازي، وبما أنّهُ هو الملِكُ والمالِكُ للوجود كُلّه، فَهَلْ يوجَدُ في الوجود من يُجِيرُ ويَحْمِي من عذابه إذا شاء تعْذِيبَ من عصاه؟ وهَلْ يُوجَدُ ملْجأً يَلْجأُ إِلَيْهِ العاصي، فيقي فيه نفْسَهُ من عذابه؟

● ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ... ﴿٢٣﴾﴾.

البَلاَغُ: اسْمٌ بمعنىٰ المصْدَر الّذي هو الإبْلاغ، أو التّبْليغ، والإبْلاغُ هو إيصالُ رسالةٍ كلامِيّةٍ أو غير كلامِيّةٍ إلَىٰ مَنْ أُرسِلَتْ إلَيْه.

وإذا نظَرْنَا بإمعان في سوابقِ هٰذا الاستثناء وَجدْنَا قَضِيَّتَيْنِ يمكن أن يكونَ هذا الاستثناء تَعْقِيباً عليهما.

القضية الأولى: ما تضمَّنَتْهُ عبارة: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾: أي: ولَنْ أجِدَ مَلْجأً يَحْمِيني وَيَعْصِمُنِي من عِقابِ اللَّهِ، إلاَّ مَلْجأً واحداً هو أن أُطِيعَهُ فأقُومَ بتَبلِيغ ما أَمَرَني اللَّهُ بتَبْلِيغِهِ ممَّا أَوْحَىٰ بِهِ إليَّ، وَأَنْ أُوصِلَ رِسَالاَتِه إلى الَّذِين كلَّفَنِي أَنْ أُوصِلَها إليهم.

القضية الثانية: ما تضمَّنَتْهُ عبارة: ﴿لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾: أي: لاَ أَمْلِكُ بِنَفسِي ضَرّاً أَضُرُّكُم بِهِ، لأدْفَعَ بِهِ أذاكُمْ واضطهاداتكُمْ للّذِين آمَنُوا واتّبَعُوني، وَلاَ أَمْلِكُ لَكُمْ رَشَداً أُكْرِهُكُمْ عَلَيْهِ بالْقَسْرِ، على خلافِ ما تختارُونَ أَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ.

لكِنْ أَمْلِكُ إبْلاغَكُمْ مَا أَمَرَني رَبّي أن أُوصِلَهُ إليكم، مما أَوْحَىٰ بِهِ إليّ، وأمْلِكَ أَنْ أُوصِلَ إِليكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي الَّتي أرْسَلَنِي بها إليكم.

والمعْنَيَانِ كِلاَهُما صَحِيحان، وجَديرانِ بالبيان، وقد دَلَّتْ عَلَيْهِمَا نُصُوصٌ قرآنيَّةٌ مُتَعَدِّدَة.

وأخْذاً بقاعِدَةِ حَمْلِ النّصّ القرآنيّ علىٰ المعاني المتعدِّدة، الّتي يحتَمِلها احتمالاً تكامليّاً لاَ تناقُضَ فيه ولاَ تَضادّ، أرى أنّ الاسْتِثناء وارِدٌ على القضيَّتَيْنِ، أَحَدُهما استِثْناءٌ مِنْ عُمومِ الملاجِئ، والآخر استثناءٌ بمعنى «لَكِنْ» وهو لدى التأمُّلِ استثناءٌ من عُمُومِ الأشياء الَّتِي لاَ يَمْلِكُهَا لهم، والمعنى: لا أَمْلِكُ لَكُمْ إلاّ بلاَغاً من الله ورِسَالاَته.

والعبارة على تقدير: إلاَّ إبْلاغَ وَحْيٍ من اللَّهِ أمَرَني بإبْلاغه، وإبلاغَ رِسَالاَت الله الَّتي أمَرَني بتوصيلها إليكم.

هذا ما أمْلِكُهُ لَكُمْ، وهذا هو المَلْجَأُ الوحِيدُ الذي يَحْمِيني ويَعْصِمُني من عقاب الله، لا ما تُطَالِبُونَنِي بِه من تَرْكِ هذا الأمْرِ، والكَفِّ عن القيام بالدَّعْوَةِ إلى سَبِيلِ رَبِّي.

- ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾:

أي: قل لهم يا مُحَمَّدُ هذا البيان المنزَّل إليك من رَبّك، فحَذِّرْهُمْ من عاقِبةِ مَعْصِيَتِهم لِلَّهِ ورسُولِهِ، في عَدم الاستجابَةِ للدَّعْوَةِ إلى الإيمان بما أُنْزِلَ إليكم من عنْد رَبكم، وإعلان الإسلام للَّهِ والاستِسْلاَم لأحكام دينِه الذي اصطفاه لعباده، بَعْدَ أنْ تُبيِّنَ لَهُمْ أنَّكَ عُرْضَةٌ لعقابِ اللَّهِ إذا عَصَيْتَه، إذْ إنَّكَ عَبْدٌ مِثْلُهُم مُكَلَّفٌ من رَبّك، ولَنْ يُجِيرَكَ من اللَّهِ أَحَدٌ، ولَنْ تَجِدَ من دُونِه مُلْتَحداً إذَا عَصَيْتَهُ، وخالَفْتَ أوامرَه، وفي مُقَدّمَتِها تبْلِيغُ دينِه كما أمَرَك.

والمراد بالْمَعْصِيَةِ الّتي تَسْتَوْجب الخلُودَ في نار جَهَنّم جمعاً من مختلف النُّصوص مَعَ هذا النّص، المعصية الكبرىٰ برَفْض الدُّخولِ في الإسلام، ورفْضِ الإيمان بالحقّ الّذِي اشتملَتْ عليه أركان الإيمان.

وهذه المعصيَةُ هي المعْنِيَّةُ في سِبَاق الآيَة وسِيَاقها، إذِ الحديثُ فيهما يتَعَلَّقُ بالكافرين الّذِين رَفَضُوا الاستجابَةَ لدَعْوةِ الرَّسُول، وهم الذين وَصَلُوا إلى طور تكْوين جماعات متألّبَةٍ ضِدَّهُ تُحاوِلُ الإحَاطَةَ بمقاتِلِهِ، وإبعادَ الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوه عَنْه بما يسْتطيعون من وسائل.

وجاء في هٰذه الآية تأكِيدُ الخلُودِ الّذي قَدْ يسْتَعْمل بمعنَىٰ طُولِ أمَدِ البقاء بكلمة، ﴿أَبَدًا ﴾ الّتِي تَدُلُّ على التأبيد بلا نهاية، ولو كان المرادُ طُولَ أمَدِ البقاء فقط، لمَا كان لكلمة ﴿أَبَدًا ﴾ فائدة حتَّى يؤتىٰ بها في النصّ، وكلُّ من مارَسَ تَدَبُّر آيات القرآن المجيد يُدْرِكُ أنّه لا إطنابَ فيه بغير فائدة.

وقَدْ صَارتْ كلمةُ «أبداً» في المفهوم الديني تَعْنِي الأزمانَ المتتابِعَة في المستقبلِ بلا نهاية، إذا جاءَتْ مطْلَقَةً من دُون قَيْد.

ومعلومٌ أنّ كثيراً من الكلمات العربيّة، قد اكتسبت في الاستعمالات الإسلاميَّة معاني إسلاميَّةً خاصَّةً، لم تكُنْ مَعْرُوفةً في اسْتِعْمَالِ العرب لها، مثلِ كلماتِ النفاق، والزَّكاة، والإسلام، والإيمان، والكفر وغيرهما، ومنها كلمة «أَبَداً» بمعنى أزمان المستقبل بلا نهاية.

لفظ ﴿مَنْ﴾ في عبارة: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الآيَة، يجوز في العربية إعادة الضمير عليه بالإفراد مُراعَاةً لِلَفْظِهِ المفرد، ويجوز إعادة الضمير عليه بالجمْعِ رِعَايَةً لمعناه إذا كان المراد به جمعاً، وقَدْ أُعِيد الضمير عليه في الآيَةِ بالإفراد أوّلاً مراعاةً للفظه، وبَعْدَهُ رُوعِيَ معناه الدّالُّ على الجمع فقال تَعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾.

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾: أي: أَمْهِلْهُمْ يا مُحَمَّد واصْبِرْ عليهم، حتَّىٰ الْوَقْتِ الَّذِي يَرَوْن فيه ما يوعَدُون.

دلَّ على هذا المحذوف المقدّر ذهناً، وهو إمْهالُهُم والصَّبْرُ علَيْهم، ما جاء في آية: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾: أي: فأمْهِلْهُمْ واصْبِرْ عَلَيْهِمْ وترقَّبْ مَا نُدَبِّرهُ ضدّهُمْ، ونُنْزِلُهُ بهمْ في المستقبل، فإنَّهُمْ سَيَرَوْن مَا يُوعَدُونَ من نكبَاتٍ تنزل بهم، إذْ نَنْصُرُكَ وننصُر الَّذِين آمَنُوا مَعَكَ عليهم، فتكونُوا أنتم الغالبين، وهُمُ المغلُوبُون المهزومُون.

الوَعْدُ: يسْتَعْمَلُ في الْخير، ويسْتَعْمَلُ في الشرّ، وقد يُخَصَّصُ الوعْدُ بالخير والإيعاد بالشرّ، فيُقَالُ: وَعَدَهُ بخير، ويقال: أَوْعَدَهُ بشرٍّ، ولكن هذا غيْرُ لازم.

وجاء في الآية استعمال «السّين» في: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ للدلالة على المستقبل غير البعيد.

أمّا في المستقبل البعيد فالغالب أن يستعمل للدلالة عليه حرف التسويف: «سَوْف».

جاءت هٰذِهِ الآيَةُ فيما أَرَىٰ بَيَاناً مُوَجّهاً مِنَ الله عزّ وجلّ لِرَسُوله ولِلّذين آمَنُوا به واتّبَعُوه، معالجةً لنُفُوسِهم المكتَئِبَةِ بسبب مكايد كفّارِ مكّةَ واضطهاداتِهم لهم، إذْ فيها طَمْأَنَةٌ لهم بأنّ عاقِبَةَ مضطهديهم إلى خِذْلاَنٍ وهَزِيمَةٍ وَتَنَاقُصٍ في أعدادهم، أمّا عَاقِبَةُ المؤمِنين فهي النّصْرُ والظفَرُ وتكاثُر الأعداد.

وفيها تَلْوِيحٌ لكبراء مُشْرِكي مكة وأنْصَارِهِمْ بأن عاقِبَةَ أَمْرِهم إِلَىٰ خِذْلاَنٍ، وهزائمَ، وتَنَاقُصٍ في الأعداد، وِفِيهَا إشارَةٌ إلى ما سَبَقَ إنزالُه بشأنهم، وهو قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول):

﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾﴾.

وقول الله عزّ وجلّ في سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول):

﴿جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾﴾.

وفيها أيضاً تَذْكيرٌ بسَوابِقِ المواعيد الّتي وَعَدَهَا اللّهُ المؤمِنِين بالعزّة والنّصْرِ والتمكين، وهِيَ في معاريضها نُصوص وعيدٍ للكافرين، الّذِينَ يُعَامِلُون المؤمنين بالاضطّهاد والإِذْلالِ والتهجير والتشريد.

إنّ من دِقّةِ التدبّر لآيات كتاب الله عزّ وجلّ أنْ نفهم أنّ كُلّ جوابٍ يَسْتَدْعي سؤالاً، سواءٌ ذُكِرَ في النّص أمْ لم يُذْكَر. وأنّ كلّ تَوجيهٍ عِلَاجي يَسْتَدْعي أنّ الواقع كان يشتمل على حالة من شأنها توجيه هذا العلاج، سواءٌ ذُكِرَتْ هذِه الحالة في النّصّ القرآنيّ أمْ لم تُذْكر، وهكذا إلى سائر النظائر والأشباه.

وهذا منْ أساليب الإيجاز القرآنيّ البديع.

والوعد الذي يشير إليه قولُ الله عزّ وجل: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا

وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾ في الآية هو وعْدٌ بانتصار المؤمنين عليهم في الدُّنيا، حينما يكون المؤمنون أقوىٰ نَاصراً، وأَكْثَرَ عَدداً.

وقد دلَّتْ هذه العبارة على أنَّه يُوجَدُ للكافرين يومئذٍ نَاصِرُون، إلاّ أنَّهم أضْعَفُ من أنصار المؤمنين، وتكونُ لهم جماعة ذاتُ عَدَدٍ، إلاَّ أنَّ عَدَدَهم أقل من عَدَد جيش المؤمنين.

وقَدْ ظَهَر هذا فِعْلاً في الغزوات الّتي انتصر فيها المؤمنون على مشركي مَكَّة.

ففي غزوة بدر جاء إبليس في جنْدٍ من الشياطين على صور الناس، كما رُوي عن ابْنِ عباس، فقال للمشركين: لا غالب لكم اليوم من الناس، وإنّي جارٌ لَكُمْ، وأقبل جبريل إلى إبليسِ، فلَمَّا رآه ولّىٰ مُدْبراً هو وشيعَتُهُ، وقال لمن حولَهُ من المشركين: إنّي أرى ما لا تَرَوْنَ، إني أخاف الله، واللَّهُ شديد العقاب، فكان ناصِرُ المشركين ناصراً ضعِيفاً، وأمدّ الله المسلمين بالملائكة فكان ناصرهم، ناصراً قوياً.

وفي سائر المعارك بَعْدَ غَزْوَةِ بَدْرٍ كَانَ الرَّسُولُ والمُؤْمِنُونَ مَعَهُ أَقْوَى نَاصِراً، وَكَانُوا في بَعْضِهَا كفَتْحِ مكةَ أقوىٰ ناصراً وأكْثَرَ عَدَداً، كما جاء في الآية، وهذا من الأَخْبَار الغيبيَّة المستقبليَّة الّتي تحققت، فهو من عناصر المعجزات الخبريَّة الْقُرآنية، إذْ حقّقَ اللَّهُ وعْدَهُ، ونَصَرَ عبْدَهُ، وهَزَمَ الأحزاب وحْدَه.

وقد نزل بعد نزول سورة (الجن) عدّةُ نُصوص تتضَمَّنُ إنذارَهُم بعذابِ مُعَجَّلٍ، أو بعذاب اللَّهِ يَوْمَ الْقِيامة، ومن هذه النصوص ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (مريم/ ١٩ مصحف/ ٤٤ نزول):
﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾﴾.

أي: إمَّا العذاب المعجَّلَ في الدنيا بالإهلاك الانتقاميّ، أَوْ بنَصْرِ الرَّسُول والمؤمنين معه، وإمَّا السَّاعَةَ الّتي يلْقَوْنَ فيها الحسَابَ، وفَصْلَ القضاء، والجزاءَ في نار جَهَنَّم.

وفي هذا التَرْدِيد إخفاءٌ للخُطَّةِ المدَبَّرة الّتي منها الإعداد لمواجَهاتٍ قتاليَّة.

(٢) وقول اللّهِ عزّ وجلّ في سُورَة (الشُّعَراء/ ٢٦ مصحف/ ٤٧ نزول):

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾﴾.

أي: أفَرَأَيْتَ أيُّها الرائي المتفكّر بتَصَاريف رَبِّكَ الحكيمة، إنْ متَّعْنَاهُمْ فيما هُمْ فيه وهم يُعادُون رسُولَنَا والّذين آمَنُوا معه، سِنِينَ مَعْدُودَةً قَلِيلَةً، ثُمَّ جَاءَهُمْ بَعْدَها مَا كانوا يُوعَدُون في آياتنا المنَزَّلاَت، وعلَىٰ لِسَانِ رَسُولِنَا، من هزيمتِهم وانتصار المسلمين المؤمنين عليهم، وقتْلِ عُتَاتِهم وجبَابرَتهم؟

كيف يَكُونُ حَالُهم يومَئذٍ انكساراً وذِلَّةً وخِزْياً؟

ويظْهَرُ يَوْمَئِذٍ أنَّ مَا كَانُوا يُمتَّعُونَ به من مَالٍ وقُوَّةٍ وجُنُودٍ لَمْ يُغْنِهُمْ شيئاً.

(٣) وقوْلُ الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول) خِطَاباً لمشركي مكّة، وتَعْلِيماً لرسوله ما يقوله لهم:

﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

في هذا إنْذاران:

الأول: إنْذارٌ من اللّهِ مُبَاشَرَةً لِلْمَعْنِيِّينَ بالخطاب، بأنَّ الّذِي يُوعَدُونَه من نَصْرِ رَسُولِهِ والّذِين آمَنُوا مَعَهُ، لآتٍ حَتْماً، وأَنَّ ما لَدَيْهِمْ من قوَّةٍ وجُنُودٍ وأَنْصَار، لَنْ تكُونَ مُعْجِزَةً لِمَنْ يَقْضِي اللّهُ لهم بالعزَّةِ والنَّصْرِ والظَّفر، وهذا ما أشارت إليه الآية (١٣٤).

فالله عزّ وجلّ يُبَيّن لهم بخطابه مَا مَعْنَاهُ: إنَّ مَا تُوعَدُونَ في النُّصُوصِ المتتابعَةِ لآتٍ حتماً، إذْ هُو قَضاءٌ مُبْرمٌ من الله بنَصْر رَسُوله والَّذِينَ آمَنُوا معَهُ، وهذا النَّصْرُ إمَّا أَنْ يكونَ بإهلاكٍ شاملٍ لهم، كما حَصَلَ لأقوام الرُّسُلِ السَّابقين، وإمَّا بإنْزَالِ الهزيمَةِ والخيبَةِ والخِذْلانِ بالكافرينَ في مَعارِكَ قتالِيَّة، يمْنَحُ اللّهُ عزَّ وجلَّ فيها التأييدَ والنَّصْرَ للرَّسُولِ والَّذِينَ آمَنُوا معه، واللّهُ يختارُ مَا هو الأَحْكَم المناسِبُ لحال القوم.

والَّذِي تحقَّقَ في الواقع هو هذا الاختيار الثاني، وهو الذي جاءت الإشارة إليه في الآية (١١) من سورة (ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول) وفي الآية (٢٤) من سورة (الجن/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول).

الثاني: تكليفٌ من الله لِرَسُولِه أنْ يُنْذِرَهم بعذَاب يَوْمِ الدّين، فجاء في هذا التعليم الرّبّانيّ له.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾:

المكانة: مؤنث المكان، وهي: الموضِعُ، والجهة، والناحية النائيَةُ عن موضع الحق.

أي: يَا قوم اعْمَلُوا حَالَةَ كَوْنِكُمْ ثابِتِينَ علَىٰ مَكانَتِكم النائية عن مكانِ الحقّ والخير والْهُدىٰ، إنّي عَاملٌ وأنَا ثابتٌ على المكانِ المشّاقّ لمكانتكم، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ يَوْمَ الدِّينِ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدار النَّفِيسةِ الرَّفيعَة المعدّة للمتقين السُّعداء، وهي الجنة.

إنَّكُمْ بِثَابتِكُمْ علىٰ مكانتِكُمْ ظالِمُونَ، وإنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظالمون.

الفَلَاح: الفوزُ والنجاةُ والظفر، وأصْلُ الفلاح البقاءُ في النعيم والخير.

والظالمون لا فَوْزَ ولا نجاة ولا ظفر لهم، فلا ينالون يوم الدين نعيماً ولا خيراً، بلْ يَنالون عذاباً أليما.

❀ ❀ ❀

قول الله عزّ وجل:

● ﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾﴾:

من الطبيعيّ أن يتساءل القوم فيقولوا: متَّىٰ يتحقَّقُ هٰذا الوعْدُ الّذي تُحذِّرُنا منْهُ يا مُحمَّد؟

إنّ هذا الموقفَ يقتضي بياناً تَعْلِيمِيّاً من الله عزّ وجلّ لرسوله ﷺ، يُبَيّن له فيه ما يقوله لهم، فجاء هذا النَّصُّ الرَّبَّانِيُّ مُعَلِّماً.

● ﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾: أي: ما أَدْرِي، ﴿إِنْ﴾ هنا حرف نفي بمعنى «ما» النافية. ﴿أَدْرِىٓ﴾: أي: أعلم. يقال لغة: دَرَىٰ الشيءَ، ودَرَىٰ به، إذا عَلِمَه. فعبارة: ﴿إِنْ أَدْرِىٓ﴾ معناها: ما أعلم، فالرَّسول يبيّن بهذا لكُفَّار مكّة المعادِينَ له ولدعوته، أنَّهُ يبلّغُ عن رَبّه ما أعْلَمه الله به، وأذِنَ لَهُ بأنْ يُبَلِّغَه.

أمَّا تَحْدِيدُ الوقت الَّذي يُحَقِّقُ اللَّهُ فيه وعْدَهُ، بإهْلاكِ أَعْدائِه أو نَصْره عليهم، فلَمْ يُعْلِمْهُ الله به.

فالرَّسُولُ ﷺ يومئذٍ ما كان يَدْرِي: أقريبٌ هذا الوقت، أم يجْعَلُ الله له أمداً مُتَوَسّطاً، أَمْ أمداً بعيداً بُعْداً نَسْبِيًّا يتَنَاسَبُ مع أعْمَارِ الناس.

الأَمَدُ: في اللُّغة الزَّمَنُ الّذِي يكُونُ غايَةً لِلأجَلِ، وتكُونُ عنْدَه نِهايَةُ المدَّة.

والمراد هنا: أم يجعل لَهُ رَبِّي غايَةً لَيْسَتْ بالقريبة، فإذا حلَّ زَمَنُ هٰذه الغايَةِ تحقَّقَ تنفيذ الوعد، وفُهِمَ نَفْيُ قُرْبِ هٰذهِ الغايَة من التقابُل مع: ﴿أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴾.

ويُطْلَقُ الأمَدُ أيضاً على الزَّمَنِ الَّذي يَبْدأ عِنْدَه عُمْرُ الشَّيْء الحادث، كَوَقْت ميلاد الحيّ.

فحِينَ يقول الرَّسُولُ ﷺ لهم ما أمَرَهُ الله به في هٰذه الآية، فإنَّه يُبيِّنُ لَهُمْ أَنَّ الله لم يُعْلِمْهُ بوَقْتِ تحقيقِ ما وَعَدَهُمُ الله به.

ومَا لَمْ يُعْلِمْهُ اللَّهُ به لا يَسْتَطِيعُ أنْ يَعْلَمَهُ، ولا يَسْتَطِيع أَنْ يُخْبِرَ بما لَمْ يَعْلَمْ، والله عزَّ وجلَّ يُخْفِي مَا يَشَاءُ من مقاديرِ المستَقْبَلِ، أَوْ أوقات وُقوعِها، لِمَا لَهُ سُبْحَانه من حِكَمٍ جَليلَةٍ في إِخْفَاءِ ذلِكَ.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ في تَعْليم ما يقوله لقومه:

● ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . .﴾:

● ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: وصْفٌ لعبارة: ﴿رَبِّىٓ﴾ ممّا جاء في الآية السّابقَة: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾ أي: رَبِّي الموصُوفُ بأنَّهُ عَالِمُ الغيب، وهو وَصْفُ ثناءٍ عَلَيْهِ سُبْحانه بأنّه عالِمُ كُلّ مَا يَصِحُّ أَنْ يُوصَفَ بأنَّهُ غَيْبٌ، ولو كانَ غيباً بالنِّسْبَةِ إلى بعْضِ الخلائِق دونَ بَعْض، أي: عالِمٌ بكلّ شيءٍ هو غيبٌ بالنسبة إلى الخلائق.

أو هو خَبَرٌ لمبْتَدأ مَحْذُوف تقديره: هو عالم الغيب، وهٰذا يُفِيدُ الثناء والمدْح أيضاً.

نظرات شاملات إلى مفهوم الغيب:

الغيب: كَلِمَةٌ تُطْلَقُ على كلّ شيءٍ غابَ عن إدْراكِ حواسّ الخلائق كلّهم أَوْ بعضهم، أمّا الله سبحانَهُ فلا شيءَ في الوجود كُلّه هو غيبٌ بالنسبة إليه، بل كلُّ ما في الوجود هو من عالم الشهادة بالنسبة إليه.

ويَدْخلُ في الغيْبِ ما تُدْرِكُهُ العُقُولُ دُونَ الحَواسّ، فإدْرَاكُ العقول له لاَ يُخْرِجُهُ من عالَم الغيْب إلى عالَم الشَّهادَة، وَلهذا كان التَّصْديقُ بأرْكان الإيمان من الإِيمان بالغيب، مَعَ أنّها أُمورٌ تُدْرَكُ بالعقول ببراهين قطْعِيَّة.

ولـمَّا خَلَقَ اللّهُ ـ جلَّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطانه ـ الـمخْلُوقاتِ ذَواتَ الإدْراكات الحسّيَّةِ، جعَلَ حَوَّاسَّها قاصِرَةً عن إدْراكِ كلّ مَا في الوجود، ولو كان حَوْلها مُبَاشَرَةً، أو داخِلاً في ذَوَاتِها، وجَعَلَها متفاضِلَةً في إدراكاتها الحسّية.

فبعضُ الخلائقِ تُدْرِكُ بحَوَاسِّها مَوْجُوداتٍ لاَ تُدْرِكُها خلائقُ أُخْرَىٰ بحواسّها، من نوعها أو من جنْسِها، أو من غير نوعها وجنسها، وهذهِ حقيقَةٌ ثابتَةٌ علمياً، ومُشاهَدَةٌ في عوالم الأحياء.

فما يُدْرِكُهُ الـمخْلُوقُ من الموجودات الحسيّة بحَاسَّةٍ من حَواسِّهِ الظَّاهِرَةِ، بطَرِيقَةٍ مُبَاشِرَةٍ يُعْتَبَرُ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ من عَالَم الشهادة، وما لاَ يُدْرِكُهُ منها بحَاسَّةٍ من حواسِّهِ الظَّاهِرَةِ بطريقَةٍ مُباشرة، يُعْتَبَرُ بالنِّسْبَةِ إلَيْهِ من عالَم الغيب.

من أجْلِ هٰذا نُلاحظُ أَنَّ ما هُوَ من عالَم الْغَيْبِ بالنِّسْبَةِ إلى بَعْضِ المخلُوقَاتِ، هُوَ من عَالم الشَهادَةِ بالنّسْبَةِ إِلَى مَخْلُوقَات أُخْرى، هذه الحقيقة تنطبِقُ على أصناف المخْلُوقاتِ، وأنواعِها، وأجْناسِهَا، وتنطَبِقُ أيْضاً على أفْرادِ الصِّنْفِ الواحد أو النَّوع الواحد، أو الجنْسِ الواحد، فبَعْضُ الأفراد قد يَهَبُهُ اللهُ مَزِيداً مِنْ قُوَى الإدْرَاكِ الحسّيّ، وَبِهِ يُدْرِك إدْراكاً مباشراً

أشيَاء من موجودات الكون، في حِينٍ أنَّ أفراداً آخَرِينَ لاَ يُدْرِكُونها، فَهِيَ بالنِّسْبَةِ إلى مُدْرِكيهَا بالْحَواسِّ إدْراكاً مُبَاشراً من عالَم الشهادة، وهي بالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيْر مُدْرِكيها كذلِكَ من عالم الغيب.

وبناءً على هذا فالْغُيُوب كثيرة جدًّا، وهي قضايا نِسْبِيَّةٌ تَخْضَعُ لحالاَتِ ذَوي الإدْراك الحسِّي من أفراد ما خَلَقَ الله.

الجنُّ والملائكةُ يَرَوْنَ ما لا نرىٰ، فما يَرَوْنَهُ بأبْصارِهِمْ ونَحْنُ لاَ نَرَاه، هو بالنِّسْبَةِ إليهم من عالَم الشهادة، وهوم بالنِّسْبَةِ إِلَيْنَا من عالَم الْغَيب.

وبَعْضُ البهائِم تُدْركُ بحَوَاسّها ما لاَ يُدْرِكُهُ النَّاسُ بحواسّهم المباشرة، فهو بالنسْبَةِ إليها من عالم الشهادة، وهو بالنِّسْبَةِ إلى الناس من عالم الْغَيْب.

وبَعْضُ الناس يُدْرِكون ببَعْضِ حواسِّهم إدراكاً مباشراً مَا لا يُدْرِكُه غيْرُهم، فما أَدْرَكُوهُ فَهُو بالنِّسْبَةِ إليهم من عالم الشهادة، وهو بالنسبة إلى غيرهم الذين لم يُدْرِكُوه من عالَم الغيب.

وأحداثُ الماضي الَّتي لَمْ نَشْهَدْها شهوداً مباشراً بحواسِّنا، هي بالنِّسبَةِ إلينا من عالم الغيب، وقد كانت مشهودةً لِمَنْ حَضَرَهَا، وكذلك الأحداثُ الآتيةُ في المستقبلِ هي بالنسبة إلى الخلائق مِنْ عَالَم الغيب، لأنهم لم يَشْهَدوها بحواسِّهم شهوداً مباشراً، إذْ لم تقع بَعْدُ.

والْعِلْمُ بشيء منها عِلْمٌ منْ أنْباءِ الغيب إذا أعْلَمَ اللّه بِه، إذْ هِي من عِلْم الله الّذي أَحَاطَ بكلّ شيء علْماً.

وبعْضُ ما هو غيبٌ عن بعْضِ الحواسِّ الكَلِيلَةِ الضعيفة، قد يَصِيرُ مشْهُوداً بوسائل كاشفة، كمَعْرِفَةِ مَا في أرْحَامِ النساء، الذي توصَّلَ عُلَمَاء الصّناعات، والأجْهزَةِ الألكترونيَّة، إلى اكتشاف وسائلَ، وتصْنيع أجْهِزَةٍ تكْشِفُ ما في أرْحَامِهِنّ من حَمْلٍ، وتكشف نوْعَ هٰذا الحمْلِ ذكراً كان أم أنثى، وتقدّم الأَجِنَّةَ للمشاهَدَة بالأبْصَار، فصار ما نُدْرِكُهُ منها بهٰذه الأجْهزَةِ

من عالَم الشهادة إذا رأيناه، ويَبْقَىٰ ما لا نُدْرِكُهُ منها ضِمْن أُمُور الغيب.

والشيءُ الواحد قد يكونُ غيباً بالنسْبَة إلى مَنْ لَمْ يُدْرِكْهُ بإحْدىٰ حَوَاسِّه إدْراكاً مباشراً، وقد يكون مشهوداً بالنسْبَةِ إلى مَنْ أَدْرَكه.

إنّ معظم ما في أجْسَادِنا وَمَا في الجبال وما في باطِنِ الأَرْض، وما في السّماء، وكُلّ ما هو بعيد عَنْ مجال إدْراكنا الحسّيّ المباشر، ولو كَانَ من الممكن أنْ نُدْرِكه بحواسّنا، أو بإحداها، هو غيْبٌ عنّا حتى نُدْرِكه، فإذا أَدْرَكْنَاهُ بِبَعْضِ حواسّنا إدْراكاً مُبَاشراً صار بالنّسْبَةِ إلَيْنَا أَمْراً مشهوداً، ويَبْقَىٰ بالنسْبَةِ إلَى مَنْ لم يُدْرِكْهُ إدْراكاً مباشراً بإحْدىٰ حواسّه أمْراً مِنْ أمُورِ الغيب عنه.

وكانت الجراثيم بالنسبة إلى أبْصَارِ النّاسِ أشياء من عالم الغيب، ولمّا وُجِدَتِ المجاهرُ الّتي تُكَبّرُ الأشياء آلافَ المرّات من أحجامِها الحقيقيّة، صارت من الأشياء الّتي يُمْكِنُ رُؤيَتُها بالأبصار بوساطَةِ المجاهر، فمن رآها بمِجْهر منها فقد أَدْرَكَ ببَصَرِه مَخْلُوقاتٍ حيّةً، هي من عالم الغيب بالنسبة إلى أبصار النّاس العاديَّةِ دُون استخدام المجاهر.

وقد يكون الشَيْءُ من أُمُورِ الْغَيْب عن حواسّنا، لكنَّنَا نُدْرِكُ وُجُودَهُ وَوُجودَ بعْضِ صفاتِهِ ببَرَاهِينَ عَقْلِيَّةٍ، والإدْراكُ بالْبُرْهَان الْعَقْلِيّ لاَ يَنْقُل الشيءَ مِنْ عالَم الْغيبِ إلى عالَمَ الشهادة، لكِنْ يجْعَلُه معلوماً بَعْدَ أن كان غَيْرَ مَعْلُوم.

إنّنَا نُدْرِكُ بعُقُولنا وفْقَ ما تُلْزِمُنَا بِهِ البراهين القواطع، وُجُود الرَّبّ الخالِقِ ـ جلّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه ـ ونُدْرِكُ طائفةً من صفاته، ونُؤْمِنُ إيماناً رَاسِخاً بما أَدْرَكْنَاهُ، وهذا من الإيمان بالغيب، لأنّ هذا الإدْراك قد أكْسَبَنَا عِلْماً، لكِنَّهُ لم يَكُنْ إدْراكاً بالحسّ المباشر، فهو من العلم بالغيب، والإيمانِ بالغيب، بالنسْبَةِ إلى حواسّنا.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ أَوَّلَ ابْتِلاَءٍ لِلنَّاسِ في ظُرُوف الحياة الدُّنيا، هو ابتلاؤهم بقضايا الإيمان بالغيب، الَّتي تَدُلُّ عليها دَلاَئل الفطرة، من العقول، ومنْ مشَاعِرِ القُلُوب والنُّفُوسِ، وتُنَبِّهُ عليها الآيات الرَّبَّانيّة الكونية، والآيات البيانية المنزلَة.

ونُطَالِعُ في النُّصُوص القرآنيَّة، فنجدُ أنَّ كلمةَ «الغيب» قد أُطْلقَتْ على أحداثٍ ووَقائع جرَتْ في تاريخ الإنْسِ أو الجنّ أو الملائكة، وقَدْ كانت من الأمور المشهودة لِمَنْ شَهِدَها منهم، لكنَّها بَعْدَ انْتِهائها ومُرُور الزَّمن عليها صارَتْ من أُمُور الغَيْبَ، وصار الإِخْبَارُ عنها إخباراً عن مغيَّبات.

ومن هذه النصوص ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ (آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول) مخبراً عن أنْبَاءٍ مُتَعَدّدَةٍ عن امْرأة عِمْران، ومَرْيَمَ، وزكريَّا، عليهم السَّلام، ومُبَيّناً في أثناء الحديث عَنْهُمْ أنّ هذه الأنباء هي من أنباءِ الغيب:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ... ﴿٤٤﴾﴾.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول) يَعْرِضُ طائفةً مِنْ قِصَّةِ نُوح عليه السَّلام وقَوْمِه:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾.

(٣) وقَصَّ الله عزّ وجلّ قصَّةَ يُوسُفَ الَّتي كانَتْ أحْدَاثُهَا أُمُوراً مَشْهُودَةً لِمَنْ شَهِدَها في زَمَانِ حُدُوثِها، وقال تَعالَىٰ بعد أنْ عَرَضَهَا بإِبْدَاعٍ رَائعٍ في سورة (يوسُفُ/ ١٢ مصحف/ ٥٣ نزول):

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

ويُوجَدُ قِسْمٌ عظيمٌ من عالَم الْغَيْب اختصَّ الله عزّ وجلّ به نَفسه، ومنْهُ طائفةٌ من تراتيب قضائه وقَدَرِه، لأحْدَاثِ المستقبل.

وإنَّ الغيْبَ الّذي انفرد الله عزّ وجلّ بالْعِلْم به، فأضافَهُ إلى نَفْسِه، بقوله: ﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ هُوَ غيبٌ قَضَتْ حكْمَتَهُ جلَّ جلالهُ، أنْ لا يُطْلِعَ عَلَيْه أحداً من خَلْقِهِ إلاَّ من ارْتَضَىٰ من رسُولٍ قضَتْ حكْمَتُهُ بأنْ يُكلّفُهُ القيامَ برِسَالَةٍ ما حوله.

ومن غَيْبِه جلَّ جلالُهُ مَقَادِيرُ إهلاكِ قَوْمٍ ما، أو مقاديرُ نَصْرِ قَوْمٍ ما، ومَوَاقِيتُ تنفيذِ ما وَعَدَ من خَيْرٍ أو شر بحسَب حكمته.

ويُوجَدُ غَيْبٌ لم يُطْلِعِ اللّهُ عزّ وجلّ عليه أحداً، مثل وقْت قيام السَّاعَةِ، فهي لاَ تأتِي إلاَّ بغتَةً.

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ﴾: أي: فلا يُطْلِعُ عليه. يُقَالَ لغة: أظْهَرَ فلاناً على السِّرّ، أيْ: أَطْلَعَهُ عليه.

﴿أَحَدًا إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾: أي: إلاّ مَنْ رَضِيَهُ باختيارٍ حَكِيم فَجَعَلَهُ رَسُولاً، لأداءِ رسالَةٍ ما تَتَعَلَّقُ بالغيب الّذِي أظْهَرَهُ علَيْه.

وسُنّةُ الله المعروفة لنا أن يكون هؤلاء الرُّسُلُ من الملائكة ذوي المكانة فيهم، وقد يكونُ من غيرهم لعموم اللفظِ في النص. وهو يَدُلُّ أيضاً على أن الله عالم الغيب على اختلاف تنوُّعِ الغيوب بالنسبة إلى الخلائق.

❁ ❁ ❁

قول الله عزّ وجلّ:

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

دلَّ هذا النصّ على أنَّ مَنْ يختارُهُ الله مِنْ رُسُلِهِ، فَيُطْلِعُهُ علَىٰ بعْضِ «غَيْبِهِ» الّذِي اختصَّ نفْسَه به، يُتَابِعُهُ جلَّ جلالُهُ بِرُقَبَاءَ يَرْصُدُونَ كُلَّ حركةٍ من حركاته، للتَّحَقُّقِ من أنَّهُ أبْلغَ رسالَةَ رَبِّه على الوجه المطلُوب منْهُ، دون زيادةٍ ولا نقصانٍ، ولاَ تحريفٍ ولا تَبْدِيلٍ وَلاَ خِيَانَةٍ للأمانة.

﴿يَسْلُكُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ رَصَدًا ﴾:

﴿يَسْلُكُ﴾: أي: يُدْخِلُ، يُقَالُ لغةً: سَلَكَ فُلاَنٌ فُلاَناً المكانَ، أي أَدْخَلَهُ إيَّاه، والفاعلُ لِفِعْل: [يَسْلُكُ] هو الله جلَّ جلاله.

﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾: أي: من أمَامِهِ وَمِنْ وَرَاءِ ظَهْرِه.

﴿رَصَدًا ﴾ مَفْعُول به. **والرَّصَدُ**: هو الرَّقيب المتابع، وهو لفظ يَسْتَوِي فيه الواحد وغيره، والمذكّر وغَيْرُه.

وفِعْل: ﴿يَسْلُكُ﴾ يَدُلُّ على أنّ راصدِي الرَّسُولِ المرتضىٰ لإطلاعه على بعضِ الغيب المختص بالله عزّ وجلّ، يدْخُلونَ من مداخلٍ لا يَراها الرَّسُولُ المراقَبُ، وهؤلاء الرَّاصِدُون المراقِبُون يَكُونُونَ من أَمَامِهِ، ومن خلفه كما قال تعالى: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ ﴾ فهم يَرْصُدُون حركاتهم، وأعمالَهُم، وأقوالهم، وسائر تصرّفاتهم، ويسجّلونها لديهم، ليبلّغُوهَا رَبّهم، وهُوَ العليم بها.

- ﴿لِّيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ ﴾:

أي: إنَّ مَنْ يُطْلِعُهُمُ اللَّهُ عزّ وجلَّ من الرُّسُل من الملائكَةِ على غَيْبِه، الَّذِي اختصَّ بِهِ نَفْسَه من سَائِرِ الْغُيُوبِ الَّتِي وَزَّعَ الاطِّلاعَ عَلَيْهَا بيْنَ خَلْقِه، يجعل من بين أيديهم ومن خَلْفِهِم رَصَداً، لِيُسَجِّلَ هؤلاء الرَّصَدُ عليهم كلّ تَصَرُّف يقومون به، وليقدّموا ما سجّلُوه لله، ليَعلَمَهُ عن طريق شهادتهم، مع أنه سبحانه عليم به مباشرة.

قرأ جمهور القرّاء العشرة ﴿لِّيَعۡلَمَ ﴾ بالبناء للمعلوم، والفاعل ضمير

يعود على: ﴿رَبِّي﴾. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب: [لِيُعْلَمَ] بالبناء لما لَمْ يُسَمَّ فاعله، وبين القراءتين تكامل فكريٌّ، أي: لِيَعْلَمَ الله، ولِيُعْلَمَ مِنْ قِبَلِ المختَصِّين بهذا العلم من أهل الملأ الأعلى.

وهٰذه العبارَةُ جاءت بمثابَةِ جواب لسؤال يُقَالُ فِيه: لِمَ هؤلاَء الراصِدُون من الملائكة؟ والجواب:

﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾.

وقد يقول قائل: أَلَيْسَ الله عزّ وجلّ عليماً بكلّ حَرَكاتهم وسكَنَاتِهم، ومحيطاً بكلّ شيءٍ عِلماً، فلا تخفىٰ عَلَيْهِ خافِية.

والجواب: بلى، وهذا ما دَلَّ عليه البيان في النّص، على سبيل الاستِدْراكِ لدَفْعِ تَوَهُّمِ حَاجَةِ اللَّهِ سبحانه وتعالى إلى تحصيل هذا العلم عن طريق الرَّاصِدِين، وهو قول الله تعالى فيه:

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

الإحاطَة بالْعِلم بالشّيء، هي الْعِلْمُ المسْتَغْرِقُ كُلَّ صَغِيرَةٍ وكبيرة.

فهو جلَّ جلالُهُ مُحِيطٌ عِلْماً بكُلِّ ما لَدَيهم منْ عَمَلٍ، وقَوْلٍ، وخاطراتٍ، وأحاديث نفس، ودِقَّةٍ في التَّنفيذِ، أو خِلاَفِ ذلِكَ، فَلاَ يَعْزُبُ عن عِلْمِه سبحانه مثقالُ ذَرَّةٍ في كُلّ الأكْوان، ولا أصْغَرُ من ذلِكَ ولاَ أكبر، مع كلّ زَمَنٍ حتَّىٰ أصْغَرِ أجزاءِ الثانية.

وعبارَة: ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ تَشْمَلُ أَيْضاً إحاطَتَهُ به، بقُدْرَتِه وسَائِرِ صِفَاتِه ذَاتِ الهيمنَةِ على أكْوانِهِ، والتَّصْرِيفِ فيها علىٰ ما يَشَاءُ.

وقد يقول قائل: بما أَنَّ اللَّهَ ـ جلَّ جَلاَلهُ وعَظُمَتْ حِكْمَتُه ـ مُحِيطٌ بكلّ أجزاء كلّ شيءٍ، هٰذِهِ الإحَاطَةَ الشاملة، فما الحكمةُ مِنْ أن يَسْلُكَ رَصداً من بَيْنِ أَيْدِي الَّذِينَ يَرْتَضيهم من رُسُلِهِ لإطلاعهم على بعض غيبه،

ومن خَلْفِهِمْ، لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ ربّهم؟!!!

أقول:

إنّ الله عزّ وجلّ قَدْ أقامَ الكون كُلَّهُ ما هُوَ غَيْرُ منظورٌ مِنْهُ لبعض خَلْقِه، ومَا هُوَ منظور، وفْقَ نظام الأسباب والمسَبَّبَات، وهو سبحانه يُجْرِي مقاديرَهُ من داخِلِ قنوات الأسباب، ويَرْبط النَتَائجَ والمحاسبات، والأحكامَ، والأقضية، والجزاءاتِ، وفق ما تُقَدِّمُهُ الأسباب والمسببات من بيانات عن الواقع، فهو سبحانه يحاسِبُ ويَحْكُمُ ويُجَازِي بناءً على ما تُثْبِتُهُ الأدلّة السببيَّةُ من عِلْم، ولا يَبْنِي على عِلْمهِ الخاصّ المحيط بكلّ شيءٍ، ليُعْطِي الْوُلاَةَ، والْقُضَاةَ، والْحُكَّامَ، من عباده أسْوَةً منْ نفسه جلّ جلالُه، حتَّىٰ لاَ يَحْكُمُوا على العباد من خلال عِلْمِهِمُ الخاصّ، بِمَنْ يحْكُمونَ لَهُ أو علَيْه.

وسُنَنُ الله عزّ وجلّ في كونِه سُنَنٌ ثابتَةٌ ذَاتُ شُمُولٍ عامّ، وكَوْنُ الملائكَةِ معْصُومين، لا يَعْصُونَ الله ما أمَرَهُمْ ويَفْعَلُون مَا يُؤْمَرُون، وكَوْنُ المختارينَ منْهُمْ للقيام برسالاتِه، هُمْ أكْثَرُ عِصْمَةً عن المعاصي، لا يتنافىٰ مع إجراء الأنظمة السَّبَبِيَّة، الَّتي جعلَها الله عزّ وجلّ من سُنَنِه الثابتة.

وقد تَدُلُّ إحاطَتُهم بالرَّاصِدِين لهم، المراقبين لأعمالهم، على احْتِمال تَعَرُّض الملائكة المختارين للخطَأ، أو السَّهْوِ، دُونَ قَصْدٍ مِنهم، وهذا لا يُسَمَّىٰ معصيةً ولا مخالفةً لأوامر الله، فتكونُ وَظيفةُ الرَّصَدِ لَفْتَ النَّظَر للخطَأ غير المقصود، أو للسَّهْوِ الذي لم يأْتِ عن تهاون.

وقد يَدُلُّ أيضاً على احتمال تَتَبُّعِ الجنّ لهم وهم في الأرض لاستراقِ السَّمْع منهم، أوْ لِعَرْقَلَةِ بعض أعمالِهم، ولا سيما إذا كانوا من الشياطين، فتكون وظيفةُ الرَّصدِ طَرْدَ هؤلاءِ عَنهم، أو تَنْبِيهَهُمْ عليهم، حتَّىٰ يُؤدُّوا رسالاتِ رَبّهم كاملةً، وبغايَةِ الدِّقّة، دون تفريطٍ و وَلاَ غُلُوٍّ في صغير ولا كبير.

والله أعْلَمُ بمراده.

تتمة حول بعض مفهومات عن الغيب في القرآن المجيد:

بقي علينَا أن نسْتكْمِل بعض المفهومات القرآنيَّة المتعلّقةِ بالغيب، وهي تدخلُ بوجْهٍ عامّ تحت عنوان لفظ «الغيب».

أوّلاً:

جاء في القرآن الكريم أنَّ الغيبَ كُلَّهُ لا يَعْلَمُه إلاّ الله، فَشُمُول علم الله للغيب كُلّه صفة خاصّةٌ به جلّ جلاله، لاَ يشاركُه فيها أحَدٌ. وممّا دلّ على هذه الحقيقة ما يلي:

(١) قول الله عزّ وجلّ في سورة (النّمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول):

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾.

أي: وَمَا يَعْلَمُ كُلُّ مَنْ في السَّماواتِ والأَرْض المؤهّلِينَ لأنْ يَعْلَمُوا، من الملائكة والجنّ والإنس، كُلَّ الغيب، بَلْ يَعْلَمونَ من الغيب بعْضَهُ مُوزَّعاً بينهم.

إنَّما يعلَمُ الْغَيْبَ كُلَّهُ اللَّهُ وحْدَهُ لاَ شريكَ له.

«ال» في ﴿ٱلْغَيْبَ﴾ لاستغراق كلّ أفراد الغيوب، دلَّ على هذا الاستغراق، أن الملائكة يَعْلَمُون أشياء هي غيبٌ عن الإنس والجنّ، وأنّ الجنّ يَعْلَمُونَ أشيَاء هي غيبٌ عن الإنس، وأنّ بعض الإنس يعْلَمُون أشياء هي غيبٌ عن غيرهم من الإنس.

فالمراد إذن من الغيب اسْتغراق كُلّ أفراد الغيوب.

(٢) وقول الله عزّ وجلّ في سورة (هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول):

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ... ﴿١٢٣﴾﴾.

أي: ولِلَّهِ وحْدَهُ عِلْمُ كُلّ غَيْبِ السَّمَاوات والأرض، لاَ يُشاركُهُ في هذا الشمول العلْمِيّ أحد.

ثانياً:

وجاء في القرآن بيانُ أنَّ مَفَاتِح الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إلاَّ الله جلّ جلالُه وعَظُمَ سلطانُه.

فقال الله عزّ وجلّ في سورة (الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول):

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ﴾: المِفْتَاح، والمِفْتَحُ: آلَةٌ يُفْتَحُ بها، وجَمْعُهَا: «مَفَاتِح ومَفَاتِيح».

أي: لا يَعْلَمُ مَا يُتَوَصَّلُ بهِ إلىٰ عِلْمِ كُلّ مَا فِي الْغَيْبِ إلاّ اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ له بِعِلْمِ هذه المفاتيح، أمَّا بَعْضُ ما هو غَيْبٌ فقد يُطْلِعُ الله عزّ وجَلّ عليه خَلْقَهُ، على التوزيع فيما بينهم، دون أَنْ يَشْمَلَ ذَلِكَ كُلَّ الغيوب، على ما سَبَقَ بيانُهُ مُفَصَّلاً، لدَى تَدَبُّر قول الله تعالى في سورة (الجنّ):

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . .﴾.

ومن شُمُول عِلْمِهِ جَلّ جَلالُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه ـ بذكر بعْض التفصيلات، أنَّهُ يَعْلَمُ كلَّ شيءٍ في البَرّ، وإنْ دَقَّ وصَغُر، ويَعْلَمُ كُلَّ شَيْءٍ في الْبَحْرِ، وَإنْ دَقَّ وصَغُرَ، ويَعْلَمُ كُلَّ حَدَثٍ وَتَغَيُّرٍ يَجْري في الوجود كُلّه، ومِنْهُ سقُوطُ كلّ ورقةٍ من أوراق الأشجار في زمَانها ومكانها، ومنه أحداثُ كلّ حبَّةٍ مهْمَا دقَّتْ وصَغُرت ولو كانت في ظُلُماتِ الأرض ظاهرها أو باطنها، ومنه أحداثُ كُلّ شيءٍ، رَطْباً كان أمْ يابِساً، وهذا تعميمٌ بَعْدَ تخصيص.

وبالإضافة إلى علم الله الشامل لكلّ شيء فإنّ عِلْمَه ـ جلّ جلاله ـ مُدَوَّنٌ في كتابٍ مُبِينٍ جَلِيٍّ واضح، والعبارة على تقدير: ولا أحْداثُ وتغيراتُ كلّ حَبَّةٍ في ظلماتِ الأرض ولا أحداثُ كلّ رَطْبٍ ولا أحداث كلّ يابسٍ إلاّ مُدونَةٌ في كتاب مبين.

ثالثاً:

وجاء في القرآن بيانُ أنّ الله عنْدَهُ وحْدَهُ علْمُ السّاعَة، فلَمْ يُطْلِعْ عليه أحداً، وأثبت سُبْحَانه لِنَفْسِهِ أنَّهُ يَعْلَمُ كُلَّ ما في الأرحام، دُونَ أن يَرِدَ في النصِّ القُرْآنيّ قَصْرُ عِلْم ما في الأرحام عَلَيْهِ جلَّ جلالُهُ، بصِيَغَةٍ من صِيَغِ القَصْر في العَرَبيَّة.

فقال الله عزّ وجلَّ في سُورَة (لُقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول):

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾.

قَصْرُ علْمِ السَّاعَةِ على اللّهِ جلَّ جلالُه اسْتُفِيدَ هُنَا في هٰذِه الآيَة مِنْ تقديم المسْنَدِ ﴿عِندَهُۥ﴾ على المسْنَدِ إليه ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ والترتيب الأصليّ في الجملة الاسمية تقديم المبتَدأ «وهو المسند إليه» على الخبر «وهو المسند». وهٰذه الجملة خَبَرُ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾.

أمّا عبارةُ: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ وعبارةُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ وعبارة: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ فلا حَصْرَ ولاَ قَصْرَ في شَيْءٍ مِنْها.

ونَحْنُ نَعْلَمُ أنَّ قَصْرَ عِلْمِ السَّاعَةِ على الله جلّ جَلاَلُهُ وعَظُمَ سُلْطَانه قد جاء في نُصُوصٍ أُخْرَىٰ قطعِيَّةِ الدلالة، ولا تَحْتَمِلُ التَّأْويل، ومنها قول الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول) خطاباً لرسُوله:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾.

وقَدْ سبَق تَدَبُّر هذه الآية لدى تدبُّر سورة (الأعراف).

وبهذا تَمّ تَدَبُّر سورة (الجنّ).

والحمد لله على توفيقه وفتحه وإمداده بالمعونة والتيسير.

❁ ❁ ❁

ملاحق لتدبُّر سورة (الجنّ)

الملحق الأول: نظرة إجمالية عامة إلى وحْدَةِ مَوضوعِ سُورة الجنّ.

الملحق الثاني: مُسْتَخْرَجات بلاغية من السّورة.

الملحق الثالث: الابتلاء والفتْنةُ في نُصُوص القرآن المجيد.

(٨)
الملحق الأوّل
نظرة إجْماليّةٌ عامّة إلى وحْدَةِ مَوْضُوعِ سورَة الجنّ

سبق لدى تدبُّر السورة أنّها تشتمل على ثلاثة دروس:

الدرس الأول: يتضمّن عرض قصّة النفر من الجنّ الّذين استمعوا قَدْراً مَا منَ القرآن من تلاوة الرّسُول ﷺ له، وذهبوا إلى جماعاتهم دُعَاةً إلى الإسلام بيْنهم، دون أن يكون الرسول على علْمٍ بهم، ولا بحضورهم، وبما كان من أمْرِهم، حتّى أَوْحَىٰ اللَّهُ إلَيْه بذلك في هذا الدَّرْس.

الدرس الثاني: يتضمّن بعض القضايا الدينية التكميليّةِ من الله عزّ وجلّ لمقالأتِ الجنّ، ومعطوفةً عليها، للإشعار بتصديقِ أقوالِ هؤلاء النفر من الجنّ، في كلّ ما حكىٰ اللَّهُ عنهم، وهي تَتَضَمَّنُ تمهيداً للدُّخولِ في قضايا الدَّرْس الثالث.

الدرس الثالث: يتضَمَّنُ دَرْساً تَعْلِيميًّا من اللَّهِ عزَّ وجلّ لرَسُوله ﷺ، يُعَالج بمقتضاه مَواقِفَ المشركين منه، ومن الّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، في الطَّوْر الذي وصَلُوا إلَيْه إبّان نُزُول سُورَةِ (الجنّ) وقُبَيْلَه.

وجاء في هذا الدّرْسِ عِلاجٌ من الله عزّ وجلّ للمؤمنين الواقعين تحت الاضطهاد، بأنّ عَاقِبَةَ الأمْر ستكُونُ لهم، وأنَّ الله سينْصُرهم، وسَيَخْذُلُ مضطَّهديهم، مع ما في هذا منْ تَعْريضٍ وتَلْويح للمضطهدين بسُوءِ العاقبة الّتي سَتَكُون لهم في المستقبل غير البعيد.

وسَبقَ لدى تدبُّر السُّورة اكتشافُ تَرابُطِ وتَعانُقِ آياتِها وقضايَاها، وتَسَلْسُلِهَا في وحْدَةِ مَوْضوعٍ، من ثلاثة دروسٍ مطابقَةٍ للطَّوْرِ الّذي كان قَدْ وَصَلَ إليه المشركون وهم في شِقّ، والمسْلِمون وهم في شقٍّ مقابلٍ مضادٍّ، خلالَ المرحلَةِ الّتِي نزلَتْ فيها السورة.

وهو الزَّمن الذي بدأتْ فيه دعوة الإسلام تنتَشِرُ في جماعَاتٍ من الجنّ.

● بدأت السُّورة بتكلِيفِ الرَّسول ﷺ أنْ يقول: ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ وأن يَحْكِي مقالاَتِهم داعِين إلى الإسلام بين جماعاتِهم كما أنزلها الله عليه، وقد فهمنا أنَّهم كانوا دُعاةً بين قومهم، من إيحاءات الترابط الفِكْري بين مقالاتهم.

● كان أسْلُوبُهم في بدْء دَعْوتِهِمْ إلى الإسلام بين قومهم من الجنّ، يتضمَّن إنباءهم بالحدَث الجديد الّذي اكْتَشَفُوه في عالَم الإنس، وأنَّهم سَمِعُوا قرآناً عجَباً مُعْجزاً يَهْدِي إلى الرُّشْدِ فآمنوا به، وتخلَّصوا من الشِّرْكِ الذي كانُوا يعْتَقِدونه، ولَنْ يَعُودُوا إليه، وأبْعَدُوا عَنْ تَصورَّاتِهم خُرَافَةَ أَنْ يَتَّخِذَ اللَّهُ صاحِبَةً أَوْ وَلداً، كما يَظُنُّ النصارىٰ.

● وبَعْدَ هذا الإعلان الابتدائي أخَذُوا يُبَيِّنُون بَيْن قومهم ما كانوا عليه قبل إيمانهم بالقرآن، واتّباعهم الرسول محمّداً ﷺ مُسْلِمين.

فذكَرُوا مَنْشأ الضَّلالِ الّذِي ضَلُّوا بهِ، وضلَّ به جماعاتٌ كثيراتٌ منَ الجنّ، وهُو ما كان ينْشُرُهُ بينَهُمْ سَفِيهُهُم الأكْبَرُ إبليس، وسُفُهاء الجنّ من ورائه من ضلالاَت.

وأنَّ تأثُّرَهُمْ به كانَ بسَبَب اعْتِمَادِهم على الظَّنّ الباطل، الذي جعلَهُم يُصَدِّقُونَ الكاذِبينَ من الإنسِ والجنّ، مُتوَهِّمِينِ أنَّ الإنْسَ والْجنّ لَنْ يَقُولُوا على اللَّهِ كذباً.

• وعرضوا من أحْدَاثِ ضَلاَلاَتِ الإنسِ أنَّ رِجَالاً مِنهُم كَانُوا يَعُوذُونَ برِجالٍ من الجنّ الَّذِينَ كانُوا لاَ يَنْفعُونهم، بَلْ يَزِيدُونَهم أثقالاً مُرْهِقَةً ومَتَاعب.

وعَرَضوا أيضاً من ضلالاتِ الإنْسِ المماثِلَةِ لضلالات الجنّ، إنكارَهُمْ البعْثَ للحسابِ وفَصْلِ القضاء وتحقيقِ الجزاء يوم الدين، اعتماداً علىٰ الظَّنّ التوهُّمِيّ الباطل.

• وبَعْدَ هذا العَرْضِ انْتَقَلُوا إلى بَيَانِ سَبَبِ تَحَوُّلِهِم وبَحْثِهِمْ عن الحقيقة.

فذكَرُوا أنَّهُمْ صَعَدُوا إلى السَّمَاءِ كَعَادَتِهم، إذْ هم من الجنّ الطَّيّارين، ليَسْتَرِقوا السَّمْعَ من الملائكة، فلَمَّا لَمَسُوا السَّماءَ، وَجَدُوها قَدْ مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وشُهَباً، وأنَّها صارت مَحْرُوسةَ كلِّ المنافذ والمقاعد.

وأنَّهم أَخَذُوا يُفكّرُونَ في أسْباب هٰذِهِ الظَّاهِرَة الجديدة، أهِيَ لِشَرٍّ وإهْلاَكٍ أُريدَ بأَهْل الأرض، أم أراد بهم ربُّهُمْ رَشداً، إذْ مَنَعَ الشَّياطين الَّذِينَ يَسْتَرِقُونَ السَّمْعَ من السَّمَاءِ، لنَقْلِ الأخبار إلى أوليائهم من الإنسِ، حتى يَقْطَعَ دابر الكِهَانَة، الّتي كانَتْ تُضِلُّ كَثِيراً من الناس؟

وأجابُوا على سؤال يمكن طرحُهُ على إيرادهم الاحتمالين على سبيل التكافُؤ، بأنّ الجنَّ فيهم الصالحونَ من الدَّرجَةِ الممتازة، وحَالُ هؤلاءِ لا يَسْتَدْعِي إنزالَ الإهلاك الشامل، وفيهم دُونَ الصَّالِحين حتَّىٰ أَخَسِّ دركاتِ الكُفْرِ والإجرام، وحال هؤلاء قد يسْتَدْعي الإهلاكَ الشامل.

فتكافأ الاحتمالان في نَظَرِهم.

وعلى تقدير احتمال الإهلاك الشامل، فهَلْ هم قادرون على حماية أنفسهم، في ملاجئ من الأرض، أو حماية أنفسهم بالْهَرَبِ في الآفَاق بعيداً عن الأرض، وهم من الجنّ الطيّارين؟! لكنّهم ظنّوا ظَنّا راجحاً أنَّهُمْ لَنْ يُعجِزُوا اللّهَ في الأرض، ولَنْ يُعجِزُوهُ هَرَباً في اتّجاه السَّماء.

● وبَعْدَ أَنْ أتمُّوا وصْفَ حالهم الّتي كانوا عليها، قبْلَ أن يَسْمَعُوا القرآن ويُؤمِنُوا بهُدَاه، لا بُدَّ أن نُدْرِك أنَّهُم مَلَكُوا لَدَى فَرِيقٍ من الَّذِين يَنْشُرُونَ دَعْوَة الإسلام بيْنَهُم إمكانيَّةَ التأثير فيهم.

عندئذٍ أبَانُوا أنَّ هذا الّذي عَرَضُوهُ قد كَوَّنَ لَدَيْهم قَنَاعَةً كافِيَةً بضَرُورَةِ الإيمان بمحمّد ﷺ، وبما جاء به، فآمَنُوا، وقالُوا:

﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾﴾.

وهُنَا نُدْرِكُ أَنَّ فَرِيقاً من الجنّ استجابوا لِدَعْوَةِ هؤلاَء النَّفر، تأَثُّراً بأقوالهم الصادقة، فأسْلَمُوا واتَّبَعُوا الهُدَىٰ، وأنَّ فريقاً آخَرِينَ أَبَوْا أَنْ يَسْتَجِيبوا، كَشَأن كلِّ ذوي الإراداتِ الْحُرَّة، فكان من حالِ هؤلاء الّذينَ أبُوا أَنَّهُمْ جارُوا وَعَدَلُوا عن السَّبِيلِ الحقّ، مُتَّبِعِينَ أهواءَهم، ومُلْتَزِمِين ضلالاتهم.

ثُمَّ نُدْرِك أنَّ هؤلاء النَّفَر من الجنّ، تابَعُوا دَعْوَتَهُمْ بين قومهم بَعْدَ ما انضَمَّ إليهم الّذين استجابوا لهم، وآمَنُوا بِمِثْلِ ما آمَنُوا به، وأسْلَمُوا للَّهِ رَبّ الْعَالَمِين.

فأضافُوا إلى مقالاتِهِمُ السَّابقاتِ مقالَةً جَدِيدَة، حَكَاهَا اللَّهُ عزَّ وجلَّ عنْهُمْ بقوله:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

وبهذا انتهىٰ الدرس الأوّل من دُروس السورة.

وهُنَا دخَلَ الدرس الثاني من كلام اللَّهِ بياناً، لا على سبيل الحكاية لمَقَالاَتِ النّفر من الجنّ، وجاءت قضاياه معطوفة بحرف العطف (الواو)

على مقالات الجنّ، للإشعار ضِمْناً بتَصْدِيق الجنّ في مقالاتهم، ولإِضَافَةِ بيَانِ قضايا من الدِّين تُعْتَبَرُ في المرحَلَة الّتي نزلت فيها سورة (الجنّ) ذاتَ شأن، فقال اللّهُ عزّ وجلّ:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾.

وأَضَافَ إلى هٰذِهِ القضايَا قضِيَّةً مُمَهِّدَةً للدُّخُولِ فِي الدرسِ الثالث من دُروس السورة، فقالَ اللّهُ عَزَّ وجلّ:

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾.

أي: كادَ كبراء مُشْرِكي مكّةَ يجْتَمِعُون ضدَّهُ لِحَرْبِهِ، ومُقَاوَمَةِ دعْوَتِه، واضطهاد الّذين آمَنُوا به واتَّبَعُوهُ، اجْتِمَاعاً مُتَراصًا مُتَلَبِّداً كاللُّبُود الّتِي يُضْغَطُ فيها الصُّوفُ بَعْضُهُ على بَعْض، أو كالشَّعرِ المتراكب بعْضه على بعض كلِبْدَةِ الأسَد.

وبهذا فُتِحَ البابُ للدُّخول إلى الدَّرْسِ الثالث، الّذِي يُعَلِّمُ اللّهُ فيه رَسُولَهُ كيْفَ يُعَالِج المشركين ببيَانَاته، في تِلْكَ المرحَلَةِ الّتي بدَؤوا فيها يتجمَّعُونَ ضِدَّه، وضدَّ الّذِين آمَنُوا به واتَّبَعُوه، تَجَمُّعاً تكتُّلِيًا يُشْعِرُ بالإِعْدَادِ لِمُحَارَبَتِهِم لَهُ ولمَنْ آمَنَ بِه حَرْباً عسْكَرِيَّةً مُسَلَّحَة.

إنَّهم لم يَبْلُغُوا بَعْدُ إلى هذا الاجتماعِ المكثّف ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، لكنَّهُمْ كادُوا يبلُغُون ذلك، وهذا من دقَّةِ الأداء في التعبير لمطابقة الواقع، وعَدَمِ اللُّجُوء إلى المغالاَتِ في البيان.

إنّ مُحَاولاَتِ تجمُّعِهم ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، قد كانت من أجْلِ صَرْفِه عنها، وجَعْلِهِ يَكُفُّ عمَّا هُو فيه من تَبْلِيغ رِسَالاَتِ رَبّه، وإقْنَاع الناسِ بما جاءهم به عنه تبارك وتعالى.

ولا بُدَّ أن يكونُوا قَدْ أَمَرُوهُ بأَنْ يَكُفَّ عَنْ تبليغ رسالاَتِ رَبّه، تَخَوُّفاً مِنْهُمْ أَنْ تتحوَّلَ السِّيادَةُ والرِّيَاسَةُ إلَىٰ مُحَمَّدٍ والّذِين آمَنُوا بِه واتّبَعُوهُ، ويُؤَيِّدُ هذا ما ذَكَرَهُ كُتَّابُ السِّيرَةِ النّبَوِيَّةِ وَرُواتُها.

لكِنْ كانَ هذا منهُمْ تَدَخُّلاً في أعْظَمِ قضِيَّةٍ دِينِيَّةٍ لاَ يملِكُون منْها شيئاً، وهي في الحقيقة مشَارَكَةٌ للَّهِ عزّ وجلّ في رُبُوبيّتِهِ، ومَعْلُومٌ أَنَّ الدَّاعِيَ إلى سَبِيلِ رَبِّهِ إنَّما يَعْبُد الله في دَعْوَتِه، فإذَا أَطَاعَ الْكَافِرِينَ في تَرْكِ هٰذِهِ العبادة، فَقَدْ رَضِيَ بأَنْ يَجْعَلَهُمْ شُرَكَاءَ لِلَّهِ في رُبُوبيّتِه.

والجوابُ المناسِبُ لتَدَخُّلِهِمْ في خَصَائِصِ رُبُوبيَّةِ الرَّبّ جلّ جلاَلُهُ أَنْ يَقُول لهم، كَمَا جاء في تعليم اللّهِ لِرَسُوله:

﴿.. إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّي وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾:

أي: لا أعْبُدُ في دَعْوَتي إلى سَبِيلِ رَبِّي إلاَّ رَبِّي وحْدَهُ، ولاَ أُشْرِك بعِبَادَتي لَهُ أحداً، وإنّي لَسْتُ أَعْبُدُكُمْ، ولسْتُ أَعْبُدُ آلِهَتَكُمُ الباطِلَة، ولسْتُ أجْعَلُ أحداً شَرِيكاً لِرَبِّي، حتَّىٰ أُطِيعَهُ في أمْرٍ أعْصِي فيه أَمْرَ رَبِّي.

وهُنَا يَقُولُ لِسَانُ حَالِهِمْ له: إذَنْ فأنْتَ تُهَيِّئُ أَسْبَابَكَ ووسائِلَكَ لمحارَبَتِنَا، وانْتِزَاعِ سُلْطَتِنا مِنَّا، وإكْرَاهِنَا على اتّباعِكَ واتّبَاعِ الدِّين الذي جئْتَنا به.

فاقْتضىٰ هذا الأمْرُ أَنْ يقولَ لَهُمْ كما جاء في تعْلِيم الله لرسوله:

﴿إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾:

أيْ: إنّي لاَ أَمْلِكُ وسائل مادّيَّةً أَضُرُّكُمْ بها، حتَّىٰ أُوقِفَ إيذَاءَكُمْ لي، وعُدْوانَكُم علَىٰ الَّذِينَ آمَنُوا بي واتَّبَعُوني.

وإنّي لاَ أَمْلِكُ أيْضاً وَسَائِلَ إكْرَاهٍ وجَبْرٍ حَتَّى تَقْبَلُوا ديني الذي أدعوكم إليه، فاللَّهُ عزّ وجلّ لَمْ يأذَنْ لأَحَدٍ من رُسُلِهِ بذلك، إذِ الدِّينُ لا إكراهَ فيه،

ولاَ يُمْكِنُ أن يكُونَ جَبْراً، فالابْتِلاء الصَّحِيحُ لا بُدَّ أَنْ يكُونَ مَصْحُوباً بِحُرِّيَّةِ الإرادة، وحُرِّيَةِ الاختيار.

وقد اقتضت الحكمةُ في الدَّعْوَةِ توجيهَ هذا البيان، لتهدئة نفوسِ كُبَرَاء المشركين، المتوجِّسَةِ من تفاقُم توسُّعِ القاعِدَةِ البشريَّة العريضَة، من المستجيبين إلى الإسلام والدُّخولِ فيه، ولطَمْأَنَتِهم بأنَّ الدَّعْوَةَ لا تُعِدُّ لِحَرْبٍ عسكَرِيَّةٍ مُسَلَّحَةٍ ضِدَّ خُصُومها وأعدائها، ولبيان حقيقةِ أنَّ الدِّين لا يكونُ بالجبْرِ، ولا بالإكراه، أمَّا الجبْرُ فيكونُ بسَلْبِ الإرادةَ الحرَّة، وأمَّا الإكْراهُ فَيَكُونُ بالْقَسْرِ والْقَهْرِ مَعَ رَفْضِ الإرادة وَإبائِها، وكلاهُما مَرْفوضانِ في الدِّين.

واقتَضَى حالُ المشركين الَّذِينَ أخَذُوا يتجمَّعُونَ ضِدَّ الرَّسُولِ ودَعْوَتِه، وضِدَّ الَّذِين آمَنُوا بِهِ واتَّبَعُوه، أَنْ يُبَيِّنَ لهم أنَّهُ يَخْشَىٰ عِقَابَ اللَّهِ عزّ وجلّ، إذَا لم يُؤَدِّ رِسَالاَتِه، ولَمْ يُبَلِّغْ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ بتَبْلِيغِهِ للنّاس، وأن يُبَيّن لهم أنَّ عِقَابَ اللَّهِ إذا نزل به، فإنَّهُ لَنْ يُجيرَهُ مِنْهُ أحَدٌ، وأنَّهُ لا يَجِدُ للتّخلُّصِ منه ملْجأً يلْتَجِئُ إليه، فجاء في التَّعْليم الرَّبَّانيّ:

﴿قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾.

واقترَنَ بهذا التعليم استثناءٌ يُؤكِّدُ مضْمُونَهُ، وهو منْ فَنِّ تأكِيدِ الفكْرَةِ بما يُوهِمُ في بَدْءِ الكَلاَمِ الاسْتِثْنَاءَ مِنْهَا، فجاء في التعليم:

﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ . . . ﴿٢٣﴾﴾.

أي: إنَّ الَّذي يمْلِكُهُ لهُمْ ويُنْجِيهِ مِنْ عَذاب اللَّهِ هو أنْ يُتَابعَ تَبْلِيغَ مَا يأمُرُهُ اللَّهُ بِتَبْلِيغِهِ للنّاسِ، وأنْ يُؤَدِّيَ الرّسَالاَتِ الّتِي يَأْمُرُهُ اللَّهُ عزّ وجلّ بأنْ يُوصِلَها للناس.

واقْتَضَىٰ هٰذا الأَمْرُ تَحْمِيلَهُمْ مَسْؤُولِيَّاتِهِمْ تُجاهَ رَبِّهم، وإنْذارَهُمْ بعِقَاب اللَّهِ، إِذَا عَصَوُا اللَّهَ ورسُولَهُ المبلِّغَ عَنْهُ، فجاء في البيان الرَّبَّانيّ:

﴿. . . وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾.

واسْتَتْبَعَ هذا الإنْذَارُ تَنْبِيهَهُم على أَنَّ ما يَشْعُرُونَ بِه الآنَ (أي: في المرحَلَةِ الّتي نَزَلَتْ فيها سُورَةُ الجِنّ) من تَفَوُّقٍ في العَدَدِ وفي القُوَّة الغالبة، فإنَّهُمْ سَيَجِدُونَ أَنْفُسَهُمْ أضْعَفَ قُوَّةً وأقَلَّ عَدداً من المؤمنين المسلمين، إذا جاء وعْدُ اللَّهِ.

وقَدْ جاء البيان مُجْملاً غَيْرَ صَرِيح بأنَّهُ سَيَكُونُ في الدنيا قبْل الآخِرَة، لئَلا يَكُونَ التَّصْرِيحُ بالوَعْدِ الدنيويّ مُحَرِّضاً لهم على المبادَرة باتّخاذ وسَائل الْقَمْعِ الشّديدِ، قَبْلَ أَنْ يَجِدَ المسْلِمُونَ قاعِدَةَ أَرْضٍ يَتمكّنُون فيها، ويَجْمعُونَ فيها جَمْعَهُمْ، ويُعِدُّونَ فيها عُدَّتَهُمُ القتاليّة، فجاء في البيان قَوْلُ اللّهِ عزَّ وجَلَّ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾﴾:

هٰذا البيانُ مُوجَّهٌ للمؤمنين لِطَمْأَنتِهِمْ وبشارتهم بنَصْرِ اللّهِ بَعْدَ حين، وفيه تعريضٌ وتَلْوِيحٌ بأسْلوب غير مباشرٍ لمضطهدِين، بأنّهم سيكونُون أضْعَفَ ناصراً وأقلَّ عَدَداً، وجاءَ غَيْرَ صَرِيحٍ بأَنَّ هذا الأمْر سيكُونُ في معارِكَ قتاليّة بينهم وبين الرَّسُولِ وأتباعه، ليُمْكِنَ صَرْفُه إلى وَعْدِ الجزاءِ يَوْمَ الدّين، أو إنزال عقاب ربّاني عليهم من السماء، حتّىٰ لا يكُونَ دليلاً على أنّ الخُطَّةَ المدَبَّرَةَ سيكونُ من مَرَاحِلِها محاربتهم في معارك قتالية حربيَّة، يكون فيها انتصار الرسُولِ والمؤمنين معَهُ عليهم.

وقد يَسْبِقُ إلى أذْهَانِ المشركين أنَّ المرادَ الْوَعْدُ بالعذاب الأخرويّ، أو بكوارث ربّانية دنيويّة فيسألُون: متى يكُونُ تَحقيقُ هذا الْوَعْد، إنّنا لاَ نُشَاهِدُ لَهُ أثراً؟

وقد يضعُونَ في احْتِمَالِهِمْ أنْ يكون المرادُ بالوعْدِ، انتصارَ المسْلِمين، وهزيمة مضطهدِينَ.

فاقتضىٰ استبطاؤُهُمْ هذا الوعْدَ، واستِهَانَهُم به، حتّىٰ كأنَّهُ وَعْدٌ كاذِبٌ

لاَ يَتحقَّقُ، أَنْ يَأْتِي في البيان مَا يُشعِرُ بأنَّ الْوَعْدَ سَيَتحقَّقُ حتماً، فجاء في التعليم:

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾.

وهكذا ظهر لنا تعانُقُ دُروس السّورَة الثلاثة، وترابُطُ آيَاتِها وقضاياها ترابطاً فكريًا بَديعاً.

ولا بُدَّ من التنبيه على أنَّ إظهار الترابط بين دُروس السُّورة القرآنيّة وآياتها يسْتَدْعي تَأَمُّلاً دَقيقاً في مَلْءِ الفراغات بما تَقْتَضِيه اللّوازم الفكريَّة، ومَا تقتضيه مطويات يُمْكن اسْتِنباطُها مِنْ قِبَلِ أَهْلِ التَّدبُّر المتأنّي، ومَا تقتضيه أسْئلةٌ تُثِيرُها بَعْضُ القضايا، وهي تَسْتَدْعي إجاباتٍ ملائمات.

فَلْيكُفَّ طائفةٌ من المستَشْرِقين المضلِّلِينَ، عن إيهاماتهم، إذْ يَنْتَقِدُون القرآنَ الْمَجِيدَ كَذِباً وتَزْييفاً وافتراءً، بأنَّهُ مُفَكَّكٌ لاَ ترابُطَ بيْنَ فَقَراتِه وآياته.

إنَّ كِتاب اللّهِ لاَ بُدَّ لِحُسْنِ فَهْمِه، من مُتَدَبِّرِينَ مُؤهَّلِينَ لتَدَبُّرِه، صَادقين في اكْتِشَافِ دَلاَلاَته، مُؤْمِنينَ به.



(٩)
الملحق الثاني
مستخرجات بلاغية من السورة

توجد في سورة (الجنّ) أمثلة بلاغيَّةٌ متَعَدِّدَة، وقد فتح الله عليّ باستخراج الأمْثلة التالية منها:

أوّلاً:

من الإيجاز، وهو في اللّغة، اختصار الكلام وتقليلُ ألفاظه مع بلاغته.

وتعريفه في اصطلاح البلاغيين: هو التعبير عن المراد بكلام قَصِير ناقصٍ عن الألفاظ الّتي يُؤَدَّىٰ بها عادةً في متعارف الناس، مع وفائه بالدَّلاَلة على المقصود.

وهو ينقسم إلى إيجازِ القِصَرِ، وإيجاز الحذْف.

ونجد في هذه السورة من الإيجاز الأمثلة التالية:

● **فمن أمثلة إيجاز القِصَرِ**: ما جاء في السُّورة من عرض أقوال النَّفر من الجنّ، بما يُشْبِه ذِكْرَ عُنوانَاتِ الموضوعات الّتي طَرَحُوها بيْنَ قَوْمِهم دُعَاةً إلىٰ دِينِ اللَّه، وكلٌّ واحد من هذه العنوانات قابلٌ للشَّرْح والتَّفْصِيل في مقالات مطوّلات.

وهي (١٧) مقالة.

● **ومن أمثلة إيجاز الحذف ما يلي:**

المثال الأوّل: حذْفُ المفعول به، إذْ يُوجَدُ في الكلام ما يَدُلُّ عليه، وهو إيجاز لا يحْسُنُ الْعُدُول عنه، ونجدُ هذا الإيجاز في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾:

حُذِفَ المفعول به من عبارة: ﴿ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ لدَلالَة ما جاء في العبارة الّتي بعْدَها: ﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾.

أي: اسْتَمع نَفَرٌ من الجنّ آياتٍ من القرآن فقالُوا: إنَّا سَمِعْنَا قرآناً عَجَباً.

فهذا من الإيجاز بالحذف الذي يوجد في الكلام ما يَدُلُّ عليه، وهو من الإيجاز الّذي لاَ يَحْسُنُ في الكلام البليغ الرفيع العدولُ عنه.

وهو من قبيل الحذف من الأوائل لدَلاَلَةِ الأواخر.

المثال الثاني: ما في الآية التالية من حذف:

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾:

ففي عبارة: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ دَلَّ الفِكرُ على المحذوف منها، والتقدير: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا﴾ أنجبَ ولاَ تبنَّىٰ ﴿وَلَدًا﴾.

المثال الثالث: ما في عبارة: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ ۝٢٢﴾... أي: ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ إِنْ أنا عصَيْتُهُ فَلَمْ أقم بتأديَة رسالاته التي اصطفاني لتبليغِها وأمَرَني به. والمحذوف في هذه العبارة يدُلُّ عليه التَّدَبُّر الفِكْري.

المثال الرابع: ما في الآية التالية من حذف:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾:

فالعبارة في هٰذه الآية على تقدير: أَمْهِلْهُمْ يا مُحَمَّدُ واصْبِرْ عليهم، ولا تُقَابِلْ إيذاءاتِهم بمِثْلِها، وانتَظِرْ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ من نَصْرِ الله لكَ وللَّذِينَ آمَنُوا بِكَ واتَّبعُوك ﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾.

دلَّ على المحذوف في هذه الآية التَّدَبُّر الفكريّ، مع قرينة ما جاء في آية: ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١﴾ أي: لا أمْلِكُ مَا أقاتِلُكُم به، ولاَ أَمْلِكُ مَا أكرهكُمْ به على الإيمان والإسلام، والمعنى: أمْهِلْهم واصْبِرْ عليهم، وتَرَقَّبْ مَا نُدَبِّرُهُ ضِدَّهم، ونُنْزِلُهُ بهم مستقبلاً، فإنَّهم سَيَرَوْنَ مَا يُوعَدُون من نَكَبَاتٍ تَنْزِلُ بهم.

المثال الخامس: وهو من قسم الإيجاز الذي يُسَمِّيه البلاغيون «الاحْتِبَاك».

الاحْتِبَاك: أنْ يُحْذَفَ من الأوائل مَا جاء نظيرُه أو مقابلُه في الأواخر، ويُحْذَفُ أيضاً من الأواخر ما جاء نظيره أو مقابلُه في الأوائل.

ومن الاحتباك في هذه السورة ما جاء في الآيتَيْن التاليتَيْن حكايةً لقولٍ من أقوال النَّفر من الجنّ:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

فالتقدير: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾ فكَانُوا منْ أهْلِ الجنَّةِ دَارِ النَّعِيم الّتِي ينْعَمُونَ فيها يَوْمَ الدّين ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ فَاتَّبَعُوا غَيًّا ولَم يَتحرَّوْا رَشداً ﴿فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

دلَّ على المحاذيف في هذا النّصّ حُسْنُ التدبّر، مع التفكُّر في التّقابل في النَّصّ ما بين المسلمين وبيْنَ القاسِطِين.

المثال السادس: وهو من فُنُون الإيجاز الّتي فتح اللَّهُ عليّ باكتشافها، وأضَعُ لهذا الفنّ العنوان التالي:

«تَصْدِيقُ المتكلّم بعَطْفِ كلامٍ لم يَقُلْهُ على كَلَامِهِ معَ الْإِشْعَارِ بأنَّهُ ليْسَ من كلامه».

وقَيْد: «مَعَ الإشعار بأنَّهُ لَيْسَ مِنْ كلامِهِ» قَيْدٌ لاَزم للاحتراز من الإدْراج ومن التَّدْليس.

ومن أمثلة هذا الْفَنّ أن يُقرّر تلميذُ الشيخ بحضوره أحكاماً تتعلَّقُ بمسألةٍ من مسائل العلم، حتّىٰ إذَا أَتَمَّ التلميذُ كلامَه، وأراد الشيخ أنْ يُشْعِر الحاضِرين المستمِعين بأنَّه يُقِرُّ تلْميذَهُ على ما قال، وأراد أن يضيف إلى أقواله قولاً من عنده لم يَذْكُرْهُ تلْمِيذُه، فيبني كَلاَماً من عِنْدِه، ويَعْطِفُهُ على ما سَبَقَ أَنْ ذكرَهُ تلميذُه.

وقد هداني إلى هذا الْفَنّ من فنون الإيجاز ما جاء في هذه السُّورة، من عَطْفِ قَوْلٍ تأسِيسِيٍّ من عِنْدِ اللَّهِ على أقوال النَّفَرِ من الجنّ الّتي حكاهَا اللَّهُ عنهم.

وهو قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾ وحتَّىٰ آخر الآية (١٩).

وفي هذا الكلام المعطوف على أقوال النفر من الجنّ، ما يُشْعِرُ بأنَّه من كلام الله وليس من أقوال النفر.

وفي هذا الإجراء البيانيّ تَصْدِيق للنَّفر من الجنّ في مقالاَتِهم، مع إنشاء بيان جَدِيد أراد اللَّهُ عزّ وجلّ بيانَهُ وإضافته.

ولهذا الفنّ الإيجازي أمثلة أخرىٰ في القرآن المجيد، ومنه ما جاء في سورة (لقمان/ ٣١ مصحف/ ٥٧ نزول) إذْ جاء فيها ذكْر بَيَانٍ ربَّانيّ مباشرٍ من الله عزّ وجلّ ضمْن وصَايا لُقْمانَ لابْنه.

فالآيتان (١٤ و١٥) من السّورَةِ بيانٌ رَبَّانيٌّ مباشِرٌ جاءَ ضِمْنَ وصايا لقمانَ لابنه، إذ الآية (١٣) اشتملَتْ على بعْضِ وصَايا لُقْمان لابنه، والآيات (١٦ ـ ١٩) جاءَتْ حكايةً لبقيّةِ وصَايا لقمان لابنه.

فدَلَّ هذا الإجراء البيانيُّ الرَّبَّانيّ على أن اللَّهَ عزَّ وجلَّ يُقِرُّ ما جاء في وصايا لقمان، فهِيَ بحُكْمِ الكلام الصّادِر عن الله جلّ جلاله، وقد يكون لُقْمانُ قد تعلَّمَها مِنْ كتاب رَبَّانيّ سابق.

❁ ❁ ❁

ثانياً:

من الكناية، وهي اللّفظ المستعملُ فيما وضع له في اصطلاح التخاطب، للدّلاَلة به على معنًى آخَرَ لازمٍ له أو مصاحب له، أو يُشارُ به عادة إليه، لما بيْنَهُما من الملابسَة بوجهٍ من الوجوه.

ومن أمثلة الكناية في هذه السّورة ما جاء في الآيتيْن (١٤ و١٥) حِكايةً لبعض أقوال النفر من الجن:

﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾.

القاسِطُون: هُمُ الجائِرُون أُطْلِقَ هٰذا اللَّفْظُ كِنايَةً عَنْ كَوْنِهِمْ لم يُسْلِمُوا، لأنَّ من لوازم عَدَمِ إسْلامهم أَنْ يَجُورُوا ويَبْتَعِدُوا عن الصراط المستقيم.

فَكُنِّي بإطْلاق اللازم للدَّلاَلَةَ عى مَلْزُومه، وهو عَدَمُ إسْلامهم.

ثالثاً:

من الْقَصَرْ، وهو في اصطلاح عُلَماء البلاغة، تخصيص شيءٍ بشيْءٍ بعبارة كلامِيَّةٍ تَدُلُّ عليه.

ويقال في تعريفه: جَعْلُ شيءٍ مَقْصُوراً على شيءٍ آخر، بواحدٍ من طُرُقٍ مخصوصة من طُرُق القول المفيد للقصر.

ونجد من أمثلة الْقَصْر في هذه السورة مثالَيْن:

المثال الأول: ما جاء في قول الله عزّ وجل في السورة:

﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ . . .﴾.

في هذا النّص قَصْرُ المجِيرِ والمَلْجأ علَىٰ تَأْدِيَةِ الواجب الرَّبَّانيّ وهُوَ تَبْلِيغُ رِسَالاَتِ الله على ما أَمَرَ الله به رَسُوله.

وهو من قبيل قَصْرِ صِفَةِ الحماية من عقاب الله على القيام بما فَرَض الله عليه، وفي مقدّمة ما فُرض عليه أن يقوم بتبليغ ما أَمَرَهُ بتبليغه للناس.

وفي هذا الاستثناء من البديع فنّ تأكيد الفكرة بما يُوهم في بَدْءِ الكلام الاستثناء منها.

المثال الثاني: ما جاء في قول الله عزّ وجلّ في السورة:

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ . . .﴾:

ففي هٰذا النصّ ما يَدُلُّ على قَصْرِ إظهارِ عِلْمِ الْغَيبِ الّذي استأثَرَ اللَّهُ عزّ وجلّ بعْلِمه به، على مَنِ ارْتَضَىٰ من رَسُول، فلَا يُظْهِرُ عَلَيْهِ أحداً سِواه.

وهو من قبيل قَصْرِ الصّفَةِ على الموصوف، وهو قَصْرٌ حقيقيّ.

رابعاً:

ومن المجاز المرسل، ما جاء في عبارة: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ أي: ذوي طرائق قِدَدٍ، بحذف المضاف، مع ملاحظَتِه ذهناً، أو من إطلاق الشّيْءِ وإرادَةِ صاحِبِ الشيء.

خامساً:

ومن التشبيه ما جاء في عبارة: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ۝١٥﴾ أي: كانوا شبيهِينَ بالحطَب، الّذِي يُعَدُّ لتُوقَدَ به النار، أَوْ ليَزِيدَ به وَقُودُها.

إنّ الجائرين الّذِين لم يُسْلِمُوا سوْفَ يُطْرَحُونَ وَيُكَبُّونَ في جهَنَّمَ كما يُطْرَحُ ويُكَبُّ الحطَبُ في النار.

وهذا من التشبيه الْبَلِيغِ، إذْ حُذِفَتْ منه أَدَاةُ التشبيه وَوَجْهِ الشَّبه.

سادساً:

وجاء في السورة عدَّة بدائع معنوية.

(١) فمنها بديعيّة «التنكيت» وهو أن يَقْصِدَ المتكلِّمُ إلَىٰ كلمة أو كلامٍ بالذِّكْرِ، دُونَ غَيْرِهِ ممَّا يَسُدُّ مسَدَّه، لأجْلِ نُكْتَةٍ في المذكور تُرَجِّحُ مجيئه على ما سواه.

ومن أمثلة بديعيّة «التّنكيت» في السورة مثالان:

المثال الأوّل: عبارةُ ﴿سَفِيهُنَا﴾ في الآية (٤): ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾﴾.

اخْتِيرت عبارة ﴿سَفِيهُنَا﴾ دون اسْمِه الْعَلَم: «إبليس» لِنُكْتَةٍ جديرَةٍ بالعناية، وهي:

- وصْفُه بالسَّفاهة، الّتِي هي قِلَّة العقل الّتي ساقته للشرّ والخلودِ في عذاب النار.

- إدْخَالُ كلّ جُنودِه من شياطين الجنّ ضمن عبارة: ﴿سَفِيهُنَا﴾ فالنكرة المضافة، إلى معرفة تعُمُّ كُلّ الأفراد التي ينْطَبِقُ على الواحد منها النكِرَةُ المضافة.

مثل: خذ من شاة الغني، ودِرْهَمِهِ وَدِيناره، أي: من شياهه ودراهمه، ودَنانيره.

المثال الثاني: عبارة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ في الآية (١٧) وهي قول الله تعالى: ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾:

كان من الممكن أن يقول «يُدْخِلْهُ عَذَاباً صَعَداً» لكن اختيار عبارة ﴿يَسْلُكْهُ﴾ كانَ لِنُكْتَةٍ في المعنى لا تُؤدّيها عبارة «يُدْخِلُه» فالسَّلْكُ الذي من مَعَانيه إدْخَالُ الخيْطِ في ثَقْبِ الإبْرَة، يُفِيدُ معنى إحاطَةِ المدخول فيه بالدَّاخل، إحاطَةً تَشْمَلُ كُلَّ حَجْم جسْمِهِ، إمْعَاناً في إيلامِهِ من كلّ جانب، بخلاف الدخول، فهي كلمة عامّةٌ تَصْلُحُ للدُّخول ولو مع سَعَةِ المدخُولِ فيه، كالْغُرْفَةِ والمدينَةِ على سَعَتها.

(٢) ومنها بديعيَّة: «المبالغة».

والمبالغة تَنقسم إلى:

أ ـ تبليغ.

ب ـ وإغراق.

جـ ـ وغُلُوّ.

والأول منها مقبول. ومنه الوصْفُ بالمصْدَر، إذْ هو قائم على ادّعاء أنّ الموصوفَ قد عَظُم الوصفُ فيه حتّى كان كلُّه بمثابة عيْنِ الموصوف، وهذا من الأمور المستعملة المقبولة.

ومن الوصف بالمصْدَرِ في السّورة ﴿قُرْءَانًا عَجَبًا﴾: أي: من كَثْرَةِ عجائبِهِ صَارَ كأنّه هو العجب.

(٣) ومنها بديعيَّة «الإِدْمَاج».

الإدماج في علم البديع، إدْخالُ فِكْرَةٍ في فكرة، أو غَرَضٍ بلاغيّ في غرضٍ آخر، أو وَجْهٍ من وُجُوه البديع في وجْهٍ منه آخر، بأسلوب من الكلام لا يَظْهَرُ منه إلاّ إحدى الفكرتين، أو أَحَدُ الغرضَيْن، أو أَحَدُ الوجْهَيْن.

ونجد في سورة (الجنّ) من أمْثلَة الإدْماج، إدْمَاجَ الثناء علَىٰ النَّفَر من الجنّ ضِمْن عرض أقوالهم عرضاً بيانيًا، بطريقة تُشْعِرُ بصدْقهم فيها، وتُشْعِر بفَضْلِهم إذ قاموا بين قومهم دُعاةً إلى دين الله، وتُشْعِرُ بأنَّ ما تَوَصَّلُوا إليه من قضايا دينيَّة قضايا مطابقة للحق والواقع والمفهومات الدّينية الصحيحة.

(٤) ومنها بديعيَّةٌ فتح الله عليَّ باكْتِشَافها، لم أَجِدْ أحداً ذكَرها من المهتمّين بعلم البديع، وهي:

«تقديم ما هو بمثَابَة الدَّلِيلِ لما يأْتِي بعْدَه».

ومن أمثلته في سورة (الجنّ) قول الله عزّ وجلّ حكايةً لمقالةٍ من مقالاتِ النفر من الجنّ الذين اسْتَمَعُوا القرآن فآمنوا به.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾﴾:

فعبارة: ﴿تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ أي: تَعالَىٰ حظُّ رَبّنا من كمال الصفات الذاتية، والتَّنْزِيه عن النقص والْحَاجَةِ، تعالياً لا حَدَّ له كمالاً وغنىً بذاته وصفاته عن كلّ شيءٍ سواه. هذه العبارة هي بمثابة الدليل العقليّ للعبارة التالية لها في الآية، وهي: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ إذْ لو اتَّخذَ صاحبةً أو أنجب أو تَبَنَّى وَلداً، لكان محتاجاً إلى الصاحبة، أو محتاجاً إلى الولَدِ، والعَقْلُ يدُل على أنَّ المحتاج لشيءٍ لا يكون ذَا غِنىً عنه.

فالعبارة الأولى تمهيد حكيمٌ للعبارة التالية لها، وهذا الإجراءُ البياني من أساليب تقديم الدليل قبل تقرير الدَّعْوَىٰ.

وأَكْتَفِي بهذه المستخرجات البلاغيّةِ غَيْرِ المستقصية، والحمد لله على فتحه وتيسيره.



(١٠)
الملحق الثالث
نصوص الابتلاء والفتنة في القرآن المجيد
وفيه أربع مقولات

المقولة الأولى:

تعريفات وبيانات تأسيسية:

جاء في النصوص الإسلامية استعمال كلمتي الابتلاء والفتنة بمعنى الاختبار والامتحان، وبيان أن الله عزّ وجلّ خلق الناس ليبلُوَهم في ظروف هذه الحياة الدنيا.

وجاء فيها بيان أن الله سخّر للناس مسخّراتٍ تظهر فيها اختياراتهم في امتحان الله لهم.

وعلينا قبل شرح ذلك أن ننظر في تعريفات كلمات: «الابتلاء والفتنة والتسخير ومشتقاتها» وننظر في العلاقة بين الابتلاء والتسخير.

أوّلاً: الابتلاء:

مادّة الابتلاء تدلُّ في أصل معناها على معنى الامتحان والاختبار لكشف ما لدى المُبتلى مِنْ صفاتٍ كامناتٍ، بعملٍ إراديّ ذي أثرٍ يُدْرَكُ في النفس أو في حركاتٍ وتصرفاتِ الجسد الإرادية.

قال أهل اللغة: بَلَوْتُ الرَّجُلَ بَلْواً وبَلاءً، وابتليتُه ابتلاءً، أي: اختبرته.

وبَلاهُ يَبْلُوهُ بَلْواً إذا جرَّبَهُ واختَبَرَهُ. وابتلاهُ الله، أي: امتحنه.

ويقالُ: بُلِيَ بالشيءِ بَلاءً، وابتُلِيَ به ابتلاءً.

والاسم: البَلوى، والبِلْوَة، والبِلْيَة، والْبَلِيَّة، والبلاء. كلُّها بمعنى الامتحان والاختبار، فعلى هذا المعنى تدور مادة الابتلاء ومشتقاتها في أكثر استعمالاتها.

وقد يُراد من مادة الابتلاء والبلاء مُطلقُ الكشف مثل قول الله عزّ وجلّ في سورة [الطارق/ ٨٦ مصحف/ ٣٦ نزول] بشأن خلق الإنسان ورَجعِه يوم الدين:

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾﴾.

أي: يومَ تُكشَفُ السَّرائر التي كانت النفوس تُسِرُّها في الحياة الدنيا من نيّات ومقاصد وغيرِها من أعمال القلوب كالحسد والحُبّ والكراهية، للمحاسبة والجزاء.

وقد يُراد من مادة الابتلاء الوسيلة التي يكون بها الامتحان ولا سيما إذا كانت من المصائب الشديدة، فيقال فيها: بلاء عظيم.

وقد يأتي فعل: «أبلى بَلاءً» بمعنى اجتهد في العمل والبذل، وبمعنى «أنعم». يقال: أبلاه الله، إذا أنعم عليه وأكرمه، ومنه: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا﴾ أي: ولينعم عليهم بالنصر والغنيمة.

ابتلاء الإرادة: وابتلاء الإرادة الحرّة: هو امتحانُها لكشف ما تختار من عَمَلٍ إراديٍّ ظاهر أو باطِنٍ في رحلة الحياة الدنيا، إذْ وهَبها الله عز وجل للمخلوق مصحوبةً بالصفات التي تؤهّله لأن يكون في هذه الحياة الدنيا مخلوقاً ممتحناً مختبراً.

وبعد الامتحان يأتي الحسابُ والجزاء، وإلا كان الامتحان عبثاً، والله عزّ وجلّ مُنزَّهٌ عن العبث.

المبتَلَى به: والمبتلى به كُلُّ ما يخضع لإرادة المخلوق الحرّة من عمل باطنٍ أو ظاهر، ومن الباطن أعمالُ القلوب والنفوس الإراديّة كالحبّ والكراهية والحسد.

موادّ الابتلاء: وموادّ الابتلاء في ظروف هذه الحياة الدنيا كلُّ ما فيها ممّا يَسُرُّ ويَلَذُّ فِعلُه أو تركه، أو مَسُّه أو الإصابة به، أو الخلاصُ منه، وكلُّ ما فيها ممّا يَسوءُ أو يُؤلم أو يَشُقُّ فِعلُه أو تركُه، أو مَسُّه أو الإصابة به، أو الحرمانُ منه.

المطلوب في الابتلاء: والمطلوب من العبد فيما هو مبتلًى به حَمْدُ الله والثناءُ عليه فيما يَسُرُّ وفيما لا يَسُرّ، وطاعةُ الله والعملُ بمراضيه فيما تحبُّ النفس وفيما لا تحبُّ على ما يُريدُ جلَّ جلالُه في مقاديره، وفي أوامره ونواهيه الإلزاميّة أو الترغيبيّة.

والمؤلماتُ وكلّ ما يَشُقُّ على النفس تكشِفُ مقادير الصبر لدى العبد المبتلَىٰ، والسّارّاتُ وكلُّ ما فيه مُتعَةٌ للنفس تكشِفُ مقادير الشكر لله لدى العبدِ المبتلَىٰ، مع مِقدار الحمد لله في كلٍّ منهما، والتزام طاعته وعدم معصيته.

❁ ❁ ❁

ثانياً: الفتنة:

الفتنة: هي في الأصل الصهرُ بالنار للمعدِنِ، كالذهب والفضة، لتمييز الرديء من الجيّد.

تقول لغةً: فَتَنَ الصائغُ الذهبَ يَفْتِنُه فَتْناً وفُتُوناً، أي: أذابه بالنار ليختَبره.

ثُمَّ صارت مادّة هذه الكلمة تدلُّ على مطلق الابتلاء والامتحان والاختبار، فهي كلماتٌ مترادفات.

وبما أنّ اختبار الإرادة يكون غالباً بما تكْرَهُ النفوس من مصاعب ومشقات، أو يخالِفُ أهواءها وشهواتها، فإنّ جنس الألم الذي يُحْدِثُه مَسُّ النار باقٍ في دلالة المادّة، مع دلالتها على مطلق الاختبار.

ومن التوسّعات اللغوية في دلالة هذه المادّة ما يلي:

(١) إطلاقُها على الإحراق بالنار أو على مطلق التعذيب، أو على التعذيب بالنار، عقاباً أو انتقاماً، أو عدواناً وظُلماً، ويَسقُط معنى الاختبار حينئذٍ.

(٢) وإطلاقُها على فتنة الرَّجُل مثلاً بالمرأة، إذا أحبَّها فَوَلَّهَتْهُ، لأنّ في ذلك معنى اختباره بها، واكتوائه بنار حُبّها والشَّغَف بها.

(٣) وإطلاقُها على الإعجاب بالشيء، لأنّ الإعجاب ببعض الأشياء قد يُورّطُ صاحبَهُ فيوقِعُه بما تُكرَهُ عاقبتُه.

(٤) وإطلاقُها على الضلال وارتكاب الإثم، لأنّ مَنْ زُيِّنَ له الضلالُ فوقع في الخطيئة، استحقّ العقاب فناله ما يكْرَه، ورُبّما استحقّ العذاب بالنّار.

ومن هذا يقال: فتَنَ الشيطانُ الإنسانَ إذا أغراهُ بوساوسه وتسويلاته، فاستجاب لخداعه وغروره، حتى أضلّه فأغواه، وعرّضه لعذاب الله، ولهذا

يُسمَّى الشيطان فاتِناً وفتَّاناً، وكذلِكَ كلّ مُضِلٍّ من الإنس والجنّ، أو مؤثرٍ أثراً يصرِف عن صراط الله، أو يُكَرِّهُ الناس به.

(٥) ويُقالُ لِمَنْ أصابته فتنةٌ ما ذهب بها مَالُه وعقلُه: إنسانٌ مفتون، أي: مجنون، وفي هذا يُقالُ: فُتِنَ فهو مفتُون، مثل: جُنَّ فهو مجنون.

(٦) وتُطلق الفتنة على مُجَرَّد إزالة الإنسان عمّا كان عليه من أمرٍ محمود العاقبة إلى أمرٍ مكرُوهِ العاقبة.

(٧) وتُطلَقُ الفتنة على الاضطراب وبلبلة الأفكار وتعارُضها في المجتمع، ومناصرة كلّ فريق لما زُيّن له، وهذه الفتنة تُقارنُ الأحداث المثيرة للجمهور العامّ، وهي بمثابة نارٍ تشتعل في النفوس.

(٨) وتُطلَق الفتنة على الادّعاء الكاذب، بُغْيَةَ الاعتذار أو التضليل، والمعنى فيها الرَّغبةُ بتضليل المخاطب عن الحقّ، وتحويله عن وجه الصواب.

❁ ❁ ❁

ثالثاً: التسخير:

التسخير: تطويع المخلوق بالجَبْرِ لِلْعمَلِ والتحرُّك على وفق إرادة المسخِّر، ويأتي بمعنى تذليل المخلوقِ لعمل ما أو أمرٍ ما، وجعله مطاوعاً لما يرادُ منه ضِمْن قانون تسخيره، وهذه المطاوعة قد تكونُ بالطّبع، كتسخير الماء والهواء والنار وعناصر الأرض وسائر الأشياء التي لا حياة لها. وقد تكون بالقوة مع التذليل كتسخير العجماوات للإنسان. وقد تكون بالاختيار الحرّ لما في المطاوعة من مصلحةٍ للمطاوع أو تَخَلُّصٍ ممّا يكره، كتسخير بعض الناس لبعض، ولو ملكوا تحقيق مصالحهم دون أن يكونوا مُسَخَّرين لما أطاعوا.

والتسخير الجبريّ قد يكون ضمن سُنّةٍ ثابتة، كَسُنَنِ الله وقوانين خلقه في كونه. وقد يكون دون سُنّةٍ ثابتةٍ، مثل المعجزات وخوارق العادات، ومنها تسخير عصا موسى عليه السلام، فيما أجرى الله فيها من معجزات.

والتسخير كلّه لا يخرج عن دائرة التحرّك ضِمْن إرادة الرّب الخالق وخَلْقِه دواماً.

وقد سخّر الله للنّاسِ قِسْماً من طاقاتهم في ذواتهم، وسخّر لهم كثيراً من مخلوقاته في كَوْنِه، في الأرض وفي السّماوات، وهُم يَستَفيدون من المسخّرات لهم أو يُحرّكونَها بإراداتهم الحرّة التي منحهم الله إيّاها، وأعطاها بقضائه وقَدَرِه وقُدْرتِه القُدْرَة على أن تشاء بحُرّيَّة، ليختبر اختياراتها، وحينما تَشاءُ إرادةُ الإنسان شيئاً فإنّها لا تكون مَجْبُورة في ذلك الشيء الذي شاءته، لأنّها مُمَكَّنَةٌ بإرادة الله وقضائِه وقَدَره من أنْ تشاء بحرّيّة دون جَبْر.

العلاقة بين الابتلاء والتسخير:

● قد شاء الله الرّبّ الخالق العزيز العليم الحكيم أن يخلُق الإنسان في أحْسَنِ تقويم، مُزَوّداً بالصفات الّتي تؤهّله لأنْ يكون ممتحناً في ظروف هذه الحياة الدنيا، وأنْ يكون مناطُ المسؤولية فيه جهازَ إرادته الحرّة، المصحوبة بالإدراك العلمي الكافي للتكليف، والمصحوبة بالأهواء والشهوات ونزعات الخير ونزغات الشرّ، والمُمَكَّنَةِ من توجيه طاقاته لفعل ما تختار من خَيْرٍ وشَرٍّ، وطاعةٍ أو معصية.

● وإذْ تَمّتْ بهذا مشيئةُ الرب الخالق العزيز العليم الحكيم، فقد اقتضى هذا الأمر أن يُسَخِّرَ للإنسان بقضائه وقَدَرِه وخَلْقِه ضمن سُنَنٍ ثابتةٍ قِسْماً من طاقات العمل والحركة في داخل جَسَدِه، وأن يُسَخِّرَ لَهُ في الكَوْنِ من حوله مُسَخَّراتٍ كثيرات، تعمَلُ له بطاقاتها وتُطيعُه، لتحقيق ما يُريدُ من خيرٍ أو شرٍّ، متى اهتدى بما وَهَبَهُ الرّبُّ من حَوْلٍ وحيلَةٍ وفِكْرٍ، إلى مفاتيح

ما هي مسخّرةٌ فيه، ضمنَ سُنَنِ الله وقوانينه فيها، وأحسَنَ استخدامَ هذهِ المفاتيح على الوجه الذي تعمَلُ به وتتحرَّكُ، موجّهةً طاقاتها المؤثراتِ، باعتبارها أسباباً تعمَلُ بقضاء الله وقدرِهِ وسُنَنِه الثابتة فيما هي مُسَخَّرةٌ فيه من عَمَلٍ في هذا الكون، وتحدُثُ بها المُحْدَثاتُ التي قضى الله وقدّر في سُنَنِه أنْ تَحْدُثَ بها.

فبالتمكين من الاختيار الحرّ وبالتسخير تمّتْ شروط الابتلاء الأمثل في ظروف هذه الحياة الدنيا، وكلٌّ منهما لا يوجَدُ إلا بخلقِ الله عزّ وجل، المسبوق بقضائه وقدره وعلمه الشامل وحكمته الجليلة.



المقولة الثانية:

نظرات تحليليّة
حول حكَم الله في النّعَم والمَصائب

كلُّ من مارس العيش في هذه الحياة الدنيا، وكان ذا إدْراك واعٍ، فلا بُدَّ أن يُشاهِدَ فيها أشياءَ وأحداثاً ومقاديرَ وتصاريفَ، وعلاقاتٍ اجتماعية، وصراعاتٍ ومُنافَسات مختلفات الصور والأشكال والتأثير في النفوس، ولدى تصنيفها يُلاحظُ أنها تَرجِعُ إلى صِنفين:

الصنف الأول: صنف تجتمع أفرادُه في جدول ما تُحِبُّ النفسُ الإنسانيةُ وتُسَرُّ به، على اختلاف الصّور، وتفاوت الدرجات، من أعلى ما تُحِبُّ مِنْ محابٍّ وأعظمِها درجةً وأشدها إمتاعاً وإسعاداً، حتى أدناها درجةً وأقلّها إمتاعاً للنفس أو الجسد، بما يَلَذُّ أو يَسُرّ.

ويُطلِقُ الناس على ما يَدخلُ في هذا الصنف اسم «النِّعَم» مفردُها

«نِعْمة» وقد يُسمّيها الناسُ «خيراً» مع أنّها ربّما كانت جالبةَ شرّ، أو سبباً لنزول شرّ، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الخير في بعض النصوص، كاستعماله بمعن المال على وفق استعمال العرب له.

الصنف الثاني: صنفٌ تجتمع أفرادُه في جدولٍ ما تكرهُ النَّفس الإنسانية وتستاءُ به، على اختلاف الصور، وتفاوُتِ الدّركات، من أشدِّ ما تكرهُ النفسُ من مكاره، وأخسِّها دَرَكَةً، حتى أوّلِ دَرَكاتِ المكروهاتِ، وأخَفِّها إيلاماً للنفس أو الجسد.

ويُطلِقُ الناس على ما يدخل في هذا الصنف اسم «المصائب» مفردها «مصيبة» وقد يُسمّيها الناس «شرّاً» مع أنها ربما كانت جَالِبَةَ خيرٍ، أو سبباً للحصول عى خيرٍ عظيم، وعلى هذا المعنى جاء استعمال لفظ الشرّ في بعض النصوص على وفق استعمال العرب له.

وتتداخَلُ أفراد هذين الصنفين «النّعم والمصائب» في ظروف هذه الحياة الدنيا، ويَمُرُّ الإنسانُ في رحلة حياته يُقَلِّبُه الله عزّ وجلّ بحكمته على أفرادهما، ما قويَ منها وكثُرَتْ نسبتُه كَمّاً وكيفاً، وما ضَعُفَ منها وقَلَّتْ نسبتُهُ كمّاً وكيفاً، وما كان بين ذلك.

ويخضَعُ التَّقَلُّبُ على هذين الصنفين لنوعين من مقادير الله عز وجل:

الأول: مقاديرُ الله ذاتُ السُّنَن العامّة، التي تُصيب الجميع ضمن مجاري حكمته العامة، ثم يكون الجزاء بالعدل، والثوابُ بالفضل يوم الدين.

الثاني: مقاديرُ الله التي يختص بها في الحياة الدنيا من يشاء على ما يشاء، بحسب حكمته وعلمه بخلقه، إنه جلّ جلالُه عليم حكيم، كإيتاء الله المُلْكَ بعض عباده، وكإغنائه بعضهم وإفقاره بعضهم، إلى غير ذلك من صور ومفردات يَصعُبُ حصرها.

أنواع حكمة الله في النّعم والمصائب:

من استقرأ النصوص من القرآن والسُّنَّة، وتَأمَّلِها تأمُّلاً دقيقاً بمنظارٍ إيمانيّ في لطائِف حِكَم الله عزّ وجلّ فيما تَجْري به مقاديره، من نِعَم ومصائب، ضِمنَ ظروف الحياة الدنيا، اكْتشَفْتُ أن حِكَمَ الله في مقاديرِ النِّعم والمصاب التي يُقَلِّبُ عبادَهُ ضمن أفرادهما ذوات النِّسب المختلفة شدّةَ وضَعفاً، تَرْجِعُ إلى ثلاث حِكَمٍ كُبْرى، قد تجتمع كلُّها أو بعضُها وقَدْ تَفْتَرق.

الحكمة الأولى: «الابتلاء»:

وهو امتحانُ الموضوع في الحياة الدنيا موضع الاختبار، ليجري بمقتضى نتائجه الحسابُ والجزاءُ يوم الدين.

وهذه الحكمة تختصّ بالمُمْتَحَنين المكلَّفين، وهي في الحقيقة أولى الحِكَم وأجَلُّها وأعظمها.

● فمن حكمة الله عزّ وجلّ في الامتحانِ بالنعمة كَشْفُ ما لدى الممتَحَنِ منْ حَمْدِ لله المنعِم، وشكرٍ له على نعمته التي تفضّل بها عليه، ومن الشكرِ القيامُ بطاعةِ الله فيما أنعم به عليه، واستخدامُ النعمةِ في مراضيه عزّ وجلّ، وعدم استخدامها في معصيته، ليجزِيَهُ على حَمْدِهِ وشُكرهِ ثواباً عظيماً؛ ويجعله به من المتقين إذا فَعَل الواجبات وترك المحرّمات، فمن الأبْرَار فالمحسنين إذا توسّع في القُرَباتِ بفعل المندوبات وترك المكروهات، وأحسن عمله كأنه يشاهد ربّه.

● ومن حكمة الله عزّ وجلّ في الامتحان بالمصيبة كَشْفُ ما لدى الإنسان من حَمْدِ لله الْمُبْتَلِي، وصَبرٍ على ما اختار له في امتحانه ممّا يكرَهُه من أمورٍ مؤلمة أو غير سارّة، ليجزيَه على حَمْدِهِ وصبرِهِ ثواباً عظيماً، وقد يرفَعُهُ الصَّبْرُ غيرُ الواجب إلى منازل الأبرار فالمحسنين.

وكلٌّ من الابتلاء بالنِّعَم والمصائب يدخُلُ في مفهوم الخيرِ المطلقِ، إذ هو وسيلةٌ لتحقيق التمييز بين الطيّب والخبيث من النُّفوس، وهذا التمييز هو من الخير، والله عزّ وجلّ لا يَصْدُرُ عنه إلا الخير، والشرُّ المُطلقَ المحض لا يكون من الله ولا يصدُرُ عنه سبحانه، لكن قد يَصدُرُ عنه ما يُسمّيه الناسُ في عُرْفِهم شرّاً، إذ هو وسيلة مؤقّتة لتحقيق الخير العظيم الجليل.

الحكمة الثانية: «التربية والتأديب»:

هذه الحكمة تشملُ المكلّفين ومن هم خارج دائرة التكليف، كالأطفال الذين لم يبلُغوا مبلغ الامتحان والتكليف.

فالنّعم والمصائب التي يتعرّض لها كلُّ الناس صغاراً وكباراً، ضِمْن مجاري سُنَنِ الله وقوانينه العامّة، قد تكون الحكمة منها تربيةَ وتأديبَ مَنْ تنزل بهم.

إنّ مما يُدرِكه الحكماء من المربّين المؤدّبين أنّهم قد يُرَبُّون مَنْ يتولَّوْن تربيتهم وتأديبهم، بما يُحِبُّون أحياناً، وبما يكْرَهونَ أحياناً أخرى، وما يكرهون قد يكون هو خيراً لهم، وما يحبُّون قد يكون هو شرّاً لهم، لو عقلوا وتدبَّروا النتائج والعواقب.

إنَّ الناشئ الذي لا يتعرَّضُ لما يكرهُه ولما يؤلِمُه، لا يكون في المستقبل رجلاً قادراً على تحمُّلِ ما قد يواجه من مصائب الحياة ومؤلماتها.

وإنّ الناشئ الذي لا يذوق طَعْم ما يحبُّ أحياناً ثم طعم ما يكره أحياناً، لا يكون إنساناً سَوِيّاً، قادراً على أن يُواجِه ألوان تصاريف الله في كونه ضمن سُنَنِه العامّة.

ونلاحظ أن الضُّبّاط العسكريّين الذين يُشْرِفون على تربية وتأديب الجنود، قد يحمِّلون جنودهم أعباءً شديدة، ويكلفونهم القيام بأعمالٍ شاقّة

جداً، مما يكرَهون من أعباءٍ وأعمالٍ شاقّة، نظراً إلى أن هذه الأعباء والأعمال الشاقة ضروريةٌ لتدريبهم وتربيتهم وتأديبهم، حتى يكونوا جنوداً صالحين قادرين على مواجهة الأعداء في الحرب، وحتى تكون أجسادُهم ونفوسهم قادرة على مواجهة الصعوبات الجسديّة والمشقاتِ الجسدية والنفسية.

فمن سُنَن الله في خَلْقِه أن اكتساب القُوّة في مختَلِفات الأمور الجسديّة والنفسية إنما يكون بالتدريبات والممارسات طوال أزمان تناسِبُ أحوالَها، واستعداداتِ النفوس لاكتسابها.

ومُدرِّبُ الرياضة البدنية يُحَمِّل من يُشْرِفُ على تربيتهم وتدريبهم مشقّاتٍ ذواتِ شدّة تكرَهُها النفوس، ثُمَّ يُذيقُهم حلاوة القدرة على اجتياز العقبات والصعوبات، أو حلاوة السَّبْق على المنافسين.

وفي كلٍّ من الصورتين المكروهة والمحبوبة للنفوس تدريباتٌ يجبُ أن يتعرّض لها ممارسُ الرياضة أو مُمتهِنُها.

ومن التربية اللازمة في ظروف هذه الحياة الدنيا التربيةُ على أن يذُوقَ الإنسان الشِّبَع أحياناً، والجوعَ أحياناً أخرى، والصحةَ أحياناً والمرضَ أحياناً أخرى، والسَّرَّاءَ أحياناً والضَّرَّاءَ أحياناً أخرى، وهكذا إلى سائر النّعم والمصائب.

ولله حِكَمٌ لطيفةٌ في عباده، إذ يُعْطي كُلَّ فردٍ من وسائل التربية والتأديب وصورِهما ما يُلائِم ما فَطَرَهُ تبارك وتعالى عليه نَفْساً وفِكْراً وجسَداً.

وكلٌّ من التربية والتدريب بالنِّعَم والمصائب يَدخُل في مفهوم الخير المطلق، إذ هو وسيلة لازمةٌ لتحقيق فضيلةٍ جسدية أو نفسية، ونِسبَةُ الشرّ في المصائب تنحصر في مشاعر الألم المؤقت، أو كراهيةِ النفس المؤقتة، أمّا الخير الذي ينجم عنها فهو خيرٌ أعظم وأجلّ وأبقى.

الحكمة الثالثة: «الجزاء المعجَّلُ بالثّواب أو بالعقاب»:

● قد يمنَحُ الله بعض عباده بعضَ نِعَمِه في الحياة الدنيا ثواباً لهم على ما قدّموا من إيمانٍ وعملٍ صالحٍ، أو على ما تحمَّلوهُ ابتغاء مرضاته من مشاقّ وآلامٍ وجهادٍ وصبرٍ وبذلٍ وتضحيةٍ ونحو ذلك من خيراتٍ، أو على صبرهِمْ على ما ابتلاهم به من مصائب، أو على شُكْرِهم لله فيما أولاهُمْ من نِعَمٍ وأفاض عليهم من خيراتٍ حسانٍ.

ففي منحهم بعضَ الثواب المعجّل إكرامٌ لهم، وتثبيتٌ لهمْ على الحقّ، كما يذوقون به نموذجاً مصغراً يُحاكي ما أعدَّ الله لهم من أجرٍ عظيم، وثوابٍ جزيل يوم الدّين، في جنّاتِ النعيم.

● وقد يُذيق الله عز وجل الكافرين والعصاة بمعاصٍ دون الكُفر، مسّاً من مكاره الحياة الدنيا وآلامها، أو يُنزِلُ بهمْ مصائبَ ذواتِ آلامٍ شديدةٍ، عُقوبةً لهم على ما قَدَّموا من أعمال سيّئة.

وهذه العقوبات قد تكون عقوباتِ تذكيرٍ لهم لعلهم يرجعون، أو عقوبات تكفير لخطاياهم، وقد تكون جُزءاً من عقاب الله الأخير لهم، ثُمّ يُعَذِّبُهُمْ الله يومَ الدّينِ العذابَ الأكبرَ، ومنه ما أبانَهُ الله بقوله تبارك وتعالى في سورة [الزّمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾.

ومن حِكَمِ تَعْجيل العقاب للمجرمين وظالمي أنفسهم تقديمُ أمثلةٍ ونماذج من عقاب الله عز وجل للكافرين والعصاة، ليعتبر بها غيرُهُمْ من معاصري زمانهم الذين لم تبلُغْ حالُهمْ إلى مستوى إنزال العقاب بهم، أو من الذين سيأتون بعدهم من القرون القادمات.

ففي العقوبات المعجَّلات لمستحقّيها من المذنبين عِبَرٌ يعتَبِرُ بها أولو الألباب، وعظاتٌ يتعظون بها.

❁ ❁ ❁

المقولة الثالثة:

استعراض نصوص «الابتلاء» بنظرات تدبّريّة إليها

النصّ الأول:

جاء في سورة [القلم/٦٨ مصحف/٢ نزول] ثاني سورة مكيّة نصٌّ مدنيٌّ مضافٌ إليها، أبان الله فيه أنّه ابتلى أهل مكّة بعطاءات النّعم، إلا أنهم كفروا بنعمة الله عليهم فلم يؤمنوا بالرسول محمّد ﷺ ولا بما أنزل الله عليه فسلَبَهُمْ النعمة عقاباً لهم، وقد جاء هذا البيان ضمن تشبيه حالهم بحالِ أصحاب الجنة إذْ أقسمُوا أن يقطعوا ثمرها في الصّباح وأن يَحْرِموا المساكين حقوقهم، فطاف عليها طائف من الرّبّ مُهلِكٌ لها وهم نائمون، فأصبحت هالكة تالفة، فلمّا رأوها كذلك أقبل بعضهم على بعض يتلاومون، واعترفوا بأنهم كانوا ظالمين طاغين، وقد جاء في أوّل عرض القصة قول الله عزّ وجلّ:

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾﴾.

وجاء في آخرها:

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

النصّ الثاني:

قول الله عز وجل في سورة [الفجر/٨٩ مصحف/١٠ نزول]:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ...﴾.

فقدَرَ عليه رزقه: أي: فضيّقهُ عليه ولم يجعله واسعاً.

أبان هذا النص أنّ فيوضَ عطاءات المال ووفرة الرزق ليست تكريماً من الله لعبده، وأنّ تضييق العطاء وتقتيره وتقديره ليس إهانة من الله لعبده، بل كلٌّ منهما ابتلاء من الله لعبده.

فأكْرَمَه: بمعنى فوسّع عليه الرّزق.

رَبِّي أَكْرَمَنِ: أي: شرَّفَنِي وأعْظَمَني.

كلَّا: أي: ليس التخصيص بفيوض النعم وكثرة العطايا تكريماً، وليس التخصيص بالتقدير والتضييق إهانةً، بل كلٌّ منهما للابتلاء، كما جاء في قوله تعالى في كلٍّ منهما: ﴿إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ﴾.

النص الثالث:

قول الله عزّ وجلّ لبني إسرائيل في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول]:

﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾.

وفي ذَلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبّكُمْ عَظيمٌ: أي: وفي ذلكم التمكين الذي مَكَّنَ ربُّكُمْ به آلَ فرعون من أن يسوموكم سُوءَ العذاب ابتلاءٌ عظيم بمصائبَ شديدة من مصائب الحياة الدنيا التي يكون سببُها الناس بعضهم لبعض.

ثم أنجاكم منه بعبور البحر وإغراق أعدائكم في مكان عبوركم.

ونظير هذا النّصّ ما جاء في الآية (٤٩) من سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول] وفي الآية (٦) من سورة [إبراهيم/ ١٤ مصحف/ ٧٢ نزول].

النص الرابع:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] المكية خطاباً لرسوله بشأن بني إسرائيل، في نصّ مدنيّ التنزيل مضمُوم لها:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾.

لقد حرّم الله على بني إسرائيل العملَ يوم السبت، وكان قسمٌ مِنْهُمْ يسكنون قرية عند خليج العقبة، يقال هي: «إيلة». وكان من مهْنَتِهم صيدُ السمك، وكانوا كثيري الفسق، فامتحنهم الله بأمر شديدٍ على نفوسهم، فجعل حيتان البحر تأتي قريباً من شاطئ قريتهم ظاهرةً وافرة يوم السبت، أمّا سائر الأيام فلا تأتيهم فيها، بل تظلُّ في الغَمْر البعيد، وهم يعلمون أن العمل في يوم السبت من الكبائر الكبرى في أحكام شريعتهم، وهو من الإصر الذي كان عليهم بسبب ظلمهم.

فخالفوا حكم شريعتهم، وعصَوْا أمْرَ رَبّهم، فوعظهم واعظون منهم، فما استجابوا فأخذهم الله بعذاب بئيس، تذكيراً لهم لعلّهم يرجعون، فما ارعَوَوْا بل عَتَوْا عن أمر ربّهم فمسخهم الله على أشكال القردة خاسئين.

النص الخامس:

جاء في سورة [النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول] عرض لقطات من قصة سليمان عليه السّلام، ومنها ما كان بينه وبين «بلقيس» ملكة اليمن، وكيف أحضر له الذي عنده علم من الكتاب عرشها قبل أن يَرْتَدَّ إليه طرْفه، ولمّا وَجَدَ عرشها حاضراً عنده قال:

﴿... هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾.

عَلِم سليمان عليه السلام أنّ نعمة الله عليه بإحضار عرش ملكة سبأ القادمة إليه تابعةً طائعة، إنما كانت لابتلائه وامتحانه أيشكُرُ رَبَّهُ أم يكفره، ولم يَرَهَا نعمةَ مكافأةٍ ولا ثوابٍ ولا تكريم، وهكذا فهم الرّسُل، والأنبياء، والمخلصين من عباد الله العلماءِ الصالحين.

النص السادس:

جاء في سورة [يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول] في وصف يوم الحشر:

﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ... (٣٠)﴾.

تَبْلُو: في هذه الآية بمعنى تكشف، أي: تكشف في سجلّ أعمالها فتشاهد ما سبق أن أسلفت في الحياة الدنيا، إذْ لا يوجد امتحان يوم الدين، فالبلاء هنا بمعنى الكشف، وقرأ حمزة والكسائي وخلف: «تَتْلُو» من التلاوة، أي: تتابع ما في كتاب أعمالها من مُسَجَّلاتٍ عليها.

النص السابع:

قول الله عز وجل في سورة [هود/ ١١ مصحف/ ٥٢ نزول]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ... (٧)﴾.

دلَّ هذا النصّ على أن الله عزّ وجلَّ خلق السماوات والأرض وخلق الناس، لِيَمْتَحِنَهُمْ في ظروف الحياة الدنيا أيُّهم أحسنُ عملاً، أي: فمن هو دون ذلك حتى أخسّهم في الدّركاتِ وأسفلهم، والامتحان يستلزم عقلاً الحسابَ والجزاء.

النص الثامن:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾﴾.

دلَّ هذا النّصّ على بعضِ مَوَادّ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا، وهو تفاضل درجاتِ عطاءِ الله لعباده، وهذا يشمَل كلّ ما آتى الله عبادَهُ من أشياء مادّيّة، وأشياء معنوية، ومما هو مشاهد في الناس أنّهم يتفاضلون في الصفات الفكرية وفي الصفات النفسيّة، وفي الصفات الجسديّة، وفي مقاديرِ الأرزاق، وفي المنازل الاجتماعيّة، إلى غير ذلك من أمور يتفاضلون فيها، وكلُّ إنسان مُمْتَحَنٌ من خلال عطاءات الله له، وبمقدار عطاءات الله له، ومُمْتَحَنٌ فيما هو مسؤول عنه تُجاه عطاءات الله لغيره، كعَدَمِ الحسد.

النص التاسع:

جاء في سورة [الصافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول] بيان قصة امتحان سيدنا إبراهيم عليه السلام بأمرِه أن يَذْبَح ولدَهُ إسماعيل، وكان هذا بلاءً من الله عظيماً مُبيناً، فاستجاب عليه السلام لأمرِ الله، وأطاعَ إسماعيل عليه السلام، وعندَ بَدْءِ التنفيذ فداه الله عزّ وجلَّ بِذبحٍ عظيم، قال الله تعالى فيها:

﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

إنّ هذا لَهُوَ البلاءُ المُبِين: أي: الامتحان الواضح بِمُصيبةٍ واضحة.

ووصف الله إبراهيم وإسماعيل بأنهما من المحسنين إمّا لأنّ الأمر بالذبح لم يكُنْ تكليفاً واجباً، بل كان ندباً، وإمّا لأنّ مرتبة الإحسان بالنسبة

إلى الرّسل تشتمل على أوامر واجبة عليهم، إذ هي في الأصل من مرتبة الإحسان بالنسبة إلى غيرهم فلو أُمِرُوا بها لم يكن أمْرَ إلزام.

النص العاشر:

جاء في سورة [الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول] عرض لقطات من قصة بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام، ومنها قول الله عزّ وجلّ:

﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾﴾.

أي: ما فيه امتحان واختبار لهم مبين، وقد اشتملت هذه الآيات على نِعَم كثيرة، منها ما أنزل الله عليهم من المنّ والسَّلْوى، ومنها الاثنتا عشرة عيناً التي فجّرها لهم من الحجر الذي ضربه موسى عليه السلام بعصاه، ومنها تظليلُهم من حرّ الشمس بالغمام.

واشتملت هذه الآيات على ما لم يكونوا يُحبُّون، فمنها زلزلة الأرض من تحتهم في رحلة الاعتذار من عبادة العجل الذهبي، التي اختار لها موسى عليه السلام صفوة قومه سبعين رجلاً. ومنها رفْعُ الجبل فوقهم كأنّه ظُلَّة ليأخذوا ما آتاهُمُ الله من شريعة بقوة.

فالبلاء في هذا النصّ على أصل معناه، وهو الامتحان والاختبار.

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجلّ في سورة [الكهف/ ١٨ مصحف/ ٦٩ نزول]:

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾.

في هذه الآية بيانُ أن جميعَ ما على الأرض، ممّا هو مُزَيَّنٌ للناس، من مآكل ومشاربَ وقصورٍ وممتلكاتٍ ومراكب ومُمْتِعاتٍ وأشياءَ فيها للأنفس لذّات، هي موادّ لامتحان الإنسان في ظروف هذه الحياة الدنيا،

فمن نال منها شيئاً فقد ابتُلِيَ بالنعمة، ومَنْ سُلِبَ شيئاً منها أو حُرِمَهُ، فقد ابتُلِيَ بالمصيبة، أو بما يكرَهُ، أو بما يخالف هواه.

النص الثاني عشر:

جاء في سورة [النحل/١٦ مصحف/ ٧٠ نزول] الأمْرُ بالوفاء بالعهد، والنهي عن نقض الأيمان بالله بعد توكيدها، وجاء بعد هذا قول الله عزّ وجلّ:

﴿... إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ... (٩٢)﴾.

أي: يمتحنكم ويختبركم في الوفاء بعهودكم، وعَدَم نقضكم لأيمانكم.

النص الثالث عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾.

المرادُ بالشّرّ في هذه الآية المصائب والمكاره، كمصيبة الموت، والمرادُ بالْخَيْرِ النِّعَمُ ومَحَابُّ النفوس، وليس المراد بهما الخير الحقيقي المطلق، والشرّ الحقيقي المطلق، بل الخير والشر في مفهوم الناس.

ونَبْلُوكم: أي: ونختبركم ونمتحنكم.

فِتْنَةً: أي: اختباراً وامتحاناً.

فدلّت هذه الآية على أنّ من امتحان الله لعباده امتحانَهم بالمصائب وبما يكرهون، وبالنعم وبما يُحِبُّون.

النصّ الرابع عشر:

جاء في سورة [المؤمنون/ ٢٣ مصحف/ ٧٤ نزول] عَرْضُ لقطاتٍ من قصةِ نوح عليه السلام وقومه، وما واجهوه به من تكذيب، وبأنه رُجلٌ به جِنَّةٌ، وأنّ الله عز وجل أوحى إليه بأن يصنع الفُلْكَ، وأنه قضى بإغراق كُفَّار قومه، وقال تعالى في آخر عرض اللّقطات:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)﴾.

أي: لَمُخْتبِرين نوحاً وقومه في الأحداث التي جرَت.

النص الخامس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الملك/ ٦٧ مصحف/ ٧٧ نزول]:

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (١) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (٢)﴾.

فدلّ هذا النصّ على أنّ الغاية من خلق الموت والحياة في ظروف هذه الحياة الدنيا ابتلاءُ الناس أيُّهم أحسَنُ عملاً، والابتلاء يستلزم عقلاً الحسابَ والجزاء، ويكونان في الحياة الأخرى بعد الموت.

وهو العزيز الغفور: أي: وهو سبحانه وتعالى القويُّ الغالب الذي يُعاقِب الكفرة والعاصين، ويَغفِرُ للمذنبين من المؤمنين، إذْ هو غفور كثيرُ الغفران.

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول]:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ (١٥٧)﴾.

فدلّ هذا النصّ على أن الله عز وجل يمتَحِنُ عباده بشيءٍ من مصائب الخوف والجوع ونَقْصٍ من الأموال والأنفس والثمرات، وأنّ المطلوب منهم في هذه المصائب الصَّبْرُ، وأن يقولوا: إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

وجاء فيها أنّ طالوت ملكَ بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام لما خرج بهم إلى الجهاد في سبيل الله قال لهم:

﴿... إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ... (٢٤٩)﴾.

أي: إن الله مُمْتَحِنُكُمْ بِنَهرٍ ستصِلُونَ إليه، والمطلوبُ منكم أن لا تشربوا منه، فمن شرب منه فلا يُتابع معي المسير إلى الجهاد باستثناء من اغترف غرفة بيده.

النص السابع عشر:

جاء في سورة [آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول] عَرْضُ بعض أحداث ووقائع غزوة أُحُد، ومنها معصية الرّماة وطمَعُهُمْ بحيازة الغنائم، وفي هذا العرض خاطب الله المؤمنين بقولِهِ:

﴿... ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْۖ ... (١٥٢)﴾.

أي: ليختبر صِدْقَ إيمانكم وثَباتكم على الحقّ.

وعلَّمَ الله رسوله ما يقولُهُ للمنافقين الذين اعترضوا على الخروج، فقال له:

﴿... قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (١٥٤)﴾.

أي: وَلِيَكْشِفَ الله ما في صدوركم من شكٍّ أو نفاق.

النص الثامن عشر:

وجاء في سورة [الأحزاب/ ٣٣ مصحف/ ٩٠ نزول] عرض بعض أحداث ووقائع غزوة الأحزاب، وما تعرّض له المؤمنون من خوف شديد، وما دارت في نفوسهم من ظُنُون، وقال الله عز وجل في أثناء هذا العرض:

﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾.

أي: هنالك امْتُحِنَ المؤمنون امتحاناً قاسياً شديداً، بما تعرَّضوا له من شدَّةٍ وخوفٍ زلزلَ قلوبهم ونفوسهم.

النص التاسع عشر:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [محمد/ ٤٧ مصحف/ ٩٥ نزول] خطاباً للذين آمنوا:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾.

أثْخَنْتُموهم: أي: أوقعتم فيهم قتلاً كثيراً، وغلَبْتُموهم وتمكّنتُمْ منهم تمكُّناً تامّاً.

أبان هذا النّصّ للؤمنين أنَّ الله يدعوهم إلى قتال الكافرين ليس لأنه بحاجةٍ إلى نُصْرتِهِم له، إذ لو يشاءُ لانتصَرَ من الكافِرين دُونَ أن يدعو المؤمنين إلى قتالهم، فأمْرُ إهلاكهم هيّنٌ عليه، ولكنَّه سبحانه يدعو المؤمنين إلى قتال الكافرين ليَبْلُو بعضَهُمْ ببعض، إذ ينكشف في القتال المجاهدون الصابِرُون، والضعفاء المتخاذلون، والمنهزمون، ويَظْهَرُ الصَّادِقون من غير الصادقين.

والذين قُتِلوا في سبيل الله من المؤمنين فَلَنْ يُضِيعَ الله أعمالَهُم.

فالقتال في سبيل الله مادّة من مواد الامتحان في ظروف الحياة الدنيا.

وشَرَحَ الله عز وجلّ الابتلاء بالقتال في سبيله بقوله في الآية (٣١) من السورة:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

ونَبْلُو أخبارَكم: أي: ونكشِفَ بالواقع العملي أخبارَكُمْ التي هي آثار اختياراتِكُمُ الإراديّة في مجالات الجهاد في سبيل الله، ولا سيما الجهادُ بالقتال.

النصّ العشرون:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [الإنسان/ ٧٦ مصحف/ ٩٨ نزول]:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾.

أمشاج: أي: أخلاط من عناصِرَ ذاتِ صفاتٍ مختلفات.

نبْتَليه: أي: مُبْتَلِينَ مختبرينَ له مستقبلاً حينما يبلغ مبلغ المسؤولية والتكليف، فالجملة حاليّة من قبيل الحال المقدرة، والحال المقدّرة تشبه في المعنى ما تدخل عليه لام التعليل، ففي نحو: «ادخلوها خالدين» نلاحظ أنه بمنزلة ادْخلوها لتَخلُدوا، أو لتكونوا خالدين فيها.

النص الحادي والعشرين:

قول الله عزّ وجلّ في سورة [المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول]:

﴿... وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

أي: ولَوْ شاء الله أن يجعَلَكُمْ أمّةً واحِدَة لَسَلَبَكُم إراداتِكم الحرَّة فكنتُمْ مجبُورين، وعندئذٍ يجعَلُكُمْ أمّةً واحدةً مَهْدِيّين جميعاً، كالملائكة، لا

تَعْصُونَ الله ما أمرَكُمْ وتفعلُونَ ما تُؤْمَرُونَ، لكن ما شاء الله ذلك بل شاءَ أن يمنَحَكُمْ إراداتٍ حُرَّةً كرَّمكُمْ بها لِيَبْلُوكُمْ فيما آتاكم من قوى وطاقاتٍ ومُسَخَّرات.

وإذ كُنتُم مُمْتَحَنِين فيما آتاكم رَبكُم، فاستبقوا الخيرَاتِ لتنالوا عند الله ثواب أعمالكم، ولتحموا أنفُسَكُم من عذاب الله وعقابه باجتناب الكفر والفسوق والعصيان، فإنكم بعد رحلة امتحانكم يكون رُجوعكُم جميعاً إلى الله وحده، ويوم الدين يُنَبِّئكم الله بما كنتُمْ فيه تختلفون من عقائدَ ومفاهيم ومذاهب وأعمالٍ وغير ذلك، ويحاسبُكم ويجازيكم على مكتسباتكم الإرادية.

النص الثاني والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [المائدة/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول]:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ ... ﴿٩٥﴾﴾.

حرّم الله عزّ وجلّ على المُحْرِم بالحج أو بالعمرة الصَّيد، وأبانَ الله للمؤمنين في هذا النّصّ أنه سيَمْتحِنُهم بشيءٍ من الصَّيْدِ يأتي إليهم وهُمْ مُحرِمُون، حتّى تستطيع أيديهم أن تتناول بعضه، لكونه صغيراً أو ضعيفاً، وأمّا بعضُهُ الآخر فيستطيعون أن يتناولوا منه برماحهم، فمن اتقى الله لم يتناول من الصيد شيئاً وهو مُحْرِمٌ، ومن عصى واعتدى فله عذابٌ إليم.

رُوي أن هذا النصّ نَزَلَ عام الحديبية، وقد ابتلى الله المؤمنين حينئذٍ بأنّ الصيد كان يأتيهم إلى منازلهم وهم مُحْرِمُون، ليكشف بهذا الامتحان مَنْ يُطيعُ منهم ومن يَعْصي.

❁ ❁ ❁

في السنة:

وجاء في السنة استعمال مادّة «البلاء» بمعنى الامتحان، والأكثر فيها استعمالها في الامتحان بالمصائب.

● روى الترمذي وابن ماجه والدارمي عن سَعْدٍ، قال: سئل النبي ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال:

«الأنبياءُ، ثُمّ الأَمْثَلُ فالأمثل، يُبْتلى الرَّجُلُ على حَسَب دينهِ، فإنْ كان صُلْباً في دينهِ اشتَدَّ بَلاؤُه، وإن كان في دينهِ رِقَّةٌ هُوِّنَ عليه، فما يزالُ كذلِكَ حتى يمشي على الأرضِ ما لَهُ ذنبٌ».

قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (المشكاة ١٥٦٢).

● وروى البخاري عن أنس قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله سبحانه وتعالى: «إذا ابتليتُ عبدي بحَبِيبَتَيْهِ ثمَّ صَبَرَ عوَّضْتُهُ مِنهما الجنّة» يريد: عَيْنَيْه.

● وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«مَثَلُ المؤمِنِ كمَثَل الزَّرْعِ لا تزالُ الرِّيحُ تُميلُهُ ولا يزالُ المؤمِنُ يُصيبُهُ البلاء، ومَثَلُ المُنافِقِ كمَثَلِ شجرةِ الأرزَةِ لا تهتَزُّ حتى تُستحصَدَ».

المقولة الرابعة:

استعراض نصوص «الفتنة» بنظرات تدبُّرية إليها

النصّ الأول:

جاء في سورة [المدّثر/ ٧٤ مصحف/ ٤ نزول] الحديث عن «سَقَرَ» اسم علَمٌ من أسماء جهنّم دارِ العذابِ يوم الدين، سُمِّيت بهذا الاسم لِبُعْدِ قعرِها، ولشدّة حَرِّها المذيب للأجسام. فالسَّقْرُ في اللغة يأتي بمعنى البُعد،

ويأتي بمعنى شدّة الحرّ، يقال: سَقَرَتْهُ الشمسُ إذا ضربتْ دماغهُ وأذابته، وجاء فيها عن «سَقَرَ» أنَّ عليها تِسعَةَ عشر مُعذِّباً لتعذيب أهلها.

فقال أبو الأشدَّينِ الجُمَحيُّ وكانَ قوياً شديد البأس: أنا أكفيكُمْ سبعةَ عشرَ، واكفوني أنتم اثنين، فأنزل الله قوله في السورة:

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

● أي: وما جعلنا عدَدَ المُشرِفين على تعذيب المعذَّبين في سقَر مُحدَّداً بمقدارٍ قليلٍ هو تسعةَ عشر إلا امتحاناً فيه إغراءُ الذينَ كفروا بالاستهانة بهذا العدد القليل، حتى قال أبو الأشدَّين ما قال، وهذا الامتحانُ الإغرائي أحدُ معاني الفتنة، وأحدُ صُور الابتلاء.

● ولدفع توهُّم أنَّ هؤلاء التسعة عشر أمثالُ البشر، أبان الله عز وجل أنَّهم ملائكة، والمشركونَ يعلَمُونَ أنّ الملائكة أصحاب قوىً عظيمة، فمنهم مَنْ يُدمِّرُ المُدُنَ ويَنْسِف الجبال نسفاً.

● وأضاف في أواخر الآية قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ أي: إنّ هؤلاء التسعة عشر من الملائكة الذين هُمُ المشرفون على تعذيبِ المعذَّبين في سَقَرَ هُمْ بعضُ جُنُودِ رَبّك، أمّا سائر جنوده فهُمْ كثيرون جدّاً، ولا يعلَمُهُم جميعاً ولا يعلم أعدادهم إلا الله وحده.

● وهذه الفتنة نَفْسُها تجعلُ الذين أُوتوا الكتاب من علماء اليهود والنصارى يستَيْقِنُون بأنّ القرآن حقٌّ وأنّ الرسول محمداً صادقٌ فيما يُبَلِّغُ عن ربّه، إذْ هُمْ يعلمون من كُتبهم هذا الْعَدَد، ولكنّ الذين كفروا منهم يجحدون ولا يعترفُون في ألسنتهم بما اسْتَيْقَنَتْهُ قلوبهم، وفي بيان استيقانهم

قال الله عز وجل: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وهذه العبارة بدَلٌ من عبارة ﴿فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ في الآية.

● وهذه الفتنة نفسُها تجعل الذين آمنوا يَزدادون إيماناً، إذْ تُثيرَ فيهم الخوف من عذاب الله الشديد يوم الدين، فقال الله عز وجل: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾.

● وتشكيكُ المشكِّكينَ من المشركين في توهُّماتهم حول هذا الموضوع لا يُؤَثِّرُ على يقين عُلماءِ أهل الكتاب، ولا على الذين آمنوا، إذْ هي لا تجعل قلوبَهُمْ ترتاب، فقال الله عز وجل: ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

ولكنَّ الذينَ في قُلوبهم مرضُ النفاق أو ما هو قريبٌ منه، وكذلك سائر الكافرين من غير طارحي التشكيك السابق، فإنّهم كما أبان الله عز وجل يقولون: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾؟ أي: إنهم يتأثرون بتشكيكات المشكِّكين من المشركين، فيقولون: إذا كان التسعة عشر الذين ذكرهم الله في القرآن قد جعلهم مثلاً من جنوده الكثيرين الذين يُعذِّبون مُستحقّي العذاب من عباده، فما هو المراد من بيان كونِهِمْ تِسعَةَ عشر؟ وهلْ لهذا العدد سِرٌّ خاصٌّ حتى يُختارَ دون غيرِه من الأعداد؟

● وهكذا يطرحون تساؤلاتٍ لا علاقة لها بأصل الموضوع، إذ البيان يدور حول إنذار المكذّبين بالرسول وبالقرآن وبيوم الدين، بأنهم سيُعذَّبونَ يوم الدين في سَقَر التي يُشْرِفُ على التعذيب فيها تسعةَ عشر. إنه لو كان المشرف على تعذيبهم فيها ملكاً واحداً أو أكثر إلى ما لا حصر له، فإنَّ ذلك لا يُغيِّر من أصل القضية شيئاً، إذ يكفي مَلَكٌ واحد يُعْطيه الله القدرة على تعذيب كلّ الكائنات الحية لو شاء الله ذلك، بل يكفي أمْرُ الله بالتعذيب دون وساطة أحدٍ من مخلوقاته.

● أما السؤال عن الحكمة الرّبانيّة من تحديد عدّة «التسعة عشر» فهو يجرُّ أسئلة لا حصر لها، حول أنظمة الله عز وجل في الأعداد التي جعلَها ضمن أنظمته التكوينيّة للكائنات كلّها، كأعداد السماوات السَّبْع، وأعداد أبواب جهنم، وأعداد أبواب الجنّة، إلى غير ذلك من كلّ ما هو خاضعٌ لأنظمة عددية، مما يلاحظه العلماء في العناصر الكونية، وفي الذرّات، وفي الخلايا، وفي الحواس، وفي أنظمة العظام والسُّلاميّات والأسنان إلى ما لا تستطيع الخلائق حصره.

● وأخيراً فإنَّ هذه الفتنة الاختباريّة ينتج عنها ظهورُ فريقين من الممتَحَنِين.

الأول: فريق يَضِلُّ باختياره الحرّ، فيُضِلُّهُ الله بحِكْمَتِه، أي: يحكُمُ عليه بالضَّلال، استناداً إلى واقع حاله، وحُكْمُ الله عزّ وجلّ بضلال هذ الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة، التي لا يجبره عليها شيءٌ، لكن تقتضيها حكمتُهُ، ومعلومٌ أنّ حكمته من صفاته سبحانه.

الثاني: فريقٌ يهتدي إلى الحقّ ويؤمن باختياره الحرّ، فيهديه الله بحكمته، أي: يحكُم له بالهداية، استناداً إلى واقع حاله، وحكمُ الله بهداية هذا الفريق يتمّ بمشيئته المطلقة، التي لا يجبره عليها شيءٌ، لكن تقتضيها حِكمَتُه، ومعلومٌ أن حكمته من صفاته سبحانه.

فقال الله عزّ وجلّ: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: كذلك الحكم على الذين كفروا في هذه الفتنة الاختباريّة في موضوع الملائكة التسعة عشر بالضلال، والحكم لِلّذين آمنوا بالهداية، والّذينَ دلَّ عليهما ذكرُ فريق بعنوان: «الذين كفروا» وذكرُ فريقٍ آخرَ بعنوان: «الذينَ آمنوا» ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾ أي: في سائر صُور الاختبار في الحياة الدنيا للمكلّفين من ذَوي الإراداتِ الحرَّة الموضوعين موضع الابتلاء فيها.

قول الله عز وجل في آخر الآية: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ أي: وما سَقَرُ إذْ نتحدَّث عنها وعن صفاتها إلا ذكرى للبشر، أي: لغرض أن يكونَ العِلْمُ بها لدى المؤمنين المتقين مُسْتِقرّاً في ذاكراتهم، يستدعُونَهُ عند المناسبات، فإذا تذكّرُوها كانت دافعةً لهم عن طريق اختيارهمُ الحرّ إلى أن يتّقُوا المعاصيَ والمخالفات التي تجعلُ مُرْتكبيها يستحقُّونَ عذابَ الله فيها.

النص الثاني:

وجاء في سورة [القمر/ ٥٤ مصحف/ ٣٧ نزول] عرض لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، وجاء فيها بيان امتحان الله لهم بإجابة طلبهم أن يُخْرِجَ لهم بدعاء رسولهم ناقةً وصفُوها من صخرة عيّنوها، ولمّا أجاب الله طلبهم جعل للناقة في حياتها بينهم شروطاً قاسيةً عليهم في طعامها وشرابها فتنةً لهم، أي: امتحاناً قاسياً، فلم يصبروا على شروطها فعقروها فأهلكهم الله، قال الله عزّ وجلّ فيها، حكايةً لما خاطب به صالحاً عليه السلام:

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ ۖ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾.

فِتْنَةً لَهُمْ: أي: امتحاناً واختباراً.

قِسمَةٌ بينهم: أي: بينهم وبين الناقة لهم شِرْبٌ يَوْمٍ معلوم، ولها شِربُ يوم معلوم.

فتعاطَى: أي: فتطاول قائماً على أطراف أصابع قدميْه ورافعاً يديه إلى الشيء، ليتناوله أو لِيُصيبه.

فَعَقَر: عَقْرُ الناقة أو البعير: قطع إحدى قوائمه ليسقُط فيُنحَر. فدَلّ

تعاطيه حتى يَصِلَ إلى قطع إحدى قوائمها على أنَّها ناقة عظيمة جداً، إذْ مكان عَقْرِها من إحدى قوائمها أعلى من قامَةِ عاقِرِها مادّاً يديهِ وواقفاً على أطراف أصابعه، وهذا يدلُّ على أنْ نِصْفَ قائمتها أطولُ من مِتْرَيْن تقريباً.

كَهَشِيم الْمُحتَظِر: أي: كأعواد الحطب التي يجمعها من يُريد إقامَة حَظيرَة لدوابّه أو أنعامه.

فدلَّ هذا النص على أن الله عز وجل امتحن قوم صالح بهذه الناقة التي أخرجها لهم بطريقة خارقة للعادة، وجعل شروط حياتها فيهم شروطاً قاسية عليهم، فسقطوا في الامتحان وأصَرُّوا على كفرهم فأهلكهم، وأنجى صالحاً والذين آمنوا معه.

النص الثالث:

وفي سورة [ص/ ٣٨ مصحف/ ٣٨ نزول] أبان الله عز وجل أنَّه فَتَنَ، أي: امتحنَ كلاًّ من داود وابنه سليمان عليهما السلام، ودلَّ دَاودَ على أنّه لم يعمَلْ ما كان ينبغي له، عن طريق الخصمَيْن اللّذَين استفتَيَاهُ إذْ دخلا عليه وهو في خلوته، وهما من الملائكة جاءوا على صورة بشَر متعدّيَيْنِ الأسوارَ المحصنة المحروسة. فقال تعالى فيها:

﴿... وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾.

أما سُليمان عليه السلام فقال تعالى بشأنه:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾.

فتَنَّا سُليمانَ: أي: امتحنَّاه، وكان ما امتحنه الله به شديداً على نفسه، فقد رأى فيه أنّ مُلْكَهُ قد انتزِعَ مِنه.

النص الرابع:

في سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] جاء بيان خطاب الله عز وجل بني آدم منذ عهد آدم وإلى أن تقوم الساعة، فحذَّرهم من أن يفتِنَهُم الشيطان كما فَتَنَ أبويهم فأخرجهُما من الجنة، والفِتنةُ هنا هي بمعنى الإغواء والإغراء للإخراج عن صراط الله المستقيم، وهذا المعنى لا يخرُجُ عن أصلِ معنى الامتحان لأنَّ ما يُغريهم الشيطانُ به هو من العناصر التي جعلَهَا الله في كونه للابتلاء والاختبار.

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

النص الخامس:

وفي سورة [الأعراف/ ٧ مصحف/ ٣٩ نزول] أيضاً عرضَ الله عز وجل ضمن قصة موسى وبني إسرائيل بياناً عن الميقات الثاني ميقات الاعتذار الذي اختار موسى عليه السلام له خلاصة قومه وصفوتَهُمْ وكانوا سبعين رجلاً، فلمّا حضروا إلى جانب جبل الطُّور أخذَتْهُمُ الرَّجفةُ الإنذارية التأديبيّة، فخافَ موسى عليه السلام أن تكون هذه الرجفة لإهلاكهم، فأسرَع دون رَويَّة إذْ جعلَ الله في طبعِه حِدَّةً تغلبه، فقال: ﴿رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ﴾؟.

وعَقِبَ ذلكَ مُباشرةً فَاءَ إلى رُشدِه، وتَنَبَّهَ إلى تَسَرُّعِهِ في الاعتراض الذي انطلَقَ بحِدَّتِه دون رَوِيّة، فتجاوز ما قال مُستدرِكاً كأنَّهُ لم يقُلْه، فقال: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا﴾ ودعا ربَّهُ بعدَ ذلك.

أي: ما كُلُّ ما نحنُ فيه أنا وقومي وسائرُ الناس إلا امتحانٌ منك، فمن ضلّ باختياره الحرّ حكمْتَ عليه بالضّلال بمشيئتك الحكيمة، ومن اهتدى باختياره الحرّ حكمتَ لَهُ بالهداية بمشيئتك الحكيمة.

قال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ (١٥٥) وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ... (١٥٦)﴾.

إنّا هُدْنا إليك: أي: إنَّا تُبنا ورجَعنا إليكَ، يقال لغة: هادَ يَهودُ هَوْداً، إذا تابَ وأنابَ ورجَعَ إلى صراط الحقّ والهُدى.

النص السادس:

قول الله عز وجل في سورة [الجنّ/ ٧٢ مصحف/ ٤٠ نزول]:

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ... (١٧)﴾.

ماءً غَدَقاً: أي: ماءً كثيراً.

لنفتِنَهُمْ فيه: أي: لنبتليَهُمْ ونمتحنَهُمْ فيه.

الماء: هو العنصر اللازم بحسب نظام الله في الخلق لكلّ شيءٍ حيٍّ، من نباتات وحيوانات، فالامتحان بالماء هو امتحان به مباشرةً لحاجات الأحياء إليه في شرابها وطعامها وطهارتها ونظافتها وأنواع مُتعتِها وزينتها، وامتحانٌ بكلّ ما يخلُق الله منه من نباتٍ وحيوان.

النص السابع:

وجاء في سورة [الفرقان/ ٢٥ مصحف/ ٤٢ نزول] بيان اعتراض المشركين على بشريّةِ الرسول محمد ﷺ، وتكذيبهم له، وتقديم مقترحات

رأوا أنها لازمة حتى يُسلِّموا بأنه رسولٌ صادقٌ أرسلهُ الله حقاً، وربما أحزَنَ الرسولَ هذا الأمرُ، فقال الله عز وجل له فيها مسلّياً ومبيناً له أنه مُمتَحَنٌ كسائر الممتحنين، فعلاقات الناس بعضهم ببعض إحدى موادّ الامتحان في ظروف الحياة الدنيا فقال الله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾.

النص الثامن:

وجاء في سورة [طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول] عرض لقطات من قصة موسى وقومه، وفي هذا العرض أبانَ الله عز وجلّ أنهُ قال لموسى عليه السلام إذ كلّمه بجانب الطور، وكلّفه أن يذهب رسولاً إلى فرعون وقومه وهو راجعٌ بأهله من أهل مدين:

﴿... وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ... ﴿٤٠﴾﴾.

أي: وامتحنّاكَ امتحاناً شديداً، فنجحْتَ في الامتحان.

وجاء في هذا العرض بيان أنّ الله عز وجل قال لموسى عليه السلام في لقاء الميقات الأول بعد خروجه مع قومه من مصر، وإهلاك فرعون وجنوده:

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾.

أي: قد امتحنّاهم، بعِجلٍ ذهبيٍّ له خُوار صنعهُ السامِريُّ لهم، وأوهمهم أنه هو إلّه موسى.

لكنَّ هارون عليه السلام قال لهم كما أخبرنا الله فيها:

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾.

إنما فُتنتُمْ به: أي: ما فُتنتم فتنةَ إغراءٍ فخرجتمْ عن صراطِ الهُدى إلا بهذا العجل الذهبيّ الذي صنعه لكم السامريّ.

النص التاسع:

قول الله عز وجل في سورة [طه/ ٢٠ مصحف/ ٤٥ نزول] أيضاً خطاباً لرسوله فكلّ داعٍ إلى الله من بعده وكلّ مؤمنٍ:

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾.

أي: ولا تَنظُرْ نَظَرَ تطلُّعٍ وحسدٍ وتَشَهٍّ، إلى ما متَّعْنا به أزواجاً (أي: أصنافاً) منهم حالة كون ما متّعناهم به زهرةَ الحياة الدنيا هي سريعة الزوال لا بقاء لها كزهر الأشجار، لنَفْتِنَهُم فيه، أي: لنختبرهُمْ أيشكُرُون ويطيعون الله فيه، أم يَعصُونَ ولا يشكرون. وبعد الامتحان الحساب والجزاء.

ورزقُ ربّكَ خيرٌ وأبقى مما يعطيه الناس من فضول أموالهم، أو رزق ربك في الآخرة في الجنة خيرٌ مما أوتُوه في الدنيا وأبقى في جنسه أو نوعه، لأنّ رزقه يومئذ لا ينفد.

النص العاشر:

وعرض الله عز وجل في سورة [النمل/ ٢٧ مصحف/ ٤٨ نزول] لقطاتٍ من قصة صالح عليه السلام وقومه ثمود، وجاء فيها أن ثموداً قالوا له كما جاء في قوله الله فيها:

﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

اطَّيَّرنا: أي تَطَيَّرنا، بمعنى تشاءمْنا بك وبمن معك، إذ نزلتْ بهم عوامل قحط وجَدْبٍ ومصائب في الأموال والأنفس، فزعموا أن ما نزل بهم

قد كان بسبب دعوة صالح لهم إلى الدين الذي جاءهم به، ومخالفة العقيدة الوثنية.

قال طائركم عند الله: الطائر: يأتي بمعنى الحظ والنصيب من الخير أو الشرّ، سواءً أكان ابتلاءً ابتداءً، أو تربيةً وتأديباً، أو جزاءً للتذكير والإنذار. ويأتي بمعنى ما يتفاءلُ به الإنسان أو يتشاءم.

فقول صالح عليه السلام لهم: «طائرُكم عند الله» أي: حظُّكمْ من الخير أو من الشر عند الله، فهو الذي يُنزله بكم بحكمته، إما لامتحانكم، أو لتأديبكم وتربيتكم أو ليجزيكم على أعمالكم جزاءً معجَّلاً للتذكير، والإنذار بالعذاب الأكبر.

بل أنتُمْ قومٌ تُفتَنون: أي: تُمنحون وتُختبَرون بما كرهتم ممّا تشاءَمتُم به. أو تُفتنون بمعنى تُصرفون عن معرفة الحق بإغراء الشيطان إذ يوحي إليكم أنّ ما نزل بكم قد كان بسبب رسولكم والذين آمنوا معه، والمعنى على هذا أنهم امتُحِنوا فأغراهم الشيطان فصرفهم عن الحق والإيمان به.

النص الحادي عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الإسراء/ ١٧ مصحف/ ٥٠ نزول] خطاباً لرسوله محمد ﷺ:

﴿... وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾.

وما جعلنا الرُّؤيا التي أريناكَ: هي ما شاهده الرسولُ ﷺ ليلة الإسراء شهوداً ببصره.

إلا فِتنةً للناس: أي: إلا امتحاناً واختباراً، فمن كان صادق الإيمان بالله ورسوله لم يُشكَّ بأن ما جرى للرسول محمد ﷺ ليلة أسرِيَ به حقٌّ

وصِدق، ومن كان كافراً وتأكّدَ له أن ما يخبِرُ به الرسولُ حقٌّ وصِدقٌ مطابقٌ للواقع زعَمَ أنهُ سِحرٌ، ولم يُصَدِّقْ بأن الله قد أسرى به فعلاً إسراءً بالجسد والروح معاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في ليلة واحدة.

والشجرة الملعونَةَ في القُرآنِ: هي شجرة الزَّقُّوم التي تنبتُ في أصلِ الجحيم، وقد جعلها الله في جهنَمَ طعامَ الأثيم، وهي أيضاً فِتنةٌ، ونفهم من كونها فتنةً معنيين:

الأول: أنّ الإخبار بها امتحانٌ يُقابله المؤمنون بالتصديق، إيماناً بأنّ الله قادِرٌ على أن يُنبت في داخل النار شجراً، فيزيدون إيماناً وتسليماً، ويقابله الكافرون بالتكذيب قائلين: كيفَ تنبتُ أشجارٌ في داخل النار، زاعمين أن النظام الذي يُشاهدونه للنبات في الأرض نظامٌ واجب بطبعه، وليس نظاماً وضعه الله له، فيزيدون بتكذيبهم كُفراً.

الثاني: أنّ شجرة الزَّقُّوم نفسها يعذبُ الله بها الظالمين في الجحيم يوم الدين، وقد سبقَ أن عرفنا أن التحريق والتعذيبَ من المعاني التي تدلُّ عليها مادّة الفتنة، وعلى هذا المعنى يُحمَل قول الله عزّ وجلّ بشأن شجرة الزقوم في سورة [الصّافات/ ٣٧ مصحف/ ٥٦ نزول]:

﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ أي: لسائلاً مخلوطاً من عناصر في ماءٍ شديد الحرارة.

النص الثاني عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ

﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾.

ثم لم تَكُنْ فِتنتُهُمْ: الفتنةُ هنا هي بمعنى الادّعاء الكاذب، بغية الاعتذار والتهرُّبِ من الإدانةِ بشركهم الذي كان منهم في الحياة الدنيا، فالنص يتحدث عن حالهم يوم الحساب والجزاء في الآخرة.

قالوا: هذه الآية مدنية مضمومة إلى سورةٍ مكيّة.

النص الثالث عشر:

طلب كبراء مشركي مكة من الرسول ﷺ أن يطرُد عن مجالسه فقراءَ المؤمنين حتى يتَّبعُوه، ازدراءً منهم لهؤلاء المؤمنين الفقراء والضعفاء، واستكباراً عن أن يتساوَوا معهم في المجلس، فأنزل الله عز وجل على رسوله قوله في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/ ٥٥ نزول]:

﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي: ما عليك من حساب الناس من شيء إذا كفروا ولم يؤمنوا، بل كلُّ واحد منهم يحاسَبُ عن نفسه، فلا تَطرُدَ الفقراء طمعاً بإيمان الكبراء الأغنياء لتتخلص من مسؤولية محاسبتِكَ على عدم إيمانهم، إذ لا تحمِلُ أنت من حسابهم شيئاً، وبما أنك تقوم بواجب التبليغ فإن عليهم أن يتبَلَّغوا ويشاركوا في مجالس التبليغ سائرَ طالبي الهداية.

وأنت مسؤول عن تبليغ دين الله للجميع على سواء، فقراء الناس

وأغنيائهم، ضعفاء الناس وساداتهم، فإذا طردتَ الفقراءَ والضعفاءَ وأبعدتهم عن مجالسك استجابةً لطلب الأغنياء والكبراء، فإنك تعرّض نفسك للمحاسبة والمؤاخذة على إبعادهم عن مجالس العلم الديني، الذي أمرك ربُّك بتبليغه للناس دون تمييز ولا تخصيص، وإن أغنياء المشركين وكبراءَهم الذين تريد إرضاءهم والاستجابة لِطَلِبهِم ليُسلموا لا يحملون عنك من مسؤولية الحساب شيئاً، بل سَتُدان وحدكَ بطرد الفقراء والضعفاء وعدمِ تبليغهم دين ربّهم.

وعلى هاتين القاعدتين من قواعد المسؤولية والمحاسبة جاء التفريعُ بقول الله عز وجل لرسوله: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: فطرد الفقراء بعد بيان هاتين القاعدتين ظُلمٌ، فلا تستجبْ لطلب الأغنياء والكبراء فتطرُدَ الفقراءَ والضعفاءَ فتكونَ بطردهم من الظالمين.

بعد هذا أبان الله أن من سُنَّتِه في الاجتماع البشري امتحانَ الناس بعضهم ببعض، ومنه امتحان الأغنياء والكبراء بالفُقَراء والضعفاء، وبالعكس، فقال الله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ أي: وكذلك الامتحان الذي جرى لأغنياء المشركين وكبرائهم تُجاهَ فقراءِ المؤمنين وضعفائهم، فتنّا «= امتحنا» بعض الناس ببعض، ليقول الأغنياء والكبراء أهؤلاء الفقراء والضعفاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟! وجاء الجواب الرّباني: أليس اللَّهُ بِأَعْلَمَ بالشاكرين؟!!

النص الرابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الزمر/ ٣٩ مصحف/ ٥٩ نزول]:

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

خوَّلناهُ نِعمةً مِنّا: وهبناهُ وملّكناهُ نعمةً منّا.

بل هي فِتْنة: أي: بل النعمة التي وهبناها له وملّكناه إياها إنما هي فتنة، أي: ابتلاء وامتحان.

فمن خلائق الإنسان أنه إذا مسَّهُ ضُرٌّ دعا ربّه، ثم إذا أنعم الله عليه بنعمة زعم أنه إنما أصابها بعلمه ومهارته وقُدرته على كسب المال، وتحصيلِ ما يلذُّه ويُمتعه ويَسُرُّه.

فردّ الله عليه بأنّ ما خوَّله إياه من نعمة إنما كان لابتلائه واختباره، كما أنه لم يكن بعلمه ومهارته، بل بعطاءٍ من الله له.

وهذه الحقائق لا يعلمها أكثر الناس، بحسب تعلُّقهمْ بالأسباب دون مُسببها.

النص الخامس عشر:

تحدّث الله عز وجل عن الكافرين إبانَ نزول القرآن، وأنذرهم بعذاب كبير، يومَ تأتي السماءُ بدخانٍ مُبينٍ يغشى الناسَ هذا عذابٌ أليمٌ، وأعقبهُ بقوله عز وجل في سورة [الدخان/ ٤٤ مصحف/ ٦٤ نزول]:

﴿۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾﴾.

أي: ولقدْ امتحنَّا قبلهم قومَ فِرعونَ، فكذّبوا رسول ربهم، فأهلكهم الله.

النص السادس عشر:

قول الله عز وجل في سورة [الأنبياء/ ٢١ مصحف/ ٧٣ نزول]:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

سبق في مادة (الابتلاء) شرح هذه الآية:

وفي أواخر هذه السورة علّم الله رسولَهُ أن يُنذرَ من يتولى عن دعوته،

وأن يُبَيّن لهم أنه لا يدري أقريب أم بعيدٌ ما يُوعَدون، وأنه لا يدري لعلَّ الله قضى بأن يؤخّر أجلَ تعذيبهم ليُطيلَ مُدَّة امتحانهم، ويمتّعهم في الحياة الدنيا إلى حين، فقال الله عز وجل فيها:

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾.

فتنةٌ لكمْ: أي: ابتلاءٌ لكم وامتحان.

النص السابع عشر:

قول الله عز وجل في سورة [العنكبوت/ ٢٩ مصحف/ ٤٩ نزول]:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾.

أي: أحسِبَ الناس الذين آمنوا أن يقولوا: آمنّا وهم لا يُمتَحنونَ بما يكرهون من صنوف بلاء، ولقد امتحنّا بصنوف من البلاء الذين آمنوا من قبلهم، إذْ هذا الامتحان هو من السّنن الربانية الثابتة في كل الأمم الحاضرة والماضية والآتية، لهذا جاء في النص: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾؟ وهو استفهام إنكاريّ.

النص الثامن عشر:

وجاء في سورة [البقرة/ ٢ مصحف/ ٨٧ نزول] بيانُ أنَّ الله عزّ وجلَّ أنزلَ على المَلَكيْنِ ببابلَ هاروتَ وماروتَ علماً ذا تأثيرِ غيبيّ شبيهٍ بتأثير السِّحْرِ، وأنَّهما كانا يُعَلمانِ هذا العِلْمَ، وما يعلّمانِ منْ أحدٍ حتى يقولا إنما نَحْنُ فِتنةٌ فلا تكفرْ، أي: إنما نُعَلِّمُ عِلْماً فيه امتحانٌ لمن يتعلَّمُهُ إذْ قد يُستعمَلُ في الخيرِ والتأليف بين المرءِ وزوجهِ، وقد يُستعملُ في الشرّ

والتفريق بين المرءِ وزوجه، والأعمال التي تُستخدمُ لتحقيق المقاصد بمقتضى هذا العِلْم منها أعمالٌ صالحةٌ ليس فيها معصية لله عز وجل، ومنها أعمالٌ فاسدَةٌ فيها معصيةٌ لله من مستوىً يُوصِلُ إلى الكفر، وكانا يُحذّران المتعلّم من الكفر ومن كلّ ما يوصل إليه.

لكنّ الذين كانوا يتعلّمونَ منهما كانوا يتعلّمُونَ منهما ما يَضُرُّ ولا ينفع لفساد نفوس الناس.

فقال الله عز وجل فيها في معرض الكلام على فريق من اليهود:

﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِي ٱلْأٓخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾.

فدلَّ هذا النصّ على أنّه ما من وسيلة في الكَونِ ظاهِرَةٍ كالوسائل المادّيّة المشهودة للناس بالحواس الظاهرة ووسائلها، أو خفيّة كأعمالِ السّحر وأعمالٍ شبيهةٍ بالسّحر، وهي ما كان يُعلّمه الملكان هاروت وماروت، إلاّ وهي قابلة لأن تُستعمَل في الخيرِ ولأن تستعمَل في الشّر، إلا أنَّ الناس بالنسبة إلى الوسائل الخفية تغلبهم نزعات الإثم والعدوان فيستعملون الوسائل الخفية في الشر، وربما استعملوا منها ما فيه كُفْرٌ أو يُوصِلُ إلى الكُفر.

وامتحانُ من يتعلّمُها امتحانٌ صعْبٌ جداً قلّما ينجو منه أحد، ولذلك حرّم الإسلام السّحر، وجاء في بيان الرسول ﷺ أن الساحر يُقتَل، وقد تعلّم فريق من اليهود السِّحرَ فكفروا وصنعوا شروراً كثيرة، واستخدموه في

الإضرار بعباد الله، وهُمْ آمِنونَ من التعرّض للإدانة من قبل الحكام من البشر، لكنّ الله يتولى معاقبتهم، فالساحر لا يُفلح حيثُ أتى.

النص التاسع عشر:

وفي سورة [الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول] خاطب الله عز وجل الذين آمنوا بقوله:

﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾.

واتَّقُوا فِتنَةً: أي: واتقوا عِقاباً مؤلماً لكم لا يَقتَصرُ على إصابة الظالمين منكم فقط، بل يَعُمُّ الظالمين وغيرهم، فيكون للظالمينَ عقاباً، ويكون لغير الظالمين امتحاناً واختباراً، أو تربيةً وتأديباً.

فلفظ الفتنة في هذا النص مستعمل بمعنى العقاب بدليل ما جاء في الآية من أنها لا تُصيبُ الذين ظلموا خاصة، ومن تذييلها بقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾.

النص العشرون:

قول الله عز وجل في سور [الأنفال/ ٨ مصحف/ ٨٨ نزول] أيضاً خطاباً للذينَ آمنوا:

﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾.

فِتْنةٌ: أي: إنما أموالكم وأولادُكم من عناصر امتحانكم وابتلائكم في ظروف الحياة الدنيا، فإذا التزمتُمْ بطاعة الله عز وجل كانَ لكم عندهُ أجرٌ عظيم.

ونظيره ما جاء في الآية (١٥) من سورة [التغابن/ ٦٤ مصحف/ ١٠٨ نزول].

النص الحادي والعشرون:

ما جاء في الآية (٩١) من سورة [النِّساء/ ٤ مصحف/ ٩٢ نزول] فلفظ الفتنة الوارد فيها هو بمعنى الابتلاء والاختبار.

النص الثاني والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [الحج/ ٢٢ مصحف/ ١٠٣ نزول]:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾.

وإنْ أصابتهُ فتنةٌ: أي: وإنْ أصابتهُ مصيبةٌ لاختباره وابتلائِهِ.

وجاء في الآية (٥٣) منها لفظ الفتنة بمعنى الاختبار والابتلاء.

النص الثالث والعشرون:

قول الله عز وجل في سورة [المائدة ج/ ٥ مصحف/ ١١٢ نزول] خطاباً لرسوله:

﴿... وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا... ﴿٤١﴾﴾.

أي: ومن يُردِ الله امتحانَهُ في ظروف هذه الحياة الدّنيا لكشفِ ما في نفسه من خيرٍ وطاعة، أو شرٍّ ومعصية، فلنْ تملِكَ لَهُ من الله شيئاً لهدايته هدايةً جبريَّة، لأنَّ من شروط الامتحان منحَ الإرادة الحرّة.

خاتمة هذا الملحق:

بهذا العرض الاستقرائي التَّدَبُّريّ ظهَرَ لنا التطابُق بين ما جاء من مادّة «الابتلاء» ومادة «الفتنة» في أنّ معظمه مُستعمَلٌ للدلالة على معنى الامتحان والاختبار، وأنَّ كُلَّ ما في الحياة الدّنيا ممّا يخضع سُلوكُ الإنسان تُجاهه للإرادة الحرّة هو مادّةٌ من موادّ الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا، سواءٌ أكان هذا السلوك سلوكاً ظاهراً بالأعمال الجسدية، أو سلوكاً باطناً بالأعمال النفسية أو القلبيّة أو الفِكريّة.

خاتمة المجلدين الرابع والخامس

هذا ما فتح الله به علي من تدبُّرٍ لسورتي (الأعراف) و(الجنّ) وللملاحق التابعةِ لهذا التدبّر، والحمدُ لله على ما تفضّل عليّ ومَنَّ، إنه جزيل العطاء، وعظيم المِنَنِ.

وكان الفراغ من كتابة المجلّدين الرابع والخامس الجامِعَيْنِ لتدبّر السُّورَتَيْنِ المذكورتَيْنِ آنفاً، ولِمَلاَحِقِهِما، يوم الجمعة/ ٢٧ من شهر رجب ١٤٢٠ هجرية.

الموافق لـ/ ٥/ ١١/ ١٩٩٩ ميلادية.

اللّهمَّ انْفَعْ بما وفقتني لكتابته، وقضَيْتَ لي به، واجْعَلْهُ بفضلك ومَنّك وكَرَمِكَ من صالح الْعَمَلِ الذي تكْتُبُ لي به عندك أجراً عظيماً، وثواباً جزيلاً في جنّات النَعيم يوم الدين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان.

عبد الرحمٰن حسن حبنكه الميداني.



الفهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

سُورَة الجنّ

٧٢ مصحف ٤٠ نزول

الموضوع | الصفحة

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

